الوَيلات المتحدة الأمريكية

شادي عبد السلام

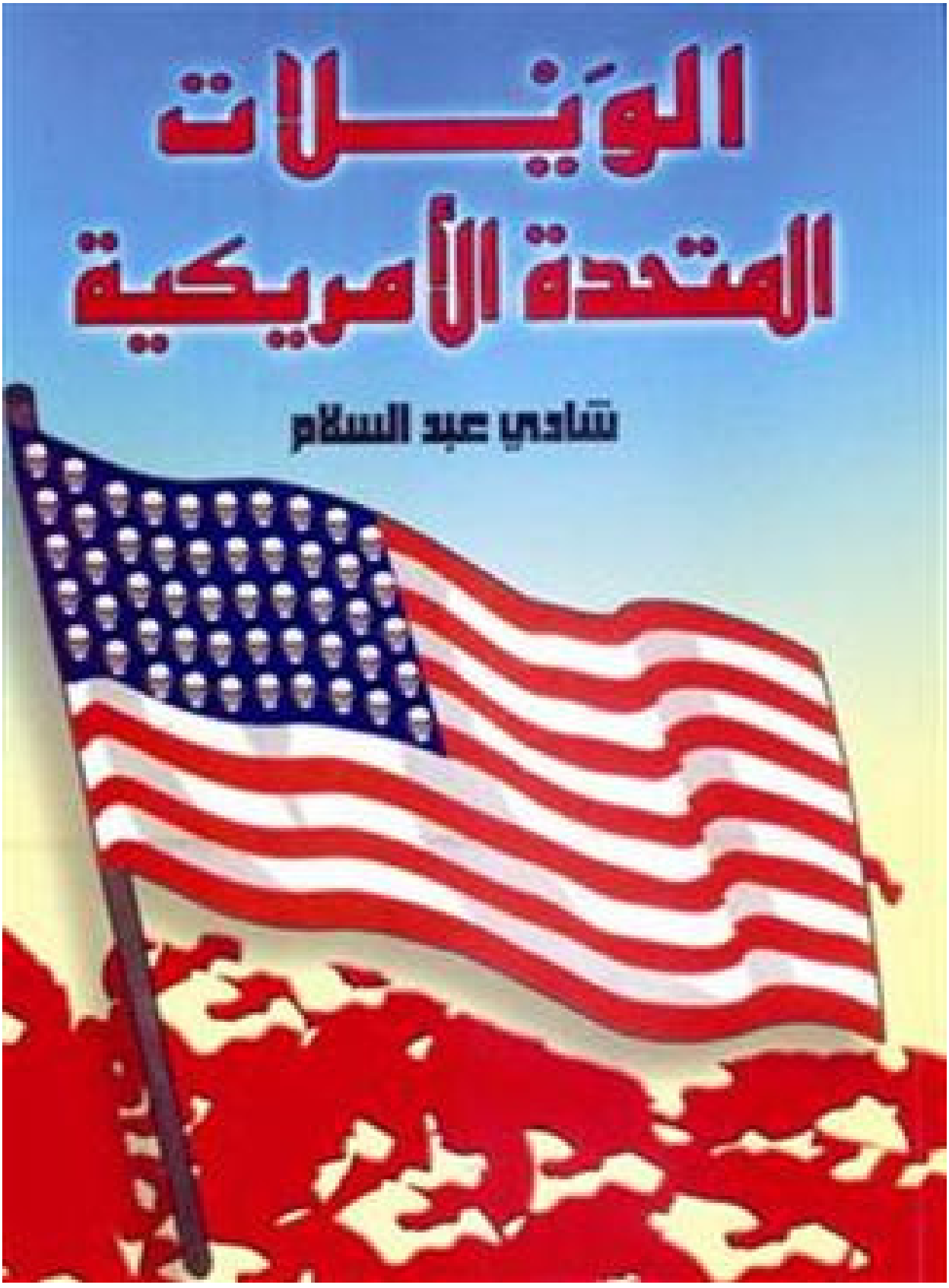

الوَيْـلات المـتحـدة الأمريـكيـة

شادي عبد السلام

إهــداء

إلى الذين يريدون أن يعرفوا ،

فـإذا مـــا عــرفــوا فـهـمـوا ،

وإذا مـــا فـهـمـوا انـفـعلـوا ،

وإذا مـــا انـفـعـلـوا فـعـلـوا ،

وإذا مـــا فـعـلـوا ..

جاءت أفعالهم متناسبة مع

فداحة ما عرفوه وما فهموه .

إلــى ولــدي

عن هذه الدنيا ..

انطباع خاص جدا كان لديك يا ولدي ..

فأحسب أن أول ما يفعله سائر الأطفال عند المجيء إلى الحياة هو البكاء والصراخ ، قل رفضا لهذه الدنيا ، قل تحسرا على أيام العز في بطن الأم ، قل إشفاقا على أنفسهم من متاعب الحياة ، قل ما تشاء أو تظن ..

أما أنت يا ولدي الحبيب ، فلا بكيت ولا صرخت ..

لقد فعلت شيئا أكثر حكمة وأكبر عمقا وأقوى تعبيرا ، لقد فعلت ما لا أظن أن الكثيرين قد سبقوك إليه ..

أحييك يا ولدي على هذه البداية الصحيحة في فهم الدنيا ..

هل تعرف ما فعلت ؟

لقد تبولت عليها !!

* * *

أن تزهد في الدنيا ، وأن تسخر منها ، وأن تشعر بسخافة البشر ، فهذا هو رأس الحكمة وعين الصواب ..

لكن هذا لا يكفي يا بني لمواصلة الحياة ..

ينبغي عليك أن تحاول – رغم كل شئ – أن تفهم ما يدور حولك حتى تستطيع التعامل والتأقلم ..

وأنا سوف أحاول الآن أن أساعدك على هذا ، سوف أحاول أن أقدم لك صورة بسيطة لشكل هذا العالم ساعة مجيئك .. إن هذا قد يساعدك عندما تكبر قليلا على فهمه ، بل وربما تغييره ..

إن **كارل ماركس** ذلك الفيلسوف الألماني له عبارة يقول فيها : " إن الفلاسفة قد أجهدوا أنفسهم في محاولة فهم هذا العالم .. لكنهم نسوا الأهم من ذلك .. تغيير هذا العالم " ..

لكني يا ولدي لا أتفق تماما مع هذا المعنى ، فلكي نغير هذا العالم يا ولدي ، علينا في البداية أن نفهمه ..

* * *

الجدل ..

الجدل يا بني ، فمن بين تعريفات كثيرة لبني الإنسان الذي انتميت إليه مؤخرا يمكنك أن تقول أن الإنسان حيوان مجادل ..

فما الذي كان البشر يتجادلون حوله في مطلع هذا العام الذي انضممت إليهم فيه ؟

* * *

مبدئيا ما كان يشغل رجل الشارع العادي في مصر وفي معظم أنحاء الأرض هو محاولة معرفة السبب الحقيقي وراء رغبة الولايات المتحدة في ضرب العراق وتحرير الشعب العراقي على حد قول الرئيس الأمريكي ، لقد كان رجل الشارع يقارن بين موقف أمريكا من العراق بسبب مزاعم عن امتلاكه أسلحة

نووية وتناقضه الشديد مع موقفها من كوريا الشمالية التي وقفت تتحدى أمريكا وتهدد بضربها بالسلاح النووي إذا ما فكرت مجرد تفكير في أي عدوان من أي نوع ، وهذا هو الفارق يا ولدي بين أن تكون حدودك المشتركة مع روسيا والصين واليابان الرافضين لأي تلميح بضرب كوريا وأن يكون جيرانك هم قطر والبحرين والكويت الفاتحين جيوبهم وأراضيهم للقواعد الجوية والبحرية والبرية الأمريكية على حساب أصحاب السمو والجلالة ملوك وأمراء وسلاطين العرب ..

أما الدافع الحقيقي يا ولدي لضرب العراق ، فقد تفاوتت الآراء بشأنه ، فمنهم من يقول أنه البترول ، ومنهم من يؤكد أنه مبدأ اضرب القصير يخاف الطويل ، ومنهم من يعتقد أن إسرائيل هي المسئولة ، وهناك من يشك أن العجوة العراقي بالبصرة والكوفة هي المحرك الأساسي للغزو لما للبلح من فوائد صحية جليلة ..

* * *

وفي دول العالم المتقدم صار جدل كبير يا ولدي حول أول طفل مستنسخ ولد قبلك بأيام ، وهي طفلة اسمها إيفا – حواء – ، قطعا صارت امرأة شابة الآن – وقت قراءتك – ، لكن يظل الشك حول صحة ما أعلنه العلماء المسئولون عن استنساخها ..

وفي الوقت الذي اشتد فيه الجدل حول خطورة الاستنساخ في ذلك العالم المتقدم بعيدا عنا ، ظهرت عندنا قضية فقهية خطيرة استدعت تدخل شيخ الأزهر والمفتي معا ، وهي هل إذا نادى الرجل زوجته بكلمة ماما على سبيل الدلع تحرم عليه زوجته قياسا بالظهار الذي حرمه الإسلام في بداية ظهوره ، حيث كان الرجل يقول لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي ، أي أنك محرمة عليّ مثل أمي .. وأفتى شيوخنا الأجلاء بأنه يستحسن عدم استخدام هذه الكلمة درءا للشك وأخذا بالأحوط ! ..

* * *

ثم طالعتنا آخر التقارير الاقتصادية في مطلع هذا العام يا ولدي عن زيادة حجم الصادرات الإسرائيلية في عام 2002 إلى دول الخليج العربي بنسبة 53 % عن عام 2001 ، وإذا كان هذا الخبر مثيرا للدهشة وللاشمئزاز وقت كتابتي لهذا الكلام فلا أظنه سيبقى كذلك وقت قراءتك له ، حيث ستدخل سلطنة قطر ومملكة الكويت وإمبراطورية البحرين في اتحاد كونفيدرالي مع الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تدخل أنت امتحان الابتدائية ..

* * *

ولا يفوتني أن أخبرك بمناسبة الابتدائية أنهم في مجلس الشعب يناقشون الآن قرار وزير التعليم بمد فترة الثانوية العامة إلى ثلاث سنوات ، وكم أتمنى لو تم إلغاء وزارة التعليم ومجلس الشعب على أيامك مثلما تم إلغاء وزارة الاقتصاد على أيامي أنا ..

* * *

لكن مجلس الشعب يناقش هذه الأيام يا ولدي قضايا أكثر سخونة من مسألة التعليم – عن الشعب ما اتعلم – ، مثل نهب بعض رجال الأعمال لـ 40 مليار جنيه من البنوك ، ويتملكني فضول شديد كي أعرف كم عدد البنوك التي أشهرت إفلاسها قبل قراءتك لما أكتبه ..

* * *

ولدي الغالي ..

لقد جعلني الله سبحانه وتعالى سببا في وجودك بهذه الدنيا ، وقد جعلتني أنت بقدومك مشاركا في كتابة التاريخ ، فما تاريخ الإنسانية إلا تاريخ الأفراد ، ومن يدري أية مساحة من التاريخ سوف تدون أنت يا ولدي ، مساحة إنسان عادي يولد ويعيش ويموت دون أن يكون له تأثير يُذكر سوى على المحيطين به من الأهل والمعارف ، أم تراها مساحة أكبر وأوضح ، وأي نوع من الوضوح يا ترى ..

عموما .. إنني أهنئ نفسي بك يا ولدي ، فلعلك فيما تبقى لي من العمر تهنئ نفسك بي ..

5 يناير 2003

خـــاتمـــة

قدمت أمريكا الكثير للعالم ..

أسهمت في مجالات العلوم ، وبرز عدد من علمائها في مختلف التخصصات ..

فعرفنا الطيران على أيدي الأخوين **أورفيل وويلبو رايت** ، والمصباح الكهربائي بفضل **توماس إديسون** ، وكان **ويليام مورتون** هو المسئول الأول عن إدخال التخدير في العمليات الجراحية في التاريخ ..

واحتضنت أمريكا العالم الألماني **ألبرت أينشتاين** مكتشف نظريتي النسبية الخاصة والعامة وأهم عالم في التاريخ الحديث بعد **إسحق نيوتن** ومنحته الجنسية الأمريكية ، كما فعلت نفس الشئ مع الاسكتلندي **جراهام بل** مخترع التليفون ..

وبسبب إصرارها ، وطأت قدم الإنسان سطح القمر فاتحة بذلك الباب نحو استكشاف الفضاء الواسع ..

ولأمريكا شأن في الأدب ..

ففي الأدب الساخر برع **مارك توين** ، وفي الشعر تميز **سكوت فيتزجيرالد** ، وفي المسرح ظهر **يوجين أونيل** ، وفي فن القصة والرواية تألق **إرنست همنجواي** و**إدجار آلان بو** و**جون شتاينبك** ، وفي المقال الأدبي برز **رالف والدو إمرسون** و**هنري ديفيد ثورو** و**أوليفر وندل هومز** ..

ولولا أمريكا لما كانت السينما سينما .. والكومبيوتر والإنترنت والأقمار الصناعية ..

لو لم تكن هناك أمريكا ، من يدري ما الذي كان سيحدث بشأن تلك الاختراعات التي سهلت الحياة علينا ، بل وجعلت لها شكلا خاصا جدا .. لقد أتاحت لنا أمريكا هذه الخصوصية ..

ثم هناك البعثات العلمية والمنح الأكاديمية .. تيسر أمريكا فرصا من ذهب للنوابغ من مختلف بقاع الأرض للوصول إلى القمة في المعامل الأمريكية وبالدعم المالي والتكنولوجي في أروع صوره .. توفر أمريكا لطالبي الرزق فرص عمل على أراضيها طالما كانوا مؤهلين لذلك ..

والمعونات الاقتصادية ..

يصل الدعم الأمريكي المادي إلى دول عديدة ، وهو ما يسهم في انتشال البعض من الفقر ، بغض النظر عن دوافع الدعم ..

هيأت أمريكا للعالم العديد من أدواته التي توفر له سبل التقدم في مجالات شتى ..

قدمت أمريكا الكثير للعالم ،

لكنها أخذت منه أكثر بكثير ..

مـــقـــدمـــة

في كتب التاريخ المدرسية ..

كثيرا ما تظهر هذه الأسئلة :

ماذا يحدث لو .. بماذا تفسر ما يلي .. علل لما يأتي .. ما النتائج المترتبة على ..

وإجابات هذه الأسئلة عادة ما تكون في غاية السهولة ، يكفي أن تتصفح الكتاب لتعثر عليها ..

والتاريخ .. هو السياسة ..

ولكن مر عليها بعض الوقت ، فشاخت ودخلت الكتب ..

وإلى حين تدخل السياسة الأمريكية الكتب المدرسية ، دعونا نحاول إجابة الأسئلة من خارج المقرر ..

* * *

التاريخ هو الفرق بين الإنسان الواعي ، وغير الواعي ..

الإنسان غير الواعي لا يرى إلا قطعة الجبن ..

ولكن الإنسان الواعي يرى قطعة الجبن ، ويرى المصيدة ! **أحمد بهاء الدين**

* * *

يذكر لنا التاريخ أن أمريكا أخذت اسمها عن **أميريجو فيسبوتشي** Amerigo Vespucci الرحالة الإيطالي الذي كان يخدم البلاط الإسباني والبرتغالي باعتباره أول من اكتشف أمريكا .. وقد كانت هذه كذبة كبيرة بدأ بها تاريخ العالم الجديد .. فالرحالة الشهير لم ير أمريكا الشمالية ولا مرة واحدة في حياته ، وقد عاش ومات في عام 1512 عن 61 عاما دون أن يعرف أن العالم الجديد من شماله إلى جنوبه سوف يسمى على اسمه .. وواقع الأمر أن **فيسبوتشي** كان واحدا من بين رحالة عديدين قاموا باكتشاف مناطق وجزر مختلفة في الجزء الجنوبي من العالم الجديد .. وفي عام 1522 – أي بعد وفاة **أميريجو فيسبوتشي** بعشر سنوات – قام العالم الجغرافي الألماني **مارتن فالدزمولر** بإصدار خريطة للعالم الجديد ، وتوقف حائرا أمام اسم لتلك الأراضي الجديدة الشاسعة ، ثم توصل لإطلاق اسم الرحالة الإيطالي الراحل على النصف الغربي من الكرة الأرضية وذلك بفضل كتابات **فيسبوتشي** المنتشرة عن الجنوب .. ومن العجيب أننا حين نقول أمريكا اليوم ، فإننا نعني بها الولايات المتحدة – أي قارة أمريكا الشمالية – ، وهو الجزء الذي لم تطأه قدما صاحب الاسم على الإطلاق ! ..

* * *

US اختصار لكل من: Uncle Sam و United States ..

الولايات المتحدة هي تلك الولايات الخمسون التي نعرفها ..

أما العم **سام** فهو أصلا شخصية حقيقية ..

إنه **صمويل ويلسون** من ولاية ماساشوسيتس ..

كان رجلا لطيفا ودودا ، تاجر جملة يبيع اللحم حتى اشتهر بين من يعرفونه باسم العم **سام** (**سام** اختصار **ساموي**ل ونكتبها نحن **صمويل**) ..

وفي عام 1812 كان **صمويل ويلسون** يمد الجيش الأمريكي المحارب (الحرب الأمريكية الإنجليزية) باللحوم ، وكان يشحن بضاعته في صناديق محفور عليها حرفي US ، وكان يقصد بها **ويلسون** أنها خاصة بالجيش الأمريكي وليست للبيع في الأسواق ، حتى يفرق بين الصناديق .. ولم يكن منتشرا في تلك الأيام استخدام حروف USA أو US كناية عن الولايات المتحدة ..

ثم حدث في الأول من أكتوبر عام 1812 أن زار محلات **ويلسون** طاقم تفتيش فيدرالي لمتابعة إمدادات محلاته للجيش بالبضاعة المناسبة ، فوجد أحد أفراد فريق التفتيش هذين الحرفين US على صناديق اللحوم ، فسأل أحد العمال عن المقصود بهذا الاختصار ، فأجابه عن غير يقين بابتسامة أنها لابد تعني العم **سام** كناية عن **صمويل ويلسون** صاحب العمل ..

وسرعان ما انتشر هذا الاختصار بين الجنود والمدنيين ولم يعد هناك فارق واضح مع الوقت بين العم **سام** والولايات المتحدة ..

لكن .. يبدو أن الفارق واضح بين ذلك التاجر الودود المعروف بوداعته ، وبين تلك الحكومات المتعاقبة التي لم تكن الوداعة من بين ما تتصف به ..

على كل حال .. إذا نحينا التفاصيل جانبا ، وأجملنا الحكاية في عبارة واحدة ،

لقلنا أن العم **سام** .. جزار .. بس طيب ! ..

* * *

أمريكا .. أو أميركا .. أو أميريكا .. أو الولايات المتحدة ..

لها تاريخ .. لن أقول أنه أسود .. فالسواد الحالك و البياض الناصع ليسا من صفات التاريخ الإنساني ، ولا من سمات أية مسألة تتعلق بالإنسانية بشكل عام .. لكن بكل ثقة ، نستطيع أن نجزم أن التاريخ يكتبه الأقوياء ، وأن القوة تصنع التاريخ ..

ولأن أمريكا وُلدت قوية ، ولأن القوة تحتاج للحفاظ عليها ، ولأن الحفاظ على القوة يتطلب حماية المصالح التي إن تعرضت للخطر ذهبت القوة وضاعت أمريكا .... فقد ظلت أمريكا ، منذ اكتشافها من 513 سنة (1492)، ومنذ استقلالها من 229 سنة (1776)، تتّبع سياسة وحيدة لا تحيد عنها أبدا .. سياسة السيطرة على كل ما أو مَن يضمن عدم تعرض المصالح الأمريكية المختلفة لأية مخاطر ..

وإذا كانت الحكمة القديمة تقول: إذا أردت أن تسير باستقامة في طريق معوج ، كان عليك أن تهدم بيوتا كثيرة ..

فإن الحكمة الأمريكية كأنها تقول: إذا أردت أن ترسم طريقا للمجد كان عليك أن تغير من شكل الخريطة .

* * *

* * *

* * *

آسف أن يقع الاختيار على النسر الأصلع لكي يكون رمز علم بلادنا ، إنه طائر بلا أخلاق ، شبيه بالرجال الذين يعيشون على الاختلاس والسرقات ، وغالبا ما يكون مليئا بالبراغيث .. إنك لتراه قابعا على شجرة ميتة ، حيث يستبد به الكسل عن صيد سمكة بنفسه ، ويتربص بالصقر العائد ، حتى إذا ما صاد هذا الطائر الكادح سمكة وأراد أن يعود بها إلى وكره ليطعم صغاره ، جدّ النسر الأصلع في إثره حتى يغتصبها منه ..
العالم والفيلسوف الأمريكي **بنيامين فرانكلين** (1706-1790)

* * *

إيه أمريكا المشوقة ، الحانية ، الجائعة ، الهائجة ، المنهمكة ، المحاولة أشياء كثيرة ، المغرورة ، الطامحة إلى الشعور بوجودها ، وإلى إقناع الآخرين بموهبتها بالإقدام على أشياء كثيرة وإنجازها الأمور الكثيرة بعجلة .. أجل ، احبسي أنفاسك وأصلحي من أمرك ، فإذا أخفقت هنا ، حاولي هناك .. ليست العظمة سرعة ولا حمّى ، بل اعتمادا وصفاء وانتظارا .. المفكر الأمريكي **رالف والدو إمرسون** في عام 1846

* * *

كان عبثا منا أن نضم تكساس وكاليفورنيا وألاسكا إلينا ، ونمد رقعة بلادنا شمالا إلى كندا وجنوبا إلى كوبا .. يلوح لي كأننا وُهبنا جسدا عظيما مكتملا ، ولكن بروح هزيلة .. أو بدون روح ..
الأديب الأمريكي **والت ويتمن** في عام 1871

* * *

الآن .. وقد انتهت الحرب ، ودفنّا موتانا .. فقد حان الوقت الصعب الذي يجب أن نحاول فيه فهم أحوال العالم .. لقد خرجت الولايات المتحدة من هذه الحرب كأكبر قوة عسكرية في عالمنا .. فمن الضروري ألا تكون هذه القوى الأكثر كرها عند الشعوب .. فمن بين ما توصلت إليه قواتنا المسلحة أنها نجحت في قتل أعداد من الناس تفوق كل من قُتل في المذابح السابقة مجتمعة .. وقد أصبح في متناولنا الآن – بالقنبلة الذرية – أن نقضي على كل قوى العالم ، بما في ذلك قوتنا .... ولهذا يجب أن نتجنب كل أثر للعقلية الفاشية التي تؤمن بالعنف .. وألا نقع في أخطاء التعاظم والأنانية والانتقام .. وأن نعلم أنفسنا احترام حقوق وامتيازات وواجبات الشعوب الأخرى ..
الأديب الأمريكي **إرنست هيمنجواي** في عام 1945

* * *

أفضّل أن تصير بلادي صديقة لمطالب العدالة الاجتماعية ، لا عدوة لها .. أفضّل أن تعامل بلادي الشيوعيين كبشر يملكون ما يملكه غيرهم من القدرة على فعل الخير والشر ، لا أن يعاملوا كتجسيد لشر مجرّد .. وأفضّل أن أرى بلادي في دور الصديق الحميم ، لا المدرس الصلف المغرور ..

الكاتب والسياسي الأمريكي **جيمس ويليام فولبرايت** في عام 1966

* * *

أعتقد من وجهة النظر القانونية أن هناك ما يكفي من الأدلة لاتهام كل الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بأنهم مجرمو حرب ، أو على الأقل متورطون بدرجة خطيرة في جرائم الحرب ..

المفكر الأمريكي **ناعوم تشومسكي** في عام 1998

* * *

لو كنت الرئيس ، لاستطعت أن أوقف الإرهاب ضد الولايات المتحدة في بضعة أيام قليلة وعلى نحو دائم .. ولتحقيق هذا ، يتعين علىّ أولا الاعتذار لجميع الأرامل واليتامى ، ومن جري إفقارهم وتعذيبهم ، وللملايين العديدة الأخرى من ضحايا السياسة الأمريكية ، ثم يتعين علىّ أن أعلن بكل إخلاص في كل ركن من أركان العالم ، أن تدخلات أمريكا العالمية قد انتهت ، وأن أبلغ إسرائيل بأنها لم تعد الولاية رقم 51 في الولايات المتحدة الأمريكية ، بل أصبحت من الآن فصاعدا بلدا أجنبيا – مهما كانت غرابة ذلك – .. ثم يتعين علىّ بعد ذلك أن أخفض الميزانية العسكرية بمقدار 90 في المائة على الأقل ، وأن أستخدم الوفورات لدفع التعويضات للضحايا ، فسيكون هناك أموال أكثر من اللازم .. إن الميزانية العسكرية في سنة واحدة والتي تبلغ 330 مليار دولار تساوي إنفاق 18 ألف دولار كل ساعة من الساعات التي انقضت منذ مولد المسيح . ذلك ما سأفعله في الأيام الثلاثة الأولى لي في البيت الأبيض ، وفي اليوم الرابع سيتم اغتيالي ! ..

الكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** في عام 2002

* * *

* * *

* * *

ربما يكون من الأفضل أن نترك الفلاسفة والأدباء لحالهم ، فلن يحدث أبدا أن يكون لهم صوت مسموع .. ولنبدأ في استعراض تلك الويلات التي اتحدت مكونة هذه الدولة العظمى على مدى خمسة قرون ..

الكرة الأرضية على مكتبي مثل بلورة سحرية ..

حائر من أين أبدأ .. فالويلات قد طالت الجميع : من اليابان شرقا إلى شيلي غربا ، ومن جنوب أفريقيا جنوبا إلى ألاسكا شمالا ..

ربما يكون من المنطق أن نبدأ من داخل الأراضي الأمريكية ذاتها ثم نخرج إلى الخريطة الواسعة ..

(1)
الهنود الحمر : الإبادة النبيلة !

عندما جاء المبشرون ،

كان لديهم الإنجيل ، وكانت لدينا الأرض ..

علمونا كيف نغمض أعيننا كي نصلي في خشوع ..

وعندما فتحنا أعيننا ،

كنا قد أخذنا الإنجيل ، وكانوا قد أخذوا الأرض ! ..

الزعيم الكيني **جومو كينياتا**

* * *

شأن كل الشعوب البدائية القديمة ، كانت لهم أساطيرهم ..

واحدة من تلك الأساطير تحدثت عن مجيء آلهة بيضاء من الشرق عبر أمواج المحيط .. تأتي الآلهة ومعها الخلاص من جميع الشرور والخطايا .. ولأجل الآلهة المنتظرة ظل الهنود الحمر يجمعون قطع الذهب والمعادن النفيسة ليقدموها قرابين إلى الآلهة حال ظهورها ..

لكنها لم تظهر أبدا ..

وكان من سوء حظهم أن ظهرت – بدلا منها – سفن قادمة من الشرق ، حاملة على متنها رجال بيض .. لم يكونوا آلهة ولم يكونوا شياطين ، بل كانوا بشرا .. نوعية خاصة جدا من البشر .. لا تهم جنسياتهم ، ولا تهم أوطانهم .. فمنذ وطأت أقدامهم القارة الجديدة انتموا إليها وانتمت إليهم .. نزل هؤلاء إلى الشواطئ الجديدة وفوجئوا بالهنود الحمر يسجدون لهم ويقدمون القرابين والذهب هدايا للآلهة البيض .. وبمرور الوقت عرف الوافدون الجدد بأمر الأسطورة الهندية ، فاستغلوا الموقف وأوهموا الهنود الحمر أنهم رسل الآلهة الذين جاءوا لتلقي القرابين اتقاء لغضب الآلهة ، وأحيانا وصل الوهم إلى حد إقناعهم أنهم جاءوا لينقلوهم إلى عالم الآلهة وذلك بقتلهم ، فتنتقل أرواحهم إلى حيث الآلهة فوق السحاب وخلف البحار ! ..

وبدأ الاستعمار .. وبدأت الإبادة ..

وكان من الصعب أن يستمر الهنود الحمر في سذاجتهم ..

* * *

لم تكن مصادفة تاريخية أن تنهار آخر قلاع الدولة الأندلسية المسلمة في إسبانيا بسقوط جرناطة عام 1492 في الوقت الذي ينجح فيه البحار المغامر الإيطالي **كريستوفر كولومبس** برعاية ملكة إسبانيا **إيزابيلا الأولى** في اكتشاف قارة أمريكا في أكتوبر من نفس ذلك العام ..

ولابد أن بقايا الهنود الحمر ينعون حظهم لأن ضعف المسلمين وتداعي دولتهم قد ساهم في انقراضهم ! ..

* * *

كان عدد الهنود الحمر في عام 1492 يزيد على خمسين مليون مواطن (في الأمريكتين معا) وهم الآن لا يتجاوزون الأربعين مليونا معظمهم في أمريكا الوسطى و اللاتينية و لا يزيد عددهم في الولايات المتحدة على 800 ألف ، وكان تعداد سكان أوروبا في عام 1492 حوالي 54 مليون نسمة ، يقتربون الآن من المليار ! ..

* * *

استغرق القضاء على الهنود الحمر حوالي أربعة قرون ، وفي النهاية تم ترويضهم وإخضاعهم للأمر الواقع .. وكان الواقع الأمريكي يقول منذ اللحظة الأولى أن القارة الأمريكية لا مكان فيها للهنود الحمر ..

والسطور التالية تحمل مشاهد متفرقة من تاريخ الإبادة النبيلة التي تمت تحت شعارات كثيرة من بينها نشر المسيحية والحضارة والتعليم ..

* * *

كان أول احتكاك حقيقي مسجل في التاريخ بين الهنود الحمر والمستعمرين الجدد قد وقع في عام 1511 .. في تلك المرحلة المبكرة من الصراع لم يكن صعبا على الهنود أن يقاوموا وأن ينتصروا كذلك في بعض الأحيان .. فلم يكن الوافدون على القارة الجديدة يملكون خبرة كافية بتضاريس المكان ودروبه ، ثم إن الأسلحة في القرن السادس عشر كانت أقل تقدما مما أصبحت عليه في القرون التالية من الصراع ..

ومع ذلك كانت الوحشية هي السمة الأساسية للصراع على البقاء .. وفي صور مخطوط **شامبلين** وتقرير **دو بري** لعام 1599 تظهر جماعة من الكهنة قادمين من جنوب أوروبا وبصحبتهم بعض السادة من محاكم التفتيش ، وتظهرهم الصور وهم يرتدون أردية مزركشة وسترات فخمة وقد علت رؤوسهم قبعات مثنية الأطراف ، وهم يقفون قرب محرقة يُشوى على قضبانها هنود لم يقبلوا الهداية ، فجاء العقاب بحرقهم من أجل الرب ! .. وفي مقتنيات الراهب الإسباني **لاس كاساس** التي تعود إلى عام 1609 نجد رسومات للوافدين الأجانب وهم يشنقون الهنود ويشعلون النار في بيوتهم ، ويصف الراهب الإسباني همجية الوافدين في مذكراته قائلا : " كي يطعموا كلابهم ، كانوا يكبلون الهنود ويقتادونهم ويقتلونهم ، ويجعلون من لحمهم البشري جزارة متنقلة " ..

وفي عام 1624 أرسلت شركة فيرجينيا تقريرا إلى جمعية المساهمين بها في لندن ، وجاء فيه : " إن الخلاص من الهنود الحمر أرخص بكثير من أية محاولة لتمدينهم ، فهم همج ، برابرة ، عراة ، جماعات متفرقة في مواطن مختلفة ، وهذا يجعل تمدينهم صعبا ، لكن النصر عليهم سهل .. وإذا كانت محاولة تمدينهم سوف تأخذ وقتا طويلا ، فإن إبادتهم تختصره .. ووسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة : بالقوة ، بالمفاجأة ، بالتجويع ، بحرق المحاصيل ، بتدمير القوارب والبيوت ، بتمزيق شباك الصيد .. وفي المرحلة الأخيرة المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تخيفهم ، لأنها تنهش جسدهم العاري " ..

لم يصل إلينا الكثير من تفاصيل تلك المعارك سواء في القرن السادس عشر أو في القرن الذي تلاه .. فالقادمون من أوروبا كانوا يأتون عشوائيا بحثا عن الثروة في الأراضي الجديدة ، وكانوا يصطدمون بالهنود أصحاب المكان فتنشب معارك فجائية بلا تخطيط من الجانبين ..

* * *

ولكن بمرور الوقت ، بدأ المستعمرون ينظمون أنفسهم ويشكلون برلمانا ومؤسسات ، وفي وقت لاحق وضع البرلمان تشريعا يسمح بأن تتحول أية رقعة يبلغ عدد سكانها الأحرار من الذكور ستين ألفا إلى ولاية .. وكان هذا النظام إيذانا ببدء مرحلة جديدة من الصراع صارت فيه القوى غير متكافئة بالمرة .. فبالوصول إلى مطلع القرن الثامن عشر كان كل شئ قد تغير .. عدد المستعمرين زاد ، وأسلحتهم تطورت ، وأهدافهم وضحت وصار الهنود مجرد عقبة ثقيلة الظل لم يعد هناك أي داعي لبقائها لما تسببه من إعاقة واضحة للتطور الحضاري المعتاد ! ..

وفي عام 1730 أصدر البرلمان الأمريكي للبروتستانت الأطهار تشريعا يبيح إبادة الهنود الحمر وتقديم مكافأة مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر ، ونصف تلك المكافأة لمن يأتي بفروة طفل أو امرأة .. وكانت هذه علامة فاصلة في تاريخ الهنود الحمر .. فلم يعد الإيقاع بهم وقتلهم مجرد نزوات لبعض المغامرين البيض ، بل أصبح هناك قانون يسمح بذلك ، بل ويمنح مكافآت مجزية من أجل إبادتهم .. وتحول النزاع منذ بدايات ذلك القرن وحتى نهاية القرن التاسع عشر إلى أمرين متلازمين .. أولهما الإصرار الأمريكي على التوسع غربا من أجل استيعاب المهاجرين الجدد والبحث عن الذهب .. وثانيهما هو انتزاع الأراضي من الهنود الحمر غصبا ونقلهم مرة بعد الأخرى في اتجاه الغرب .. وكان ذلك يتم وفقا لمعاهدات صلح يتم إبرامها بين الطرفين بعد أن يكون الهنود قد خسروا المعارك الحربية ..

وكما يقول المؤرخ الأمريكي **توماس بيلي** : " لقد ركز الأمريكيون على مهمة قطع الأشجار والهنود وتوسيع حدودهم الطبيعية .. " ..

بينما قدم المؤرخ **باري لوبيز** مزيدا من التفاصيل قائلا : " كان المستعمرون يقطعون أرجل الأطفال إذا ما حاولوا الهرب .. كما كانوا يتراهنون فيما بينهم على شطر الضحية نصفين بضربة سيف واحدة .. كما قاموا باستخدام الأطفال حديثي الولادة كطعام لكلابهم " ..

وفيما يلي نعرض بعض تلك المآسي التي عاشتها الهنود الحمر في القرنين الثامن والتاسع عشر ..

* * *

في عام 1763 كانت قبيلة هنود الأوتاوا Ottawa بزعامة **بونتياك** – أوتاوا هي عاصمة كندا حاليا بينما أصبح **بونتياك** اسم ماركة سيارات شهيرة ! – قد نجحت في مقاومة البيض ، وخلال أشهر صيف ذلك العام سقطت في أيدي الهنود تسعة حصون تقع بين مسطح البحيرات في الشمال وكاليفورنيا في الجنوب ، كما سقطت مئات المعسكرات والمستعمرات المتفرقة .. وهنا جاء الأمر العسكري للجنرال **جيفري آمهيرست**

بالخلاص من أغطية صوفية كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري بإهدائها إلى الهنود الحمر بهدف نشر المرض بينهم .. انتشر الوباء وأصبح للجنرال الفخر بكونه من أوائل المروجين للحرب الجرثومية في التاريخ ! ..

وفي عام 1779 تم إجلاء قبيلة المورافيان Moravian من موطنها الأصلي في جنادنهوتن بالقرب من مدينة بنسلفانيا في الشمال الشرقي للولايات المتحدة كنتيجة طبيعية للاعتداءات المتواصلة من قبل المستوطنين .. إلا أن الهنود الحمر رجعوا إلى موقع قبيلتهم في أوائل مارس من نفس العام من أجل جمع محصول الذرة الذي كانوا قد زرعوه قبل الرحيل وهم في أشد الحاجة إليه خصوصا مع الحصار الذي يضربه المستوطنين البيض عليهم .. وفي أثناء طريق عودة أفراد القبيلة إلى موقع قريتهم الأصلية – و كان عددهم نحو مائة من الرجال والنساء والأطفال – فوجئوا بضعف عددهم من المستوطنين يحاصرونهم ويعرضون عليهم مرافقتهم إلى قريتهم بشرط أن يسلموهم أسلحتهم ..

لم يكن أمام الهنود الحمر من خيار سوى التصديق ، خاصة وأن أبناء تلك القبيلة قد اعتنقت المسيحية في وقت سابق ولم يتصوروا أن يكذب عليهم مسيحيون مثلهم .. وبالفعل سلمت قبيلة المورافيان أسلحتها وعتادها .. وعندئذ أمر **جون مارتن** قائد المستوطنين رجاله باقتياد الهنود الحمر العزل إلى مكان الإرسالية المسيحية في مدينة بنسلفانيا وهناك أخبروهم بأنهم ينوون قتلهم جميعا صباح يوم التاسع من مارس وذلك عن طريق فصل وتهشيم رؤوسهم بالفؤوس .. قضى الهنود الليل يصلون أملا في النجاة .. ولكن مع إشراقة شمس الصباح بدأ المستوطنون في تقييد أفراد القبيلة كل اثنين في قيد واحد ، ثم اقتادوهم إلى غرفة معزولة ، وأجبروهم على الركوع أمام مذبح صغير ، وشرعوا في تهشيم الرؤوس بالفأس والبلطة ، فقتلوا 28 رجلا و29 امرأة و39 طفلا .. ولم ينج سوى اثنين من الأسرى لأسباب غير معروفة ليقصا للتاريخ تفاصيل تلك المذبحة .. وتكتمل روايتهما بأن أحد المستوطنين قد خرج من غرفة الذبح وطلب من زميل له أن يكمل عملية الذبح بدلا منه ، فناوله فأسا من حديد وقال له في صوت مرهق : " إن ذراعي تؤلمني .. اذهب وافعل ما كنت أفعل .. أعتقد أنني أبليت بلاء حسنا اليوم " .. وكان ذلك بعد أن قام بذبح 14 هنديا في أقل من ساعة ! ..

وبمناسبة الفؤوس ، فإن متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن يضم صفحة من كتاب نادر يعود إلى عام 1789 تصور **مينيرفا** ربة الحكمة والفنون عند الرومان تقدم كتابا لهندي جاثٍ على ركبتيه أمامها ، ويقدم لها في المقابل فأسا هندي الصنع ، وأسفل الصورة تظهر عبارة للشاعر الروماني **أوفيد** تقول : " هذا يجعل سلوك المرء أكثر تهذيبا " .. والمعنى المقصود ، أن أصحاب الحضارة الأوروبية قد انتقلوا إلى العالم الجديد لينشروا العلم والحضارة بين المتوحشين البرابرة بعد أن ينزعوا عنهم فؤوسهم وقسوتهم وتعطشهم للدماء !! .

هذا هو أصدق مثال على أن التاريخ يكتبه الأقوياء ! ..

وفي عام 1790 طمأن **جورج واشنطن** أول رئيس للولايات المتحدة (1789 – 1797) قبائل الشيروكي Cherokee الهندية – الشيروكي هي اسم ماركة سيارات جيب شهيرة حاليا ! – في اجتماع مع ممثليهم قائلا : " لن تسلبوا أرضكم في المستقبل ، وستحميكم الحكومة الجديدة ضمن إطار حقوقكم ، وستكون الولايات المتحدة صادقة مخلصة لكل التزاماتها " .. ومن بعده أضاف الرئيس الثالث **توماس جيفرسون** (1801- 1809) قائلا : " أتمنى مخلصا أن تنجحوا في محاولاتكم الجديرة بالثناء لإنقاذ ما بقي من أمتكم عن طريق العمل الجاد واصطناع حكومة تقوم على القانون .. وبهذا الخصوص تستطيعون دائما الاعتماد على نصح ومساعدة الولايات المتحدة " .. والغريب أن تصريحات الرؤساء الآباء المؤسسين الأوائل للولايات المتحدة كانت بلا أي أساس .. ***فـ واشنطن الذي أكد للهنود أن أراضيهم لن تُسلب في المستقبل – وهو اعتراف ضمني أنها قد سُلبت في الماضي !*** – له عبارة أخرى لم يسمعها منه الهنود ، وإن عانوا من مضمونها ، يقول فيها : " إن التوسع التدريجي لمستوطناتنا سيجعل المتوحشين يتراجعون تدريجيا ، وكذلك الذئاب ، فكلاهما طرائد للصيد ، مع أنهم مختلفون شكلا " ..

وفي عام 1793 كان هناك خط حدده اتفاق بين الأمريكان والهنود الحمر ، وكان الاتفاق ينص على عدم تجاوز ذلك الخط كحدود لحماية أراضي صيد الهنود عند مشارف نهر الميسيسيبي .. ورغم تلك المعاهدة فإن انتزاع الأرض من الهنود كان متلازما مع التوسع غربا ..

وكي تتضح الصورة أكثر أمام القارئ ، فإن المقصود بالتوسع غربا أن المستعمرين كانوا يأتون من أوروبا عبر المحيط الأطلنطي ، وكانوا بطبيعة الحال يستوطنون أولا الأراضي الكائنة في شرق القارة الأمريكية ، ومع الوقت كان الزحف يتجه نحو الغرب على حساب الهنود الذين كانوا ينزحون غصبا إلى مزيد من الغرب ، حتى غربوا تماما عن الوجود ! ..

وبعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، كانت الحكومات الأمريكية المتعاقبة تعقد معاهدات مع الهنود المرة بعد الأخرى ، فكانت المعاهدات القديمة تُنسخ بمعاهدات جديدة ، وكان الهنود أحيانا يُنقلون بمعرفة الأمريكان إلى حظائر كبيرة تقام على أكثر الأراضي فقرا في القارة والتي يعتقد الأمريكان أنه لا أثر للثروات بها ، أما إذا قاوموا ولم يمتثلوا للأمر الواقع فكانوا يتعرضون للإبادة والقتل ..

وعلى سبيل المثال .. فإن قبائل الشيروكي الهندية لم تقبل في البداية مسألة استعمار منطقة تينيسي ، فقاموا بمهاجمة المستوطنين ، وتعرضوا للعقاب الفوري بمذابح مؤثرة ساهمت في تسليمهم في عام 1808 – أواخر عهد **جيفرسون** – بقيام الحكومة الأمريكية بنقلهم عبر الميسيسيبي من ولاية تينيسي إلى ولاية أركانساس في الغرب .. ونعني بالغرب أي غرب الميسيسيبي ، لأن ولاية أركانساس تقع على حدود النصف الشرقي من القارة الأمريكية .. وفي عام 1828 وافقت قبائل الشيروكي من جديد على تسليم أراضيهم في أركانساس والتي كانوا قد انتقلوا إليها مجبرين في عام 1808 ، لينزحوا إلى مستعمرة هندية

غرب أركانساس .. وفي عام 1835 وقعت قبائل الشيروكي " اتفاقية إزالة " جديدة ، ليتنازلوا عن أراضيهم في ولاية جورجيا والتي تقع في الجنوب الشرقي مطلة على المحيط الأطلنطي – وكان ذلك تقصيرا شديدا من المستعمرين الذين تركوا هنودا في أقصى الشرق حتى ذلك التاريخ ! – ، غادرت قبائل الشيروكي إلى أراض أبعد في ولاية أوكلاهوما الحالية وهي تحتل موقعا غرب ولاية أركانساس في وسط القارة الأمريكية .. وفي عام 1890 نقض الكونجرس الأمريكي المعاهدة القديمة التي نصت على الاحتفاظ بتلك المساحة في أوكلاهوما من أجل الهنود الحمر الذين تركوا ديارهم في الشرق .. وفي عام 1893 اندفع أكثر من مائة ألف أمريكي إلى الأراضي التي خلفها الشيروكي وراءهم في أوكلاهوما مطالبين بحقوقهم في زراعة ستة مليون فدان هي جملة ما كانت تملكه قبائل الشيروكي في أوكلاهوما .. كان ذلك مجرد مثال واحد على " دحرجة " الهنود في اتجاه الغرب ركلة بعد ركلة !! ..

* * *

وفي عام 1825 نجح الهنود الحمر في تأسيس مجتمع زراعي على ما تبقى لهم من أراض ، وأنشأوا صناعة نسيج وأقاموا مدارس ومطابع تحت إشراف حكومة هندية جيدة الإدارة ، وفي تقرير أمريكي صدر في نفس ذلك العام جاءت الإشادة واضحة بالمجهودات التي تبذلها قبائل الهنود الحمر للحاق بركب الحضارة المستنيرة .. ولكن لم يشفع لهم شئ من ذلك ..

ففي عام 1829 انتخب **أندرو جاكسون** رئيسا للولايات المتحدة .. ومن العجيب أن أحد ألقابه التي اشتهر بها في التاريخ هو لقب " قاتل الهنود " .. ولم ينل **جاكسون** هذا اللقب من فراغ ، فقد حضر الرئيس **جاكسون** ذات يوم عملية قتل وتشويه 800 من أسرى الهنود الحمر ، فأمر مجموعة من ضباط الجيش بجدع أنوف جميع الضحايا من أجل إحصاء العدد الصحيح للقتلى ، ثم أمر بدباغة بعض أجزاء من جلودهم لاستخدامها في ألجمة الخيل .. وفي عام 1830 تم تمرير " قانون انتزاع الهنود " وسط تأييد قوي من الرئيس **جاكسون** في الكونجرس ، وقد مكن ذلك الحكومة الفيدرالية من إدارة المفاوضات مع جميع القبائل التي تسكن في الشرق حتى يبدلوا أراضيهم بأراض أخرى في الغرب ، على أن تتحمل الحكومة الأمريكية مشكورة كافة مصاريف التهجير وإعادة التوطين .. وفي عامي 1838 – 1839 لقي أربعة آلاف من قبائل الشيروكي حتفهم بسبب المرض والبرد وتركهم في العراء أثناء انتقالهم الإجباري إلى مناطق جديدة تاركين أراضيهم للمستعمرين .. وفي عام 1846 اشترت الولايات المتحدة أوريجون من بريطانيا ، وهي منطقة على حدود كندا في أقصى الشمال الغربي ، وهو ما جعل الولايات المتحدة تبلغ المحيط الهادي لأول مرة .. وفي عام 1848 اكتشف الذهب بكميات وفيرة في نهر سكرمنتو بولاية كاليفورنيا وفي مناطق عديدة بغرب القارة وهو ما عُرف في التاريخ باسم " the gold rush " .. وجن جنون الأمريكان ، واستفاضوا في إبادة الهنود وإزاحتهم عن طريقهم كي يتفرغوا للذهب .. وفي السنوات العشر التالية هاجر إلى الولايات المتحدة

حوالي 2.5 مليون نسمة قادمين من أوروبا وأسيا سعيا خلف الذهب ، لتتضاءل نسبة الهنود الحمر إلى إجمالي قاطني القارة بشكل مخيف ..

* * *

وفي عام 1861 انتخب **ابراهام لينكولن** رئيسا للولايات المتحدة ، وذهب الزعيم الهندي **بلاك كيتل** Black Kettle زعيم قبيلة شييني Cheyenne للقائه ، متوسما فيه الخير والأمل في السلام " الشامل العادل " ! .

كان **بلاك كيتل** مقاتلا بارعا في شبابه ، لكنه أدرك بمرور السنوات أن القتال لابد أن يكون له آخر وأن إمكانات الهنود الحمر لن تسمح لهم بمجرد البقاء إلا إذا حاولوا التعايش في سلام مع المستعمر الأبيض الذي بات أمرا واقعا لا مهرب منه ولا مجال للاستمرار في مقاومته بلا طائل ..

اصطحب الزعيم الهندي معه صديق عمره **لين بير** Lean Bear وذهبا إلى واشنطن وصافحا **لينكولن** الذي قدم لهما ميداليات الشرف وأوراق تقر بأنهما أصدقاء للولايات المتحدة .. لكن ذلك لم يتعد كونه مجرد مراسم شكلية .. ففي نوفمبر من عام 1864 قتل الجنود الأمريكان بقيادة الكولونيل **شيفنجتون** صديقه **لين بير** رغم إظهاره لميدالية **لينكولن** وللأوراق التي تثبت صداقته للولايات المتحدة ، ثم أكملوا هجمتهم وذبحوا مائتين من أفراد القبيلة .. وقف **بلاك كيتل** وسط الميدان مذهولا رافعا علم الولايات المتحدة ذي النجوم الـ 34 آنذاك وفي يده الأخرى راية بيضاء ، وبدأ يصيح مخاطبا الجنود الأمريكان في استجداء .. فقد كان يعتقد في صدق الاتفاق الذي تم بينه وبين الكولونيل **شيفنجتون** في وقت مبكر من نفس ذلك العام والذي نص على عدم الاعتداء على الهنود في مقابل البقاء داخل المعازل الهندية المتفق عليها وعدم الاحتكاك بعمال السكك الحديدية أو صائدي الثيران البرية .. لكن الأمريكان لم يأبهوا لكلماته ، وضاع صداها مع صوت الرصاص الذي انطلق من حوله ليحصد أرواح العشرات .. وبعد أسبوعين من وقوع المذبحة تمت مكافأة الكولونيل والثناء عليه في استعراض عسكري كبير طاف شوارع مدينة دنفر ، وظهر فيه الكولونيل **شيفنجتون** وهو يلوح للجماهير في فخر حاملا في يده مجموعة تذكارية من جلود رؤوس الهنود الحمر المدبوغة ..

لم ييأس **بلاك كيتل** المسالم لدرجة الاستسلام .. واجتمع في أكتوبر من العام التالي مع ممثلي الحكومة الأمريكية عند مدخل نهر ليتل أركانساس في ولاية كانساس ليعقد معهم اتفاق سلام جديد .. وجاءت كلماته التي سجلها التاريخ كالآتي : " رغم أن قواتكم قد هاجمتنا ، إلا أننا قد ألقينا ما حدث خلف ظهورنا .. إننا سعداء بالقدوم إليكم والاجتماع بكم في سلام وصداقة .. إن الذي قد جئتم هنا من أجله ، والذي أرسلكم الرئيس بسببه ، أود أن أؤكد أننا لا نعترض عليه ، بل نحن نقول نعم لكل ما تطلبون .. في وسع البيض أن يذهبوا أينما أرادوا بدون أي إزعاج منا .. ومن جهتي أحبكم أن تخبروا القادمين إلى النواحي التي نعيش فيها أننا شعوب مختلفة لكننا في نهاية الأمر أناس متشابهون ، فكلنا بشر .. ومن جديد ، أرغب في أن أضع

يدي في يدكم وأشعر بالسعادة .. إن هؤلاء القوم الذين أمثلهم يحسون بسرور كبير بالاعتقاد في أننا يمكننا أن ننعم بالسلام مرة أخرى ، وأن ننام بعمق ، وأن نستطيع الحياة " ..

لم تلتزم الحكومة الأمريكية ببنود الاتفاق ، وظلت حياة الهنود معرضة للأخطار بشكل يومي .. وفي نهاية الأمر انصرف محاربو قبيلة شييني عن زعيمها **بلاك كيتل** وانجذبوا نحو بعض القادة الهنود الذين رأوا في الكفاح والمقاومة حلا وحيدا للنجاة والنصر .. وكان على رأس هؤلاء القائد **رومان نوز** Roman nose .

وفي عام 1868 لقي **رومان نوز** مصرعه ، وانفرط عقد المقاومة ، وانضم معظم أفراد القبيلة من جديد تحت راية **بلاك كيتل** ..

سعد الزعيم بهم كثيرا ، وأخبرهم بأمر آخر اجتماع مع الجنرال الأمريكي **هازن** الذي أكد له أن قريتهم لن تتعرض لهجوم البيض ، بل وأعطاه بعض السكر والتبغ والبن كعلامة على حسن النوايا .. كان الجنرال **هازن** على علم بخطط الجنرال الأمريكي الشهير **فيليب شيريدان** الذي كان يدبر هجوما ساحقا على مناطق الهنود ..

وللجنرال **شيريدان** حادثة شهيرة دونتها كتب التاريخ ، عندما جاءه أحد الهنود المستسلمين ، وابتسم في انكسار وأشار إلى نفسه قائلا : " **توزاوي** ، هندي جيد ..Tosawi, good Indian " .. وهنا نظر له **شيريدان** في سخرية قائلا عبارته الشهيرة : " الهندي الجيد هو الهندي الميت " .. وقد نال الجنرال **شيريدان** شرف قيادة الجيش الأمريكي بأكمله في الفترة من 1884 إلى 1888 .. وقبل أن ينتهي عام 1868 أرسل الجنرال **شيريدان** قوات بقيادة الكولونيل **جورج كاستر** لمباغتة قبيلة شييني أثناء فصل الشتاء .. اقتحمت القوات قرية **بلاك كيتل** ، وقتلت جميع من فيها بما فيهم **بلاك كيتل** وزوجته وتسعمائة من الثيران المنتشرة في المكان ..

لم يستحق بلاك كيتل الحياة ، لأنه آمن بالاستسلام طريقا للسلام ..

* * *

وفي عام 1862 صدر مرسوم ضد قبائل الأباتشي Apache – الأباتشي حاليا اسم أحد أشهر المقاتلات الحربية الأمريكية والتي تستخدمها إسرائيل في إبادة العرب في فلسطين ! – الذين أرادوا مغادرة الكانتونات التي عزلهم بداخلها الأمريكان ، وجاء نصه الحرفي يقول: "يُقتل محاربو الأباتشي أينما يتم العثور عليهم ". وألصقت نداءات على جدران منازل مدينة دنفر عاصمة ولاية كولورادو الحالية تقول : " إلى المحاربين القدماء .. نطلب رجالا ونقدم مكافآت مالية عن كل جلدة رأس يأتون بها " .. وفي نفس ذلك العام سن الكونجرس الأمريكي قانونا تعهدت بموجبه الحكومة بتقديم الأرض مجانا للفلاحين ، وكانت هي نفس الأراضي التي يتم انتزاعها من الهنود ، ليُطردوا بالقوة إلى الصحاري الجدباء ، اتساقا مع حكم محكمة الولايات المتحدة العليا الذي ينص على " أن الهندي الأصل ينتمي بالولادة إلى عرق غريب ، ولا يستطيع أن يكون مواطنا في ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية " ..

وفي عام 1863 اكتشف الذهب بكميات وفيرة في مناطق قبيلة النى بيرس Nez Perce – وتعني بالفرنسية مثقوبي الأنوف – .. كان زعيم القبيلة **جوزيف** من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية في تلك المنطقة وكان مؤيدا نشطا لمحاولات إقرار السلام مع البيض انطلاقا من وحدة الدين .. بل إنه في مرحلة مبكرة – 1831 – كان قد ارتحل مع أتباعه من نيويورك إلى ولاية أوهايو بعد أن عانى من الاضطهاد ، ثم أرسل وفدا إلى سانت لويس يطلب مدرسين ورجال دين بيض لتعليم قبيلته مساعدا حركة التبشير على الانتشار غربا .. ولكن عندما ذاع انتشار الذهب في ستينات القرن التاسع عشر ، انتزعت الحكومة الأمريكية ستة ملايين فدان من أراضي النى بيرس وأجبرتهم على الإقامة في معزل بولاية إيداهو الحالية في مساحة تمثل واحد على عشرة من المساحة التي كانت تشغلها القبيلة في مرحلة ما قبل الذهب ..

شعر **جوزيف** بالخيانة وقام بتمزيق العلم الأمريكي والإنجيل ، ورفض أن تغادر قبيلته وادي والوا ، كما رفض توقيع معاهدة جديدة يتم فيها ترسيم حدود المعزل الجديد الذي أقرته الحكومة الأمريكية .. مات الزعيم **جوزيف** بحسرته في عام 1871 ، وخلفه ولده **جوزيف** الابن الذي جاء إلى الحكم في ظروف صعبة .. فالمنقبون البيض كانوا يتدفقون على الوادي بلا انقطاع .. صمد **جوزيف** الابن أمام كل المحاولات لنقل قومه إلى مكان آخر ..

وفي عام 1873 ظهرت بارقة أمل عندما صدر أمر فيدرالي يقضي بإبعاد المستوطنين البيض وبقاء الهنود الحمر في وادي والوا .. ولكن سرعان ما عدلت الحكومة الأمريكية عن قرارها ، وجاء الجنرال **أوليفر هوارد** في عام 1877 على رأس كتيبة فرسان لإجبار قبيلة **جوزيف** على المغادرة إلى المعزل .. جاء الجنرال الأمريكي ومعه إنذار من حكومته ينص على المغادرة خلال مهلة 20 يوما وإلا فإن الجنود سوف يرغمونهم على النزوح بالقوة .. خشي الزعيم **جوزيف** على قومه من الإبادة ، فقام بإقناعهم بالرحيل دون مقاومة .. ولكن قبل أن يبتعد الركب كثيرا عن الوادي ، قرر بعض زعماء العشائر الشبان الأقوياء أن يتخلفوا عن القافلة ويدافعوا عن أرضهم ، وأسفرت المناوشات عن مقتل عشرين من المستوطنين البيض .. أدرك **جوزيف** أن الحرب مندلعة لا محالة ، فعدل عن رأيه ، وأمر بجمع النساء والأطفال في مكان واحد والاستعداد للمقاومة ..

وقد سجل التاريخ أن **جوزيف** ومعه أقل من مائتي مقاتل نجحوا من خلال قيادة عسكرية بارعة وخطط حربية عبقرية وغير مألوفة آنذاك في التصدي للجيوش الأمريكية بل وهزيمتها أحيانا على طول طريق الفرار والمطاردة لمسافة زادت على 2250 كم .. كان مقاتلو النى بيرس يتقهقرون على طريق الهرب لكنهم في الوقت ذاته كان ينقضون فجأة على مطارديهم ويكبدونهم خسائر فادحة بدون فقدان هندي أحمر واحد ، والحقيقة أن الوضع لم يكن يحتمل خسارة مقاتل واحد ، فالجيش الأمريكي كان عشرة أمثال الهنود الحمر المقاتلين ..

لمع اسم الزعيم **جوزيف** ، ووصل صيته إلى بعض الصحف الأمريكية التي أطلقت عليه لقب " **نابليون** الأحمر " .. جن جنون الحكومة الأمريكية ، ودفعت بالمزيد من القوات الأمريكية لإبادة **جوزيف** وأتباعه .. عرف **جوزيف** أن الموقف يزداد صعوبة ، فجمع زعماء العشائر يتدارسون الأمر ، وقرروا أن يتسلقوا الجبال التي تفصلهم عن كندا .. فقد وصلت رحلة القبيلة الهندية في فرارها إلى الحدود الكندية في أقصى الشمال الغربي ! .. حاول **جوزيف** استغلال أن صيف عام 1877 لم ينته بعد ، ليعبر قمم الجبال الباردة في اتجاه كندا قبل أن يشتد الصقيع .. وبدأت المسيرة المستحيلة وسط ملاحقة مستمرة من الجيش الأمريكي .. مرت عدة أسابيع واقتربت الرحلة من ثلاثة آلاف كيلو متر قطعها الهنود في أربعة أشهر كاملة ، ولم يبق سوى 48 كم على بلوغ الحدود الكندية ..

وهنا توقفت المسيرة بعد أن اشتدت العواصف الثلجية ولم يعد ممكنا أن يستمروا في الهرب ، خاصة وأن الكولونيل **نيلسون مايلز**[1] تمكن بقواته من القضاء على مجموعة من المحاربين الهنود ..

وفي الخامس من أكتوبر 1877 قرر الزعيم **جوزيف** أن يطلب هدنة ومعونة طبية من عدوه .. كان البطل الهندي نبيلا وشريفا معتادا على الحروب النظيفة والصراعات الشريفة التي لم تسمع عنها قيادة الجيش الأمريكي .. كان **جوزيف** مضطرا إلى الهبوط من معقله فوق الجبال تاركا أفراد قبيلته جرحى يقاسون الألم والبرد القارس على أمل أن يعود إليهم بالحل .. لم يكن هناك بديل ، فالجميع على وشك الموت من الجوع والبرد .. وكان الحوار مع الأمريكان هو آخر أمل للهنود في البقاء أحياء .. فوجئ الأمريكان بالزعيم النبيل إلى درجة السذاجة يظهر أمامهم على سفح الجبل مترجلا عن جواده ونازعا سلاحه .. وطلب مقابلة الجنرال **هوارد** قائد القوات الأمريكية وعرض عليه السلام وحقن الدماء .. تظاهر الجنرال الأمريكي بالترحيب والموافقة ، والواقع أن منظر الزعيم المنهك كان يبعث على التسلية والضحك بالنسبة للقوات الأمريكية ..

وقف **جوزيف** يلقي كلمة أمام الجيش الأمريكي ، وقد دخلت التاريخ بوصفها خطبة استسلام ، وهي كذلك بالفعل لولا أن صاحبها قصد بها سلاما لم ينله وإن استحقه .. ومن هذه الخطبة التاريخية ننتقي هذه الفقرة : " لقد تعبت من القتال .. الكثير من زعمائنا قد ماتوا .. البرد قارس جدا هنا ، ونحن لا نملك أية أغطية .. أطفالنا الصغار يتجمدون حتى الموت .. وبعض أتباعي ضلوا طريقهم بين التلال بلا غطاء أو كساء أو غذاء ، ولا أحد يعرف مصيرهم أو مكانهم ، ربما تجمدوا في الجليد وماتوا بين الثلوج .. إنني أريد وقتا أبحث فيه عن أولادي الغائبين لعلي أجد منهم أحدا .. قد أعثر على بعضهم أحياء بين جثث الموتى .. أريد وقتا لأضمد جراح المصابين وأجمع فيه الحطب لأدفع عن قومي بالدفء برد الشتاء .. اسمعوني ، أيها القادة ! .. لقد تعبت .. إن قلبي عليل وحزين .. وبحق السماء التي تشرق منها الشمس ، إنني لن أحارب منذ هذه اللحظة وإلى الأبد " ..

---

[1] يرد ذكره من جديد في الفصل السابع الخاص ببورتوريكو ، ولكن في ظروف مختلفة كلية !

وكان **جوزيف** – دون أن يدري – صادقا في قسمه بالسماء .. فما أن انتهى من خطبته حتى قام الجنود الأمريكان بالقبض عليه وربطه في جذع شجرة ، ثم انطلقوا ليقبضوا على أتباعه المشتتين بين الجبال .. وبعد أن جمعوا بقايا قبيلة النيز برسي ، تم نقلهم في البداية إلى ولاية كانساس ومنها إلى معزل في ولاية أوكلاهوما الحالية في وسط القارة .. وقد تسببت تلك المسافات الطويلة في وفاة عدد منهم نتيجة الأوبئة .. وفي عام 1879 تم السماح للزعيم **جوزيف** بالذهاب شرقا إلى واشنطن العاصمة وعرض قضيته على الرئيس الأمريكي الـ 19 **راذرفورد هايس** (1877 – 1881) ..

وفي عام 1885 عاد **جوزيف** وباقي اللاجئين إلى موطنهم في ولاية إيداهو في الغرب .. ثم قامت السلطات بنقل نصفهم غربا إلى معزل يضم عناصر من قبائل أخرى في شمالي ولاية واشنطن ، وكان من بينهم الزعيم **جوزيف** .. جاء هذا النقل ليفصل بين أفراد العائلة الواحدة .. فبقي البعض في وادي والوا في ولاية إيداهو ، واستقر أقاربهم في ولاية واشنطن المجاورة ..

قضى **جوزيف** أواخر أيام حياته متألما ومتذكرا في مرارة الظلم الأمريكي الذي وقع على قومه .. وكان يسرح ببصره بعيدا ويأمل أن يجئ اليوم الذي تفي فيه الولايات المتحدة بوعودها وتعطي الحرية والمساواة للهنود الحمر ..

وفي عام 1904 قضى **جوزيف** نحبه وحيدا منفيا ذي قلب محطم ..

* * *

ولم يعتمد الأمريكان على الإبادة أو اتفاقيات النقل والإزاحة فحسب ، بل كان بعضهم يلجأ إلى الخدعة .. ومن ضمن ذلك ما فعله الثري الأمريكي **ويليام هاريسون** الذي اشترى لحسابه الخاص أراض شاسعة من الهنود بأسلوب بسيط جدا .. فقد دعا زعماء قبيلة الشافنيه وأسكرهم ، ثم جعلهم يوقعون عقد بيع عشرة كيلومترات مربعة من الأرض مقابل زجاجة خمر ..

وكان الكثير من التجار البيض يتجولون بين قرى الهنود ويخفون براميل الويسكي في عرباتهم لنفس ذلك الغرض .. والغريب أن الهنود لم يكن لديهم بالطبع أية وثائق تثبت ملكيتهم للأرض حتى يسفر توقيعهم أثناء السكر على انتقال الملكية لغيرهم .. ولكن هذا ما كان يحدث ! ..

ويحتفظ لنا التاريخ بعبارة لأحد زعماء الهنود الحمر من مقاطعة ميلك ريفر قرب حدود مونتانا ، فقد حاول التصدي للتجار الأمريكيين الذين كانوا يضغطون عليه للتوقيع على اتفاقية للتنازل عن الأرض ، فخاطبهم قائلا : " طالما ظلت الشمس تسطع ، وظلت المياه تتدفق لتمد الإنسان والحيوان بالحياة ، هل تظنون أن الخالق قد أرسلكم لتطويعنا حسب إرادتكم ؟ .. عليكم أن تدركوا جيدا سر حبنا لهذه الأرض ، وما جعلنا لم ننطق يوما بأن الأرض ملكنا نستغلها كما نشاء .. فلقد هيأتها لنا الروح الكبرى ، ولا نقدر على بيعها ... لأننا لا نملكها " ..

وعندما تقرر تغطية القارة بخطوط السكك الحديدية ، كان لابد من انتزاع عشرات آلاف الكيلومترات المربعة من الهنود ، وكان لابد كذلك من القضاء على قطعان الثيران البرية " البافالو " التي تعوق العمل .. وامتدت السكك الحديدية لتغطي أرجاء القارة ، وطُرد الهنود حتى وصلوا إلى ما يُعرف بالسهول الحجرية المميتة ، أما الثيران البرية التي كان يعتمد عليها الهنود في الغذاء والكساء والمعيشة ، فلم يكن ممكنا أن تُطرد مع الهنود إلى الأطراف ، بل تخلص الأمريكان من 3.5 مليون ثور برصاص البنادق ، ثم أخذوا ما يحتاجون إليه منها معهم لبيع جلودها في المدن الأمريكية بالشرق والوسط وتركوا مئات الألوف في البراري تفسد وتتعفن في كارثة بيئية صعبة التكرار .. وفي عام 1873 تدخل الرئيس الأمريكي الثامن عشر **سيمبسون جرانت** (1869 – 1877) للتصويت ضد مشروع قرار بالتوقف عن قتل الثيران البرية حفاظا عليها من الانقراض حيث كان يُقتل منها ثلاثة ملايين ثور كل عام ، حتى أن التقديرات كانت تشير إلى أنه في عام 1893 لم يبق من الثيران البرية التي كانت منتشرة في سهول القارة الأمريكية سوى 2000 ثور من أصل 20 مليون ..

* * *

وقبل مذبحة ووندد ني Wounded Knee التي أنهت الصراع تماما بأيام ، كتب الصحفي الأمريكي **فرانك باوم** في صحيفة The Aberdeen Saturday Pioneer يدعو إلى الإبادة الشاملة لمن بقي من الهنود قائلا : " إن أصحاب البشرة الحمراء قد أبيدوا ولم يبق منهم إلا مجموعة صغيرة من كلاب هجينة تعض الأيادي التي تطعمها ولا تتوقف عن النباح .. أما البيض ، فإنهم بفضل الحضارة أسياد القارة الأمريكية ، وإن أفضل أمن للمستوطنات سيتحقق بالإجهاز على البقية الباقية من الهنود .. إن موت هؤلاء الأشقياء خير لهم من الحياة " ..

وفي 29 ديسمبر 1890 حانت لحظة النهاية .. فقد أرسل الجيش الأمريكي كتيبة للقبض على **بيج فوت** زعيم قبيلة سيو Sioux الهندية .. قامت القوات الأمريكية بأسر جميع أفراد القبيلة وأجبروهم على تسليم أسلحتهم .. ثم نقلوا إلى معسكر خاص حاصرته القوات الأمريكية .. وفي صباح يوم 29 ديسمبر أطلق الجنود النيران على كل من في المعسكر ، فقتل 370 هنديا أعزل بمن فيهم الزعيم **بيج فوت** .. وكانت تلك آخر المعارك لإبادة الأمريكيين الأصليين أصحاب الأرض بعد صراع غير متكافئ دام أربعمائة عام ..

* * *

وبالإضافة إلى الأسماء التي ذكرناها كان هناك زعيم قبيلة لاكوتا **سيتينج بُل** Sitting Bull الذي حارب بشجاعة منقطعة النظير ، ثم هرب إلى كندا ليعود منها في عام 1881 ويسلم نفسه إلى الأمريكان بعد أن شارف أتباعه على الموت جوعا وبردا .. وكان مصيره أن بقي أسيرا لفترة عُرض أثناءها في السيرك مقابل 50 دولار أسبوعيا ليتفرج عليه الشعب الأمريكي ويوقع على الأوتوجرافات والصور الشخصية له باعتباره تحفة نادرة على وشك الاندثار .. ثم قُتل في عام 1890 خلال المذابح الأخيرة لتصفية الهنود

الحمر .. وكان هناك الزعيم **كريزي هورس** Crazy Horse الذي انتهى مصيره بالاعتقال ، ثم قام أحد الجنود الأمريكان بطعنه برمح ليلقى حتفه في عام 1877 .. وكان هناك زعيم الأباتشي المخيف **جيرونيمو** Geronimo الذي آل مصيره في النهاية إلى قيادة عربة حنطور ومنها إلى السيرك .. ويحتفظ له التاريخ بصورة من عام 1903 ، ويظهر فيها **جيرونيمو** وهو في الرابعة والسبعين من عمره يعتمر قبعة مرتفعة ويعمل سائقا على عربة تجرها الخيل .. ثم مات الزعيم بحسرته وحيدا في عام 1909 .. كما شُنق **كابتن جاك** Captain Jack ، ومات **ليتل وولف** Little Wolf من التعذيب المبرح أثناء الأسر ، وضُرب **بيج سنيك** Big Snake بكعب بندقية على مؤخرة رأسه ليلقى حتفه ..

لقد كان صراعا مأساويا لمعت فيه أسماء بعض زعماء الهنود الحمر الذين دخلوا التاريخ في مرحلة ما ، ثم خرجوا منه جميعا إلى الأبد ! ..

* * *

ثم جاء القرن العشرين وقد انتهى أمر المقاومة إلى الأبد .. وقد افتتح الرئيس **تيودور روزفلت** (1901 – 1909) القرن بالنظر إلى الوراء في فخر معلقا على أربعة قرون من الإبادة قائلا : " لو كنا تركنا للهنود الحمر أراضي الصيد الخاصة بهم ، لوضعنا قارتنا تحت تصرف همج قذرين متوحشين ، لذا لم يبق أمامنا خيار غير إبادتهم " .. والجدير بالذكر أن **روزفلت** قد نال جائزة نوبل للسلام في عام 1906 ! ..

واليوم تعيش بقايا الهنود الحمر في حظائر خاصة بهم في الولايات المتحدة وفي كندا ، بينما هم مختلطون إلى حد كبير بالأجناس الأخرى في أمريكا الوسطى والجنوبية .. ويمكن للمرء بكثير من الجهد أن يرى بعضا من الهنود الحمر في الولايات المتحدة ، إذ أن الكثير من عمال بناء ناطحات السحاب من الهنود الحمر ، كما أن الأعداد اليسيرة التي أفلتت من الهلاك قد عرفت طريقها إلى السينما ، لتشارك في أفلام تحكي عن بربرية الهنود الحمر الذين لم يؤمنوا بالله ولم يستحقوا خيرات القارة الأمريكية ، فكان لابد من فنائهم على طريق الخير والنماء من أجل قيام الإمبراطورية الأمريكية السعيدة ! ..

وفي هذه الأيام وفي إطار الاستعداد لانتخابات الرئاسة الأمريكية في نوفمبر 2004 ، طالعتنا وكالات الأنباء بمشهد للمرشح الديمقراطي **جون كيري** وهو يزور أحد معازل الهنود الحمر لكسب أصواتهم في الانتخابات .. حسنا .. يبدو أن للحمر فائدة ما ! .. ولكن بدافع من الفضول : هل يمكنكم تصور ما الذي قاله **كيري** لزعمائهم في سبيل إعطائه أصواتهم ، ما الذي يمكن أن يكون قد وعدهم به ؟؟ .. أن يغادر ربع مليار أمريكي القارة تاركين إياها لأصحابها القدامى ؟ .. مسألة عسيرة التصديق !! ..

* * *

للزعيم الهندي **جوزيف** عبارة دقيقة جدا يلخص فيها أزمة الهنود الحمر مع الولايات المتحدة .. يقول **جوزيف** : " لا أستطيع أن أفهم كيف ترسل الحكومة الأمريكية رجلا لمحاربتنا على نحو ما فعلت حين أرسلت الجنرال **مايلز** ثم يخل بعهده وكلمته .. لابد وأن شيئا ما خطأ يشوب هذه الحكومة .. ولا أستطيع أن

أفهم لماذا يسمح رؤساء كثيرون لأنفسهم بالحديث بأساليب مختلفة جدا ، ويفرطون في إعطاء الوعود بأشياء كثيرة .. لقد سئمت الحديث الذي يجري عبثا دون طائل .. وقعت مظاهر عديدة لسوء الفهم والتعبير بين البيض والهنود .. إذا كان الرجل الأبيض يريد العيش في سلام مع الهندي فبوسعه ما أراد .. لا حاجة بنا إلى مشاكل .. عاملوا الناس جميعا على قدم المساواة .. شرعوا لهم جميعا قانونا واحدا .. امنحوهم جميعا فرصا متكافئة للعيش والازدهار ، إذا كان الناس لابد وأن يتمتعوا بحقوق متساوية .. وإذا ما فكرت في حالنا أثقل الحزن قلبي .. أرى أبناء عرقي يعاملون باعتبارهم خارجين عن القانون ويساقون دفعا من بلد إلى بلد أو يطلقون عليهم الرصاص مثل الحيوانات .. إننا لا نستطيع أن نستمر على ما نحن عليه من ضبط للنفس إزاء الرجل الأبيض .. نحن لا نطلب سوى فرصة للعيش مثلما يعيش الآخرون .. نريد الاعتراف بنا كبشر .. نريد أن يطبق قانون واحد بالعدل والمساواة علينا جميعا ، نحن والآخرين .. " ..

هم والآخرون ! ..

يبدو أن الزعيم جوزيف كان يلخص مشكلة الولايات المتحدة مع الجميع ! ..

(2)
الســـــود : الاستـحـمـار !!

بدأت الحكاية ..

ولم تنته ..

قديمة جدا ..

وأحدث ما يكون ..

سُجّلت على أنها ماضي ..

ولم يمض الماضي ..

فلم يزل السود زنوجا ..

أقل من البشر ..

مستعبدين ، ومستعمرين ، ومُستحمرين ! ..

* * *

في عام 1993 انعقد ما يسمى بالمؤتمر العالمي الأول لمناهضة العنصرية والتمييز العنصري بالعاصمة النيجيرية أبوجا .. وفيه جلس المحامون والمؤرخون يبحثون الوسائل العملية للحصول على التعويضات عن العبودية والاحتلال ..

وفي عام 1999 انعقد المؤتمر الثاني بأكرا عاصمة غانا .. وقد انتهى بإصدار إعلان يطالب أوروبا وأمريكا بدفع مبالغ ضخمة تعويضا عن الاستعباد والاستعمار .. ونادى إعلان أكرا بأن تؤخذ من حصيلة التعويض المطلوب إجمالي قيمة الديون الخارجية لأفريقيا .. أي أن الإعلان كان يتخيل أن أفريقيا سوف تنال أموالا تغطي كافة ديون جميع الدول الأفريقية ، ثم تفيض أموال لأغراض أخرى ! ..

وفي عام 2001 انعقد المؤتمر العالمي الثالث في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا .. وكان هو المؤتمر الأهم في هذا الصدد .. شاركت فيه 162 دولة يمثلها 17 ألف فرد ويغطيها 750 صحفيا .. حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا أن تعرقل انعقاده عن طريق الامتناع عن دفع الحصص المقررة لتغطية نفقاته .. وعندما فشلتا في ذلك ، تم إرسال مندوبين يشكلون أدنى مستويات التمثيل السياسي والدبلوماسي المعترف بها ..

كانت قضية المؤتمر الرئيسية هي قضية الرق .. كانت أفريقيا تسعى إلى انتزاع اعتراف من الغرب بمسئوليته عن الرق واستعداده للاعتذار المعنوي عما اقترفه ، وللتعويضات المادية عما تسبب فيه من أضرار ..

كانت أفريقيا بسودها وسُمرها غارقة في الوهم .. فقد انسحب الوفدان الأمريكي والإسرائيلي من المؤتمر .. احتجاجا على مطالب التعويض من ناحية ، واعتراضا على وصم إسرائيل بالعنصرية من ناحية أخرى ،

وهو ما سعى المؤتمر من خلال 1300 منظمة أهلية غير حكومية إلى إثباته .. مُني المؤتمر بالفشل الذريع .. فتم رفض تقديم التعويض لضحايا الرق ، وتم رفض حتى مبدأ الاعتراف بالذنب أو الاعتذار ..

ولم يصدر عن المؤتمر سوى بيان ختامي سخيف يقر بأن العبودية جريمة ضد البشرية وإن كان لم يشر إلى ارتكابها أو إلى مرتكبيها .. وأكد البيان بأن العبودية من مظاهر الظلم التاريخي التي ساهمت في انتشار التخلف والتفاوت الاقتصادي ، ثم طالب البيان بوضع برامج للتنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول الأفريقية في إطار مشاركة ترتكز على التضامن والاحترام المتبادل .. انتهى المؤتمر بعبارة تفادت الاعتذار أو الأسف تقول : " إننا ندعو الأسرة الدولية إلى احترام ذكرى ضحايا هذه المآسي " ..

وكان ذلك المؤتمر واحدا من البراهين الأخيرة على استمرار استحمار الولايات المتحدة وأوروبا للسود ، عبيدا كانوا أو أحرارا ..

* * *

نعود قليلا إلى الوراء ، فنجد أن رئيس الوزراء البريطاني السابق **جون ميجور** قد علق في منتصف تسعينات القرن العشرين على مطالب السود قائلا بكل جدية : " إنني مستعد أن أقوم بدفع التعويضات بشرط أن يثبت أحفاد الرقيق الأفارقة أنهم لا يزالون يعانون من الرق " !! ..

* * *

ثم نتأمل المفارقة التالية ، فنجد أن باحثة أمريكية سوداء تدعى **ديورا فارمر بالمان** قد عثرت منذ سنوات قريبة على وثيقة مهمة في أرشيف نيويورك أثناء إجراءها بحث في العلوم الإنسانية .. تقول الوثيقة أن أصحاب المزارع في أمريكا كانوا يؤمّنون على العبيد العاملين لديهم ، وهو ما يعني أن لهؤلاء العبيد حقوقا تاريخية مهدرة نظير أربعة قرون من الاستعباد .. وقد حوت الوثيقة على بيانات أصحاب المزارع الذين كانوا يسخّرون الأفارقة العبيد للعمل في حقولهم دون أجر .. ورغم أن تلك الوثيقة الخطيرة تحسم أي شك حول أحقية أحفاد هؤلاء العبيد في الحصول على تعويضات ضخمة .. ورغم أن هؤلاء العبيد قد ساهموا بشكل فعال – وبلا أدنى مقابل – في بناء الاقتصاد الأمريكي زراعيا وصناعيا .. ورغم أن جرائم الحرب هي الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية وتعريفها في القانون الدولي ينص على " القتل والتمييز والاسترقاق والنفي وغير ذلك من الأفعال غير الإنسانية التي ترتكب في حق المدنيين .. سواء كان في ذلك انتهاك للقانون المحلي للبلد الذي تمارس فيه أو لم يكن " .. وطبقا لهذا النص فإن الجرائم الأوروبية والأمريكية ضد السود هي جرائم حرب مكتملة الأركان .. وجرائم الحرب وفقا للقانون الدولي هي جرائم لا تسقط بالتقادم ..

إلا أن تلك الجرائم قد سقطت بالتجاهل ! ..

وحتى تكتمل المفارقة ، نرصد ما حدث في يوم من أيام سنة 1999 ، نفس ذلك العام الذي شهد انعقاد المؤتمر العالمي الثاني لمناهضة العنصرية في غانا وطالب بتعويضات للأفارقة لم ينل منها سنتا واحدا ..

ففي يونيو 1999 وجه ما يعرف بالمؤتمر اليهودي الدولي نداء لليهود الأحياء الناجين من مذابح النازية وأقاربهم .. طالبهم المؤتمر برفع دعاوى ضد الحكومة السويسرية وبنوك سويسرا لمن كان لديه أرصدة نهبها النازيون ، أو ممن أُجبروا على أعمال السُخرة لدى سويسريين .. وقد قُدرت هذه التعويضات بـ 1.25 مليار دولار .. جاء إحياء فكرة التعويضات التي كان اليهود قد استنزفوها من قبل من مصادر دولية مختلفة إثر إدعاء تقدمت به مسز **جرتا سلبربرج** وهي عجوز يهودية (85 عاما) تعيش في بريطانيا .. ادعت مسز **سلبربرج** أن لوحة للفنان الهولندي **فان جوخ** قيمتها 3.3 مليون جنيه إسترليني كان يمتلكها حماها رجل الصناعة الثري **ماكس سلبربرج** ، وقد اضطر حماها لبيعها بثمن بخس مع 143 قطعة فنية أخرى كان يقتنيها بسبب مطاردة النازيين له ورغبته في إنقاذ أسرته وتوفير المال لهم .. وقد طالبت العجوز بتعويض عن اللوحة ، وكانت هي آخر أقارب **ماكس سلبربرج** الأحياء .. والمدهش أن حملات صحفية شُنت في بريطانيا – دون تدقيق في صحة الإدعاء – تتعاطف مع العجوز اليهودية وتؤيد موقفها .. وبعد 18 يوما فحسب من نداء المؤتمر اليهودي العالمي ، أعلنت 16 شركة ألمانية عن تغطية الـ 1.25 مليار دولار المطلوبين ، بل ووعدت هذه الشركات بتوفير 1.7 مليار دولار إضافية لدفع تعويضات لألف شخص يهودي كانوا قد اشتغلوا أيام النازية في مؤسسات ألمانية لم يعد لها وجود الآن ! ..

وكان هذا دليلا جديدا على إصرار الغرب على استحمار السود ! ..

* * *

ربما لا يبدو دور الولايات المتحدة واضحا حتى الآن ، في فصل ثان من كتاب يُفترض تركيزه على الأفعال الأمريكية ..

حسنا .. لن تطول خيبة الأمل ! ..

مازلنا في القرن العشرين مع مزيد من العودة إلى الوراء ..

ونتوقف سريعا أمام اغتيال أشهر مشاهير السود في القرن الماضي وهما : **مارتن لوثر كينج** و**مالكولم إكس** ..

الأول اتهم بالشيوعية ، والثاني كانت تهمته الإسلام .. أما جريمتهما الأساسية فكانت البحث عن حقوق السود الضائعة .. اغتيل الاثنان قبل أن يكملا الأربعين .. الأول عن طريق متعصب أبيض يدعى **جيمس إيرل راي** ومن المرجح أن يكون وراء **راي** جهات أخرى حيث كانت أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية تتنصت على مكالمات **كينج** .. والثاني عن طريق ثلاثة متعصبين سود لم ينل رضاهم محاولاته لشرح الإسلام كما فهمه بعد أدائه لفريضة الحج في عام 1964 ..

بزغ نجم **كينج** بنجاحه في انتزاع حكم من المحكمة العليا بعدم شرعية الفصل العنصري في وسائل النقل العامة ، فقد رفضت الأمريكية السوداء **روزا باركس** ترك مقعدها في الأتوبيس في مدينة مونتجمري بولاية ألاباما ليجلس عليه رجل أبيض في الأول من ديسمبر 1955 ، فقد كان من المتعارف عليه أن يجلس

البيض في الأماكن الأمامية من المواصلات العامة ، وقد رفضت روزا الانتقال إلى الجزء الخلفي عندما أمرها السائق بذلك ، وانتهت المشاحنة بالقبض على روزا وإيداعها في السجن.. وتفجر الموقف وبرز **كينج** كزعيم شاب نجح في الحصول على حق من حقوق السود .. وجاء نجاحه مبنيا على مبدأ المقاومة السلبية بلا عنف ، فكان نداؤه بمقاطعة شركة الأتوبيسات ، واستمرت حركة المقاطعة لمدة 381 يوما ، وقد أثر ذلك كثيرا على إيرادات الشركة حيث كان السود يمثلون 70 % من ركاب خطوطها .. واصل **كينج** زعامته وقيادته لمسيرة السود ودخل السجن عدة مرات حتى تم اغتياله في فبراير عام 1968 ..

أما **إكس** ، فقد لمع اسمه بزياراته لأفريقيا منددا بالأخلاقيات الأمريكية على الجانب الآخر من المحيط ومحذرا الأفارقة من استمرار استغلال الولايات المتحدة لثرواتهم بعد أن استعبدوهم فيما مضى .. وقد استطاع **مالكولم إكس** أن يقوم بتكوين منظمة الوحدة الأفريقية الأمريكية قبل اغتياله في عام 1965 وأن يجمع لها آلاف الأنصار من أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ..

رحل الاثنان ، وتركا خلفهما سجلا مضيئا حافلا بالكفاح ضد العنصرية الأمريكية .. كما تركا بعض الخطب والعبارات المؤثرة التي تصف حال السود في مواجهة البطش الأمريكي الأبيض ..

يقول **كينج** : " سوف يسجل التاريخ أن أعظم مأساة في هذا الزمن لم تكن الأصوات المزعجة للأشرار ، بل الصمت المطبق للأخيار " ..

ويقول في خطابه الأشهر " لدي حلم I have a dream " الذي ألقاه يوم 28 أغسطس 1963 أمام النصب التذكاري للرئيس **لينكولن** : " قبل عقود من الزمان وقع الأمريكي العظيم الذي نقف اليوم تحت ظله الرمزي إعلان تحرير الزنوج ، وجاء هذا القرار الهام أملا عظيما لملايين السود الذين احترقوا بلهيب الظلم ، جاء كفجر مشرق لينهي سنوات الليل الطويل تحت الأسر ، ولكن .. وبعد مائة سنة من ذلك الإعلان ، يجب أن نواجه الحقيقة المأساوية : الأسود ليس حرا .. بعد مائة سنة ، ما زالت حياة الأسود مشلولة بقيود العزلة وأغلال التمييز .. بعد مائة سنة ، ما زال الأسود يعيش في جزيرة من الفقر المدقع وسط محيط شاسع من الرخاء الاقتصادي .. بعد مائة سنة ، ما زال الأسود يعاني في أنحاء مجتمعه ، وما زال يعتبر نفسه منفيا في أرضه " ..

أما **إكس** ، فكان ميالا للسخرية ، فيقول قبيل وفاته : " كانت المعركة الانتخابية في أمريكا على أشدها ، وقد سألني الكثيرون : هل تؤيد **جولد ووتر** أم **جونسون** ؟ .. فقلت : إنه بالنسبة للرجل الأسود في أمريكا ، فكل هؤلاء الرؤساء سواء .. إن الفرق بين **جونسون** و**جولد ووتر** بالنسبة لنا مثل الفرق بين الثعلب والذئب .. وأيهما تفضل أن يأكلك ! .. إن السياسي المحافظ مثل **جولد ووتر** سوف يقول : فليبق الزنجي في مكانه .. أما الليبرالي مثل **جونسون** فسوف يقول : فليبق الزنجي في مكانه ، ونعده بمعاملته معاملة أفضل ، وبخداعه بوعود أكثر ! .. إنني لا أفضل **جولد ووتر** على **جونسون** .. إلا أنني في جحر الذئب تكون رؤيتي واضحة .. أما في جحر الثعلب فربما يأكل نصفي قبل أن أنتبه إلى أنه يأكلني .. وعندما حدث

اغتيال **كينيدي** في دالاس والذي جعل من **جونسون** رئيسا ، كان أول صديق استدعاه **جونسون** هو **ديكي ريتشارد رايت** أكبر عنصري في الجنوب الذي قاد حملة المعارضة ضد الحقوق المدنية ، فكيف نصدق **جونسون** وهو يعلن أن الحقوق المدنية قضية أخلاقية ، في الوقت الذي يكون أعز أصدقائه مثل هذا العنصري ؟ .. أرأيت ، إنه مثل قائد البوليس الذي يعتز بصداقة أكبر لص في المدينة !! .. " ..

* * *

ورغم أن القرن العشرين يُفترض فيه بُعده التام عن استعباد السود بعد أن ألغي الرق قبل عقود طويلة ، إلا أننا رأينا كيف كانت العنصرية تتحكم في نظرة البيض للسود في المواصلات العامة حتى ما بعد منتصف القرن .. وكانت هناك – وربما لا تزال – لافتات على المراحيض تقول للبيض فقط ، وعلى صنابير مياه الشرب العامة تقول خاص بالملونين ..وهناك أحياء كاملة لا يعيش فيها سوى السود ووظائف لا يشغلها أحد سواهم ، بل وألعاب رياضية رفيعة المستوى مثل التنس والإسكواش نادرا ما نجد بين ممارسيها سودا .

ورغم أن نسبة السكان من السود في الولايات المتحدة تقارب 12 % من مجموع السكان ، فإن نسبة قتلاهم في الحرب العالمية الأولى بلغت 38 % وفي حرب فيتنام بلغت النسبة 50 % .. فهم حثالة المجتمع الزائدون عن حاجته والذين عليهم أن يموتوا في سبيله أفضل من الموت بلا ثمن .. وفي دراسة أجراها الاقتصاديون الأمريكيون **ريتشارد فيدر** و**لويل جالاواي** و**ديفيد سي كلينجمان** في عام 2000 ، تبين أن متوسط دخل الأمريكي الأسود يقل عن نظيره الأبيض بنسبة 61 % وهي نفس النسبة التي كانت موجودة في عام 1880 ، وهو ما يعني أن شيئا لم يتغير على مدى 120 سنة ..

* * *

وقد تميز القرن العشرين بمسألة أخرى ..

فهو القرن الذي شهد التطور العلمي في جميع مجالات الحياة .. وقد كان أمرا شائعا طوال ذلك القرن المنصرم أن يتم استغلال السود كفئران تجارب لدراسة تأثير عقار أو مادة كيميائية ما .. كما كانت هناك محاولات علمية وضيعة لتقليل عدد السود عن طريق وسائل التعقيم أو الاعتداء الطبي الانتقائي الذي يطلق عليه علم اليوجينيا المعني بدراسة سبل تحسين النسل البشري ..

ففي عام 1932 تم تجنيد 600 من السود المساكين من مقاطعة ماكون بولاية ألاباما من أجل دراسة تجريها هيئة الصحة العامة الأمريكية ومعهد تسكيجي .. كان الغرض من الدراسة هو بحث التطور الطبيعي للمرض التناسلي المعروف باسم السفلس أو الزُهري – وكان مرضا منتشرا حتى منتصف القرن العشرين – .. كان أكثر من نصف السود المحتجزين مصابين بالمرض ، ولم تكن هناك أية نية لدى الأطباء الأمريكيين لمعالجة المرضى .. أكثر من ذلك ، لم يفصح أطباء المعهد عن حقيقة المرض وكانوا يوهمون السود بأنهم يعالجون من الدم الفاسد .. بل وكان باحثو هيئة الصحة العامة يتدخلون لمنع إعطاء أي علاج ،

وذلك عندما كان أطباء آخرون غير مشرفين على الدراسة الخاصة يتدخلون ويشخصون الزُهري لدى بعض السود ..

وحين اكتُشف البنسلين كعلاج للزُهري في عام 1943 ، لم يكن يُقدم للمرضى .. وكانت تُقدم للسود وجبات ساخنة وشهادة موقع عليها من الطبيب العام ، ووعد برعاية صحية مجانية و50 دولارا بدل دفن !! .. وكان ذلك البدل المدهش يتيح لباحثي هيئة الصحة أن يقوموا بتشريح جثث السود المحتجزين بعد موتهم .. وكان التشريح جزءا هاما مكملا للدراسة ، لذا كانوا يُتركون بلا علاج حتى يتسنى للأطباء متابعة تطور المرض حتى الموت وبعده ! ..

استمرت التجارب على مجموعات متجددة من السود حتى عام 1972 ولم تُلغ إلا بعد تسرُّب معلومات عن حقيقتها للصحافة ..

وفي عام 1996 قدم الرئيس **بيل كلينتون** اعتذارا علنيا لضحايا معهد تسكيجي .. وكان الدافع الخفي وراء تقديم الاعتذار هو نقاش دار بينه وبين وزيرة الصحة **دونا شلالا** في مطلع نفس ذلك العام .. كانت الوزيرة تشكو من ندرة السود المستعدين للتطوع لإجراء التجارب عليهم ، وأرجعت إعراضهم هذا إلى مخاوف ناشئة عن تجارب تسكيجي ..

وبالإضافة إلى تلك الواقعة الشهيرة ، كان هناك مشروع سرى يُطلق عليه اسم العصفور الأزرق .. كان المشروع تابعا لوزارة الدفاع الأمريكية بالتنسيق مع المخابرات للبحث عن أكثر الطرق كفاءة لاستخراج المعلومات ، وكان ذلك يتم عن طريق تجربة عقاقير جديدة للهلوسة على السود المجندين في الجيش .. وكانت هناك تجارب أخرى للحقن بالبلوتونيوم .. والبلوتونيوم هو عنصر مشع موجود في خام اليورانيوم ، وهو سم إشعاعي تمتصه العظام والنخاع .. وكانت التجارب تتم عن طريق بتر أطراف السود المرضى النزلاء في بعض المستشفيات بعد حقنها بالبلوتونيوم .. وكان البتر يجري في أحيان كثيرة بلا داعي طبي وجيه .. ثم كان يجري إرسال الأطراف المبتورة إلى علماء وظائف الأعضاء في هيئة الطاقة الذرية لبحث كيفية انتشار البلوتونيوم في الأنسجة البشرية ..

كانت هذه بعض ملامح الأمثلة البشعة عن أشكال مستحدثة من الاسترقاق والاستحمار في القرن العشرين .

* * *

أما القرن التاسع عشر ، فقد كان هو القرن الذي وصلت فيه أزمة الرق إلى ذروتها فيما عُرف في التاريخ بالحرب الأهلية الأمريكية (1861 – 1865) .. وقد ذكرت العديد من المصادر التاريخية أن الحرب نشبت من أجل الصراع على إلغاء العبودية بين الشمال المؤيد والجنوب المعارض للإلغاء .. أي أن الحرب كانت لتفعيل مبادئ أخلاقية سامية .. ثم أسرف التاريخ على نفسه مانحا الرئيس الأمريكي **ابراهام لينكولن** لقب محرر العبيد لقاء مجهوداته الجبارة لتحريرهم .. وقد يتبنى القارئ وجهة نظر أخرى بعد قراءة السطور التالية ..

في عام 1794 تمكن المخترع الأمريكي **إيلي ويتني** من اختراع آلة لحلج القطن – أي فصل بذرة القطن آليا عن الألياف – .. أغرى هذا الاختراع المزارعين الجنوبيين بالتوسع في زراعة القطن .. وبالوصول إلى عام 1820 كانت حقول القطن قد انتشرت بشكل لافت وتوسعت في جميع الاتجاهات .. كان اكتساح حقول القطن للأراضي سببا مباشرا في الاحتياج المتزايد للعبيد للاشتغال في الحقول .. تزامن ذلك مع ازدهار زراعة قصب السكر في الجنوب ، وتحديدا في ولاية لويزيانا ، وقد نجحت الولاية في الحصول على بلورات السكر الأبيض من خلال تقطير عصارة قصب السكر .. وصار السكر الأبيض إضافة إلى القطن عاملين ضاغطين لتشغيل المزيد من العبيد ..

وهنا استشعرت الولايات الشمالية خطورة الموقف .. فالشمال يمتلك رأس المال ولا يستخدم العبيد في مصانعه الآلية المعتمدة على مهارات تشغيل الماكينات إلا في حدود ضيقة ، ثم إن الشمال يعمل أيضا في تجارة القطن ، ولكن المستورد منه وهو الأغلى ثمنا من قطن الجنوب .. وكان استمرار الجنوب – الأفقر نسبيا – في زراعة القطن اعتمادا على وفرة الأيدي العاملة من السود نذيرا بتحول الجنوب إلى قوة اقتصادية جديدة توقف حال طبقة المستوردين الغنية بالشمال .. لذا ضغطت الولايات الشمالية ، ونجحت في دفع الكونجرس إلى اتخاذ قرار يضع حدا لانتشار العبودية .. وكان الحد من انتشار العبودية يعني ألا يشتغل السود بالمجان في حقول القطن ، وبذلك ترتفع أسعار القطن الجنوبي ، وتتحول الكفة لصالح القطن المستورد ..

وبدأ الصراع بين الشمال والجنوب يزداد حدة عاما بعد عام .. كان الشمال يغلف مطالبه بالحديث عن الإنسانية والعدل ، وكان الجنوب فطنا إلى دوافع الشمال .. وفي منتصف خمسينات القرن التاسع عشر كان عدد السكان في أمريكا قد اقترب من 24 مليون ، منهم 19 مليون يسكنون في الشمال و5 مليون يسكنون في الجنوب .. وإضافة إلى هؤلاء ، كان يسكن أقل من نصف مليون أسود في الشمال ونحو 3.5 مليون أسود في الجنوب مشكلين قوة هائلة على صعيد العمل والإنتاج ..

وفي عام 1858 وقف لينكولن يلقي خطبة في شارلستون عن قضية السود ، فقال : " لست الآن ولم أكن في أي يوم مع تحقيق أي شكل من أشكال المساواة السياسية أو الاجتماعية بين العرقين الأبيض والأسود .. ولست الآن ولم أكن أبدا مع إعطاء السود حق التصويت أو حق الانتماء إلى هيئة محلفين ، ولست كذلك مع السماح لهم بتولي مناصب عامة أو بالزواج من البيض .. وأود أن أضيف إلى ما قلته : إن هناك فارقا فسيولوجيا بين العرقين الأبيض والأسود سيحول دوما في رأيي بينهما وبين العيش معا على أساس المساواة السياسية والاجتماعية " ..

كانت هذه كلمات محرر العبيد قبل اندلاع الحرب الأهلية بثلاثة أعوام .. لم تفلح كلماته في تهدئة مخاوف الجنوب ..

وتعقدت الأمور أكثر فأكثر عندما أعلنت ولاية كارولينا الجنوبية انسحابها من الولايات المتحدة الأمريكية في ديسمبر 1860 .. ثم غادرت الاتحاد ست ولايات جنوبية أخرى هي فلوريدا وجورجيا وألاباما والميسيسيبي ولويزيانا وتكساس في الأسابيع القليلة التالية .. وهددت أربع ولايات أخرى هي كارولينا الشمالية وأركانساس وتينيسي وفيرجينيا بالانفصال .. وأصبحت الولايات المتحدة على شفا كارثة ..

وفي 12 أبريل 1861 نشبت الحرب .. وكان جيش الشمال النظامي قليل العدد نوعا ما ، فتم حشر مائة ألف أسود في الخدمة العسكرية ..

وفي 22 أغسطس 1862 كتب **لينكولن** جوابا إلى السيد **هوراس جريلي** يرد فيه على رسالة سابقة وقال فيه : " إنني أريد إنقاذ الاتحاد الأمريكي .. وإنني أريد إنقاذه بأقصر الطرق الممكنة بموجب الدستور .. وإذا كان هناك أناس لا يرغبون في إنقاذ الاتحاد إلا إذا استطاعوا في الوقت نفسه إنقاذ الرق ، فلست أشاركهم الرأي .. وإذا كان هناك أناس لا يريدون إنقاذ الاتحاد إلا إذا استطاعوا في الوقت نفسه القضاء على الرق ، فلست أشاركهم الرأي .. إن هدفي الأسمى في هذا الصراع هو إنقاذ الاتحاد ، وليس إنقاذ الرق أو القضاء عليه .. فإذا ما استطعت إنقاذ الاتحاد دون تحرير أي رقيق ، فسوف أفعل .. وإذا استطعت إنقاذه بتحرير كل الرقيق ، فسوف أفعل " .. لقد كان **لينكولن** حريصا على الوحدة الأمريكية ، وكان يؤرقه أن تؤدي الحرب إلى الانقسام ..

وفي عام 1865 نجح الشمال أخيرا في حسم الحرب لصالحه بعد تأرجح الكفتين على مدى سنوات الحرب. ومع انتهاء الحرب الأهلية بالحفاظ على الاتحاد الأمريكي ، لم تلتفت كتب التاريخ لما حدث بعد ذلك للسود .. فقد نالوا حريتهم في الجنوب وفقدوا عملهم في نفس اللحظة ، ووقفوا حائرين بمصائرهم .. لقد أفقر سادتهم بسبب الحرب ، وأصبح ثلاثة ملايين أسود فجأة بلا مورد رزق .. انتشر الجوع والوباء وتساقط السود أمواتا ، وقد قدر المؤرخ الأمريكي **فليمنج** عدد السود الذين لقوا حتفهم سنة 1865 وحدها بنحو 200 ألف شخص ..

ألغيت العبودية في أمريكا ، وأمر الرئيس لينكولن بدفع تعويضات لملاك العبيد في الجنوب ..

ولكن لم يخطر ببال أحد وقتها أن يدفع تعويضات للعبيد أنفسهم عن كونهم عبيدا !! ..

* * *

ورغم أن القرن التاسع عشر هو القرن الذي شهد إلغاء العبودية ، لكنه شهد كذلك إنشاء واحدة من أبغض المنظمات في التاريخ .. إنها منظمة كو كلوكس كلان السرية التي تفوقت على جميع التنظيمات الإرهابية التي تحاربها أمريكا اليوم .. أنشئت المنظمة في عام 1815 ، وكانت معنية بمطاردة السود في كل مكان .. وكان السود الذين يقعون في أيديهم يُشنقون على الأشجار .. وقد تجدد نشاطها بمنتهى القوة والقسوة في أعقاب الحرب الأهلية عام 1865 .. وكان نشاطها محموما في سنوات ما بعد الحرب بغرض تقويض أي حقوق أو مكاسب حصل عليها السود حديثا .. ومن اللافت للنظر أن المنظمة قد عادت للظهور من جديد في

عام 1915 في الجنوب ، ومن بين الجرائم الشهيرة لأعضاء تلك المنظمة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى نرصد واقعتين ، الأولى : كان هناك أسود متهما في جريمة قتل ، فقام أعضاء المنظمة بالإمساك به بدون تحقيق وبعيدا عن الشرطة وأتوا به إلى مسرح وصعدوا على المنصة وربطوه في عمود ، ثم أطلقوا النار عليه في حضور المشاهدين وكأنها مسرحية يتسلى بها الجمهور وقد انطلقت الرصاصات من المقصورة ومن الصالة لتستقر في جسد الأسود سبع رصاصات حقيقية في جو مسرحي بهيج !! ..

أما الحادثة الثانية فتحكي قصة شاب أسود كان يسبح في إحدى البحيرات ثم جرفه التيار وشارف على الغرق ، ثم نجح في التعلق بقطعة خشب سحبته ببطء نحو شاطئ يخص البيض ، وعندما اقترب من الشاطئ شاهده بعض هؤلاء المجانين فقاموا برجمه بالحجارة حتى غرق ..

ولن يكون مستغربا إذا كان للمنظمة وجود بشكل أو بآخر في مطلع القرن الحادي والعشرين ..

* * *

عُدنا إلى القرن الثامن عشر .. إنه القرن الذي استقلت فيه الولايات المتحدة في ربعه الأخير ..

ونتوقف أمام شخصية تاريخية أخرى كان لها نصيب من قضية الرق والعبودية .. إنه **جورج واشنطن** الرئيس الأول للولايات المتحدة وقائد حركة التحرير ..

في عام 1772 – قبل الاستقلال عن بريطانيا بأربعة أعوام – كان **واشنطن** عضوا في مجلس البورجيز الذي قدم اعتراضا مكتوبا للملك البريطاني ، يتناول استيراد العبيد من أفريقيا وإحضارهم للقارة الأمريكية .. وصف الاعتراض تجارة العبيد بأنها تجارة غير إنسانية تشوه صورة التاج البريطاني في أمريكا ..

وجاء في نص الاعتراض العبارة التالية : ***" إن أكبر رغبة لنا هي أن نرى نهاية تامة وأبدية لهذه التجارة القاسية غير الطبيعية والشريرة " .. ورغم هذا الموقف الإنساني المؤثر ، فإن جورج واشنطن شخصيا كان من ملاك العبيد ! ..***

ففي الحادية عشر من عمره ورث 11 عبدا و500 فدان طبقا لوصية أبيه .. وفي الثانية والعشرين كان يملك 36 عبدا .. وعندما أعلن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية في عام 1789 كان عدد العبيد الذين يملكهم قد وصل إلى 300 عبد . وقد أوصى **واشنطن** قبل وفاته ألا ينال عبيده حريتهم إلا بعد وفاة زوجته .

كان جورج واشنطن نموذجا ومثلا أعلى لجميع الرؤساء الأمريكان من بعده ، الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يقولون .. وكان **واشنطن** واحدا من المشرفين على وضع الدستور الأمريكي النزيه ..

ونختتم القرن بحكاية تخص الدستور ..

فقد تناهى إلى سمع الأمة السابقة وزعيمة حركة إلغاء الرق **سوجورنر تروث** أن شخصا يثني على دستور الولايات المتحدة الذي تم وضعه في عام 1787 ، فعلقت قائلة : " يا أبنائي .. إنني أكلم الرب والرب يكلمني .. أمضي إلى الخارج وأكلم الرب في الحقول وفي الغابات .. كنت أمشي ذات يوم في طريقي ، ثم جاوزت سورا أمامي .. فرأيت سنابل قمح تعلوه ، وبدت كبيرة جدا .. أمسكت بحفنة من السنابل ، فهل

تصدقون ما حدث ؟ .. لم يكن هناك أي أثر للقمح .. فقلت مخاطبة ربي : يا إلهي .. ما حكاية هذا القمح ؟ .. وأجابني الرب : " يا **سوجورنر** .. إن به بعضا من المراوغة ".. والآن يُسمعني البعض كلاما عن الدستور وحقوق الإنسان .. نهضت من مكاني ، وأمسكت بكل مواد الدستور .. بدا لي كبير الحجم ثقيل الوزن .. كان بداخلي شعور بالرغبة في السؤال عن حقوقي كسوداء .. لكنني لم أجد شيئا من ذلك في الدستور .. توجهت إلى ربي سائلة إياه : يا إلهي .. ما أمر هذا الدستور ؟ .. فأجابني الرب من جديد : " يا **سوجورنر** .. أولم تدركي بعد ؟ .. إن به بعضا من المراوغة " .. " ! ..

وقد برعت الإدارات الأمريكية جيلا بعد جيل في مراوغة السود ، ومن قبلهم الهنود ، ومن بعدهم جميع من حاولوا الصمود ..

* * *

ربما يكون من الإنصاف عند التصدي للمرحلة التاريخية المبكرة التي تبدأ باكتشاف القارة الأمريكية في نهاية القرن الخامس عشر وتنتهي باستقلال الولايات المتحدة في أواخر القرن الثامن عشر ، أن ننتبه إلى مسئولية الجميع عن استرقاق الأفارقة وشحنهم إلى العالم الجديد ..

فقد وصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى العالم الجديد في عام 1505 .. وكانت بواسطة تجار العبيد في شبه جزيرة أيبيريا[2] وبالتحديد تجار قشتالة .. كانت تجارة عبيد أفريقيا آنذاك لم تزل بعد تجارة وليدة .. وقد تطورت فكرة الاستعانة بعبيد من أفريقيا بعد أن وجد الوافدون الجدد أراض زراعية خصبة في العالم الجديد .. ولم تنجح مسألة الاستعانة بالسكان الأصليين – الهنود الحمر – لأنه جرت العادة أن يقاتل الوافدون الهنود في كل منطقة جديدة تطأها أقدامهم .. فكان الذي يجمع القادمين بالموجودين هو القتل والمقاومة والتمرد .. وكان الحل السحري في إحضار العبيد من أفريقيا لفلاحة الأراضي الشاسعة .. كانت هناك أكثر من وسيلة لإنجاح عملية شحن الأفارقة عبر المحيط .. كانت هناك الإرساليات التبشيرية ، وكانت مهمتها إقناع الأفارقة بالمسيحية ، ثم تعزيز قبول الذين اعتنقوا المسيحية لفكرة العبودية للرجل الأبيض وخدمته في العالم الجديد ، ولم تكن هذه الفكرة على درجة كافية من الإبهار ! .. وكانت هناك فكرة استغلال النزاعات التقليدية بين القبائل والعمل على إشعالها أو افتعالها إن كان السلام لا قدر الله سائدا ! .. وعندما كان القتال يدور بين القبائل المختلفة ، كان تجار العبيد يظهرون لشراء الأسرى من الطرفين مقابل بعض الخمور أو الأسلحة ، وعند تجميع عدد كاف من الأسرى المشترين يتم شحنهم إلى أمريكا ، وكان هذا عملا ناجحا إلى حد بعيد .. وقد أتى غالبية الأفارقة الذين تم صيدهم وشحنهم إلى أمريكا من مناطق على ساحل أفريقيا الغربي بدءا من السنغال وجامبيا في الشمال وحتى أنجولا في الجنوب مرورا بغينيا وسيراليون وليبيريا وكوت ديفوار وغانا وتوجو وبنين ونيجيريا والكاميرون والجابون والكونجو .. وكانت الرحلة عبر المحيط الأطلنطي في منتهى القسوة .. فهناك مَن تم إلقاؤهم في المحيط عندما مرضوا بسبب

---

[2] إسبانيا والبرتغال

الجوع أو الظروف غير الصحية التي كانت تحيط بهم أثناء عملية الشحن في السفن .. وهناك مَن قُتلوا قبل ركوب السفن أثناء محاولات الهرب من القناصة .. وهناك من فضلوا القفز من السفن إلى قاع المحيط مفضلين الموت على استمرارهم في رحلة العبودية .. وقد قُدّر عدد الذين هلكوا للأسباب المختلفة المذكورة على امتداد رحلات العبيد على مدار أربعة قرون أكثر من مائة مليون عبد أفريقي .. أما الذين واصلوا رحلتهم بنجاح ، ووصلوا إلى العالم الجديد فكانوا ما بين 20 إلى 25 مليون عبد .. والغريب أن الكنائس كانت مشاركة في الجريمة ، فكان كل ما تطلبه هو تعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا حتى يتيسر إنقاذ أرواحهم ! .. وفي بعض الأحيان كان يصاحب سفينة العبيد عبر المحيط أحد القساوسة ، وكان يجلس على مقعده الرخامي على الشاطئ أمام السفينة ، فيقوم بتعميد العبيد عبدا عبدا ، ويقبض نصيبه من رسوم التصدير ، وقد وصلت هذه الضريبة في القرن السابع عشر إلى 300 كراون يدفعها تاجر الرقيق عن كل عبد ..

* * *

وقبيل إنهاء الفصل الأسود نتوقف أمام أربعة مشاهد من بين عشرات المشاهد ، نرى منها لقطات من مظاهر العبودية والاستحمار في تلك المرحلة المبكرة من مسيرة الاسترقاق الملعونة ..

المشهد الأول على شاطئ مستعمرة فيرجينيا – مسقط رأس العديد من الرؤساء الأوائل للولايات المتحدة فيما بعد – .. ففي عام 1619 قدمت إلى فيرجينيا أول سفينة تحمل أول فوج من الرقيق الأسود .. كانت المرأة آنذاك تساوي أربع لترات من حب العرعر ، ستة قضبان من الحديد ، وبندقيتين صغيرتين ، وبرميلا من البارود وعقدين من اللؤلؤ .. أما الرجل فكان يساوي ثمان بنادق ، قنينة مضلعة بالخيزران ، وصندوقا من الكحول ، و 28 قطعة من الجوخ ! ..

والمشهد الثاني يبدأ من لندن في عام 1660 عندما أصدر الملك **تشارلز الثاني** ملك بريطانيا مرسوما ملكيا يقضي بتعليم جميع السكان الأصليين والخدم والعبيد في المستعمرات البريطانية تعاليم المسيحية .. وكان ذلك يقتضي تعلم القراءة .. ويسجل التاريخ أن أكثر مستعمرات بريطانيا مقاومة لذلك المرسوم كانت المستعمرات الأمريكية ، إذ صدرت في ولاية كارولينا الجنوبية قوانين صارمة تحظر تعلم القراءة بالنسبة لجميع السود أرقاء كانوا أو أحرار ، وينطوي المشهد على مشاهد فرعية تروي محاولات السود المتعددة لتعلم القراءة والتعذيب الذي يتعرضون له إذا ما ضبطوا متلبسين بجريمة القراءة ، حيث تنوعت صنوف العذاب ما بين الجلد المتصاعد الدرجات إلى قطع المفصل الأول من السبابة انتهاء بالإعدام شنقا في بعض المناطق ..

والمشهد الثالث على شاطئ نهر جيمس بمستعمرة فيرجينيا .. فقد أتى مالك العبيد المخضرم **ويليام بانش** في عام 1712 إلى فيرجينيا بناء على دعوة من أحد أصدقائه ليلقي محاضرة على ملاك العبيد الذين أتوا إليه من جميع الأنحاء ليستمعوا إلى خبرته في ترويض العبيد وأساليبه الفعالة لإخضاعهم .. وأنتقي هنا

فقرات متفرقة من محاضرته الشاذة ، حيث وقف **ويليام بانش** يقول : " إنني هنا لأساعدكم على حل بعض مشاكلكم مع عبيدكم .. إن دعوتكم وصلتني في مزرعتي المتواضعة في جزر الهند الغربية ، حيث جربت عددا من الوسائل الحديثة والوسائل القديمة للسيطرة على العبيد ، وإن روما القديمة يمكن أن تحسدنا إذا طُبق برنامجي ..

عندما كان قاربنا يبحر جنوبا في نهر جيمس ، رأيت ما يكفي لمعرفة أن مشكلتكم ليست فريدة ، وفي حين كانت روما القديمة تستخدم الخشب كصلبان لوضع الأجسام البشرية على طول الطرق الرئيسية فأنتم هنا تستخدمون الشجر والحبال لهذا الأمر ، وقد لمحت عبدا ميتا معلقا على شجرة على بعد ميلين ، وأنتم بهذه الطريقة لا تفتقدون فقط هذه الثروة التي تعلقونها ، ولكنكم أيضا تعانون من الانتفاضات ومن هروب العبيد بعيدا ، ومن أن محاصيلكم تبقى في الحقول بغير جني حتى تفسد .. أيها السادة ، إنكم تعرفون ما هي مشاكلكم ، ولست في حاجة إلى شرحها لكم ولست هنا ألقي الضوء عليها ، إنما أتيت لأقدم لكم وسيلة لحل هذه المشاكل .. في حقيبتي هذه وسيلة مجربة يمكنكم بها السيطرة على عبيدكم ، وإني أضمن لكل واحد منكم إذا استخدمها بشكل صائب فستمكنه من السيطرة على العبيد لمدة لا تقل عن 300 سنة ..

إنني أبحث عن عدد من الاختلافات بين العبيد وآخذ هذه الخلافات وأعمل على تضخيمها ، أستخدم وأستعمل الخوف وعدم الثقة والحسد لأغراض السيطرة ، وهذه الوسائل نجحت في مزرعتي المتواضعة في جزر الهند وستعمل أيضا في كل الجنوب ..

أيها السيد .. خذ هذه القائمة الصغيرة البسيطة من الاختلافات وفكر فيها .. في قمة قائمتي ستجد اختلاف السن واللون وهناك أيضا الذكاء والحجم والجنس ومساحة المزارع وحالة المزرعة ووضع الملاك ، وحيثما يكون العبيد يحيون في الوادي أو على التل في الشرق أو الغرب في الشمال أو الجنوب أو يكون شعرهم خشنا أو ناعما أو يكونون طوالا أو قصارا .. الآن لديك قائمة بالاختلافات وأعطيك طريقة للعمل .. ولكن قبل ذلك أؤكد لك أن زرع الشك وفقدان الثقة هو أقوى من الثقة ، وأن الحقد أقوى من التملق أو الاحترام أو الإعجاب ، وأن العبد الأسود بعد أن يتشرب هذه المشاعر فسيحملها وسيغذيها تغذية ذاتية وسيولدها في نفسه لمئات السنين .. لا تنس أن تضع الرجل الأسود العجوز ضد الرجل الأسود الشاب ، والرجل الأسود الشاب ضد الرجل العجوز الأسود .. يتعين عليك أن تستخدم العبيد ذوي البشرة الداكنة ضد ذوي البشرة الأقل سوادا ، وذوي البشرة الأقل سوادا ضد العبيد ذوي البشرة الداكنة .. يتعين عليك أن تستخدم الرجال ضد النساء والنساء ضد الرجال ، ويتعين عليك أيضا أن تجعل الخدم البيض فاقدي الثقة بكل السود ، ومن الضروري أن تجعل عبيدك واثقين بنا ومعتمدين علينا ويجب أن يحبونا ويحترمونا ويثقوا بنا نحن فقط .. أيها السادة هذه الأساليب هي مفتاحكم للسيطرة فاستخدموها ، واجعلوا زوجاتكم وأطفالكم يستخدمونها ولا يتركون أية فرصة تفلت منهم .. إذا استخدمت هذه الوسيلة بكثافة لسنة واحدة فسيبقى العبيد دائما فاقدي الثقة .. إن الحصان والزنجي كليهما لا يفيدان الاقتصاد في الحالة الطبيعية

والبدائية ، كليهما يتعين أن يروض ، وأن يُربطا بعضهما ببعض للإنتاج المنظم .. استخدم أكثر الزنوج عنادا واخلع عنه ملابسه أمام الزنوج الذكور الآخرين وأمام النساء وأمام الأطفال واطله بالقار ، وضع عليه الريش ، واربط كل ساق له بحصان يتجه عكس الحصان الآخر ، ثم اضرب الحصانين لينشطر أمام جميع الزنوج الموجودين .. والخطوة الثانية أن تمسك بسوط وتضرب الزنوج الباقين إلى حد الموت أمام النساء والأطفال .. لا تقتلهم ولكن اجعلهم يخافون ، لأنهم يمكن أن يكونوا مفيدين في إنجاب الأطفال بعد ذلك .. " !! ..

كان ملاك العبيد يسمعون **ويليام بانش** بمزيج من الدهشة والإعجاب ، وقاموا بتحية صديقه الذي دعاه ليساهم في حل مشاكلهم مع العبيد في القارة الأمريكية ..

أما المشهد الرابع ، فيحكي قصة ملك الكونجو **ألفونس الأول** مع ملك البرتغال **جوا الثالث** في زمن الاحتلال البرتغالي للكونجو ..

كان هذا الملك الأفريقي قد تحول إلى المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية قراءة وكتابة .. وفي يوم من الأيام ، بعث إلى ملك البرتغال الملك **جوا الثالث** يشكو إليه تجريد الكونجو من السكان بواسطة تجارة العبيد البرتغالية ، فكتب إليه يقول : " إن التجار يخطفون كل يوم المئات من الأطفال وأبناء النبلاء وحتى أناس من عائلتنا .. إن الفساد والنذالة والخسة تنتشر .. نحن نحتاج في هذه المملكة فقط إلى القساوسة والمدرسين ، ولا نحتاج لتجارة العبيد أو خطفهم إلى خارج المملكة " .. فرد عليه ملك البرتغال الأوروبي المتحضر يقول :" إنك تقول أنك لا تريد تجارة العبيد في مملكتك ، لأن هذه التجارة تجرد بلدك من سكانه .. وعلى العكس من ذلك فإن البرتغاليين قالوا لي إلى أي مدى الكونجو واسعة ومكتظة بالسكان " !! ..

* * *

منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى سبعينات القرن التاسع عشر شُحن من أفريقيا إلى الأمريكتين خمسة وعشرين مليون عبد ..

وهذا أكبر " تهجير تجاري" عرفه التاريخ ..

وذلك بعد أكبر عملية " إفناء اجتماعي" عرفها التاريخ أيضا ، وهي إبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين ..

هذا هو ما نعرفه اليوم باسم " سياسة الإحلال والتبديل " !

... وبدأ الأصلع مطاردة الصقور!

لكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟

ما الذي فعله المهاجرون إلى أمريكا بعد أن أحكموا سيطرتهم على شرق القارة وأبادوا الهنود واستعبدوا الأفارقة ؟ ..

بدأت الحرب ضد الإمبراطورية البريطانية .. فقد كانت تلك الولايات (المستعمرات) الأمريكية[3] خاضعة للسيطرة البريطانية ، ومن ضمن الأسلحة المستخدمة آنذاك كان سلاح مقاطعة البضائع الإنجليزية ! ..

وفي زيارة لـ **بنيامين فرانكلين** إلى بريطانيا قبل اتساع نطاق الثورة ضدها ، دار بينه وبين أحد الإنجليز هذا الحوار عن علاقة البلدين :

س : ما الذي كان في المعتاد موضع فخر الأمريكيين ؟

ج : الاستمتاع بمنتجات بريطانيا العظمى من أحدث طراز ..

س : وما هو موضع فخرهم الآن ؟

ج : أن يرتدوا ملابسهم القديمة مرة أخرى إلى أن يتمكنوا من صنع ملابس جديدة ..

واستمرت المقاومة العسكرية حتى نجح القائد الأمريكي **جورج واشنطن** في إعلان الاستقلال في الرابع من يوليو 1776 ، وإن كانت الحرب قد استمرت خمس سنوات بعد ذلك بمساعدة لا تنسى من الفرنسيين الذين عقدوا مع الأمريكيين حلفا عسكريا في فبراير 1778 بعد أن نجح الجيش الأمريكي في إحراز نصر عسكري هام في معركة ساراتوجا في أكتوبر 1777.. وفي ديسمبر 1782 اعترف ملك بريطانيا **جورج الثالث** باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية في خطبة العرش ..

ثم ماذا ؟..

ثم بدأ الالتفات المحموم نحو باقي القارة المترامية الأطراف ، فاستولوا عليها بمنتهى السرعة والقسوة ..

* * *

هناك ثلاثة قواعد معلنة هي التي كانت تحرك السياسة الأمريكية تجاه العالم ..

مبدأ **مونرو** في أمريكا الجنوبية ، مبدأ **أيزنهاور** في الشرق الأوسط ، نظرية الدومينو في آسيا ..

مبدأ الرئيس الأمريكي **جيمس مونرو** في ديسمبر 1823 : " إن الظروف الحالية مناسبة لنعلن أنه لا يجوز من الآن لأية دولة أوروبية أن تعد القارتين الأمريكيتين – اللتين اعتنقتا مبادئ الحرية والاستقلال وحافظتا عليها – مكانا صالحا للاستعمار .. نحن لم نتدخل قط في الحروب التي قامت بين دول أوروبا بسبب شئونها الخاصة بها ، لأن هذا التدخل يتعارض مع سياستنا .. أما إذا اعتُدي على حقوقنا ، أو هددها خطر ، فإننا حينئذ لن نصبر ، بل سوف نعد العدة للدفاع عن أنفسنا .. ونحن بحكم الضرورة ولأسباب واضحة

[3] كان عددها 13 منذ عام 1607 وحتى نهاية القرن الثامن عشر

مرتبطون ارتباطا مباشرا بكل ما يحدث في الأمريكيتين الشمالية والجنوبية " .. باختصار كان المبدأ يقول أن للأوروبيين العالم القديم ، وللأمريكان العالم الجديد ..

مبدأ الرئيس الأمريكي **دوايت أيزنهاور** الذي أعلنه في يناير 1957 كان ينص على التزام الولايات المتحدة بتأمين وحماية السلامة الإقليمية والاستقلال السياسي للدول التي تطلب العون ضد أي عدوان مسلح من قبل أية دولة تخضع للشيوعية الدولية ..

أما نظرية الدومينو في أسيا والتي ذاع الحديث عنها في أعقاب الحرب العالمية الثانية فمعناها أنه إذا ما انتشرت الشيوعية في أية دولة من دول أسيا – وهي بحكم الجغرافيا أقرب للاتحاد السوفيتي منها إلى الولايات المتحدة – فإن ذلك سوف يؤدي إلى سقوط كل الدول المحيطة في براثن الشيوعية ، تماما مثل الدومينو حيث تقع جميع القطع في تسلسل سريع متصل ..

* * *

فلتكن البداية من الأمريكتين ..

سؤال بديهي وهام : ما مدى أهمية أمريكا الجنوبية بالنسبة للولايات المتحدة ؟

أولا : يد عاملة رخيصة ..

ثانيا : احتكار المواد الخام والاستفادة من رخص أسعارها ..

وثالثا : سوق كبيرة تستوعب المنتجات والأسلحة الأمريكية ..

ولن يتم هذا إلا في ظل تعاون كامل من قبل حكومات موالية ..

ولن تباع الأسلحة في أمريكا الجنوبية إلا إذا كان الشعب يرفض هذه الحكومات الموالية ..

وبما أن الشعب رافض وبما أن السلطة تابعة ، فسوف تُباع الأسلحة وسوف تُحتكر الأسواق ..

(3)
المكسيك : إنه النصيب !

إذا كان جارك أقوى منك وأكبر منك حجما ،

وإذا كان عديم الأخلاق ،

وإذا كان طماعا جشعا ..

وإذا كنت غنيا أو تملك شيئا يهمه ،

وإذا كنت ضعيفا ،

وإذا كنت عنيدا ..

فسوف يحدث لك بالضبط ما حدث مع المكسيك ..

* * *

ففي عام 1835 عرضت أمريكا على المكسيك شراء كاليفورنيا مقابل 5 مليون دولار ، إلا أن المكسيك رفضت العرض ..

ثم نشبت أزمة بين البلدين بعد أن تمرد إقليم تكساس المكسيكي ، وأعلن استقلاله من جانب واحد عن المكسيك في عام 1836 ، وكان ذلك بإيعاز من الولايات المتحدة التي سارعت إلى الاعتراف بالدولة الجديدة وأرسلت قائما بالأعمال ليمثلها هناك وهو ما أسفر عن توتر العلاقات بين المكسيك والولايات المتحدة .. ولم تكن المكسيك بالقوة التي تسمح لها بالتصرف ، فقد كان هناك عدد كبير من المستوطنين الأمريكيين الذين نزحوا إلى تكساس مع بداية القرن التاسع عشر وتجنسوا بالجنسية المكسيكية ، لكن لم يعجبهم أسلوب حكم المكسيكيين للإقليم ، فقرروا التمرد .. وبعد عدة معارك دموية بين الأمريكان والمكسيكيين أُجبر الرئيس المكسيكي **سانتا آنا** على توقيع معاهدة فيلاسكو في عام 1836 والتي على أساسها مُنح إقليم تكساس استقلاله ..

رفض المكسيكيون الاعتراف بشرعية المعاهدة .. أما سبب الرفض فكان مضحكا إلى حد مضحك ! ..

رفضوا المعاهدة لأن الرئيس المكسيكي **سانتا آنا** كان في السجن في تكساس عندما وقع المعاهدة !! ..

* * *

قررت تكساس بعد ذلك الانضمام للولايات المتحدة وأعلن الكونجرس في يوليو 1845 ضمها للولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ما أثار غضب المكسيك وأعلن وزيرها المفوض في واشنطن **ألمونتي** " أن المكسيك ستثبت حقوقها في تكساس بكل وسيلة في استطاعتها " .. ولم يكن في استطاعتها شئ .. وفي نوفمبر من نفس العام جددت أمريكا عرضها بشراء كاليفورنيا مقابل 25 مليون دولار هذه المرة ، بالإضافة إلى نيو مكسيكو مقابل 5 مليون دولار ، ومن جديد رفضت المكسيك العرضين ..

فأمر الرئيس الأمريكي **بولك** بغزو المكسيك في مطلع عام 1846 لتنفيذ عرض الشراء بالقوة ، ونجح في الاستيلاء على نيو مكسيكو واستمر في التوغل غربا حتى وصل إلى كاليفورنيا وبعد شئ من الصعوبة انضمت كاليفورنيا في بداية عام 1847 .. وفي شهر مارس من العام نفسه واصل الجيش الأمريكي تقدمه حتى دخل العاصمة المكسيكية مكسيكو سيتي واحتلها تماما في أكتوبر ..

استسلمت المكسيك وتم توقيع معاهدة جوادالوبي – هيدالجو في فبراير 1848 ، وبمقتضى المعاهدة تنازلت المكسيك للولايات المتحدة عن شمال المكسيك بالكامل وهو ما يمثل نصف أراضيها ، وفي المقابل وافقت الولايات المتحدة بمنتهى السخاء على دفع 15 مليون دولار للمكسيك تعويضا عن أراضيها التي استولت عليها والتي عُرفت فيما بعد بولايات كاليفورنيا ، نيفادا ، أريزونا ، نيو مكسيكو ، يوتاه ، كولورادو .. فضلا عن تكساس التي كانت قد انفصلت من قبل ..

كانت رغبة أمريكا في احتكار تجارة القطن أحد الدوافع الرئيسية للحرب ضد المكسيك ، حتى أن الرئيس الأمريكي **بولك** قال بعد ضم تكساس : " الآن فقط تستطيع الولايات المتحدة التحكم في تجارة القطن " ، هذا بخلاف أطنان الذهب في الطريق إلى الساحل الغربي بكاليفورنيا ..

* * *

ورغم مضي أكثر من 150 سنة على تلك الأحداث ، إلا أن شيئا لم يتغير في علاقة الجارين ..

فما زال منطق القوة سائدا ..

وفي المعتاد إذا كان جارك مفتريا ، واستحالت معاشرته ، فإنك قد تلجأ إلى العزال .. إلى الانتقال إلى مكان آخر تجد فيه راحتك وحريتك ..

هذا في حالة الجيران من بني البشر ، أما في حالة الجيران من بني الدول ، فماذا بوسعك أن تفعل ؟

إذا التفتت المكسيك يسارا لوجدت المحيط الهادي ، وإذا استدارت يمينا لوجدت المحيط الأطلنطي ..

فليس أمامها إلا أن تشرب من البحر !

(4)
كـــوبـــا : رغم أنف التاريخ

أما حكاية كوبا ، فتبدأ قبل حوالي 200 سنة ..

فقد اقترح **توماس جيفرسون** (الرئيس الثالث : 1801 - 1809) على **جيمس ماديسون** (الرئيس الرابع : 1809 - 1817) وقت ولاية **ماديسون** أن يعرض على الإمبراطور الفرنسي **نابليون الأول** إطلاق يده في أمريكا الجنوبية في مقابل حصول الولايات المتحدة على كوبا ..

وفي نفس الحقبة الزمنية وصف وزير الخارجية **جون كوينسي آدامز** (الرئيس السادس بعد ذلك : 1825 – 1829) كوبا بأنها ذات أهمية بالغة للمصالح التجارية والسياسية الأمريكية ، وطالب بإبقاء كوبا تحت السيادة الإسبانية إلى أن تقع في أيدي الولايات المتحدة بشكل أو بآخر !

وقد وقعت بآخر !!

أما كيف وقعت كوبا ، فلهذا قصة تستحق السرد قطعا ..

* * *

كان بطل كوبا القومي **خوزيه مارتي** يقود النضال ضد إسبانيا لنيل الاستقلال ، وظل الكفاح لسنوات طويلة لم تسفر عن شئ ، حتى نجحت كوبا في الاستقلال عام 1898 بعد تدخل أمريكا .. والحقيقة أن الأسلوب الماكر الذي تدخلت به أمريكا يستحق الإعجاب ..

فقد نجحت الصحافة الأمريكية في إثارة الرأي العام ، الذي ضغط بدوره على الحكومة من أجل التدخل الإنساني لإنقاذ شعب كوبا المسكين ، ومكافأة ذلك الشعب بالعمل على ضم الجزيرة إلى الولايات المتحدة .. فرضخت الحكومة وبدت وكأنها مجبرة على التدخل !

بدأت الصحف في شن حملة ضد الجنرال **ويلر** الحاكم الإسباني للجزيرة وأطلقت عليه لقب الجزار ، ونُشرت قصص مروعة عن مدى وحشية الإسبان وكان أغلب ذلك فبركة صحفية .. بل إن الأمر وصل إلى حد أن رسام جريدة نيويورك بعث إلى رئيس التحرير يشكو له من الملل وهدوء الأحوال على الجزيرة ويطلب العودة ، فأرسل له رئيس التحرير ردا مكتوبا جاء فيه : " لا تعد من فضلك .. سوف تمدنا أنت بالصور ، وسوف نمدك نحن بالحرب " ! ..

وقد نجحوا في ذلك ..

* * *

فقد خرجت جميع الصحف في منتصف فبراير 1898 تتحدث عن غرق البارجة الأمريكية ماين أمام سواحل كوبا بفعل لغم إسباني مضاد ، ففقدت البحرية الأمريكية 260 رجلا من خيرة الرجال وأشجع الرجال ..

بادرت إسبانيا بالاعتذار دون أن تقف على حقيقة ما حدث ، بل وسارعت بتقديم تنازلات ، غير أن هذا لم يشفع لها ولم تقبل أمريكا بأقل من انسحاب إسبانيا من الجزيرة .. المثير أنه بعد حدوث الانفجار طلب قائد البارجة ماين التروي في افتراض حدوث هجوم على البارجة حتى تُستكمل التحقيقات عن سبب الانفجار ، إلا أن أحدا لم يسمع له .. وأعلنت أمريكا الحرب ضد إسبانيا رافعة شعار : " تذكروا ماين " ..[4]

المهم .. بدأ القتال في أول مايو 1898 وانتهى في عشرة أسابيع بطرد الإسبان و" استقلال " كوبا .. لم تهنأ كوبا بالحرية ..

فبدأ الاحتلال الأمريكي مباشرة وحتى عام 1901 ، ثم من عام 1906 إلى 1909 ، وتدخلت لحماية مصالحها عام 1912 ، ثم عادت واحتلتها مرة أخرى من عام 1917 حتى 1922 ..

وعند بداية الاحتلال في المرة الأولى – 1898 إلى 1901 – عينت أمريكا في كوبا حكومة عسكرية تابعة لها ، فأدخلت هذه الحكومة تعديلا عُرف باسم " تعديل بلات " الذي وضع الجزيرة تحت سيطرة أمريكا ، فأصبح لها حق التدخل العسكري وحق التصرف والسيطرة على أموال كوبا وديونها ، بل والتحكم في معاهداتها مع الدول الأخرى ، بالإضافة إلى حق إقامة قواعد بحرية على أراضيها .. ونتيجة لهذا التعديل المدهش أصبحت الشركات الأمريكية في أواخر عشرينات القرن العشرين تتحكم في محصول القصب بالكامل ، فاحتكرت سكر كوبا ومنعتها من بيعه لأية دولة أخرى ، وتحولت كوبا إلى حالة نادرة في تاريخ علم الاقتصاد : اقتصاد المحصول الواحد لصالح دولة واحدة ..

* * *

وفي الثلاثينات اشتعلت من جديد المشاعر الثورية في كوبا ، فحاول الرئيس الكوبي **رامون مارتين** أن يهدئ من ثورة الشعب ، فحدّ من ملكية الأجانب للأراضي .. إلا أن انقلابا عسكريا في مارس 1952 تسانده أمريكا بقيادة **باتيستا** أنهى بوادر الإصلاح لتحكم أمريكا قبضتها من جديد ومن حديد .. فقد كان **باتيستا** شديد البطش ..

وبحلول الخمسينات كانت الشركات الأمريكية قد استولت على كل شئ تقريبا في كوبا : السكر والتبغ والورق والحديد والنحاس والمنجنيز والنيكل والغزل والنسيج والشواطئ والفنادق ونصف أراضي الدولة ونصف طرق السكك الحديدية وكل محطات الكهرباء و 90 % من خطوط التليفونات وسبع من أكبر عشر مزارع وربع طواحين السكر ... باختصار استولت على كوبا ..

اختنق الشعب من سيطرة الأجانب وفاض به الكيل ، فبدأت الحرب عام 1953 ضد الدكتاتور **باتيستا** ، وكان أبرز المعارضين هو **فيدل كاسترو** الذي قاد تمردا فاشلا في نفس ذلك العام ، فأُلقي القبض عليه .. ثم صدر عفو عام في منتصف 1955 ، وسُمح له بالخروج إلى المكسيك .. وكانت هذه غلطة **باتيستا** ..

---

[4] في عام 1975 أجرى تحقيق جديد لفحص معلومات كان قد تم الكشف عنها عام 1911 بعد فحص حطام البارجة ، واتضح من التحقيق عدم وجود أي دليل يشير إلى أن التفجير كان ناتجا عن عدوان خارجي ، وتم ترجيح أن يكون فحم البارجة قد اشتعل في المستودع الذي يُحفظ به ..

في المكسيك التقى **كاسترو** بـ **جيفارا** الذي ساعده على المقاومة وعلى العودة ، وظل الكفاح مستمرا ، وتخلت أمريكا عن مواصلة دعم **باتيستا** ، فسقط .. وجاء **كاسترو** إلى الحكم بدعم من **جيفارا** في مطلع عام 1959 ..

* * *

أول شئ فعله **كاسترو** قبل أن يجلس على كرسي الحكم كان تأميم بعض ممتلكات ومصانع أمريكا ، فثارت أمريكا وفرضت حظرا تجاريا على كوبا ، ثم قطعت علاقتها الدبلوماسية بها في العام التالي ..

في تلك الأثناء ، كانت بعض السفن والطائرات الكوبية تتعرض للخطف ، ويتم الذهاب بها إلى الولايات المتحدة ومصادرتها ، كنوع من التعويض المادي بحجة عدم وفاء كوبا بمستحقات المزارع الأمريكية التي تم تأميمها ..

وفي عام 1960 عرفت المخابرات الأمريكية بوجود صواريخ سوفيتية في كوبا ..[5]

وكانت الولايات المتحدة أمام خيارين : إما الحصار البحري على كوبا وتواجه بذلك الحرج في إيقاف وتفتيش السفن الحربية السوفيتية القادمة إلى كوبا ، وإما أن تخطط لقلب نظام **كاسترو** وتعيين نظام بديل ، وذلك من خلال التدخل العسكري غير المباشر بتمويل المرتزقة الكوبيين ..

ولجأت إلى الخيار الثاني ..

سلحت المخابرات أعدادا كبيرة من اللاجئين الكوبيين ودربتهم ، ووجهت 1500 منهم نحو غزو كوبا عند خليج الخنازير .. أبحر المتدربون في 17 أبريل 1961 من أمريكا الوسطى ومن فلوريدا بمساعدة سفن أمريكية .. مُني الغزو بالفشل الذريع .. عرض **كاسترو** تسليم 1200 أسير وقعوا في يده مقابل آلات زراعية حديثة ونقود سائلة .. اضطرت أمريكا إلى دفع 53 مليون دولار ..

الغريب أن وزارة الخارجية الأمريكية ظلت بعدها وقتا طويلا مصرة على الزعم بأن الولايات المتحدة ليس لها علاقة بعملية خليج الخنازير الفاشلة ..

* * *

ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن والولايات المتحدة تعتبر **كاسترو** واحدا من أبرز أعدائها ..

وقد حاولت اغتيال **كاسترو** 637 مرة في الأربعين سنة الأخيرة **!**

ومن بينها محاولة مفزعة ، عندما حلقت طائرة تحمل قذيفة الـ بي 26 في اتجاه إستاد رياضي كان **كاسترو** يلقي خطبة فيه أمام عشرات الألوف من الجماهير المحتشدة .. ولكن تمكنت قوات الدفاع الجوي الكوبية من

---

[5] بعد تفجُّر الأزمة ووصول الأمر إلى حافة الحرب النووية ، عرض الرئيس السوفيتي **نيكيتا خروشوف** أن يسحب السوفيت أسلحتهم النووية من كوبا الملاصقة للحدود الجنوبية للولايات المتحدة في مقابل أن يسحب الأمريكان أسلحتهم النووية من تركيا الملاصقة للحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي ، ورفضت أمريكا .. ثم تم سحب الأسلحة النووية متوسطة المدى التي تم نشرها في كوبا بعد 14 يوما من تفجر الأزمة في 15 أكتوبر 1962 في إطار صفقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ..

إبعاد الطائرة في اللحظة الأخيرة وقبل أن تصل إلى موقع إسقاط القنبلة .. وبخلاف ذلك ، فقد كانت للولايات المتحدة محاولات غريبة للانتقام من **كاسترو** ..

فقد حاولوا مرة إذلال **كاسترو** أمام شعبه بحلق لحيته عن طريق إدخال أملاح الثاليوم في أحذيته ، ومرة أخرى حاولوا دس مادة كيماوية داخل السيجار الذي يدخنه فيصيبه بهذيان عقلي مؤقت ، ومرة ثالثة حاولوا تلويث الهواء في المنطقة المحيطة بالمكان الذي سوف يلقي فيه إحدى خطبه مما يؤدي لإصابة زعيم كوبا بحالة هلوسة ، ومرة رابعة اقترحت المخابرات المركزية اقتراحا خائبا بإطلاق ألعاب نارية تحمل صورة المسيح لاستفزاز مشاعر **كاسترو** ، فهو شيوعي كافر لا يؤمن بالله **!**

*** * ***

ولكن لم تتوقف أمريكا عند الرغبة في النيل من شخص الرئيس الكوبي ، فقد تعرضت الجزيرة الكوبية لحزمة هائلة من الشر غير المبرر ، نورد بعضا منها في السطور التالية ..

في أغسطس 1962 تعرضت مروحة سفينة شحن بريطانية مؤجرة للسوفيت لعطل بسبب ارتطامها بصخور . فتم سحب السفينة إلى ميناء سان خوان ببورتوريكو لإصلاحها .. كانت السفينة متجهة إلى أحد موانئ الاتحاد السوفيتي وعليها 80 ألف جوال من السكر الكوبي .. تم تفريغ جزء من الحمولة في سان خوان حتى يسهل إصلاح العطل .. وفي أثناء تخزين السكر ، قامت المخابرات الأمريكية بتلويثه بمادة كيميائية .. علم الرئيس **كينيدي** بالعملية بعد تنفيذها ، فأصدر أوامره بمنع سفر شحنة السكر إلى الروس ، لأن عملية التلويث تمت على أرض أمريكية – بورتوريكو – ، وهو ما كان سيعرض الولايات المتحدة لحرج هي في غنى عنه في تلك الفترة المليئة بالتوتر السياسي .. وقد كشف مسئول بالمخابرات الأمريكية – كان له دور في إدارة أعمال التخريب ضد كوبا – أنه " كانت هناك مقادير كبيرة من السكر يتم تصديرها من كوبا إلى الخارج ، وكنا نضع فيه مقادير وافرة من المواد الملوثة " .. وكان الهدف من ذلك هو إحراج كوبا مع شركائها في التجارة من أجل عزلها ..

وفي نفس تلك السنة – 1962 – دفعت المخابرات الأمريكية مبلغ خمسة آلاف دولار لخبير زراعي كندي كان يعمل مستشارا للحكومة الكوبية ، ليصيب الديوك الرومية الكوبية بفيروس نيوكاسل المميت للدواجن .. وبعد فترة مات ثمانية آلاف ديك رومي ..

وفي أكتوبر 1963 تعرضت كوبا لإعصار مدمر ، فأعدت جمعية تسمى كازا كوبا بنيويورك كميات كبيرة من الملابس لإرسالها إلى كوبا كوسيلة للإغاثة العاجلة .. فرفضت السلطات في الولايات المتحدة منح الجمعية إذن تصدير بحجة أن مثل ذلك الإجراء يعد خرقا للحظر الاقتصادي المفروض على الجزيرة الكوبية ..

وفي عام 1969 كانت الطائرات الأمريكية تنطلق من إحدى القواعد العسكرية في صحراء كاليفورنيا ، حتى تصل إلى أجواء كوبا ، وتبدأ في نثر سحاب معبأ ببلورات معالجة تكنولوجيا ، تؤدي إلى سقوط سيول من الأمطار الجارفة لتدمير المساحات المزروعة من قصب السكر ..

وفي عام 1971 سلمت المخابرات الأمريكية إلى مجموعة من المنفيين الكوبيين فيروسا يسبب حمى الخنازير الإفريقية .. وبعد ستة أسابيع ، تفشى المرض في كوبا ، واضطر المسئولون هناك إلى إعدام نصف مليون خنزير .. وأشارت آنذاك منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة إلى أن تفشي حمى الخنازير كان الحادث الأول من نوعه على الإطلاق في نصف الكرة الغربي ..

وفي أواخر عام 1980 أبحرت سفينة من ولاية فلوريدا إلى جزيرة كوبا ، وكانت تحمل على ظهرها بعض الجراثيم لتجربة بعض مظاهر الحرب الكيميائية على شعب كوبا .. وبعد أسابيع انتشرت حمى الدنج النزفية ، وهو مرض ينتقل إلى البشر عن طريق الحشرات التي تتغذى بالدم .. وأدى انتشار الحمى إلى وفاة أكثر من 150 مواطن من بينهم مائة طفل في فترة تقل عن ستة أشهر ، هذا بخلاف من تسببت الحمى في إصابته بالعجز .. وأشارت التقارير العلمية أن هذه – أيضا – أول مرة يظهر فيها هذا المرض في الأمريكتين .. ثم طلبت كوبا من الولايات المتحدة مبيدات للمساعدة في القضاء على البعوض الناقل للمرض ، ولم تفعل أمريكا شيئا بالطبع ..

كل هذه الحوادث السابقة لم يكن لها ما يبررها سوى وجود كوبا في المعسكر الشيوعي ، لكن أمريكا لم تتوقف عن إيذاء كوبا حتى بعد تغير الحال ..

ففي 21 أكتوبر 1996 لاحظ طيار كوبي يحلق فوق محافظة ماتانزاس الكوبية طائرة تطلق ضبابا رقيقا من مادة ما .. وقد تبين أنها طائرة أمريكية لرش المحاصيل تستخدمها وزارة الخارجية الأمريكية ، لديها إذن بالتحليق فوق كوبا في رحلة إلى أمريكا الجنوبية ..

أرسل الطيار الكوبي تقريرا سريعا إلى برج المراقبة الكوبي ، فأجرى المراقب الجوي اتصالا مع الطيار الأمريكي يسأله عما إذا كان يعاني من أي مشكلة تستدعي المساعدة ، فجاء الرد قصيرا بـ " لا " ..

وفي 18 ديسمبر لاحظ مسئولو وزارة الزراعة الكوبية ظهور وباء حشرة ثريبس بالمي ، وهي حشرة آكلة للنبات لم تظهر من قبل في كوبا .. وهذه الحشرة تشتهر بتدمير كافة المحاصيل بشراهة شديدة وتقاوم معظم المبيدات .. وعلى الفور ، ربطت كوبا بين حادثة 21 أكتوبر وبين ظهور الحشرة الخطيرة .. وطالبت الولايات المتحدة بتقديم تفسير لما حدث من الطيار الأمريكي .. وردت أمريكا بأن طيار وزارة الخارجية كان يطلق دخانا ليحدد موقعه للطيار الكوبي حتى يتفاداه .. غير أن إدارة الطيران الفيدرالية ذكرت في استجواب – بعد أن تصاعد الأمر – أن إطلاق دخان لتحديد الموقع " ليس ممارسة تتبعها إدارة الطيران الفيدرالية ، وأنها لا تعرف أية لوائح تدعو لهذه الممارسة " ..

وفي أبريل 1997 سلمت كوبا تقريرا إلى الأمم المتحدة تتهم فيه أمريكا بالعدوان البيولوجي ، وشرحت بالتفصيل ما حدث في أكتوبر 1996 .. وفي أغسطس اجتمع أعضاء اتفاقية الأسلحة البيولوجية في جنيف للنظر في الموضوع .. وفي ديسمبر صدر تقرير مقتضب يقول أنه نظرا " للتعقيد التقني " المحيط بملابسات الحادث ، فإنه لن يتم التوصل إلى استنتاج حاسم !

* * *

سقط سور برلين ..

انهار الاتحاد السوفيتي ..

تلاشت الشيوعية في جميع أنحاء العالم تقريبا ..

عادت علاقة أمريكا وروسيا أقرب ما تكون إلى الطبيعية ..

انتهت الحرب الباردة ..

ومع ذلك ما زال العداء ضد كوبا مشتعلا ..

ولن يخمده إلا انطفاء سيجار الهافانا !

(5)
الفـــلـــيبيـــن : الاستيلاء السريع

كأنها قعدة طاولة .. دور شطرنج .. فورة كوتشينة ..

فبعد أن قررت أمريكا طرد إسبانيا من كوبا ، وضعت في الحسبان أن إسبانيا لابد وأن تخرج من اللعبة وتسلم جميع كروتها ..

إذاً لابد من الاستيلاء على بقية ممتلكاتها .. على الفليبين وبورتوريكو وجزيرة جوام بالمرة في مشوار واحد ..

وفي نفس الوقت الذي كانت تطرد فيه إسبانيا من كوبا ، أوفدت أمريكا قطعا من أسطولها البحري لغزو الفليبين واحتلالها ..

وصل الأسطول الأمريكي إلى خليج كوريجيدور ، وقام بتدمير الأسطول الإسباني الموجود في ميناء مانيلا ، واستولى على المدينة في أغسطس 1898 بداعي إنقاذ الجزيرة من أزمة داخلية ..

كان الفليبينيون رافضون للغزو الجديد ، فتم ذبح وإبادة كل مَن فكر في المقاومة ..

وفي فقرة من تقرير كتبه أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي بعد زيارة قام بها إلى الفليبين فور الاستيلاء عليها مباشرة ، كتب يقول : " إن القوات الأمريكية اكتسحت كل شبر لاحت منه أية بادرة للمقاومة ، إنها لم تدع هناك فليبينيا واحدا إلا وقتلته ، وهكذا لم يعد في هذا البلد رافض للغزو الأمريكي ، لأنه ببساطة لم يبق منهم أحد كي يرفض " !! ..

وقد كتبت صحيفة فيلادلفيا الأمريكية نقلا عن مراسلها في مانيلا تصف الموقف هناك قائلة : " إن الحرب هنا ليست كما يعتقد الكثيرون تجري دون دماء .. لقد كان جنودنا قساة تجاه الفليبينيين .. لقد أعدموا الرجال والنساء والأطفال ، المقاتلين والمدنيين ، الأسرى والمعتقلين ، من سن عشر سنوات وما فوق .. إن الفليبيني هنا أفضل قليلا من الكلب .. خاصة وأن الأوامر الصادرة إليهم من قائدهم الجنرال **فرانكلين** قالت لهم " لا أريد أسرى ، ولا أريد سجلات مكتوبة ! " " ..

وصل عدد القتلى إلى 600 ألف فليبيني في ثلاث سنوات ..[6]

* * *

أما الرئيس الأمريكي **ماكينلي** (1897 – 1901) فقد وقف يخطب في الشعب الأمريكي في حماسة قائلا : " إننا قد ذهبنا لغزو الفليبين من أجل رفعة شأنهم ونشر الحضارة بينهم وتحويلهم إلى المسيحية " .. وهنا مال أحد مساعديه عليه هامسا : سيدي الرئيس .. إن الفليبينيين مسيحيون " .. فعاد يقول في بلاهة : " إذاً ، فلنحولهم للبروتستانتية " !..

---

[6] لم تنل الفليبين استقلالها عن الولايات المتحدة إلا في عام 1946 ..

بمناسبة الرئيس **ماكينلي** الذي حكم أمريكا من حوالي مائة عام ، فقد ظهرت نكتة عنه تقول :

س : كيف يتشابه عقل الرئيس **ماكينلي** مع فراشه ؟

ج : كلاهما لابد أن يرتبه له أحد قبل أن يستعمله !

ألا تذكركم هذه النكتة بواحد صاحبه ؟؟

(6)
جـــوام : كوميديا الحرب !

وقبل العودة من الفليبين ذهبت مدمرة أمريكية أخرى إلى جزيرة جوام بالقرب من إندونيسيا في المحيط الهادي .. كان يقودها الكابتن **هنري جلاس** .. تلقى الكابتن التعليمات من قيادة الجيش في ظرف مقفول وطُلب منه أن يقوم بفتحه عندما تظهر الجزيرة أمامه عن بعد ..

اقتربت المدمرة من الجزيرة ، ففتح الكابتن المظروف وقرأ أمرا من قيادته جاء فيه : " إننا لا نعرف الكثير عن مساحة جزيرة جوام ، لذا عليك أن تدور حولها لتقيس محيطها وتضع تصورا عن حجم القوات الإسبانية الموجودة بالجزيرة لحمايتها ، قبل أن تشرع في الهجوم " ..

غير أن الكابتن **جلاس** بخبرته أدرك أن الأمر لا يستحق هذا العناء ، فقرر اختصار الوقت والمجهود وبدأ في اقتحام ميناء جزيرة جوام الرئيسي سان لويس دابرا ، وراح يصوب طلقات مدافعه على سواحل الجزيرة ، لكنه فوجئ بعدم الرد على هجومه ..

وفي تلك الأثناء اتجه نحو المدمرة الأمريكية قاربا صغيرا قادما من الميناء ، تبين بعد اقترابه أن علم إسبانيا يرفرف عليه .. كان بالقارب أحد الضباط الإسبان الذي طلب الإذن بالصعود لمقابلة القائد الأمريكي .. وعندما صعد الضابط بادر بالحديث قائلا : " لقد جئت معتذرا يا سيدي القائد ، لأننا لم نستطع رد تحية مدمرتكم لعدم وجود ذخيرة بمدافعنا " .. فسأله الكابتن **جلاس** في دهشة : " أية تحية تقصد ؟ ..

فأجاب الضابط في بساطة : " طلقات مدافعكم يا سيدي والتي أعلنتم بها عن تشريفكم لدينا بالجزيرة " .. فاحتد عليه الكابتن الأمريكي قائلا : إن طلقاتنا لم تكن تحية منا لكم ، بل هي إجراء هجومي ، فنحن قد أعلنا الحرب عليكم .. وإن كنا قد عرفنا الآن أنه ليس لديكم ذخيرة ، لذلك فليس أمامكم سوى تسليم الجزيرة " .. ثم هب واقفا وارتفع صوته في صرامة قائلا : " أيها الضابط الإسباني .. اذهب وعُد إليّ بحاكم الجزيرة كي يوقع أمامي الآن على الاستسلام " ! ..

* * *

جزيرة جوام هذه هي أكبر الجزر في دولة ميكرونيزيا الحالية ، ودولة ميكرونيزيا لمَن لا يعرف هي إحدى ثلاث دول تصوت دائما لصالح الولايات المتحدة في كل قرار تتخذه بالأمم المتحدة ، والدول الثلاث هي إسرائيل و جزر المارشال وجزر ميكرونيزيا ....

لقد أعلنت جوام الاستسلام منذ مائة عام ، ولم تزل مدافعها بلا ذخيرة إلى اليوم !

(7)
بورتوريكو : الرقص على السلالم

في السينما هناك مانيكان من الجبس يُلقى من أعلى الجبل نيابة عن البشر ..

وفي السيرك هناك متطوع يقف أمام لوح من الخشب ويقوم بطل العرض بإلقاء الخناجر في اتجاهه ..

وفي العلم هناك الفئران التي يجرب فيها المخترعون أحدث العقاقير ..

وفي الأمريكتين لعبت بورتوريكو هذا الدور طوال قرن مضى ..

* * *

كانت بورتوريكو ثالث الأهداف الأمريكية التي قررت احتلالها بدلا من إسبانيا ، وقد تم غزوها بالتزامن مع طرد الإسبان من كوبا ..

أعلن قائد الحملة الجنرال **نيلسون مايلز** فور اقتحام الجزيرة : " إننا لم نأت لشن حرب على الشعب .. ولكن لمنحه كل مزايا وعطايا الحضارة المستنيرة " ! ..

أما الهدف الحقيقي وراء أهمية جزر بورتوريكو بالنسبة للولايات المتحدة فيعود إلى عام 1894 ..

ففي ذلك العام توصل فريق من الباحثين الأمريكيين إلى أن أفضل مكان لتأسيس قاعدة ومحطة إمداد للسفن الأمريكية بالفحم هو جزر بورتوريكو لأنها تقع في موقع متميز بالنسبة لخطوط الملاحة التجارية ..

وهكذا بدأت الولايات المتحدة في ضرب العاصمة سان خوان بالمدافع في مايو 1898 أملا في استسلام الإسبان ، لكنهم لم يستسلموا مثلما حدث في جوام ، فتم تكثيف الضربات حتى بدأت في غزو بورتوريكو في 25 يوليو وأنهت الحرب في 12 أغسطس ..

أعلنت إسبانيا استسلامها ، وتوصل الطرفان إلى ضرورة عقد معاهدة سلام للاتفاق على جميع الشروط المالية والسياسية بشأن جميع الممتلكات الإسبانية السابقة ..

وهنا واجهتهما مشكلة غريبة ..

فالمسئولون في كل من أمريكا وإسبانيا قد اجتمعوا في باريس في شهر ديسمبر لعقد الاتفاقية ، لكن شيئا جذريا كان ينقصهم .. فالأمريكان المتواجدون في باريس لا يعرفون الإسبانية ، والإسبان لا يجيدون الإنجليزية .. فظهرت فكرة الاستعانة بمسئول باريسي يجيد اللغتين للترجمة بين الطرفين وصياغة بنود المعاهدة !

وقد تم الاتفاق على أن تدفع أمريكا 20 مليون دولار لإسبانيا تعويضا عن الفليبين وجوام وبورتوريكو على اعتبار أن كوبا مستقلة ..

وفيما يتعلق بالوضع النهائي لجزر بورتوريكو ، أصر المفاوضون الأمريكيون على صياغة مكتوبة تسمح بـ " امتلاك الإقليم possession of the territory " ، بينما تمسك الطرف الإسباني بتعبير يمنح

مواطني بورتوريكو حقوقا واضحة وهو " حالة المواطنين the condition of the inhabitants " .. والفارق بين المعنيين أن الأمريكان اعتبروا بورتوريكو مجرد مستعمرة يحتلونها ، بينما كان البورتوريكيون في المراحل الأخيرة من الاحتلال الإسباني قد بدأوا يتمتعون بشكل من الأشكال الأولية للحكم الذاتي ..

وهنا احتار الوسيط الفرنسي بين تمسك الطرفين بمفاهيم مختلفة تجاه بورتوريكو ، فهداه تفكيره إلى استخدام كلمة هي وسط بين المعنيين وهي كلمة " وضع status " وهي مشتقة من كلمة لاتينية هي " stare " وشرح الكلمة بالإنجليزية هو " to be in " ..

ولا تزال الجزيرة البائسة تعاني من فوضى الترجمة على ما يبدو ، فسكان الجزيرة " موجودون " و" مواطنون " و" محتلون " و " مستقلون " في آن واحد !! ..

* * *

فمنذ نصف قرن تقريبا أصبحت العلاقة بين الولايات المتحدة وبورتوريكو في شكل كومونولث ، فرئيس الدولة الحالي مثلا هو **جورج بوش** ، ورئيس الحكومة **كاليدرون سيرا** ، والعملة هي الدولار الأمريكي ، كما أن مواطني بورتوريكو يحملون الجنسية الأمريكية وإن كانوا لا يستطيعون التصويت في انتخابات الرئاسة أو الكونجرس إلا إذا كانوا يعيشون في الولايات المتحدة الخمسين ، وإن كان في الوقت ذاته يمكنهم التصويت في الانتخابات التمهيدية لمرشحي الأحزاب التي يسفر عنها انتخاب مرشح واحد للرئاسة عن كل حزب ..

وطوال هذه السنوات الماضية ظلت تمارس بورتوريكو دور متطوع السيرك الذي يُقذف بالخناجر ولا ينطق على اعتبار أن بطل العرض يعرف ما يفعل ..

فمنذ خمسين سنة تستخدم البحرية الأمريكية جزيرة فيكيس التابعة لبورتوريكو كقاعدة تدريبية على القصف الجوي المدفعي .. حتى عام 1999 كان التدريب بالذخيرة الحية ، ثم حدث أن قتل مدني بطريق الخطأ بسبب القصف ، فثار الشعب في بورتوريكو ، فاضطرت البحرية الأمريكية إلى إصدار أوامرها بالتدريب على قذائف مفرغة لضمان سلامة سكان الجزيرة ..

وكان من المقرر إجراء استفتاء رسمي في يناير 2002 بخصوص بقاء القوات البحرية أو انسحابها ، ولكنه أُلغي في أعقاب أحداث 11 سبتمبر 2001 .. وفي ديسمبر 2001 أقر الكونجرس الأمريكي قانوناً ينص على أنه ليس بمقدور البحرية الأمريكية إغلاق قاعدتها التدريبية في فيكيس إلا إذا وجدت بديلاً ملائماً.. وأكدت سلطات البحرية أنه بدون استخدام الجزيرة كمكان للتفجير والقصف لن تستطيع القوات الأمريكية التدريب بكفاءة وأنها ستعاود استخدام الذخيرة الحية في فيكيس خلال تدريباتها القادمة ..

وخلال المظاهرات المعارضة للتدريبات العسكرية بالجزيرة ، قام أفراد البحرية الأمريكية برش كميات كبيرة من المواد الكيماوية ورذاذ الفلفل الحار دون تمييز على مئات المتظاهرين ، وقد قال الكثيرون منهم

أنهم تعرضوا لمعاملة سيئة أثناء احتجازهم بعد القبض عليهم .. فقد أمطرتهم البحرية الأمريكية بالغازات المسيلة للدموع وهم راكعون وقد كُبلت أيديهم بالأغلال خلف ظهورهم .. ثم إنهم كانوا يُجبرون على الزحف لساعات على الصخور ، وكانوا يتعرضون لإجراءات مهينة خلال تفتيشهم ذاتياً ، مثل الضغط الشديد على الثديين والخصيتين ..

واشتكى آخرون من أنهم حُرموا من الطعام والماء والدواء .. ولم يُسمح لمعظمهم بالاتصال بالمحامين إلا عقب مثولهم أمام القاضي بعد أن أمضوا يومين أو ثلاثة رهن الاعتقال .. وقد رفضت البحرية الأمريكية هذه الاتهامات وأشارت إلى أن ما قام به أفرادها خلال المظاهرات هو من قبيل الإجراءات المشروعة للموظفين المكلفين بتنفيذ القانون .. وعندما زار مندوب من منظمة العفو الدولية جزيرة فيكيس اكتفى بإصدار توصية تقول : " يجب أن تتحلى البحرية الأمريكية بضبط النفس في مواجهة المتظاهرين في جزيرة فيكيس في بورتوريكو " ! ..

* * *

تخيلوا ! ..

تتدرب البحرية الأمريكية عن طريق قصف بورتوريكو بالقنابل .. يموت بعض أبناء الجزيرة .. تقوم المظاهرات اعتراضا على الانفجارات .. ترد البحرية باعتقال المتظاهرين وتعذيبهم ..

إن بورتوريكو لا تستطيع المشاركة في الانتخابات ولا الانضمام الرسمي إلى الولايات المتحدة ولا الاستقلال عنها ولا الاعتراض على ممارسات البحرية الأمريكية على أرضها ، بل ولا الاعتراض على تخزين قذائف اليورانيوم الخطيرة بالجزيرة ، لكن سُمح لها بالاشتراك في كافة الحروب الأمريكية والموت من أجل أمريكا ..

لقد أخذوا الإذن بالموت ..

لكنهم لم يأخذوا إذنا بالحياة ..

(8)

جواتيمالا : أول قـطـفـة !

" هل كان قدرنا أن نكون منجما أبديا لأشقائنا في الشمال ؟ .. ربما ! "

الكاتب الجواتيمالي **ميجيل أنخيل أستورياس** ..[7]

* * *

كانت جواتيمالا أول دولة في أمريكا الجنوبية يتم إسقاط الدكتاتورية فيها وإقامة نظام ديمقراطي في عام 1944 ..

وصفت مذكرة للمخابرات الأمريكية الموقف في جواتيمالا عام 1952 بأنه معاد للمصالح الأمريكية وواقع تحت تأثير الشيوعيين .. كما صرح السفير الأمريكي في جواتيمالا **جون بوريفوي** قائلا : " إننا لن نسمح بقيام جمهورية سوفيتية فيما بين تكساس وقناة بنما " .. والغريب أن اهتمام الاتحاد السوفيتي بتلك الدولة كان محدودا جدا ، حتى أنهم لم يقيموا معها أية علاقات ديبلوماسية في ذلك الوقت ! ..

استمرت المذكرة تشرح الشعبية التي حصلت عليها الحكومة بقيادة رئيس الجمهورية **جاكوبو أربينز** بسبب إلغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها الشركات الأمريكية وخاصة شركات البترول و الشركة المتحدة للفواكه لصالح الشركات الوطنية ..[8] ثم بيّنت المذكرة نجاح الحكومة الجواتيمالية في استصلاح تلك الأراضي وغيرها من الأراضي .. وبات الأمر يهدد بانتقال عدوى النجاح إلى الدول المجاورة ..

أشار أحد المسئولين في وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن " جواتيمالا أصبحت خطرا متزايدا على استقرار هندوراس والسلفادور وأن إصلاحها الزراعي سلاح دعاية خطير ، كما أن برنامجها للرعاية الاجتماعية على حساب الطبقات العليا والمستثمرين الأجانب يشجع جيرانها في أمريكا الوسطى " ..

انتهج **أربينز** أسلوبا غير مألوف في تلك الحقبة التاريخية ، فلم يلجأ إلى التأميم .. بل اجتهد ونجح في إنشاء ميناء على المحيط الأطلنطي ، وأقام مشروعا لتوليد الطاقة المائية لتوفير الكهرباء التي كانت تحت سيطرة أمريكا .. واعتمد في كل خطواته الاقتصادية المتنوعة على المنافسة المباشرة للشركات الأجنبية بدلا من تأميمها .. حتى أنه في خطاب تنصيبه رئيسا للجمهورية ، قال بمنتهى الوضوح : " إننا سوف نرحب دائما وأبدا برأس المال الأجنبي طالما أنه يتفق مع الظروف المحلية ، وطالما أنه يظل تابعا للقوانين الجواتيمالية ، وشريكا في التنمية الاقتصادية لدولتنا ، وحريصا على أن يبتعد تماما عن التدخل في حياتنا السياسية أو الاجتماعية " ..

---

[7] حائز على جائزة نوبل في الآداب لعام 1967 ..

[8] كان وزير خارجية أمريكا **جون فوستر دالاس** يحتفظ بروابط قوية مع الشركة المتحدة للفواكه ، كما كانت **آن ويتمان** السكرتيرة الشخصية للرئيس الأمريكي **دوايت أيزنهاور** هي زوجة مدير العلاقات العامة بالشركة ، وهو ما ساهم في تزايد نفوذ الشركة داخل دائرة صنع القرار بالولايات المتحدة .. وكانت المشكلة الحقيقية أن **أربينز** استولى على الأراضي غير المزروعة التابعة لشركة الفواكه ..

وكانت تحفظاته تلك تنطبق بالحرف على كل ما تفعله الشركات الأمريكية في جواتيمالا ، وعلى رأسها الشركة المتحدة للفواكه ..

إن حكومة جواتيمالا بقيادة رئيسها الشاب كانت على وشك النجاح في تحسين الأحوال الاقتصادية لجواتيمالا ..

لم يصبر الأمريكان طويلا على هذا التهديد الجسيم لأمنها القومي ، فقامت المخابرات الأمريكية بالتخطيط لاتخاذ الإجراء المناسب ..[9]

ففي مارس 1953 اقتربت المخابرات الأمريكية من بعض الضباط الناقمين على الأوضاع في الجيش الجواتيمالي .. وكان هؤلاء يمثلون الجناح اليميني .. وقامت بتزويدهم بالسلاح .. كما تبرعت الشركة المتحدة للفواكه بمبلغ 64 ألف دولار لمساعدتهم على التمرد .. وفي الشهر التالي اندلعت ثورات محدودة في عدة مدن في توقيت واحد ، لكن سرعان ما أحبطتها قوات الجيش الموالية للحكومة الشرعية .. ثم تم تقديم المتمردين للمحاكمة ، ليظهر دور الشركة المتحدة للفواكه في التمويل ، وإن لم يشر أحد لدور المخابرات الأمريكية ..

أعادت المخابرات النظر في أسلوب التنفيذ .. فأرسلت 30 طائرة حربية تمركزت حول جواتيمالا في كل من نيكاراجوا وهندوراس ومنطقة قناة بنما .. وأشرفت على تدريب المتمردين والمرتزقة على فنون التخريب واستخدام الأسلحة المتطورة .. ثم سربت أسلحة سوفيتية الصنع داخل جواتيمالا لتبرير الهجوم الأمريكي ردا على الخطر الروسي .. وفي يونيو 1954 نفذت أمريكا هجوما عسكريا على جواتيمالا بعد أن قامت طائراتها بقصف العاصمة بقاذفات بـ 26 ..[10]

لكن الحق يقال ، فإن الطائرات لم تهاجم مباشرة ، بل ألقت منشورات من السماء في الصباح تدعو **أربينز** للتنحي وإلا فإنها سوف تضرب بشدة .. وفي مساء نفس ذلك اليوم – 18 يونيو – عادت الطائرات وقصفت ما يسمى بالقصر الوطني .. ولما لم يصدر من **أربينز** ما يفيد بالتجاوب مع الأوامر الأمريكية ، أمطرت الطائرات الحربية المدن في جواتيمالا بالقنابل يوميا ولمدة أسبوع .. وأسفر القصف عن تدمير معظم الموانئ والمطار الدولي والقواعد العسكرية وإحدى المدارس ..

وفي إحدى الليالي – بعد حوالي أسبوع من تواصل الغارات – لجأت المخابرات إلى خدعة لإثارة الذعر في العاصمة .. فتم تركيب سماعات فوق سطح السفارة الأمريكية ، ودار شريط كاسيت في جهاز تسجيل يحتوي على أصوات قنابل شديدة الدوي ، أعنف بكثير مما كان يتم استخدامه بالفعل .. وعندما حاول **أربينز** اللجوء إلى الإذاعة لتهدئة مخاوف الشعب على الهواء ، قامت أجهزة المخابرات الأمريكية بالتشويش على الإرسال !

---

[9] تم إنشاء وكالة المخابرات الأمريكية Central Intelligence Agency CIA في عام 1947 وقد جاء في قرار إنشائها أنها أسست من أجل القيام بتحليل وجمع المعلومات السياسية والعسكرية التي تهم الأمن القومي الأمريكي ، وقد كانت هذه أول مهمة لها بهذا الحجم في القارة الجنوبية .

[10] هي نموذج أقل تطورا من قاذفات بـ 52 التي ضربت العراق في الحرب الأخيرة ..

وبعد ذيوع أخبار العدوان الأمريكي على جواتيمالا ، خرجت مظاهرات صاخبة في إحدى عشرة دولة لاتينية تندد بالهجوم الأمريكي ..

وفسر الإعلام الأمريكي ما حدث ، بأنه جزء من مؤامرة الشيوعية الدولية التي تفشت مع الأسف في الأمريكتين !

* * *

كان حظ جواتيمالا الأسود أنها أول دولة تستعرض المخابرات الأمريكية عضلاتها عليها ، فهي تجرب فيها كل شئ وبمنتهى القسوة ..

فالذين عارضوا التدخل الأمريكي استخدمت قنابل النابالم المحرمة دوليا ضدهم .. كما حُرقت المزارع بهدف تجويع الشعب .. وموورست سياسة جديدة سميت بـ " حراس القرى " أي تجنيد الفلاحين المحليين لخدمة الأغراض الأمريكية في القرى المختلفة كتعقب المتمردين مثلا .. أما الفلاحون الذين لم يقبلوا الانضمام إلى " حراس القرى " فقد قُتلوا بشكل جماعي ، وكانت جثثهم تعلق بشباك الصيادين بدلا من السمك ..

ومع اشتداد الغارات الجوية واستمرار الممارسات الأرضية ، أجبر قادة الجيش في جواتيمالا **أربينز** على الاستقالة .. رضخ **أربينز** لهم ، لكنه طلب من الكولونيل **كارلوس دياز** قائد الجيش أن يعطيه كلمته بألا يتعاون مع قائد المتمردين الكولونيل **كارلوس كاستيللو أراماس** والذي كان يقود الحرب البرية ضد الشعب الجواتيمالي بمساندة جوية من الأمريكان .. وافق **دياز** بدون مناقشة لأن **أراماس** كان العدو المشترك للجميع ..

وقبل أن يتحرك أحد بعد غياب **أربينز** ، قامت الولايات المتحدة بفرض **أراماس** رئيسا للبلاد .. ثم ذهب السفير الأمريكي في جواتيمالا **جون بوريفوي** إلى الكولونيل **دياز** يطلب منه التعاون مع الكولونيل **أراماس** ، كما أعطاه قائمة طويلة من أسماء بعض المسئولين السابقين ، وطلب منه أن يعدمهم جميعا خلال أربع وعشرين ساعة ، بحجة أنهم شيوعيين .. وعندما رفض **دياز** المطالب الأمريكية ، تركه السفير الأمريكي غاضبا وبعث إلى مركز قيادة المخابرات بفلوريدا برسالة مقتضبة يقول فيها : " لقد خانونا .. دمروهم ! " .

وبعد ساعات انطلقت طائرة حربية وقصفت قاعدة عسكرية ودمرت محطة الإذاعة الحكومية ..

وبعد أيام ، أُعلن رسميا عن تولي الكولونيل **أراماس** رئاسة الجمهورية ..

وعادت الشركة المتحدة للفواكه لسابق عهدها ، فاستعادت جميع أراضيها .. وتم حظر اتحاد عمال الموز .. وأُغلقت صحف المعارضة ..

استمر العنف الذي بدأ في عام 1954 حتى وصل إلى قمته عام 1967 ، رغم ذلك دعت أمريكا إلى اعتبار ذلك العام في جواتيمالا هو عام السلام ! ..

وحتـى منتـصف التـسعينات ظلـت الـبلاد تعـاني مـن الحـروب الأهليـة والانقلابـات العـسكرية والأنظمـة الدكتاتورية التي لا تمل أمريكا من دعمها .. وراح ضحيتها مئات الألوف من البشر ..

* * *

وقد تساءل ذات يوم الرسام الجواتيمالي أدولفو موندي : " ترى كم قطرة من الدم يساوي الدولار ؟ " ..

ولا أظن أن دماء الشعوب المكافحة تساوي سنتا واحدا ..

فدماؤهم قد خُلقت لتسيل ، وثرواتهم قد خُلقت لتُنهب ..

فإما أن تجف الدماء ، وإما أن تنضب الثروات .. أيهما أبعد !

(9)
بـــنـــمـــا : دولة بالطلب

هناك دول تبرز الحاجة إلى نحتها بالقوة على الخريطة لخدمة أهداف بعينها ..

بنما واحدة من هذه الدول التي لم يكن لها وجود كدولة قبل مائة عام ..

ففي أواخر القرن التاسع عشر تجدد التفكير الأمريكي في شق قناة تربط بين المحيط الأطلنطي والمحيط الهادي فتخترق أمريكا الوسطي من الشمال إلى الجنوب في أضيق نقطة .. وعندما فشل الرئيس الأمريكي **تيودور روزفلت** في الاتفاق مع كولومبيا أو نيكاراجوا لحفر القناة ، قام بإرسال القوات الأمريكية إلى إقليم بنما في عام 1903 ودعّم تمردا هناك مقتطعا إقليم بنما من كولومبيا لتصبح جمهورية مستقلة نالت اعتراف الولايات المتحدة مباشرة .. وما أن استقلت بنما ، حتى بدأت أمريكا تحفر القناة بها ، بعد أن اشترت منها منطقة تبلغ مساحتها 1500 كم مربع بمبلغ عشرة ملايين دولار ، وأعلنتها منطقة سيادة أمريكية ..

لكن ، كان من الطبيعي أن تغضب دولة كولومبيا بسبب اقتطاع جزء من أراضيها ، فماذا فعل الأمريكان المنصفون ؟ ..

منحوا كولومبيا بعض الجزر الهامة التابعة لنيكاراجوا والتي كانت تحتلها أمريكا في ذلك الوقت !! .. إنه تعديل ضروري في شكل الخريطة .. صنعوا دولة واقتطعوا جزء من دولة لحساب دولة ثالثة ..

عدّاهم العيب ..

* * *

وتمضي عشرات السنوات ببنما ولا شئ يتغير ، فالصفوة الأوروبية والأمريكية والتي تشكل 10 % فقط من السكان تسيطر على كل شئ في البلد .. ثم جاء الجنرال **عمر توريجو** في عام 1968 ليقود انقلابا عدّل قليلا من هذا الوضع ..

ثم يلقى **توريجو** مصرعه في حادث سقوط طائرة بعد تفجيرها بواسطة قنبلة على متنها عام 1981 بتدبير من الولايات المتحدة ..

وفي عام 1983 أتى الأمريكان بـ **مانويل نورييجا** إلى أعلى منصب في بنما – القائد العام للحرس الوطني – وكان عميلا للمخابرات الأمريكية يتقاضى منها راتبا شهريا من بداية السبعينات وحتى عام 1986 ، أي أنه كان يتقاضى راتبا من المخابرات الأمريكية وقت أن كان **جورج بوش** الأب مديرا لتلك المخابرات الأمريكية في منتصف السبعينات ، كما أنه كان تاجر مخدرات على مستوى عال منذ أوائل السبعينات تحت إشراف أمريكا .. أكثر من ذلك ، فقد تقابل نورييجا في ديسمبر 1976 مع **جورج بوش** وقت رئاسته للمخابرات الأمريكية ، وكان الاستقبال حافلا وتم تنظيم جولة للضيف البنمي بمعرفة المخابرات ، كما نزل ضيفا على نائب **بوش** آنذاك **فيرنون والترز** في منزله الخاص !..

وفي مايو 1986 أشاد مدير وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية بسياسة **مانويل نورييجا** الرشيدة في مكافحة المخدرات ..

وفي 12 يونيو 1986 نشرت صحيفة النيويورك تايمز تقريرا في صفحتها الأولى عن نشاطات **نورييجا** غير المشروعة وعلى رأسها الاتجار في المخدرات وعمليات غسيل الأموال واغتيال المعارضين السياسيين .. وسارعت إدارة **ريجان** بطمأنة رجلها مؤكدة له أنه لا داعي للقلق من حماقات صحفي متهور .. وفي عام 1987 اجتمع بعض المسئولين القانونيين الأمريكيين مع **نورييجا** ، وقاموا بتقديم النصح له عن كيفية تحسين صورته شعبيا وإعلاميا ..

وفي عام 1988 شنت الولايات المتحدة فجأة حملة إعلامية عدائية ضد **نورييجا** ، فظهرت كتابات معادية له على الجدران في بنما ، وخرجت المظاهرات المناهضة له تهتف بسقوطه ، ثم فرضت أمريكا عقوبات اقتصادية دمرت اقتصاد بنما وأدت لتراجع شعبية **نورييجا** تماما ..

وفي عام 1989 ، في بداية عهد الرئيس **بوش** (1989 – 1992) ساندت الولايات المتحدة انقلابا عسكريا ضد **نورييجا** ولكنه فشل ، فقامت الولايات المتحدة بغزو بنما في ديسمبر 1989 ، فسقط آلاف القتلى ودُفن الكثيرون في مقابر جماعية وأُلقي عدد آخر من الجثث في البحر ..

تم القبض على **نورييجا** واختطافه وترحيله إلى أمريكا بتهمة الاتجار في المخدرات ! ..

مثل **نورييجا** أمام المحكمة في ميامي بولاية فلوريدا ، وأصدرت المحكمة عام 1992 حكما بالسجن لمدة 45 عاما ولا يزال الرئيس البنمي المخطوف يقضي ما تبقى من عمره في السجون الأمريكية ، ولو مات ما سمع عنه أحد ..

ومن المفارقات المضحكة أنه ظهر تعليق أذاعته النيوز ريبورت بعد الغزو مباشرة ، وتحديدا في العشرين من ديسمبر 1989 ، جاء فيه : " من المكسيك إلى الأرجنتين ، فإن حكومات الدول الأمريكية قد أعلنت إدانتها التامة لاستخدام القوة بمعرفة الولايات المتحدة ضد الجنرال **مانويل أنطونيو نورييجا** البنمي " .. كما اجتمعت فورا منظمة الدول الأمريكية الـ OAS وأعلنت موقفها الرسمي الذي ينص على " الأسف العميق للتدخل العسكري في بنما " ، وجاء موقفها هذا بتأييد عشرين صوتا ومعارضة صوت واحد من أصل واحد وعشرين عضوا بالمنظمة .. وكان الصوت المعارض هو صوت أمريكا طبعا ! ..

غير أن كل ذلك لم يمنع الرئيس **جورج بوش** من الظهور في اليوم التالي (21 ديسمبر 1989) والإدلاء بهذا التصريح الكوميدي : " إنني أقدر هذا الدعم الذي حظينا به .. لقد نلنا مساندة قوية من الكونجرس الأمريكي ، ومن جيراننا في أمريكا اللاتينية " !! ..

* * *

لكن سوف يسأل القارئ نفسه هذا السؤال المنطقي : ما الذي حدث بين عامي 1986 و 1988 كي يتحول **نورييجا** من النموذج الأمثل في مكافحة المخدرات إلى تاجر مخدرات وزعيم عصابة ؟

حدث الآتي : بدأ **نوريجا** يتدخل في شئون الشركات الأمريكية الكبرى الموجودة في بنما .. بدأ يتوقف عن مساعدة قوات الكونترا (مقاتلو الحرية) الذين كانوا يتدربون تحت إشراف أمريكا لقلب نظام الحكم في نيكاراجوا .. أعلن تأييده لمعاهدة الكونتاديورا التي أبرمتها دول أمريكا الجنوبية لتحقيق السلام في القارة ، وهو ما لا تريده الولايات المتحدة طبعا ..

ثم هناك أمر آخر .. كانت أمريكا في سباق مع الزمن ، تريد تجديد ولاء الحكومة البنمية لها قبل استرداد بنما حق إدارة القناة قبل نهاية القرن العشرين ..[11] ثم إن 10 % من بترول الولايات المتحدة يمر في خط أنابيب عبر أراضي بنما ..

وهكذا تم تنصيب رئيس جمهورية جديد في نفس اليوم الذي قبض فيه على **نوريجا** ، وقبل أيام من عودة القناة إلى أصحابها ..

أما المكان الذي أدى فيه الرئيس البنمي الجديد **جييلرمو إندارا جاليماني** اليمين الدستوري فلم يكن في مبنى البرلمان أو قصر الرئاسة ، بل كان في قاعدة عسكرية أمريكية في بنما سيتي ! ..

على أية حال ، لابد أن تشعر بنما بالامتنان لأمريكا ، لأنها خلقت منها دولة ..

فعلى المخلوق طاعة الخالق !

[11] في يناير 1990 استردت بنما معظم القناة بموجب الاتفاقية الموقعة وفي 31 ديسمبر 1999 عادت إليها كاملة ..

(10)
نيكاراجوا : قـاتـلـو الحـريـة

كان لابد من التدخل ..

حكم الدكتاتور **خوزيه سانتوس زيلايا** نيكاراجوا من عام 1894 إلى 1909 ..

وبعد أن قررت الولايات المتحدة شق قناة في بنما ، سعى **زيلايا** هو الآخر للاتفاق على حفر قناة في نيكاراجوا مع منافسي الولايات المتحدة اليابان وألمانيا .. لم ترق هذه الفكرة لأمريكا .. ومن أجل حماية القناة التي بدأ حفرها بالفعل في بنما ، شجعت الولايات المتحدة المتمردين ضد **زيلايا** وأنزلت رجال البحرية الأمريكية لدعم التمرد .. استقال **زيلايا** ودبت الفوضى في شئون البلاد الداخلية ، ولم يخمدها سوى احتلال القوات البحرية الأمريكية لنيكاراجوا في عام 1912 ، ولم يغادروها حتى عام 1933 ..

وفي عام 1919 منحت اتفاقية شامورو – برايان الولايات المتحدة وحدها الحق في حفر قناة في نيكاراجوا ، ولم يكن أبدا لدى أمريكا أية نية لحفر قناة في نيكاراجوا ولا غيرها ، ولكن كان الهدف هو منع شق قناة منافسة لقناة بنما ..

* * *

تمرد الشعب ضد الاحتلال الأمريكي وقاد البطل الشعبي **أوجستو ساندينو** حرب عصابات لمقاومة الاحتلال .. لم تنجح قوات البحرية الأمريكية في إبطال المقاومة ، ففكرت في إنشاء حرس وطني خليط من الجيش والشرطة للمساعدة على إنهاء التمرد ، ووضعت **أناستاسيو سوموزا** على رأسه ..

وبحلول عام 1933 قررت أمريكا تصفية وجودها العسكري في نيكاراجوا للحد من النفقات ، خاصة بعد تفاقم الأزمة الاقتصادية الشهيرة ، وأحلت محل قواتها الحرس الوطني الذي دربته وسلحته .. وفي عام 1934 نجح **سوموزا** قائد الحرس الوطني في اغتيال البطل الشعبي **ساندينو** .. ثم نجح أيضا في الاستيلاء على السلطة عام 1936 ..

ظل الحكم في نيكاراجوا متوارثا ، فحكم **سوموزا** حتى اغتياله عام 1956 ، وكان يلقى دعما أمريكيا هائلا رغم الانشغال بالحرب العالمية الثانية ، حتى أن الرئيس الأمريكي **فرانكلين روزفلت** وصفه قائلا :

"**Somoza** may be a son-of-a-bitch, but he's our son-of-a-bitch."

ثم جاء من بعده ابنه ، ثم شقيقه الأصغر الذي بقى في الحكم حتى قامت ثورة الساندينستا – نسبة إلى البطل **ساندينو** – .. ففر **سوموزا** في يوليو 1979 إلى ميامي بأمريكا ناهبا ما تبقى من ثروة البلاد .. فشلت محاولات أمريكا في الإبقاء على الحرس الوطني في الحكم ولو بغير **سوموزا** ، فأمر الرئيس **جيمي كارتر** بتهريب قادة الحرس الوطني من نيكاراجوا ، وأرسلت المخابرات طائراتها متخفية وراء شعارات الصليب الأحمر لنقل قوات الحرس الوطني خارج البلاد .. ثم فكرت أمريكا أن تستميل الثوار ، فقدمت إلى حكومة

الساندينستا 120 مليون دولار كمساعدة اقتصادية ومائة ألف طن طعام على أمل أن تظل موالية لها .. لكن الثوار رفضوا السماح للولايات المتحدة بالسيطرة على الجيش أو بوضع رجال بعينهم في الحكومة الجديدة .. فعاد موقف أمريكا إلى سيرته الأولى .. وسرعان ما أعادت تشكيل الحرس الوطني على حدود نيكاراجوا ، واستعانت بالأرجنتين ليعود الحرس الوطني مرة أخرى تحت اسم الكونترا أو مقاتلي الحرية كما أطلقت عليهم أمريكا ..

* * *

وعندما جاء **ريجان** إلى الحكم في عام 1981 أوقف فورا كافة القروض لنيكاراجوا ورفض تنفيذ صفقة قمح كانت قد تعاقدت عليها حكومة نيكاراجوا مع حكومة **كارتر** .. ثم شن حربا قذرة ضد نيكاراجوا مستخدما الكونترا في أعمال اغتيالات وزرع ألغام وتدمير مخازن الطعام وقصف المدارس والمستشفيات وتلغيم الموانئ وتفجير خزانات البترول وخطوط الأنابيب ..

كما ضغطت الحكومة الأمريكية على صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والسوق الأوروبية المشتركة لسحب قروضها المقدمة لنيكاراجوا ..

ثم قامت القوات البحرية الأمريكية بحصار جميع موانئ نيكاراجوا ، وهددت بتفجير أية ناقلة بترول من أية دولة تحاول مجرد الاقتراب من المياه الإقليمية لنيكاراجوا .. وقد تعرضت سبع سفن أجنبية للتدمير بسبب الألغام الأمريكية المزروعة أمام سواحل نيكاراجوا .. وقد أدى هذا الإجراء إلى تجويع الشعب بسبب منع السفن المحلية من تصدير منتجاتها وعلى رأسها السكر ، ومنع السفن الأجنبية من توريد وشحن ما يحتاج الشعب إلى استيراده من الخارج .. أما غارات الكونترا فقد أدت إلى تدمير محصول التبغ وبيوت الفلاحين وتحطيم الكباري والطرق وتفجير الشاحنات للحد من نقل المحاصيل إلى منافذ البيع ، مما أوصل الزراعة إلى حافة الانهيار .. كما توقفت صناعة الأسماك تماما بسبب نقص وقود السفن الناجم عن توقف إمدادات البترول ، ناهيك عن الألغام والهجوم على الشواطئ والحصار البحري ، وتسبب ذلك في ضياع ملايين الدولارات الناتجة عن توقف صيد وتصدير الجمبري الذي تشتهر به نيكاراجوا ..

وفي عام 1984 قامت المخابرات الأمريكية بإمداد قوات الكونترا بكتيب إرشادي من 16 صفحة بعنوان " مقاتلي الحرية " بغرض نشره بين أفراد شعب نيكاراجوا .. كان الكتيب يدعو الشعب إلى ضرورة التحرر من القهر والفقر الناجمين عن الاستسلام لحكم الساندينستا .. ومن ضمن أساليب المقاومة النبيلة من أجل نيل الحرية ، ورد في الكتيب ما يلي : سد المراحيض العامة بقطع من الإسفنج .. اقتلاع أسلاك الكهرباء في الشوارع .. وضع القاذورات في خزانات الوقود .. إلقاء المسامير في الطرق العامة .. تمزيق الكراسي في وسائل المواصلات .. قطع الأشجار لسد الطرق السريعة .. إجراء مكالمات تليفونية للإبلاغ عن حرائق وجرائم مزيفة .. تهديد المسئولين الحكوميين عبر الهاتف .. الذهاب إلى العمل متأخرا .. تحطيم مصابيح الكهرباء .. نزع صفحات من الكتب في المكتبات العامة .. نشر شائعات مضللة .. إلى آخر النصائح ...

لقد كانت المخابرات الأمريكية تسعى عن طريق تلك الأعمال البطولية الرائعة إلى تحرير شعب نيكاراجوا المسكين من الساندينستا الشيوعيين ..

وظلت الإدارة الأمريكية تؤكد طوال الثمانينات أن الشيوعية في نيكاراجوا قد تحالفت مع مثيلتها في كوبا والاتحاد السوفيتي ، وأنهم جميعا على وشك القيام بمؤامرة خطيرة لإخضاع الأمريكيتين ونشر الشيوعية في ربوع العالم الجديد .. بل أعلن الرئيس **ريجان** في أكثر من مناسبة في السنوات الأولى من حكمه عن سيناريو مفزع يؤكد فيه أن مقاتلي الساندينستا على وشك اجتياح هندوراس وجواتيمالا والمكسيك ليهددوا تكساس !! .. كل هذا كان يحدث رغم أن بولندا الشيوعية مثلا كانت من ضمن الدول التي تبيع الأسلحة لقوات الكونترا التابعة لأمريكا .. وكذلك كانت الصين تفعل ..

وعندما لم يسفر هذا التشنج السياسي عن شئ ، خاصة بعد أن ضجر الكونجرس وملت الصحافة من هذه الجعجعة الفارغة للإدارة الأمريكية بشأن مخاطر وأهوال الساندينستا ، الأمر الذي أدى إلى توقف المساعدات الرسمية المعلنة لمقاتلي الكونترا .. تم اللجوء إلى لعبة جديدة ..

* * *

في 16 مارس 1986 ، ظهر الرئيس **ريجان** على الملأ في التليفزيون ، وألقى خطبة يعلن فيها عن اتخاذ قرار بإعادة مساعدات الكونجرس الأمريكي لمقاتلي الكونترا في نيكاراجوا .. ثم قام **ريجان** بعرض مجموعة من الصور موضحا أنها تبين مسئولي الساندينستا وهم يحمّلون أكياسا من القماش تحتوي على الكوكايين في بطن طائرة نقل عسكرية من طراز C-123K في طريقها إلى ميامي بولاية فلوريدا ..

ثم اعتدل **ريجان** ونظر إلى الكاميرا مباشرة - وهو ممثل قديم على أية حال - ، ثم قال في صرامة : " أعلم أن كل ولي أمر أمريكي مهتم بمشكلة المخدرات سوف يغضبه سماع أن كبار المسئولين الحكوميين في دولة نيكاراجوا متورطون بشدة في تجارة المخدرات .. وهذه الصورة التي التقطت سرا في أحد المطارات العسكرية خارج ماناجوا (عاصمة نيكاراجوا) ، تبيّن **فريدريكو فون** وهو كبير مساعدي أحد التسعة الذين يحكمون نيكاراجوا ، وهو يحمّل إحدى الطائرات بشحنات غير قانونية متجهة إلى الولايات المتحدة " ..

ثم اتضح بعد ذلك أنها قصة ملفقة .. وأنها جزء من عملية سرية خططت لها المخابرات الأمريكية ، استخدمت فيها شخص مدان بتهريب المخدرات اسمه **باريمان أدلر سيل** .. وكان **سيل** هذا هو الذي قاد الطائرة المزودة بكاميرات وضعتها المخابرات الأمريكية إلى ذلك المطار النيكاراجوي ، ثم قام بجلب الكوكايين إلى قاعدة هومستيد الجوية بفلوريدا .. ثم تلقى **سيل** مقابل خدماته سبعمائة ألف دولار ، كما خُفف الحكم الصادر ضده لإدانته بتهريب المخدرات ، والتي كانت المحكمة الأمريكية مازالت تنظرها ..

منتهى الحبكة الدرامية !! ..

* * *

وبرغم كل هذا الإصرار المتواصل ، فشلت الكونترا ومن ورائها أمريكا في قلب نظام الساندينستا حتى عام 1989 ..

وبلغ عدد ضحايا أمريكا حتى ذلك التاريخ 75 ألف قتيل ، إضافة إلى اضطرار سُدس سكان نيكاراجوا إلى الفرار خارج البلاد ..

لقد كان الاسم الحركي للكونترا هو مقاتلو الحرية ، لكن عشرة أعوام من القتل والدمار أثبتت أن الولايات المتحدة كانت تستخدمهم من أجل قتل الحرية ، لا من أجل القتال في سبيلها ..

وأخيرا نجحت أمريكا – بعد أن تدهور اقتصاد نيكاراجوا إلى حد مخيف وتقلصت شعبية النظام – في فرض مرشحة معارضة للساندينستا في انتخابات الرئاسة في فبراير 1990 ، وكان الرئيس الأمريكي **بوش** قد دعم بشدة مرشحة المعارضة **فيوليتا دي شامورو** ، وأعلن أن الحظر التجاري والاقتصادي على نيكاراجوا سوف يُرفع لو فازت مرشحة الولايات المتحدة ..

* * *

أهم ما في هذه القصة أن نيكاراجوا لجأت إلى محكمة العدل الدولية في يونيو 1986 لتشتكي مما ترتكبه أمريكا على أراضيها ..

حكمت محكمة العدل الدولية بإلزام أمريكا بدفع تعويضات كبيرة عن جرائمها ..

جاء الرد الأمريكي برفض حكم محكمة العدل ..

بكل تأكيد ..

هذا هو أول مجرم في التاريخ يرفض حُكم محكمة ..

وإن كان هذا منطقيا ..

فهذه أيضا أول مرة في التاريخ يقوم فيها المتهم بتعيين القاضي ..

(11)
الدومينيكان : شـبـح كوبـا

غلطة لا تغتفر ..

بمنتهى حسن النية والسذاجة المفرطة حاولت جمهورية الدومينيكان – تلك الجمهورية الصغيرة في أمريكا الوسطى التي تشتهر بإنتاج الموز والبترول – في منتصف ستينات القرن العشرين أن تتبع نموذجا مستقلا في التنمية الاقتصادية ، متأثرة إلى حد ما بجارتها كوبا .. بل وأصر شعبها على عودة رئيس سبق وأن خلعته أمريكا ..

أجرت الولايات المتحدة تقويما سريعا للموقف .. وجدت أن الفارق الجوهري بين الدومينيكان وكوبا ، أن الدومينيكان بعيدة بعض الشيء عن الاهتمام السوفيتي ، ثم إن مصالح أمريكا فيها أكبر بسبب البترول .. أدى هذا الفارق إلى ترجيح فكرة التدخل العسكري المباشر .. انعقد اجتماع خاطف للبحث عن أسباب يتم على ضوئها شن الهجوم .. فلم يجدوا سوى الذريعة إياها ..

مكافحة الخطر الشيوعي ..

* * *

تبدأ الحكاية قبل ذلك بسنوات ..

ظلت الولايات المتحدة تساند الديكتاتور اليميني المتطرف **رفائيل تروخيللو** رئيس جمهورية الدومينكان لمدة تقترب من ثلاثين عاما .. ولكن بحلول عام 1960 وجدت الإدارة الأمريكية أن **تروخيللو** قد يصبح مصدر إزعاج لها .. فقد كانت تخشى أن يؤدي فساده المبالغ فيه إلى ثورة يسارية مماثلة لتلك التي أطاحت بـ **باتيستا** وأتت بـ **كاسترو** إلى السلطة في كوبا عام 1959 ..

كانت الوسيلة الوحيدة لتجنب مثل ذلك الاحتمال غير المرغوب فيه هو القضاء عليه بأنفسهم قبل أن ينقض عليه الشعب .. خاصة بعد أن حاول بعض المنفيين الدومينيكان في يونيو 1959 القيام بمحاولة للهجوم على الجزيرة عن طريق كوبا التي كانوا يتخذونها مقرا لهم .. ورغم أن الهجوم مني بالفشل الذريع ، إلا أنه كان جرس إنذار للأمريكان للتحرك قبل تكرار المشهد الكوبي من جديد ..

وفي 30 مايو عام 1961 أمدت المخابرات الأمريكية بعض عملائها في الدومينيكان بالأسلحة ووضعت لهم الخطة ، ليتم إطلاق النار علي **تروخيللو** وهو داخل سيارته في إحدى ضواحي العاصمة ، ليلقى الرئيس الدومينيكي مصرعه على الفور .. وقبل أن تتخذ أمريكا الخطوة التالية ، سارع **رفائيل تروخيللو الابن** بالعودة من فرنسا – حيث يقيم – ليتولى الحكم خلفا لوالده .. ولم يكن الابن أفضل من أبيه ، فكان أول ما قام به هو الانتقام من خصوم أبيه وقتل العديد من المعارضين في الأشهر الأولى من عودته .. وعندما انتقل الاستياء إلى الشارع ، واتسع نطاق المظاهرات بشكل يومي في شهر أكتوبر 1961 ، وتدخلت

القوات الحكومية التابعة لـ **تروخيللو** الابن لقمع المتظاهرين بكل الصور الممكنة ومن بينها قتل الطلاب في الشوارع والميادين العامة .. عندما حدث كل ذلك ، وشعرت الولايات المتحدة أن الفوضى تسيطر على أداء السلطة في الدومينيكان ، قامت بإيفاد بعض دبلوماسيها للقاء أعوان **تروخيللو** وقادة الجيش .. جاء اللقاء لإبلاغ المسئولين في الدومينيكان أن الولايات المتحدة قد قررت فرض حكومة مؤقتة بالقوة بقيادة **جواكين بالاهير** حتى يتم إجراء انتخابات .. وحتى تتأكد أمريكا من رضوخ **تروخيللو** وأعوانه ، وكذلك امتثال قادة الجيش باختلاف أهوائهم للأوامر الأمريكية ، قامت القوات البحرية الأمريكية في 19 نوفمبر 1961 بإرسال قوة مكونة من ثمان سفن حربية ترابط على حدود المياه الإقليمية للدومينيكان ، وانطلقت مكبرات الصوت باللغة الإسبانية تهدد كل من يفكر في معارضة الحكومة المفروضة من الأمريكان بأن قوات المارينز على أهبة الاستعداد للنزول إلى الشاطئ وقتما تصدر أوامر بذلك .. كما قامت المقاتلات الجوية بالمرور بمحاذاة الساحل لتوصيل نفس الرسالة .. وبعد يومين من الحصار البحري ، فضّل **تروخيللو الابن** ألا يكابر وقرر العودة إلى أوروبا ، بينما اتجهت بقية العائلة نحو ولاية فلوريدا لينعموا بالحياة المرفهة بعيدا عن صراعات محسومة مقدما .. أما قادة الجيش ، فقد تراجع من كان يريد منهم أن يتزعم حركة تمرد على الحكومة الجديدة ..

ومع ذلك .. فإن **بالاهير** لم يكن على مستوى طموحات الولايات المتحدة .. كانت الولايات المتحدة قد أتت به لاستخدامه في تهيئة أي شكل من أشكال الديمقراطية لتهدئة الشعب وتفادي وصول ثورة يسارية إلى الحكم .. لكنه لم يأبه لفكرة الديمقراطية ، كما أنه لم يعتبر دوره مؤقتا حتى إجراء الانتخابات .. والأهم من ذلك ، فإن المعارضة المحلية له كانت تنبئ بما تخشاه أمريكا وتعمل على منعه ..

ولكل هذه الاعتبارات ، أجبرته على تقديم استقالته بعد شهرين من الحكم ..

أدار البلاد في الشهور التالية سبعة رجال يكونون مجلس استشاري ينظم شئون الحكومة ، وكانت الإدارة الأمريكية حريصة على أن ينفذ المجلس جميع التعليمات اللازمة للحيلولة دون ظهور دور للشيوعيين .. وبعد أقل من عام من خلو البلاد من منصب رئيس الجمهورية ، أجريت انتخابات في ديسمبر 1962 تحت الإشراف الأمريكي الكامل .. أسفرت الانتخابات عن فوز **خوان بوش Juan Bosch** برئاسة الجمهورية ، وكان **بوش** يشتغل بالكتابة وأمضى سنوات عديدة في المنفى أيام حكم **تروخيللو** الأب ..

أبدت الإدارة الأمريكية ارتياحها الشديد إزاء نتيجة الانتخابات ، فالرئيس الجديد لا شأن له بالشيوعية ، وهو رجل مدني لا علاقة له بالاندفاع نحو العنف الذي يتسم به الجنرالات العسكريون ، ثم إنه قد تم انتخابه بأغلبية مريحة ، وتسلم السلطة في فبراير 1963 وسط أجواء متفائلة ..

كان هذا هو الرجل المنتظر أن يمشي على نهج الديمقراطية الأمريكية ، وأن يحول دون ظهور الشيوعيين من خلال حب الشعب له ورضاهم عن سياسته .. هكذا تصورت إدارة **كينيدي** في البداية ..

لكن لم تمض سوى أسابيع معدودة ، حتى ظهر أن **بوش** لن يكون رجل أمريكا المنشود .. فقد نادى بالإصلاح الزراعي ، ونقل ملكية بعض الأراضي الخاصة إلى القطاع العام ، وخفض إيجارات السكن ، وقام بتأميم عدد محدود من الشركات ، وأوقف استيراد السلع الترفيهية .. لكنه في الوقت نفسه قدم الحوافز والتسهيلات للمؤسسات الخاصة ولرأس المال الأجنبي طالما أنه لن يستغل ذلك بشكل يضر المصلحة القومية .. ولأن **بوش** كان رجلا مثقفا ، فقد كان يبدي اهتماما كبيرا بمسألة الحريات المدنية ، فلم يسع أبدا للنيل من الشيوعيين أو تعقبهم طالما لم ينتهك أحدهم القانون ..

أعلنت الحكومة الأمريكية استياءها من أسلوب **بوش** في إدارة السلطة ، وسرعان ما ظهرت الاتهامات في الصحف والتقارير الأمريكية التي تؤكد أن **بوش** يساند الشيوعيين ، وأنه يقف ساكنا أمام سعيهم الواضح للسيطرة على البلاد .. ثم أرسل **كينيدي** إلى سفيره في الدومينيكان يبلغه أنه غاضب ومتعجب جدا من أمر ذلك الرئيس الدومينيكي الذي لم يفعل أي شئ حتى تلك اللحظة للحيلولة دون انتصار الشيوعية ..

وكأن **كينيدي** كان يعلم أنه سوف يلقى مصرعه في نوفمبر 1963 ، فآثر أن ينهي حياته بعمل جليل يسجل به اسمه مع أسلافه الذين سبقوه ..

ففي سبتمبر 1963 وبعد سبعة أشهر من تولي **بوش** الحكم ، قام عدد من ضباط الجيش المدعومين من كل الأوجه من قبل الإدارة الأمريكية بانقلاب عسكري ، ليعود الرئيس **خوان بوش** إلى المنفى من جديد ..

* * *

وفي 24 أبريل 1965 حدث شئ نادر في تاريخ المقاومة بأمريكا اللاتينية ..

ففي صباح ذلك اليوم ، أعلنت مجموعة من صغار ضباط الجيش الثورة ضد الحكومة مطالبين بعودة رئيسهم المنفي **خوان بوش** إلى مركزه المسلوب .. وبعد ساعات انضم إليهم عدد آخر من الضباط من مختلف الوحدات .. ولم ينتصف النهار إلا وكانت جموع غفيرة قدرت بعشرات الألوف من الشعب الدومينيكي قد تدفقوا في الشوارع يهتفون في جنون : يحيا **بوش** Viva **Bosch** ، ثم انطلقوا في اتجاه وحدات الجيش الذي خلع رئيسهم ، فقاموا بانتزاع الأسلحة التي وجدوها في طريقهم .. وفي مساء نفس ذلك اليوم ، تمكن الشعب وضباط الجيش الثائرون من احتلال مبنى الإذاعة والتليفزيون .. وكان منظرا غريبا أن يشاهَد خليط من السياسيين والعساكر والأطفال والنساء بل وقطاع الطرق وهم يجرون في الشوارع ويظهرون على شاشة التليفزيون الدومينيكي ، ويطالبون بسقوط الخونة وعودة الرئيس **بوش** ..

جاء التدخل العسكري الأمريكي أواخر أبريل وأوائل مايو 1965 على هيئة أسطول بحري أرسله الرئيس الأمريكي **جونسون** إلى سواحل العاصمة سان دومنجو .. فتم إنزال عشرة آلاف من مشاة البحرية وجنود الجيش مدعومين بالدبابات والطائرات ..

حدثت مجزرة بشعة للمقاومة الشعبية .. لتهدئة الموقف أعلن **جونسون** أنه لجأ إلى التدخل العسكري لإنقاذ حياة الرعايا الأمريكيين .. كما ادعى أن الثورة الديمقراطية الشعبية (!) – وكان يقصد بها تمرد بعض

قادة الجيش على **خوان بوش** – على وشك السقوط في أيدي الشيوعيين المتآمرين .. ولابد أن القارئ سوف يضبط نفسه مبتسما عندما يعلم أن قوائم هؤلاء الشيوعيين المتآمرين المسجلة لدى المخابرات الأمريكية قد احتوت على أسماء بعض الموتى ، وعدد من المهاجرين خارج البلاد ، وآخرين في السجون منذ سنوات طويلة ، بالإضافة إلى طفل في السادسة من عمره !..

* * *

وفي يونيو 1966 قررت الولايات المتحدة أن الوقت قد حان لإجراء انتخابات جديدة .. كان التنافس هذه المرة بين عميلهم القديم **جواكين بالاهير** و**خوان بوش** الذي كان قد عاد إلى وطنه قبل أشهر .. وكان غريبا أن تنتهي الانتخابات بانتصار ساحق لـ **بالاهير** .. لكن المتابع لملابسات الانتخابات لن يندهش كثيرا .. فمن ناحية ، ظلت القوات الأمريكية مرابطة أمام سواحل الدومينيكان حتى سبتمبر 1966 .. ومن ناحية أخرى ، لم يخرج **خوان بوش** من منزله طوال الحملة الانتخابية خوفا على حياته التي كانت مهددة بشكل جاد ..

أعيدت السلطة إلى الدكتاتور **بالاهير** الذي كان قد اضطر في عام 1962 بسبب الثورة عليه للتخلي عن السلطة والسفر إلى أمريكا .. ليحكم بعدها البلاد لمدة 12 سنة بالأسلوب الكلاسيكي الذي تفضله أمريكا .. ونسيت الإدارة الأمريكية كل مخاوفها بشأن غياب الديمقراطية وثورة الشعب وسيطرة الشيوعية ، فقد وجدت أن أفضل أسلوب هو استخدام القوة مباشرة للقضاء على من يخالف تصوراتها بشأن تلك المنطقة من العالم ..

* * *

اللافت للنظر .. أن تسمية الدومينيكان تعود إلى طائفة من الرهبان المسيحيين تحمل هذا الاسم ..

وإن كان هذا لا يهم .. فإن لم يكن قتل الآلاف من أجل مكافحة الشيوعية ، فليكن ذبحهم لمنع مجرد التفكير في ذلك !

(12)
شـيـلـي : ديمقراطـية ثقـيلة الظـل

جرس إنذار .. فزع سياسي ..

لقد ظهر مرشح شيوعي للرئاسة بجمهورية شيلي في عام 1958 .. وكان قاب قوسين أو أدنى من حسم الانتخابات لصالحه .. لكنه خسرها بفارق 3 % فقط ..

وفي عام 1964 عاد نفس المرشح الشيوعي لترشيح نفسه .. وفي هذه المرة ، تدخلت المخابرات الأمريكية بقوة للتأثير على نتيجة انتخابات شيلي لتتأكد من منع وصول **سلفادور الليندي** المرشح الشيوعي للحكم ..

ساهمت المخابرات الأمريكية في تمويل حملة المسيحيين الديمقراطيين ، حتى وصل مجموع ما ساهمت به إلى نصف تكلفة الحملة ككل ..

وكان معظم تلك الأموال قد تم توجيهها إلى برامج دعائية من خلال وسائل الإعلام .. ومن الأمثلة الملفتة للدعاية الأمريكية ، كانت هناك فقرة تم بثها عبر الإذاعة .. تبدأ الفقرة بصوت طلقات مدفع رشاش ، ثم تُسمع صرخات امرأة تبكي في لوعة وهي تقول : " لقد قتلوا طفلي .. لقد قتلوا طفلي .. هؤلاء الشيوعيون " .. ثم يأتي صوت المذيع ليعلق في نبرات يملؤها التعاطف والحماس قائلا : " إن الشيوعية لا تقدم سوى الدم والألم .. ومن أجل ألا يحدث ذلك في بلدنا شيلي ، فإن علينا أن ننتخب **إدواردو فري** رئيسا لنا " ..

وفي نهاية الأمر ، نجح **ادواردو فري** مرشح التحالف المسيحي الديمقراطي ، وفاز بـ 56 % من الأصوات مقابل 39 % لـ **سلفادور الليندي** ..

وفي انتخابات عام 1970 أعادت الولايات المتحدة محاولاتها لمنع فوز **الليندي** ، فتم استبعاد **فري** واختيار **توميك** زعيما للحزب ، أنفقت أمريكا ضعف ما أنفقته في المرة الأولى من أموال ، لكنها فشلت هذه المرة ، وأصبح **سلفادور الليندي** أول رئيس شيوعي في العالم يتم انتخابه ديمقراطيا .. كانت هذه كارثة سياسية أن تجتمع الديمقراطية والشيوعية في قارب واحد ، إنه ضد كل ما تروج له أمريكا ، ولو انتشر ما نجح أحد في إيقافه .. وكان لابد من اتخاذ موقف حاسم ورادع ..

تعاونت الشركات الأمريكية الكبرى التي تستثمر أموالها في شيلي مع المخابرات والبنك الدولي لتنظيم انقلاب يطيح بـ **الليندي** .. تنصل البنك الدولي من كل التزاماته بالنسبة لقروض شيلي .. أوقفت الشركات الكبرى تدفق الاستثمارات المالية .. نجحت هذه الشركات في خفض أسعار النحاس في الأسواق العالمية .. حرضت أمريكا حلفاءها على عدم شراء نحاس شيلي – وهو أهم صادرات هذا البلد – .. أضرب عمال مناجم النحاس بتدبير أمريكي مما أدى إلى انخفاض إنتاج النحاس فضلا عن انخفاض سعره أساسا .. تم تقديم الدعم المالي السخي لصحف المعارضة لانتقاد الحكومة .. دعت المعارضة إلى مظاهرات لإجبار

الحكومة على وقف برامج التأميم بعد أن تم تأميم ما تبقى من صناعة النحاس والنسيج والبنوك .. استمرت هذه المظاهرات لفترة طويلة مما أدى إلى تدمير الاقتصاد الشيلي تماما في عام 1973 ..

تقلصت شعبية **سلفادور الليندي** كثيرا ، خاصة بعد أن تعثر في سداد ديون شيلي الخارجية .. وفي المقابل كانت هناك زيادة ملحوظة في المساعدات العسكرية المقدمة إلى شيلي في عامي 1972 و1973 ، وكانت هناك تدريبات مجانية تمنح لقيادات الجيش الشيلي على يد العسكريين الأمريكيين في القواعد العسكرية في بنما وفي الولايات المتحدة .. ولم يكن في وسع **سلفادور الليندي** أن يرفض المساعدات العسكرية حتى لا يفقد دعم الجيش له في الأزمة الطاحنة التي تمر بها البلاد ..

وفي 11 سبتمبر 1973 ساندت المخابرات الأمريكية بعض قيادات الجيش وعلى رأسهم الجنرال **أوجستو بينوشيه** ، فقاموا بالانقلاب وأطاحوا بحكومة **الليندي** الذي لقي مصرعه تحت أنقاض قصر الرئاسة بسبب القصف المتواصل .. تخلص الأمريكان من **الليندي** المنتخب من الشعب ، وجاءوا بالدكتاتور **بينوشيه** ليحكم شيلي قرابة العشرين عاما .. وكانت أولى بصماته قتل 30 ألف مواطن بتهمة الشيوعية في الأسابيع الأولى من حكمه .. عادت شيلي إلى الحكم الدكتاتوري من جديد ، فهدأت أعصاب أمريكا زعيمة الديمقراطية في العالم الحر ..

وللجنرال **بينوشيه** تصريح فلسفي عميق يشرح فيه بإيجاز نظرته الحكيمة لأسلوب تطبيق الديمقراطية ، إذ يقول الدكتاتور الديمقراطي : " على الدوام ، كان من اللازم تغطيس الديمقراطية في حمام من الدماء " ! ..

أما وزير الخارجية الأمريكي **هنري كيسينجر** ، فكان دوما يطمئن **بينوشيه** قائلا : " إننا في الولايات المتحدة – كما تعرف – متعاطفون مع ما تحاولون عمله هنا .. " ! ..

(13)
جـيفارا : كراهية متبادلة

" لا يهمني متى وأين سأموت ، لكن يهمني أن يبقى الثوار منتصبين ، يملأون الأرض ضجيجا ، كي لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين " ..

" الثورة قوية كالفولاذ ، حمراء كالجمر، باقية كأشجار السنديان ، عميقة كحبنا الوحشي للوطن " ..

" إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة تُوجّه إلى مظلوم في هذه الدنيا، فأينما وُجد الظلم فذاك هو وطني".

" لا يستطيع المرء أن يكون متأكدا من أن هناك شيئا يعيش من أجله إلا إذا كان مستعدا للموت في سبيله" .

" كل شعب يتحرر هو مرحلة جديدة في عملية واحدة هي عملية إسقاط الاستعمار " ..

" أنا لست محررا .. المحررون لا وجود لهم .. فالشعوب وحدها هي التي تحرر نفسها بنفسها " ..

قائل هذه العبارات المثالية هو أسطورة أمريكا الجنوبية **أرنستو جيفارا دي لاسيرنا** الذي قضى سنوات شبابه يكافح الاستعمار الأمريكي والحكومات التابعة له في أمريكا الجنوبية حتى قُتل أثناء حربه في جبال بوليفيا ..

وأمريكا لم تحب هذا الرجل .. وأرى هذا سببا كافيا لأن أكتب عنه ..

* * *

وُلد **جيفارا** في 14 أغسطس 1928 بمدينة بوينس أيريس عاصمة الأرجنتين في عائلة برجوازية عريقة .. كان أبوه مهندسا معماريا ميسور الحال ، وأمه عُرف عنها الثقافة والشغف بالتاريخ وقد ربّت ابنها على سير المحررين العظام وعلى قصائد الشعر الإسباني والأدب الفرنسي .. وقبل أن يتم عامين اكتشف أهله أنه مصاب بالربو ، فاضطرت العائلة إلى ترك العاصمة والانتقال إلى مكان أكثر جفافا لأجل صحة الطفل المريض .. وفي مارس 1947 عادت الأسرة إلى العاصمة ليلتحق جيفارا بكلية الطب ..

وقبيل تخرجه من كلية الطب طاف مع صديقه **ألبرتو جراندو** عددا من دول أمريكا الجنوبية على الدراجة البخارية ، فزار إضافة لبلده الأرجنتين كلا من شيلي وبوليفيا وبيرو وكولومبيا والإكوادور وبنما بهدف التعرف على ظروف الناس وأحوالهم وأحوال أمريكا الجنوبية بشكل عام والاختلاط بالشعوب ومساعدة الفقراء والمرضى ، فزاول مهنة الطب مع عمال المناجم .. ومن هنا بدأ استكشاف الواقع الاجتماعي المؤسف للقارة ، وبدأ وعيه يتفتح ويعرف أن في الحياة هموما أكثر من مرضه الذي كان الشاغل الأول لأسرته ، فرأى حياة الجماعات الهندية ، وعاين بنفسه النقص في الغذاء والقهر الذي تتعرض له الشعوب .

وفي عام 1953 سافر إلى جواتيمالا ، حيث ساند رئيسها الشاب الذي كان يقوم بمحاولات إصلاح أفشلتها تدخلات المخابرات الأمريكية ، وقامت ثورة شعبية تندد بهذه التدخلات مما أدى لمقتل تسعة آلاف شخص

في أيام معدودة ، فآمن **جيفارا** وتيقن تماما أن الشعوب القوية المسلحة فقط هي القادرة على الدفاع عن حياتها وعن حريتها ..

غادر **جيفارا** جواتيمالا إلى المكسيك إثر سقوط النظام الشعبي بجواتيمالا بفعل الهجمات المتوالية التي دعمتها الولايات المتحدة ..

كان قيام الانقلاب العسكري في كوبا سبب تعارف **جيفارا** بـ **كاسترو** الذي يذكره في يومياته قائلا : " جاء **فيدل كاسترو** إلى المكسيك باحثا عن أرض حيادية من أجل تهيئة رجاله للعمل الحاسم ".. وهكذا التقى الاثنان واتفقا على التوجه إلى كوبا لتحريرها من الدكتاتورية المسنودة من أمريكا .. بدأ الهجوم الأول الذي قاما به ، ولم يكن معهما سوى ثمانين رجلا لم يبق منهم سوى 10 رجال فقط على قيد الحياة ، بينهم **كاسترو** وأخوه **راءول** و**جيفارا** .. ولكن هذا الهجوم الفاشل أكسبهم مؤيدين كثيرين خاصة في المناطق الريفية ، وذلك بفضل قدرات **جيفارا** الخارقة للعادة على الإقناع ..

ظل **جيفارا** ورفاقه يمارسون حرب العصابات لمدة سنتين حتى دخلوا العاصمة هافانا في يناير 1959 منتصرين بعد أن أطاحوا بـ **باتيستا** ..

بعد استقرار الحكومة الثورية بقيادة **كاسترو** أصبح **جيفارا** هو الرجل الثاني في كوبا رغم كونه أرجنتينيا ، فتولى عدة مناصب هامة ومنها رئيس البنك المركزي ووزير الصناعة ووزير التخطيط وقائد الجيش وسفير إلى الهيئات الدولية .. ومن مواقعه تلك قام بالتصدي لتدخلات الولايات المتحدة وقام بالاتفاق مع **كاسترو** على تأميم الشركات الأمريكية وحتمية النهوض الاقتصادي للدولة حتى تنجو من السيطرة الأمريكية ، ففرضت أمريكا عقوبات اقتصادية على كوبا ، وهو ما جعل كوبا تتجه تدريجيا نحو الاتحاد السوفيتي خاصة بعد أزمة الصواريخ ..

أعلن **جيفارا** عن مساندته حركات التحرير في كل من شيلي وفيتنام والجزائر ..

وفي ديسمبر 1964 كان **جيفارا** هدفا لنيران مدفع بازوكا أطلق في اتجاه مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك في أثناء زيارة له للمبنى ، لكنه نجا ..

وعلى الرغم من العلاقة القوية التي ربطت بين **جيفارا** و**كاسترو**، إلا أن اختلافا في الرأي حدث بعد فترة . قرر **جيفارا** مغادرة كوبا متجها إلى الكونجو الديمقراطية (زائير) وأرسل إلى **كاسترو** في أكتوبر 1965 يبلغه بتخليه عن مسئولياته في قيادة الحزب ، وعن منصبه كوزير، وعن رتبته كقائد ، وعن وضعه ككوبي ، إلا أنه أكد على أن هناك روابط طبيعية أخرى لا يمكن القضاء عليها بالأوراق الرسمية ، كما عبر عن حبه العميق **لكاسترو** ولكوبا وحنينه لأيام النضال المشترك ..

ذهب **جيفارا** لأفريقيا مساندا لثورة الكونجو ، واصطحب معه 125 كوبيا ، ولكن فشلت التجربة الأفريقية لأسباب عديدة منها عدم تعاون قواد الثورة معه باعتباره من الغرباء إضافة إلى اختلاف المناخ واللغة

والفكر وانتهى به الأمر في أحد المستشفيات في براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا للنقاهة .. زاره **كاسترو** هناك ليرجوه العودة إلى كوبا ، فعاد ..

وبعد إقامة قصيرة في كوبا اتجه **جيفارا** إلى بوليفيا لمساعدة ثوارها على التحرر من الحكومة الدكتاتورية الموالية لأمريكا كالعادة ..

كان هدف **جيفارا** الأول هو منع الولايات المتحدة من استغلال ثروات أمريكا الجنوبية حتى يصبح في إمكان هذه الشعوب الفقيرة أن تنهض في يوم ما .. ضجت أمريكا منه ، وفاض بها الكيل من تلك الجاذبية الملحوظة في شخصيته والتي كانت تجمع الناس حوله فيقودهم نحو معارك التحرر من الاستعمار الأمريكي غير المباشر ..

وفي يوم 8 أكتوبر 1967 وبمساعدة المخابرات الأمريكية تمكن الجيش البوليفي من تحديد مكان **جيفارا** ، وفي أحد وديان بوليفيا الضيقة هاجمت قوات الجيش المكونة من 1500 فرد مجموعة **جيفارا** المكونة من 16 فردا ، وقد ظل **جيفارا** ورفاقه يقاتلون ست ساعات كاملة ، استمر **جيفارا** في القتال حتى بعد موت جميع أفراد المجموعة رغم إصابته بجروح في ساقه ، إلى أن دُمّرت بندقيته وضاعت خزانة مسدسه فنجحت القوات البوليفية في أسره حيا بعد أن نفذت ذخيرته .. نُقل إلى قرية لاهيجيراس وبقي حيا لمدة 24 ساعة رافضا الكلام مع مَن قاموا بأسره .. تم إعدامه رميا بالرصاص ، وقد حضر تنفيذ حكم الإعدام عميل المخابرات الأمريكية **فيليكس رودريجيز** وهو أحد العملاء الكوبيين .. وقد رفضت السلطات البوليفية تسليم جثته لأخيه أو حتى تعريف أحد بمكان مقبرته حتى لا تكون مزارا للثوار من كل أنحاء العالم ..

* * *

واليوم وبعد مرور أكثر من 38 سنة على اغتيال الأمريكان له في جبال بوليفيا ، توجد آلاف الصور له مطبوعة على الملابس ونشرت عنه آلاف الكتب والدراسات .. وما زال رمزا ومثلا أعلى لكثير من شباب أمريكا الجنوبية والعالم ولا تزال سيرته تصيب الحكومات الأمريكية بكركبة مصارين ..

مات جيفارا شابا في التاسعة والثلاثين من عمره ، وعاش في قلوب ملايين المحبين ..

قتلته أمريكا وأضاعت جثمانه ، لكن أفكاره سوف تعيش بعده طويلا ، ولا خوف عليها من الضياع ..

(14)
هاييتـــي : ســـرقـــة بالإكـــراه

قطعا ..

يقارب المستحيل أن يتكرر هذا الذي سوف تقرأه مرة أخرى في التاريخ ..

* * *

هاييتي دولة تقع في البحر الكاريبي الذي يفصل الولايات المتحدة عن أمريكا الجنوبية ، هي واحدة من دولتين تشكلان معا جزيرة هسبانيولا .. الدولة الثانية هي جمهورية الدومينيكان التي تشغل الجزء الشرقي من الجزيرة بينما تشغل هاييتي الثلث الغربي .. احتلها الفرنسيون عام 1659 ، وأطلقوا عليها اسم سانت دومينيك ..[12] كانت هذه الدولة الصغيرة أغنى مستعمرة فرنسية .. مزرعة كبيرة متخصصة في قصب السكر[13] ، وهو ما كان يزرعه ويحصده العمال المحليون المستعبدون ، فالأغلبية العظمى من الزنوج - 90 % من السكان- .. استمر الحال على ما هو عليه حتى عام 1803 عندما نجح مواطني هاييتي السود في تلقين جيش **نابليون بونابرت** درسا قاسيا بقيادة زعيمهم **توسين لوفرتير** ، نالت على إثره استقلالها ، لتصبح بذلك أول دولة في أمريكا الوسطى والجنوبية تنال حريتها ..

ولم تفلح الحملة التي أرسلها **نابليون** للقضاء على ثورة أبناء الجزيرة ، إذ انتشرت الحمى الصفراء بين الجنود الفرنسيين وهلك قائدهم ليفشل **نابليون** في استعادة الجزيرة ..

لم تنس أوروبا نجاح عبيد لا قيمة لهم في إذلال الجنس الأبيض وهزيمته شر هزيمة ، ففرضت جميع الدول الأوروبية الحصار الاقتصادي على هاييتي التي لم تكن تملك سوى قصب السكر ، ونجحوا في عزلها عن العالم تماما ، حتى جاع الشعب واستدان ..

كما هي العادة ، وقع الشعب تحت رحمة عهود من الدكتاتورية ، وقد واظب هؤلاء الطغاة على الإمعان في تجويع الشعب عن طريق سداد ديون فرضتها فرنسا على البلد ، كانت هذه الديون شكلا من أشكال الإتاوة انتقاما من جريمة هاييتي الشنعاء عندما قاومت الغزاة البيض وحصلت على استقلالها ..

* * *

بدأت الولايات المتحدة في الالتفات إلى تلك الدولة الصغيرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، تحديدا في نفس المرحلة التاريخية التي بدأت فيها ممارسة سياسة إخراج أوروبا من الأمريكتين ..[14]

---

[12] تغير اسمها فيما بعد إلى هاييتي وهو اسمها الأصلي قبل الاستعمار الفرنسي ..

[13] كانت هاييتي تنتج ثلاثة أرباع إنتاج العالم من السكر في عام 1789 ..

[14] اعترفت الولايات المتحدة بدولة هاييتي في عام 1862 ، حيث اعتبرتها مكانا صالحا لاستيعاب السود الذين سيغادرون أمريكا بسبب الحرب الأهلية وتداعياتها ..

حتى هذه اللحظة ليس هناك أي جديد في هذه الحكاية المكررة المملة حتى أنني أنا شخصيا قد أصابني الملل من كتابتها ..

لكن هناك ما هو جديد تماما ، وإن لم أكن مبالغا ، قد يكون هو الأكثر غرابة في تاريخ الاستعمار منذ الأزل .. ففي الوقت الذي كانت فيه أنظار العالم تتجه نحو أوروبا في عام 1914 لمتابعة أخبار الحرب العالمية الأولى ، كانت القوات البحرية الأمريكية تشق طريقها في البحر في 17 ديسمبر 1914 ، فتغزو هاييتي وتنزل إلى العاصمة بورت أو برنس ، و ...

وتهاجم البنك المركزي وتسرق 500 ألف دولار من العملات الذهبية !!! ..

والسبب ؟.. كانت هاييتي مدينة لأمريكا بمبالغ كبيرة تدفعها على دفعات ، وخشي الأمريكان أن تحتلها أية دولة أوروبية في أثناء الحرب .. فقررت سرقة بعض ما يحفظ لها حقها إذا ما تدخلت ألمانيا أو فرنسا أو حتى بريطانيا ..

وفي شهر يوليو من العام التالي مباشرة (1915) ، عادت قوات المارينز إلى الجزيرة وقامت باحتلالها لمدة 19 سنة ..

طبعا لم يحدث أبدا أن حار رئيس أمريكي في إيجاد مبررات للعدوان على أي بلد في العالم ..

والحقيقة أن الرئيس الأمريكي **وودرو ويلسون** ترك للتاريخ مجموعة من الأسباب الوجيهة للغزو ، ومنها : تعليم شعب هاييتي الديمقراطية .. إحلال النظام والحفاظ على الجزيرة من طمع أية قوى أجنبية فيها .. حماية الرعايا الأمريكان والأجانب من أعمال العنف والإرهاب خاصة بعد مصرع رئيس الجمهورية **فيلبرون سام** .. أما السبب الذي لم يتركه **ويلسون** للتاريخ فهو سبب جغرافي ، حيث خشيت أمريكا من اتساع نطاق الحرب ، الأمر الذي قد يؤدي إلى التواجد الأوروبي بالقرب من قناة بنما الاستراتيجية ، إذ تبعد هاييتي ستمائة ميل فقط عن القناة وهي أقرب جزيرة بعد جامايكا إلى بنما ..

وفي عام 1916 توصلت الولايات المتحدة إلى عقد اتفاقية مع هاييتي ، كانت مقاربة لمعاهدة بلات التي أبرمت مع كوبا[15] .. أدت المعاهدة إلى وقوع هاييتي تحت الوصاية الأمريكية فضلا عن كونها محتلة من القوات البحرية .. وفي يونيو 1918 جاء تصريح للرئيس **ويلسون** في محاولة منه لنفي التدخل غير المشروع في شئون جيرانه في الجنوب ، وقال فيه : " ربما كانت الصعوبة هي أن الولايات المتحدة أعلنت مبدأ مونرو دون أن تحسب حسابا لرغبة الدول الأمريكية الأخرى .. لقد قلنا لكم أننا سنكون أخاكم الأكبر رغبتم في ذلك أم كرهتم " ! ..

وفي عام 1934 قررت أمريكا مغادرة هاييتي بعد أن وضعت شرطين : وضع يدها على أموال الجمارك حتى تنتهي ديون هاييتي لها بالكامل ، تعديل القوانين بالسماح للأجانب بتملك الأراضي الزراعية ..

---

[15] راجع فصل كوبا

وقد أوضح أحد المسئولين الأمريكان مشكورا سبب الاحتلال الطويل لهاييتي ، فقال بمناسبة إنهاء الاستعمار : " إن السود ليست لديهم المقدرة على إدارة أنفسهم ، ثم إن لديهم ميلا متأصلا نحو الهمجية والوحشية التي تحول بينهم وبين الحضارة "..[16]

وخلال فترة الاحتلال حدثت أكثر من ثورة تطالب بالحرية وتم قمعها ، وكان أحد الأسباب المزمنة وراء غضب الشعب هو تفضيل الأمريكان للأقلية البيضاء في هاييتي والتي لا تشكل سوى 10 % من السكان في كل المناصب الحكومية .. ورغم انتهاء الاستعمار الأمريكي رسميا في أغسطس 1934 إلا أن أمريكا ظلت تتحكم في كل شئ بدءا من اختيار رئيس الجمهورية وحتى توجيه سياستها الخارجية ، حتى أن هاييتي التي لا حول لها ولا قوة قد أعلنت الحرب على اليابان في 8 ديسمبر 1941 بعد ساعات من إعلان أمريكا نفسها الحرب ، وفي 12 ديسمبر أعلنت الحرب على ألمانيا وإيطاليا ! ..

ظلت هاييتي تتنقل بين دكتاتور وآخر تحت إشراف كامل من الولايات المتحدة ، وعلى رأس هؤلاء جاء إلى السلطة الدكتاتور **فرانسوا دوفالييه** الذي تولى الحكم من عام 1957 حتى وفاته في عام 1971 .. ومن بعده جاء ابنه **جان كلود دوفالييه** الذي حكم البلاد بدءا من عام 1971 بعد أن كان قد تم تعديل الدستور لتصبح رئاسة الجمهورية مدى الحياة ..[17]

احتمل الشعب الدكتاتور **دوفالييه** لمدة 15 سنة ، ثم فاض به الكيل فقامت ثورة شعبية طردته من هاييتي في عام 1986 .. وهرب **دوفالييه** على متن طائرة أمريكية إلى فرنسا ، ليتولى من بعده السلطة الجنرال **هنري نامفي** ، وهو أحد المقربين لـ **دوفالييه** وصديق قديم لأمريكا ..

ومنذ ذلك التاريخ تعيش هاييتي على الانقلابات والصراعات ..

* * *

ويعد **جان بيرتراند أريستيد** رجل الدين المسيحي أهم شخصية في هاييتي منذ منتصف الثمانينات .. كان **أريستيد** رجل دين من نوعية خاصة .. فهو كان يجاهر بعدائه للقهر والقمع في سنوات حكم **دوفالييه** .. وكان من أنصار الفقراء وتم تصنيفه على أنه من اليساريين .. وبعد هروب **دوفالييه** ، كان **أريستيد** من أشد المعارضين لحكم جنرالات الجيش وللتدخل الأمريكي في الشئون الداخلية لبلده ..

وبعد فاصل من الانقلابات وأجواء التوتر ، أقنعه أنصاره أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية في انتخابات عام 1991 .. حقق **أريستيد** انتصارا كاسحا بنسبة 67 % من الأصوات من الجولة الأولى متفوقا على عشرة مرشحين من بينهم **مارك بازين** المسئول بالبنك الدولي الذي كانت تسانده الولايات المتحدة .. تولى الحكم في مطلع فبراير وهو في السابعة والثلاثين من عمره ، ولم تلبث أمريكا أن ساعدت على الإطاحة به

---

[16] في إحدى زيارات مسئول أمريكي إلى هاييتي في بداية مرحلة الاحتلال الأمريكي عام 1917 ، كتب في مذكراته يصف وزير الزراعة الهاييتي بقوله: " لم أستطع إلا أن أقول لنفسي إن هذا الرجل يمكن أن يباع بـ 1500 دولار إذا ما عُرض في المزاد العلني في نيو أورليانز عام 1860 ، ليستخدم كفحل للتناسل " ..

[17] على الأقل عندهم دستور ينص على ذلك ! ..

في 29 سبتمبر من نفس العام عن طريق انقلاب عسكري بقيادة **ميشيل فرانسوا** قُتل خلاله المئات من أنصاره وفر الآلاف إلى جمهورية الدومينيكان المجاورة .. ذهب **أريستيد** إلى المنفى ، ثم عاد إلى الحكم ثم أطيح به مرة أخرى في نفس العام – 1994 – ، ثم عاد من جديد .. والغريب أنه في تلك المرة عاد بمساعدة الولايات المتحدة التي توصلت إلى اتفاق ما لا يخل بمصالحها..

وحاليا هو الرئيس المنتخب في هاييتي رغم الاضطرابات الشديدة على الجزيرة .. وإن كنت لا أظن أن الولايات المتحدة ستهرع إلى إنقاذه عندما تشتد الضغوط عليه ، فلا هو من العملاء المخلصين ولا هو من الحريصين بشدة على إرضاء الولايات المتحدة ..[18]

* * *

في الفترة ما بين 1981 و1991 – أيام حكم **دوفالييه** و**نامفي** و**بروسبر أفريل** – حاول 24 ألف مواطن من شعب هاييتي الفرار إلى الولايات المتحدة بواسطة القوارب ، واعترضهم حرس السواحل على مدار تلك السنوات ، ولم يعط حق اللجوء إلا لأحد عشر شخصا فقط باعتبارهم من ضحايا الاضطهاد السياسي .. ولكن عندما جاء **أريستيد** للحكم أول مرة في عام 1991 ولمدة ثمانية أشهر فقط ، انخفض عدد اللاجئين بشكل ملحوظ بسبب توقف العنف وقبول الشعب لرئيسهم المنتخب .. وفي تلك الفترة القصيرة تقدم عشرون مواطن بطلب اللجوء السياسي لأمريكا وتم قبول جميع الطلبات ..

وبعد الإطاحة بـ **أريستيد** ، عاد تدفق قوارب الفارين إلى الشواطئ الأمريكية بالآلاف هربا من موجات قمع جديدة .. ومن جديد ، رفضت أمريكا معظم طلبات الهجرة .. وحتى الذين سلكوا الطرق الرسمية الروتينية كان يتم خذلهم .. ومن الأمثلة على ذلك ، كان أحد المرفوضين قد قدم طلبا شارحا فيه أسباب الهجرة ، وكان ذلك المتقدم من أنصار **أريستيد** المخلوع .. وقد رُفض طلبه على أساس أنه لم يتعرض إلا لمضايقات بسيطة ومنها أن جنود الجيش قد أمطروا منزله بوابل من الرصاص وأنهم قد أحالوا متجره إلى أنقاض .. بس كده !

* * *

ولأن الشعوب ذاكرتها ضعيفة ، فإن أحدا في هاييتي لا يتعجب لموقف أمريكا منها ..

فالولايات المتحدة تصدر تقريرا سنويا يشهد بمدى تعاون دول العالم في القيام بنشاط مكافحة غسيل الأموال والاتجار في المخدرات ..

وقد وضع التقرير الأخير 23 دولة في لائحة الدول المخالفة وهي : أفغانستان وجزر الباهاما وبوليفيا والبرازيل وميانمار (بورما سابقا) والصين وكولومبيا وجمهورية الدومينيكان والإكوادور وجواتيمالا وهاييتي والهند وجامايكا ولاوس والمكسيك ونيجيريا وباكستان وبنما وباراجواي وبيرو وتايلاند وفنزويلا وفيتنام .. وقد جاء في ذلك التقرير الذي نشر في 31 يناير 2003 أن " هاييتي أخفقت بشكل واضح في

---

[18] كان ذلك قبل أن يتم خلعه من جديد ! ..

الوفاء بالتزاماتها بموجب اتفاقيات مكافحة المخدرات الدولية " ، وطالب التقرير هاييتي بإصدار تشريعات مناهضة للفساد ، وتطوير أداء البنوك فيما يتعلق بغسيل الأموال ..

إن الشعب في هاييتي لم يندهش لغضب أمريكا عليه بسبب غسيل الأموال وفساد البنوك ..

لم يرد الشعب على التهم الأمريكية ، ولم يقل لها أن غسيل الأموال وتبييضها أهون كثيرا من جريمة السطو المسلح التي تقوم فيها دولة بسرقة البنك المركزي لدولة أخرى في وضح النهار ..

فإذا كانت الولايات المتحدة تسرق ثروات الشعوب ، وتنهب أموالها وموادها الخام ، وإذا كانت تسرق أراض لا تخصها بالقوة ..

فعلى الأقل لا ينبغي للشعوب أن تسمح لأمريكا بسرقة ذاكرتها ..

(15)
بـــوليـــفيـــا : جـــنرالات ومخـــدرات

خذها قاعدة ..

الدولة التي تريد أن تنجو من أمريكا لابد أن يتوافر فيها عدة شروط أهمها أن يكون موقعها الجغرافي غير مميز وأن تطيع سياسات أمريكا طاعة عمياء .. والأهم من ذلك أن تكون دولة فقيرة معدمة لا تمتلك أية ثروات طبيعية من أي صنف ..

وللأسف الشديد لم تنطبق هذه القاعدة على دولة بوليفيا ..

تشتهر بوليفيا بمناجم القصدير .. اكتشف الأوروبيون هذه المناجم فيما مضى ، ونقلوا المعادن التي استخرجت إلى الموانئ وبيعت إلى البلدان الأوربية والولايات المتحدة بأسعار زهيدة .. ولم ينل الشعب شيئا مما اكتُشف ، كما لم يقبض ثمنا لما بيع .. ولكي يظل القصدير رخيص الثمن كان لابد من استغلال عمال المناجم إلى أقصى حد ممكن وغير ممكن .. كان العمال يعيشون في الأكواخ المحيطة بالمناجم .. كانت أكواخ حقيرة لا تقي من البرد ولا من الرياح وكانوا يعانون من الجوع والعطش معظم أوقات العام ..

وفي فقرة من كتاب " الأوردة المقطوعة لأمريكا اللاتينية " للكاتب **إدواردو جاليانو** جاءت هذه الكلمات لتعبر عن أحوال عمال المناجم في بوليفيا : " من السهل أن نفهم لماذا كان عمال المناجم يفقدون حاستي التذوق والشم خلال بضع سنوات ، وذلك لدى وقوفنا في تلك البيئة السامة عدة ساعات وتنفسنا لذلك الهواء الثقيل والمليء بالرطوبة والغاز والغبار والدخان .. كان العمال جميعهم يمضغون ورق القولتشا[19] وهذا كان جزء من المجزرة .. لأن القولتشا تنسي الجوع والتعب وتحرم الجسم من ردود الأفعال الطبيعة التي يحتاج إليها كي يبقى سليما.. لكن الغبار كان الأسوأ ، إنه غبار السيليكون الذي لا يعرف الرحمة ، ينهي حياة الإنسان ببطء مع استنشاق التراب القاتل .. وبعد عشر سنوات من حياة بهذا الشكل يغدو العيش مستحيلاً .. إن مناجم القصدير تستخدم آخر موديلات آلات الحفر وهي من صنع سويدي ، في حين أن نظام التهوية وشروط العمل هي دائماً نفسها ، لا تتقدم أبدا " ..

وفي عام 1952 جاء **فيكتور باز إستنسورو** إلى السلطة بدعم من العمال والفلاحين ..

وقامت حركة عُرفت بالحركة الثورية القومية بتأميم مناجم القصدير ، كما قامت بإصلاح زراعي شامل ..

لم تستمر الثورة طويلا ، فقد تنبهت أمريكا للتطورات الجديدة ونجحت في استمالة **إستنسورو** وتثبيط طموحاته الثورية ..

كان تطوير العلاقات مع أمريكا يعني بالنسبة لعمال المناجم المزيد من الاستغلال وتخفيض الرواتب ..

---

[19] صنف من المخدرات

نظرت الولايات المتحدة لعمال المناجم الذين يمتلكون الوعي وجماعية الحركة في كافة أرجاء البلد كخطر شديد ينبغي التخلص منه أو على الأقل تحجيمه .. بالذات مع وجود إذاعة خاصة بعمال المناجم ..

و بعد فترة طويلة من الوفاق النسبي بين الرئيس البوليفي **إستنسورو** وبين السياسة الأمريكية ، حدث ما أزعج الولايات المتحدة .. ففي عام 1962 عارض **إستنسورو** طرد كوبا من منظمة الدول الأمريكية .. وفي عام 1964 رفض المشاركة في العقوبات المفروضة من قبل المنظمة على الحكومة الكوبية ، ولم يقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين .. وفي نفس تلك الفترة الزمنية راقبت الولايات المتحدة محاولات بوليفيا لجذب الاستثمارات والحصول على مساعدات اقتصادية من دول الكتلة الشرقية ..

وبالإضافة إلى كل ذلك ، رفض الرئيس البوليفي إرسال الجيش لسحق عمال مناجم القصدير المضربين ..

وفي نوفمبر من عام 1964 قاد نائب الرئيس الجنرال **رينيه بريانتس** انقلابا عسكريا بالدعم المعتاد من المخابرات الأمريكية .. ثم خُيّر الرئيس **فيكتور باز إستنسورو** بين أحد أمرين .. إما أن يتم اصطحابه إلى المطار ، وإما الذهاب به إلى المقابر .. ولقد اختار الرجل العاقل أن يُنفى إلى ليما عاصمة بيرو ..

سارع الجنرال **بريانتس** إلى إثبات الولاء وتقديم فروض الطاعة ، فقام بتخفيض رواتب عمال المناجم المنخفضة أساسا إلى النصف .. وكان هذا أمرا شديد القسوة ، فنصف الجائع إذا حرمته من نصف قوته سوف يجوع حتى الموت .. ثم تم نفي زعماء العمال والعاملين بإذاعة صوت المناجم وقيادات النقابة إلى الأرجنتين ، تزامن ذلك مع نزع السلاح ممن وصلت أيديهم إليه من الثوار والمتمردين في البلاد ..

بدأ العمال في تنظيم نقابة سرية بعد أن تم نفي زعمائهم .. تم اكتشاف أمر هذه النقابة ، فاعتُقل زعيم النقابة **كماتشو** وقُتل .. كما قام الجيش بقتل عدد كبير من عمال المناجم ..[20] أثارت هذه المجازر حماس بقية العمال ، فقرروا المقاومة .. حاصر الجيش المسلح بأحدث الأسلحة الأمريكية منجم سيجلو أحد أكبر المناجم .. قاوم العمال الذين لم يمتلكوا سوى الديناميت الذي يستخدمونه في أعمال التفجيرات ببسالة شديدة ، فاضطر الجيش بتعليمات عليا إلى استخدام الطائرات التي قصفت المناطق المحيطة بالمنجم ، ومات المئات .. أُعلن منجم سيجلو منطقة عسكرية وفرض الجيش حظر التجول وتم حصار كامل للمكان والقبض على كل من يتم الاشتباه فيه ..

وصلت الأخبار إلى البطل الفدائي **جيفارا** الذي كان موجودا في كوبا في ذلك الوقت .. قرر **جيفارا** نقل نضاله ضد الأمريكان إلى بوليفيا في عام 1967 .. وعندما عرف عمال المناجم بوصول **جيفارا** وأتباعه ، قررت رابطة العمال مطالبة الحكومة بدفع مستحقات العمال وتحسين أحوالهم ، وصرحت أنها إن لم تقم بذلك ، فسينضم العمال إلى الفدائيين .. فالموت على جبال الإنديز لا يختلف في شئ عن الموت من الفقر .. وسرعان ما انتشرت المظاهرات في عدد من البقاع تهتف بحياة **جيفارا** وتدعو للانضمام إليه ..

---

[20] في عهد **بريانتس**، سيطرت الولايات المتحدة تماما على الجيش البوليفي ، وذلك عن طريق إرسال عشرات المستشارين العسكريين الأمريكيين إلى العاصمة البوليفية لاباز وإحضار ألف وستمائة ضابط جيش بوليفي للتدريب في القواعد العسكرية الأمريكية ، وكانت هذه المجموعة المنتقاة تضم عشرين بين أكبر ثلاث وعشرين رتبة في الجيش البوليفي ..

جاء رد أمريكا حاسما ..

وهذه فقرة أخرى من كتاب بعنوان " أنا أريد أن أتكلم " للكاتبة **دوميتي ديشوجانا** تشرح أحد مشاهد العدوان الوحشي للجيش البوليفي الذي كانت تحركه الولايات المتحدة : " كنا نحتفل معا بعيد سان خوان في 24 يوليو مع جيراننا ، وبينما كانت الرقصات والأغاني والمشروبات تملأ المكان ، أتى الجنود وقتلوا الكثير من الناس .. لقد أنهوا حياة كل من يظنون أنه يدعم الفدائيين .. فعلى سبيل المثال أنا فقدت طفلي الذي في بطني نتيجة الضرب ، حيث اتهموني بالاتصال بالفدائيين عندما سجنوني في فترة سابقة .. أدت هذه التصرفات البشعة إلى انضمام الكثيرين من الأهالي ، بل وحتى بعض الأطفال إلى النضال مع **جيفارا** . إن مجزرة سان خوان كانت ثاني أكبر المجازر في كل تاريخ بوليفيا .. لقد رأينا الكثير في تلك الليلة " .. بمرور الوقت نجحت أمريكا في الإجهاز على **جيفارا** وبالتالي إضعاف حركة المقاومة ..

* * *

مرت السنوات .. والاستغلال لا ينتهي ، والنهب لا يتوقف ..

وقامت السلطات العسكرية بطرد عشرات الألوف من عمال المناجم بدعوى الخصخصة (!) في محاولة لإنهاء وجود طبقة منظمة تشكل تهديدا مستمرا .. اضطر معظم العمال المطرودين إلى العمل في مجال المخدرات كحل وحيد للبقاء أحياء ..

وكان مما يساعد على تخبط العمال والشعب البوليفي عموما هو حالة عدم الاستقرار الملفتة للنظر في تتابع الحكومات عليها ..[21] فقد جاء **بريانتس** إلى السلطة في عام 1964 ، ومن بعد مصرعه في حادث طائرة هليكوبتر في أبريل من عام 1969 تولى نائبه السلطة لمدة خمسة أشهر .. ثم خلعه الجنرال **ألفريدو أوفاندو كانديا** .. ومن بعد **كانديا** جاء الجنرال **توريس** في نهاية عام 1970 .. كان **توريس** متهما بالشيوعية ، لذلك لم تمهله أمريكا طويلا .. لينقلب عليه الكولونيل **هوجو بانزر** في شهر أغسطس من عام 1971 .. وهلم جرا ..

وفي منتصف السبعينات أشار إمبراطور المخدرات **روبرتو سواريز** على رئيس الجمهورية الكولونيل **هوجو بانزر**[22] أن يضع خطة شجاعة لإنقاذ اقتصاد بوليفيا المتهالك .. وكانت النتيجة أن سمع **بانزر** النصيحة ، والتي كانت تقضي بأن تُزرع حقول القطن المتعثرة في البلاد بأشجار الكوكا (نبات الكوكايين) . وفيما بين عامي 1974 و1980 تضاعفت مساحة الأراضي التي تُزرع بالكوكا ثلاث مرات ..

وفي عام 1985 كان ثلث عدد السكان يعملون في إنتاج وتجارة الكوكايين ..

---

[21] في الـ 139 سنة التي تلت استقلال بوليفيا وجلاء الاحتلال الإسباني ، تولت السلطة 185 حكومة !!

[22] **بانزر** هو أحد تلاميذ مدرسة الاغتيالات الأمريكية التي سوف يأتي الحديث عنها لاحقا .. والمليادير **سواريز** هو صديق شخصي للعديد من عملاء المخابرات الأمريكية ..

وفي عام 1987 كانت بوليفيا تجني 3 مليار دولار من مبيعات الكوكايين ، وهو ما يساوي ستة أمثال كل الصادرات البوليفية الأخرى ، كما أن زراعة الكوكايين تجزي أكثر بعشرة أضعاف من زراعة الكاكاو أو البن بالنسبة للفلاح البوليفي ..

وفي عام 1998 كانت هناك 70 ألف عائلة بوليفية تعتمد على زراعة الكوكا ..

وبلغت السخرية منتهاها عندما بدأت الولايات المتحدة في دعم بوليفيا في الثمانينات عن طريق حملة لمكافحة المخدرات ! ..

لقد فرضت أمريكا على الشعب أن يعيش على المخدرات ، ثم أرسلت جيوشها وأنشأت ثكنات عسكرية ومطارات وقواعد جوية في بوليفيا للنضال ضد مافيا المخدرات ! ..

* * *

كانت أمريكا في غاية الديمقراطية مع هذا الشعب ..

لقد منحته عدة خيارات يتخير منها ما يشاء :

إما الموت من الجوع ،

إما الانتحار بالتعاطي ،

إما الاعتقال للاتجار ،

وإما القتل أثناء المقاومة ..

(16)
السلفـــادور : تدخـــل إنســـاني جدا !

أي نوع من التدخل هذا ؟

عندما يُقتل واحد من كل ثمانين شخصا ..

وعندما يُشرّد واحد من كل ستة في بلد ما ..

* * *

وقبل أن نحكي حكاية الولايات المتحدة مع فريستها السلفادور ، نذكر أولا أن أمريكا ما زالت تنفي بشدة أية مسئولية لها فيما حدث من مذابح خارقة للعادة في ثمانينات القرن العشرين في ذلك البلد المسكين بأمريكا الوسطى .. وقبل أن نسترسل في سرد جرائمها ، دعونا نؤكد كذبها بالدليل الذي لا يقبل الشك ..

ففي يوم الأحد الموافق 5 مايو 1996 أقيمت مراسم مهيبة في مساحة خضراء مفتوحة بالمدافن الوطنية بأرلينجتون .. كان التأبين بخصوص ذكرى واحد وعشرين جندي أمريكي ماتوا أثناء القتال في السلفادور .. نقشت على المقبرة هذه العبارة : " بارك الله في صانعي السلام .. للذكرى المقدسة لهؤلاء الذين ماتوا في سبيل الأمل والسلام " .. كان هناك نصب تذكاري صغير يكشف النقاب عن تكريم هؤلاء الجنود الذين ماتوا في عمليات سرية ضد اليساريين بالسلفادور .. وفي اليوم التالي كتبت الواشنطن بوست عن الدوافع الإنسانية لهذا القتال السري الذي نال عنه الجنود ميداليات الشرف ..

ودون أن يدري أحد ، كان ذلك التأبين هو الإثبات الرسمي على الدور الأمريكي في تلك الحرب القذرة ..

فكيف بدأ التدخل الأمريكي ؟

* * *

حتى سبعينات القرن العشرين تناوبت على السلطة في السلفادور مجموعة من الدكتاتوريات العسكرية .. ثم بدأت أحزاب سياسية معارضة في الظهور ، فتصاعد أمل الشعب في التغيير ..

وفي عام 1972 تقدم زعيم الحزب المسيحي الديمقراطي **خوزيه نابليون ديوارتي** كمرشح للرئاسة ، وبالفعل فاز **ديوارتي** في الانتخابات .. إلا أن الجيش تجاهل نتيجة الترشيح وأتى بالكولونيل **أرتورو أرماندو مولينا** اليميني المتشدد رئيسا للبلاد ، وذلك بعد أن أحبط الجيش تمردا عسكريا لصالح **ديوارتي** الذي تعرض للتعذيب ثم تم نفيه ، رغم أن **ديوارتي** كان عميلا أمريكيا ..

حافظ الجيش على سياسة القمع حتى تولى الحكم من بعد **مولينا** دكتاتور آخر هو **كارلوس هامبرتو روميرو** الذي حكم السلفادور من عام 1977 حتى 1979 .. ورغم علم الولايات المتحدة أن **مولينا** و**روميرو** لم يأتيا إلى الحكم إلا من خلال التزوير وبطش الجيش ، إلا أن المساعدات العسكرية الأمريكية تزايدت بشكل ملفت

وكأنها تكافئهما على تعذيب الشعب .. غير أن **كارلوس روميرو** فاجأ الأمريكان بعدم تعاونه ورفضه للمساعدات الأمريكية .. لذا رحبت الولايات المتحدة بالانقلاب العسكري الذي حدث في 15 أكتوبر 1979 بقيادة مجموعة من الثوار ، يعرفون باسم " الجونتا " Junta .. وهو مصطلح معروف يطلق على أية مجموعة لها نشاطات سياسية وعسكرية محددة ، وتستعين بحرب العصابات على تحقيقها ..

قدمت الولايات المتحدة لهم بعض المعونات الاقتصادية رغبة في تحجيم أي ميول يسارية ، خاصة بعد سقوط الدكتاتور **سوموزا** في نيكاراجوا المجاورة وانتصار حركة الساندنيستا اليسارية هناك ..

* * *

في أواخر عام 1980 بدا الجيش غير متمكن من السيطرة على زمام الأمور ، فاستأنفت أمريكا تقديم المساعدات العسكرية للجونتا ، ثم سارعت بتطعيم الحكومة العسكرية بعميلها **ديوارتي** لتهدئة الأوضاع .. انضم إلى الجونتا في ديسمبر 1980 ليقود حكومة انتقالية مؤقتة حتى انتخابات مايو 1982 .. عمت الفوضى البلاد ودارت حرب عصابات بين اليسار واليمين ..

نشطت المخابرات الأمريكية على الفور للحيلولة دون وصول اليسار إلى الحكم ، فقد كان من الملاحظ أن المجموعات اليسارية قد بدأت في تنظيم نفسها والاتحاد مع العصابات المنتشرة في البلاد ، فاشتعلت حرب أهلية بين الطرفين ..

أمدت الولايات المتحدة أتباعها ببعض الفرق العسكرية والأسلحة والخبراء الذين قاموا بتدريب ما يطلق عليه فرق الموت ..

كانت فرق الموت هذه تدور في البلاد وتقتل كل من يساند أو حتى يعترف باليساريين أو برجال العصابات الراغبين في قلب نظام الحكم ..

ومن خلال الحيل الانتخابية نجح مرشحو أمريكا وهم أتباع حزب جديد يدعى " أرينا " ساهمت أمريكا في إنشائه خصيصا في سبتمبر 1981 ليفوزوا في انتخابات عام 1982 ، وتشتد وطأة الحرب الأهلية بين اليسار واليمين ، ومن بينهم أمريكا تلعب دور إبليس بمنتهى البراعة ..

كان العنف عشوائيا إلى درجة أن المراسلين الصحفيين لم يفهموا ما إذا كانت كتائب الموت تابعة للحكومة أم للعصابات ، وما إذا كانت الجماعات اليسارية التي أنشأت منظمة فيما بينها هي جزء من الحكومة أم أنها هي التي تحارب السلطة .. وذهب البعض إلى أن سوء الفهم والتعتيم كان مقصودا من الولايات المتحدة ، خاصة عندما تصورت الأغلبية أن فرق الموت تابعة للمتمردين ، وذلك حتى يتسنى لأمريكا التدخل " الإنساني " لمساعدة شعب السلفادور وإنقاذه من العنف ومن الشيوعية .. وحتى تحبكها أمريكا وتبرر تدخلها في السلفادور ، وجهت اتهاما للاتحاد السوفيتي بالتدخل في شئون السلفادور بتقديم أسلحة سوفيتية لرجال حرب العصابات عن طريق كوبا ..

كما اتهم وزير خارجية الولايات المتحدة **ألكسندر هيج** دولة نيكاراجوا الشيوعية بالتدخل غير المشروع .. وتشاء الصدف أن يتم القبض على أحد ضباط نيكاراجوا المتورطين في نفس الأسبوع الذي أعلن فيه وزير الخارجية اتهاماته في شهر مارس 1982 .. ثم تعلن السفارة المكسيكية في سان سلفادور أن ذلك الرجل الذي تم القبض عليه ما هو إلا طالب من نيكاراجوا كان في طريق العودة من بلده إلى المدرسة التي يدرس بها في المكسيك ، لكنه لم يكن يملك ثمن تذكرة الطيران ، فآثر أن يعود إلى المكسيك برا ، مرورا بكل من السلفادور وجواتيمالا، وصولا إلى الحدود الجنوبية للمكسيك !

* * *

أما أبرز ضحايا الولايات المتحدة فكان رئيس أساقفة السلفادور **أوسكار روميرو** ..

ففي فبراير 1980 أرسل **أوسكار روميرو** أسقف السلفادور رسالة للرئيس **جيمي كارتر** يناشده فيها ألا يرسل مساعدات عسكرية للقوات العسكرية التي تحكم البلاد حتى لا تستخدم في زيادة القمع ضد المنظمات الشعبية التي تكافح من أجل خدمة المجتمع مخبرا إياه (وكأنه لا يعرف !) أن هذه الميليشيات المسلحة تروع أمن القرويين والسكان .. بعث **روميرو** بهذا النداء إلى **كارتر** كرسالة " من مسيحي إلى مسيحي " على حد قوله .. وفي 24 مارس 1980 تم اغتيال رئيس الأساقفة أثناء القداس داخل الكنيسة ..

كان **روميرو** هو أكثر آباء الكنيسة انحيازا للفقراء وقد أعلن معارضته لحكومة بلاده الديكتاتورية التي وصفها بالدموية والعداء للفقراء ، كما أنه كان من أبرز معارضي الهيمنة الأمريكية بالمنطقة وله كتاب شهير باسم " صوت من لا صوت لهم " – تم خرس صوته إلى الأبد – ولم يُطبع الكتاب إلا بعد رحيله بعشر سنوات .. الطريف أن الولايات المتحدة تعهدت بأن يأتي ملاحقة وعقاب قاتلي **روميرو** على رأس أولويات تدخلها الإنساني في السلفادور .. الأطرف أن جميع شهود العيان في حادث مقتل كبير الأساقفة بمن فيهم القاتل شخصيا (!!) قد تم قتلهم جميعا عن طريق المخابرات الأمريكية ..

* * *

ومن أشهر فرق الموت التي دربتها الولايات المتحدة كتيبة تسمى أتلاكاتل التي تشكلت في عام 1981 عندما أرسلت مدرسة القوات الخاصة الأمريكية 15 خبيرا لتدريبها ، واشتهرت هذه الكتيبة بالوحشية الشديدة ..

السطور القادمة لا يقرأها أحد قبل الأكل بساعة ولا بعد الأكل بساعة ! ..

روى القس السلفادوري **دانيال سانتياجو** لمجلة دينية بعض الحكايات موضحا عواقب التدريب الأمريكي لهؤلاء الوحوش ، فقال : " عادت قروية ذات يوم إلى منزلها لتجد أطفالها الثلاثة وأمها وأختها جالسين حول المائدة ورأس كل منهم أمامه ويداه ممسكتان برأسه المفصولة .. وعندما فشلت فرق الموت في الإبقاء على رأس طفل عمره عام ونصف في مكانه ، قامت بتثبيت اليدين والرأس بالمسامير .. ووسط المائدة تم وضع إناء كبير من البلاستيك ملئ بالدماء .. إن فرق الموت لم تكن تكتفي بقتل المواطنين ، بل تقوم بفصل

رءوسهم وتعلقها على الخوازيق ، وتنزع أحشاء الرجال وتقطع أعضاء ذكورتهم .. ولا يكتفي هؤلاء الوحوش باغتصاب النساء بل يقومون بتقطيع أرحامهن .. ولا يشبعهم قتل الأطفال فيسلخونهم على أسلاك شائكة حتى يتساقط اللحم من العظم ... وفي أثناء تلك المشاهد يجبرون الأزواج على مشاهدة زوجاتهم وأطفالهم وهم يقتلون بهذه البشاعة " .. إذا كان هؤلاء هم التلامذة ، فكيف يكون حال الأساتذة ؟؟ ..

* * *

وفي يناير 1982 أجرت صحيفة النيويورك تايمز حوارا مع أحد المجندين الهاربين من الخدمة في جيش السلفادور .. في ذلك الحوار وصف الجندي قاعة كان يتم فيها عرض أشد أساليب التعذيب قسوة ويستخدم فيه سجناء من المراهقين ، وأوضح أن ثمانية من المستشارين العسكريين الأمريكيين كانوا حاضرين أثناء الدرس ، وقد أخبر ضابط في الجيش السلفادوري المجندين أن مشاهدة مثل ذلك العرض " ستجعلكم تشعرون أنكم رجال بدرجة أكبر " وأنه من المهم " ألا تشعروا بالشفقة تجاه أي أحد " ..

وفي عام 1986 شهد عضو سابق في الحرس الوطني السلفادوري من خلال فيلم وثائقي قدمه التليفزيون البريطاني أنه كان ينتمي إلى خلية مكونة من اثني عشر شخصا ، وأن دورهم كان يتلخص في العثور على أفراد ينتمون للمعارضة من أجل القبض عليهم وتعذيبهم .. واعترف أنه قد تم تدريبه في مكان ما في بنما تابع للولايات المتحدة لمدة تسعة شهور على ممارسات حرب العصابات كما تم تدريبه على إتقان فنون التعذيب ..[23]

أما الكاتب الأمريكي **ناعوم تشومسكي** فوصف ما حدث قائلا : " لقد أيدت الولايات المتحدة نظاما مسئولا عن عمليات الخطف والاحتجاز غير القانوني ، وتعذيب وقتل عشرات الآلاف من المدنيين الأبرياء ، وتسببت في تشريد أكثر من مليون شخص " ..

وهكذا استمرت الحرب الأهلية حتى عام 1992 ، وأسفرت عن مصرع 75 ألف مواطن ، وانهيار كامل للاقتصاد وبقاء سُدس سكان البلاد بلا مأوى .. وانتهت الحرب كما بدأت بعودة السيطرة لليمينيين الموالين للولايات المتحدة بعد معاهدة سلام تم توقيعها في المكسيك ..

* * *

إن الولايات المتحدة لم تكتف بتدريب فرق الموت للقضاء على الشيوعية ، ولم تكتف بإمداد أتباعها هناك بالمال والسلاح والخبراء .. إنها قد شاركت فعليا في تلك الحرب القذرة .. وإليكم دليل آخر ..

في مطلع عام 1982 كان هناك مراسل صحفي أمريكي يُدعى **بونر** يغطي أحداث الحرب الأهلية في السلفادور .. كشف **بونر** عن مذبحة قامت بها كتيبة أتلاكاتل الدموية التابعة للحكومة السلفادورية الرسمية التي تساندها الولايات المتحدة .. راح ضحية المذبحة ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال في قرية الموزوتي في ديسمبر 1981 .. وفور الإعلان عن هذا السبق الصحفي ، خرج بيان رسمي من الكونجرس

[23] كانت هناك مدرسة لتعليم الاغتيال تابعة للولايات المتحدة ومقرها بنما حتى عام 1984 ، وسوف يأتي الحديث عنها في الفصل الـ 19 ..

ينفي مزاعم **بونر** ويؤكد أن التحريات الأمريكية توصلت إلى أن مذبحة الموزوتي من خيال الصحفي ولم تحدث أبدا .. ثم سارع المسئولون في السفارة الأمريكية بالسلفادور – كإجراء وقائي – إلى إجبار القوات السلفادورية التابعة لهم على توقيع إقرارات تفيد عدم وجود أمريكان معهم في الحرب .. تعرضت صحيفة النيويورك تايمز التي يعمل بها **بونر** إلى ضغوط شديدة أسفرت عن تنحيته عن عمله وعودته إلى الأعمال المكتبية في نيويورك .. ظل تقرير **بونر** عن المذبحة مجرد إدعاء كاذب كما أوهمت الإدارة الأمريكية الجميع حتى انكشفت الحقيقة فجأة في عام 1991 .. فقد زار فريق بحث من الأمم المتحدة قرية الموزوتي .. وقام بالحفر ليكتشف مئات الهياكل العظمية ومن ضمنها هياكل أطفال رضع تم ذبحهم بشكل جماعي ودفنهم في نفس المكان .. لم يعلق أحد لا في الصحافة ولا في الإدارة الأمريكية على ما تم اكتشافه .. ولم يبرر أحد في الكونجرس السبب الذي جعلهم يكذبون قبل عشر سنوات ..

عاد **بونر** من جديد لممارسة نشاطه كمراسل صحفي لجريدة نيويورك تايمز في شرق أوروبا فور نشر تقرير الأمم المتحدة ..

* * *

وفي تقرير آخر للأمم المتحدة عن حقيقة ما حدث في السلفادور (تم نشره في مارس 1993) اتضح أن المؤسس الرئيسي لحزب أرينا الذي ساهمت أمريكا في إنشائه **روبرتو دابويسون** هو في الوقت نفسه أحد قادة كتائب الموت – قادة الكتائب تلقوا تدريباتهم على أيدي الخبراء الأمريكيين – .. وأكد التقرير أن **دابويسون** هو الذي كلف القاتل المأجور الذي اغتال **روميرو** ..

ظهرت هذه الحقائق في عام 1993 ..

وقبل ذلك التاريخ بعشر سنوات – 1983 – قام السفير الأمريكي في السلفادور **دين هينتون** بتوجيه دعوة غداء لـ **دابويسون** في أثناء زيارة المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة السفيرة **جين كيركباتريك** .. وفي عام 1989 دعاه السفير الأمريكي **ويليام واكر** للسفارة الأمريكية بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال في الرابع من يوليو .. كان الرجل يلقى ترحيبا رسميا على أعلى مستوى ، في الوقت الذي كانت تعلن فيه الولايات المتحدة أنها سوف تلاحق المتسبب في قتل **روميرو** وتتوعده بالعقاب ..

* * *

ليس هذا كل شئ ..

فإذا كان هناك مصطلح يُعرف بـ " غسيل الأموال money laundry " ، فإن أمريكا قد أبدعت مصطلحا جديدا مثيرا للاشمئزاز وهو " غسيل الجثث body washing " ..

إن عملية غسيل الأموال هي إدخال أموال جاءت من نشاطات غير مشروعة في نشاط مشروع كالبورصة مثلا ، فيتوه مصدر المال مع الوقت ، وبعد عدة مكاسب وخسائر متفاوتة القيم ، تخرج الأموال نظيفة من جديد .. أما عملية غسيل الجثث فنوضحها من خلال هذه الواقعة .. ففي 16 ديسمبر 1984 نُشر مقال

بجريدة نايت رايدر الأمريكية .. كان المقال يلقي الضوء على مصطلح غريب وهو " body washing " وهو ما يتعلق بنشر تفاصيل مزيفة عن الملابسات التي أدت إلى مصرع جنود أمريكيين مشتركين في عمليات سرية ..

ركز مقال نايت رايدر على حادثة بعينها ، وهي حادثة تحطم طائرة هليكوبتر أمريكية . ذهب محرر المقال إلى أفراد أسرة ضحايا الحادث الذين أخبروا الرأي العام عن ارتيابهم في أن أقاربهم قد ماتوا في قتال سري بأمريكا الوسطى وأن قصصا ملفقة قد تم روايتها عن القضاء والقدر الذي أودى بحياة الطيارين ..

ثم ظهرت الحقيقة ..

فقد اعترف متخصص سابق في العمليات السرية بما يحدث في المعتاد ، وقدم تفسيرا دقيقا لمعنى مصطلح " غسيل الجثث ".. قال الضابط السابق لجريدة نايت رايدر :" إذا ما قُتل أحدهم في مهمة ، وإذا ما كانت المهمة سياسية حساسة .. فإننا أمام أمر من اثنين : إما أن نشحن الجثة سرا إلى الولايات المتحدة ثم نجعل سيارة جيب تدهسها وتضيع معالمها في قاعدة فورت هواتشوكا[24] ، وإما أن نلفق حادثة تحطم هليكوبتر أو ننتظر حدوث واحدة ثم نقوم بإدخال جثة إضافية إلى حطام الطائرة فيما بعد .. إنها مسألة لا صعوبة فيها ".

* * *

أجل .. إنها مسألة في منتهى السهولة ..

فمن فرط الطهارة الأمريكية تحرص الولايات المتحدة على غسل جثثها ..

تماما مثل جزار يعلن نفوره من رائحة الدماء ..

فإما أنه جزار فاشل ، وإما أنه جزار كاذب ..

ولكنه على أية حال .. جزار !

---

[24] قاعدة عسكرية نائية بولاية أريزونا ..

(17)
هنـــدوراس : جـــزاء الإحســـان

حظها كده ..

لم تقترف هندوراس أي ذنب من إياهم ..

لم تطالب بعدم نهب ثرواتها ..

ولم يظهر بها ثوار ذوو قيمة ينقلبون على الحكام التابعين لأمريكا ..

ولم تأت سيرة الشيوعية ..

إنها لم تعترض على اجتياح أراضيها من قبل القوات البحرية الأمريكية سبع مرات خلال الربع الأول من القرن العشرين .. مرة لحماية القنصلية الأمريكية ورصيف البواخر المستخدم لتجارتها الخاصة (1903) .. ومرة لحماية مصالحها الاقتصادية أثناء حرب بين هندوراس ونيكاراجوا (1907) .. ومرة لحماية الرعايا الأمريكان خلال حرب أهلية (1911) .. ومرة لحماية خطوط السكك الحديدية المملوكة لها والتي أنشأتها لنقل بضائعها (1912) .. وثلاث مرات أثناء نزاعات انتخابية لضمان انتخاب مرشحيها (1919،1924،1925) ..

لم تعترض هندوراس على كل ذلك ..

كما لم يفتح أحد فمه عندما سيطرت ثلاث شركات أمريكية على فاكهة هندوراس الرئيسية وهي الموز في أوائل القرن العشرين .. ولا عندما اشترت معظم أراضي شمالي هندوراس المطلة على سواحل البحر الكاريبي لتسهيل نقل الموز إلى جنوبي الولايات المتحدة .. لقد امتلكت الشركات الثلاث (ستاندارد فروت ، كاياميل فروت ، يونايتد فروت) 75 % من مزارع الموز في البلد .. وكان الموز يمثل 66 % من إجمالي صادرات هندوراس وهو ما جعل الشركات الأمريكية ذات نفوذ هائل طوال النصف الأول من القرن العشرين ..

بل على العكس ..

كانت الجمهورية الهندوراسية في منتهى الوداعة .. ومع الأسف الشديد لم يشفع لها كل ما سبق ..

* * *

جرب أن تفتح الخريطة وتتأملها ..

ستجد جمهورية هندوراس واقعة بين السلفادور ونيكارجوا وجواتيمالا .. أي أن لها حدود مشتركة مع الدول الثلاث .. والدول الثلاث كما ورد في السابق كان بينها وبين الولايات المتحدة الكثير من الشد والجذب .. لذا لجأت أمريكا إلى تصرف فريد من نوعه .. لقد حولت أمريكا هندوراس في ثمانينات القرن العشرين إلى حاملة طائرات .. دولة مستقلة ذات سيادة تم تحويلها بالكامل إلى حاملة طائرات عملاقة ..

ليس هذا فقط ، بل انتشرت القواعد العسكرية ومعسكرات التدريب لقوات الكونترا التي تحارب الساندنيستا على الحدود مع نيكاراجوا ، وقواعد أخرى على الحدود مع السلفادور لشن عمليات مسلحة ضد السلفادور . فمثلا .. بين عامي 1980 و1982 ارتكبت القوات الأمريكية المرابطة في هندوراس ضد نيكاراجوا 429 فعلا عدوانيا .. وقامت بخرق مجالها الجوي 127 مرة .. كما شنت قوات الكونترا التابعة لها 60 غارة على نيكاراجوا .. ودبرت 81 اعتداء على مراكز الحدود .. وسُرقت قطعان الماشية وسيقت إلى هندوراس تسع مرات خلال نفس الفترة الزمنية ! ..

وفي عام 1984 كانت حاملات الطائرات الأمريكية تزرع الألغام في سواحل هندوراس وتقصف موانئها كي تحمي قوات الكونترا من محاولات حكومة نيكاراجوا الرسمية لمطاردتهم – عن طريق البحر – على أراضي هندوراس المجاورة ! ..[25]

ولم تكتف الولايات المتحدة بتدمير البنية الأساسية للدولة ، بل تسببت في كثير من الأذى للشعب الهندوراسي ..

ففي عام 1981 أعطت الولايات المتحدة لحكومة هندوراس 187 مليون دولار تحت ستار مساعدات اقتصادية تم توظيفها كلها تقريبا في المجال العسكري .. وفي عام 1983 عادت لتمنحها 78 مليون دولار لذات الغرض .. واستمرت الدولارات الأمريكية تنهمر على هندوراس وهي واحدة من أكثر الدول فقرا في أمريكا الوسطى حتى عام 1990 عندما انتخبت **فيوليتا دي شامورا** في منصب رئيس جمهورية نيكاراجوا لتنتهي مشكلة نيكاراجوا مع أمريكا ..

وفور نجاح أمريكا في إنهاء الصراع في نيكاراجوا والسلفادور لصالحها ، انقطعت المساعدات الاقتصادية لهندوراس مباشرة ، وانهارت الصادرات وتعاظمت الديون الخارجية وأصبح الشعب في مأزق حقيقي بعد أن تخلت عنه الولايات المتحدة .. بل إن التجارة الخارجية مع أوروبا أصبحت ضعف مثيلتها مع أمريكا .. وتفاقمت المشكلة أكثر وأكثر مع اجتياح الإعصار الرهيب ميتش لهذه الدولة الفقيرة في عام 1998 .. لم يكن لدى هندوراس أية وسيلة لعلاج مشاكلها ، فملايين الدولارات التي منحتها أمريكا إياها ، لم يُصرف منها سنتا واحدا على الصحة أو التعليم أو المرافق العامة .. كل شئ كان في يد الجيش ..

اضطرت الظروف الكثير من أبناء هندوراس إلى التسلل عبر البحر الكاريبي إلى الولايات المتحدة حليفتهم متصورين أنها سترد الجميل ..

وفي عام 1998 – نفس العام الذي دمر فيه إعصار ميتش هندوراس – أصدر الكونجرس الأمريكي توصياته بطرد جميع اللاجئين غير الشرعيين التابعين لدولة هندوراس .. المثير للحنق أنه في الوقت الذي

---

[25] السفير الأمريكي في هندوراس (1981-1985) والمسئول الأول عن تنظيم الهجمات الإرهابية المنطلقة من القواعد العسكرية شرقا إلى نيكاراجوا وغربا إلى السلفادور والمشرف على تلغيم موانئ هندوراس ونيكاراجوا هو نفسه **جون نيجروبونتي** سفير الولايات المتحدة السابق في الأمم المتحدة والذي شاهدناه يوميا يتحدث باسم بلاده إبان الحرب الأخيرة على العراق عن ضرورة مقاومة الإرهاب الدولي ..

أصدر فيه الكونجرس في عام 1997 عفوا عاما وشروطا متساهلة بالنسبة للاجئي السلفادور غير الشرعيين لينالوا الإقامة الدائمة ، ونفس الشيء للاجئي نيكاراجوا الذين قرر الكونجرس بشأنهم أن يحصلوا على الإقامة الدائمة بشكل تلقائي وبدون إجراءات إذا ما كانوا قد أتوا إلى الولايات المتحدة قبل عام 1995 .. في نفس ذلك التوقيت الذي تصدر فيه تشريعات استثنائية للاجئي نيكاراجوا والسلفادور الذين فروا من ظروف الحرب التي أشعلتها أمريكا ، تتجاهل فيه أمريكا هندوراس التي أقحمتها في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ودمرت اقتصادها وابتلتها بعشرات الألوف من مشردي السلفادور عبر الحدود .. بل على النقيض قامت بترحيل ستة آلاف هندوراسي في عامي 1997 و1998 ..

قام بعض لاجئي هندوراس بإضراب عن الطعام أمام البيت الأبيض ، وأعلنوا أنهم لن يذوقوا الطعام حتى تتوقف الحكومة الأمريكية عن طرد الهندوراسيين من البلاد .. ووقف واحد من المتظاهرين المؤيدين للمضربين عن الطعام يقول : " إننا لا نطالب بمعاملة خاصة ، إننا فقط نتوسل إليكم أن تساووا بيننا وبين الآخرين .. إن الحروب قد دمرت بلادنا " .. وقال آخر : " إننا كنا حلفاء أمريكا .. لقد تركنا لهم أراضينا يحاربون الشيوعية من خلالها .. إننا ضحايا الحرب الباردة " ..

أما الإدارة الأمريكية فقد ردت قائلة : " إن هندوراس لا تعاني من حرب أهلية أو من أعمال عنف منتشرة ، لذا على اللاجئين العودة إلى ديارهم " .. إن الولايات المتحدة تؤمن تماما بواحدة من العبارات الشريرة للفيلسوف الألماني **نيتشه** ، إذ يقول : " إن الضعفاء يجب أن يفنوا .. هذا أول مبدأ من مبادئ حرصنا على الإنسانية .. ويجب أن يساعدوا هم بأنفسهم على هذا الفناء " ..

ولأن شعب هندوراس لم يُظهر على امتداد قرن كامل ما يوحي بأي مظهر من مظاهر القوة ، فكان عليه أن يمتثل لمبادئ الإنسانية ، ويدفع ضريبة الضعف .. وهو سعيد بالفناء !

(18)
جرينـــادا : الفيـــل والنمـــلة !

صدق أو لا تصدق ..

ولكن هذا ما حدث بالفعل ، لذا فليس أمامك سوى أن تصدق ..

* * *

في 13 مارس 1979 قامت ثورة في جزيرة جرينادا (أمريكا الوسطى) ، فجاء إلى الحكم من وصفتهم أمريكا بالشيوعيين ، أو على أقل تقدير موالين للكوبيين .. توترت العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين جزيرة جرينادا التي هي واحدة من أصغر دول العالم مساحة وتعدادا (يبلغ عدد سكانها حوالي مائة ألف نسمة) .. وبدا واضحا أن أمريكا تتحين الفرصة لممارسة هوايتها المفضلة ..

وفي الذكرى الرابعة – والأخيرة ! – لثورة جرينادا (مارس 1983) ، ألقى رئيس الحكومة وأحد قواد الثورة **موريس بيشوب** خطابه السنوي ، وندد فيه بالمذابح البشعة التي ترتكبها الولايات المتحدة بالسلفادور وبالتهديدات المستمرة لكل دول المنطقة .. ثم اختتم خطبته بقوله : " أجل .. إنهم يستطيعون إسقاط القنابل فوقنا ومسح جزيرتنا من على وجه الأرض .. لكننا سنقاتل حتى آخر رجل وامرأة وطفل في بلدنا .. سوف نقاتل بكل عزم حتى ينتهي العدوان "..

وفي 31 مايو 1983 سافر **بيشوب** إلى الولايات المتحدة في محاولة لتجنب هلاك شعبه وتلطيف الأجواء بعد خطبته الجافة ، فصرح لوسائل الإعلام هناك برغبة بلاده في الحوار مع أمريكا واستعداده الشخصي لإزالة سوء التفاهم وتوضيح موقف بلاده من كافة القضايا المشتركة ..

تجاهلت الإدارة الأمريكية وجوده في البداية ، ثم سمحت له بعد أسبوع بمقابلة مستشار الأمن القومي **ويليام كلارك** .. استغرق الاجتماع نصف ساعة فقط لم تسفر عن أي تحسن في نظرة أمريكا لضحيتها المنتظرة ..

وبعد أقل من خمسة أشهر – تحديدا في 19 أكتوبر – ، قُتل **بيشوب** في منزله بعد أن تم عزله من منصبه بمعرفة بعض المتمردين عليه ..

وفي 25 أكتوبر 1983 اجتاحت القوات البحرية الأمريكية جزيرة جرينادا وكان هناك أكثر من غرض معلن لتبرير الحملة العسكرية ..

أعلنت الإدارة الأمريكية أنها قامت بغزو جرينادا بناء على طلب عاجل تقدمت به منظمة دول شرق الكاريبي وعددها ست دول بالإضافة إلى جامايكا وبربادوس .. وكانت هذه الدول تخشى من عمل عدواني يقوم به النظام اليساري المتطرف خاصة بعد أن تم الخلاص من **بيشوب** ..

ثم اتضح أن هذا لم يحدث .. ثم كان هناك تبرير آخر وهو حماية مئات الطلبة الأمريكان الذين يدرسون بكلية طب سان جورج بالجزيرة ، وأنهم يتعرضون لمخاطر جسيمة تستدعي الإسراع في نقلهم إلى

الولايات المتحدة .. ثم ظهر كذب هذا الادعاء ، وتبين أن الطلبة الأمريكان أنفسهم لم يكونوا راغبين في مغادرة الجزيرة ، وأنهم كانوا منهمكين تماما في دراستهم ولم يسبب لهم أحد أي نوع من الإزعاج ..

والأهم من ذلك ، فقد عرض المسئولون في جرينادا على الحكومة الأمريكية أن يقوموا بإخلاء الرعايا الأمريكان – إذا ما شاءوا – قبل الغزو بيومين فقط ، ولم تعلق الإدارة الأمريكية على عرض جرينادا ..

أما أغرب التبريرات ، فهو ما يلي : أفصح رئيس أركان القوات المسلحة الأمريكية بعد أيام من احتلال جرينادا وقتل **بيشوب** وتغيير نظام الحكم بها أنه في " حالة إذا ما " تعرضت أوروبا الغربية لهجوم سوفيتي ، فقد تُمثل جزيرة جرينادا تحت حكم شيوعي معاد للولايات المتحدة عائقا خطيرا في إمدادات البترول من البحر الكاريبي للحلفاء في أوروبا .. فجرينادا محطة على طريق البترول الأمريكي .. ووقتها سيكون الحلفاء محصورين ولن تستطيع أمريكا عندئذ فك زنقتهم والدفاع عنهم ..

أما الرئيس **ريجان** فقد علق بعد إدانة الغزو في الأمم المتحدة بقوله : " إن مائة بلد في الأمم المتحدة لم تتفق معنا في كل شئ طُرح عليها وكنا منخرطين فيه ، ولم يكدر ذلك صفو إفطاري على الإطلاق " ..

عن نفسي لن أضع أي علامة " تعجب " من تلك العلامات المنتشرة في الكتاب ..

وللأسف لم أجد على لوحة مفاتيح الكومبيوتر أمامي علامة " للذهول " ..

(19)
مدرسة الاغتيالات : فن تدريس الجريمة !

هي المدرسة الوحيدة من نوعها على مستوى الكرة الأرضية ..

ليست تابعة لوزارة تعليم ..

ولا يوجد منها فروع في أنحاء العالم ..

إننا نتحدث هنا عن مدرسة لتعليم القتل ..

* * *

أنشئت المدرسة – the School Of the Americas SOA – في عام 1946 ، وكان مقرها الأول في جمهورية بنما ..

وفي عام 1984 قررت وزارة الدفاع الأمريكية نقل المدرسة إلى فورت بينينج بولاية جورجيا ..

ورغم أن الولايات المتحدة تقوم عادة بإمداد بعض الدول الحليفة لها بالتدريبات العسكرية اللازمة ، إلا أن الأمريكيين الجنوبيين وحدهم لهم مدرسة خاصة يتلقون فيها " العلم " باللغة الأم وهي الإسبانية .. ورغم أن الهدف المعلن الذي أنشئت المدرسة من أجله هو تعليم شعوب أمريكا الجنوبية حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية ، إلا أن المدرسة اكتسبت مع الوقت سمعة بأنها مدرسة لتخريج القتلة وتنفيذ الاغتيالات المدبرة ، حيث كان يلتحق بها ضباط جيش وشرطة منتقون بعناية من بلدان أمريكا الجنوبية .. وكانت الكتب التعليمية المستخدمة في المدرسة تدعو إلى ممارسة مختلف أنواع التعذيب والتصفية الجسدية والابتزاز وغير ذلك ..

وقد شاءت الظروف أن يظهر بعض مما ورد في الكتب الأمريكية لتعليم تلاميذ أمريكا الجنوبية ..

كانت هناك دراسة عن الاغتيال أُعدّت قبل عام 1954 واستخدمت في فترة تنفيذ الانقلاب العسكري بجواتيمالا .. وقد ظهرت هذه الدراسة من خلال الوثائق السرية المتعلقة بأحداث ذلك الانقلاب ، وتم نشرها ضمن 1400 صفحة تخص المخابرات الأمريكية في 23 مارس 1997 .. وهذه بعض الفقرات من " دراسة عن الاغتيال " : " بالنسبة إلى الاغتيالات السرية ، يعد الحادث المدبر هو التكنيك الأكثر فعالية .. فعندما ينفذ بنجاح ، فإنه لا يسبب سوى قليل من الإثارة ، ولا يتم التحقيق فيه إلا بصورة عارضة .. والحادث الأكثر كفاءة في هذا الصدد هو السقوط من ارتفاع 75 قدما أو أكثر على سطح صلب .. وستفيد في ذلك مهاوي المصاعد ، وآبار السلالم ، والنوافذ التي بلا حواجز ، وكذلك الكباري .. ويمكن تنفيذ العمل بالقبض فجأة وبقوة على الكاحلين وقلب الشخص المستهدف ، أو دفعه بعنف للحافة كي يسقط من أعلى .. " أما عن أداة القتل ، فإن أية أداة ماضية يتم الحصول عليها يمكن أن يتم استخدامها بنجاح .. وللوثوق من النجاح ، فإن الأمر يتطلب حدا أدنى معينا من المعرفة بالتشريح .. فالجروح الناجمة عن إحداث ثقب في

تجويف الجسم قد لا يمكن الاعتماد عليها ، إلا إذا وصلت الطعنة إلى القلب ، ومن سلبيات طعنة القلب أن القلب يحميه قفص من الضلوع ولا يسهل دوما تحديد مكانه بدقة شديدة .. ولهذا فيمكن الوصول لليقين المطلق بفاعلية الطعن بقطع الحبل الشوكي الموجود في منطقة العنق .. ويمكن إتمام ذلك بطرف السكين المدبب أو بضربة خفيفة من بلطة أو فأس صغيرة .. وهناك طريقة أخرى يعول عليها وهي قطع كل من الأوعية الوداجية والسباتية على جانبي القصبة الهوائية .. " ..

* * *

وفي أواخر الستينات أرسلت الولايات المتحدة أحد خبرائها المخضرمين وهو **دان متيريون** لتدريب قوات الشرطة في مونتفيدو عاصمة أوروجواي .. وفور وصوله إلى أوروجواي قام **متيريون** بتجهيز حجرة عازلة للصوت في قبو منزله .. وكان يجمع فيها ضباط شرطة أوروجواي لمشاهدة عرض لتقنيات التعذيب الحديثة .. وكان يصطاد شحاذين من الشارع ليكونوا موضع التجارب التي يبين من خلالها **متيريون** مختلف مقادير الجهد الكهربائي على الأجزاء المختلفة من جسم الإنسان .. وفي المعتاد ، فإن أحدا من هؤلاء الشحاذين لم يكن يخرج حيا، وقد اعترف رئيس مخابرات الشرطة الأسبق في أوروجواي **اليخاندرو أوتيرو** أن المستشارين الأمريكيين وعلى رأسهم **متيريون** كانوا يضيفون تحسينات إلى وسائل التعذيب .. فكانوا يعمدون إلى تصعيد آلام التعذيب عن طريق إضافة ما يسمى بـ " سيكولوجية خلق اليأس ".. وكان يتم ذلك مثلا بتشغيل شريط في الغرفة المجاورة تصرخ فيه امرأة وأطفال ، ويخبرون السجين المعذب أن تلك أسرته التي يتم تعذيبها ، حتى ينتزعوا منه الاعترافات بشكل أسرع .. وكان شعار المدرس الأمريكي المعار إلى أوروجواي **دان متيريون** هو : " الألم الصحيح في المكان الصحيح بالقدر الصحيح لإحداث التأثير المرغوب " ..

* * *

ومنذ عام 1946 وحتى الآن تخرج من هذه المدرسة الدموية أكثر من ستين ألف قاتل .. وجاءت كولومبيا في المركز الأول من حيث عدد الخريجين ، فقد تخرج حوالي عشرة آلاف كولومبي ، تليها كل من السلفادور ونيكاراجوا وبوليفيا وبنما وبيرو وفنزويلا ، إذ يتراوح عدد الخريجين بين ثلاثة آلاف وستة آلاف خريج لكل منها .. ويرجع التفوق الكولومبي إلى اشتعال حرب أهلية على أرضها منذ حوالي أربعين عاما وحتى الآن وهو ما احتاج إلى ملاحقة علمية مستمرة .. حتى أن بعض سفاحي كولومبيا المتخرجين منذ سنوات يتحدثون بفخر عن كونهم قد تعدوا مرحلة الدراسة في المدرسة إلى التدريس بها ! ..

وفي مطلع التسعينات ومع بدء ظهور الوثائق والبيانات التي تؤكد على حقيقة دور المدرسة ، بدأ يتكشف للرأي العام الأمريكي أن معظم أعمال الاغتيالات والقمع التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين في أمريكا الجنوبية والوسطى كانت بمشاركة أو تحت قيادة خريجي المدرسة الأمريكية ..

مذابح السلفادور مثلا .. حادث اغتيال الأسقف **روميرو** ومذبحة قرية الموزوتي البشعة[26] .. والدكتاتور البنمي السابق **مانويل نورييجا** هو أحد خريجي المدرسة ، وسفاح شيلي الجنرال **بينوشيه** كذلك .. وحوالي 70 % من حوادث القتل والاختطاف في كولومبيا خلال العقود الماضية تمت بقيادة جنرالات المدرسة الأمريكية .. والانقلابات العسكرية التي أطاحت بالحكومات المنتخبة من الشعب في كل من الأرجنتين وإكوادور وبيرو كان وراءها خريجو نفس المدرسة .. والمذابح في جواتيمالا عبر ثلاثين عاما والتي راح ضحيتها حوالي 200 ألف مواطن ، كان المسئول عنها أيضا أولئك القتلة ..

وفي عام 1990 قاد القس الأمريكي **روي بورجويز** حملة لإغلاق المدرسة ، وقام بفتح مكتب باسم SOA Watch أمام بوابة المدرسة مباشرة .. وقد قادت مجهوداته للبدء في الكشف عن فظائع خريجي المدرسة .. وفي عام 1996 وبعد تصاعد استياء الرأي العام ، أُجبر البنتاجون على الكشف عن الكتب الدراسية التي تدرس في تلك المدرسة ، كما اضطرت المخابرات الأمريكية إلى إظهار عدد آخر من الوثائق السرية للمدرسة بعد أن كانت قد تسربت بعضها بالفعل ، وكانت الفضيحة بجلاجل بسبب المحاولات المتعجلة من رجال المخابرات لإدخال تعديلات بالقلم على النسخ الأصلية من التعاليم المطبوعة لضباط أمريكا الجنوبية ، وظهر للمطلعين على الأوراق العبارات التي حاولوا شطبها ولم ينجحوا في إعدام القدرة على قراءتها .. رغم ذلك نجحت المخابرات في إخفاء الكثير من الفظائع والتعتيم عليها ، لكن ما ظهر كان كافيا لتزايد انتقاد وجود مثل هذه المدرسة الدموية على الأراضي الأمريكية ..وفي عام 1999 نجح معارضو المدرسة في تمرير قرار في مجلس الشيوخ تم بمقتضاه تعديل الموازنة العامة بوقف تمويل هذا النشاط المشبوه ..

وفي نهاية الأمر لجأ البنتاجون إلى فكرة ماكرة .. ففي 17 يناير 2001 قامت وزارة الدفاع الأمريكية بتغيير شكلي لاسم المدرسة من School Of Americas SOA إلى Western Hemisphere Institute for Security Cooperation WHISC أو معهد التعاون الأمني لنصف الكرة الغربي ! ..

وأخذت أبواق الدعاية تؤكد على حدوث تغييرات جذرية في مناهج التعليم والتركيز على الديمقراطية وحفظ السلام والإعلاء من قيمة الحقوق المدنية .. ولم يكن ذلك سوى جراحة تجميل مفضوحة .. فمازالت المناهج كما هي ، تعلم السفاحين أصول انتزاع الاعترافات وإرسال البريد المفخخ والتخلص من الصحفيين والباحثين عن الحقائق وزعماء النقابات والاتحادات المشاغبة ، كما تعلمهم كيفية القضاء على الديمقراطية وتعيين الجواسيس وترويع الآمنين وتهميش مشاكل الفقر والجوع ..

* * *

ورغم أن روجرز وزير خارجية أمريكا في إدارة الرئيس نيكسون لم يُعرف عنه التدريس في مدرسة السفاحين ، إلا أن له عبارة بليغة تستحق أن تزين البوابة الخارجية للمدرسة .. يقول روجرز : " ما تحتاج إليه بلادنا أياد قذرة وعقول أنظف ! " ..

[26] عشرة من الاثني عشر جنديا الذين اتهموا بارتكاب المذبحة بالسلفادور كانوا من خريجي المدرسة ..

(20)
البرازيل : غـــزو مـــن نـــوع آخـــر

ليست كبيرة على التدخل ..

أينعم البرازيل أكبر مساحة وأكثر تعدادا من كل دول أمريكا الجنوبية السابق الكتابة عنها مجتمعة ..

لكن وإيه يعني ..

كان من الصعب غزوها ..

وكان غير كاف تدعيم انقلاب عسكري ما ..

وكان من الغباء محاولة فرض عقوبات عليها أو عزلها عن المجتمع الدولي ..

لقد كانت أكبر من ذلك ..

لكن كان من الممكن تدميرها اقتصاديا وشل حركتها وربطها بجنزير من صلب في مفرمة آليات السوق ومفردات الإصلاح الاقتصادي الحديث الخبيث ..

* * *

في عام 1960 تم إنشاء عاصمة جديدة هي برازيليا ، في خطوة تشير إلى محاولة التخلص من علامات الماضي ونهج سياسات مختلفة تعيد أملاك البرازيل إلى البرازيليين .. حدث ذلك في عهد الرئيس البرازيلي **كوبيتشيك** الذي تولى السلطة في مطلع عام 1956 بدعم من عدة فئات شعبية وعلى رأسهم اليساريين .. وقد أعلن في أعقاب ذلك عن خطة خمسية مفعمة بالطموح تهدف إلى تطوير الاقتصاد الهزيل ، لكنه اصطدم في أواخر الخمسينات بانهيار مفاجئ في أسعار البن عالميا – وهو أهم دعائم الاقتصاد – ، فانعكس ذلك على معدل التضخم وزادت الاضطرابات والمشاحنات في أوساط العمال والطلبة ..

وفي يناير 1961 اعتلى الحكم من بعده الرئيس **دا سيلفا كوادروس** ، الذي بدأ مباشرة في تنفيذ برنامج اقتصادي صارم ، حيث أمر كافة وزراء الحكومة بتخفيض مصروفات وزاراتهم بنسبة 30 % مع الاستغناء عن بعض موظفي الأعمال المدنية الزائدين عن الحاجة ، كما قام بمحاولات جادة للقضاء على الفساد المتفشي في الحكومات جيلا بعد جيل .. وبعد أسابيع قليلة من بدء ولايته ، قام مستشار الرئيس **كينيدي** لشئون أمريكا الجنوبية **أدولف بيرلي** بزيارته .. كان الغرض من الزيارة هو ضمان الحصول على دعم سياسي من البرازيل قبل القيام بغزو خليج الخنازير .. وكان رد فعل **كوادروس** هو الانزعاج الشديد والرفض بصرامة لمثل هذا المطلب حتى بعد أن لوّح المبعوث الشخصي للرئيس الأمريكي بإمكانية مساعدة البرازيل بمبلغ 300 مليون دولار في مقابل تعاونها الرسمي .. وانتهت زيارة المبعوث الأمريكي بالفشل الذريع .. أثارت هذه الزيارة غضب الولايات المتحدة بشدة .. ولم يكتف **كوادروس** بما اقترفه من إهانة بالغة للأمريكان ، بل إنه قد أعلن بعد ذلك في مناسبة أخرى ما أوصل الإدارة الأمريكية إلى حالة من

الاستفزاز البالغ .. فقد تساءل الرئيس البرازيلي في براءة قائلا : " لماذا يكون في إمكان الولايات المتحدة أن تقيم علاقات تجارية مع الاتحاد السوفيتي وأتباعه ، بينما تصر على اقتصار العلاقات التجارية للبرازيل مع الولايات المتحدة وحلفائها فحسب ؟ " ..

وفجأة .. قرر الرئيس **كوادروس** التنحي عن الحكم في أغسطس من نفس العام دون أدنى توضيح مكتفيا بعبارة غامضة عن بعض القوى الداخلية والخارجية التي عرقلت جهوده في الإصلاح .. وبعد عدة أشهر عاد **كوادروس** مرة أخرى للظهور بشكل غير رسمي ، وأعلن في خطبة له أن السفير الأمريكي **جون كابوت** ومبعوث الرئيس **كينيدي أدولف بيرلي** ووزير الخزانة الأمريكية **دوجلاس ديلون** كانوا من بين الذين ساهموا في ابتعاده عن السلطة .. وكان بديهيا أن يكمل المسيرة نائب الرئيس **خواو ماركيز جولارت** ، لكنه اصطدم بالقيادات العسكرية – وهي ما أشار إليها **كوادروس** بشكل مبهم – التي عارضت توليه السلطة بحجة تعاطفه مع النظام الشيوعي في كوبا بقيادة **كاسترو** ..

توصل الطرفان إلى حل وسط ، وكان مدهشا في غرابته .. فقد قامت القوات العسكرية بإجبار المجلس التشريعي على تعديل الدستور بتجريد منصب رئيس الجمهورية من سلطاته كرئيس للجمهورية (!!) ونقل السلطة الفعلية في يد رئيس الوزراء .. ولم يجد **جولارت** مفرا من الرضوخ إلى تلك التعديلات ، فتولى منصبه كرئيس في سبتمبر 1961 .. وبعد ذلك بعام لجأ **جولارت** إلى الحيلة ، فاستغل بعض الأزمات الوزارية ونجح في إسقاط الحكومة متقدما للشعب بطلب استفتاء شعبي عام على عودة السلطة في يد رئيس الجمهورية من عدمه ..

وفي يناير 1963 صوّت الشعب لصالح الرئيس ، وأقر المجلس التشريعي العودة إلى الدستور الأصلي .. لم يكتف **جولارت** بذلك ، بل سارع إلى الضغط بمنتهى الشدة للحصول على تصديق من المجلس على برنامج إصلاح شامل .. وفي غضون ذلك كان **جولارت** قد نجح في تأميم معامل تكرير البترول ، وتأميم شركة الاتصالات الأمريكية والحد من كم الأرباح الخرافية للشركات العالمية التي يمكن نقلها خارج البلاد ، ومصادرة الأراضي غير المستغلة ، كما اتبع سياسة خارجية مستقلة تعارض العقوبات المفروضة على كوبا ، وقام بشراء صفقة طائرات هليكوبتر من إحدى دول الكتلة الشرقية وتحديدا من بولندا ..

حتى هذه اللحظة كانت الولايات المتحدة قد اكتفت بالدعم السري للقيادات العسكرية ، لكن اضطرها دهاء **جولارت** وقوة شخصيته وحبه لوطنه – وهي صفات يعاقب عليها دستور المخابرات الأمريكية – إلى التدخل القوي بدعم انقلاب عسكري ..

جاء هذا التدخل رغم أن **جولارت** – وكذلك **كوادروس** – لم يكن شيوعيا .. بل كان مليونيرا ومالكا للأراضي ومؤيدا بشدة للولايات المتحدة في أزمة الصواريخ السوفيتية على الأراضي الكوبية في أكتوبر 1962 .. غير أن القلق الأمريكي لم يكن بسبب الشيوعية ، بقدر ما كان بسبب رغبة البرازيل في رسم سياسة مستقلة ..

وفي مارس 1964 قام انقلاب عسكري تسانده أمريكا بإسقاط **جولارت** الذي لم يشأ أن يقاوم أو يستعدي فئة على فئة بسبب خوفه من اندلاع حرب أهلية في تلك الدولة الكبيرة المليئة بالتيارات والمتناقضات ، ونجح في الفرار إلى أوروجواي قبل قتله ..

لكن لم ينج الشعب البرازيلي من قادة الانقلاب ، فتوالت عمليات القتل لبعض المعارضين ، واختفى البعض الآخر ، وتم اعتقال وتعذيب المتظاهرين المدنيين وآلاف المشتبه في كونهم شيوعيين وكان من ضمنهم عدد من الأطفال ..

تولى الجنرال **كاستيللو برانكو** الحكم إثر الانقلاب .. ومنذ ذلك التاريخ وحتى منتصف الثمانينات والحكومات البرازيلية المتعاقبة جميعها حكومات عسكرية .. أما الذين تمتعوا بالحماية والرعاية الحكومية فكان معظمهم من تجار المخدرات الذين يحافظون على مصالح الأمن القومي للبلاد كما كانت ترى أمريكا .. أكثر من ذلك ، فقد انضمت البرازيل بشكل فوري وبناء على تعليمات أمريكية إلى ما يعرف باسم الاتحاد العالمي لمقاومة الشيوعية World Anti–communist League ، ثم ساعدت الدكتاتور الجنرال **فيديلا** على الاستيلاء على الحكم في الأرجنتين .. وساهمت بإرسال قوة عسكرية مكونة من 1100 جندي لمعاونة الولايات المتحدة في غزو الدومينيكان عام 1965 .. كما قدمت مساعدات عسكرية وفنية من أجل إسقاط حكومتي بوليفيا وشيلي في عامي 1971 و1973 على التوالي ..

وفي عام 1965 تم إلغاء جميع الأحزاب السياسية مع الإبقاء على حزبين فقط ارتأت الولايات المتحدة أنهما يحققان أهدافها ..

وفي عام 1967 تم انتخاب الجنرال **أرثر دا كوستا سيلفا** ، تلاه الجنرال **إميليو ميديسي** في عام 1969 ، ثم الجنرال **إرنستو جايسل** في عام 1974 ، وأخيرا الجنرال **خواو فيجويريدو** في عام 1979 والذي بقي في الحكم حتى عام 1984 .. كانت الانتخابات تتم دون تدخل من الشعب تماما مثلما يحدث في معظم دول العالم الثالث .. وقد تميزت هذه الفترة الطويلة بالرقابة الشديدة على وسائل الإعلام ، وبالقمع والنفي والقتل واختفاء المئات دون سابق إنذار ..

لكن رغم كل ذلك تميزت أيضا فترة بداية السبعينات بانتعاش ملحوظ في الاقتصاد حتى سميت بالمعجزة البرازيلية .. إلا أن المتعمق في أصل المعجزة يجد أمريكا وراء ما حدث فقد عملت على إقراض البرازيل كل ما تحتاج إليه من أموال لدعم الحكومات العسكرية ، ليس على الصعيد العسكري فحسب ، بل على الصعيد الاقتصادي كذلك ..

لكن بدأت مشاكل البرازيل الحقيقية في الظهور في عام 1974 عندما تفاقمت أزمة البترول العالمية في أعقاب حرب أكتوبر ، وواجهت البرازيل أعباء الديون الخارجية الضخمة .. فمن ناحية ساعدت أمريكا الحكومات العسكرية الموالية لها في البرازيل على تنويع مصادرها التمويلية وعدم الاعتماد على البن فقط

كسلعة أساسية ، لكنها من ناحية أخرى جعلتها ولأول مرة عرضة لتقلبات الاقتصاد العالمي وأوامر المؤسسات التمويلية الدولية ..

ففي عام 1978 وصل الدين الخارجي إلى 43.5 مليار دولار وهو ضعف الدين في عام 1975 ، وعندما حل الكساد في أوائل الثمانينات عجزت البرازيل عن خدمة الدين الخارجي – أي دفع فوائده وأقساطه في المواعيد المستحقة – ، فوقعت بكل أسف فريسة بين أنياب الصندوق إياه – صندوق النقد الدولي – .. وعلى الفور قام الصندوق بتقديم روشتة العلاج ، وهو ما يعرف بنظام النيوليبيرال (نظام التحرير الحديث) وتتضمن الآتي : تقليل الإنفاق العام ، تخفيض مرتبات العمال ، توفير السيولة لسداد الديون .. فضلا عن اتباع سياسة طويلة الأجل لتحقيق فائض تجاري من خلال الزيادة في الصادرات والإنقاص من الواردات .. وكانت نتيجة الروشتة أن فقراء البرازيل ازدادوا فقرا ، وأن الفائض التجاري المزعوم ابتلعته الديون الخارجية ، وأن الدين الأجنبي زاد من 64 مليار دولار في عام 1980 إلى 105 مليار دولار في عام 1985 بنسبة زيادة قدرها 64 % !! ..

* * *

وفي مطلع التسعينات اكتشف المسئولون في صندوق النقد الدولي والبنك الدولي أن النموذج الاقتصادي العبقري الذي طبقوه حول العالم في الثمانينات لم يحل مشاكل عدم الاستقرار الاقتصادي ولم يسيطر على الديون الخارجية بل إنه تسبب في تباطؤ معدلات النمو وأحيانا تلاشيها .. ففكروا في بعض " التنقيحات " لتلافي الأخطاء السابقة ، وهو ما ظهر فيما عُرف باسم " إجماع واشنطن Washington Consensus " في شكل خمس نقاط رئيسية : ضبط الموازنة ، تحرير التجارة ، خصخصة المؤسسات المملوكة للدولة ، حرية الاستثمارات الأجنبية ، رفع الرقابة عن السوق المحلي وتركه لآليات السوق ..

تسببت المقاييس الجديدة – ما سمي بعد ذلك بالعولمة – في زيادة معدلات البطالة بالبرازيل ، وتعميق الهوة في توزيع الثروات بين الفقراء والأغنياء ، وحدوث انخفاض حاد في رواتب العمال والموظفين .. وبدلا من إصلاح أخطاء الثمانينات ، تفاقمت حدتها في التسعينات ، حتى أن معدل التضخم ارتفع بشكل جنوني في عام 1994 ليصل إلى 2050 % .. وفي عام 2000 تضاعف الدين الخارجي مرة أخرى ليصل إلى حوالي 250 مليار دولار .. العجيب في هذا الموضوع أن البرازيليين دفعوا في عام 2000 نحو 67.1 مليار دولار لخدمة الديون الخارجية ، مع العلم أن القضاء على الفقر في هذه الدولة لا يحتاج سوى 33 مليار دولار حسب بعض الدراسات الاقتصادية ، هذا إذا نحينا جانبا مسألة خدمة الديون ! ..

* * *

الخلاصة ..

كانت نتيجة تدخلات الولايات المتحدة في منتصف الستينات اختفاء الحكومات المنتخبة ديمقراطيا من الشعب وظهور السلطات العسكرية التي انبهرت بعروض الإغراء الأمريكية للسحب على المكشوف

والاستدانة .. أدى ذلك إلى تقليل المخاوف من الاعتماد على سعر البن في الأسواق العالمية .. وبمرور الوقت تزايد الاعتماد على الاستدانة حتى أصبح من المستحيل الاستغناء عنها ، كما أصبح من المستحيل النجاح في سدادها .. تدخل صندوق النقد الدولي تحت شعار معاونة البرازيليين على سداد ديونهم ..

خرب الصندوق بيت الشعب ، خاصة بعد أزمة جنوب شرق أسيا في عام 1997 والتي نتج عنها أزمة مماثلة في البرازيل وانهارت العملة البرازيلية – الريال – ..

* * *

"لا تأتي الكارثة بسبب عدم الاستماع إلى تعليمات صندوق النقد الدولي بل تأتي بسبب الاستماع إليها !" بروفيسور الاقتصاد العالمي الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 2001 العالم الأمريكي جوزيف ستيجليتز ..

" عندما يجبر صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي بلد ما على تقليص المرتبات ، وطرد العمال ، والإنتاج من أجل التصدير لا من أجل المواطنين ، وبيع القطاع العام لأصدقاء النظام بأسعار تقل كثيرا عن القيمة الحقيقية لذلك القطاع .... فهذا هو ما يسمى بإعادة الهيكلة الاقتصادية " .. الكاتب الأمريكي **روبرت نيمان** نقلا عن صحيفة " Toward Freedom " عدد نوفمبر 1999 ..

* * *

وكانت تلك وسيلة مختلفة بعض الشيء للسيطرة على دولة ضخمة مثل البرازيل تعداد سكانها يقترب من تعداد سكان الولايات المتحدة ولا يجدي معها الغزوات العسكرية الخفيفة ..

لذا كان لابد من العمل على إفقارها وإذلالها لتظل مرتبطة بمن يطعمها وبمن يقرضها وبمن يحل لها مشاكلها ، إلى جانب عدم إغفال أن ما سرقته أمريكا من ثروات البرازيل المعدنية في بداية عهود الحكومات العسكرية كان يكفي تماما لحل كل مشاكل البرازيل الاقتصادية ..

فقد كشف تقرير أعدته وزارة الدفاع البرازيلية في يونيو 1968 بناء على طلب من مجلس النواب البرازيلي عن أن هناك عشرين مليون هكتار من الأراضي تشكل حزاما حول نهر الأمازون قد استولت عليها بعثات إرسالية من الولايات المتحدة ، وأنها تستغل مناجمها الغنية بالذهب والماس واليورانيوم وتهربها إلى الخارج .. وأكد الجنرال **جراندينو كرويل** أمام مجلس النواب أن الولايات المتحدة قد نجحت في تهريب مليون طن من اليورانيوم والمعادن النفيسة خارج البرازيل ..

* * *

لكن يلوح لي أن الولايات المتحدة قد تبحث عن وسيلة جديدة للقضاء على الطموح البرازيلي ..

ففي الانتخابات الأخيرة وصل إلى الحكم زعيم حزب العمال الرئيس **لويز إيناسيو دا سيلفا** الشهير بـ " **لولا** " .. وتكمن المشكلة في ميوله اليسارية الواضحة ، ورفض حزبه خلال العقود السابقة في السبعينات

والثمانينات للتدخل الأجنبي في شئون البرازيل الاقتصادية .. ثم إن الشعب ضج من الاحتلال الاقتصادي والدليل على ذلك أنهم انتخبوا هذا الرجل ..

لولا كان من بين آلاف السجناء أيام الدكتاتوريات العسكرية الذين سجنوا بتهمة ممارسة أنشطة سياسية شيوعية ، وله تصريح أدلى به منذ سنوات وقبل أن يصبح رئيسا يهاجم فيه الولايات المتحدة قائلا : " الحرب العالمية الثالثة بدأت فعلا .. إنها حرب صامتة ، ولكنها ليست أقل رعبا .. فبدلا من الجنود ، فإن الأطفال هم الذين يموتون .. وبدلا من ملايين المصابين ، هناك ملايين العاطلين .. وبدلا من تدمير الجسور ، تغلق المصانع والمدارس والمستشفيات .. إنها حرب أعلنتها الولايات المتحدة ضد القارة الأمريكية وكل العالم الثالث " ..

* * *

إن الشعب البرازيلي يشتهر بالرقص وكرة القدم والبن .. إنه صاحب مزاج ..

لكن الإمبراطورية الأمريكية هي الأخرى صاحبة مزاج ومزاج متقلب ..

وإذا ما تعكر مزاجها تجاه البرازيل – وهو ما تلوح بوادره بالفعل – ، فعلى الشعب ساعتها أن يلتفت إلى ما هو أهم .. إلى حريتهم في الحياة الكريمة المستقلة ..

فوقتها لن تنفعهم لا كؤوس العالم ولا أقداح القهوة ..

(21)
فنـــزويـــلا : محـــاولة فاشـــلة

صورة بالكربون ..

بعد الحرب العالمية الثانية كانت شيلي أول دولة في أمريكا الجنوبية يصل إلى السلطة فيها رئيس شيوعي منتخب ديمقراطيا ..

وبعد الحرب الباردة كانت فنزويلا أول دولة في القارة يحكمها رئيس يساري منتخب من الشعب ..

* * *

نجح الرئيس الفنزويلي **هوجو شافيز** في الوصول إلى الحكم بعد انتخابه في عام 1998 .. لم تخف الولايات المتحدة عداءها له منذ الأيام الأولى لانتخابه ، فقد حاول قبل ذلك الوصول إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري ولكنه فشل في عام 1992 وتم إيداعه في السجن لمدة عامين ، ثم سلك الطريق الشرعي وتمكن من تحقيق غايته ، ولم يكن خافيا على أحد منذ البداية اتجاهاته السياسية .. وفور انتخاب **شافيز** أعلن السياسيون الأمريكيون بوضوح أن بلادهم ليست في حاجة إلى **كاسترو** آخر في أمريكا الجنوبية ..

أخذت أمريكا تتابع عن قرب وبمنتهى الحذر ما يقوم به **شافيز** في بلاده ، فوجدت الآتي : بدأ في الانحياز للفقراء من خلال تطبيق سياسة الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على المعدمين .. رفع مستوى الأجور ثلاث مرات خلال عامين من الحكم .. رفض الخضوع لتعليمات البنك الدولي وصندوق النقد .. أضاف إلى اسم فنزويلا الرسمي كلمة " البوليفارية " ، فأصبح الاسم الرسمي هو الجمهورية البوليفارية الفنزويلية ، في إشارة واضحة إلى محرر أمريكا الجنوبية الإسباني الشهير **سيمون بوليفار** الذي سخّر حياته لتحرير العديد من بلاد القارة حتى أنهم أطلقوا اسمه على واحدة من هذه الدول (بوليفيا) .. وكان من عبارات **سيمون بوليفار** التي لا تنساها الحكومات الأمريكية ، هذه العبارة الدقيقة : " يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية " ..[27]

* * *

هذا من ناحية السياسة الداخلية ، أما على صعيد السياسة الخارجية فقد راقبت الولايات المتحدة تصرفات **شافيز** الآتية : دعا **شافيز** لقيام عالم متعدد الأقطاب بدلا من القطبية الأحادية الأمريكية وأعلن مساندته للحركات المضادة للعولمة باعتبارها مرادفا للأمركة .. أقام علاقات قوية مع الصين وروسيا وإيران .. كان أول رئيس جمهورية يكسر عزلة العراق فقام بزيارة بغداد .. أدان الحملة العسكرية على أفغانستان بشدة ، ووصفها بأنها مجزرة قائلا : " إن العمليات العسكرية ضد أفغانستان مثل مكافحة الإرهاب بمزيد من الإرهاب " .. قام بزيارة كل من إيران وليبيا المغضوب عليهما .. دعا إلى ضم كوبا إلى أي تكتل اقتصادي

---

[27] من محاسن الصدف أن **سيمون بوليفار** له بالقاهرة تمثال وميدان باسمه أمام السفارة الأمريكية مباشرة ! ..

أو عسكري في القارة لإخراجها من العزلة المفروضة عليها .. أكثر من ذلك ، لقد طالب بتشكيل " محور الخير " في أمريكا الجنوبية ليضم فنزويلا والبرازيل وكوبا لمواجهة الهيمنة الأمريكية على القارة الجنوبية ، ويلاحظ في دول هذا المحور المقترح ميل رؤسائهم جميعا إلى اليسار .. أبرم مع **كاسترو** اتفاقا تقوم فنزويلا بمقتضاه بإمداد كوبا بـ 53 ألف برميل من النفط يوميا بشروط دفع ميسرة وبأسعار مخفضة وقد مثّل هذا الاتفاق نجدة من السماء لكوبا التي كانت تعاني من أزمة حادة بسبب انقطاع إمدادات الطاقة الروسية منذ تفكك الاتحاد السوفيتي .. كانت هذه الإمدادات عقبة واضحة أمام محاولات أمريكا للقضاء على زعامة **كاسترو** ..

أما البلاء الأكبر فكان موقفه من البترول .. فنزويلا هي خامس أكبر منتج عالمي للبترول ، وهي ثالث مصدر لإمداد الولايات المتحدة باحتياجاتها ، حيث تمدها بحوالي 15 % من البترول الذي يستهلكه الأمريكان .. وبعد أن كانت فنزويلا في عصر ما قبل **شافيز** أقل أعضاء أوبك التزاما بحصتها الإنتاجية ، وكانت دوما على أتم الاستعداد لزيادة إنتاجها بصورة تؤثر سلبا على الأسعار إذا ما طلبت أمريكا منها ذلك ، تغير الوضع تماما في عهد **شافيز** .. فقد طالب أعضاء المنظمة بخفض الإنتاج حتى يعاود السعر ارتفاعه في عام 1998 .. وفي أواخر عام 1999 طرحت فنزويلا فكرة النطاق السعري ، والذي أخذت بها أوبك فعليا في مارس 2000 ، والتي تنص على تحديد سعر البرميل بين 22 و 28 دولارا ، مع وضع نظام لزيادة أو خفض الإنتاج بما يضمن استقرار الأسعار داخل هذا النطاق ..

أحسب الآن أن القارئ وهو يختم قراءة ما فعلته الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية قد استنتج ما فعلته بـ **شافيز** وهو مغمض ..

فإذا ما عرفنا أن أمريكا تستورد 54 % من احتياجاتها البترولية ، وإذا لاحظنا رخص واردات البترول القادم من دول الجوار بسبب اختصار مصاريف النقل المكلفة ، وإذا نظرنا في الخريطة فوجدنا أن فنزويلا هي أقرب دول أمريكا الجنوبية إلى الولايات المتحدة ، وإذا تابعنا سياسة تأمين النفط التي تمارسها أمريكا منذ فترة ، بدأت بالتواجد الدائم بالخليج العربي مرورا بتوطيد العلاقات السياسية مع دول أسيا الوسطى حيث البترول في القوقاز وانتهاء بشن الحرب الحالية على العراق ، فإنه سوف يكون من العيب على فطنتنا ألا نتصور أن تواصل أمريكا سياسة التأمين فيما يتعلق بأرخص بترول تستورده على الإطلاق ..

اعتبر الكثير من الساسة في الولايات المتحدة أن **شافيز** أشد خطورة من **كاسترو** بسبب البترول ، واتُّخذ قرارا سريعا بضرورة الإطاحة به عن طريق انقلاب من إياهم ، خاصة أن فترة الرئاسة في فنزويلا تمتد ست سنوات وهو ما يعني استمراره في السلطة حتى 2006 ..[28]

وفعلا .. تم الإعداد لهذه المكيدة على مدار عدة أشهر من أجل الإطاحة بـ **شافيز** .. فقد حدث انقلاب مباغت في 11 أبريل من العام الماضي ، ونجح الانقلاب في عزل **شافيز** لمدة يومين فقط ، ثم عاد بمساعدة فقراء

[28] تم الانتهاء من كتابة هذا الفصل في ديسمبر 2003

بلاده الذين ثاروا على المتمردين وخلال الـ 48 ساعة تم فضح أمر أمريكا .. كيف ؟.. سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إعلان تأييدها للانقلاب ، وكانت بذلك الدولة الوحيدة في العالم التي قامت بذلك ، ثم تبين وجود اتصالات مكثفة بين مخططي الانقلاب والسفارة الأمريكية في كراكاس قبيل الانقلاب ومكالمات هاتفية عاجلة بعده مباشرة .. وقبل الانقلاب بأيام أعلن صندوق النقد الدولي عن استعداده لتقديم قروض ميسرة لأية حكومة انتقالية جديدة في فنزويلا .. وهو ما يعني أمرا من اثنين : إما أن الصندوق – وهو صندوق أمريكاني مقفول بقفل مفتاحه في سلسلة مفاتيح البيت الأبيض – على علم مسبق بوجود تخطيط لانقلاب ما يأتي بحكومة جديدة ، وإما أن إعلان الصندوق كان نوعا من تحفيز المعارضة للإطاحة بـ **شافيز** .. والمعنيان لهما نفس الدلالة .. بعد الانقلاب بساعات صرح مسئول المبيعات في الشركة الوطنية للبترول الفنزويلي بأن الشركة سوف تنتج حسب حاجة السوق لا حسب الحصة المحددة من أوبك ، وهو ما كان سيؤدي إلى حالة من التسيب بين بقية المنتجين محتذين بفنزويلا ، فيزيد المعروض فجأة وينهار السعر . وعقب الإعلان عن محاولة الانقلاب على **شافيز** أدلى المتحدث الرسمي للبيت الأبيض ببيان جاءت فيه هذه العبارة : " إن الوضع في فنزويلا سيكون أكثر استقرارا وهدوءا وديمقراطية بعد أن استولى العسكريون على السلطة " .. المضحك في الموضوع ، أنه بعد فشل الانقلاب وعودة **شافيز** إلى الحكم ، كان أول تعليق للرئيس الأمريكي **بوش** على الأحداث هو أنه يدعو **شافيز** للتعلم من دروس الانقلاب ! .. ولما ظهر للأمريكان أن **شافيز** بليد لا يتعلم ، تم اللجوء إلى نفس ما حدث مع **الليندي** في شيلي ، وهو ما يطلق عليه نظرية الغزو من الداخل عن طريق دعم كامل للمعارضة مع التركيز على الإضراب في قطاع البترول مثلما أضرب عمال شيلي في مناجم النحاس ..ثم بدأت المعارضة تطالب بإجراء انتخابات مبكرة وهو ما يخالف الدستور الذي ينص على وجوب مرور نصف الفترة الرئاسية قبل إجراء أي انتخابات مبكرة .. ورغم ذلك تدخلت أمريكا بشكل صريح وأعلنت مبادرة تقوم على تدخل دولي بقيادتها في إطار ما أطلقت عليه " مجموعة أصدقاء فنزويلا " .. وعلى رأس أصدقاء فنزويلا تجئ أمريكا التي طالبت هي الأخرى تماما كالمعارضة بإجراء انتخابات مبكرة مقابل إنهاء الإضرابات الطويلة التي تعصف بالبلاد ..

* * *

ومازال **شافيز** يقاوم .. ومَن يدري .. فربما تخطط الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تنتهي من أمر العراق للانقضاض على بقية أعضاء محور الشر : إيران وكوريا الشمالية .. وبعد أن تجهز عليهما ، تعود لتلتفت نحو محور الخير بزعامة فنزويلا فتدمره هو الآخر ..

وإن كان العقل – على الأقل عقلي أنا – يرجح أن تُنهك قوى أمريكا ، وتتعقد المحاور وتتشابك وتلتف حول رقبتها ، فتصيبها بالاختناق ، وتموت متأثرة بإسفكسيا الجبروت .. وحينئذ سوف تخرج جثة أمريكا في جنازة مهينة لن يشيعها أحد .. وسوف تُنقش على نعشها عبارة مأثورة قديمة تقول : " هناك أموات ينبغي قتلهم " ! ..

الاستفزاز يعبر بنا المحيط

هذا يكفي ..

فليس من الحكمة الاستمرار في الكتابة عما فعلته الولايات المتحدة في بلدان أمريكا الجنوبية والوسطى ، خاصة وأن الشعوب لا تتعلم من التاريخ ولا تعتبر من الجغرافيا ..

أجل ، هناك المزيد ..

هناك مساندات لدكتاتوريات عسكرية في أوروجواي والأرجنتين .. وهناك حرب معلنة حالية ضد المخدرات في كولومبيا هدفها الأساسي هو القضاء على المتمردين اليساريين وحماية تدفق بترول الشركات الأمريكية التي تعاني من المتمردين الذين حطموا خطوط الأنابيب مئات المرات في السنوات الأخيرة ، حيث تعتبر كولومبيا ثالث مصدر للنفط في المنطقة بعد فنزويلا والمكسيك ..

وهناك تدخل عسكري قديم في بيرو وقذف بالقنابل .. ولو أعدت النظر في الخريطة سأجد بعض الدول التي لم يأت ذكرها مثل إكوادور وباراجواي وبليز وكوستاريكا وجامايكا .. وإذا كنت أنا قد أغفلتها ، فإن الولايات المتحدة لم تنس أحدا ، فجميع تلك الدول تعرضت لأحد أنواع البطش سواء العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ..

المساواة في الظلم عدل .. فإذا كان هذا هو المقياس الوحيد ، لوجدنا أمريكا على قمة العدالة في هذا العصر ، لا تفرق بين أحد ..

مثلا .. في الثمانينات قام الرئيس **رونالد ريجان** بزيارة ***كولومبيا*** ، وألقى لدى وصوله إلى مطار العاصمة بوجوتا كلمة أمام حشد من مستقبليه شكر فيها شعب ***نيكاراجوا*** على حسن استقباله ! ..

الرجل معذور .. فمن الذي قال أن هناك أي فارق بين شعب نيكاراجوا وشعب كولومبيا .. فالجثث جميعها تُدفن بنفس الطريقة .. وقد عبر الكاتب الشيلي **ألبرتو مونياس** عن رأيه في القارة الجنوبية قائلا : " إنها جثة تنبت فيها الأشجار" ..

أما الإعلام الأمريكي فينقسم قسمين إزاء أمريكا الجنوبية ، فمنهم من يطلق على دولها "جمهوريات الموز" ، ومنهم من يعتبرها " الفناء الخلفي " ..

أيا كان الأمر .. فالواقع يقول أن أمريكا الجنوبية قارة شديدة الفقر رغم ثرواتها الهائلة ، وأن طفلا واحدا يموت فيها كل دقيقة ضحية الجوع أو المرض ، وأن آلاف الأطفال تأكلهم الفئران سنويا .. وأن ربع مليار بني آدم يعيشون بدون ضروريات الحياة .. وحسب وثائق اليونيسيف ، فإن 40 % من شعوب أمريكا الجنوبية يعيشون تحت خط الفقر .. إنها قارة أنهكتها الحروب .. وتقول الإحصائيات أن في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية نشبت الحرب بمختلف أشكالها 29 مرة في أمريكا الجنوبية والوسطى .. وباستثناء

حرب " كرة القدم " بين السلفادور وهندوراس عام 1969[29] ، وحرب الحدود بين بيرو وإكوادور خلال الفترة من 1981 حتى 1995 ، وحرب فوكلاند بين الأرجنتين وإنجلترا عام 1982 بسبب النزاع على جزر فوكلاند الموجودة في أقصى جنوب القارة – وقد أمدت المخابرات الأمريكية حليفتها بريطانيا بالمعلومات اللازمة لحسم الحرب سريعا – .. باستثناء تلك الحروب الثلاثة ، فإن الولايات المتحدة مسئولة بشكل مباشر أو غير مباشر عن اندلاع باقي الحروب التي تنوعت ما بين التدخل العسكري المباشر والحروب الأهلية ودعم انقلابات عسكرية وصراعات على السلطة .. ويكفي أن نعرف أن المدة الزمنية التي استغرقتها تلك الحروب مجتمعة بلغت حوالي 200 سنة !! ..

وفي دراسة مبكرة للبروفيسور الأمريكي **جون دانكين باول** أستاذ العلوم السياسية ، قام **باول** بحساب العلاقة بين المساعدات العسكرية المقدمة للجندي الواحد في أمريكا الجنوبية في عام 1962 بالمقارنة بمتوسط الدخل الفردي في دول القارة الجنوبية ، فوجد أن نصيب الفرد الواحد في القوات المسلحة في نيكاراجوا من المساعدات العسكرية يساوي 930 دولارا في السنة ، بينما يبلغ متوسط الدخل الفردي السنوي في نيكاراجوا 205 دولارا .. أما القوات المسلحة في جواتيمالا فيحصل الفرد الواحد بها على مساعدات عسكرية سنوية تصل إلى 538 دولارا ، في حين لا يزيد متوسط الدخل الفردي السنوي في جواتيمالا عن 185 دولارا ! ..

إن شعوب أمريكا اللاتينية دفعت ومازالت تدفع ثمن النهضة الصناعية التي حدثت في القرن التاسع عشر ، فلولا الازدهار الصناعي لما احتاجت أمريكا لثروات الجنوب .. وإذا كانت الحاجة أم الاختراع ، فإن الحروب القذرة هي أهم اختراع أمريكي منذ نشأة الولايات المتحدة ..

* * *

آن الأوان كي نخرج من مستنقع الغابات الأمازونية ونعبر المحيط الأطلسي لمحاولة الإحاطة بباقي أضلاع إطار الصورة ، لعلنا في النهاية نصل إلى درجة الاستفزاز المتناسبة مع فداحة ما يحدث ..

والاستفزاز هو نتيجة مباشرة للوعي ، لكنه لا ينبغي أن يكون النتيجة الوحيدة ..

[29] اشتعلت هذه الحرب بعد انتهاء مباراة في كرة القدم بين البلدين ! ..

(22)
ألمانيا : كلاكيت ثاني مرة

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى عام 1914 كانت الولايات المتحدة لا تزال تتبع سياسة انعزالية بعدم التدخل في شئون أوروبا وعدم السماح لأوروبا بالتدخل في شئون الأمريكتين .. رغم ذلك كانت أمريكا تقدم بعض المساعدات الاقتصادية لحلفائها وخاصة بريطانيا ..

لكن بمرور الوقت بدأت المصالح التجارية الأمريكية تتهدد بسبب تكرار إغراق بعض البواخر الأمريكية التي كانت تسير في خطوط الملاحة البحرية المعتادة ، و كانت تتعرض لاعتداءات من جانب الغواصات والطوربيدات الألمانية في المحيط الأطلنطي .. كانت معظم هذه الاعتداءات بطريق الخطأ .. تسامحت أمريكا في البداية ، لكنها انزعجت بشدة عندما علمت في يناير 1917 أن الوزير الألماني للشئون الخارجية **تسيمرمان** يعمل على عقد تحالف عسكري مع المكسيك يساعدها على استعادة بعض أراضيها التي فقدتها في أثناء حربها في منتصف القرن التاسع عشر .. كان الوعد الألماني بأن تستعيد المكسيك تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا .. ثم كان هناك أيضا تدخل كبار مستشاري الرئيس الأمريكي **توماس وودرو ويلسون** وكان بعضهم من اليهود الذين حرضوه على إعلان الحرب ..

هنا قررت أمريكا دخول الحرب في 6 أبريل 1917 والتي سرعان ما انتهت بعد أقل من عام ..

* * *

فور انتهاء الحرب اجتمعت الدول المنتصرة وقررت عقاب ألمانيا المهزومة ..

حدث ذلك من خلال معاهدة فرساي الشهيرة .. كان من ضمن بنود تلك المعاهدة هو إجبار ألمانيا على دفع 132 مليار من الماركات الذهبية كتعويضات حرب في الوقت الذي كانت تبلغ فيه الثروة القومية الألمانية كلها 260 مليار مارك من الذهب ! .. تضاعفت حالات الإفلاس وانتشرت البطالة وانهار الاقتصاد الألماني تماما .. تدخلت أمريكا بطريقة غريبة جدا لحل مشكلة ألمانيا في سداد ديونها للحلفاء ومشكلة الحلفاء في سداد ديونهم لأمريكا .. فقد كانت هناك رءوس أموال ضخمة لا تستطيع الولايات المتحدة استثمارها في أوروبا بسبب الدمار الذي حل بالاقتصاد الأوروبي بعد الحرب ، لذا أقرضت أمريكا ألمانيا لتدفع تعويضاتها إلى الحلفاء الذين يقومون بدورهم بدفع ديونهم لأمريكا !..[30]

وبمرور الوقت صعد نجم **هتلر** الذي جاء ينادي بإلغاء معاهدة فرساي التي تذل الشعب الألماني وتمعن في تدمير اقتصاده ومستقبله كي لا تقوم لألمانيا قائمة مرة أخرى ..

نتوقف قليلا ونتأمل موقف أمريكا من إيطاليا وألمانيا في سنوات ما بين الحربين ..

---

[30] أحد تفسيرات وقوع الأزمة الاقتصادية العالمية الشهيرة في عام 1929 هو ذلك الذي فعلته الولايات المتحدة ، فقد بدأت ألمانيا في توجيه انتقادات حادة لمعاهدة فرساي وهددت بالتوقف عن سداد التعويضات ، فانتشرت الفوضى والمخاوف في دوائر المال مما أدى إلى شروخ في النظام النقدي العالمي ..

منذ عام 1922 أثنى السفير الأمريكي في إيطاليا على **موسوليني** ، ووصف الحركة الفاشية بأنها ثورة جميلة وشابة ، وكان كثيرا ما يسهب في تعليل وشرح لماذا قد يكون الفاشيون العامل الأقوى في الضغط على الشيوعيين ومواجهتهم .. وكانت إيطاليا في تلك السنوات إحدى الدول ذات المعاملة المميزة فيما يتعلق بتسوية ديون الحرب الأولى والاستثمارات الأمريكية .. وفي عام 1933 تحدث **فرانكلين روزفلت** عن **موسوليني** واصفا إياه بأنه " الجنتلمان الإيطالي المهذب واللطيف " !! ..

أما ألمانيا فلم يكن لأمريكا علاقة واضحة المعالم بها بعد قدوم **هتلر** إلى الحكم .. كل ما يمكن قوله أنه منذ تولي **هتلر** السلطة عدّته الولايات المتحدة أفضل عائق أمام الشيوعية حتى أنها احتفظت بسفيرها في جمهورية فيشي ..[31]

وظلت أمريكا تتحاشى مواجهة الألمان بشكل مباشر حتى بعد أن دخلت الحرب الثانية في نهاية عام 1941 بعد هجوم اليابان على أسطولها ..

وتتلخص نظرة الولايات المتحدة إلى ألمانيا فيما كتبه **هاري ترومان** في مذكراته عام 1942 قبل أن يصبح رئيسا لأمريكا ، كتب **ترومان** : " إذا ضعف الاتحاد السوفيتي يجب مساعدته .. وإذا ضعفت ألمانيا يجب مساعدتها .. المهم هو أن يقوما بتدمير بعضهما البعض " .. وقد قاما تقريبا بذلك في المعارك الرهيبة التي دارت بينهما حتى شتاء 1944 في الأراضي الروسية .. ففي عام 1944 واجه الاتحاد السوفيتي وحده 236 وحدة عسكرية نازية ، بينما كانت 19 وحدة منها فقط تواجهها قوات الحلفاء في إيطاليا ، و65 متفرقة على طول الطريق ما بين فرنسا والنرويج .. لم تتدخل أمريكا بشكل مباشر ضد ألمانيا إلا في يونيو 1944 .. وكان ذلك على هيئة قصف جوي عشوائي للمدنيين أسفر عن 570 ألف قتيل و800 ألف جريح مدني .. وكانت أكثر المدن التي تعرضت للدمار هي مدينة دريسدن التي تسبب قصفها في مقتل 135 ألف مواطن ألماني وتدمير ثلاثة أرباع المدينة ..

انتهت الحرب بانتصار الحلفاء وبخسائر مادية وبشرية فادحة .. وإذا قارنا الفارق بين ألمانيا والولايات المتحدة لوجدنا أن ألمانيا خسرت 48 مليار دولار و 7.5 مليون مواطن ، بينما ربحت أمريكا من الحرب 42 مليار دولار وخسرت 280 ألف جندي .. ولم يكن الحال في بقية أوروبا أفضل من حال ألمانيا ، بل كان هناك ما هو أسوأ مثل الاتحاد السوفيتي الذي خسر 128 مليار دولار و 17 مليون مواطن ..

وجدت أمريكا نفسها في مأزق ، فمع انتهاء الحرب دُمرت أوروبا تماما وخرجت أمريكا وحيدة ظافرة بالمكاسب الرهيبة[32] ، لكن ماذا تفعل بها إذا لم تجد من تصدر له منتجاتها فلا أحد يملك ما يستورد به قشة ، وكيف تتصرف إذا أرادت أن تستورد بأموالها المتراكمة ما ينقصها محليا إذا كان الجميع على فيض الكريم فلا مصانع تنتج ولا أيدي عاملة تعمل ..

---

[31] الجمهورية الفرنسية التي أسستها ألمانيا أثناء الحرب في فرنسا المحتلة وكانت تابعة للنازية ..

[32] في الفترة ما بين عامي 1934 و1939 بلغت قيمة الذهب المتدفق على الولايات المتحدة الأمريكية من دول أوروبا المدينة والمحتاجة إلى السلاح حوالي 9991 مليون دولار ، أي ما يقرب من ثلثي ذهب العالم ..

* * *

ثم أمر آخر ..

كانت هناك خطورة على أمن أمريكا إذا ما انهار اقتصاد أوروبا الغربية ووصل الشيوعيون إلى السلطة ..

وهنا جاء الإعلان عن خطة **مارشال** (وزير خارجية الولايات المتحدة) الهادفة إلى إعادة بناء أوروبا ومعاونة دول القارة على النهوض من جديد والتغلب على آثار الحرب .. وكانت شروطها محددة وأهمها عزل الشيوعيين من الحكومات الغربية ..

استجابت الحكومات الأوروبية سريعا ، فاستبعد الوزراء الشيوعيون في فرنسا في 4 مايو 1947 ، والإيطاليون في 13 مايو ، والبلجيكيون قبل انتهاء الشهر نفسه .. وفي 5 يونيو 1947 أُعلن رسميا عن مشروع **جورج مارشال** الإنساني ..

* * *

أما ألمانيا المهزومة للمرة الثانية في ثلاثين عاما ، فقد قام الحلفاء بتقسيمها فيما بينهم ، فتم تجزئتها إلى أربع مناطق نفوذ : أمريكي روسي بريطاني فرنسي .. ثم بدأت المهزلة المعروفة تاريخيا باسم محاكمات نورمبرج لمجرمي الحرب من نوفمبر 1945 حتى أكتوبر 1946 ، حيث تمت محاكمة مرءوسين بتهمة تنفيذ أوامر صدرت إليهم من رؤسائهم وهي تهمة عجيبة لأنها تنطبق على جميع من شاركوا في كافة الحروب في التاريخ ..

وقد شاعت في ألمانيا في تلك الأيام نكتة توضح مدى المرارة والظلم الذي كان يشعر به المواطن الألماني العادي ، كانت النكتة تحكي أنه في الحرب العالمية الثالثة سوف تقدم بريطانيا جنود البحرية ، وفرنسا جنود المشاة ، وأمريكا الطائرات ، وألمانيا مجرمي الحرب ! ..

* * *

ثم كان هناك اقتراح سوفيتي بخصوص ألمانيا موحدة منزوعة السلاح على أن يتم إجراء انتخابات حرة عام 1952 ، لكن الولايات المتحدة لم تهتم أبدا بعرض **ستالين** .. وقد اعترف **جورج كينان** رئيس المجلس القومي لدراسة سياسة التخطيط آنذاك قائلا : " الاتجاه الحقيقي لتفكيرنا هو أننا لا نرغب برؤية إعادة توحيد ألمانيا في الوقت الراهن ، وما من شروط يمكن أن تجعل حلا كهذا مرضيا بالنسبة لنا .... قد يكون توحيد ألمانيا أمرا مرغوبا فيه على المدى البعيد ، لكن فقط عندما تكون الظروف ملائمة لذلك " ..

وبالفعل لم يتم توحيد ألمانيا إلا مع انهيار الاتحاد السوفيتي حيث صارت ألمانيا الموحدة عضوا في الناتو ..

ولم يكن خافيا دور اليهود المؤثر في كل ما حدث لألمانيا فور انتهاء الحرب ..

وهذه فقرة من كتاب الستار الحديدي حول أمريكا للكاتب الأمريكي **جون بيتي** في الخمسينات : " إن إسرائيل الضئيلة ، تلك الدولة التي تطفو على بحار من الدم ، قد ورطت العالم في مشكلات عديدة ، ومن الأمثلة الصارخة أن رسالة من تل أبيب سلمت في مارس 1951 إلى واشنطن ولندن وباريس وموسكو

تحث فيها الدول التي تحتل ألمانيا ألا توافق على منح السلطة الكاملة لأية حكومة ألمانية بدون اشتراط دفع التعويضات لإسرائيل ، وتبلغ هذه التعويضات 15 مليار دولار .. وقد قيل في تبرير دفع هذه الأموال أنها تعويضا عن ستة ملايين يهودي قتلهم **هتلر** ، لكن الذي يرجع إلى الإحصاءات لا يملك إلا أن يعجب كيف وصل عدد القتلى إلى هذا الرقم .. فعدد اليهود في ألمانيا عام 1939 كان 600 ألف نسمة ، ومن هذا العدد جاء إلى الولايات المتحدة الكثيرون ، كما ذهب البعض إلى فلسطين ، أما يهود أوروبا الشرقية فقد هربوا أمام جيوش **هتلر** ولجئوا إلى روسيا .. وهنا نتساءل كيف يُنسب إلى **هتلر** أنه قتل ستة ملايين يهودي **!** " .. ولم يتهمه أحد بمعاداة السامية ..

* * *

أما المفكرة الفرنسية **سيمون في** فقد كتبت قبيل وفاتها (1909 – 1943) تقول : " إننا نعلم تماما أن أمركة أوروبا بعد الحرب ستصبح خطرا عظيما ، ونعلم أيضا مدى ما سنخسره لو تم ذلك ، لأن أمركة أوروبا سوف تمهد دون شك لأمركة العالم بأسره .. وحينئذ سوف تفقد الإنسانية جمعاء ماضيها " ..

وفي هذه الأيام السوداء يتأكد لنا جميعا صدق تنبؤات المفكرة الفرنسية ، لولا أنه يجب أن نعدل عبارتها إلى : وحينئذ سوف تفقد الإنسانية جمعاء ماضيها .. ومستقبلها أيضا ! ..

(23)
اليابان : الركوع

كيف تجُرّ شَكَلي لأخربشك ، فتبكي وتغتاظ ثم تنهال عليّ ضربا حتى الموت ؟

والجواب تجده في تفاصيل الحرب العالمية الثانية بين أمريكا واليابان اللتين لا يفصل بينهما سوى المحيط الهادي الذي تخلى عن هدوئه في تلك السنوات البعيدة ..

* * *

في الغالبية العظمى من كتب التاريخ سوف تجد أن سبب دخول أمريكا الحرب العالمية الثانية هو هجوم اليابان الوحشي على ميناء بيرل هاربور بهاواي وتدمير الأسطول الأمريكي به .. لكن هذه الكتب نفسها لم تجب عن السؤال التالي : ولكن لماذا ضربت اليابان الأسطول الأمريكي رغم أن أمريكا لم تكن طرفا في الحرب ؟

كانت الولايات المتحدة في حاجة إلى الحرب لإنعاش اقتصادها – ربما تكون أمريكا هي الدولة الوحيدة في العالم التي تتسبب الحروب دائما في امتلاء خزائنها – .. وقد بذل الرئيس الأمريكي **فرانكلين روزفلت** جهودا جبارة لإبطال تشريع الحياد الذي كانت عليه البلاد حتى استطاع أن يقنع الكونجرس بتشريع " ادفع وتسلم " الأمر الذي جعل موارد أمريكا في متناول الدول الحليفة المحاربة مادام بوسعها أن تدفع الثمن مقدما ، فكان على الأوروبيين أن ينقلوا الإمدادات الأمريكية بأنفسهم على أن يدفعوا ثمنها قبل ذلك ، فإن عجزوا عن الدفع يتم ذلك بواسطة القروض بشرط ألا تكون قروضا من الدولة الأمريكية ! ..

لكن الحالة الاقتصادية كانت في حاجة إلى المزيد من النشاط الحربي حتى تدور المصانع ويدور رأس المال كما يجب ..

من يوليو 1940 وحتى أغسطس 1945 أنتجت المصانع الأمريكية 300 ألف طائرة حربية و 86 ألف دبابة و 3 مليون مدفع رشاش و 71 ألف سفينة حربية وما حمولته 55 مليون طن من السفن التجارية .. انتهت الحرب ببيع مواد غذائية وحربية قيمتها 50 مليار دولار ..

* * *

ولما كانت الحرب ضد ألمانيا غير عملية لبعد المسافة والحاجة إلى قوات برية ضخمة سوف ينجم عنها خسائر فادحة في الأرواح وسخط الرأي العام الأمريكي ، فقد أصبح الهدف هو جر اليابان إلى الحرب لأنها الأقرب والأنسب ..

تمثلت أول خطوة في فرض حظر على البترول والمعادن ، وقد كانت اليابان تستورد 60 % من احتياجاتها البترولية من أمريكا .. أرسل الإمبراطور **هيرو هيتو** إلى **روزفلت** طالبا منه إنهاء الحظر على البترول ، ورد عليه **روزفلت** أن عليه أولا سحب القوات اليابانية من الصين والهند الصينية .. الخطوة الثانية كانت

تجميد أرصدة اليابان المالية بالولايات المتحدة .. دفعت هذه الإجراءات اليابان إلى غزو المزيد من الدول الأسيوية مثل إندونيسيا لتغطية احتياجاتها من البترول .. أما الخطوة الثالثة فكانت تحريك قطع من الأسطول البحري من قاعدة سان دييجو بولاية كاليفورنيا إلى قاعدة بيرل هاربور في هاواي[32] ، حتى يصبح طعما لليابانيين لمهاجمته وتدميره كي لا يتدخل الأمريكان في محاولاتهم للسيطرة على البترول الأسيوي في أقصى الشرق .. إن مجرد اقتراب الأسطول الأمريكي يعني اقتراب أمريكا من منطقة الصراع .. وهنا كان لابد من التخلص من التهديد الأمريكي بتدمير الأسطول البحري قبل أن يبدأ في مهاجمتهم ..

مسألة استدراج اليابان هذه حقيقة تاريخية ، فالإدارة الأمريكية كانت ترصد كافة التحركات اليابانية في اتجاه أسطولهم وكانت على علم بفحوى الرسائل المتبادلة بين القوات اليابانية المهاجمة وقيادتها في طوكيو .. كانت المعلومات لدى الرئيس **روزفلت** ولدى رئيس أركان الجيش الأمريكي ، إلا أنها حُجبت عن قائد القوات البحرية .. وقد نقلت أجهزة الاستخبارات الأمريكية أنباء عن عزم اليابان القيام بهجوم ساحق على الأسطول الأمريكي المرابط في بيرل هاربور فجر يوم 7 ديسمبر .. وسار كل شئ في هدوء شديد ، فقد اقتربت الطائرات اليابانية من هدفها دون أدنى إزعاج ، فلم تواجه أية دفاعات جوية مضادة ، حتى وصلت إلى الهدف ..

وهكذا حدث ما حدث ، ليظهر الرئيس الأمريكي **روزفلت** أمام الشعب ويعلن الحرب على اليابان عصر يوم السابع من ديسمبر 1941 وسط تأييد شعبي جارف بالانتقام للضحايا الأبرياء ..

* * *

على مدار السنوات الثلاث التالية دارت العديد من المعارك البحرية المتكافئة في كثير من الأحيان وتبادل الطرفان التفوق في أحيان أخرى .. لكن على صعيد آخر فقد أمعنت الولايات المتحدة في قصف طوكيو بالقنابل وأسفر القصف الأمريكي المتوالي عن مصرع 670 ألف ياباني .. ولم يتوقف المؤرخون طويلا أمام ما حدث في 10 مارس 1945 ، فقد أغارت ثلاثمائة من قاذفات القنابل الأمريكية على مدينة طوكيو بعد منتصف الليل ، وأمطرت العاصمة اليابانية بالقنابل لمدة ثلاث ساعات متواصلة ، وقد قدرت بعض المصادر عدد الضحايا بحوالي 130 ألف قتيل و300 ألف مصاب ، بالإضافة إلى 1.25 مليون شخص فروا إلى العراء بلا مأوى .. ويصف أحد المراسلين الحربيين – الذي شاهد آثار الدمار في معظم المدن التي تعرضت للقصف أثناء الحرب العالمية الثانية – ما رآه قائلا : " شاهدت معظم المدن التي دمرتها المدافع والغارات الجوية حتى أصبحت خرائب وأكواما لا حياة فيها .. لكن الآثار الوحشية التي خلفها حريق طوكيو الضخم ، تفوق ما أحدثته القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي " .. أما أحد الطيارين

---

[32] تقع جزر هاواي في الطريق بين أسيا وأمريكا بالمحيط الهادي ، ولم تكن حتى ذلك الوقت ولاية أمريكية ، بل كانت مستعمرة ولم تنضم إلى الولايات المتحدة إلا في عام 1959 ..

العائدين من الغارة فقد استرجع ما شاهده ووصفه قائلا : " إن الأرض كانت تحترق .. لم أر قط مثل ذلك الحريق المهول .. لقد تأججت النار في كل مكان من هذه البقعة .. شاهدت المكان من تحتي وكأن منجم فحم عملاق يحترق .. ليغفر الله لي ، وليرحم هؤلاء الناس الذين قدّر لهم أن يكونوا في تلك المدينة " .. ومما ساعد على التضخيم من آثار القصف في تلك الليلة أن بيوت السكان كانت مصنوعة من الأخشاب والبامبو والجبس ..

وبمرور الوقت خرجت إيطاليا من المعارك وأخذت ألمانيا في الضعف حتى انتحر **هتلر** في 30 أبريل واستسلمت ألمانيا في 8 مايو 1945 ..

وبقيت اليابان وحدها في الحرب ..

* * *

وفي فجر يوم 16 يوليو1945 تم تجربة القنبلة الذرية في صحراء نيو مكسيكو .. وكللت التجربة بالنجاح .. والجدير بالذكر أن أسرار القنبلة الذرية كانت في حوزة الأمريكان بشكل أو بآخر قبل بدء الحرب منذ أرسل **أينشتاين** إلى **روزفلت** في 2 أغسطس 1939 ينبهه أن تجهيز القنبلة الذرية قد بات ممكنا ..

وفي 25 يوليو 1945 أصدر **ترومان** – تولى الحكم بعد وفاة **روزفلت** في 12 أبريل – تعليماته بالاستعداد النهائي لاستخدام القنبلة الذرية ..

وفي اليوم التالي مباشرة – 26 يوليو – أصدرت أمريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا إعلان بوتسدام الذي طالب اليابان بالاستسلام غير المشروط وإلا فإنها سوف تتعرض " لعواقب وخيمة " !..

ويظهر لأي عاقل أو نصف مجنون أنه طبقا لهذا التسلسل الزمني للأحداث أن **ترومان** قد أصدر أوامر الهجوم الذري على اليابان بدون أن يعرف مدى قبول أو رفض اليابان للإنذار الموجه إليها من خلال إعلان بوتسدام ..

وعندما استمع **ترومان** لخبر إسقاط قنبلة هيروشيما أبدى امتعاضه من قصر الخبر والعودة السريعة لبث برامج الراديو المعتادة ، حتى أنه صرح لبعض أصدقائه فيما بعد بأن يوم هيروشيما هذا هو أعظم أيام التاريخ !

أُسقطت القنبلة الأولى في 6 أغسطس 1945 على هيروشيما وأسفرت عن 119 ألف قتيل و80 ألف جريح في تسع ثوان .. ثم أُسقطت الثانية بعدها بثلاثة أيام على نجازاكي وكانت المحصلة 74 ألف قتيل و75 ألف جريح .. ناهيك عن التشوهات الخلقية لعشرات الألوف على امتداد الأجيال ..[33]

احترق كل من كان بالقرب من مركز الانفجار حتى مسافة ميل واحد .. وتناثرت أشلاء الجثث في الطرقات في حالة متفحمة ، كما اختفت جثث أخرى بفعل التبخر الناجم عن الحرارة الشديدة .. وفي هيروشيما التي أصابها الضرر بشكل أقوى ، تحولت السيارات وعربات الترام إلى هياكل سوداء بداخلها

[33] احتفلت اليابان بظهور أول زهرة في تربة مدينة هيروشيما في عام 1984 ! ..

بقايا بشرية متفحمة ، أما المباني فقد سوت بالأرض تماما ، وتحول كل شئ إلى ركام في لحظات .. وفي 2 سبتمبر 1945 وقعت اليابان وثيقة الاستسلام بدون شروط على ظهر البارجة الأمريكية ميسوري الراسية في خليج طوكيو ..

* * *

سؤال : هل كان يمكن تجنب إلقاء القنابل الذرية على اليابان ؟

جواب : بكل تأكيد نعم .. فالأحداث تشير إلى أن اليابان كانت على وشك الاستسلام وكانت تستعد له فعليا بعد هزيمة حلفائها .. والولايات المتحدة كانت على علم كامل بذلك ، إذ كانت الشفرة العسكرية اليابانية قد تم فكها من جديد وبذلك كان القادة الأمريكيون يقرءون المراسلات من وإلى القيادة اليابانية في نفس الوقت تقريبا ..

أما الأغراض الحقيقية من وراء هذه الجريمة المفزعة ، فهي : أولا : تجربة القوة التدميرية للسلاح الجديد[34] .. ثانيا : تقليل الخسائر الأمريكية الناتجة عن المقاومة اليابانية حتى وإن كانت آخذة في التلاشي .. ثالثا – وهي في منتهى الأهمية – : إبعاد السوفيت عن المشاركة في غزو اليابان ، فقد كان الإمبراطور الياباني قد بدأ مفاوضات الاستسلام مع الاتحاد السوفيتي في 21 مايو 1945 ولم يكن الاتحاد السوفيتي قد دخل الحرب مع اليابان بعد ، وفي أواخر أيام الحرب وقبيل إلقاء القنبلة الذرية سارعت القوات السوفيتية باحتلال جزر الكوريل الأربع التي كانت اليابان قد استولت عليها في عام 1905، كما أبدى استعداده لمهاجمة اليابان بدءا من 8 أغسطس وهو ما أكده **ستالين** في مقابلة مع المبعوث الأمريكي **هوبكنز** في موسكو قبل ذلك التاريخ بأيام ، وكانت تلك غلطة ساذجة من زعيم مثل **ستالين** ..

وقد علق على ذلك العالم الفيزيائي الإنجليزي البروفيسور **بليكيت** قائلا : " إن إلقاء القنبلة الذرية لم يكن عملا أخيرا في الحرب العالمية الثانية بقدر ما كان أول عملية كبيرة في الحرب الدبلوماسية الباردة ضد روسيا " ..

بينما أعلنها وزير الطيران الأمريكي **فلنتر** صراحة بعد الحرب وقال : " إن استعمال القنابل الذرية كان هدفه طرح اليابان أرضا قبل دخول الروس الحرب " ..

وهكذا انتهت الحرب العالمية الثانية بـ طرح اليابان أرضا ، و قسمة ألمانيا غصبا ، و ضربهما سويا بالقنابل ، و جمعهما معا في قبر واحد ...

إنه قبر المذلة والهوان على حساب تاريخ لا يكتبه سوى المنتصرين ..

---

[34] لم يحدث أبدا أن توصلت البشرية إلى سلاح جديد ولم تستخدمه ! ..

(24)
أوروبـا : خـنـق الشيـوعيـة

ليس دائما صحيحا أن العفاريت تطلع لمن يخشاها ..

أحيانا يأتي من يبحث عن العفريت في كل مكان ، وعندما يجده يسعى بكل عزم لإقناع العفريت بضرورة إخافته ، فإن لم يقتنع استفزه كي يخيفه ، فإن لم يُستفز يلم عليه الناس ويصرخ ، ثم يقود الناس بالعافية إلى مقاومة العفريت الشرير ..

ويعلم الله أن هذا العفريت كان أضعف من أن يتصدى لأحد .. لكنه كان العفريت الوحيد ..

كانت الشيوعية هي عفريت القرن العشرين – قبل أن يتغير العفريت مع نهاية القرن – ..

انتهت الحرب العالمية الثانية ، وكانت شهية الولايات المتحدة مفتوحة من أجل السيطرة على الكرة الأرضية ، لكن الملعب كان به منافس واحد يحول دون السيطرة المطلقة ..

دُمّرت ألمانيا ، استسلمت اليابان ، أُنهكت بريطانيا ، جُرح كبرياء فرنسا .. ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان أكبر الخاسرين في الحرب ، لكنه انتصر على ألمانيا ، ثم إنه دولة عظمى ، والمصيبة الأكثر فداحة أنه دولة شيوعية ..

* * *

عندما أعطي فقيرا ليأكل ، يقولون إنني قديس .. وعندما أقاوم وأنكر النظام المسئول عن البؤس والشقاء ، يقولون إنني شيوعي .. الأسقف البرازيلي **دوم هيلدر كامارا**

هي عبارة تلخص الانطباع الأمريكي السائد ضد الشيوعية وأنصارها ..

* * *

كانت أوروبا هي أولى مناطق الصراع بعد انتهاء الحرب ، وكانت المشكلة الرئيسية أنها الأقرب جغرافيا إلى الاتحاد السوفيتي .. وكانت خطة مارشال تهدف إلى تفادي كافة أشكال الفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في أوروبا .. وهو ما يساعد على احتواء الشيوعية التي قد تحاول النهوض على أنقاض ماض قريب لم ينجح في تجنب الحروب معتمدا على قوالب سياسية أخرى .. ولم يكن الخوف من التدخل العسكري السوفيتي المباشر في أوروبا ، بقدر ما كان التخوف من نجاح الأحزاب الشيوعية المحلية في بعض الدول الأوروبية ، والذي كان سيؤدي إلى نفس النتيجة المرفوضة من أمريكا .. ومن هنا جاءت الحاجة إلى إنشاء منظمة معاهدة شمال الأطلنطي North Atlantic Treaty Organization والتي نختصرها إلى حلف الناتو .. كان الاحتياج أمريكيا أكثر منه أوروبيا ، فالناتو عمل على توحيد أوروبا الغربية في مدار أمريكي ، فلم يعد من الجائز في ظل الحلف السماح لأوروبا بالتحرك بعيدا عن نطاق السياسة الأمريكية .. وقد شارك في إقامته عام 1949 كل من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وفرنسا

وإيطاليا والبرتغال وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورج والدانمرك وأيسلندا والنرويج .. ثم انضمت إليه تركيا واليونان عام 1952 ، ثم ألمانيا الغربية عام 1955 ، ثم إسبانيا عام 1982 .. وكان الحلف يركز بالأساس على الدفاع المشترك ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية الدولية ، كما تناولت بنوده التعاون الاقتصادي والسياسي بين أعضائه ..

وردا على ذلك جاءت نشأة حلف وارسو Warsaw Pact كمقابل للناتو عام 1955 ، واشترك في تأسيسه الاتحاد السوفيتي وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر وبلجاريا ..

ومن المفارقات الساخرة أن بولندا والمجر والتشيك قد انضمت إلى الناتو في مارس 1999 ، وأن كلا من رومانيا وبلجاريا وسلوفاكيا – وهي إذا تفضل القارئ بالنظر إلى أعلى بقية أعضاء حلف وارسو السابق – انضمت في مايو 2004 ، إضافة إلى أربعة جمهوريات من الاتحاد السوفيتي القديم وهي سلوفينيا وليتوانيا وإستونيا ولاتفيا لحقت بباقي الأعضاء في التاريخ نفسه .. ولا يبقى سوى انضمام روسيا حتى تكتمل المسخرة ، بل إن شيئا من ذلك قد حدث في 27 مايو 1997 بتوقيع اتفاق فخري بين روسيا وحلف الناتو بباريس !!..

* * *

ومن الأدلة المباشرة التي توضح الهدف الحقيقي من وجود الناتو هذه الواقعة التي تعود أحداثها إلى أوائل تسعينات القرن الماضي .. ففي عام 1992 تم تسريب مشروع سري للبنتاجون بخصوص توجهات التخطيط الدفاعي إلى الصحف .. كان من بين العبارات التي تضمنها التقرير السري ما يلي : " لا يجوز أن يوجد نظام أمن أوروبي مستقل ، بل يجب بقاء الناتو الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأداة الرئيسية للدفاع والأمن الأوروبيين ، والقناة التي تحمل نفوذ الولايات المتحدة ومشاركتها في شئون الأمن الأوروبي .... سنحافظ على مسئوليتنا المتميزة في التعامل منفردين مع كل ما يضر بمصالحنا ومصالح أصدقائنا وحلفائنا .... ستقرر الولايات المتحدة منفردة ما يضر ، ومتى يجب أن يتم إصلاحه " .. ورغم أن هذا التقرير نُشر بالصحف ورغم أن العديد من الدول قد أدانت ما جاء فيه ، إلا أن شيئا لم يتغير ، فالناتو لم يزل بعد وسيلة متطورة للسيطرة الأمريكية على شعوب أوروبا ..

وفي السطور التالية نستعرض بعض ما قامت به الولايات المتحدة في عدد من دول أوروبا لتحول دون وصول الشيوعية إلى السلطة ، لا بعد انتهاء الحرب فحسب ، بل حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ذاته !

* * *

اليونان كانت أولى التجارب الأمريكية في عام 1947 .. كانت اليونان أثناء الحرب العالمية الثانية واقعة تحت الاحتلال الإيطالي الألماني .. وقبيل انتهاء الحرب دخلت القوات البريطانية وفرضت نظام حكم فاسد لم يرض عنه اليونانيون .. بدأت مصادمات أهلية كان طرفاها الأساسيان كلا من الشيوعيين الذين قاتلوا النازيين أثناء الحرب وما اصطلح على تسميتهم الفاشيين الجدد الذين جاءت بهم بريطانيا إلى الحكم .. لم

تستطع بريطانيا الاستمرار في مساندة الحكومة التي جاءت بها بسبب التكاليف المادية وصعوبة استمرار تواجدها العسكري بعد حرب طويلة أنهكتها تماما ..

بدأ التدخل الأمريكي في عام 1947 ، وتزامن ذلك مع زيادة التنقيب عن البترول في الجزيرة العربية وإنشاء أول خط أنابيب من الخليج العربي إلى شرق البحر المتوسط ، مما أسفر عن تضاعف أهمية اليونان ، وحتمية عدم وجود حكومة شيوعية بها .. كان أول ما فعلته أمريكا هو إنشاء وكالة للأمن الداخلي دورها يتلخص في اعتقال رجال المقاومة وتعذيبهم ، وقد استغلت المخابرات الأمريكية في ذلك البقية الباقية من ضباط أجهزة الأمن النازية الذين أُلقي القبض عليهم عقب هزيمة ألمانيا واستفادوا من خبراتهم في مجال التعذيب .. ثم قامت أمريكا بدعم الحكومة الفاشية لشن حرب أهلية على اليسار ، ذهب ضحية الحرب 154 ألف شخص في عامين ، كما أودع 40 ألف آخرون في السجن وأُعدم ستة آلاف مواطن بموجب أحكام عسكرية .. وقد اعترف السفير الأمريكي الأسبق في اليونان **ماكسويج** فيما بعد أن جميع أعمال العنف التي قامت بها الحكومة العسكرية في اليونان في الفترة بين 1947 و 1949 كانت بتعليمات مباشرة من واشنطن .. أسفرت الحرب الأهلية عن انتصار الحكومة الفاشية واستمرار الدعم المادي الأمريكي ..

ثم جاءت انتخابات عام 1964 ، وكان الشعب قد بدأ يتحرر من شبح الحرب الأهلية وسيطرة القمع على مقدرات البلاد ، وراح يتطلع إلى تغيير .. جاء التغيير مع حزب الاتحاد المركزي بقيادة **جورج باباندريو** الذي حقق نصرا ساحقا في الانتخابات .. لكنه لم ينجح في الوفاء بوعود الإصلاح والتحديث كما ينبغي بسبب نشوب الأزمة القبرصية بين اليونان وتركيا .. وفي أبريل 1967 وقبل أيام من بدء حملة الانتخابات الجديدة التي كانت كل مؤشراتها تؤكد فوز **باباندريو** بمنصب رئيس الوزراء من جديد ، وقع انقلاب مضاد .. كان الانقلاب حصيلة تعاون الجيش اليوناني ووكالة المخابرات الأمريكية والقوات العسكرية الأمريكية المتمركزة في اليونان منذ أواخر الأربعينات ..

وفي أعقاب الانقلاب تم فرض قانون الطوارئ وزادت عمليات الاعتقال والقتل حتى بلغ عدد الضحايا بعد شهر واحد من الانقلاب نحو ثمانية آلاف قتيل .. وفي تبرير تقليدي لما جرى أُعلن أن الانقلاب كان من أجل إنقاذ البلاد من استيلاء الشيوعيين عليها ..

اللافت للنظر أن **جورج باباندريو** لم يكن شيوعيا أو متطرفا في أفكاره ، على العكس من ذلك كان معاديا للشيوعية .. لكن ابنه **أندرياس** – المرشح لقيادة الحزب من بعده – والذي أكمل تعليمه في الولايات المتحدة ، عاد رغم ذلك للانضمام إلى حزب والده ناشرا أفكار تميل إلى المذهب اليساري ، وكان دائم الحديث عن رغبته في الابتعاد باليونان عن الحرب الباردة وكثيرا ما تساءل عن جدوى البقاء في الناتو واستمرار التبعية للولايات المتحدة .. لهذا كان من المنطقي أن يتم إيداع **أندرياس باباندريو** في المعتقل مع بدء الانقلاب ، حيث ظل هناك ثمانية أشهر ..

وفي عام 1969 جاء إلى اليونان وزير العدل الأمريكي الأسبق **جيمس بيكيت** في مهمة تابعة لمنظمة العفو الدولية .. كتب **بيكيت** في تقريره أن القائمين بالتعذيب أخبروا السجناء أن معداتهم قد جاءت من خلال المعونة العسكرية الأمريكية .. كما كتب كذلك عن واقعة سجلها بنفسه ..

جالسا على مكتبه الذي يظهر عليه رمز المعونة الأمريكية المتمثل في اليد المصافحة ذات الألوان الأحمر والأبيض والأزرق ، ألقى المفتش **باسيل لامبرو** خطابا قصيرا أمام مئات من السجناء اليونانيين .. كان المفتش يحاول أن يبين للسجناء عدم جدوى المقاومة ، وكان مما قاله ما يلي : " لقد جعلتم من أنفسكم مدعاة للسخرية باعتقادكم أن في إمكانكم فعل شئ .. ينبغي أن تدركوا حقيقة أن العالم مقسم إلى قسمين : هناك الشيوعيون في جانب ، وهناك العالم الحر في الجانب الآخر .. هناك الروس وهناك الأمريكيون ، ولا أحد آخر .. فمن نحن ؟ نحن أمريكيون .. ومن ورائنا حكومة اليونان .. وخلف الحكومة الناتو .. وفوق الناتو هناك الولايات المتحدة .. ببساطة شديدة ، إنكم لا تستطيعون محاربتنا .. إننا الأمريكيون .. " ..

أما الرئيس الأمريكي ليندون جونسون فقد انفجر في وجه السفير اليوناني في واشنطن في منتصف الستينات قائلا : " اللعنة على برلمانكم وعلى دستوركم Fuck your parliament and your constitution[35] ، نحن ندفع الكثير من الدولارات لكم ، ولو أن رئيس وزرائكم حدثني مرة أخرى عن الديمقراطية أو البرلمان أو الدستور ، فإنه شخصيا ومعه البرلمان والدستور لن يعيشوا طويلا بعدها " .. ويبدو أن رئيس وزرائهم قد حدثه مرة أخرى !

* * *

أما ألبانيا – جارة اليونان من الغرب – فقد عانت من تدخل أمريكي محدود في عام 1949 بغرض الإطاحة بالحكومة الشيوعية وإقامة حكومة جديدة موالية للولايات المتحدة ، واستخدمت في ذلك مقاتلي حرب العصابات المهاجرين إلى ألبانيا ..

ثم عادت مرة أخرى بعد أكثر من نصف قرن لتتدخل بشكل واسع النطاق .. فرغم بدء انهيار الاتحاد السوفيتي ، نجحت حكومة ألبانية شيوعية في الفوز في انتخابات مارس 1991 بأغلبية كبيرة ، وفور إعلان النتيجة اندلعت مظاهرات في الشوارع وبدأ إضراب عام .. أدى تصاعد الأحداث إلى فقدان سيطرة الحكومة على البلاد ، فانهارت في شهر يونيو من نفس العام ..

طوال هذه الفترة كان هناك دعم مادي أمريكي للحركات العمالية المضربة عن طريق ما يسمى بـ " الوقف الوطني من أجل الديمقراطية " .. وقد أنشئت هذه المؤسسة الأمريكية في عام 1983 بعد ظهور مخالفات واضحة لوكالة المخابرات المركزية في السبعينات ، خاصة ما يتعلق بفضيحة ووتر جيت .. وطُرحت فكرة تحويل العديد من الأمور المشينة التي كانت تقوم بها أجهزة المخابرات إلى اختصاصات منظمة جديدة اسمها له رنين محبب للسامعين ، وبذلك يمكن لهذه المنظمة أن تفعل علنا ما ظلت المخابرات الأمريكية

[35] كتبتها بالإنجليزية لأن الترجمة كما تلاحظ غير دقيقة ! ..

تقوم به سرا طوال سنوات مضت .. أكثر من ذلك نجحت المخابرات في غسل أموالها من خلال " الوقف الوطني من أجل الديمقراطية " الذي يقوم نشاطه المعلن على " دعم المؤسسات الديمقراطية في كل أرجاء العالم من خلال الجهود الخاصة غير الحكومية " ..

أجريت انتخابات جديدة في مارس 1992 .. خلال الحملة الانتخابية كان الدبلوماسيون الأمريكيون – وعلى رأسهم السفير الأمريكي في العاصمة الألبانية تيرانا – يصحبون صراحة مرشحي الحزب الديمقراطي (المعارض الرئيسي للحزب الشيوعي) في جولاتهم الانتخابية ، وكانوا يعلنون في أكثر من موقف وبشكل صريح تماما بأنه إذا ما فاز الشيوعيون مرة أخرى فلن تكون هناك معونات أمريكية ، كما هددوا بأن قدرا كبيرا من الاستثمارات الغربية سوف تتحول بعيدا ، وأن الحكومات الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة سوف تسحب المعونات الاقتصادية إلى دول أخرى ..

وفاز الحزب الديمقراطي بمنتهى الديمقراطية ! ..

* * *

ثم هناك ما فعلته الولايات المتحدة مع بلجاريا – جارة اليونان الأخرى من الشرق – ..

تقريبا نفس ما فعلته بألبانيا ..

ففي عام 1990 تدخلت مؤسسة " الوقف الوطني من أجل الديمقراطية " – السابق الإشارة إليها – في الانتخابات البلجارية ، فقدمت 1.5 مليون دولار في محاولة لإلحاق الهزيمة بالحزب الاشتراكي البلجاري (الحزب الشيوعي سابقا) وكان أكبر المستفيدين من أموال المؤسسة الأمريكية هو حزب المعارضة الرئيسي وهو حزب اتحاد القوى الديمقراطية الذي حصل على 517 ألف دولار ، بالإضافة إلى حصول صحيفته على 233 ألف دولار .. وكما يوضح الكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** ، فإن ذلك المبلغ الأمريكي (1.5 مليون دولار) – على أساس عدد السكان – يعادل قيام دولة أجنبية بضخ 38 مليون دولار في حملة انتخابية أمريكية .. ورغم التأييد المادي والإعلامي ، إلا أن الحزب الاشتراكي البلجاري فاز .. ومرة أخرى عاد " الوقف الوطني " لتقديم مساعدات مادية لمجموعة منتقاة من المعارضة لإثارة حملة لنشر الفوضى .. نجحت مساعيها ، وعمت الفوضى نحو خمسة أشهر ما بين المظاهرات والإضرابات العمالية والاعتصام وحرق المباني وافتعال المشاجرات في الشوارع .. وفي النهاية تم حصار البرلمان والحكومة حتى تخلى رئيس الوزراء عن منصبه واضطر الرئيس إلى الاستقالة ..

وفي عام 1991 أجريت انتخابات جديدة ، وقام " الوقف الوطني " بتقديم مئات الألوف من الدولارات من جديد وفي هذه المرة انتصر من وصفتهم الولايات المتحدة بـ " القوى الديمقراطية " ..

لقد كانت الولايات المتحدة تعمل على إنجاح الديمقراطية بكل الطرق الدكتاتورية الممكنة !

* * *

ولم يقتصر التدخل الأمريكي على دول شرق أوروبا المعرضة أكثر من غيرها للإصابة بفيروس الشيوعية.

* * *

على خلاف عدد غير قليل من الفرنسيين الذين تعاونوا مع الألمان ، خاض أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي القتال ضد الألمان ولم يكفوا عن المقاومة طوال الاحتلال النازي لفرنسا والذي بدأ في يونيو 1940 .. وعقب الحرب بدأ الشيوعيون في تكوين نقابات عمالية وتطلعوا إلى السلطة .. لكن أمريكا لم تكن لتسمح بمثل ذلك ، خاصة وأن بعض تلك النقابات كانت تتخذ خطوات لوقف تدفق الأسلحة للقوات الفرنسية التي كانت تسعى لاستعادة مستعمرتها السابقة في فيتنام بمعاونة الولايات المتحدة ..[36] فخصصت الولايات المتحدة مبالغ كبيرة جدا للحزب الاشتراكي المنافس الرئيسي للحزب الشيوعي ، وأرسلت خبراء من اتحاد العمال الأمريكي لتقويض سيطرة نقابات الحزب الشيوعي ، واستوردت محطمي الإضرابات من إيطاليا ، وقدمت الأموال والأسلحة لعصابات جزيرة كورسيكا الفرنسية لحرق مكاتب الحزب وقتل بعض أعضائه .. كما أرسلت فريق حرب نفسية للإشراف على كل ذلك .. وقبل كل ذلك هددت بقطع المعونات ، فكانت تجبر الحكومة الفرنسية على إقالة وزرائها الشيوعيين حتى تحصل على المعونة الاقتصادية الأمريكية .. وعن ذلك كان رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق **بول رامادييه** يقول : " مع كل قرض كنا نحصل عليه ، كنا نفقد جزءا من استقلالنا " ..

أكثر من ذلك ، امتد التدخل الأمريكي في فرنسا إلى شئون المستعمرات الفرنسية ..

فقد ساندت المخابرات الأمريكية انقلابا عسكريا فرنسيا في الجزائر لمنع استقلال الجزائر ، وذلك لمواجهة اتجاه الرئيس الفرنسي **شارل ديجول** لمنحها الاستقلال .. فقد كانت الولايات المتحدة تشعر بالقلق من أن تقوم في الجزائر المستقلة حكومة شيوعية ، كما كانت واشنطن تأمل في أن يؤدي هذا الانقلاب إلى سقوط **ديجول** الذي كان يمثل عقبة واضحة أمام خطط الولايات المتحدة للهيمنة على الناتو ..

أما السبب وراء اعتبار **ديجول** عقبة أمام الولايات المتحدة فيعود إلى بعض ما في سيرته الذاتية مما لا ترضى عنه أمريكا ..

كان **شارل ديجول** (1890 – 1970) عضوا في الحكومة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية .. عارض الهدنة مع الألمان عند احتلال فرنسا .. صار قائدا لـ " حركة فرنسا الحرة " التي تم تأسيسها في لندن ، ورئيسا للجنة تحرير فرنسا التي أسست في الجزائر .. بعد تحرير فرنسا عام 1944 ترأس الحكومة الانتقالية في عامي 1945 و 1946 .. أصبح رئيسا للجمهورية في عام 1959 وفتح الطريق أمام استقلال الجزائر .. عمل على بناء أوروبا مستقلة عن الولايات المتحدة .. رفض توقيع اتفاقية حظر التجارب على الأسلحة الذرية في عام 1963 مصرا على بناء قوة نووية فرنسية .. انسحب من الجناح العسكري للناتو عام 1966 .. ضعف حكمه بعد الحركة الشعبية المعارضة عام 1968 .. اضطر للاستقالة عام 1969 بعد خسارته استفتاء شعبيا ..

---

[36] انظر الفصل الخاص بفيتنام

وبعد ذلك بسنوات قليلة ظهرت أدلة ترجح أن وكالة المخابرات الأمريكية كانت متورطة في مؤامرة تم إحباطها لاغتيال الرئيس الفرنسي ..

ويتضح من موقف أمريكا من فرنسا أثناء الحقبة الديجولية أن المحرك الرئيسي للسياسة الأمريكية لم يكن محاربة الشيوعية الدولية بقدر ما هو محاربة كل من يقف في وجه السيطرة على الكرة الأرضية ..

قدمت فرنسا يد العون إلى أمريكا في حربها ضد الإنجليز لنيل الاستقلال ، حتى أنها قد عقدت معها حلفا رسميا في فبراير 1778 وأنزلت قوات فرنسية إلى الأراضي الأمريكية وتقدمت لمساندة الأمريكان لتحول دفة الحرب لصالحهم ..

وفي عام 1885 أهدت فرنسا الولايات المتحدة الأمريكية تمثال الحرية .. كان التمثال يحمل شعلة النار في يد ، و كتابا في اليد الأخرى ..

كان التمثال يرمز إلى الحرية والسلام .. وتقول المصادر التاريخية أن ذلك التمثال أخطأ طريقه إلى أمريكا ، وأنه كان يفترض أن يكون هدية فرنسية إلى مصر بمناسبة افتتاح قناة السويس ، ليتصدر مدخلها .. وعندما حدث ما أعاق قدومه إلى مصر ، تم إهدائه إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد اكتماله ..

وأيا كان الأمر ، فإذا كان التمثال قد ضل طريقه إلى أمريكا فقد وجد الأمريكان استخداما للشعلة والكتاب . فعلى مدار عشرات السنين أحرق الأمريكان كل معاني الحرية والسلام المدونة في ذلك الكتاب وكل الكتب الأخرى كذلك ..

* * *

وفي إيطاليا أيضا تدخلت الولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ..

ففي عام 1947 أجبرت أمريكا الحكومة الإيطالية على إقالة أعضاء الوزارة الشيوعيين للحصول على المعونة الاقتصادية الأمريكية بمقتضى مشروع مارشال .. ومنذ ذلك التاريخ والمخابرات الأمريكية تمول سرا مرشحي الحزب الديمقراطي المسيحي وذلك في كل مرة كان يقترب فيها الشيوعيون من السلطة ..

مثلا .. كان من المتوقع أن يفوز الحزب الشيوعي الإيطالي في انتخابات 1948 ، وذلك بدعم من العمال وبفضل المكانة الكبيرة التي حظي بها الشيوعيون بسبب دورهم البارز في النضال ضد الفاشية والاحتلال النازي ..[37]

خططت الولايات المتحدة لتدخل عسكري إذا لم تنجح في السيطرة على الانتخابات بوسائل أخرى .. كانت إحدى الأفكار المطروحة هي التقليل من السكان المسببين للفوضى عن طريق تشجيع الهجرة .. فتم استخدام جزء من أموال خطة مارشال لإعادة بناء البحرية التجارية الإيطالية لمضاعفة أعداد المهاجرين الإيطاليين الممكن نقلهم لما وراء البحار سنويا ..

---

[37] تم عزل **موسوليني** في عام 1943 من قبل المجلس الفاشي الأعلى ، لكن ألمانيا تدخلت عسكريا واحتلت إيطاليا معيدة **موسوليني** للسلطة ، وظل الألمان في إيطاليا حتى انتصر الحلفاء ..

كانت أوروبا تعاني مشاكل البطالة بعد الحرب ، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة في المزيد من المهاجرين الأجانب على أرضها ، لذا أقر الكونجرس مخططات تهدف إلى نقل المهاجرين من إيطاليا لأماكن أخرى في العالم غير الولايات المتحدة .. اختارت بعثة مشروع مارشال أمريكا الجنوبية ومولت استطلاعا خاصا بالهجرة لتحديد أراض بعينها لإقامة مستوطنات إيطالية في أمريكا الجنوبية ..

ثم قام الأمريكان بمساعدة المهاجرين الإيطاليين على استصلاح تلك الأراضي الجديدة ، وكانت البرازيل من أوائل المتلقين لهذه المساعدات في عام 1950 .. وهكذا تم تصدير الشيوعيين وغيرهم من مثيري القلق إلى أمريكا الجنوبية تحت أعين الولايات المتحدة ..

* * *

ولن نجد أفضل من ذلك التعليق القديم في صحيفة النيوزويك الأمريكية لعام 1963 ، كي نلخص به ما ارتكبته أمريكا في حق تلك الدول الخمس في الجنوب الأوروبي :

" لقد تم إنقاذ الديمقراطية من الشيوعية عن طريق التخلص من الديمقراطية نفسها ! " ..

(25)
روسيا : حرب باردة جدا !

خدعونا فقالوا ..

أن الروس كانوا القوة العظمى المنافسة للولايات المتحدة في عالم متوازن ..

والحقيقة أن الصراع كان أشبه بمزاد على كرسي العرش لزعامة الكرة الأرضية ، تمادى الأمريكان في إعلاء سعره حتى تورط الروس وأعلنوا الانسحاب ..

كانت روسيا كمن ينتظر قطار الزعامة على القضبان ، فدهسها بلا رحمة ، ثم توقف في المحطة لتركب أمريكا بمنتهى الهدوء .. وتنطلق صفارة القطار معلنة النظام العالمي الجديد ..

* * *

والعلاقة الأمريكية الروسية يمكن أن نستهل الكتابة عنها بقصة مثيرة للسرد ..

فقد لا ينتبه الكثيرون إلى أن روسيا التي كانت تمثل في يوم ما زعامة الكتلة الشرقية وأمريكا زعيمة العالم الغربي ، هما في حقيقة الأمر جاران لا يفصل بينهما سوى مضيق بحري ضيق ، مضيق بيرنج Bering .. [38] بل إنه في عصر سحيق مضى يتراوح بين 13 ألف و 40 ألف سنة لم يكن هناك ما يفصل بين شمال شرق أسيا المتمثل في الصحراء الروسية الجليدية وأقصى الشمال الغربي لقارة أمريكا الشمالية المتمثل في منطقة ألاسكا .. لم يكن هناك سوى الجليد ..

لكن قصتنا المثيرة تقول أكثر من ذلك ..

إن منطقة ألاسكا – وهي الولاية رقم 49 للولايات المتحدة الأمريكية – كانت حتى عام 1867 جزءا من القيصرية الروسية .. فكيف انتقلت ؟ وكيف كان ذلك واحدا من أكبر المقالب الذي شربته روسيا ؟[39]

في عام 1725 كلف القيصر الروسي **بطرس الأكبر** بحارا دانمركيا يعمل في البحرية الروسية يُدعى **فيتوس بيرنج** باستكشاف الساحل الشمالي الغربي لمنطقة ألاسكا التي تعتبر امتدادا طبيعيا لسيبيريا .. وفي عام 1728 أبحر **بيرنج** عبر البحر الذي سُمي باسمه فيما بعد ..

منذ ذلك التاريخ تتبع منطقة ألاسكا للقيصرية الروسية .. ثم سميت ألاسكا باسم أمريكا الروسية ، كما أنشئت شركة روسية تحمل نفس هذا الاسم ، وكانت تسيطر على كل شئ في ألاسكا وفي مقدمة ذلك أعمال الصيد .. ظل الوضع في ألاسكا على ما هو عليه حتى انتصف القرن التاسع عشر .. وعند نشوب حرب القرم[40] في عام 1854 شعر الروس أنه من غير المفيد الاهتمام بمنطقة مثل ألاسكا ليست ذات جدوى

---

[38] المسافة بين الشاطئ الأمريكي والشاطئ الروسي في أضيق نقاطه لا تتعدى تسعين كيلومترا ! ..

[39] من الإنصاف أن نشير إلى أن ذلك المقلب لم تدبره أمريكا عن قصد ، وإنما جاء نتيجة لصدفة غاية في القسوة ..

[40] حرب روسية عثمانية شاركت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية ، وكان الصراع على شبه جزيرة القرم في شمال البحر الأسود ، حيث كان يسيطر العثمانيون آنذاك على أجزاء من جنوب شرق أوروبا ..

اقتصادية كبيرة ، ثم إنها نائية ويصعب حمايتها .. وبدأت مفاوضات بين روسيا وأمريكا لبيع ألاسكا في عام 1859 ، توقفت في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (1861 – 1863) .. وفي مارس 1867 تمت الصفقة ، ودفعت الولايات المتحدة 7.2 مليون دولار أي ما يعادل حوالي سنتين من الدولار لكل فدان .. وأصبحت ألاسكا مستعمرة أمريكية ..

سؤال : هل كان هناك في هذه الصفقة أية خدعة أمريكية .. هل كان ثمن الصفقة عادلا .. هل كان هناك من يعلم أن قيمة ألاسكا ستتضاعف بعد إتمام عملية البيع بسنوات قليلة ؟ .. مبدئيا .. فيما يتعلق بسعر البيع نستطيع أن نقارنه بأقرانه ..

فقبل أن تغتصب أمريكا ولاية كاليفورنيا بالقوة كانت قد عرضت شراءها من المكسيك في عام 1845 بمبلغ 25 مليون دولار[41] .. كما أنها اشترت بالفعل ولاية لويزيانا عام 1803 من فرنسا بمبلغ 15 مليون دولار ، بعد أن وجد **نابليون** نفسه في حاجة إلى تخصيص قواه كلها لمحاربة البريطانيين في أوروبا .. وإذا أخذنا في الاعتبار أن مساحة ألاسكا 1.7 مليون كم مربع ، و مساحة كاليفورنيا 424 ألف كم مربع ، ومساحة لويزيانا 134 ألفا .. أي أن مساحة ألاسكا أكثر من ثلاثة أمثال مساحة ولايتي كاليفورنيا ولويزيانا معا .. وإذا لم نغفل كذلك الفارق الزمني بين عملية شراء الثلاث ولايات ، حيث بيعت ألاسكا بعد عرض شراء كاليفورنيا بـ 22 سنة وبعد لويزيانا بـ 64 سنة .. فإننا قد نستنتج أن في الصفقة غُبنا واضحا .. مع ذلك فإنه لا يمكن تجاهل الفارق بين جودة الأراضي .. فولاية كاليفورنيا مثلا كانت تشتهر بزراعة القطن ، فضلا عن الذهب المكتشف بها آنذاك .. على عكس ولاية ألاسكا التي لم يكن بها وقت شرائها ما يؤهلها للمقارنة .

وأكبر دليل على أن هذه الصفقة لم يكن فيها أي ظلم لروسيا وقت إبرامها ، هو رد فعل الأمريكان أنفسهم .. فلم يرض الشعب الأمريكي عن شراء ألاسكا حتى أنهم وصفوا وزير الخارجية الأمريكي **ويليام سيوارد** صاحب فكرة الشراء بالحماقة ، وأطلقوا على الصفقة اسم " غباء **سيوارد** ، Seward's Folly " .. فالسعر في نظرهم مبالغ فيه تماما لأن الأرض جرداء لا قيمة لها ، ثم إنها مغطاة بالثلوج .. وقد وصلت سخرية الأمريكان من **سيوارد** إلى حد أن أحد محرري صحيفة بنيويورك اقترح قائلا : " على أية مملكة أوروبية تعاني من ضائقة مالية وتبغي التخلص من مستعمراتها عديمة القيمة أن تأتي إلى **سيوارد** في واشنطن " .. لكن **سيوارد** كان يبدو لسبب ما واثقا من موقفه ، حتى أنه أعلن في خطبة في أغسطس 1868 أنه ليس لديه أدنى شك في مستقبل ألاسكا ..

كل ما يمكن قوله أنه في عام 1832 تم اكتشاف الذهب لأول مرة وبكميات محدودة في وادي أحد الأنهار بألاسكا ، وفي عام 1853 عثر بعض المستكشفين الروس على تسرُّب بترولي ضئيل من باطن الأرض عند مدخل أحد الخلجان الصغيرة ..

هل اعتمد **سيوارد** على هذه المعلومات ؟ .. لم يثبت مثل ذلك أبدا ..

---

[41] راجع فصل المكسيك

المهم .. تسلمت أمريكا ألاسكا من روسيا في عام 1867 ، ومنذ عام 1870 وعلى امتداد أربعين سنة ، لم يكن يمضي أكثر من عام واحد إلا ويتم اكتشاف منجم ذهب جديد .. وبدأت أهمية ألاسكا تتضاعف مع الوقت ، وأقبل آلاف المغامرين على ألاسكا بحثا عن المزيد من الذهب .. لكن مع حلول الحرب العالمية الأولى كانت مناجم الذهب قد بدأت تنضب .. ومع انتهاء الحرب الثانية لم يكن هناك أي أثر يُذكر للذهب .. عموما .. ليس كل ما سبق هو سبب وصفي لهذه القصة بأنها أكبر مقلب شربته روسيا عبر تاريخ صراعها مع أمريكا ..

بل تعود أهمية ألاسكا القصوى إلى البترول ..

فحتى عام 1944 لم تكن هناك اكتشافات بترولية ذات شأن في ألاسكا .. ثم بدأت الاكتشافات تتوالى خاصة مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وبدء الحرب الباردة التي أدت إلى تزايد الاهتمام بمستعمرة ألاسكا بشكل عام ، نظرا لحدودها القريبة من الغريم الروسي .. وفي الخمسينات شعرت الولايات المتحدة بالقلق حيال محاولات تأميم البترول في إيران ، إلى جانب تأميم قناة السويس .. وهو ما كان يمكن أن ينعكس على مصالح البترول الأمريكية في الشرق الأوسط .. أسفرت هذه العوامل المختلفة عن التصويت لصالح تحويل ألاسكا إلى الولاية الأمريكية رقم 49 في الثالث من يناير عام 1959 .. وبدون الدخول في تفاصيل تطور الكشف عن حقول البترول في ألاسكا ، يمكن أن نجمل حجم المأساة الروسية في بعض بيانات التقرير السنوي لعام 2001 الخاص باحتياطي البترول الأمريكي والذي تصدره الإدارة الأمريكية للمعلومات المتعلقة بالطاقة Energy information Administration ..

ففي عام 2001 أنتجت حقول ألاسكا 19 % من إجمالي البترول الأمريكي ، محتلة بذلك المركز الثالث بعد منطقة خليج المكسيك وولاية تكساس اللتين أنتجتا 24 % و 20 % على التوالي .. كما أن الاحتياطي المؤكد في ولاية ألاسكا يمثل 21.6 % من احتياطي البترول الأمريكي ، أي حوالي 4.9 مليار برميل ، وتحتل بذلك المركز الثاني بعد تكساس (22 %) .. أكثر من ذلك تمتلك ولاية ألاسكا أكبر حقل بترول مسجل في الولايات المتحدة كلها ، إضافة إلى وجود 14 حقل بترول في ألاسكا ضمن قائمة أكبر مائة حقل في أمريكا ..

الخلاصة .. أصبحت ألاسكا بعد أكثر من قرن من شرائها واحدة من أهم الولايات الأمريكية ، وما زالت إلى يومنا هذا تحتل أحد المراكز الأولى في حجم الاكتشافات البترولية السنوية الجديدة ..

* * *

كانت هذه القصة الجديرة بالمعرفة – من وجهة نظري – هي أول احتكاك مباشر بين الروس والأمريكان . لكنها كانت مجرد البداية ..

وإذا كان الروس قد عبروا بحر بيرنج في عام 1725 في رحلة استكشافية إلى ألاسكا ، فإن الأمريكان قد عبروه بالعكس بعد نحو قرنين من الزمن .. ولكن لأسباب أكثر وجاهة ..

ولتوضيح ما فعلته أمريكا ، أرى من المناسب الاستعانة بفقرة من كتاب الدولة المارقة لـ **ويليام بلوم** : " من عام 1918 إلى عام 1920 ، كان للولايات المتحدة دور كبير في غزو الغرب للاتحاد السوفيتي الوليد .. وهو غزو حاول أن " يخنق في المهد " كما قال **تشرشل** الثورة الروسية التي حرمت الاستثمار الرأسمالي الخاص من سُدس مساحة الأرض في العالم .. وتم تدمير بلد كان لا يزال يتعافى من حرب عالمية مريعة ، ويعيش في أقصى حالة فوضى ناجمة عن ثورة اجتماعية أساسية ، وعلى شفا مجاعة تذهب بأرواح ملايين عديدة ، بلا رحمة على أيدي الغزاة ، دون أن يقوم بأي استفزاز لهم .. وعندما انقشع الدخان ، وضعت هيئة أركان الجيش الأمريكي تقريرا عن المهمة يقول : " إن هذه الحملة تقدم مثلا من أروع الأمثلة في التاريخ عن التصرفات المشرفة الإيثارية .. لمساعدة شعب يجاهد لتحقيق حرية جديدة " ..

وقد علق الكاتب **جاري ويلز** على هذه النزعة الأمريكية لعمل الخير تجاه الأجانب بقوله : " إننا نعتقد أننا نستطيع حرفيا قتلهم بـ " حنيّة " ، وأن نحرك مدافعنا للأمام في نوبة من الإحسان المعتوه .. وعندما تكون الولايات المتحدة في مزاجها الأكثر إيثارا للغير ، يصبح من الأفضل للدول الأخرى أن تلجأ إلى غرفها المحصنة تحت الأرض " .. " ..

والذي تحدث عنه **بلوم** هو ببساطة محاولة أمريكية لوأد الشيوعية قبل أن تظهر لها أنياب .. فعندما اندلعت الثورة البلشفية في نوفمبر 1917 ، قامت الولايات المتحدة بإرسال قوات بحرية وبرية ومظليين إلى شرقي روسيا بدءا من يونيو 1918 بدعوى حماية القنصلية الأمريكية في روسيا .. كانت هذه الحملة العسكرية مسنودة بدرجة ما من القيصرية المخلوعة ومن العناصر المعادية للشيوعية في روسيا ، وكانت مشكّلة من قوات متحالفة من عدة دول على رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والتشيك .. وظلت هذه الإنزالات البحرية بالآلاف مستمرة حتى عام 1922 ، لكنها لم تنجح في القضاء على الثورة الجديدة ..

ومنذ ذلك التاريخ بدأ العداء الشديد للشيوعية التي لم تكن في الأصل سوى مذهب سياسي واقتصادي لإدارة شئون المجتمع .. وتشهد الأحداث التاريخية أن روسيا لم تكن أبدا البادئة بالعدوان ..

على الأقل هذا ما تؤكده الإنزالات البحرية لقوات المارينز الأمريكية على الأراضي الروسية ، والتي أسقطها التاريخ سهوا أو عمدا ..

* * *

المرحلة الثالثة من الاحتكاك – بعد مرحلة شراء ألاسكا ، ثم محاولة القضاء على الثورة الشيوعية – جاءت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التي تعاونت فيها الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتي للقضاء على النازية فيما يشبه بسنوات من الهدنة المؤقتة قبل استئناف الصراع ..

وهذه المرحلة الثالثة هي ما تعرف باسم الحرب الباردة ، وتعود هذه التسمية إلى شهر أبريل 1948 ، عندما وصف رجل المال والسياسة الأمريكي **بيرنارد باروخ** علاقة العداء بين الولايات المتحدة والاتحاد

السوفيتي بأنها " حرب باردة " وهو مصطلح سرعان ما انتشر بين وسائل الإعلام المختلفة .. ويمكن توضيح بوادر تلك المرحلة التاريخية من خلال هذه العبارة :

" عما قريب سيتم وضع الروس في المكان المناسب وعندئذ تأخذ الولايات المتحدة على عاتقها قيادة حركة العالم في ذلك الطريق الذي يجب أن نسير فيه " .. الرئيس الأمريكي **هاري ترومان** فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ..

أما **بول نيتز** رئيس جهاز التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية عام 1950 ، فكتب في أحد التقارير يقول : " تمتلك الولايات المتحدة قوة كونية ، لهذا سيكون من الضروري أن نحدد لنا عدوا كونيا ، وعلينا أن نضفي على هذا العدو كل صفات الشيطان ، بحيث يصبح كل تدخل أو عدوان للولايات المتحدة له ما يبرره بشكل مسبق ، وكأنه عمل دفاعي تجاه خطر يشمل الكرة الأرضية كلها "..

لكن لماذا كان من الضروري البحث عن عدو كوني ؟ ..

لم يخبرنا **نيتز** ، لكن أحداث القرن الماضي تخبرنا ..

فلولا وجود هذا العدو الجبار لما كانت هناك الذريعة المناسبة للولايات المتحدة لارتكاب معظم ما نسرده هنا في هذا الكتاب .. إن الولايات المتحدة كانت تهدف دوما إلى السيطرة على الكرة الأرضية ، ولم يكن سيتجاوب معها أحد إلا إذا كان هناك مبرر قوي لوجود قوات لها في جميع أركان الأرض .. ويمكن استيعاب هذا المعنى أكثر من خلال عبارة أخرى للكاتب الأمريكي **ناعوم تشومسكي** ، نفهم منها أن الإدارات الأمريكية عملت على المبالغة في حجم الخطر السوفيتي الشيوعي ، لأنه كان العدو الوحيد المناسب في ذلك الوقت ..

يقول **تشومسكي** : " خلال الحقبة السوفيتية كلها بُذلت جهود كبرى لإظهار الاتحاد السوفيتي أكبر مما هو عليه في الواقع ، ولإظهار أنه على وشك الهيمنة علينا .. وسَعَت أهم وثائق الحرب الباردة ، وهي قرار مجلس الأمن القومي رقم 68 في أبريل 1950 ، لإخفاء الضعف السوفيتي الذي كان مكشوفا أمام التحليل بشكل لا لبس فيه .. وذلك بغرض تسويق صورة " دولة العبيد " الساعية وراء " هدفها الذي لا يتبدل " في تحقيق سلطة مطلقة على الأرض ، دون أن يقف في وجهها إلا الولايات المتحدة بنبلها وكمالها اللذين فاقا الخيال " ..

وكانت مقدمة تلك الوثيقة الخطيرة تقول بالنص : " إن الهدف الاستراتيجي لسياسة الولايات المتحدة يتحدد في تدمير الاتحاد السوفيتي ، وتحقيق تفوق عسكري أمريكي كامل عليه " ..

تحركت الولايات المتحدة سريعا .. ومنذ منتصف الأربعينات وحتى أواخر الستينات ، سربت أمريكا مئات المهاجرين الروس إلى الاتحاد السوفيتي لجمع المعلومات عن المنشآت العسكرية والتكنولوجية والقيام بالاغتيالات ، ومساعدة عملاء الغرب على الهرب ، والمشاركة في عمليات التخريب مثل إخراج القطارات عن القضبان وإتلاف الكباري ، والقيام بعمليات ضد مصانع السلاح ومحطات القوى .. كما كانت هناك

حملة دعائية هائلة معادية للسوفيت نظمتها المخابرات الأمريكية ، وكشف عنها النشر لما يزيد على ألف كتاب باللغة الإنجليزية لعدد من المؤلفين المشهورين تم توزيعها في كل أنحاء العالم ، وكذلك مئات أخرى من الكتب نشرت باللغات الأجنبية ..

سؤال : هل فعل الروس بالأمريكان مثل ذلك ؟ ..

قطعا كانت لهم أنشطة مشابهة من خلال جهاز الكي جي بي .. لكن المؤكد أن جرائمهم في أفلام هوليود كانت أكثر بكثير ..

والمؤكد كذلك أن الصراع لم يكن في أية مرحلة من مراحله متكافئا ..

مثلا ..

لم يكن في إمكان الاتحاد السوفيتي أن يرسل طائراته تحلق فوق سماء الولايات المتحدة في مهام استطلاع مثلما كانت تفعل أمريكا ..

كانت طائرات التجسس الأمريكية الجديدة من طراز يو 2 التي تحلق على ارتفاع عال لا تطوله الدفاعات السوفيتية تقوم بمهام استطلاع في العمق الشرقي للاتحاد السوفيتي ، وتلك هي المناطق التي اختارها السوفيت للمنشآت العسكرية النووية والفضائية .. فقد أراد السوفيت إبعاد هذه المنشآت إلى أقصى ما يمكن عن أوروبا الغربية حتى لا يطولها التجسس الأمريكي .. ومن بيشاور شمال باكستان وعبر أفغانستان ظلت الولايات المتحدة تراقب هذه المواقع الحساسة سنوات عديدة ..

وفي منتصف عام 1960 حدث أن تمكن صاروخ روسي من إسقاط إحدى تلك الطائرات الأمريكية وأسر قائدها .. تكتم السوفيت هذا الأمر ، حتى فوجئ **أيزنهاور** في باريس وأثناء افتتاح أحد المؤتمرات بـ **نيكيتا خروشوف** يصرخ في وجهه ويقذف أمامه على المائدة بصور قائد طائرة التجسس الكولونيل **فرانسيس باور** ملقى على الأرض ثم ممددا على سرير مستشفى ثم جالسا أمام صحفيين عسكريين .. ولم يدعه **خروشوف** يفيق من ذهوله ، فعاجل **أيزنهاور** بوصفه – على مسمع من الرئيس الفرنسي **شارل ديجول** ورئيس الوزراء البريطاني **هارولد ماكميلان** – بأنه كذاب ومنافق ..

ورغم هذا الموقف ، فقد كانت هناك دعوة من **خروشوف** في العام التالي مباشرة للقيام بإجراءات متبادلة فيما يتعلق بتخفيض الأسلحة .. وكان الاتحاد السوفيتي قد بادر من جانب واحد فيما بين عامي 1961 و1963 بتخفيض واضح في الأسلحة وفي القوات المسلحة السوفيتية .. ولم تستجب الولايات المتحدة لهذه الدعوة .. ولم يكن لهذه الدعوة سوى معنى واحد فقط لا غير ..

كان الاتحاد السوفيتي يعاني ماديا بشكل لا يسمح له بالتمادي في التسليح إلا لو جاء ذلك على حساب الانهيار الاقتصادي للأحوال المعيشية للشعب السوفيتي ، وقد كان هناك مثل سوفيتي يقول : " يتظاهر الحكام بأنهم يدفعون أجورا لنا ، ونتظاهر نحن بأننا نعمل ! " ..

ومنذ أواخر الخمسينات ولمدة ثلاثين عاما استغلت الولايات المتحدة هذه الحقيقة بشكل بارع جدا ..

كان التنافس على أشده بين الطرفين في سباق التسليح النووي وفي غزو الفضاء ، وكان نجاح الروس عام 1957 في إرسال **يوري جاجارين** كأول رائد فضاء قد أثار حماس الأمريكان الذين هبطوا بعد ذلك في عام 1969 على سطح القمر ..

استمر هذا النوع من الصراع حتى وصل إلى الذروة في حرب الكواكب التي تخيلتها إدارة **ريجان** .. فقد كان **ريجان** هو صاحب مبادرة الدفاع الاستراتيجي المعروفة باسم حرب النجوم .. وقد كانت حرب النجوم هذه هي نقل لمستوى التسليح من الردع النووي على الأرض إلى شبكات دفاع فضائية وهو ما كلف مبالغ خيالية دفعتها الولايات المتحدة برحابة صدر ..

ومع التزايد الرهيب في التسليح الأمريكي في بداية الثمانينات ، قرر الاتحاد السوفيتي بأنه " لن يسمح بخرق التوازن القائم وسيتخذ الإجراءات المناسبة " .. كان هذا التصريح للاستهلاك المحلي ، فالتوازن القائم كان مجرد أكذوبة ، تحرص أمريكا على ترويجها وتحرص روسيا على تصديقها ..

وعندما جاء **جورباتشوف** إلى الحكم في 1985 ، حاول التخفيف من حدة المواجهة ، فقام من جانب واحد بتخفيض قواته العسكرية ، واقترح حظر التجارب النووية وإلغاء الأحلاف العسكرية ، وإخلاء البحر المتوسط من الأساطيل البحرية .. وكان مصير مقترحات **جورباتشوف** تماما مثل مصير دعوة **خروشوف** .. فقد تجاهل الجانب الأمريكي كل ما قاله **جورباتشوف** ..

وقد تميزت فترة الثمانينات بتصاعد كراهية الروس بشكل غير مسبوق ..

ففي مارس 1983 كان **ريجان** يخطب في الجمعية الوطنية الإنجيلية في أورلاندو بولاية فلوريدا ، فأعلن أن الاتحاد السوفيتي هو "مركز الشر في العالم المعاصر" وأنه "الإمبراطورية سيئة النية"، خلافا للولايات المتحدة التي وفقا لكلماته "أمرها الكتاب المقدس والسيد المسيح بأن تقاتل بكل قواها ضد الشر في العالم " ! .. وفي نفس تلك الفترة التاريخية أعلنت إدارة **ريجان** أن الروس يقومون برش كيماويات سامة على لاوس وكمبوديا وأفغانستان – ما يسمى بالمطر الأصفر – وأنهم تسببوا في موت أكثر من عشرة آلاف في عام 1982 وحده .. وكانت معلومات واشنطن محددة لدرجة أنها ذكرت أن 3042 شخصا ماتوا في أفغانستان في 47 حادثا متفرقا خلال الفترة ما بين صيف عام 1979 وصيف عام 1981 .. وقد أدان الرئيس **ريجان** هذه الجرائم أكثر من 15 مرة في وثائق وخطب مختلفة .. وقد تبين فيما بعد أن " المطر الأصفر " كان غائطا محملا بحبوب اللقاح ألقت به أسراب من نحل العسل تحلق عاليا في السماء ! ..

* * *

أما أهم وآخر مراحل الاحتكاك ، فكانت من خلال الحرب الروسية الأفغانية 1979 – 1989 ، والدور الأمريكي في إشعالها ..

لقد أدى التزامن بين تلك الحرب وبين التمادي المروع في سباق التسليح الإجباري النووي والفضائي إلى الانهيار المباغت للشيوعية الروسية .. مات الاتحاد السوفيتي بالسكتة الدماغية المفاجئة ، ولم يكن هناك مَن يتوقع هذه النهاية السريعة ، ولا حتى أمريكا ..

لم يثبت بشكل موثق علاقة حرب أفغانستان أو تصاعد تكاليف الإنفاق على حرب النجوم بسقوط السوفيت .. لكن ما لا يمكن بأية حال من الأحوال نفيه ، هو الدور المؤثر لهذين العاملين في الانهيار الكامل للاقتصاد الروسي ، الأمر الذي أدى إلى تحطم الاتحاد السوفيتي ..

لقد كانت الضربة القاضية .. فكيف كان ذلك ؟

* * *

كان يتكون الاتحاد السوفيتي القديم من خمس عشرة جمهورية .. وكانت هناك ست جمهوريات منها تتمتع بغالبية مسلمة .. هذه الجمهوريات هي : قيرقيزيا ، كازاخستان ، أوزباكستان ، أذربيجان ، تركمنستان ، و طاجيكستان ..[42] هذا إلى جانب الشيشان التي كانت وما زالت تعتبر جزءا من جمهورية روسيا الاتحادية .. وتشترك جميع هذه الجمهوريات الإسلامية في شئ هام جدا ، على الأقل بالنسبة للولايات المتحدة .. كانت هذه الجمهوريات تقع جنوبي الاتحاد السوفيتي ، ومن بينها ما لها حدود مع أفغانستان ، وعلى بعد كيلومترات قليلة من الحدود الشمالية لباكستان .. كما تشترك ثلاث جمهوريات منها في مسألة أخرى أكثر أهمية ، لم تظهر خطورتها إلا مؤخرا ..

على الخريطة .. تطل خمس دول على بحر قزوين المدفون في أعماقه حوالي 20 % من إجمالي احتياطي البترول العالمي .. فبالإضافة إلى إيران في الجنوب ، تطل روسيا بشريط محدود على قطاع ضئيل من شمال البحر[43] .. ومن حولهما تطل كل من تركمنستان وأذربيجان وكازاخستان على بحر قزوين من الشمال والشرق والغرب .. والأخيرتان تمتلكان 80 % من احتياطي البترول المتوقع في منطقة بحر قزوين ، إلى جانب تركز 85 % من الاستثمارات الأجنبية الحالية في تلك المنطقة بهما ..

ومنذ مطلع الخمسينات بدأت الولايات المتحدة تستعمل أفغانستان قاعدة لإدارة عمليات إزعاج للاتحاد السوفيتي من خلال إثارة المشاعر المعادية للاتحاد السوفيتي داخل جمهورياته الجنوبية ذات الغالبية المسلمة .. وكانت تلك العمليات تتم بالتنسيق مع المخابرات الباكستانية .. وكان لمخابرات أمريكا مقر دائم في مدينة بيشاور في شمال باكستان .. وبمرور الوقت اتسع نشاط المخابرات الأمريكية والباكستانية عبر الحدود الأفغانية إلى الجمهوريات الإسلامية وبدأت تخلق مشاكل حقيقية للنظام السوفيتي .. واشتدت وطأة هذا التدخل في الستينات ..

---

[42] الجمهوريات التسع الأخرى هي : روسيا ، بيلاروسيا (روسيا البيضاء) ، جورجيا ، أرمينيا ، أوكرانيا ، مولدوفا ، إستونيا ، ليتوانيا ، لاتفيا ..

[43] تمتلك روسيا 2.5% فقط من احتياطي البترول الموجود في بحر قزوين ..

ثم حدث أن أقنع السردار **داود خان** ابن عم ملك أفغانستان **(ظاهر شاه)** ورئيس وزرائه الاتحاد السوفيتي بمساعدة أفغانستان وحماية حدود السوفيت الجنوبية في الوقت ذاته ، عن طريق تقديم أسلحة للجيش ومساعدات للاقتصاد الأفغاني .. استجاب الاتحاد السوفيتي لمطلبه أملا في صد التيارات الإسلامية القادمة عبر أفغانستان ..

وفي يوليو 1973 استغل **داود خان** سفر الملك إلى أوروبا وقام بالإطاحة به .. وأعلن أفغانستان جمهورية ونصّب نفسه رئيسا لها .. ودخل في صراع مع الجميع ، مع الإسلاميين وكذلك مع اليساريين ، رغم مساعدة الضباط الشيوعيين له في انقلابه .. وكانت إيران بقيادة **الشاه** ومن خلفه أمريكا قد أقنعته بضرورة الاستغناء عن الشيوعيين حتى تمنحه 2 مليار دولار في شكل مساعدات اقتصادية ..

وفي سبتمبر 1975 قام **داود** بفصل أربعين ضابط شيوعي مدربين في الاتحاد السوفيتي ، وبدأ يجهر بعزمه على إنشاء حزب جديد بعيدا عن السيطرة الشيوعية أو السوفيتية .. وفي أبريل 1978 سقط **داود خان** قتيلا ضحية انقلاب يساري ساندته مجموعة من ضباط الجيش الذين درسوا في الاتحاد السوفيتي .. وتولى **تراقي** السلطة ليدعم موقف الاتحاد السوفيتي ..

وفي سبتمبر 1979 قُتل **تراقي** في انقلاب جديد قام به ضباط من الجيش كذلك .. ولكن في هذه المرة عُيّن **حفيظ الله أمين** رئيسا للجمهورية .. وكان **أمين** عميلا للمخابرات الأمريكية ، درس في جامعة كولومبيا بنيويورك ، وتولى رئاسة اتحاد الطلاب الذي كانت تموله مؤسسة أسيا Asia Foundation وهي إحدى الواجهات الأسيوية للمخابرات الأمريكية .. وبعد الانقلاب ، دأب **أمين** على لقاء مسئولي السفارة الأمريكية بشكل منتظم ..

* * *

نتوقف هنا عند حديث هام لـ **أحمد شاه مسعود** أحد مشاهير المجاهدين الأفغان ..[44]

يقول **أحمد شاه مسعود** : " بعد يومين من انقلاب عام 1973 تم تكليفي للتحضير لثورة إسلامية مسلحة من خلال التعاون مع بعض ضباط الجيش للإطاحة بالنظام الجديد .. إلا أن الخطة انكشفت واعتقل المهندس **حبيب الرحمن** الذي كان يقود الطلبة الإسلاميين الجامعيين بتكليف من الجمعية الإسلامية الأفغانية واضطررت أنا إلى الفرار والاختفاء .. وفي عام 1974 كلفت الجمعية الإسلامية المهندس **قلب الدين حكمتيار** للقيام بهذه المهمة ، فرجعت إلى كابول ثانية لممارسة نشاطي من جديد .. ولكن هذه الخطة انكشفت أيضا ، واعتقل الكثيرون ، بينما استطعت الإفلات واللجوء إلى بيشاور الباكستانية " .. وجه أهمية ما قاله **مسعود** تعود إلى ما أدلى به في نهاية الفقرة .. إن المجاهدين الأفغان كانوا يلجئون إلى باكستان – حليفة أمريكا في خططها – عند الضرورة .. ودونا عن كل المدن الباكستانية ، كان المجاهدون يختبئون في مدينة بيشاور التي تصادف أن تكون مقر المخابرات الأمريكية في باكستان ! ..

---

[44] تم اغتياله بأفغانستان في ظروف غامضة قبل أحداث 11 سبتمبر بيومين فقط ..

* * *

في فترة السبعينات رفعت المقاومة الإسلامية راية الجهاد ضد الشيوعية ، وكانت تطلب المساندة المالية ، ولم تتأخر المخابرات الباكستانية والأمريكية في تلبية مطالبها ..

وفجأة .. تعقد الموقف وتشابكت الخيوط ..

ففي يناير عام 1979 قامت ثورة إسلامية في إيران المجاورة أسفرت عن سقوط **الشاه** .. جاء قيام الثورة بعد أقل من عام واحد من سيطرة الشيوعيين على السلطة في أفغانستان ..

ومن المفارقات التاريخية العجيبة ، أنه في الوقت الذي أدت فيه هذه الثورة الإيرانية إلى إثارة قلق بالغ للولايات المتحدة فيما يتعلق ببترول الخليج العربي ، كانت هذه الثورة ذاتها مفيدة تماما في الصراع مع السوفيت في أفغانستان ..

كان الاتحاد السوفيتي واقعا في مأزق حقيقي .. فمن ناحية كانت أمريكا تصعّد النشاط المعادي له في أفغانستان وكانت تعمل بمنتهى الجدية على إحداث انقسام في الجيش الأفغاني أملا في وصول حلفائها من " الإسلاميين " إلى الحكم بدلا من الشيوعيين .. ومن ناحية أخرى كان هناك قلقا روسيا من تأثير الثورة الإيرانية على الجنوب الإسلامي في الاتحاد السوفيتي ، خاصة وأن الولايات المتحدة كانت تعمل على استمالة الجنوب عبر أفغانستان من قبل ما حدث في إيران ..[45]

والنتيجة ..

قرر الاتحاد السوفيتي التدخل العسكري في أفغانستان في أواخر عام 1979 بشكل يكاد يكون إجباريا ..

* * *

رجل واحد فقط ..

كان المسئول عن كثير مما دار وراء الكواليس ، ونجح إلى حد بعيد في توجيه مسار الحرب الأفغانية الروسية إلى حيث أرادت الولايات المتحدة الأمريكية..

إنه **زبجنيو برجينسكي** مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي **جيمي كارتر** ما بين يناير 1977 ويناير 1981 .. وقد اعترف **برجينسكي** في حديث أجرته معه المجلة الفرنسية " لانوفيل أوبزرفاتور " في عدد الأسبوع الثالث من يناير 1998 بحقيقة الدور الأمريكي في حرب أفغانستان .. ترجم هذا الحديث عن الفرنسية الكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** ، وهذا نص الحوار الذي قمت بترجمته إلى العربية :

س : لقد أقر **روبرت جيتس** المدير السابق للمخابرات الأمريكية في مذكراته التي نشرت بعنوان " من الظلال " أن المخابرات الأمريكية بدأت تقدم المساعدات للمجاهدين الأفغان بشكل مكثف قبل ستة أشهر من

---

[45] إيران وأفغانستان تشتركان معا في الحدود ، كما تشتركان مع الاتحاد السوفيتي في حدوده الجنوبية ، وكانت الجمهوريات السوفيتية الجنوبية تضم حوالي 40 مليون مسلم ..

التدخل السوفيتي العسكري في أفغانستان .. و في تلك الفترة كنت أنت مستشار الأمن القومي للرئيس **كارتر** .. ومعنى ذلك أنه كان لك دور في تلك المسألة .. فهل ما ذكره **جيتس** صحيح ؟

ج : نعم .. طبقا للنسخة الرسمية من التاريخ ، فإن المخابرات الأمريكية بدأت في تقديم مساعداتها للمجاهدين الأفغان خلال عام 1980 ، أي بعد الاجتياح السوفيتي لأفغانستان في ديسمبر 1979 .. لكن الحقيقة – التي لا يقترب منها أحد إلا بمنتهى الحذر – بعيدة تماما عن ذلك ..

أجل .. فلم يأت يوم 3 يوليو 1979 حتى كان الرئيس **كارتر** قد وقع على أمر رئاسي بتقديم مساعدات سرية لخصوم النظام الموالي للاتحاد السوفيتي في كابول .. وفي ذلك اليوم نفسه كنت قد كتبت مذكرة للرئيس شرحت له فيها أن مثل هذه المساعدات سوف تؤدي إلى دفع الاتحاد السوفيتي في اتجاه التدخل العسكري .

س : رغم خطورة ذلك ، فقد كنت أحد المؤيدين لهذا العمل السري .. فهل يعني ذلك أنكم كنتم تتطلعون إلى إثارة غضب السوفيت للدخول في حرب وأنكم سعيتم إلى إشعالها ؟

ج : ليس هكذا بالضبط .. نحن لم ندفع الروس كي يتدخلوا ، كل ما هنالك أننا رفعنا درجة احتمال تدخلهم .

س : عندما قام السوفيت بتبرير تدخلهم بالتأكيد على أنهم إنما كانوا يقصدون محاربة العمليات السرية التي تمارسها الولايات المتحدة ضدهم في أفغانستان .. عندما قال السوفيت ذلك ، لم يصدقهم أحد .. مع ذلك ، يبدو أن فيما قالوه كان هناك أساس من الصحة .. ألا تأسف اليوم على شئ مما فعلتموه ؟

ج : الأسف على ماذا ؟ .. هذه العملية السرية كانت فكرة ممتازة .. لقد كان لها تأثير على دخول الروس في الفخ الأفغاني ، وأنت تريد مني الندم ؟ إنني في اليوم الذي عبر فيه الجيش السوفيتي الحدود رسميا ، كتبت إلى الرئيس **كارتر** قائلا : الآن لدينا الفرصة لكي نقدم للاتحاد السوفيتي حرب فيتنام الخاصة به .. وبالفعل ، فإن موسكو – ولمدة حوالي عشر سنوات – كان عليها أن تواصل حربا غير مدعومة بشكل كامل من الحكومة السوفيتية ، وهي الأزمة التي أدت إلى إضعاف المعنويات ، وفي النهاية إلى تحطم الإمبراطورية السوفيتية ..

س : ولكن ألم تندموا على مساندة الأصوليين الإسلاميين ، وعلى تقديم السلاح والنصيحة لأولئك الذين أصبحوا بعد ذلك إرهابيي المستقبل ؟

ج : أيهما أكثر أهمية للعالم : ظهور طالبان ، أم انهيار الإمبراطورية السوفيتية ؟ ظهور بعض الجماعات الإسلامية ، أم تحرير وسط أوروبا وإنهاء الحرب الباردة ؟

س : لكن هذا الإرهاب الإسلامي يمثل اليوم تهديدا للعالم ؟

ج : هراء ! .. هناك من يقول أن الغرب له سياسة عالمية موحدة تجاه الإسلام .. وهذا غباء .. لا يوجد ما يسمى بالإسلام العالمي ، حتى تكون هناك سياسة موحدة تجاهه .. لننظر إلى الإسلام بطريقة عقلانية وبدون غوغائية أو انفعال .. إنه الدين الرائد في العالم ، يبلغ عدد أتباعه 1.5 مليار إنسان .. لكن ما الذي

يجمع بين الأصولية السعودية ، والاعتدال المغربي ، والعسكرية الباكستانية ، والتمدين الغربي المصري ، أو علمانية أسيا الوسطى .. لا شئ أكثر مما يجمع البلدان المسيحية .. لا شئ يجمع بينهم ..

كان هذا نص الحوار مع مستشار الأمن القومي الأمريكي ..

فما الذي فعله تحديدا مع بدء الحرب الأفغانية ، حتى تتخذ ذلك المسار الذي اتخذته بالفعل ، والذي انتهى إلى فشل الغزو السوفيتي وتزايد الاضطرابات الداخلية التي أسفرت عن نهاية عصر التوازن العالمي ؟ ..

أستعين في الكثير من تفاصيل ما حدث قبل وأثناء الحرب الأفغانية بكتاب " من نيويورك إلى كابول " للكاتب الكبير **محمد حسنين هيكل** .. ولا يتميز هذا الكاتب بمصادره العديدة فحسب ، بل إنه بحكم مكانته السياسية كان شاهدا على بعض تلك التفاصيل بنفسه .. وأنا أنقل عنه في السطور التالية بعض الفقرات كما هي ، أو بعد إجراء بعض التعديلات أو الإضافات ..

* * *

بعد أن تولى السلطة ، أمر الرئيس الروسي السابق **بوريس يلتسين** بفتح ملفات وثائق العهد الشيوعي قبل أوانها ، وذلك بهدف تحديد المسئوليات فيما يتعلق بالنهاية المفاجئة للنظام الشيوعي ..

في هذه الوثائق يظهر أن الجنرال **ليونيد شيبارشين** الممثل الرئيسي للمخابرات السوفيتية في كابول قد أرسل مذكرة خطيرة إلى موسكو في نهاية عام 1979 ، يشير فيها إلى اتصالات سرية يقوم بها الجنرال **حفيظ الله أمين** مع قيادات التمرد الإسلامي بغرض تمكين عملاء المخابرات الأمريكية من السيطرة على الأوضاع في أفغانستان .. ثم كانت هناك مذكرة أخرى قدمها وزير الدفاع الروسي إلى المكتب السياسي توضح أن الموقف في كابول يحتم دخول قوات الجيش السوفيتي حتى لا يجري تسليم أفغانستان للولايات المتحدة وعملائها ، وهو ما سوف يعرّض أمن الجمهوريات السوفيتية الجنوبية الإسلامية للخطر الشديد .. وعندما عرضت هذه المذكرة على اجتماع المكتب السياسي في 25 ديسمبر 1979 حدثت انقسامات حادة ما بين مؤيد ومعارض لمبدأ التدخل العسكري المباشر ، لكن في نهاية الأمر رجح الزعيم السوفيتي **بريجنيف** كفة الداعين للتدخل .. وفي مساء يوم 26 ديسمبر 1979 نزلت وحدات من الجيش السوفيتي بالطائرات في مطار كابول ، كما أن فرقة مدرعة من الجيش شرعت في عبور الحدود بسرعة متوجهة إلى العاصمة الأفغانية ..

وبدأت الحرب ..

* * *

وفي صباح يوم 27 ديسمبر اجتمع الرئيس **كارتر** مع مستشار الأمن القومي **برجينسكي** و سأله عن تقديره للموقف .. فقال : " سيادة الرئيس نحن أمام جيش سوفيتي يزحف جنوبا في أفغانستان ، وأفغانستان هي أقرب طريق للسوفيت إلى المحيط الهندي والخليج العربي ، ونحن لا نستطيع على الإطلاق وبضمير مستريح أن نقطع بأنهم لن يذهبوا إلى أبعد من أفغانستان .. وحتى من أفغانستان فإنهم اقتربوا أكثر مما

ينبغي من المياه الدافئة للمحيط الهندي ، ومن منابع النفط في الخليج .. وذلك يدعونا إلى التصرف ، وتصرفنا يكون له هدفان : الهدف الأول : وقف السوفيت حتى لا يتقدموا بعد أفغانستان .. والثاني : إرغامهم على التراجع والخروج من أفغانستان .. سيادة الرئيس إن الروس وقعوا في فخ وتلك فرصتنا كي نرد لهم جميل فيتنام ولذلك يتعين علينا أن نعمل على سد الطرق أمامهم بحيث تتحول أفغانستان إلى مصيدة لا يخرجون منها إلا بفضيحة تهز هيبة الدولة السوفيتية وتكسر شوكتها " .. قال **برجينسكي** هذا الكلام في 18 نوفمبر 1989 في حفل عشاء بالسفارة المصرية في موسكو حضره **هيكل** ..[46]

استقر اجتماع مجلس الأمن القومي الأمريكي في 27 ديسمبر على عدم إمكانية استبعاد احتمال أن يهدد السوفيت مصالح الولايات المتحدة في الخليج العربي .. وعلى ضرورة تعزيز الوجود الأمريكي المسلح في الخليج بأن تسمح الحكومات العربية بغير صخب إعلامي بتفعيل اتفاقيات التعاون العسكري مع أمريكا ..

أما أهم ما أسفر عنه الاجتماع الأمريكي فهو دعم عناصر المقاومة في أفغانستان ..

وبما أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تلعب دورا ظاهرا في النشاط العسكري المعادي للسوفيت ، فكان عليها أن تجد قيادة بديلة لهذه الحرب الخفية في أفغانستان .. وبما أن المقاومة الأفغانية التي أدت إلى التدخل السوفيتي هي بالأساس مقاومة إسلامية ، فكان لابد أن تستمر كذلك ، بل وتتصاعد بحثّ الدول الإسلامية الكبرى على مناصرتها إلى حد تكوين تحالف إسلامي واسع يحمل عبء محاربة السوفيت في أفغانستان ، ويتكفل بتمويل الجهاد لأن العبء أثقل مما تستطيع المخابرات الأمريكية أن تحمّله على ميزانيتها ..

* * *

كانت هذه أهم أهداف الاجتماع .. فكيف تم تحقيقها ؟

في مطلع عام 1980 توجه مستشار الأمن القومي **برجينسكي** إلى منطقة الشرق الأوسط .. تحديدا إلى مصر ثم السعودية ثم باكستان ..

وضع **برجينسكي** تصورا محددا أن تقوم أمريكا بتوزيع مسئوليات الجهاد الإسلامي على أدوار رئيسية ثلاثة ..

بدأ **برجينسكي** بزيارة مصر في 3 يناير 1980 .. كان **برجينسكي** يرى أن الرئيس **السادات** سوف يكون حريصا على إرضاء الولايات المتحدة التي تملك أوراق الضغط على إسرائيل لحل مشكلة الشرق الأوسط .. ثم إنه مشترك بالفعل في نشاط معاد للسوفيت في أفريقيا ضمن التنظيم الذي نادى بإنشائه الكونت **ألكسندر دي ميرانش** رئيس المخابرات الفرنسية وأطلق عليه وصف " نادي السفاري " ، وذلك التنظيم كان يضم كلا من السعودية وإيران والمغرب ومصر ويقوم بأعمال معادية للسوفيت في مناطق متفرقة من شرق وغرب القارة الأفريقية ..

---

[46] أي بعد نهاية الحرب الأفغانية بتسعة أشهر ، وقبل الانهيار الرسمي للاتحاد السوفيتي بعامين ..

جاء **برجينسكي** إلى مصر ناقلا رسالة من **جيمي كارتر** تدعو مصر أن تقوم بدور في الجهاد الإسلامي ضد الإلحاد السوفيتي الذي غزا بلدا إسلاميا .. وكان من ضمن المبررات التي ساقها **برجينسكي** في اجتماعه مع **السادات** ، أولا : إن مصر بمكانتها الخاصة في العالم الإسلامي مؤهلة لدور في الدفاع عن العقيدة الإسلامية .. فلا يصح ترك شعارات الإسلام العظيمة يحتكرها **آية الله الخميني** لنفسه أو للإسلام الشيعي .. وثانيا : إن دخول مصر في مثل هذا العمل الإسلامي يعطي الرئيس **السادات** نفوذا أوسع في المنطقة إزاء أطراف عربية تعارض سياسته في السلام مع إسرائيل ومنها سوريا والعراق وليبيا .. وثالثا : إن قيام **السادات** بدور في الجهاد الإسلامي يرد بشدة على أولئك الذين يتهمونه بالتفريط في فلسطين ويهيئ له قاعدة إسلامية أوسع من الحيز المحدود للدول العربية .. ورابعا : إن مصر لن تتكلف شيئا لأن الولايات المتحدة سوف تنشئ صندوقا خاصا للجهاد في أفغانستان تشارك بنفسها في تمويله وتدعو للمشاركة عددا من دول الخليج وعلى رأسها المملكة العربية السعودية .. وخامسا : إن الجهاد في أفغانستان يضمن عقودا سخية للصناعات العسكرية المصرية لأن ذلك الجهاد بالذات يلزمه سلاح سوفيتي الصنع والنوع[47] .. وكان **برجينسكي** يقصد بذلك أن الجهاد الإسلامي سوف يحتاج أن يشتري من مصر أسلحة سوفيتية الصنع لم تعد تريدها أو أسلحة سوفيتية النوع قامت بتصنيعها في مصانعها الحربية ولا تجد مشتريا لها لأن المنطقة تشهد تحولا إلى الأسلحة الأمريكية .. وسادسا : إن مشاركة مصر في الجهاد الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان تساعد الرئيس **كارتر** على مواجهة أصدقاء إسرائيل في الكونجرس ، لأنها ترد على دعايات يقوم بها **مناحم بيجين** رئيس وزراء إسرائيل تزعم أن مصر ليست حليفة للولايات المتحدة إلا بمقدار ما تريد منها أن تضغط على إسرائيل وتلك حجة سوف تبطل عندما يظهر أن مصر تساند أمريكا ، وأنها على رأس المقاومة الإسلامية للسوفيت في أفغانستان ..

نجح **برجينسكي** تماما في إنجاز مهمته ..

فبعد أيام من لقاء **السادات** مع **برجينسكي** أعطى الرئيس المصري إذنا باستعمال مطار قنا العسكري قاعدة للتخزين والتشوين لخدمة " الجهاد " في أفغانستان ، وكانت طائرات الشحن الأمريكية العملاقة تهبط في هذا المطار كل مساء ويجري تحميلها بالأسلحة والذخائر لكي تطير في منتصف الليل وتهبط قبل الفجر في المطارات العسكرية الباكستانية .. كما أن ميناء بور سعيد تحول إلى قاعدة خلفية للتخزين والشحن إلى كاراتشي .. وكانت الشحنات المرسلة من مصر عبارة عن أسلحة وذخائر سوفيتية الصنع أو النوع ..

ثم صدرت التعليمات لأهم المؤسسات الدينية في مصر أن تصدر فتاوى تؤيد وتزكي أسبقية الجهاد ضد الإلحاد ، كما خصصت بعض وسائل الإعلام الشهيرة أبوابا ثابتة تدعو للجهاد في أفغانستان وتجمع الأموال له ...

---

[47] كان هناك حرص أمريكي على أن يكون السلاح سوفيتي الصنع حتى يصعب اتهام الولايات المتحدة بأنها مصدره ، بل إنه سلاح سوفيتي تحصل عليه المقاومة الإسلامية من الاتحاد السوفيتي أو قواته في أفغانستان ..

وفي أول أبريل 1980 أعلن **السادات** في حديث صحفي نشرته وسائل الإعلام المصرية ما يمكن اعتباره قرارا رسميا بالتدخل في أفغانستان .. وكان نص ما قاله الرئيس **السادات** : " إننا على استعداد بأسرع ما يمكن لكي نساعد في أفغانستان وأن نتدخل لنصرة إخواننا المجاهدين هناك سواء طلبوا منا المساعدة أو لم يطلبوها " ..

وحين سئل متحدث رسمي عن تصريح الرئيس وهل تتضمن مساعدته للمجاهدين شحنات أسلحة .. كان رده بالإيجاب ثم أضاف : " إن ما سوف نعطيه لإخواننا من الأسلحة هو بعض ما كان عندنا ولم نعد في حاجة إليه وذلك أبسط واجب نؤديه نحو إخواننا في الإسلام " ! ..

كانت هذه هي تفاصيل الدور المصري مع بداية الحرب ..

وفي 5 يناير 1980 وصل **برجينسكي** إلى السعودية قادما من مصر ..

كانت الأوضاع في المملكة في تلك الأيام ليست في أحسن حالاتها ..

كانت السعودية تشعر بضغط الثورة الإسلامية في إيران عليها وترى أن سقوط الملكية في إيران نذير شؤم للأسرة الحاكمة ، وكان هناك من يتحدث عن ضخامة مخصصات الأسرة المالكة من عوائد البترول .. وكانت الثورة الإيرانية قد حركت مشاعر المواطنين الشيعة في المنطقة الشرقية ، وجرت مظاهرات تأييد لها في مدينة القطيف .. وفي نوفمبر 1979 قام **محمد جهيمان العتيبي** زعيم جماعة وهابية هو وأنصاره باحتلال الحرم الشريف في مكة المكرمة بدعوى أن النظام الملكي ليس مؤهلا لحماية البيت الحرام .. وقد فوجئت الحكومة السعودية آنذاك باحتلال الكعبة وظلت عاجزة لأيام عن التصرف ، حتى قامت في نهاية الأمر باستئجار فرقة كوماندوز فرنسية جاءت دون إعلان واقتحمت الكعبة وحررتها ، ثم رحلت في هدوء بعد تقاضي الأتعاب .. حدث كل ذلك رغم أنه غير مسموح لغير المسلم بالتواجد في مكة المكرمة أو المدينة المنورة !! ..

لعبت أمريكا على هذا الوتر .. كما امتد اللعب إلى وتر آخر حساس ..

كانت السعودية مهتمة بدور متميز في قيادة العالمين العربي والإسلامي ، ذلك أن غياب مصر بعد صلحها مع إسرائيل ترك الساحة العربية خالية .. فإذا ما أعلنت السعودية دعوة جهاد مقدس ضد الإلحاد ، فإن ذلك يعطيها القيادة العربية الإسلامية دون أن يفرض عليها بالضرورة أن تتحمل مسئولية المواجهة مع إسرائيل وهي مسئولية تخشاها وتحاذر يوما أن تجد نفسها وجها لوجه أمامها .. وتحت الظروف الطبيعية ، فقد كان من المنطقي – إن أصبحت المملكة هي القيادة المعترف بها في العالم العربي والإسلامي – أنه سوف يتم استدعاؤها بهذه الصفة إلى فلسطين ، ليستعيدها المسلمون والعرب .. لكنها حين تستبق استدعاء فلسطين بدعوة إلى الجهاد في أفغانستان من أجل نصرة الإسلام ، فإنها بذلك تضع نفسها في موقف إسلامي يصعب على أحد أن يزايد عليه ..

المهم .. اتفق **برجينسكي** مع السعوديين على الآتي : أولا : أن يكون التمويل مشتركا وبالتساوي بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية عن طريق صندوق يتأسس في جنيف بمبلغ مليار دولار يتجدد تلقائيا بمقدار ما يصرف منه .. وثانيا : أن تكون التوجيهات والاتصالات السياسية مع قيادات الجهاد الإسلامي من اختصاص السعودية ..

وهكذا كان الأمر يبدو وكأن السعودية تدفع لمصر – رغم المقاطعة العربية – ثمن الأسلحة السوفيتية لتحقيق هدف الولايات المتحدة في إنهاك الاتحاد السوفيتي ..

الأغرب من ذلك أن إسرائيل عرضت على المخابرات الأمريكية كمية من الأسلحة السوفيتية ، استولت عليها أثناء حروبها مع الجيوش العربية .. وقبضت إسرائيل ثمن هذه الأسلحة من صندوق دعم الجهاد الإسلامي في أفغانستان !! ..

أما باكستان – الضلع الثالث في المثلث المقترح – فلم تكن في حاجة إلى إعادة تلقين .. فالجانب الباكستاني كان يتعاون مع الولايات المتحدة في هذا الصدد منذ الخمسينات .. فلم يكن مطلوبا أكثر من أن تكون قاعدة للعمليات في أفغانستان ، كما كانت في الماضي قاعدة للعمليات عبر أفغانستان إلى الجمهوريات السوفيتية .

وبذلك تم تجهيز كافة ظروف العمل الأمريكي ضد الاتحاد السوفيتي من خلال المسلمين ، ولم تبق سوى لمسة جمالية اقترحها أحد الخبراء في المخابرات الأمريكية .. وكانت كالتالي : تم اعتماد زعماء القبائل والميليشيات الأفغانية قادة للجهاد في الحرب المقدسة من خلال إجراءات خاصة جدا .. كانت مراسمها تقتضي بأن يُفتح باب الكعبة للقائد المرشح ، فيدخل الرجل منه إلى قدس الأقداس ، ويؤدي الصلاة أمام كل جدار من جدران الكعبة على اعتبار أن كل الجهات داخل الكعبة قبلة ، ثم يخرج الزعيم وقد تم تنصيبه أميرا للجهاد ضد الكفار ! ..

* * *

بمرور الوقت أثبت الجهاد الإسلامي كفاءة منقطعة النظير ، ورغم ذلك ظهرت مشكلة للأمريكان كان لابد من إيجاد حل لها .. كانت المشكلة تتمثل في أن تكاليف العملية تتزايد على نحو متصاعد بسبب انتقالها من نجاح إلى نجاح .. وبدا واضحا أن المخابرات لن تتمكن من الوفاء بالتزاماتها في الصندوق المشترك مع السعودية .. فالمخابرات الأمريكية كان أمامها مشروعات مهمة تعمل على تضييق الخناق على الاتحاد السوفيتي في أوروبا الشرقية ، وبالذات من خلال بولندا مع مجيء بابا جديد للفاتيكان بولندي الجنسية (**جون بول الثاني**) ، وكان معنى أن تدفع المخابرات مخصصات حرب أفغانستان أن تفشل مشاريع شرق أوروبا ..

فكيف تم التغلب على هذه الأزمة المالية ؟

كانت الطريقة حقا مدهشة ..

بعد حفل تنصيب **رونالد ريجان** رئيسا للولايات المتحدة بثلاثة أيام ، استقبل **ريجان** في مكتبه البيضاوي رئيس المخابرات الفرنسية الكونت **ألكسندر دي ميرانش** .. كان **دي ميرانش** قد عرف من بعض أصدقائه في أمريكا أن الرئيس الأمريكي مشغول بتوفير نصيب أمريكا في الجهاد الأفغاني .. فطلب أن يقابله وكان لديه الحل للمشكلة .. دار بينهما حوار ملخصه أن **دي ميرانش** أقنع **ريجان** بأمرين ، أولهما أن تعمل الولايات المتحدة على توصيل جزء من المخدرات – التي تضبطها الجهات الأمنية في أمريكا وتصادرها – إلى معسكرات الجيش السوفيتي في أفغانستان لنشر الإدمان بين صفوفه .. والأمر الثاني أن يعاد بيع باقي مضبوطات المخدرات في الأسواق العالمية عن طريق بعض الشبكات والعصابات الأهلية .. وبذلك يتم توفير نصيب أمريكا في صندوق الجهاد من عائدات المخدرات **!!** ..

كانت سعادة الرئيس **ريجان** بهذه المقترحات غامرة ، حتى أنه قال في نهاية الاجتماع : " هذه فكرة عظيمة .. إن أحدا لم يقترح عليّ فكرة على هذا المستوى من قبل " ..

وبعد التغلب على العقبات المالية ظهرت مشكلة أخرى ..

ففي منتصف الثمانينات تزايدت أعداد الجماعات الإسلامية الوافدة من عدة بلدان عربية مثل مصر والسعودية والجزائر وسوريا والسودان .. ونجح هؤلاء في تكبيد الجيش السوفيتي خسائر شديدة عن طريق تنفيذ العمليات الهجومية الخاطفة ونصب الكمائن وزرع الألغام ..

وكانت المشكلة التي واجهت أمريكا أن نجاح هذه العمليات دفع عدد من عناصر الجهاد إلى التقدم بطلبات إلى قادتهم تتعلق بمستقبلهم بعد انتهاء مهمتهم في أفغانستان .. وعندما تأخر الرد عليهم قاموا بنوع من الإضراب توقفوا فيه عن الجهاد حتى حضر إليهم ممثل رسمي للمخابرات الأمريكية وعقد اجتماعا مع بعض قادة الفصائل ، وأعلن أمامهم باسم حكومته أن هناك 2000 موافقة على منح الجنسية الأمريكية لأكفأ العناصر في تأدية مهام الجهاد ، كما أعلن عن قرب تسليم أول دفعة من البطاقات الخضراء Green Cards وهي البطاقة التي تمهد للمواطنة الأمريكية الكاملة للأكثر استحقاقا بين صفوف المجاهدين .. وكان أحد الذين حصلوا على البطاقة الخضراء في هذه المناسبة هو الشيخ **عمر عبد الرحمن** مفتي جماعات الجهاد المصرية ، والمسجون حاليا في نيويورك **!** ..

* * *

وبالإضافة إلى الدور البارز الذي قامت به المخابرات الأمريكية في إفشال مهمة الجيش السوفيتي في أفغانستان ، كان هناك دور آخر للإعلام الأمريكي في تشويه صورة الاتحاد السوفيتي أمام العالم كله ..

فقد عرض مراسل شبكة سي بي إس الأمريكية **دان راذر** لقطات إخبارية زاعما أنها تبين قاذفات قنابل سوفيتية تقصف القرى الأفغانية التي لا حول لها ولا قوة .. وكانت هذه المشاهد مزيفة ، إذ لم تكن قاذفة القنابل سوى طائرة تتبع للقوات الجوية الباكستانية في مهمة تدريبية فوق شمال غربي باكستان .. وفي وقت لاحق أعلنت نفس الشبكة الإخبارية أنها اكتشفت في المناطق التي قصفها السوفيت لعب أطفال على هيئة

حيوانات محشوة بالمتفجرات ، كان يُقصد بها جذب الأطفال الأفغان وتقطيع أوصالهم .. وكان المجاهدون الأفغان قد صنعوا تلك اللعب المفخخة خصيصا لأخبار سي بي إس .. واستمر الإعلام الأمريكي طوال فترة الحرب يبالغ ويفبرك أخبارا ومشاهد من وحي إبداعه ..

* * *

وفي الوقت الذي أحرز فيه " المجاهدون " انتصارات متتالية ، كان الجيش السوفيتي يعاني من قسوة الطبيعة الجافة والجو الحار ، إلى جانب صعوبة الاعتماد على القذف الجوي بسبب التضاريس الجبلية التي تجعل هذه الفكرة عقيمة ..

كانت الحرب الأفغانية تكلف الاتحاد السوفيتي يوميا حوالي 40 مليون دولار ، وهو ما لم يكن ممكنا أن تتحمله دولة تعاني اقتصاديا ، خاصة مع وجود خسائر بشرية خلال عشر سنوات فاقت 50 ألفا من قوات الجيش ..

وبدءا من أبريل 1988 وحتى فبراير 1989 كان الجيش السوفيتي قد اضطر إلى الانسحاب الكامل من أفغانستان تاركا مقاليد السلطة لحكومة شيوعية يرأسها **نجيب الله** ..

وفي عام 1992 استولى المجاهدون على كابول ولجأ **نجيب الله** إلى أحد مباني الأمم المتحدة هناك .. وأعلنوا أفغانستان دولة إسلامية ..

* * *

انتهت الحرب في أفغانستان ..

تهاوى الاقتصاد السوفيتي إلى الحضيض ..

ولم يعد في الإمكان مجاراة الأمريكان في برامج التسلح الفضائي ، ولا في أية حلبة أخرى ..

وفي 8 ديسمبر 1991 تناثرت أشلاء الاتحاد السوفيتي مثل بالون ضخم شكه دبوس ..

* * *

ربما يتحفظ البعض على الإطالة في فصل الاتحاد السوفيتي .. لكن مبرري الوحيد أن كثيرا مما ارتكبته أمريكا ومما امتلأت أو سوف تمتلئ به صفحات هذا الكتاب كان بزعم مكافحة الشيوعية الدولية التي يقف وراءها وحش كاسر اسمه الاتحاد السوفيتي ..

ورأيت أنه من الحتمي أن أستفيض في فقرات مطولة عن حقيقة الصراع مع الاتحاد السوفيتي ، حتى يتأكد الجميع أن الروس كانوا مجرد شماعة في دولاب التبريرات الوهمية ..

ومن المناسب عند هذه المرحلة أن نغادر الجمهوريات السوفيتية الممزقة ، ونتجه إلى مناطق أسيا الأكثر دفئا ، والتي كانت بفضل الولايات المتحدة دافئة إلى درجة الغليان !

(26)
الـصـيـن : الوقـاحـة السيـاسيـة

رغم كل شئ ..

رغم كل الأعمال العدوانية التي ارتكبتها أمريكا في حق الصين ..

بدءا من التدخلات غير المشروعة في الشئون الداخلية للصين في عام 1859 بمدينة شانجهاي ، ثم أعوام 1900 ، 1911 ، 1912 ، 1916 ، 1917 ، 1920 ، 1922 - 1927 ، 1932 ، 1934 .. وكانـــــــت جميعها بدعوى حماية المصالح الأمريكية أو الحفاظ على أرواح الأجانب أو الدفاع عن القنصلية ، وكان ذلك يتم بإنزال قوات بحرية تعسكر في أماكن متفرقة من الصين ..

ومرورا بالاحتكاكات العسكرية المباشرة وغير المباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الحرب الكورية في عام 1953 والتسبب في وفاة عشرات الألوف .. وانتهاء بقصف السفارة الصينية في بلجراد في عام 1999 أثناء تدمير يوجوسلافيا ..

رغم كل ذلك ، فقد كان هناك ما هو أبشع .. بمنتهى البساطة لقد قامت الولايات المتحدة بإلغاء الوجود الصيني من على الخريطة .. شطبت شعبا يمثل عدد سكانه أكثر من خمس تعداد الكرة الأرضية .. فكيف حدث ذلك ؟

* * *

كانت أجزاء من الصين واقعة تحت الاحتلال الياباني منذ عام 1931 ..

وفي عام 1937 وقبل بدء الحرب العالمية الثانية ارتفعت حدة المقاومة الصينية ضد الاحتلال الياباني ، فتم تأسيس جبهة قومية متحدة مكونة من أكبر حزبين في البلاد وهما الحزب الشيوعي الصيني وحزب الكومينتانج الصيني .. وبهزيمة اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية انتهى الاحتلال الياباني .. وفي 25 أكتوبر 1945 أعادت اليابان جزيرة تايوان التي كانت تحتلها منذ عام 1894 إلى الصين ..

بعد هزيمة اليابان في الحرب من جهة ، ونجاح المقاومة الصينية من جهة أخرى ، كان من المفترض أن يواصل الحزبان العمل معا في سبيل النهوض بالصين بعد فترة احتلال طويلة .. أو على الأقل كان من غير المنطقي أن تشتعل حرب أهلية بين الحزبين اللذين تعاونا لطرد العدو .. لكن حزب الكومينتانج برئاسة **تشيانج كاي شيك** فاجأ الجميع – معتمدا على الدعم الأمريكي – بتمزيق ما يعرف باتفاقية 10 أكتوبر الموقعة بين الحزبين .. وبدأت الحرب الأهلية ..

وقفت أمريكا إلى جانب الكومينتانج .. وعندما وجدت **شيك** غير قادر على إحراز النصر ، استعانت في واقعة غريبة جدا بعدد من الجنود اليابانيين المهزومين في الحرب العالمية الثانية للقتال إلى جانبهم ! .. والجدير بالملاحظة هنا ، أن الشيوعيين – في أثناء الحرب العالمية الثانية – كانوا يساعدون الأمريكان في

حربهم ضد اليابان داخل الصين ، وكانوا يمدونهم بمعلومات عن مواقع تمركز القوات اليابانية ويسعفون الجرحى الأمريكان ويقومون بتهريب أسراهم ..

ومع انتهاء الحرب العالمية ، كان العديد من الجنود الأمريكان الموجودين في الصين يتقدمون باحتجاجات لرؤسائهم بشأن الجدوى من بقائهم في الصين طالما أن الحرب انتهت وأن اليابان استسلمت في جميع أنحاء القارة الأسيوية .. وقد علق أحد ضباط البحرية الأمريكية على ذلك قائلا : " لقد كان الجنود يسألونني عن سبب وجودهم هنا في وقت الكريسماس عام 1945 .. وكضابط ، كان من المفترض أن أجيب عن استفساراتهم .. غير أنه لا يبدو ممكنا أن تخبر رجلا أنه هنا لنزع أسلحة اليابانيين في الوقت الذي يحرس فيه ذلك الرجل نفسه السكك الحديدية الصينية بالتعاون مع جنود يابانيين مسلحين .. " ..

استمرت الحرب الأهلية أكثر من ثلاثة أعوام ، وأسفرت عن انتصار الحزب الشيوعي بسبب وقوف معظم طوائف الشعب وراء القائد الصيني الشهير **ماو تسي تونج** .. كذلك بسبب كراهية الشعب لزعيم حزب الكومينتانج المعروف بفساده وانحطاط أخلاقه ..

ففي أثناء الاحتلال الياباني في الثلاثينات لم يتحرك **شيك** لمقاومة غزو اليابان لشمال الصين حتى اضطر بعض أتباعه إلى اعتقاله في عام 1936 .. ومن المفارقات أن الذي أخرجه من سجنه كان **شو إن لاي** أحد زعماء الحزب الشيوعي ورئيس وزراء الصين بعد ذلك .. أخرجه مقابل وعد بالعمل معا ضد اليابان .. وهو ما حدث لاحقا ..

وفي أول أكتوبر 1949 نجح **ماو** في تأسيس جمهورية الصين الشعبية ..

ولم تنجح الولايات المتحدة في منعه ..

وفي خطاب من **دين أتشيسون** وزير الخارجية الأمريكي إلى الرئيس **هاري ترومان** ، جاء فيه : " إن الخاتمة المشؤومة للحرب الأهلية الصينية قد تجاوزت حد قدرة الحكومة الأمريكية على السيطرة عليها ، وهذا أمر يؤسف له ، ولكن لا يمكن تجنبه أيضا ، وهذه الخاتمة لم تأت بسبب تقصيرنا في شيء إنما هي نتيجة لتفاعل كافة القوى في داخل الصين، هذه القوى التي كنا نحاول أن نؤثر عليها ولكن دون جدوى " ..

أما **تشيانج كاي شيك** وأتباعه فقد فروا إلى جزيرة تايوان ، وبمساندة من الحكومة الأمريكية أعلنوا في العام التالي – 1950 – قيام دولة الصين الوطنية على تلك الجزيرة الصغيرة .. هيأ **تشيانج كاي شيك** جزيرة تايوان كمقر أول للرابطة العالمية لأعداء الشيوعية ، وهي منظمة دولية لها علاقة وثيقة بمهربي المخدرات وبالمخابرات الأمريكية .. وكان يسمح لأعضاء الرابطة وعلى رأسهم الولايات المتحدة باستخدام أراضي الجزيرة في تدريب مدبري الانقلابات العسكرية في أمريكا الجنوبية .. كما لجأ الكثيرون من أتباع الكومينتانج إلى شمالي بورما على الحدود الجنوبية مع الصين ، حيث أعادت المخابرات الأمريكية تجميعهم ، وقدمت لهم إمدادات ضخمة من الأسلحة الثقيلة والطائرات .. ومع بداية الخمسينات انطلق هذا الجيش

للقيام بعدد من الغارات على الصين وضم في بعض الأحيان آلافا من الجنود يصحبهم مستشارون من المخابرات الأمريكية وكان يتم تزويدهم بالمؤن عن طريق إسقاطها من الطائرات الأمريكية ..

* * *

ورغم إعلان قيام دولة الصين الشعبية في عام 1949 ، ورغم أنها كانت ولا تزال أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان وثالث أكبر دولة في العالم من حيث المساحة إلا أن الولايات المتحدة تدخلت وبسطت نفوذها داخل الأمم المتحدة ونجحت في منع الاعتراف الرسمي بالصين .. وذلك بمنح جزيرة تايوان مقعد الصين في الأمم المتحدة وفي مجلس الأمن ، بل إن تلك الجزيرة الصغيرة – التي يمثل حجمها بالنسبة للصين ما تمثله جزر هاواي بالنسبة للولايات المتحدة ، وتبلغ مساحتها 1 : 266 بالنسبة لمساحة الصين – كانت أحد الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن وكان لها نظريا حق النقض الفيتو إلى جانب أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا !! ..

وفي 27 يونيو 1950 ومع بدء الحرب الكورية أعلن الرئيس الأمريكي **هاري ترومان** أنه قد أمر الأسطول السابع بأن يصد أي هجوم تتعرض له جزيرة تايوان ، ورابط الأسطول في مضيق تايوان بين الشواطئ الصينية وبين الجزيرة ..

وفي ديسمبر 1953 وقعت الولايات المتحدة مع جزيرة تايوان معاهدة دفاع مشترك واضعة الجزيرة تحت الحماية الأمريكية ..

وفي الفترة ما بين أغسطس 1955 وفبراير 1970 أجرت الصين والولايات المتحدة مباحثات في العاصمة البولندية وارسو 136 مرة بغرض وضع حد للمشكلة التايوانية ..

كانت الأزمة الأمريكية الصينية محل اهتمام العديد من دول العالم ، حتى أن مجلس اللوردات البريطاني انعقد في 10 فبراير 1966 لمناقشة العلاقات بين الولايات المتحدة والصين .. وفي كلمة ألقاها اللورد **كينيت** قال : " إن فهم هاتين الدولتين لبعضهما ضعيف .. فأمريكا لا تتحدث إلا عن السلام ، بينما تقصف جيران الصين بالقنابل .. والصين ترقب هذا السلوك ، وتتجاهل هذا الحديث .. وفي نفس الوقت لا تتحدث الصين إلا عن الحرب بينما لا يوجد جندي صيني واحد خارج الصين .. وتعطي أمريكا لكلمات الصين كل الاهتمام ، بينما تتجاهل سلوكها .. إنه قدرهما التاريخي " ..

* * *

وفي أوائل السبعينات فكرت أمريكا في تعديل سياستها تجاه الصين ، خاصة بعد تنامي قوة الصين الاقتصادية ورغبة أمريكا في استمرار إبعاد الصين عن الاتحاد السوفيتي..[48] كان التغيير حتميا .. فأسلوب المواجهة المباشرة لم يعد مجديا مع دولة بحجم الصين .. فكان الأفضل أن تنفذ أمريكا ما تريد عن

[48] كان هناك خلاف قد نشأ بالفعل بين الدولتين بسبب اختلاف وجهات النظر بشأن أسلوب تطبيق الفكر الشيوعي ..

طريق المراوغة والمكر وتوزيع الابتسامات والوعود .. بدون اللجوء إلى العافية التي قد تقرّب الصين من الاتحاد السوفيتي وتغلق أسواقا ضخمة أمام الاقتصاد الأمريكي .. وبدأ التنفيذ ..

* * *

أقيمت بطولة العالم في تنس الطاولة في أبريل 1971 بمدينة ناجويا اليابانية .. كانت الصين وأمريكا من ضمن المنتخبات المشاركة في البطولة .. وقبل انتهاء البطولة تقدم الفريق الأمريكي بطلب مفاجئ إلى الفريق الصيني يطلب فيها زيارة الصين وأداء بعض المباريات هناك .. وافقت الصين وتم دعوة الأمريكان .. وانتشر في العالم تعبير يقول " الكرة الصغيرة تحرك الكرة الكبيرة " .. استقبل رئيس الوزراء الصيني **شو إن لاي** أعضاء المنتخب الأمريكي في قاعة الشعب الكبرى ، وقال لهم في ترحاب : " أنتم كأول وفد أمريكي زائر لجمهورية الصين الشعبية قد فتحتم باب الاتصالات الودية بين شعبي البلدين " .. كان هذا ما سمي في التاريخ الحديث بـ " دبلوماسية البينج بونج " ..

حدث كل هذا رغم عدم اعتراف أمريكا بعد بوجود دولة اسمها جمهورية الصين الشعبية !! ..

وأخيرا .. وفي أكتوبر 1971 سمحت الولايات المتحدة للجمعية العامة للأمم المتحدة بإصدار القرار رقم 2708 الذي قضى بإعادة جميع الحقوق لجمهورية الصين الشعبية في الأمم المتحدة وطرد مندوب تايوان .. فتم الاعتراف بالصين الشعبية عضوا بالأمم المتحدة ومُنحت المقعد الخامس الدائم في مجلس الأمن بدلا من جزيرة تايوان ..

وفي فبراير عام 1972 قام الرئيس الأمريكي **ريتشارد نيكسون** بزيارة إلى الصين .. أصدر الجانبان الصيني والأمريكي خلالها في شانجهاي بيانا مشتركا ورد فيه : " إن الجانب الأمريكي أعلن أن الولايات المتحدة تعترف بأن جميع الصينيين على أي جانب من جانبي مضيق تايوان ينتمون إلى صين واحدة فقط ، وأن تايوان جزء من الصين .. وإن حكومة الولايات المتحدة لا تتحدى هذا الموقف .. " .. وأسفرت هذه الزيارة عن إلغاء المقاطعة الاقتصادية المفروضة على الصين .. وكانت هذه أول مرة يزور فيها رئيس أمريكي دولة لم تقم الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية معها ..

وفي ديسمبر 1978 تم توقيع ما يعرف بـ " بيان إقامة العلاقات الدبلوماسية " والذي تقرر فيه إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين اعتبارا من أول يناير 1979 .. حدث ذلك بعد أن قبلت الحكومة الأمريكية المبادئ الثلاثة التي اشترطتها الحكومة الصينية لإقامة العلاقات بينهما .. وهي قطع الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية مع تايوان ، وإلغاء معاهدة الدفاع المشترك ، وسحب قواتها العسكرية من الجزيرة ..

وقد أعلن البيان المشترك – تماما كما حدث في عام 1972 – " أن الولايات المتحدة الأمريكية تعترف بأن حكومة جمهورية الصين الشعبية هي الحكومة الشرعية الوحيدة في الصين ، وأن الشعب الأمريكي سيحافظ في هذا الإطار على اتصالات ثقافية وتجارية وغيرها من الاتصالات غير الرسمية مع أهالي تايوان ، وأن

حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تعترف بموقف الصين المتمثل في أن هناك صين واحدة فقط وأن تايوان جزء من الصين .. " .. وعلى هذا الأساس تم تطبيع العلاقات بين الصين والولايات المتحدة ..

وفي أعقاب ذلك قام **دنج شياو بينج** نائب رئيس مجلس الوزراء الصيني بزيارة الولايات المتحدة بناء على دعوة منها .. وكانت الزيارة بداية لتحسين العلاقات .. وفي أول مارس 1979 تم رسميا افتتاح سفارتين للصين والولايات المتحدة في كل من واشنطن وبكين ..

* * *

وفجأة .. تنصلت أمريكا من كل ما سبق ..

فلم تمض إلا ثلاثة أشهر على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، حتى أجاز الكونجرس الأمريكي ما يسمي بـ " قانون العلاقات مع تايوان " .. ووقع عليه الرئيس الأمريكي **كارتر** ليدخل حيز التنفيذ .. وقد ورد في هذا القانون الكثير من البنود المنافية لما تم الاتفاق عليه .. فواصلت أمريكا استنادا إلى هذا القانون بيع الأسلحة إلى تايوان ..

وفي 17 أغسطس 1982 عاد الطرفان لممارسة هواية إصدار البيانات .. فصدر البيان المشترك الثالث في محاولة لإيجاد حل نهائي لمشكلة بيع الأسلحة الأمريكية لجزيرة تايوان .. وخرجت الولايات المتحدة من الجلسات تعلن من جديد وبكل وضوح " أنها لا تسعى إلى تنفيذ سياسة خاصة ببيع الأسلحة لتايوان على المدى الطويل وأن مبيعاتها من الأسلحة لتايوان سوف لا تتجاوز نوعا و كمّا المستوى الذي تم تقديمه خلال السنوات الأخيرة منذ إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين .. وأنها مستعدة لخفض مبيعاتها العسكرية لتايوان بصورة تدريجية وصولا إلى تسوية نهائية بعد فترة من الزمن .. " .. وفي عام 1984 قام الرئيس الأمريكي **رونالد ريجان** بزيارة الصين .. وفي العام التالي قام الرئيس الصيني **لي زيانيان** برد الزيارة وكانت هذه أول زيارة لأمريكا يقوم بها رئيس من الصين الشعبية .. وظلت الزيارات – على مستويات مختلفة – متبادلة حتى زار الرئيس **جورج بوش** الأب بكين في فبراير 1989 .. ورغم التحسن الواضح في العلاقات الثنائية إلا أن الحكومة الأمريكية لم تنفذ أي شئ مما جاء في البيانات الثلاثة المشتركة .. وبلغ التجاهل مداه في سبتمبر 1992 عندما قررت الولايات المتحدة بشكل علني بيع 150 طائرة إف 16 لجزيرة تايوان .. ورغم ذلك حضر الرئيس الصيني **جيانج زيمين** مؤتمر أبيك المقام عام 1993 في الولايات المتحدة بدعوة أمريكية والتقى في سياتل بالرئيس الأمريكي **بيل كلينتون** .. وفي عامي 1997 و1998 تبادل الرئيسان الزيارة ، وكان لزيارة **كلينتون** صدى واسع حيث طاف بالعديد من المدن الصينية وتعامل مباشرة مع أهالي الصين ..

وفي عام 1997 كان هناك تصريح لـ **هنري كيسينجر** وزير الخارجية الأسبق في إحدى الندوات قال فيه :

"يجب علينا أن نتذكر أن الصين موجودة منذ خمسة آلاف عام ، وأعتقد أنهم كانوا يديرون شئونهم دون الرجوع إلى نصيحة الولايات المتحدة خلال فترة ترجع إلى 4800 عام من بين خمسة آلاف عام سابقة " .

ثم جاء حادث قصف السفارة الصينية في بلجراد عام 1999 ليضع نهاية لمرحلة الود الزائف التي تصنّعها الأمريكان على مدار 28 سنة ..

حدث القصف في شهر مايو من ذلك العام أثناء الحرب مع يوجوسلافيا .. وقد قدمت الولايات المتحدة اعتذارا للصين وألقت اللوم على الخرائط القديمة للمدينة التي اعتمد عليها الطيران الأمريكي في قصف الأهداف المعادية !! .. ثم كشف تقريران نشرا في مجلة الأوبزرفر الإنجليزية في شهري أكتوبر ونوفمبر أن السفارة الصينية قد تم قصفها بعد أن اكتشف الأمريكان أنها كانت تستخدم لنقل اتصالات الجيش اليوجوسلافي بعد أن تحطمت محطات الإرسال التابعة للحكومة اليوجوسلافية .. وقد لقي عدد من المراسلين الصحفيين الصينيين وآخرين من الموجودين في السفارة مصرعهم بسبب القصف ..

* * *

ومع قدوم الرئيس **جورج بوش** الابن أطلقت الإدارة الأمريكية اسم مدهش على الإطار السياسي لعلاقتها مع الصين ..

سميت السياسة الجديدة بـ " الوضوح الاستراتيجي " ، وهي استراتيجية تأسست على الوضع الراهن الفعلي ، تماما مثل سياسة وضع اليد التي نعرفها هنا في بلدنا .. فالأمر الواقع يقول أن الولايات المتحدة تمد جزيرة تايوان بالسلاح منذ أكثر من نصف قرن وسوف تظل تفعل ذلك .. وسوف تظل عائقا أمام عودة الجزيرة إلى الوطن الأم كما عادت هونج كونج في عام 1997 ..

وفي السنوات الأخيرة توترت العلاقة بين البلدين لأكثر من سبب ..

اتهمت الولايات المتحدة الصين أنها تقوم بالتجسس عليها .. واتهمتها أن لها بعض المشاركات السياسية غير القانونية للتأثير على نتائج الانتخابات الأخيرة في الولايات المتحدة .. ورغم هاتين التهمتين السخيفتين إلا أن أمريكا لم تقدم أي دليل عليها ، كما لم يقدم أحد هناك للمحاكمة .. وكان منتهى الظلم أن يتم فصل بعض العلماء الأمريكيين من أصل صيني بسبب جذورهم .. الغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تتهم الصين بالتجسس ، جاءت فضيحة سقوط طائرة التجسس الأمريكية على الأراضي الصينية ..

وفي الآونة الأخيرة قام بعض رجال الكونجرس بمحاولات لدعم حركات الاستقلال في كل من تايوان والتبت ..[49]

ومؤخرا جاء تصريح للرئيس **بوش** يؤكد على سياسة " الوضوح الاستراتيجي " ، حيث قال : " إن الولايات المتحدة ستفعل كل ما يحتاجه الأمر للدفاع عن تايوان " .. ولعل القارئ يلاحظ الفارق بين هذا التصريح وتصريحات البيانات الثلاثة المشتركة في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي .. إن **بوش** يعلن بكل برود أن أمريكا ستظل تحمي الأوضاع الحالية في جزيرة تايوان .. ومن الأمور التي أثارت حنق الصين هو الاستقبال الخاص للرئيس التايواني خلال توقفه لزيارة نيويورك في مايو 2001 ..

---

[49] منطقة جنوبي الصين تثير نزاعا بين الصين والهند ولها زعيم روحي هو **الدالاي لاما** ..

ثم تطلع علينا مستشارة الأمن القومي **كونداليزا رايس** لتنافس رئيسها **بوش** في بروده قائلة : " إن الصين ترفض الدور الأمريكي في منطقة أسيا الباسيفيكية ، وإن هذا يعني أن الصين تحاول تغيير توازن القوى الأسيوي لصالحها .. وهذا وحده يجعلها منافسا استراتيجيا وليست شريكا استراتيجيا كما كان يدعي البعض .. والدليل هو موقف الصين من تايوان " ..!! ..

* * *

على بلاطة ..

إذا لم يعجب الصين ما فعلته وما سوف تفعله أمريكا بخصوص تايوان ، فلتضرب رأسها في الحائط ..

ولا أكبر من سور الصين العظيم ! ..

(27)
كـوريـا : الـحـرب للـحـرب !

هو واحد من أشد صراعات الحرب الباردة دموية وغباء ..

كانت شبه جزيرة كوريا خاضعة للاحتلال الياباني بين عامي 1910 و 1945 .. وبعد هزيمة اليابان انسحبت قواتها من كوريا تحت إشراف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ..

أشرف الاتحاد السوفيتي على المنطقة شمال خط عرض 38 ، أما أمريكا فكانت مسئولة عن جنوب هذا الخط .. اشتركت الدولتان في لجنة هدفها تشكيل حكومة كورية موحدة .. دب الخلاف بين الجانبين على تحديد الاتجاهات السياسية التي يمكن تشكيل الحكومة منها .. فشلت جهود التوحيد وتحول خط 38 إلى فاصل بين دولتين ونظامين سياسيين : جمهورية كوريا الجنوبية تحت رئاسة **سينجمان ري** تدعمها أمريكا ، وجمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية تحت رئاسة **كيم إيل سونج** في الشمال ويدعمها الاتحاد السوفيتي والصين ..

ثم حاولت الولايات المتحدة ضم كوريا الجنوبية إلى الأمم المتحدة ، وكذلك حاول الاتحاد السوفيتي ضم كوريا الشمالية .. ولم ينجح أحد في مسعاه بعد أن استخدمت كل منهما حق الفيتو ضد الأخرى ، وهو ما أسفر عن رفض قبول عضوية الدولتين ..

ومع بداية عام 1949 كانت أمريكا والاتحاد السوفيتي قد سحبتا معظم قواتهما من كوريا ..

تعددت المصادمات المسلحة بين الكوريتين خلال عامي 1949 و1950 ..

ثم تذكر الوقائع الرسمية للأحداث التاريخية أنه في يوم 25 يونيو 1950 عبر خط 38 جنوبا أكثر من 80 ألف جندي من كوريا الشمالية في هجوم تجاه العاصمة سول ..

أما ما تم إغفاله في هذا الصدد فهو أن الهجوم الشمالي جاء ردا على قصف جنوبي بالقنابل في يومي 23 و24 يونيو ، ثم أعقب ذلك القصف اعتداء عبر الحدود في يوم 25 على مدينة كورية شمالية وهي بلدة هايجو .. ومما يدعم صحة هذه الرواية أن الكاتب الأمريكي **جون جونتر** كان موجودا في اليابان في يوم 25 يونيو من أجل الإعداد للسيرة الذاتية للجنرال الأمريكي الشهير **دوجلاس ماك أرثر** ، والذي كان موجودا في اليابان في ذلك الوقت .. وقد ذكر **جون جونتر** في كتابه أن مكالمة تليفونية جاءت إلى الجنرال **ماك أرثر** أثناء وجودهما معا وسط مجموعة من الناس ، وأنه عاد من المكالمة وقال له هامسا : " إن حدثا كبيرا قد وقع حالا .. لقد هاجم الكوريون الجنوبيون كوريا الشمالية اليوم .. " ..

اتخذ مجلس الأمن بدفعة من أمريكا قرارا بمساعدة كوريا الجنوبية ، فعملت الولايات المتحدة كوكيل للأمم المتحدة في معالجة الأزمة الكورية .. وكانت تلك المسألة سهلة الحدوث في ظل مقاطعة الاتحاد السوفيتي

للأمم المتحدة احتجاجا على منح مقعد الصين لجزيرة تايوان .. فقام الرئيس **ترومان** بتحريك الأسطول السابع في مضيق فرموزا (أمام السواحل الصينية) .. كما قام بإرسال قوات جوية وبرية ..

وفي أغسطس 1950 حاول الرئيس الهندي **نهرو** التدخل رغبة في إعادة السلام إلى تلك المنطقة من العالم ، وقد سعى إلى التوفيق بين وجهتي النظر الأمريكية والسوفيتية بأن اقترح قبول جمهورية الصين الشعبية في الأمم المتحدة في مقابل إجراء تسوية مرضية لحل النزاع الكوري .. وافق **ستالين** على العرض بينما رفضه **ترومان** مفضلا الحرب على الاعتراف بالصين ..

وبعد ثلاثة أشهر من القتال نجحت القوات الأمريكية والكورية الجنوبية في طرد قوات كوريا الشمالية شمال خط 38 ..

وفي 7 أكتوبر 1950 صدر قرار من الأمم المتحدة يدعو إلى توحيد كوريا ، ويفوض قائد القوات الأمريكية **ماك أرثر** في إرسال قواته إلى الشمال ، أي أن الأمم المتحدة قررت إعادة الوحدة بالعافية وفرض النظام الغربي الرأسمالي بقوة السلاح غير عابئة بالضحايا المفترض وقوعهم في سبيل هذا الهدف السامي .. كانت الولايات المتحدة وراء هذا القرار المتسرع الذي ساهم في قتل مئات الآلاف ..

المهم .. سقطت بيونج يانج عاصمة الشمال في أيدي **ماك أرثر** في 19 أكتوبر ، وظل يتوغل بجيوشه حتى وصل إلى الحدود الكورية الصينية .. كما قام الطيران الأمريكي باقتحام المجال الجوي للأراضي الصينية ، وقصف بعض القرى الصينية على الحدود بقنابل النابالم ..

فأثار هذا الاندفاع غضب الصين التي دفعت بـ 180 ألف جندي عبر الحدود .. وفي 24 نوفمبر اضطر الأمريكان إلى التراجع حتى سقطت سول مرة أخرى في أيدي القوات الصينية والشمالية ..

تم إعفاء **ماك أرثر** من قيادة الجيوش لأنه تصور في لحظة من لحظات جنون العظمة أن أمريكا لو أمدته بالمزيد من العتاد العسكري لتمكن من احتلال الصين نفسها بالكامل .. وتم تعيين الجنرال **جيمس فان فليت** – القادم بعد إنهاء مهمته في اليونان بنجاح – بدلا منه وقد نجح في صد القوات الشمالية إلى شمال خط 38 ، لتعود الأمور إلى المربع رقم واحد من جديد ..

* * *

بدأت مفاوضات الهدنة بين جميع الأطراف المتحاربة وساعد على إنهاء الأزمة وفاة **ستالين** في عام 1953 .. وانتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية تتضمن رسم الخط الفاصل وإقامة منطقة عازلة منزوعة السلاح ..

الخلاصة .. لم تسفر هذه الحرب الحمقاء عن شئ سوى مصرع 2 مليون من قوات الصين وكوريا الشمالية بالإضافة إلى مليون مدني ..

وعلى الجانب الآخر مات وفقد وجرح أكثر من مليون كوري جنوبي فضلا عن تدمير 40 % من المنشآت الصناعية و30 % من المساكن على الجانبين .. أما أمريكا ففقدت حوالي ثلاثين ألف جنديا ، وكسبت تواجدا جديدا في شرق أسيا جاثمة على أنفاس عدوها اللدود ، ولو على حساب ملايين الجثث ..

* * *

" هذه هي الحرب التي لا نستطيع أن نكسبها ولا أن نخسرها .. ولا أن نفر منها " ..

هذه العبارة من أقوال جندي أمريكي أثناء المعارك ..

ومن المؤكد أنها عبارة صحيحة تماما ..

إنها الحرب التي لا معنى لها سوى أن أمريكا التي دخلت الحرب العالمية الأولى متأخرة ثلاثة أعوام ودخلت الثانية متأخرة عامين شعرت بوخز الضمير لأنها لم تتمكن من قتل أعداد كافية من البشر ! ..

(28)
جـزر المـحـيـط الهـادي : فـداء للعـلـم

على هامش حرب كوريا ..

هناك جزيرة اسمها إنيويتوك في المحيط الهادي .. لا يحاول أحدكم البحث عن جزيرة بهذا الاسم على أي خريطة في العالم ، لأنه لم يعد لها وجود .. كيف ؟

في أثناء الحرب في كوريا ، فجرت أمريكا على هذه الجزيرة أول قنبلة هيدروجينية في التاريخ .. كان ذلك في أول نوفمبر 1952 .. وكانت مجرد تجربة لمعرفة مدى تأثير القنبلة ..

بلغ طول اللهب ثلاثة كيلومترات ونصف وارتفع ألف قدم .. وقد كتب أحد الصحفيين نقلا عن العلماء في جريدة نيويورك تايمز في حينها يقول : " بوسع هذا السلاح الذي تفجر بشدة تعادل شدة تفجر 20 مليون طن من أقوى المتفجرات[50] أن يدمر مساحة تزيد على 300 ميل مربع بقوة التفريغ الهوائي و1200 ميل مربع بنيرانه ، ولو أودع قذيفة من الكوبالت لأنتج سحابة من الغبار المشع تعادل ما يحدثه خمسة ملايين رطل من الراديوم ، تنشر الموت والدمار على آلاف من الأميال المربعة " ..

طبعا ماتت كل الكائنات الحية على هذه الجزيرة الخالية من البشر .. هلك الزرع ونفقت الحيوانات ..

كأن أمريكا لم تكتف بلعنات البشر ، فأضافت إليها لعنات سائر المخلوقات على الأرض ..

* * *

أما جزيرة بيكيني – إحدى جزر المارشال – التي تقع كذلك في المحيط الهادي فقد تعرضت في الفترة بين عامي 1946 و1958 لإجراء 23 تجربة نووية .. وقد حدث ذلك بعد تهجير سكانها وإجبارهم على الاستيطان من جديد في جزر أخرى غير مأهولة ..

وفي عام 1968 أخبرت الحكومة الأمريكية سكان بيكيني السابقين أن جزيرتهم قد تم بحمد الله تنظيفها وأنها قد أصبحت آمنة للسكن من جديد .. وعاد الكثيرون إلى وطنهم ..

وبعد حوالي عشرة أعوام عادت الحكومة الأمريكية لإخبارهم أنهم قد تعرضوا لجرعات كبيرة من الإشعاع الذري الناتج عن التفجيرات السابقة ، وأنه يتعين عليهم الرحيل مرة أخرى ..

وفي عام 1983 أعلنت وزارة الداخلية الأمريكية في بشرى سارة لأهالي الجزر المشعة أنه بإمكانهم العودة إلى ديارهم فورا ، بشرط ألا يتناولوا أية أطعمة منتجة محليا حتى نهاية القرن الحادي والعشرين (عام 2100) ..

ولم يعد أحد ! ..

---

[50] قنبلة هيروشيما كانت تعادل 20 ألف طن فقط، وهو ما يعني أن ألف قنبلة من هذا النوع تماثل قنبلة إنيويتوك !

(29)
فـيـتـنـام : الهـزيـمـة

قولوا للكلب الأمريكاني .. جيش فيتنام هيعود من تاني ..

هكذا رأيت المصريين والعراقيين يهتفون معا في مظاهرة تليفزيونية بإستاد رياضي في بغداد قبل بدء الحرب .. فما حكاية فيتنام التي أصابت أمريكا بنكسة نفسية تشبه وكستنا في 1967 ؟

* * *

في أثناء الحرب العالمية الثانية كانت اليابان تحتل ما عُرف باسم الهند الصينية المكونة من فيتنام وكمبوديا ولاوس .. وفي عام 1945 قاد الزعيم **هوتشي منه** حركة المقاومة الشيوعية (فيت مين) وأعلن قيام جمهورية فيتنام مستقلة .. لكن خوفا من نظرية الدومينو ، أرادت أمريكا أن تمنع انتشار الشيوعية في شرق أسيا ، فحاولت إعادة الحكم الفرنسي للمنطقة كما كان الحال قبل الاحتلال الياباني ، لكن لم يلبث أن فشلت محاولاتها وانسحبت فرنسا من أسيا بحلول عام 1953 ..

والغريب أنه قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وتحديدا في يناير 1944 كان للرئيس الأمريكي **روزفلت** موقف مختلف من الاحتلال الفرنسي لمنطقة الهند الصينية ، حيث قال : " لقد احتلت فرنسا هذه الدولة لما يقرب من مائة عام .. والناس أسوأ حالا اليوم عما كانوا عليه في أول الأمر .. فقد استنزفت فرنسا البلاد على مدى المائة عام .. وشعب الهند الصينية يستحق أفضل من ذلك " ..

وقد أوضحت الولايات المتحدة عمليا فيما بعد ما الذي تستحقه شعوب الهند الصينية فعلا ! ..

* * *

المهم .. لم ترضخ أمريكا للانسحاب الفرنسي وقررت أن تملأ الفراغ ..

انقسمت فيتنام إلى دولتين : شمالية شيوعية وأخرى جنوبية تدعمها أمريكا ، تماما مثل كوريا ..

وبمقتضى اتفاقية جنيف 1954 تم تقسيم فيتنام بشكل مؤقت على أن تجرى انتخابات عامة للشمال والجنوب عام 1956 يتحدد على ضوئها إمكانية الوحدة من جديد .. اختارت أمريكا عميل المخابرات الأمريكية **نجو دين ديم** رئيسا للحكومة في الجنوب ، ثم جري استفتاء تم على إثره تنحية إمبراطور الجنوب وأعلنت الجمهورية وأصبح **نجو دين ديم** أول رئيس للجمهورية .. رفضت هذه الحكومة الجنوبية بتوجيهات من أمريكا الإعداد للانتخابات التي كانت ستؤدي حتما للوحدة .. أدى هذا الإجراء إلى وقوع تمرد في فيتنام الجنوبية ، فسارعت الولايات المتحدة إلى مساندة الحكومة لقمع المتمردين بالعنف .. لقد كان الفيتناميون يرغبون في الوحدة ..

وقد كتب الرئيس الأمريكي **أيزنهاور** بنفسه في مذكراته مؤكدا أنه لو كانت الانتخابات قد جرت كما كان مقررا لها في عام 1956 ، لكان **هوتشي منه** قد فاز بـ 80 % من الأصوات ..

وبعد سنوات من التخبط نجح الجيش والشعب في القيام بانقلاب ضد نظام **ديم** في عام 1963 ولقي الرئيس مصرعه[51] ، وازداد الوضع خطورة من وجهة نظر أمريكا ، فقد زادت المقاومة الفيتنامية الجنوبية بدعم من الشماليين ، ولم تعد حكومة الجنوب التي جاءت بعد **ديم** تحتمل المقاومة أكثر من ذلك ، ولا حتى بعد زيادة التدخل العسكري الأمريكي بمرور السنوات ..

وهنا كان لابد من تحرك أمريكي سريع وإلا سقط الجنوب في أيدي الشيوعيين ..

ففي أغسطس من العام التالي 1964 ، وقف الرئيس **جونسون** أمام الشعب الأمريكي ليعلن في تأثر ممزوج بالغضب أن مدمرة أمريكية في خليج تونكين (أمام الساحل الفيتنامي) قد تعرضت لاعتداء من الفيتناميين الشيوعيين ، وهو ما اعتبره الرئيس تهديدا خطيرا للأمن القومي للبلاد ، ولمواجهة هذا الخطر المفزع استصدر **جونسون** من الكونجرس قرارا منحه سلطة إرسال أعداد ضخمة من الجنود إلى فيتنام ..

لقد كان هذا إعلانا للحرب ..

انكشفت الخدعة بعد سنوات وتبين أن تفاصيل قصة الاعتداء على المدمرة الأمريكية كانت من وحي الخيال .. فالمدمرة الأمريكية مادوكس لم تتعرض لأي هجوم طوربيدي كما أُشيع ، بل كل ما هنالك أن ضابط مراقبة الرادار الصوتي كان متحمسا بشكل زائد فتصور أن ما سمعه من أصوات للسفن الأمريكية المجاورة هو هجوم فيتنامي[52] ، فأرسل الضابط يبلغ السلطات بالاعتداء قبل أن يتبين حقيقة ما يحدث .. ورغم أن هذا التوضيح قد وصل إلى الإدارة الأمريكية فورا ، إلا أن هذا لم يمنع الرئيس الأمريكي من إعلان الحرب في نفس الليلة ..

* * *

لم تنجح الولايات المتحدة في حسم الحرب لصالحها ، ومر عام وراء عام والوضع يزداد تعقيدا ، والمظاهرات في كل مكان من العالم تندد بالوحشية والبلطجة ، والفيتناميون يدافعون عن وطنهم باستبسال ويلحقون بالقوات الأمريكية خسائر فادحة .. بينما الحكومة الأمريكية في واد آخر تماما حتى أنها أرسلت الكاردينال **سبيلمان** رئيس أساقفة نيويورك في عز الحرب إلى سايجون عاصمة الجنوب من أجل أن يقول لجنود الجيش الأمريكي الذين يضربون المدن الشمالية بالقاذفات الثقيلة بي 52 : " أنتم جنود المسيح " ! ..

وفي فبراير 1966 تحمس **ديفيد لورنس** رئيس تحرير " يو إس آند وورلد ريبورت " ، وكتب ما يلي : " إن ما تفعله الولايات المتحدة في فيتنام هو أروع مثال شهدناه في عصرنا لعمل البر الذي يقدمه شعب لآخر " !! .. وقد أرسل حينذاك الكاتب السياسي الأمريكي الساخر **ويليام بلوم** إلى السيد **لورنس** كتيبا عنوانه " الفظائع الأمريكية في فيتنام " وأرفق به مذكرة تشرح ما في الكتيب ثم أضاف إلى ذلك عبارة **لورنس** السابقة عن روعة البر الأمريكي ، وكتب في نهاية رسالته : " إن أحدنا لمجنون " !! ..

---

[51] الغريب أن أمريكا هي التي قتلته بسبب فشله !

[52] المدمرة مادوكس اخترقت المياه الإقليمية لفيتنام الشمالية وأطلقت النيران على زوارق دورية الحدود التي دافعت عن أمن بلدها وطاردت المدمرة وأخرجتها إلى عرض البحر ، وتركتها وعادت إلى قواعدها ..

وفي مارس 1966 اصطدمت قوات المارينز الأمريكية مع قوات فيتنام الشمالية في معركة دموية عرفت باسم " عملية يوتا " .. وقد كتب **جوزيف جالوواي** المحرر بوكالة يونايتد بريس انترناشيونال تقريرا يصف فيه إحدى وقائع عملية يوتا قائلا : " وقفنا على التل نشجع ونطلق صفارات ونرفع أصواتنا قائلين : اقتلوا ذلك الوغد ، انتقموا منه ، ماذا حدث لكم أيها الحمقى .. كان الشيوعي الوحيد المتبقي مع نهاية المعركة يبعد عنا قرابة الخمسين ياردة أسفل الربوة المجاورة .. كان يجري ساعيا للاختفاء عن الأنظار ومحاولا الوصول إلى قمة الربوة .. وكان يلاحقه حوالي ثلاثين من رجال المارينز نحو قمة التل المغطاة بالأشجار .. كنا كمن يشاهد مباراة للكرة من أعلى مدرجات استاد أمريكي .. فقد كنا في نقطة أعلى من الطرفين نرى منها الشيوعي وملاحقيه ونستطيع أن نتابع كل حركة بوضوح .. كان رجال المارينز في نقطة لا يرون منها فريستهم جيدا ، وقد أطلقوا النار عليه عدة مرات .. وفجأة أصابته إحدى الرصاصات ، فوقع الشيوعي على الأرض وسقط سلاحه من يده .. " أجهزوا عليه ، أجهزوا عليه " ، هكذا صاح أحد المبتهجين بجانبي .. ثم انطلق الرجل يجري من جديد ، فصاح أحد رجال المارينز : " هيا انطلقوا وراءه .. أمسكوا به " ثم أصابت رصاصة أخرى قدم الشيوعي ، وللمرة الثانية عاد ليقوم ، وحين أصابته الرصاصتان الثالثة والرابعة أصبحت حركته بطيئة ، ووقع من جديد ولكنه ظل يتحرك زاحفا نحو قمة التل .. ولا أحد يعرف إن كان قد ظل حيا أم مات ، فلم يتبعه رجال المارينز أكثر من أعلى الربوة " ..

كما يصف أحد الجنود واقعة أخرى ، فيقول أنه شاهد سيدة عجوزا في سريرها تفارق الحياة ، وكان هناك راهب بجانبها يصلي لها .. وقد أمره الضابط المسئول أن يسأل الراهب المسن عن الفيتكونج .. ولما أنكر الراهب أي علاقة أو معرفة له بهم ، قام الضابط **ويليام كالي** بجره إلى الخارج وأخذ يضرب رأسه في حقول الأرز .. وفي أثناء ذلك كان الراهب يتوسل إليه ويستعطفه أن يبقي على حياته ، فما كان من **كالي** إلا أن أطلق عليه النار ، ثم أمر بإلقاء كل من تبقى من أهل القرية الأحياء في الخندق وإطلاق النار عليهم .

وفي كتاب Seeker of Visions يقول حكيم الهنود الحمر **لام دير** Lame Deer : " رأيت صورا من مذابح سونج ماي وماي لاي في فيتنام .. رأيت صور الأمهات الذبيحات وأطفالهن يرضعون من أثدائهن .. وتذكرت جدي **جود فوكس** Good Fox يخبرني عن الأم الذبيحة فوق ثلوج ووند ني وطفلتها التي ترضع من ثديها البارد .. إنها صورة واحدة .. لم يتغير شئ سوى المكان .. كل ما هناك أن ثدي ماي لاي كان حارا ، أما ثدي ووندد ني فكان باردا متجمدا .. هذا هو الفارق " ..

وفي 16 مارس 1968 اقتحمت مجموعة من الكتيبة 11 قرية ماي لاي ، فقتلت 347 عجوزا وامرأة وطفلا ، ثم قام المشاة بإحراق الأكواخ بمن فيها من البشر .. وبعد نجاح العملية ، اجتمع برجال الكتيبة الشجعان الجنرال **وستمورلند** وهنأهم على أدائهم الرائع ، وتبادل الضباط الأنخاب ابتهاجا في المركز الرئيسي ساعة الكوكتيل ..

كان هذه مجرد مشاهد من معارك نادرة الحدوث بين قوة جبارة تسعى للقضاء على شعب بأكمله بأشد الأساليب قسوة وبين كفاح شعبي يدافع عن معتقدات وأفكار وقبل أي شئ عن وطن .. لكن أسلوب أمريكا في إدارة المعركة لم يكن أبدا فعالا ولا كافيا بسبب العديد من الحسابات الخاطئة ..

وعندما دخل **ريتشارد نيكسون** الانتخابات في عام 1968 ، كان يروج لإنهاء الحرب في فيتنام بعد تصاعد الاعتراضات الداخلية على مغزى شنها .. وعندما وصل إلى البيت الأبيض في مطلع عام 1969 رفع شعار الفتنمة Vietnamization ، أي إحلال الفيتناميين الجنوبيين محل الأمريكان من أجل التصدي للشماليين .. لكن الأرقام تشير إلى عكس ذلك .. فقد كان عدد الجنود الأمريكان في فيتنام في عام 1963 لا يتجاوز 23 ألف جندي ، ارتفع إلى 184 ألف في عام 1966 ، ثم وصل العدد إلى 542 ألف في عام 1969 ..

وفي يناير 1973 تم التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار وسحب القوات الأمريكية من فيتنام ومبادلة الأسرى وإزالة جميع القواعد الأمريكية ، إلا أن الحرب استمرت حتى سقطت حكومة الجنوب في 30 أبريل 1975 ، وتوحدت فيتنام رغم أنف أمريكا تحت حكومة شيوعية ..

وفي 27 يناير 1973 وقعت الولايات المتحدة في باريس اتفاق إنهاء الحرب وإعادة السلام في فيتنام ، وكان من المبادئ التي وافقت عليها أمريكا المبدأ المنصوص عليه في المادة 21 ، والذي يقول : " بمقتضى سياسة الولايات المتحدة ، فإنها ستساهم في إبراء الجروح و إعادة التعمير فيما بعد الحرب في فيتنام الديمقراطية (فيتنام الشمالية) وفي كل أنحاء الهند الصينية " .. وبعد ذلك بخمسة أيام بعث الرئيس الأمريكي **نيكسون** برسالة إلى رئيس وزراء فيتنام الشمالية يقول فيها : " ستسهم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في إعادة تعمير فيتنام الشمالية بعد الحرب بدون أي شروط سياسية ، وقد بينت الدراسات الأمريكية الأولية أن البرنامج الملائم لمساهمة الولايات المتحدة في إعادة التعمير بعد الحرب سيقع في نطاق 3.25 مليار دولار من المعونة التي تقدم كمنحة خلال خمس سنوات " ..

وحتى يومنا هذا لم تدفع الولايات المتحدة سنتا واحدا ..

بل إن الرئيس الأمريكي **جيمي كارتر** علق على هذا الموضوع في فترة رئاسته بعد انتهاء الحرب بسنوات وأكد أن الولايات المتحدة غير مسئولة عن دفع تعويضات لأن " الدمار كان متبادلا " **!!** ..[53]

* * *

خلاصة الحرب .. استخدمت أمريكا في خلال عشر سنوات العديد من الأسلحة المحرمة دوليا مثل النابالم وغاز السارين السام والفوسفور الأبيض .. وأبادت مئات القرى .. ورشت عشرات الآلاف من أطنان المبيدات الحشرية فوق ثلاثة ملايين من الأفدنة في جنوب فيتنام كي تدمر غطاء أوراق الشجر الذي

[53] نال **جيمي كارتر** جائزة نوبل للسلام في عام 2002 !

يستخدمه أعداؤها في التخفي وكذلك لتدمير المحاصيل الزراعية .. واستهلكت من القنابل ثلاثة أضعاف الكميات التي تم استهلاكها في الحرب العالمية الثانية بالكامل .. وانتهت الحرب بمصرع 3 مليون أسيوي .

وفي نهاية الأمر تجرعت أمريكا مرارة الهزيمة .. وكان مشهدا يشفي غليل المقهورين في الأرض عندما اضطرت الأعداد المتبقية من الأمريكان وأتباعهم إلى الهروب في طائرات هليكوبتر أمريكية من فوق سطح السفارة الأمريكية في اللحظات الأخيرة قبل الفتك بهم ..

وفي منتصف السبعينات صدر كتاب لـ **روبرت ماكنمارا** وزير الدفاع في إدارة الرئيس **جونسون** وهو واحد من أبرز المسئولين عن تصعيد الحرب ، جاء فيه أن تلك الحرب كانت غلطة .. يا سلام ! .. إنها غلطة ثمنها 3 مليون بني آدم وفوضى وفقر ودمار وأمراض حتى اليوم .. المثير في الأمر أن **ماكنمارا** هذا كان الممثل الأمريكي الرئيسي في المفاوضات لإنهاء حرب فيتنام[54] .. وتم تعيينه بعد تركه لمنصب وزير الدفاع في عام 1968 ولمدة 13 عاما رئيسا للبنك الدولي الذي يتلخص دوره في مساعدة الدول الفقيرة على تخطي أزماتها ..

إنه الرجل المناسب في المكان المناسب ..

أما العبارة المناسبة التي تلخص ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام ، فهي عبارة الكاتب الأمريكي **ديك جريجوري** الذي أجمل الموضوع في عبارة قصيرة بليغة تقول :

" إن ما نفعله في فيتنام هو أننا نجعل الرجل الأسود يقتل الرجل الأصفر حتى يستطيع الرجل الأبيض الاحتفاظ بالأرض التي أخذها من الرجل الأحمر " ! ..

[54] مُنح على ذلك ما يسمى بجائزة **ألبرت أينشتاين** للسلام !

(30)
لاوس : تكنولوجيا القصف

.. Carpet Bombing

حصيرة قنابل ..

مصطلح عسكري مفزع لا ينحته سوى سفاح أصيل ..

والمصطلح هو خلاصة استراتيجية قصف أمريكية جديدة في منتصف الستينات تم تطبيقها على دولة لاوس الأسيوية الفقيرة جدا – وكذلك على كمبوديا المجاورة – .. وكان المقصود بها هو إلقاء القنابل من الطائرات على قطاعات ضيقة لا يزيد عرضها على أمتار قليلة ، ولكن بأطوال ممتدة بطول قرى بأكملها ، بحيث يضمن الطيار أن شيئا لن يبقى على قيد الحياة بعد مروره في خط مستقيم .. تماما مثل السجاجيد الحمراء الطويلة التي تُفرش في الممرات الطويلة الضيقة فتغطيها بالكامل .. وكانت لاوس مثل مجموعة من الممرات الطويلة المتجاورة ، تغطيها سجادة حمراء تلو الأخرى .. حتى ساد اللون الأحمر في طول البلاد وعرضها ..

* * *

لاوس هي الجارة الغربية الملاصقة لحدود فيتنام والتي تشكل معها بالإضافة إلى كمبوديا – التي تقع إلى الجنوب من لاوس – ما عُرف يوما ما باسم الهند الصينية .. كانت هذه المنطقة من جنوب شرق أسيا واقعة تحت الاحتلال الفرنسي منذ سبعينات القرن التاسع عشر .. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتغير جنسية المحتل ، فتحل اليابان محل فرنسا .. وعندما انتهت الحرب ، رأت أمريكا أن تعيد فرنسا إلى مكانها ومكانتها ، على أن يكون هذا الوضع مؤقتا تلعب فيه فرنسا دور الدوبلير ..

لقد كانت فرصة ذهبية بالنسبة للولايات المتحدة أن يكون لها نفوذ ما في موقع يطل على جنوب الصين ، ويمكن اعتباره نوعا ما داخل دائرة نفوذ الاتحاد السوفيتي مثلما تعتبر أمريكا الجنوبية بالنسبة للولايات المتحدة ، غير أن ما حدث كان أن فشلت فرنسا في الحفاظ على مستعمراتها وتعرضت للإحراج العسكري الشديد ..

وفي عام 1954 تم توقيع اتفاقية في جنيف بشأن الوضع في الهند الصينية .. وقد نصت الاتفاقية – من بين ما نصت عليه – على أن تكون لاوس محايدة ولا تدخلها أية قوات أجنبية .. ومنذ اليوم الأول لم ترض أمريكا عن بنود الاتفاقية ، وعدم رضاء أمريكا يعني دائما أن تفعل ما في وسعها حتى يتحول عدم الرضاء إلى رضاء .. وهكذا قررت الولايات المتحدة ضرورة القضاء على وضع لاوس المحايد ..

فالحياد – من وجهة نظرها – كان غالبا ما يتيح للشيوعية أن تنتشر ..

* * *

كان أكثر ما تخشاه الولايات المتحدة فيما يتعلق بلاوس هو منظمة الباثيت لاو (أي الشعب اللاوي) ، وهي منظمة ثورية يسارية أسسها **سوفانوفونج** في لاوس عام 1950 .. وقد أصبحت بعد ذلك حزبا سياسيا ..

كان بداية التدخل الأمريكي من خلال المخابرات الأمريكية التي لم تعتبر نفسها قوة عسكرية وهو ما يكفل للولايات المتحدة أن تظل على التزامها باتفاقية جنيف .. كان هذا أحد أشكال التحايل السياسي ، فالوكالة كانت تقوم بكل ما هو أفظع من التدخل العسكري المباشر ، حتى أن الملحق العسكري الأمريكي في لاوس الكولونيل **بول بيتجرو** نصح من حل محله في فينتيان عاصمة لاوس في عام 1961 قائلا :" أرجوك ألا تعارض وكالة الاستخبارات المركزية ، وإلا وجدت نفسك طافيا على وجهك في نهر ميكونج " ..

كان أول أعمال الوكالة هو قرار القضاء على حكومة رئيس الوزراء **سافونا فوما** المحايدة التي كانت تربطها بالباثيت لاو علاقات ودية .. وكانت أهم جرائم الباثيت لاو في تقديرها هو الدعوة إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع دول المعسكر الشرقي ، وقبول المساعدات الاقتصادية منها ، تماما مثلما هو الحال مع دول المعسكر الغربي .. لقد كان هذا تطبيقا عمليا لسياسة الحياد التي دعت إليها اتفاقية جنيف ..

ومنذ عام 1957 كان هناك أعضاء من الباثيت لاو يشاركون في الحكومات الائتلافية قصيرة العمر التي كانت تتولى أمر البلاد .. وكان سبب انقطاع أنفاس تلك الحكومات يعود إلى ثلاثة انقلابات متتالية في أعوام 1958 و1959 و1960 بتدبير من المخابرات الأمريكية بسبب استمرار الباثيت لاو في تحقيق مكاسب انتخابية ضخمة في كل مناسبة ..

وفي نهاية الأمر – في أواخر عام 1960 – ملأ عملاء المخابرات الأمريكية صناديق الاقتراع بأصوات زائفة لمساعدة الجنرال **فوومي نوسافان** الرجل الذي اختارته أمريكا لإقامة حكومة موالية لها ..

وفي نفس ذلك العام بدأت الوكالة في إنشاء جيش سري في لاوس بقيادة **فانج باو** ، حيث زودته بالبنادق ومدافع الهاون والصواريخ .. كان الغرض من الجيش السري هو محاربة الباثيت لاو والقضاء على أكبر عدد من أتباعهم ، إضافة إلى تجهيز لاوس لتكون امتدادا لتأمين العمليات العسكرية في فيتنام في منتصف الستينات .. وفي عام 1963 وصل عدد أفراد هذا الجيش إلى 30 ألف مقاتل .. وقد صرفت الولايات المتحدة على تجهيزه حوالي 300 مليون دولار ..

* * *

ومن الحكايات المثيرة للقراءة في هذا السياق هي قصة ضابط المخابرات الأمريكي **أنتوني بوسيفني** الذي تولى مسئولية الإشراف على جيش **فانج باو** اعتبارا من عام 1963 ، وقد أتت به الإدارة في واشنطن إلى ذلك المكان خصيصا لإثارة حماس أعضاء الجيش السري ..

والحق يقال كان له أسلوبه المؤثر .. أعلن **بوسيفني** أنه سوف يدفع جائزة مالية مقابل كل زوج من آذان أتباع الباثيت لاو يُسلم له ، وكان يحتفظ بالآذان داخل أكياس من البلاستيك عند مدخل مقر إقامته ، بل

ووصل به الحال أن نظم مجموعة من تلك الآذان في خيط عند النافذة ، ولكي يقنع رؤساءه في وكالة الاستخبارات الذين قد يعتريهم الشك بشأن صحة بياناته عن أعداد القتلى ، دبّس ذات مرة زوجا من الآذان في تقرير وبعث به إلى القيادة .. ولم تكن تلك الطريقة – وهي وسيلة تاريخية قديمة استخدمها أجداده في حصر عدد القتلى من الهنود الحمر – مأمونة كما كان **بوسيفني** يتصور ، فقد وصف هو نفسه كيف أنه ذهب يوما إلى الريف ووجد صبيا صغيرا بلا أذنين ، ثم قيل له إن والد الطفل قطعهما كي يحصل على نقود من الأمريكان .. وجعل **بوسيفني** جائزته المالية مقابل رؤوس الباثيت لاو الكاملة ، حيث كان يحفظها في الفورمالين داخل غرفة نومه !! ..

* * *

وللأمريكان دور آخر نستطيع أن نضيفه بكل ارتياح إلى سجلهم الأسود في جنوب شرق أسيا ، إلى جانب قتل مئات الألوف عن طريق القصف الجوي العشوائي، والتصفية الانتقائية للشيوعيين من خلال العمليات السرية .. فقد ساهمت الولايات المتحدة بمنتهى التفاني في رواج تجارة المخدرات في جنوب أسيا ، وهو ما ساعد على التوسع الرهيب في تلك التجارة فيما عرف بالمثلث الذهبي الذي يضم كلا من تايلاند ولاوس وبورما ..[55] ففي عام 1959 كانت لاوس تنتج حوالي 150 طنا من الأفيون ، وبحلول عام 1971 كان الإنتاج قد ارتفع إلى 300 طن سنويا.. وقد أمكن تحقيق تلك الزيادة في الإنتاج عن طريق الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية التي قدمت الأرز للشعب اللاوي رغم أنهم يشتهرون بزراعة الأرز ، مما سمح لهم بالتوقف عن زراعة هذا المحصول الغذائي الرئيسي واستغلال الأرض في زراعة الخشخاش ..

وفي أبريل 1971 تسببت صلات المخابرات الأمريكية بملوك الأفيون في جنوب شرق أسيا في بعض الإحراج المتبادل بين الولايات المتحدة وفرنسا .. فقد كان ولي عهد لاوس **سوبسايسانا** قد عين سفيرا للاوس في فرنسا ، وعند وصول الأمير إلى باريس أعلن بغضب عن ضياع بعض من حقائبه الكثيرة ، ووبخ موظفي المطار الذين وعدوه بكل لطف أن يعملوا على استعادة حقائبه .. والواقع أن الجمارك الفرنسية استولت على حقائب الأمير بعد وصول إخبارية عن حمله لهيروين عالي الجودة .. وكانت الحقائب تحتوي على 60 كجم من الهيروين قيمتها 13.5 مليون دولار ، وكانت تلك أكبر كمية مخدرات تضبط في تاريخ فرنسا .. وكان الأمير يعتزم إرسال شحنة المخدرات إلى نيويورك .. وقد أقنع فرع وكالة الاستخبارات المركزية في باريس المسئولين الفرنسيين بالتكتم على الأمر ، وإن لم تعد للأمير مخدراته ..

---

[55] لم تكن الولايات المتحدة صاحبة زمام المبادرة في نشر الأفيون المستخرج من نبات الخشخاش ، بل يعود الفضل إلى بريطانيا حيث احتكرت شركة الهند الشرقية البريطانية تجارة الأفيون – الذي كان قد نشره الإسبان والبرتغاليين في أسيا مع مطلع القرن السابع عشر – وبدأت تصدره الشركة البريطانية إلى الصين عبر الهند بعد احتلالها في منتصف القرن الثامن عشر .. وهناك في التاريخ الحديث ما يعرف باسم حرب الأفيون في منتصف القرن التاسع عشر وهي حرب حاولت الصين فيها أن تمنع بريطانيا بالقوة من نشر الأفيون بين أفراد شعبها عن طريق مصادرة أطنان من الأفيون وإعدامها بعد أن أدمن الأفيون أكثر من 15 مليون صيني .. لكن الإنجليز نجحوا في دحر الصينيين بمنتهى القسوة وأجبروهم على الاعتراف الرسمي بمشروعية تجارة الأفيون ، بل ودفع ستة ملايين جنيه إسترليني في عام 1842 تعويضا عن الأفيون الذي تم إعدامه !! ..

ومن أبرز الأدلة التي تؤكد على صلة المخابرات الأمريكية بتجارة المخدرات في تلك البقعة من الأرض ، أن الهيروين في لاوس كان يتم تكريره وتجهيزه في معمل تابع لمركز قيادة وكالة الاستخبارات الأمريكية في شمالي لاوس ..

ولم يمض وقت طويل على التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة ، حتى أصبحت جنوب شرق أسيا تمد الكرة الأرضية بأسرها بـ 70 % من نبات الخشخاش ، والممول الرئيسي للهيروين الخام بالأسواق الأمريكية .. وكانت المخدرات تنتقل – كما ظهر في واقعة الأمير اللاوي في المطار الفرنسي – عبر المخابرات الأمريكية ..

* * *

أما التدخل العسكري المباشر فقد بدأ منذ عام 1965 ، وكان منصبا بالأساس على القصف الجوي ، بعد أن ثبت عجز الجيش السري عن القضاء على أتباع الباثيت لاو ، كذلك بعد أن بدأت الحرب في فيتنام وتسلل بعض الفيتناميين الشماليين إلى لاوس المجاورة ..

وكانت أمريكا تستخدم قواعد عسكرية تابعة لها في تايلاند لتيسير قصفها اليومي لفيتنام ولاوس وكمبوديا بالقنابل ..

وفي الفترة ما بين عامي 1965 و 1973 أمطرت القوات الجوية الأمريكية شعب لاوس بما يزيد على 2 مليون طن من القنابل ، وعن طريق سياسة حصيرة القنابل السابق الإشارة لها أجبرت الكثيرين من أبناء لاوس على العيش في الكهوف في محاولة للهروب من الجحيم الجوي الذي أسفر عن مصرع نصف مليون مواطن على الأقل ، كما أدى إلى تشويه أعداد أكبر من ذلك وإبادة مئات القرى من على وجه الأرض ..

وقد وصف أحد القرويين الناجين الأسلوب الذي كانت تنهمر به القنابل قائلا : " لقد كانت القنابل تتساقط بغزارة مثل البذور التي ينثرها الفلاحون في الحقول " ..

لقد وصل القصف إلى درجة من العنف إلى الحد الذي تؤكد فيه بعض الإحصائيات أنه على مدار تسعة سنوات – 1965 إلى 1973 – كانت تسقط القنابل بمعدل قنبلة كل ثمانية دقائق ، وأن عدد القنابل العنقودية الملقاة على الأراضي اللاوية ولم تنفجر تخطى تسعة ملايين قنبلة ، هذا بخلاف أكثر من ربع مليار قنبلة عنقودية تم إسقاطها على الهند الصينية ككل في نفس الفترة الزمنية .. وهو ما يعني أن نصيب الفرد في هذه المنطقة البائسة من العالم كان سبعة قنابل ..

أجل .. سبعة قنابل لكل مواطن ..

* * *

ورغم كل ذلك ، فالمثير للدهشة أن الأمريكان الذين كانوا يلقون حتفهم في لاوس كانوا يدونون في السجلات العسكرية على أنهم ماتوا في معارك فيتنام .. لقد أخفت الإدارة الأمريكية الكثير مما كان يحدث عن الشعب الأمريكي .. وهذه فقرة من كتاب الدولة المارقة للكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** تشرح بعض ما

كان يحدث : " عندما كان الغزاة الأمريكيون يقومون بانطلاقاتهم ، واجهوا قوة أكثر تفوقا من جنود فيتنام الشمالية وجنود الباثيت لاو الشيوعيين ، وطلب الأمريكيون المساعدة الجوية .. وبعد فترة قصيرة جدا ، كانت الطائرات الأمريكية فوق الرءوس تلقي علبا صغيرة من غاز السارين على العدو .. ومع انفجار العلب الصغيرة ، كان جنود العدو الذين سقطوا أرضا يتقيئون ويتشنجون .. وانتشر الغاز ووصل للأمريكيين ، فلم يكونوا جميعا محميين بصورة كافية ، وبدأ البعض منهم يتقيأ بصورة عنيفة .. واليوم يعاني واحد منهم من شلل زاحف شخصه طبيبه بأنه إصابة ناجمة عن غاز الأعصاب .. وقد وردت هذه القصة في 7 يونيو 1998 في البرنامج التليفزيوني " نيوزستاند سي إن إن آند تايم " ، وظهرت فيها صورة الأدميرال **توماس مور** ، الذي كان رئيسا للأركان في 1970 ، وكذلك فرد عسكري أقل رتبة ، وهما يقتربان من الكاميرا ويبتعدان عنها ، واللذين أيدا الحوادث السابق وصفها .. وعندئذ فتحت أبواب جهنم على مصراعيها ، إذ كانت هذه القصة تتعارض بصورة كبيرة ومؤلمة مع الكتب الدراسية الأمريكية ، مع الريدرز دايجست الأمريكية ، مع العلم الأمريكي ، وفطيرة التفاح الأمريكية ، وماما أمريكا .. وكانت تلك فترة تقتضي السيطرة على الضرر الذي حدث ، واستدعت المدفعية الثقيلة : **هنري كيسنجر** ، **كولن باول** ، وقدامى المحاربين ذوي البيريهات الخضراء ، والصفوة الصحفية ، والبنتاجون نفسه .. وصاح الجميع : إن القصة خاطئة وسخيفة وتشويه للسمعة .. وتراجعت الـ سي إن إن ، وتراجع **مور** ، وتم فصل منتجي العرض .. وأقيمت القضايا في كل الأنحاء .. " ..

وعلى غرار ما حدث في فيتنام تم وقف إطلاق النار في لاوس في مطلع عام 1973 .. ولم يلبث أن تمكن الباثيت لاو من اعتلاء الحكم في عام 1975 بعد أن اضطرت الولايات المتحدة إلى الانسحاب الكامل من الهند الصينية ..

وعندما أرادت القوات الجوية الأمريكية إغلاق محطة الراديو الخاصة بها قبيل المغادرة ، أنهت إرسالها بهذه الرسالة الواقعية :

"Good-bye and see you next war!"

(31)
كمبـــوديـــا : أصدقاؤنا الشيوعيون !!

إذاً..

هي كذبة ..

طوال قرن مضى ظلت الولايات المتحدة تحارب الشيوعية سياسيا وعسكريا وإعلاميا ..

كانت الشيوعية هي الغول المخيف .. وكان الشيوعيون هم أعداء الإنسانية ..

وكان **بول بوت** الكمبودي شيوعيا .. وكان غولا بحق .. وكان سفاحا دمويا .. وكان واحدا من أعدى أعداء الإنسانية في التاريخ الحديث .. وكانت العصابة التي تزعمها المعروفة باسم الخمير الحُمر واحدة من أشرس العصابات في العصر الحديث ..

فلماذا ناصرت الولايات المتحدة الشيوعيين في كمبوديا ؟ وكيف يستقيم ذلك مع كل ما روجت له أمريكا من مخاطر الشيوعية الدولية وقدرتها الفائقة على هدم الكرة الأرضية فوق رؤوس سكانها ؟

أتصور أنها حكاية مثيرة للفضول ..

* * *

قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتحديدا في شهر مارس 1945 أعلن الملك **نورودوم سيهانوك** – الملك الكمبودي منذ عام 1941 – قيام حكومة مستقلة معادية للاحتلال الياباني المتلاشي ومعادية كذلك للاحتلال الغربي أو العودة الفرنسية المتوقعة .. جاء تشكيل الحكومة الجديدة بقيادة رئيس الوزراء **سون نجوك تانه** .. ولكن لم يلبث الحلفاء المنتصرون أن عزلوا الحكومة في أكتوبر من نفس العام ..

ثم عادت فرنسا إلى مستعمراتها القديمة ، وكونت اتحادا فرنسيا يضم – من بين ما يضم – كمبوديا كمملكة مستقلة اسما وإن كانت تابعة للاتحاد .. وفي يناير 1953 جعل **سيهانوك** والده وصيا على العرش ، فارضا على نفسه المنفى الإجباري ، ورافضا العودة إلى كمبوديا حتى تنال استقلالا حقيقيا .. أعلنت فرنسا استقلال كمبوديا الكامل في التاسع من نوفمبر 1953 – ولم تكن الحرب هناك قد وضعت أوزارها بعد – ، فبقي إجراء نظريا حتى جاء مؤتمر جنيف في عام 1954 ، لينهي الحرب الدائرة في الهند الصينية بين فرنسا وأصحاب الأرض ..

وفي عام 1954 قامت الولايات المتحدة بإنشاء منظمة تضم عددا من بلدان جنوب شرق أسيا وعرفت باسم سياتو ..

وفي مقابلة بين **سيهانوك** ووزير الخارجية الأمريكي **جون فوستر دالاس** ، حاول الأخير إقناع الحاكم الكمبودي بالانضمام إلى التحالف الجديد .. رفض **سيهانوك** المطلب الأمريكي موضحا أنه ليس هناك عداء

بين كمبوديا وبين جيرانها المقصودين بهذا التحالف ، وأن الانضمام إلى مثل ذلك التحالف يعد خرقا للحياد المتفق عليه في مؤتمر جنيف ..

كانت اتفاقية سياتو الموقعة في عام 1954 والتي ضمت كلا من تايلاند والفليبين وأستراليا ونيوزيلاندا وباكستان وإنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة قد قررت من جانب واحد ودون أخذ رأي الأطراف المعنية وضع كل من كمبوديا ولاوس وفيتنام تحت مظلتها ..[56]

لم تيأس الولايات المتحدة ، فتم ترتيب لقاء لمدير المخابرات الأمريكية **آلان فوستر دالاس** – شقيق وزير الخارجية – مع **سيهانوك** .. وفي هذا اللقاء بادر **دالاس** بتقديم بعض المستندات التي تشير إلى أن كمبوديا على وشك التعرض لعدوان شيوعي من جيرانها الشيوعيين ، وأن الطريق الوحيد للنجاة من هذا المصير المظلم هو قبول حماية تحالف سياتو ..

لم ينجح الشقيقان في إقناع **سيهانوك** العنيد .. وكان لابد من استبعاد الحلول السلمية ..

* * *

وفي مارس 1956 وبعد عودة **سيهانوك** من زيارة سريعة إلى بكين – ولم تخل الزيارة من انتقاد مشترك لـ سياتو – ، قامت كل من تايلاند وفيتنام الجنوبية حليفتي الولايات المتحدة اللتين تحاصران كمبوديا غربا وجنوبا وشرقا بإغلاق مفاجئ للحدود معها ..

ثم تصاعد الاستفزاز العسكري باقتحام متزامن للحدود الكمبودية من بعض الحشود التايلاندية والفيتنامية بتمويل وإشراف من المخابرات الأمريكية .. وتلا ذلك غارات جوية اقتحمت المجال الجوي الكمبودي عبر البلدين نفسهما ..

* * *

وفي عام 1958 حدث شيئا مذهلا ..

فقد قامت خمس كتائب فيتنامية جنوبية مدعمة بتغطية جوية بعبور الحدود الكمبودية من جديد .. حتى وصلت إلى عمق عشرة أميال في الأراضي الكمبودية ، ثم بدأت تلك القوات في رسم علامات حدودية جديدة ، بحيث تصير تلك المساحة المغتصبة خلفها تابعة لفيتنام الجنوبية .. حاول **سيهانوك** – ومن حوله شعبه وجيشه – صد العدوان .. وهو رد فعل طبيعي جدا .. ولم يكن ضروريا أن أضيف سطرا يحمل مثل هذا المعنى التلقائي .. لولا ما حدث بعد ذلك ..

إذ فوجئ **سيهانوك** بالسفير الأمريكي في كمبوديا **كارل ستروم** يخبره أن المساعدات العسكرية الأمريكية قد قُدمّت فقط وعلى وجه الحصر من أجل مقاومة الاعتداء الشيوعي ، وأن أمريكا لا تسمح باستخدامها ضد حليف لها .. ثم أضاف السفير أنه في حالة إذا ما أُطلقت رصاصة واحدة في اتجاه قوات فيتنام ، أو إذا ما استخدمت شاحنة واحدة لنقل قوات كمبودية إلى الشرق لمواجهة الفيتناميين ، فإن أمريكا سوف تلغي جميع

---

[56] انفرط عقد هذه المنظمة بمدينة نيويورك في سبتمبر عام 1975 بعد أن انسحبت باكستان في عام 1973 ، تلتها فرنسا في عام 1974 ..

أشكال المساعدات ! .. كانت أمريكا تريد من شعب كمبوديا أن يرحب بالغزاة الذين جاءوا يقتطعون ما شاءوا من أراضيه ، وإلا ..!!

وفي أكتوبر 1964 أعلنت الحكومة الكمبودية في بيان رسمي لها أنها " في حالة تعرضها لأي اعتداء جديد من جانب القوات الأمريكية البرية أو البحرية أو الجوية ، فإن كمبوديا سوف تقوم مباشرة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة " ..

وكان هذا البيان قد جاء ردا على ما قامت به أمريكا في الأسابيع السابقة للبيان من قصف لعدد من القرى الكمبودية على الحدود مع فيتنام الجنوبية بزعم مطاردة قوات الفيتكونج – قوات فيتنام الشمالية – .. ولا ننسى أن إعلان الحرب رسميا ضد فيتنام كان قد تم في أغسطس 1964 .. لم تلق الولايات المتحدة بالا لهذا البيان الكمبودي وتزايد القصف الجوي حتى اضطرت الحكومة الكمبودية إلى قطع العلاقات فعليا في مايو 1965 بعد غارة أمريكية عنيفة أسفرت عن مصرع مئات الفلاحين ..

وفي السنوات التالية ظلت كمبوديا تتعرض للهجوم الأمريكي بغرض مطاردة شيوعيي فيتنام والقضاء عليهم .. لكن ماذا عن شيوعيي كمبوديا ؟ وكيف كانت علاقة **سيهانوك** بالشيوعيين على الجانبين ؟ ..

الوقائع التاريخية تقول أن بعض شيوعيي فيتنام كانوا يتسللون بالفعل إلى الدول المجاورة ومنها كمبوديا .. ولم يكن **سيهانوك** سعيدا بذلك ، ولم يمانع في البداية أن تطاردهم أمريكا على الأراضي الكمبودية طالما لم يقع ضحايا من شعبه .. بل إن **سيهانوك** كان يكشف سرا للأمريكان في بعض الأحيان عن أماكن القواعد الفيتنامية على حدود كمبوديا ، ومع ذلك كان يسارع إلى الإذاعة ويشجب الهجوم الأمريكي .. لكنه اعترض لاحقا بعد أن بدأت الغارات تشتد وتحصد أرواح الكمبوديين ..

كان الحاكم الكمبودي واقعا في مأزق ، فهو من ناحية لا يريد أن يعادي الأمريكان بشكل كامل حتى لا يتعرض بلده للتدمير التام .. وعلى الجانب الأخر كان حريصا على صورته أمام شعبه .. وحريصا كذلك على عدم إظهار العداء للشيوعيين في كمبوديا وهم الخمير الحمر بزعامة **بول بوت** .. رغم أنه اضطر إلى إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة في نهاية عهد الرئيس **جونسون** في أواخر الستينات حتى تعود المساعدات الاقتصادية ليصرف بها على الدمار الذي تخلفه الغارات الأمريكية على بلده !!.. والحقيقة أن عدم تجاوبه مع الأمريكان بشكل عام قد شفع له عند الخمير الحمر الذين انقضوا سريعا على من خلفه في حكم البلاد وهو **لون نول** الذي جاء بعد الانقلاب العسكري الذي ساهمت فيه المخابرات الأمريكية في عام 1970 .. وكان مما ساهم في تصاعد حدة الهجوم على **سيهانوك** وعلى كمبوديا عموما هو تغيير الإدارة الأمريكية ، فقد جاء إلى الحكم الرئيس الأمريكي **ريتشارد نيكسون** ومعه مستشاره للأمن القومي **هنري كيسنجر** في مطلع عام 1969 .. جاءت الإدارة الجديدة ومعها فكرها الجديد .. وكانت الاستراتيجية تقوم على عدم جدوى القيام بهجمات محدودة على الحدود الكمبودية ، لأنها لم تنجح في القضاء على الشيوعيين

الفارين إلى تلك الأنحاء .. فكان الاتجاه الفوري بعد تسلم الحكم إلى تكثيف القصف العسكري واستخدام قاذفات الـ بي 52 وتطبيق سياسة " حصيرة القنابل " السابق الإشارة إليها ..

وفي الفترة ما بين مارس 1969 وحتى مايو 1970 ألقت الطائرات الأمريكية على القرى الكمبودية حوالي 3630 قذيفة من قذائف الـ بي 52 – وهي قنابل عنيفة التأثير – .. وكان من نتيجة ذلك أن سارع الفيتناميون إلى محاولة الهروب من جحيم النيران بنقل قواعدهم إلى العمق الكمبودي بدلا من التواجد على الحدود كهدف مكشوف .. فانتقلت قذائف الـ بي 52 ورائهم إلى الداخل وتمددت حصيرة القنابل لتشمل مساحة أكبر من الأراضي الكمبودية في الشمال والشرق ..

* * *

وفي 18 مارس 1970 انتهز اثنان من أبرز وزراء الحكومة – **لون نول** و **سيريك ماتاك** – سفر **سيهانوك** إلى الخارج وتحديدا إلى موسكو وبكين ، وقاما بعزله عن الحكم .. ليتولى الجنرال **لون نول** منصب رئيس الوزراء ويصبح **ماتاك** نائبه في الحكومة الجديدة ..

وفي 9 أكتوبر تم إلغاء الملكية وتغيير اسم البلاد إلى جمهورية الخمير ، وليس المقصود هنا الخمير الحمر ، فالخمير أنواع في كمبوديا ! .. وأصل تسمية الخمير تعود إلى جماعة من الناس أسسوا مملكة في كمبوديا في القرن الخامس الميلادي وبلغوا أوج مجدهم بين القرنين التاسع والثاني عشر حين سيطروا على منطقة الهند الصينية بالكامل ..

أما الدور الأمريكي في إتمام هذا الانقلاب الخاطف ، فيمكن إبرازه من خلال حوار صحفي مع **فرانك سنيب** أبرز المحللين السياسيين الأمريكان للمخابرات الأمريكية الموجود في فيتنام في تلك الأثناء .. فقد جاء على لسانه أن الوكالة كانت تولي **لون نول** عنايتها كبديل ممكن لـ **سيهانوك** ، بسبب إيمانها أنه إذا ما جاء **نول** إلى الحكم " فسوف يرحب بالولايات المتحدة بذراعين مفتوحين ، وسوف يقوم بإنجاز كل شئ على أكمل وجه " .. والمعنى المقصود أن يسهل للأمريكان القضاء على القوى الشيوعية الفيتنامية الموجودة في كمبوديا .. لذا لم يكن غريبا أن تنال الحكومة الكمبودية الجديدة الاعتراف الدبلوماسي الفوري من واشنطن ..

وبعد ساعات من الانقلاب بدأت القوات الأمريكية المعسكرة على الحدود بين فيتنام وكمبوديا في إجراء اتصالات مع القادة العسكريين في كمبوديا من أجل التعاون للقضاء على الفيتكونج .. وفي الوقت نفسه سارعت الولايات المتحدة بإمداد الحكومة الجديدة بالمساعدات العسكرية لمقاومة الخمير الحمر – شيوعيي كمبوديا – الذين ظهروا على الساحة للتشابك مع الحكومة الموالية للأمريكان طمعا في الوصول إلى الحكم بعد إزاحة **سيهانوك** الحاكم المحبوب من الفلاحين والقرويين ..

* * *

لقد تحولت الساحة الكمبودية بدءا من عام 1970 إلى معركة هزلية لا يعرف فيها المراقب مَن يضرب مَن ولماذا ولمصلحة مَن ..

فشيوعيو فيتنام يضربون في القوات الكمبودية الحكومية ويضعفونها لمصلحة الخمير الحمر رغم أنهم سوف يصبحون أعداء فيما بعد .. والأمريكان يساندون الحكومة الكمبودية بزعامة تابعهم لون نول رغم أنهم سوف يدعمون الخمير الحمر بعد سنوات قليلة من عام 1970 ..

وعلى مدار السنوات الثلاث التالية وحتى يناير 1973 سمحت الحكومة الكمبودية الموالية بتوغل القوات الأمريكية في العمق الكمبودي وتواصل القصف الجوي ، حتى أنه ورغم توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار في باريس في 27 يناير 1973 لإنهاء الحرب في فيتنام ، فإن ضرب كمبوديا بالقنابل لم يتوقف حتى أغسطس التالي بغرض منع الخمير الحمر من الوصول إلى الحكم ..

ولما كثرت الاعتراضات في داخل أمريكا وخارجها بشأن القصف الجوي المبالغ فيه لكمبوديا ، وقف الكولونيل **ديفيد أوبفر** أحد قادة القوات الجوية الأمريكية في كمبوديا يشكو ويلوم المراسلين الصحفيين – وقد نفذ صبره – على تغطيتهم الإخبارية للإبادة الجماعية التي يمارسها الطيران الأمريكي ، ثم اعتدل في وقفته وقال في تذمر :

"You always write it's bombing, bombing, bombing. It's not bombing, it's air support."

أما سفير أمريكا في إندونيسيا **مارشال جرين** فقد وقف أمام الكونجرس في عام 1973 مدافعا عن سياسة القصف ، وقال : " إن القصف يجب أن يستمر نتيجة رغبتنا بالسلام ، تعلمنا من تجربتنا مع الشخصيات الموجودة في هانوي أن أنهار دم الفلاحين الكمبوديين قد تستطيع جرهم إلى طاولة المفاوضات "..

ومع بداية عام 1975 اشتدت هجمات عصابات الخمير الحمر الشيوعية ونجحت في محاصرة بنوم بنه العاصمة ودخلتها في منتصف أبريل معلنة تدمير جمهورية الخمير وإقامة كمبوديا الديمقراطية ..

* * *

نتوقف قليلا لنتأمل الموقف ..

الولايات المتحدة خسرت حرب فيتنام ..

اتحد الشمال والجنوب الفيتنامي من جديد في دولة شيوعية ..

وصل الشيوعيون إلى السلطة في كمبوديا المجاورة ..

تنامى الوجود الشيوعي في قارة أسيا مع وجود مدرستين شيوعيتين على خلاف شديد في ذلك الوقت من القرن العشرين ..

هناك المدرسة السوفيتية التي تؤازر فيتنام الشيوعية ..

وهناك المدرسة الصينية التي تدعم كمبوديا الشيوعية ..

وهناك أمريكا التي تواصل سياسة تحسين علاقتها مع الصين لتضرب الاتحاد السوفيتي بها ..

* * *

رحب العديد من أبناء الشعب الكمبودي المسالم بانتهاء الحرب الأهلية بعد خمس سنوات من الصراع المحلي ..

لكن سرعان ما خاب أملهم ، فقد أمرت حكومة الخمير الحمر بإجلاء جميع سكان المدن وإرسالهم إلى الريف لفلاحة الأرض !..

مات الآلاف خلال عملية الإخلاء ، البعض من الجوع والبعض الآخر من المرض .. وتم توطين الناجين في قرى جديدة ينقصها الغذاء والأدوات الزراعية والرعاية الطبية ..

ثم ماتت مجموعة جديدة من المواطنين قبل أول حصاد لما زرعوه بفعل الألغام المدفونة في الحقول ..

كما كانت هناك مجموعة إضافية من جموع الشعب يتم إعدامهم ، وهؤلاء هم الذين كانوا يعترضون أو يناقشون الأوامر العليا ..

أما آخر مجموعة يمكن الإشارة إليها هنا فهم جميع المسئولين العسكريين والمدنيين الموالين للنظام السابق والذين تم قتلهم ..

ارتأى الخمير الحمر أن تاريخ البلاد قد بدأ بوصولهم إلى الحكم ، أما ما قبل ذلك فلا ينبغي إحصاؤه ، حتى أنهم احتفلوا بالاستيلاء على الحكم بأن أطلقوا على عام 1975 سنة صفر Year Zero ..

* * *

كان **بول بوت** زعيم العصابة يرى أن المدنية والتعليم قد أفسدا الشعب ، فقام بإخلاء المدن وشرد عدة ملايين في الريف لإبعادهم عن الحياة العصرية والتأثير الغربي في المدن .. وحتى يضمن عدم تأثر الفلاحين والقرويين الجاهلين بمثل هذه المظاهر المتحضرة ، أمر **بول بوت** بإلغاء التعامل بالأوراق النقدية ، حظر استعمال الأدوية ، قام بتفجير البنك الوطني ، حوّل المكتبة التي تضم تراث كمبوديا القديم إلى زريبة خنازير ، هدم الكاتدرائية الكاثوليكية وسواها بالأرض ، جرّم الديانة البوذية ومنع إقامة أية شعائر تخصها ..

ثم كانت هناك المطاردة لجميع المشكوك في أمرهم .. وكانت ذريعة الشك تتلخص أحيانا في معرفة لغات أجنبية أو مجرد ارتداء نظارات طبية .. وكان يتم إرسال بعض الذين يرتاب فيهم النظام – في ميولهم أو احتمال اتصالهم بالأعداء في الخارج – إلى معتقل صغير في بنوم بنه ، حيث كان أتباع **بول بوت** ينتزعون منهم الاعترافات المزيفة عن ارتكاب أفعال ضد النظام .. ومن بين 20 ألف مواطن دخلوا هذا المعتقل المسمى بـ تيول سلينج لم يبق سوى سبعة فقط على قيد الحياة .. وفي مذكرات أحد الذين نجوا نقرأ الفقرة التالية : " كانت العقارب تخرج من صندوق إلى جوار امرأة .. وكانت المرأة تتلوى بشدة حيث كانوا يشدون حلمة صدرها بمنتهى العنف بكماشة غليظة .. وكان هناك رجل يتم تغطيسه في ماء مكهرب .. وكان جميع السجناء يُجبرون على أكل برازهم .. " .. ولم يُعرف على وجه التحديد عدد الذين ماتوا من

الجوع والتعذيب والمرض خلال حقبة الخمير الحمر التي لم تدم أربعة أعوام ، وإن كانت التقديرات تتراوح ما بين مليون إلى مليونين ..

ويبدو أن تلك الدموية الفريدة من نوعها كانت واحدة من أهم أسباب رضى الأمريكان علي الخمير الحمر بعد أن وصلوا إلى الحكم ، خاصة بعد أن حدثت بعض المناوشات بينهم وبين فيتنام في صراع تجدد على العلامات الحدودية ..

* * *

بعد أن وصل رجال الخمير الحمر إلى الحكم بأسابيع ، بدأ الجيش الكمبودي في مهاجمة القرى الفيتنامية على الحدود .. ثم تحسنت العلاقات نسبيا في عام 1976 ، لكنها عادت سريعا إلى التوتر ..

وفي ديسمبر 1977 تم قطع العلاقات بين هانوي – عاصمة فيتنام – وبنوم بنه – عاصمة كمبوديا – ..

وفي منتصف 1978 قامت القوات الفيتنامية باجتياح كمبوديا وتوغلت حوالي 30 ميلا في أراضيها قبل أن يوقفها موسم الأمطار .. وفي ديسمبر من نفس السنة احتلت فيتنام معظم كمبوديا ، واستولت على العاصمة بنوم بنه ، وطاردت فلول جيش **بول بوت** غربا في اتجاه تايلاند .. وأعلنت تشكيل الجبهة الكمبودية المتحدة للإنقاذ المحلي برئاسة **هينج سامرين** ، وهو قائد عسكري شيوعي منشق عن الخمير الحمر .. كانت حكومته مكونة من الشيوعيين الكمبوديين الذين استمروا في الحياة في فيتنام حتى بعد أن وصل الخمير الحمر إلى السلطة في كمبوديا .. كان هؤلاء على خلاف مع **لون نول** ونظامه ، فاضطروا وقتها إلى الفرار إلى فيتنام ، لكنهم لم يعودوا منها إلا مع مطلع عام 1979 مشكلين حكومة جديدة تابعة لفيتنام .. وتغير اسم الدولة من جديد إلى جمهورية كمبوديا الشعبية ..

* * *

ثم يتواصل الصراع الهزلي من جديد ..

عصابات الخمير الحمر تم طردها إلى الجبال وإلى الأحراش في أقصى الطرف الغربي الكمبودي على الحدود مع تايلاند .. النظام الشيوعي الفيتنامي قام بتعيين حكومة كمبودية موالية له بقيادة بعض المنشقين على الخمير الحمر .. الصين بدأت تمد بول بوت وعصابته بالسلاح ..

ثم تشتعل منافسة محلية وعالمية بشأن الاعتراف الرسمي بأي الحكومتين تمثل البلاد .. الحكومة المعزولة التي توارت على الحدود في محاولة لاستعادة قواها ، أم الحكومة المفروضة بقوة السلاح من قبل الفيتناميين ..

أما الولايات المتحدة فقد أبدت استياءها الملحوظ نتيجة الإطاحة بالخمير الحمر رغم أنهم من غلاة الشيوعية ، وذلك لأن فيتنام الشيوعية – أيضا – هي التي أطاحت بهم .. فأعلنت موقفها الرسمي بإدانة الإجراءات الفيتنامية واعتبرتها غير قانونية .. ثم اتخذت قرارها بالعمل على تزويد الخمير الحمر بالغذاء والمعونة المالية والعسكرية من خلال التمويل غير المباشر عن طريق الصين وتايلاند ..

وقد ذكر مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق **زبجنيو برجينسكي** في عام 1979 ما يشير إلى ذلك ، حيث قال : " لقد شجعت الصينيين على مساندة **بول بوت** ، وشجعت التايلانديين على مساعدة الخمير الحمر ، وكانت القضية هي كيفية مساعدة الشعب الكمبودي .. لقد كان **بول بوت** شيئا بغيضا .. ولم نكن نستطيع مطلقا مساندته ، لكن الصين كانت تستطيع " ..

تحالفت أمريكا مع الصين لدعم الخمير الحمر سياسيا واقتصاديا ..

* * *

على الصعيد السياسي استخدمت كل من الولايات المتحدة والصين حق الفيتو في مجلس الأمن للحيلولة دون الاعتراف الرسمي بالحكومة الكمبودية الجديدة في الأمم المتحدة .. بل وصل الدعم الدبلوماسي لدرجة أن الخمير الحمر احتفظوا بمقعد كمبوديا في الأمم المتحدة من عام 1979 وحتى عام 1993 رغم عدم وجودهم في السلطة ورغم الفظائع التي ارتكبوها في حق شعبهم ، الأمر الذي خلّف وراءه كراهية واسعة النطاق لم تنحسر عند الكمبوديين فحسب ، بل امتدت إلى غالبية الأمم المتحضرة .. وقد كان يمثل الخمير الحمر لدى الأمم المتحدة **ثيوون براسيت** الذي كان يدافع باستمرار عن جرائم **بول بوت** وكان بارعا في تبريرها والتستر عليها حتى أن النيوزويك عندما واجهته ذات يوم بتقارير تفيد بأن مليون كمبودي قد لقوا مصرعهم في ظل حكم الخمير الحمر ، جاء رده قائلا : " نحن (الخمير الحمر يعني) نقدر أن ما بين عشرة آلاف و عشرين ألفا قد قتلوا ، 80 % منهم على أيدي العملاء الفيتناميين الذين تسللوا إلى حكومتنا " ..

* * *

أما من ناحية التمويل فقد ساعدت الولايات المتحدة **بول بوت** على إعادة بناء قواته المشتتة .. وقد تم ذلك من خلال التمويل المادي عبر الصين وتايلاند ، وكذلك عن طريق فرض حظر تجاري على كمبوديا – التابعة لفيتنام – ومنع المعونات القادمة إليها بما في ذلك المعونات الإنسانية .. كما هددت أمريكا تايلاند بحرمانها من الميزات التجارية التي تتمتع بها إذا ما رفضت دعم الخمير الحمر .. وكان الخمير الحمر يستخدمون تلك المعونات لشن عمليات منظمة على القرى الكمبودية وزرع حقول الألغام وقتل الفلاحين والهروب بما يملكونه من محاصيل وماشية .. كان عنف الخمير فوق كل تصور حتى أن شخصا من بين كل 236 كمبوديا يعاني مع مطلع القرن الجديد من فقدان أحد أطرافه ..

* * *

كان الشعب الكمبودي يقاسي بشدة بسبب نقص الرعاية الصحية ووسائل المواصلات والبنية التحتية .. كما كان يعاني من غياب الكفاءات البشرية .. فالخمير الحمر بقيادة **بول بوت** كانوا قد قاموا بذبح معظم الأطباء والمدرسين والمهندسين .. أما الحكومة المسنودة من فيتنام فكانت تواجهها مشكلة الحصول على المعونات الخارجية ، وذلك لأن مقعد كمبوديا في الأمم المتحدة كان يشغله الخمير الحمر مما وقف حائلا دون نيل المساعدات التقليدية التي تقدمها المؤسسات التابعة للأمم المتحدة بسبب عدم الاعتراف الرسمي بها ..

وكانت هذه أزمة طاحنة ظلت تعاني منها دولة كمبوديا .. فقد استمرت الأخبار الواردة من كمبوديا في تلك الأعوام تطالعنا بمصرع عشرات الألوف من الكمبوديين ، تارة بسبب الفيضانات وتارة أخرى بسبب المجاعات .. والغريب أن برنامج الأغذية العالمي الذي كان يخضع – كما هي العادة – لنفوذ الولايات المتحدة قدم في الفترة من عام 1979 إلى عام 1981 أغذية قيمتها تزيد على 12 مليون دولار للجيش التايلاندي لتوزيعها على المعسكرات المنتشرة على الحدود بين البلدين والتي كانت تابعة لـ **بول بوت** .. ولم يسفر اعتراض بعض منظمات الإغاثة العاملة في كمبوديا على مساندة عصابات الخمير الحمر – وهو ما لا يتفق مع أهدافها الإنسانية – عن إجراء له قيمة ، فقد ظلت الولايات المتحدة تمول الخمير الحمر رسميا عبر موافقة الكونجرس[57] ، كما قدمت المخابرات الأمريكية حوالي 24 مليون دولار من وراء ظهر الكونجرس ..

وتصل المهزلة إلى نهايتها في سبتمبر عام 1989 عندما انسحبت القوات الفيتنامية نهائيا من كمبوديا .. وعلى الفور ضغطت الولايات المتحدة لحل الحكومة الكمبودية ، وفرضت الخمير الحمر على حكومة ائتلافية مؤقتة ، أطلق عليها المجلس الوطني الأعلى ، وقد صار **سيهانوك** بعد عودته إلى كمبوديا رئيسا لذلك المجلس ..

وفي أول خطاب لـ **سيهانوك** في نوفمبر 1991 أشار بوضوح إلى أن ضغط الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن هو الذي أجبر الكمبوديين على قبول عودة الخمير الحمر .. وفي مايو 1993 أجريت انتخابات عامة تحت إشراف الأمم المتحدة وتم إقرار دستور جديد أعاد الملكية البرلمانية ، وعاد معها **سيهانوك** ملكا من جديد ..

* * *

وفي عام 1997 أجرى الصحفي **نات ثاير** حديثا أخيرا مع **بول بوت** وهو يحتضر ، فسأله عما إذا كان يود الاعتذار عن المعاناة التي تسبب فيها ، فبدا متحيرا وساهما .. وعندما كرر المترجم السؤال ، أجابه **بوت** في صوت واهن قائلا : " لا ، أود أن تعرفوا أن كل ما فعلته كان في سبيل بلدي .. " .. ولا يمكن أن يلام **بوت** على إجابته المثيرة للجدل .. فـ **بول بوت** بتسببه في مصرع مئات الألوف وتشريد مثلهم إنما كان يجاهد للوصول إلى الحكم في بلده ، وربما خدمة شعبه على طريقته الخاصة .. قد يعتبره البعض كلاما معقولا ..

أما الكلام غير المعقول فهو :

أن يسافر جنود الولايات المتحدة أكثر من عشرين ألف كم من أجل حماية الأمن القومي الأمريكي ..

أن يكون انتشار الشيوعية في الهند الصينية مصدر خطر على الأمة الأمريكية ..

---

[57] كانت الموافقة تتم بسبب قيام الولايات المتحدة في عام 1982 بتشكيل تحالف معارض للحكومة الكمبودية يتكون من جماعات غير شيوعية بالإضافة إلى عصابة الخمير الحمر بغرض تحسين الإطار الخارجي ، وكان هذا التحالف يحصل على الدعم المشار إليه ..

أن يباد عدة ملايين من الهنود الصفر الذين يستوطنون الهند الصينية مثلما أبيد الهنود الحمر الذين استوطنوا " الهند الأمريكية " من أجل إحلال السلام ونشر الحضارة ..

أن تهدد الولايات المتحدة " الهند الهندية " بقطع المساعدات الغذائية بسبب إظهار الهند رغبتها في إرسال مائة جاموسة لفيتنام على سبيل المشاركة الرمزية بعد أن أفنى القصف الجوي الأمريكي أعدادا هائلة من القطعان ..

أن تمنع وزارة الخارجية الأمريكية بعض الجماعات الدينية في أمريكا من إرسال جواريف إلى لاوس لحفر آبار مياه في الأماكن التي لم ينل منها القصف الجوي ..

أن ترفض الولايات المتحدة تقديم خرائط الألغام لفرق نزع الألغام العاملة في الهند الصينية ، ثم يوضح متحدث باسم البنتاجون مشكورا سبب الرفض قائلا : " لا يجوز أن يعيش الناس في تلك المناطق ، فهم يدركون حجم المشكلة .. " ..

لم يكن هذا كله من كلام العقلاء ..

إن المجنون بقوته لا يحتاج إلى معقولية الكلام حتى يبرر حماقة الفعل ..

(32)
إندونيسيا : سوهارتو آه .. سوكارنو لا !

ابنته هي التي تحكم البلاد الآن ..[58]

إنه المناضل الإندونيسي الأشهر **سوكارنو** ..

والتاريخ الإندونيسي – من قبل **سوكارنو** – مع النضال طويل ..

* * *

فالجزر الإندونيسية[59] كانت خاضعة لعشرات القرون لحكم الممالك الهندوسية والبوذية ، ثم تلتها الممالك الإسلامية التي سيطرت على بعض البقاع بدءا من القرن الثالث عشر لينتشر الإسلام وتتوسع الممالك حتى تمكنت من السيطرة على إندونيسيا بالكامل مع نهاية القرن الخامس عشر ..[60]

وفي عام 1511 وصل البرتغاليون إلى إندونيسيا بحثا عن التوابل وأخضعوا بعض الممالك الإسلامية لهم . ثم جاء الإسبان من بعدهم وحاولوا نشر المسيحية إلى جانب سلب خيرات الجزر ..

ومن بعد الإسبان جاء الهولنديون في عام 1595 من أجل التوابل أيضا وهي ما كانت توفر لهم ربحا هائلا عند بيعها في الأسواق الأوروبية ، حتى أنهم قاموا بإنشاء الشركة الهولندية الهندية الشرقية في عام 1602 لتنظيم التجارة ، ثم أتوا بالسفن الحربية لحماية نقل البضائع من هجمات القراصنة ..

وفي عام 1814 وصل الإنجليز إلى إندونيسيا أثناء انتصاراتهم على فرنسا في حربهم ضد نابليون ، وكانت هولندا في ذلك التوقيت خاضعة للاحتلال الفرنسي .. واستمر الإنجليز في إندونيسيا حتى عام 1825 ثم تركوها للهولنديين بعد الاتفاق معهم ..

ومع اتضاح الهدف الاستعماري من الوجود الهولندي في الجزر الإندونيسية في القرن التاسع عشر ، تعاقبت الثورات المحلية من أجل الحرية ، وكان مصيرها القمع المستمر .. وعندما أدرك الوطنيون الإندونيسيون مع الوقت أن تلك الثورات العشوائية لن تصل بهم إلى الاستقلال ، بدأ التفكير في إنشاء حركات أكثر تنظيما ضد الاحتلال الهولندي .. أسفر التفكير عن إنشاء أول منظمة ضمت بعض المثقفين الإندونيسيين في مايو 1908 .. ثم تأسس حزب سياسي إسلامي في عام 1912 .. وفي ديسمبر من نفس ذلك العام تأسس حزب إندونيسيا وكان يهدف إلى الكفاح لنيل الاستقلال الكامل عن هولندا ، وقد تم نفي زعماء الحزب بعد عدة أشهر من تكوينه إلى خارج البلاد .. وفي مايو 1920 انقسم الحزب الإسلامي إلى جناحين يميني ويساري .. وقد تحول الجناح اليساري فيما بعد إلى الحزب الشيوعي الإندونيسي الـ PKI .

---

[58] كانت **ميجاواتي سوكارنو** تتولى منصب رئيس الجمهورية في إندونيسيا منذ 23 يوليو 2001 وحتى 20 أكتوبر 2004 ، ومنذ ذلك التاريخ يحكم **سوسيلو بامبانج يودهويونو** البلاد ..

[59] يصل عددها إلى 17508 جزيرة ، أكثر من نصفها غير مأهول بالسكان ..

[60] أكثر من 200 مليون مسلم يعيشون الآن في إندونيسيا ويمثلون أكبر دولة إسلامية ..

وفي العشرينات نشأت أكثر من منظمة وتحركت أكثر من جهة للمطالبة بالحق في التعليم وفي الاستقلال .. وفي يوليو 1927 ظهر المهندس **سوكارنو** على الساحة بقوة ..

ظهر مع آخرين وقادهم لتكوين الحزب القومي الإندونيسي الـ PNI ، والذي تبنى الدعوة إلى اعتبار اللغة الإندونيسية " باهاسا " اللغة الرسمية للبلاد ، كما نادى الحزب باتباع سياسة النضال بكل صوره ضد الاحتلال الهولندي ..

شعرت السلطات المحتلة بالقلق من تنامي الوعي القومي بالحق في الحرية ، فلجأت إلى اعتقال قائد الحزب القومي **سوكارنو** في ديسمبر 1929 .. فاشتعلت المظاهرات في كل مكان في إندونيسيا ..

تم الإفراج عن **سوكارنو** في سبتمبر 1931 ، ثم تم نفيه في أغسطس 1933 ..

استمر **سوكارنو** منفيا داخل إندونيسيا بعيدا عن العاصمة جاكرتا إلى أن احتل اليابانيون الجزر الإندونيسية في مارس 1942 ..

أفرج اليابانيون عنه هو ورفاقه المحتجزين في إطار حملة دعائية كاذبة تحت شعار تحرير أسيا من المحتلين الأوروبيين على اعتبار أن أسيا للأسيويين .. تعاون **سوكارنو** وسائر الوطنيين مع اليابانيين في البداية ، ثم سرعان ما أدركوا أن ما جرى لم يكن سوى استبدال احتلال بآخر .. تظاهر **سوكارنو** باستمرار التعاون ، بينما كان يقود القوميين الإندونيسيين سرا إلى العصيان المسلح في عدة جزر رئيسية ..

وفي 17 أغسطس 1945 أعلن **سوكارنو** قيام الجمهورية في إندونيسيا والتصريح الرسمي بالاستقلال بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية ..

لم يهنأ الشعب الإندونيسي طويلا بالحرية ، فقد نزلت القوات البريطانية إلى الجزر الإندونيسية بحجة التأكد من استسلام اليابانيين ونزع أسلحتهم .. كما انتهزت القوات الهولندية الفرصة وأسرعت بالعودة لاسترداد السيطرة من جديد على مستعمراتها القديمة .. تعاون الإنجليز مع الهولنديين على تحقيق ذلك الهدف ..

وفي نوفمبر 1945 حدثت بعض الاشتباكات بين القوات البريطانية والمقاتلين الإندونيسيين ، أسفرت عن خسارة الإنجليز بعض الضباط من ذوي الرتب ، مما عجّل برحيلهم عن إندونيسيا ..

لكن الصراع مع هولندا لم ينته بنفس البساطة ، فخلال الفترة بين 1945 و1949 اندلعت الكثير من المعارك ونجح الهولنديون في إحداها في اعتقال رئيس الجمهورية **سوكارنو** وبعض أعضاء حكومته .. ووصلت أزمة الاستقلال دبلوماسيا أكثر من مرة إلى الأمم المتحدة وتدخلت عدة دول – من بينها استراليا والهند – لحل التوتر أملا في إحلال السلام من جديد في شرق أسيا ، وهو ما لم تعرفه المنطقة منذ بدأت الحرب العالمية الثانية .. وأخيرا .. وبعد كفاح دبلوماسي وعسكري اعترفت هولندا في 27 ديسمبر 1949 بسيادة الجمهورية الإندونيسية على أراضيها ، وفي 28 سبتمبر 1950 أصبحت إندونيسيا عضوا في الأمم المتحدة ..

* * *

فأين كانت الولايات المتحدة من كل ذلك ؟

كانت تتابع بتركيز شديد ما يحدث في إندونيسيا ، ربما أكثر مما كانت تتابع ما يحدث في الهند الصينية ، وكان لذلك عدة أسباب ، على رأسها مساحة إندونيسيا الهائلة وعدد سكانها الكبير وموقعها الجغرافي الحساس ..

فقد كتب **جورج كينان** رئيس المجلس القومي لدراسة سياسة التخطيط في عام 1948 – وقبل انتهاء الأزمة الهولندية – يقول : " إن قضية إندونيسيا هي أخطر مسألة في هذه اللحظة من لحظات صراعنا مع الكريملين .... إنها المرساة في سلسلة الجزر الممتدة من هوكايدو إلى سومطرة ، والتي علينا أن نطورها كقوة مواجهة اقتصادية وسياسية للشيوعية .... إن من شأن إندونيسيا شيوعية أن تكون مصدر عدوى تنتشر غربا عبر جنوب آسيا كله .... وقد تؤدي النزعة القومية المتطرفة في إندونيسيا إلى منع جنوب شرق آسيا من القيام بوظيفته الرئيسية كمنطقة خدمية لقوى المراكز الصناعية .. " ..

ومع ذلك ، فعندما تحررت إندونيسيا من الحكم الهولندي نهائيا ، وثبّت **سوكارنو** أقدامه بشكل قوي ، لم تجد الولايات المتحدة في أول الأمر ما يستدعي التدخل الجاد .. كانت شخصية **سوكارنو** ذات جاذبية وقبول .. وكان الجيش يدين له بالولاء الكامل ، ناهيك عن حزبه – الحزب القومي – .. وكان الحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد في البلاد الذي يتمتع بقاعدة جماهيرية عريضة ، إذ كان يضم أكثر من ستة مليون مواطن .. غير أنه لم يشكل خطورة ملفتة على المصالح والأهداف الأمريكية في تلك المنطقة من العالم .. خاصة وأن **سوكارنو** كان يتميز بقدرة فائقة على الموازنة بين سلطة الجيش العسكرية وقوة الشيوعيين السياسية ، ولم يسمح لأحد بالمروق .. ثم إن السلطة الحقيقية كانت في يد الجيش ، الذي قمع تحت إشراف **سوكارنو** حركة شيوعية تطالب بالإصلاح الزراعي في منطقة ماديان في عام 1948 ، وأسفر ذلك عن سجن 36 ألف شيوعي متمرد وتدمير مركز قيادة الحزب هناك ..

ولكن .. لأن الحذر واجب ، ولأن **سوكارنو** كان يتبنى سياسة الحياد ، ولأنه قام بزيارة الاتحاد السوفيتي والصين ، ولأنه أمم العديد من الممتلكات الهولندية ، كما رفض أن يتخذ إجراءات أمنية ضد الحزب الشيوعي الإندونيسي تحظر نشاطه – مثلما طُلب منه – ، فقد كان من الضروري أن تزاول المخابرات الأمريكية نشاطها المعتاد .. وبالفعل بدأت المخابرات الأمريكية مع بداية الخمسينات في اتباع أسلوب الدعم المستتر للأحزاب اليمينية في محاولة لإقصاء الحزب الشيوعي وتحجيم دور حزب **سوكارنو** .. لكنها فشلت ، واستمر الشيوعيون في تحقيق مكاسب بارزة في جميع مواسم الانتخابات ..

* * *

وفي عام 1955 صعد نجم **سوكارنو** في سماء العالم الثالث بتنظيمه مؤتمر باندونج الشهير والذي كان ردا واضحا على منظمة سياتو الأمريكية التوجه والهدف .. كان انعقاد المؤتمر بناء على مبادرة من خمس دول

أسيوية هي إندونيسيا والهند وباكستان وميانمار (بورما سابقا) وسريلانكا .. وحضره وفود من 24 دولة أسيوية وأفريقية .. وفي تلك المدينة الإندونيسية تم التصريح العلني بمبدأ الحياد كشعار يرفعه العالم الثالث . لم يتعامل الأمريكان مع فكرة الحياد ، على أنه حياد .. فمن ليس معهم ، فهو عليهم ..

وكانت هناك بعض المحاولات من المخابرات الأمريكية لاغتيال بعض المزعجين ممن يفترض حضورهم المؤتمر ، بغرض تشتيت الأنظار وإفشال الأفكار المريضة .. فجرت محاولة لاغتيال الرئيس الصيني **شو إن لاي** وهو في طريقه إلى إندونيسيا ، لكنها باءت بالفشل نتيجة تفجير الطائرة الخطأ ، حيث سقطت طائرة تقل بعض أعضاء الوفد الصيني المشارك في بحر جنوب الصين ، ولم يكن **شو إن لاي** على متنها حيث استقل طائرة أخرى بعد ذلك الحادث بيوم ..

وفي الأشهر التالية لذلك المؤتمر ، تضاعف القلق الأمريكي حيال **سوكارنو** ، فقد ظهرت عليه أعراض خطيرة ، وبدأ يتوسع في إبرام صفقات أسلحة مع دول شرق أوروبا ..

وفي منتصف عام 1957 قررت المخابرات الأمريكية أنه قد حان وقت العمل ، خاصة بعد أن فاز الحزب الشيوعي في الانتخابات المحلية في شهر يوليو .. ورتبت المخابرات لعزل السفير الأمريكي في إندونيسيا **جون أليسون** الذي لم يكن يرى في انتصارات الشيوعيين أي خطر محدق يستدعي التدخل .. ونجحوا في إقناع وزير الخارجية **جون فوستر دالاس** في بداية عام 1958 بتغيير ذلك السفير الساذج الخطر على أمن البلاد القومي ..

وفي 30 نوفمبر 1957 جرت محاولة للاعتداء على حياة **سوكارنو** في أثناء مغادرته لإحدى المدارس .. أسفرت المحاولة عن إصابة **سوكارنو** ومصرع عشرة أشخاص وإصابة 48 طفلا من تلاميذ المدرسة .. وعلى الفور حاولت المخابرات الأمريكية إلصاق الجريمة بالحزب الشيوعي – كدليل على تفاقم قوته وطمعه في الحكم – ، ثم اتضح أن المنفذين كانوا أتباع جماعة إسلامية متطرفة لا علاقة لها بالشيوعية ..

* * *

ضجت المخابرات الأمريكية من **سوكارنو** ومن الحزب الشيوعي ، وراحت تفتش عن الإبداع المهني من أجل القضاء على جميع أعدائها .. وبعد تحليل سريع لشخصية **سوكارنو** الذي يشتهر بحبه للنساء ، رسمت المخابرات خطة ماهرة لضرب الكرسي في الكلوب .. وبدأت المخابرات تسرب تقارير تفيد بأن مضيفة روسية شقراء كانت بصحبة **سوكارنو** على جميع رحلات الطيران إلى الاتحاد السوفيتي وداخله ، وأن نفس الحسناء الروسية قد جاءت إلى إندونيسيا في أثناء زيارة الرئيس السوفيتي الأخيرة ، وأنها قد شوهدت بصحبة **سوكارنو** مرات عديدة .. ثم أمعنت المخابرات الأمريكية في حبك خيوط القصة ، وأكدت على إحكام السوفيت سيطرتهم على **سوكارنو** من خلال تلك العميلة الشقراء التي تم زجها في طريق الرجل " الهلاس " حتى يضمن الاتحاد السوفيتي وقوع الجزر الإندونيسية في شباك الشيوعية .. نجحت الولايات المتحدة نجاحا منقطع النظير في نشر تلك التقارير في العديد من الصحف العالمية ، وبلع الجميع الطعم

وصدقوا الرواية المزيفة ، حتى أن الدوائر السياسية الرسمية في عدد من بلدان أوروبا كانت تعزو الانتفاضة المسلحة التي اندلعت في إندونيسيا في مارس 1958 إلى عدد من الأسباب من بينها العلاقة المشبوهة التي تجمع سوكارنو بالجاسوسة السوفيتية .. وحتى لا تدع المخابرات الأمريكية مجالا للشك ، قامت بتزييف فيلمين جنسيين أنتجتهما بمعرفتها ، وأتت بشبيه يمثل دور سوكارنو في أحدهما ، وقامت بتصميم قناع لـ **سوكارنو** ارتداه أحد ممثلي البورنو في الفيلم الآخر .. كان الهدف من وجود هذه الأفلام والصور الملتقطة للعملية الجنسية ، هو الإشارة إلى أن الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي يبتزون **سوكارنو** بهذه اللقطات الفاضحة حتى يسهل للشيوعيين في إندونيسيا الإمساك بزمام الأمور وربما تولي السلطة ..

والمثير للتأمل في ذلك الأمر ، أن الجهة التي كانت تبتز **سوكارنو** بالفعل كانت الولايات المتحدة التي أعلنت مخابراتها على الملأ أنها تمكنت من العثور على نسخ من أفلام **سوكارنو** الفاضحة .. وإن كانت لم تستخدمها أبدا ..

ادعت الولايات المتحدة أن الاتحاد السوفيتي يبتز **سوكارنو** ، ففضحته على الملأ وأمعنت في ابتزازه ..

* * *

وفي مطلع عام 1958 بدأ العصيان ضد **سوكارنو** في عدد من الجزر الإندونيسية ..

ساندت الولايات المتحدة ذلك العصيان بالأسلوب الكلاسيكي الذي دأبت على اتباعه في قارة أسيا .. فكان الطيارون الأمريكان يقومون بإلقاء القنابل ويقصفون الأهداف التي تدعم من موقف المتمردين .. لم يتمكن المتمردون من استغلال الموقف لصالحهم ، ومع ذلك استمر الأمريكان في شن غاراتهم الجوية لعدة أشهر .

ففي شهر أبريل ضربت إحدى الطائرات الأمريكية سفينة مدنية في ميناء جزيرة أمبون ، أسفر ذلك القصف عن مصرع جميع من عليها ، كما دمرت كنيسة ملاصقة للميناء ومات كل من بداخلها ، وكان ذلك في يوم أحد ، مما رفع عدد القتلى إلى سبعمائة ..

وفي 15 مايو عادت طائرة أمريكية لضرب ساحة السوق في نفس الجزيرة ، ومن جديد لقي عدد كبير من المدنيين مصرعهم كانوا في طريقهم إلى كنيسة أخرى (!) للاحتفال بما يسمى في المسيحية بخميس الصعود .. فصعدوا جميعا إلى السماء في ذلك الخميس المقدس ..

وفي 18 مايو تكرر القصف مرة أخرى للجزيرة ذاتها .. لكن الجديد في تلك المرة ، أن الطائرة الأمريكية اقتربت أكثر من اللازم ، وتمكن الجيش الإندونيسي من إسقاطها ، وتم أسر قائد الطائرة **لورانس بوب** حيا .. كان **بوب** واحدا من الطيارين التابعين للمخابرات الأمريكية .. وفي المعتاد فإن هؤلاء الطيارين لا يحملون معهم أوراق إثبات شخصية في عمليات سرية من هذا النوع .. لكن حدث أن تمكن **بوب** من تهريب أوراق توضح شخصيته وتبعيته للقوات الجوية الأمريكية وخط الطيران الخاص بالمخابرات ، حتى إذا ما أمسكوا به لا يتم التعامل معه على أنه شخصية مجهولة الهوية ، وبالتالي تسقط عنه حقوقه القانونية ويتم إعدامه كجاسوس ، لا سجنه كأسير ..

وهو ما حدث بالفعل ..

وفي 27 مايو 1958 أظهر **سوكارنو** الطيار الأمريكي **لورانس بوب** والمستندات الدالة على هويته في مؤتمر صحفي أمام العالم كله ، وجاء ذلك ردا قويا على محاولات ابتزازه ، كذلك كان ردا على تصريحات رسمية من مسئولين أمريكيين ينفون أي تدخل أمريكي في إندونيسيا .. واستمر **بوب** في السجن لمدة أربع سنوات حتى تدخل السناتور **روبرت كينيدي** شخصيا لدى **سوكارنو** وتم الإفراج عنه ..

وبعد انكشاف أمر **بوب** وعجز المتمردين – رغم المساندة الجوية الأمريكية – عن تحقيق أي نجاح ملموس ، قررت المخابرات تقليص مساعدتها ، وهو ما عجّل بانتصار قوات الجيش الإندونيسي التابعة لـ **سوكارنو** مع نهاية شهر يونيو من نفس العام ..

وبعد تمكن **سوكارنو** من تجاوز الأزمات المتتالية ، تحول تفكير الولايات المتحدة نحو الجيش الإندونيسي ، فالرئيس **سوكارنو** يستمد قوته منه ، ولولاه ما تمكن من الصمود .. فبدأت الولايات المتحدة تكثف برنامج المساعدات العسكرية واستضافت عددا من ضباط البوليس والجيش الإندونيسي في الولايات المتحدة للتدريب .. وفي الوقت نفسه عملت على تخفيض المعونة الاقتصادية على مراحل ..

وكان ذلك نوعا من التحضير بطئ المفعول لانقلاب عسكري يطيح بـ **سوكارنو** نهائيا ..

ونجحوا أخيرا في ذلك ..

* * *

اختلف المؤرخون حول ملابسات الانقلاب العسكري الذي تم ما بين يومي 30 سبتمبر و الأول من أكتوبر عام 1965 ، وأدى إلى تحجيم دور **سوكارنو** ، وتولي الجنرال **سوهارتو** قائد الجيش الحكم رسميا بدلا منه بعد عامين ، وإن كان قد استولى على الحكم منذ اليوم الأول ..

الاختلاف نشأ من عدم وضوح ما إذا كان الشيوعيون قد حاولوا بالفعل الانقلاب على **سوكارنو** وخطفوا ستة من قادة الجيش في البلاد وقتلوهم في الساعات الأولى من صباح يوم واحد أكتوبر .. وهو ما أدى إلى تدخل **سوهارتو** لإفشال انقلابهم ، ثم قيامه هو الآخر بانقلاب مضاد أسفر في النهاية عن عزل **سوكارنو** .. أم أن الجيش كان لديه النية بالفعل للانقلاب ، وسبقهم الشيوعيون إلى ذلك ، فحدث ما حدث .. فقد سيطرت قوة من صغار الضباط على محطة الإذاعة في صباح يوم الأول من أكتوبر وأعلنوا على الهواء أن حركتهم جاءت لتسبق انقلابا ممولا من المخابرات الأمريكية تدبره قيادة الجيش من أجل نزع السلطة من الرئيس **سوكارنو** في يوم الخامس من أكتوبر وهو ما يوافق عيد الجيش .. ولكن مع نهاية اليوم سحقت قوات الجيش بإشراف الجنرال **سوهارتو** قوات المتمردين ، ثم بدأوا انقلابهم مبكرا ، وسيطروا على البلاد مؤكدين أن التمرد كان محاولة انقلاب شيوعية للوصول إلى السلطة ..

تضاربت الآراء بشأن التفاصيل ..

لكن المؤكد أن أمريكا كان قد فاض بها الكيل من **سوكارنو** ومن تزايد نفوذ الشيوعيين ، خاصة بعد مرض **سوكارنو** وإثارة التساؤلات في واشنطن حول مستقبل إندونيسيا من بعده .. وقد استعدت أمريكا لهذا اليوم على مدى سبع سنوات بتوطيد العلاقات العسكرية مع الجيش لإضعاف ولائه لـ **سوكارنو** مع الوقت .. حتى أنه مع حلول عام 1963 كان ثلث قادة الجيش الإندونيسي وحوالي نصف الضباط الأقل رتبة قد تلقوا تدريبات على يد أمريكان .. ثم إن **سوكارنو** كان قد قام بتأميم شركات البترول الهولندية في عام 1965 ، وتزامن ذلك مع انسحابه من عضوية الأمم المتحدة في مطلع نفس السنة ..

باختصار .. كانت الأمور كلها لا تبشر بالخير ..

والمؤكد الآن أن أمريكا ساندت **سوهارتو** في مذبحته الشهيرة ضد الشيوعيين – والتي قتل فيها ما يزيد على مليون شيوعي طبقا لأرقام منظمة العفو الدولية وسجن ثلاثة أرباع مليون مواطن – .. وأنها كانت تعمل على رحيل **سوكارنو** ومجئ **سوهارتو** بصرف النظر عن مدى تورطها في تفاصيل الانقلاب ذاته .. ولنلق الضوء على بعض أحداث ما قبل وبعد الانقلاب ..

* * *

في 29 سبتمبر 1965 أبرق وزير الخارجية **دين راسك** للسفير الأمريكي في إندونيسيا **مارشال جرين** قائلا : " إن الحملة ضد الحزب الشيوعي الإندونيسي يجب أن تستمر .. وإن العسكريين الذين يقودون الحملة هم القوة الوحيدة القادرة على خلق النظام في إندونيسيا ، وعليهم الاستمرار بذلك بمساعدة الولايات المتحدة من أجل حملة عسكرية كبرى تطيح بالحزب الشيوعي " ..

وبعد انتهاء المجزرة بسنوات ، وتحديدا في عام 1973 بأستراليا ، سئل **مارشال جرين** و كان وقتها سفير أمريكا في أستراليا ، عما حدث في عام 1965 .. فأجاب قائلا :

" إنني أذكر أنه في عام 1965 كانت الأوضاع في إندونيسيا على حافة الهلاك .. كان هناك جدل وشكوك حول احتمال قيام حكومة شيوعية خلال عام واحد .. لذا فإنني كنت واثقا بأننا فعلنا ما كان ينبغي علينا أن نفعله (what we did we had to do) ، وأنه الأفضل لكم الآن أن تكونوا سعداء ، لأننا إن لم نفعل ، فإن أسيا كانت ستكون مكانا مختلفا تماما اليوم .. "

والغريب أن أحدا لم يسأله وقتها عن ذلك الذي فعلوه ! ..

* * *

وفي مايو 1990 نشرت وكالة الأنباء الحكومية دراسة في واشنطن بقلم **كاثي كادين** جاء فيها أن " الحكومة الأمريكية قد لعبت دورا مهما عبر تقديم قوائم تحمل أسماء آلاف من قادة الحزب الشيوعي إلى الجيش الإندونيسي الذي كان يصطاد اليساريين ويقتلهم .. وقد قال دبلوماسي أمريكي سابق أن عدد الأسماء المقدمة بلغ خمسة آلاف اسم ، وأن الأمريكيين كانوا يقومون لاحقا بالتحقق وشطب أسماء من قتل أو أسر

منهم .. كانت القوائم تحديدا تفصيليا لهويات قادة الحزب .. وقد ضمت القوائم أسماء أعضاء اللجان المحلية في الريف والمدن ، وقادة المنظمات الجماهيرية مثل اتحاد العمل القومي وجماعات النساء والشباب "..

سُلمت الأسماء للجيش الذي استخدمها " كقوائم إعدام " ، حسب قول **جوزيف لازارسكي** نائب رئيس مقر المخابرات الأمريكية في جاكرتا آنذاك ، الذي أضاف أنه قد تم الاحتفاظ بالبعض من أجل التحقيق ، أو من أجل تقديمهم لمحاكم صورية لأن الإندونيسيين لم يملكوا فرق إعدام كافية لقتلهم جميعا ! ..

أما خبير الشئون السياسية الأسبق لدى السفارة الأمريكية في جاكرتا **روبرت مارتينز** فقد علق على تلك المذابح قائلا : " لم يكن أحد مهتما بأنهم يذبحون ، طالما أنهم كانوا شيوعيين .. لم يكن أحد ليحفل بالأمر كثيرا .. فقد كان ذلك عونا كبيرا للجيش في الحقيقة .. لقد قتلوا الكثير من الناس ، وربما تلطخت يدي ببعض من تلك الدماء ، لكن ذلك لم يكن أمرا سيئا أبدا .. فأحيانا يكون عليك أن تضرب بقوة في اللحظة الحاسمة " .. أما البرقيات الصادرة عن السفارة الأمريكية في العاصمة جاكرتا بتاريخ 30 أكتوبر و 4 نوفمبر 1965 ، فقد أوضحت أن الولايات المتحدة كانت تمد الجيش الإندونيسي بأجهزة الاتصال المتقدمة بشكل مكثف من أجل تضييق الخناق حول الشيوعيين وتسهيل مهمة القضاء عليهم .. كما أكدت تلك البرقيات أن الولايات المتحدة وافقت على بيع طائرات حربية لإندونيسيا ، وأن الحكومة الأمريكية كانت تبدي تعاطفا وإعجابا واضحا بما يقوم به الجيش من مذابح ضخمة .. وفي الأيام التي كانت تعاني فيها قوات **سوهارتو** من نقص في الغذاء أو الذخائر ، كانت أمريكا تمد يد العون دائما ..

* * *

المهم ..

انتصر **سوهارتو** – ذلك الرجل الذي عاون الهولنديين أثناء الاحتلال الهولندي وخدم اليابانيين خلال الاحتلال الياباني – .. انتصر **سوهارتو** ، وسقط **سوكارنو** البطل الشعبي الذي لم يكن يخلو من العيوب ، لكنه كان وطنيا مخلصا لبلاده .. وسقط مع **سوكارنو** آخر أمل في الحفاظ على كبرياء إندونيسيا واستقلال قرارها السياسي ، فقد فتح **سوهارتو** البلاد للغرب لينهب ما يشاء من احتياطي البترول والغاز والحقول الغنية بالمعادن ، كما قام بإلغاء الحزب الشيوعي وتجريم المذهب ذاته في 12 مارس 1966 ..

وكان ذلك واحدا من الانتصارات القليلة للولايات المتحدة على الشيوعية في جنوب شرق أسيا ..

* * *

وفي مكان بعيد جدا ،

وفي ظروف مختلفة تماما ،

وقف الرئيس الأمريكي **ليندون جونسون** يلقي خطبة في مدنية انكوريدج بولاية ألاسكا في الأول من نوفمبر عام 1966 ..

ومن هذه الخطبة أنتقي فقرة مناسبة إلى حد بعيد ، توضح كيف تنظر أمريكا إلى أسيا ، بل وإلى العالم أجمع .. إنها نظرة في منتهى القسوة والصدق ، ولم يحاول الرجل أن يذوّقها .. يقول **جونسون** : " في هذا العالم من حولنا يعيش ثلاثة مليارات من البشر ، بينما لا نملك نحن سوى مائتي مليون من هؤلاء البشر .. إنها نسبة خمسة عشر إلى واحد .. ولو أن القوة كانت مع الجانب الأكثر عددا ، لانقضوا على الولايات المتحدة وأخذوا كل ما لدينا .. إننا نملك ما يريدون .. وإذا كان ثمة أعداء علينا أن نتوقع حضورهم إلينا ليعتدوا علينا ، فإنني أفضل أن يتم ذلك الاعتداء على بعد عشرة آلاف ميل من أن يتم هنا في انكوريدج .. فبدون التفوق الطاغي لقوة الطيران الحربي الأمريكي ، فإن أمريكا ستصبح ماردا مقيدا ومختنقا وعقيما .. وسنصير فريسة سهلة لأي قزم لديه مطواة جيب " ..

لهذا كان على أمريكا أن تحتاط وتأخذ حذرها ، وتتخذ القرار بسحق الأقزام الأسيويين حيث يعيشون ، بدلا من أن يقرر أحدهم في يوم ما أن يعتدي على أمريكا بمطواة جيب ..

تماما كما علقت صحيفة يابانية في أحد أيام عام 1975 على تدمير أمريكا لجزيرة صغيرة في كمبوديا تسمى تانج ، إذ كتبت تقول:

إن أمريكا كانت كمن يريد اصطياد دجاجة بمدفع ! ..

(33)
فـــيـــجـــي : هؤلاء المسالمون الأشرار !

ظاهرة فريدة جدا تستطيع أن ترصدها إن أسعدك الحظ وقمت برحلة إلى جزيرة فيجي في المحيط الهادي . فعلى أرض نفس تلك الجزيرة الصغيرة هناك فارق توقيت 24 ساعة .. بمعنى أن المرء المطل من نافذة شقته قد يفصل بينه وبين جاره في البناية المقابلة من حيث المسافة عشرة أمتار ، ومن حيث الزمن يوم كامل !! .. فيكون اليوم هو الأربعاء مثلا عند الأول ، بينما يكون الخميس عند الثاني !! ..

فكيف يحدث ذلك ؟ ..

ربما تكون جزيرة فيجي هي أبعد موقع جغرافي على الإطلاق يتناوله هذا الكتاب .. حيث تقع إلى الشرق من قارة أستراليا ، وتحديدا على خط الطول الوهمي 180 درجة .. ولأن الكرة الأرضية تنقسم إلى 360 خط طول ، يفصل بين كل منهم 4 دقائق (يكوّن حاصل ضربهما معا الأربع والعشرين ساعة) .. تبدأ من الصفر عند جرينيتش ببريطانيا وتتجه شرقا بمقدار 180 خط ، كما تتجه غربا بنفس المقدار .. ويلتقي الشرق والغرب عند خط طول واحد هو خط 180 الذي لا يتكرر مثلما لا يتكرر خط طول صفر ! ..

ولأن الكرة الأرضية تدور حول نفسها دورة كاملة كل يوم .. أي كل أربع وعشرين ساعة ..

ولأن فيجي تنفرد بأنها المكان الوحيد المأهول بالسكان على وجه الأرض الذي يمر به ذلك الخط السحري خط 180 درجة ..

فإن أية نقطتين على جانبي ذلك الخط الوهمي يفصل بينهما يوم كامل !! ..

ورغم أن جزيرة فيجي بعيدة جدا جدا .. ربما يسمع عنها واحد من كل مائة ألف ، ويعرف مكانها على الخريطة واحد من كل مليون .. فقد كان هناك من سمع وعرف وقرر أن يتدخل من أجل مصالحه التي يبحث عنها تحت كل حبة رمل ووراء كل قطرة ماء فوق ظهر الكرة الأرضية ..

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله .. الذي يتابع فزع أمريكا ومطاردتها المستميتة لكل من تسول له نفسه أن يسعى لامتلاك أسلحة دمار شامل ، لابد وأن يندهش للسطور التالية ..

* * *

كان البحار الهولندي **أبيل تاسمان** هو أول من اكتشف جزر فيجي في عام 1643 ..

وفي عام 1804 أدى اكتشاف خشب الصندل ببعض سواحل فيجي إلى بدء اهتمام الغرب بذلك المكان النائي ، وأكثرت السفن التجارية من زيارتها للمنطقة .. وفي عام 1874 استولت بريطانيا على فيجي .. وفي عام 1879 تم إحضار جماعات من العمال الهنود التابعين للإمبراطورية البريطانية للعمل في مزارع القطن وقصب السكر .. ومنذ ذلك التاريخ ، يشكل سلالة هؤلاء الهنود إضافة إلى السكان الأصليين غالبية

أهل البلد .. وبعد 96 عاما من الاحتلال البريطاني ، نالت جزر فيجي استقلالها منضمة إلى الكومونويلث البريطاني التقليدي في أكتوبر 1970 ..

وفي ذلك الربع الثالث من القرن العشرين ، كانت الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس قد انكمشت وتداعت وتسللت البرودة إلى أطرافها .. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي البديل التاريخي الذي سارع لملء الفراغ بمنتهى الجدية .. حدث ذلك في الشرق الأوسط وفي عدد من بلدان أفريقيا وفي الكثير من الجزر المنتشرة في المحيطات الواسعة ..

ولم تكن فيجي استثناء للقاعدة ..

* * *

كان أول رئيس وزراء لجزر فيجي هو **راتو سير كاميسيسي مارا** الذي ظل في منصبه منذ عام 1970 وحتى عام 1987 ..

لم تكن لفيجي أهمية تذكر بالنسبة للولايات المتحدة – خاصة وأنها في آخر الدنيا – سوى أنها تقع على طريق ترتاده السفن الأمريكية ..

وفي عام 1982 خطر في بال **مارا** رئيس وزراء فيجي أن تنضم الجزيرة إلى الداعين إلى إخلاء تلك البقعة من المحيط الهادئ من الأسلحة النووية .. فتعرض **مارا** لضغط أمريكي كبير للتخلي عن تلك السياسة التي كان الثبات عليها يعني أن السفن الأمريكية التي يتم تشغيلها بالطاقة النووية أو التي تحمل أسلحة نووية لا يمكنها أن ترسو في موانئ فيجي ، حتى أن السفير الأمريكي في فيجي **ويليام بود** الأصغر صرح في نفس ذلك العام قائلا : " إن إنشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية أمر لن تقبله الولايات المتحدة ، نظرا لاحتياجاتها الاستراتيجية ، وينبغي للولايات المتحدة أن تفعل كل ما في وسعها لدحر هذا التحرك " .. وفي العام التالي تراجع **مارا** عن هذه الأفكار العدوانية التي تدعو إلى السلام في المحيط الهادئ .. وقد فعل ذلك بدون أن يستشير مجلس الوزراء وهو ما أثار من حوله الشكوك ..

وفي أبريل 1987 تولى **تيموسي بافادرا** رئاسة الوزراء خلفا لـ **راما** في أعقاب أول انتخابات ديمقراطية تقام بالجزيرة .. وفور تسلمه منصبه أعلن **بافادرا** الساذج تعهده أمام شعب فيجي أن يعيد فيجي منطقة خالية من الأسلحة النووية ، بل ووصلت سذاجته المفرطة إلى درجة إعلانه الانتماء لحركة عدم الانحياز ..

وفي نهاية الشهر زار الجنرال **فيرنون وولترز** سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة الجزيرة .. واجتمع مع **بافادرا** بحجة مناقشة شئون الأمم المتحدة .. لكنه أيضا اجتمع – بدون مناسبة سياسية وجيهة – مع المقدم **ستيفيني رابوكا** الرجل الثالث في الجيش ..

وفي نفس التوقيت قام رئيس الوزراء السابق **راما** بزيارة غير مبررة لهونولولو بهاواي ليقابل بعض المسئولين الأمريكان .. فالرجل كان قد خسر لتوه الانتخابات ، وليس له تمثيل شرعي لأي أمر يخص فيجي ..

وفي 14 مايو 1987 – بعد 32 يوما من بقاء **بافادرا** في منصبه – تمت الإطاحة به في انقلاب عسكري سلمي بزعامة المقدم **ستيفيني رابوكا** .. وظهر **راما** في الحال ليعلن انضمامه لـ **رابوكا** وتأييده له .. كما ظهر مندوب رسمي عن السفارة الأمريكية في سوفا عاصمة فيجي مصاحبا للمقدم **رابوكا** في مناسبات مختلفة بعد الانقلاب العسكري .. وفي اليوم التالي للانقلاب ، أعلن مصدر في البنتاجون وهو ينفي تورط الولايات المتحدة : " إننا مسرورون نوعا ما .. ففجأة لم تكن تستطيع سفننا أن تذهب إلى فيجي ، والآن أصبح ذلك في مقدورها فجأة " ..

* * *

وفجأة !! ..

بعد خمسة عشر عاما ، ظهرت الولايات المتحدة في ثوبها الجديد ، مطاردة قوى الشر في أركان العالم ، داعية إلى نزع أسلحة الدمار الشامل حفاظا على أمن الكرة الأرضية ..

ولم يظهر بعد ....

ذلك المجنون الذي يطالب أمريكا بنزع أسلحتها النووية ..

فأمريكا تحتاط للغزاة العتاة سكان مجرة الشر الذين قد يهبطون ذات يوم علينا من السماء ..

(34)
ديجو جارسيا : عبقرية المكان

لا أظن أن هذا التساؤل خطر على بال الكثيرين ..

إذا كانت أمريكا قد عانت حتى تجد مكانا مناسبا تتمركز فيه قواتها قبيل حرب العراق 2003 ..

فلمَ لم نسمع عن مثل هذه المشكلة قبل حرب أفغانستان 2001 ؟ ..

أجل .. هناك فرق بين حرب شاملة ، وبين حرب جوية اعتمدت على طلعات الطيران والقذف الجوي فحسب .

مع ذلك فلم يكن في إمكان حاملات الطائرات الأمريكية في المحيط الهندي أن تستوعب كامل مخزون القنابل والمقذوفات ..

هذا المنطق في تسلسل الأفكار لابد وأن يقودنا إلى مكان ما كانت تتمركز فيه الطائرات ، وتزود بالوقود ، وتُخزّن به الأسلحة ..

هذا المكان كان ديجو جارسيا Diego Garcia ..

فما هذا المكان ، وما أصل الحكاية ، وكيف وصلت الولايات المتحدة إلى هناك ؟

* * *

تقع جزيرة ديجو جارسيا في المحيط الهندي ، بالقرب من خط الاستواء ، في منتصف الطريق بين شرق أفريقيا وجنوب أسيا .. أقرب الدول إليها هي مجموعة من الجزر كذلك .. من الشمال جزر المالديف ، ومن الشرق جزيرة سيريلانكا ، ومن الجنوب جزر موريشيوس ، ومن الغرب جزر سيشل .. ديجو جارسيا هي أكبر الجزر في أرخبيل شاجوس[61] والذي يضم 52 جزيرة ..

تم اكتشاف الجزيرة عن طريق الرحالة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر ، ويُعتقد أنها سميت باسم الملاح البرتغالي الذي اكتشفها ..

وفيما بعد ذلك التاريخ ، احتلت فرنسا تلك المنطقة بالكامل ، والتي كانت تضم جزر موريشيوس وسيشل .. وكان أرخبيل شاجوس تابعا لجزر موريشيوس ..

وفي عام 1814 تخلت فرنسا عن مستعمراتها في تلك المنطقة لصالح بريطانيا المنتصرة بعد هزيمة نابليون في معركة لايبتسيج عام 1813 وتنازل ورثته عن العرش ونفيه إلى جزيرة ألبا في عام 1814 .. في ذلك الوقت كانت تكمن أهمية الجزر المنتشرة في المحيط الهندي فيما بين أفريقيا وأسيا في كونها تشرف على طريق التجارة البحرية المتجهة من وإلى الهند والصين وما حولهما من بلاد ..

---

[61] أرخبيل يعني مجموعة من الجزر المتجاورة

ثم تمر السنوات .. وتنشب الحرب العالمية الأولى ثم الثانية ، ويتم إنشاء الأمم المتحدة ، ويتوالى استقلال الدول المحتلة في جميع بقاع الأرض ..

* * *

وبينما كانت جزر موريشيوس تطالب هي الأخرى بالاستقلال ، حدث شئ فريد في تاريخ الشر على الكرة الأرضية ..

ففي عام 1959 بدأت الولايات المتحدة تفكر في اتخاذ جزيرة دييجو جارسيا قاعدة عسكرية لها في المحيط الهندي .. وأخذت تقنع بريطانيا بفصل أرخبيل شاجوس عن موريشيوس قبل الموافقة على منحها الاستقلال .. وفي عام 1964 تكلمت الإدارة الأمريكية في هذا الموضوع بشكل أكثر جدية .. وفي نفس ذلك العام سمحت بريطانيا لجزر موريشيوس بإقامة حكومة مستقلة .. وفي العام التالي منحتها استقلالا صوريا قابل للتحول إلى استقلال كامل ، بشرط أن تتنازل عن أرخبيل شاجوس تماما .. وكان هذا مخالفا لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر في 14 ديسمبر 1960 ، والذي ينص على : " حظر اللجوء إلى تقسيم المستعمرات إلى أجزاء والتعدي على الوحدة الإقليمية للبلدان التي لم تنل استقلالها بعد " .. طبعا لا الجمعية العامة ولا الأمم المتحدة كانت تهم أمريكا وبريطانيا في شئ ..

وافقت موريشيوس على هذه الصفقة في نوفمبر 1965 .. وقامت بريطانيا بتغيير اسم الجزر المنفصلة إلى " إقليم المحيط الهندي البريطاني British Indian Ocean Territory " .. وفي عام 1966 تم تأسيس قاعدة عسكرية أمريكية في دييجو جارسيا بعد أن قامت الولايات المتحدة بتأجير ثلاث جزر متجاورة لمدة خمسين عاما قابلة للزيادة عشرين عاما أخرى .. لم تدفع الولايات المتحدة سوى 5 مليون جنيه إسترليني مقابل التأجير ، كما منحت بريطانيا خصما قدره 11 مليون جنيه إسترليني على صفقة أنظمة تطوير أسلحة نووية كانت بريطانيا قد اشترتها من أمريكا في ذلك التاريخ .. وفي مارس 1968 نالت موريشيوس استقلالها التام ..

إلى هنا لا يبدو أن هناك ما يدعو لإضافة دييجو جارسيا إلى لوحة الشرف .. غير أن طلبا أمريكيا – اعتُبر على هامش الصفقة – قذف بالجزيرة لتنال رقما في الكتاب ..

فقد اشترطت أمريكا أن تقوم بريطانيا بإخلاء جزيرة دييجو جارسيا والجزيرتين المجاورتين من سكانها قبل أن تتسلمها !! ..

لكن ماذا عن سكان الجزر ؟؟

إنها مأساة تحالف أكبر قوى الشر في العالم المعاصر ، الأمر الذي أدى إلى تشريد أفقر خلق الله ..

* * *

لم يُعرف عن جزيرة دييجو جارسيا أنها كانت مأهولة بالسكان قبل أن تطأ أرضها جماعة من الناس في أواخر القرن التاسع عشر .. وعلى مدار عشرات الأعوام اشتغلوا في مزارع تربية ثعابين الكوبرا لاستخلاص الزيوت منها ، وفي صيد الأسماك ، وزراعة أشجار جوز الهند ..

وعندما قررت الولايات المتحدة أنها في حاجة إلى الجزيرة بدون سكانها ، كان تعداد سكان الجزيرة أكثر من ألفي نسمة بقليل ..

قام البريطانيون بوضع سياسة " التطهير الكامل للأرخبيل The Complete Sterilization Of The Archipelago " .. فبدأت بريطانيا بكل بساطة وسط مباركة أمريكية في جمع السكان في سفن وشحنهم إلى موريشيوس التي تبعد نحو 1200 ميل ..

المثير في الأمر أن هؤلاء الغلابة لم يتم استشارتهم في هذا القرار المصيري بنقل حياتهم إلى الأبد في مكان آخر .. كانت السفن تصل إلى رصيف الميناء في موريشيوس وتلقي بجثث الأحياء كما لو كانت سيارة لوري تفرغ حمولة زلط في العراء .. لم يكن معظمهم على دراية بأنه لن يعود مرة أخرى إلى بيته .. وعندما فوجئوا بهذا الواقع المرير ، سارعت بريطانيا ووعدتهم بمنحهم الأرض والمال والماشية لبدء حياة جديدة سعيدة .. أما ملامح تلك الحياة الجديدة فقد تمثلت في العيش في أكواخ حقيرة في أفقر مناطق موريشيوس ، ولم يشتغل معظمهم .. والمحظوظون منهم كانوا من الخدم في بيوت الأثرياء .. أما القلة التي تصادف أنها لم تُشحن فورا في المراكب ، فقد أخبرها ممثل الحكومة البريطانية بهذه العبارة القصيرة في برود : " If you don't leave you will not be fed .. إذا لم تغادروا ، فلن تأكلوا " .. وبالفعل توقفت إمدادات الطعام عبر البحار ..

وفي عام 1971 أصدرت بريطانيا مرسوما تشريعيا يحظر نهائيا أية محاولات لعودة المنفيين إلى جزرهم .

وفي عام 1982 نال بعضهم تعويضات بسيطة لم تسهم في تغيير الحال ..

طبعا ليس من المألوف إرسال الإسعاف بعد 15 سنة من استغاثة المريض ..

فإما أن المريض قد مات ، وإما أن المرض قد مات .. وإما أنهما قد ماتا معا ..

* * *

عندما تسلمت أمريكا الجزيرة ، كان الغرض المعلن من تأجيرها " استخدامها في إنشاء محطة بسيطة للاتصالات هدفها إزالة الخلل من أنظمة الاتصالات الدولية ومساعدة السفن والطائرات الأمريكية والإنجليزية في المحيط الهندي لتأمين الاتصالات الجيدة " .. كان هذا نص ما أعلنه البنتاجون في ديسمبر 1970 .. لكن التاريخ يقول أن أعمال البناء العسكرية بدأت على الجزيرة في مارس 1970 .. وأن الجزيرة كانت تؤمّن طرق ناقلات البترول بالقرب من الخليج العربي ، وأنها استخدمت لإمدادات الوقود في عرض البحر ، ولحماية ساحل أفريقيا الشرقي وشواطئ جنوب أسيا مما أُطلق عليه " التخريب الشيوعي ".. كما يحدثنا التاريخ المعاصر كذلك عن استعمال الجزيرة في شن الغارات على إيران في حرب الخليج الأولى

1980 – 1988 ، وعلى العراق في حرب الخليج الثانية 1991 والثالثة 2003 ، وعلى الصومال 1992 ، وعلى أفغانستان 2001 .. لقد كانت قذائف بي 52 علامة مميزة لتلك الجزيرة .. أما العلامة الأكثر تميزا ، فهي أن الجزيرة كانت وما زالت مستودعا لجميع أنواع أسلحة الدمار الشامل ..

* * *

ثم تظهر بارقة أمل في نهاية القرن الماضي عندما نجح واحد من المنفيين في رفع قضية أمام المحاكم البريطانية ضد الحكومة البريطانية .. وكان المنفيون قد قضوا سنوات لا يسمعون فيها سوى عبارات الرفض لعدم الاختصاص ..

اختصم **لويس بانكول** الحكومة البريطانية بدافع إبطال التشريع العجيب القاضي بأبدية النفي ، كي يعود إليه حقه في العودة إلى بلده ..

تحدث المحامي عن مأساته أمام القضاة موضحا أن **بانكول** وعائلته قد غادروا جزيرة بيروس بانوس – واحدة من ثلاث جزر تم إخلاؤها لصالح أمريكا – في عام 1967 من أجل علاج شقيقته في موريشيوس .. وعندما أرادوا العودة فوجئوا بمنعهم .. وكان كل ما طالب به **بانكول** نيابة عن أربعة آلاف منفي – خمسمائة من المنفيين الباقين على قيد الحياة وآخرون ولدوا في المنفى – أن يُسمح لهم بالعودة إلى الجزيرتين الصغيرتين المجاورتين لدييجو جارسيا وكذلك السماح لهم بالعودة إلى الجانب الشرقي من دييجو جارسيا ، إذ كانت الولايات المتحدة قد أقامت قاعدتها العسكرية في الناحية الغربية ..

وفي الثالث من نوفمبر عام 2000 وقبل انقضاء الألفية الثانية بـ 58 يوما ، أصدرت المحكمة حكمها التاريخي لصالح المنفيين بحقهم في العودة إلى أوطانهم المسروقة ..

لكنه ظل حكما تاريخيا ..

فلا امتد تأثيره إلى الجغرافيا ، ولا انتقل زمانه إلى الحاضر !

أفـريـقيـا : تنـاوبـوا عـلى اغـتصـابـهـا

تسمعون عن بلاد الواق الواق التي يتندر بها الظرفاء ..

إنها جزيرة مدغشقر في جنوب شرق قارة أفريقيا ..

وتسمعون عن آكلي لحوم البشر .. إنهم في أماكن ما في وسط وشرق أفريقيا ..

وتسمعون عن الصراعات القبلية والثروات الطبيعية غير المستغلة أو المنهوبة ..

إن كل ذلك في أفريقيا .. ومع الأسف الشديد ..

لا توجد المعلومات الكافية عن هذه القارة بعد ..

* * *

إن انطباعا عاما قد ترسخ على مدار عشرات الأعوام ، فلا اهتم بها المؤرخون الاهتمام الكافي ، ولا أعطاها الباحثون التركيز المطلوب ..

لذا ، فقد عاثت وما زالت تعيث الولايات المتحدة فسادا هنا وهناك في أنحاء القارة السمراء ، دون أن يتم رصد كل ما تقوم به ..

من أجل محاربة الشيوعية ، ومن أجل نهب الماس والذهب واليورانيوم والبلاتينيوم والبترول ، كانت القارة مرتعا ومسرحا لعمليات أمريكية عديدة ..

* * *

جاءت أمريكا إلى القارة متأخرة جدا عن شركائها الأوروبيين ..

جاءت متأخرة عدة قرون عن البرتغال وهولندا وإسبانيا وإنجلترا وفرنسا وبلجيكا .. وعدة عقود عن إيطاليا وألمانيا ..

لكنها سحبت البساط من الجميع ، وقررت أنها لا تحب الاغتصاب الجماعي ..

إنه يخدش حياءها .. إنها تفضل الغرف المغلقة ..

إنها تحبذ الاستمتاع الفردي ..

على أية حال .. إن الفصول التالية هي مجرد محاولة لتوضيح جانب من حقيقة الأمور ..

(35)
جنوب أفريقيا : عنصرية وأشياء أخرى

في يوم من ذات الأيام ..

كان هناك فلاح يمشي في الطرقات ..

وكان الأطفال من حوله يلعبون بأحجار ملونة غير مألوفة ..

مال الفلاح على صبي من الصبيان .. أخذ منه حجرا أعجبه .. ثم عرضه على صديق له ..

كان الصديق تاجرا خبيرا ، فأدرك على الفور أن الحجر الصغير ما هو إلا ماسة من نوع جيد ..

وقال لصاحبه أنها تساوي 500 جنيه إسترليني ..

لم يستوعب أهل المنطقة أن أطفالهم يلعبون وسط منجم ماس .. لم تكن تلك مسألة قابلة للتصديق ..

وبعد فترة .. سمع الفلاح الذي احتفظ بماسة الأطفال أن ساحرا أفريقيا يستخدم حجرا مشابها كتعويذة ..

ذهب إليه وقايضه عليه بعدة أبقار يملكها ..

ثم اتضح بعد ذلك أنها ماسة ممتازة تساوي 11 ألف جنيه إسترليني ..

وفيما بعد نالت هذه الجوهرة شهرة واسعة وعرفت باسم " جوهرة أفريقيا " ..

جرت هذه الأحداث في عام 1867 ..

انتشرت الحكاية ، وتدفق الإنجليز والهولنديون على مكان اكتشاف الماس ..

لم يكن الجنوب الأفريقي خاضعا بأكمله للإنجليز في ذلك الوقت ..

كان هناك البوير (بوير تعني فلاحا بالهولندية) وهم المستوطنون الهولنديون ..

وكان هناك الإنجليز الذين يُخضعون المناطق المختلفة تحت سيطرتهم عاما بعد عام ..

وكان هناك الأفارقة ..

أنشئت أربعة مناجم ماس في تلك البقعة الصحراوية من أراضي جنوب أفريقيا .. ودارت صراعات محتدمة حول ملكية المناجم بين جميع الأجانب الموجودين هناك ، ولم يأت ببال أحد أن تكون المناجم ملكا لأصحاب الأرض من الأفارقة ..

وفي نهاية الأمر اشترت بريطانيا المناجم بمبلغ 90 ألف جنيه إسترليني ..

ومنذ ذلك الحين تغيرت النظرة إلى جنوب أفريقيا ، خاصة بعد اكتشاف الذهب بكميات كبيرة في عام 1886 ..

واشتد الصراع بين الإنجليز والبوير حتى قامت حرب عرفت باسم حرب البوير 1899 – 1902 ..

وانتصر الإنجليز وفرضوا سيطرتهم على كل شئ ..

وانضمت جنوب أفريقيا – مثلها مثل دول عديدة في ذلك الوقت – إلى الكومونويلث البريطاني ..

* * *

إنها مسألة مثيرة للأعصاب ..

كلما توقفت أمام حادثة من حوادث الإيذاء البغيض في التاريخ المعاصر ، أصطدم بفعل وفاعل ومفعول به ومفعول لأجله ..

شر .. وشرير .. وضحية .. وسبب ..

وعادة ما يتكرر الفعل والفاعل ، ويتغير المفعول به من أجل نفس المفعول لأجله ..

إنها جملة فعلية مفيدة ..

" أرسلت أمريكا مانديلا إلى السجن حفاظا على مصالحها " ..

إنها عبارة موجزة ، لكنها مرعبة ..

فما شأن أمريكا بمناضل شهير مثل نيلسون مانديلا ؟ .. ولماذا أرسلته إلى السجن ؟ .. وكيف ؟

من الأنسب أن تدخل العبارة الموجزة في السياق التاريخي للأحداث التي جرت على أرض جنوب أفريقيا في القرن العشرين ..

* * *

بعد هزيمة البوير في عام 1902 وحسم الصراع السياسي والاقتصادي لصالح الإنجليز ، تمت الوحدة بين المناطق المتفرقة في جنوب أفريقيا مكونين اتحاد جنوب أفريقيا في عام 1910 .. وفي عام 1915 قامت جنوب أفريقيا بغزو واحتلال ناميبيا التي تقع إلى الشمال الغربي منها .. وكانت ناميبيا قبل ذلك التاريخ مجرد إقليم في الجنوب الأفريقي ولم يكن لها ذلك الاسم ، وكانت محتلة من الألمان منذ عام 1884 ، وساهم قيام الحرب العالمية الأولى في تمكين جنوب أفريقيا من احتلال تلك المنطقة التي كانت تماثلها في الحجم تقريبا ..

* * *

في النصف الأول من القرن العشرين كانت هناك تطورات تتدافع في اتجاهات متباينة في جنوب أفريقيا .. فمن ناحية كانت بريطانيا منهكة في حروب وصراعات شغلتها إلى حد كبير عن دولة في الكومونويلث .. فكانت السلطة في أيدي أشخاص انعزلوا عن الأحداث العالمية وراحوا يفرضون أساليب خاصة في الحكم . ومن ناحية أخرى كانت هناك الاكتشافات المتوالية للمعادن الثمينة وغير الثمينة على أرض جنوب أفريقيا . حتى أنه بحلول منتصف عشرينات القرن العشرين كانت (ومازالت) جنوب أفريقيا تحتل أحد المركزين الأول أو الثاني عالميا في إنتاج كل من الذهب (حوالي 50 % من الاحتياطي العالمي و30 % من الإنتاج العالمي) والماس والبلاتينيوم (49 % من الإنتاج العالمي) والكروميوم (72 % من الاحتياطي العالمي) والمنجنيز (75 % من الاحتياطي العالمي) والفاناديوم (45 % من الاحتياطي العالمي) .. كما أن جنوب أفريقيا من أهم منتجي اليورانيوم (17 % لتحتل المركز الخامس بالنسبة للاحتياطي العالمي) والفحم

والنحاس والفضة والحديد .. ومن ناحية ثالثة كانت هناك ملامح التفرقة العنصرية تتشكل يوما بعد يوم .. وبالوصول إلى عام 1936 كان الأفارقة السود قد حُرموا من المشاركة في الانتخابات بإلغاء أصواتهم .. وفي عام 1948 تم تشريع قانون التفرقة العنصرية بشكل رسمي بعد أن ظلت تمارس حوالي أربعين عاما . وكانت تشريعات التمييز العنصري تمس جميع نواحي الحياة الاجتماعية بما في ذلك تحريم الزواج بين البيض وغير البيض ، وحظر بعض الوظائف على السود من خلال ما سمي بـ "white-only jobs" .. وفي عام 1950 تم تصنيف سكان جنوب أفريقيا إلى ثلاثة مستويات : البيض ، والسود (الأفارقة) ، والملونين (الهنود والأسيويين) ..

وعن طريق ذلك التصنيف تم إجبار جميع السود على حمل جوازات "pass books" تحتوي على بصمات الأصابع وصورة شخصية إلى جانب معلومات خاصة عن تواريخ وملابسات " عبوره " من قبل إلى مناطق البيض "non-black areas" ..

وبحلول عام 1981 كان قد تم إلقاء القبض على 18 مليون أسود بتهمة الرغبة في الإقامة قرب أماكن عملهم !

* * *

وقبيل انتهاء نفس ذلك النصف الأول من القرن المنصرم كانت الولايات المتحدة قد ظهرت في الأفق ..

كان هناك ما يسمى بوكالة التنمية الموحدة Combined Development Agency (CDA) تم إنشاؤها بمعرفة الولايات المتحدة وبريطانيا في عام 1944 .. وكانت هذه الوكالة معنية بتدبير احتياجات البلدين من اليورانيوم لخدمة برامج الأسلحة النووية .. وقد قامت بإنشاء شركة تابعة لها في جنوب أفريقيا بغرض استخراج اليورانيوم على هامش عمليات الكشف عن الذهب في المناجم .. وكانت الوكالة تقوم بتمويل نشاط شركة جنوب أفريقيا وتشرف على إدارتها بالتعاون مع المؤسسات المسئولة عن المناجم في جنوب أفريقيا ، بحيث يتم بيع كميات اليورانيوم بالكامل لكل من الولايات المتحدة وبريطانيا ..

كان هذا بداية التعاون النووي بين الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا ..

وفي عام 1957 تم توقيع اتفاقية تعاون بين البلدين بخصوص الاستخدام السلمي للطاقة الذرية .. أسفر هذا التعاون عن السماح لجنوب أفريقيا بشراء أبحاث إنشاء مفاعل نووي والحصول على اليورانيوم المعالج لتشغيل المفاعل .. وكان ذلك يتم في مقابل استغلال الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا لليورانيوم الخام ..

كان حرص الولايات المتحدة البالغ على الاستفادة من الإمكانات الهائلة للثروات المعدنية المختلفة وعلى رأسها اليورانيوم ، يجعلها تغض البصر عن الممارسات العنصرية لحكومة جنوب أفريقيا في ذلك الوقت .. وربما يمكن تبرير هذا التجاهل بالجهل ..

ففي خمسينات القرن العشرين لم يكن العالم قرية صغيرة ولا كانت المعلومات متاحة ومتوفرة ..

وإذا سلمنا بصحة ذلك في السنوات الأولى للتعاون الاقتصادي والعلمي بين دولتي جنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فإنه لا يمكننا افتراض حسن النية بعد الحادثة الشهيرة التي وقعت في 21 مارس 1960 وعُرفت في التاريخ بمذبحة شاربفيل ..

ففي ذلك اليوم فتح بوليس جنوب أفريقيا النار على مظاهرة مكونة من حوالي ثلاثمائة أفريقي أسود كانوا يحتجون على قانون حمل الجوازات الذي كان بمثابة نزع للجنسية ، إذ لم يكن يُسمح للسود الانتقال بحرية في جميع أنحاء الدولة ، بل كانت لهم مناطق بعينها ، وإذا ما أرادوا مغادرتها ، فعليهم إبراز الجواز .. وقد يُجاز لهم العبور أو لا يُجاز.. كانت المظاهرة تهتف بسقوط التمييز العنصري ، وكان هناك طاقم تليفزيوني من شبكة بي بي سي البريطانية يصور وقائعها .. وعندما أطلقت الشرطة الرصاص على المتظاهرين ، لقي 69 أفريقيا مصرعه وجُرح الباقون .. وظلت الكاميرات التليفزيونية دائرة تلتقط تلك اللقطات الوحشية لتسجلها في ذاكرة التاريخ ..

وعندما أذيعت تلك المشاهد على العالم ، سارع الجميع إلى إدانة سياسة التفرقة العنصرية ، وقطعت معظم دول العالم علاقاتها الدبلوماسية مع جنوب أفريقيا تباعا ، لدرجة أن بريطانيا ذاتها قامت بطرد جنوب أفريقيا من الكومونويلث البريطاني بعد حوالي عام من مذبحة شاربفيل ..

لم يعن هذا الأمر الكثير بالنسبة لسياسة الولايات المتحدة تجاه جنوب أفريقيا .. فمسألة العنصرية هذه لم تكن جديدة على التاريخ الأمريكي ..

ورغم الضغوط المحلية في الولايات المتحدة التي أجبرت الإدارة الأمريكية على انتقاد سياسات التمييز العنصري علنا ، وساهمت في حظر مبيعات الأسلحة إلى جنوب أفريقيا ، إلا أن ذلك الحظر كان صوريا في معظم الأحوال ..

ففي الثاني من أغسطس 1963 صوتت الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لصالح القرار رقم 181 الذي كان ينص على حظر بيع الأسلحة لجنوب أفريقيا .. ومع ذلك فقد أعلنت الولايات المتحدة في نفس تلك الجلسة أنها تصر على وجود استثنائين لمثل ذلك الحظر الشامل .. وقد جاء ذلك في كلمة السياسي الأمريكي الشهير **أدلاي ستيفينسون** – وكان وقتها سفيرا للولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة – ، إذ قال : " إننا نؤيد الامتناع عن بيع الأسلحة لحكومة جنوب أفريقيا ، فيما عدا عقود البيع التي تمدهم بكميات محدودة من الأسلحة الاستراتيجية الدفاعية ضد التهديدات الخارجية مثل صواريخ جو- جو وطوربيدات الغواصات " .. ثم أضاف عبارة مطاطية قال فيها : " وكذلك إذا اقتضت مصالح المجتمع الدولي أن يتم إمدادهم بأسلحة تُستخدم في مجهود الدفاع المشترك من أجل الحفاظ على السلام العالمي " ..

وظل الاستثناء هو القاعدة منذ ذلك اليوم ..

* * *

وفي ذات المرحلة التاريخية التي كان فيها العالم أجمع يستهجن التصرفات العنصرية الشائنة لدولة جنوب أفريقيا ، كانت الولايات المتحدة تعاونها بكل جهد ممكن للقضاء على مقاومة السود .. وكان الغرض الرئيسي من وراء ذلك هو أيضا مقاومة الشيوعية الدولية .. فالروس منذ أواخر الخمسينات كان لهم نشاط في القارة الأفريقية .. كان هناك دعم لحركات أو زعامات يسارية في أنجولا والكونجو وغانا وغينيا .. وكانت الأوضاع في أنجولا بالذات تدعو إلى القلق والخوف على مصير جنوب أفريقيا بسبب الحدود المشتركة في أقصى جنوب القارة .. ولم يكن لدى الأمريكان أي رغبة أو قدرة على التمييز بين الثورة على العنصرية وبين الثورة ذات الطابع الشيوعي .. ولم تكن تلك مسألة هامة .. فقد كان لابد من وجود حليف لأمريكا في تلك المنطقة الغنية مهما بلغت بشاعة ذلك الحليف ..

ويأتي التعاون من أجل القضاء على **نيلسون مانديلا** ذلك الثوري الجامح على رأس أعمال المخابرات الأمريكية من أجل كبت مقاومة السود وما قد يسفر عنها .. كان **مانديلا** يناصر في كثير من الأحيان أفكار الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا .. وكان يتزعم حزب المؤتمر الأفريقي الذي يقود النضال ضد التفرقة العنصرية .. وكانت له جاذبية ملحوظة بين أبناء وطنه ، خاصة وأنه قد تحول مع الوقت إلى بطل شعبي بسبب قدرته على خداع رجال البوليس في جنوب أفريقيا .. وفي 16 ديسمبر 1961 أطلق **مانديلا** شعاره الشهير " رمح الأمة Spear of the Nation " والذي كان إعلانا لبدء الكفاح المسلح .. كان هذا تحولا خطيرا في أسلوب المقاومة ، وزاد من خطورته أنه نال دعم وتأييد الحزب الشيوعي هناك ..

وكانت هناك تقارير أمريكية قد ظهرت في السنوات الأخيرة التي سبقت اعتقال **مانديلا** – 1962 – تحذر من تطورات الموقف في جنوب أفريقيا ، وتنبه إلى خطورة تحركات **نيلسون مانديلا** .. فقد ظهر تقرير يؤكد وجود وثائق تخص حزب المؤتمر الأفريقي تتضمن مستندا من 43 صفحة ينادي بالثورة في جنوب أفريقيا .. وقد أشار ذلك التقرير إلى أن الحزب قد أعيد هيكلته في عام 1959 وأن هناك خطة تحت اسم خطة M ميم أو خطة **مانديلا** ، وأن المجلس التشريعي الخاص بالحزب قد تم إنشاؤه في نهاية عام 1961 بقيادة **نيلسون مانديلا** من أجل القيام بأعمال تخريبية .. وكانت السفارة الأمريكية في ذلك التوقيت تراقب عن كثب كافة نشاطات **مانديلا** وأسفاره إلى الخارج .. كما علمت مصادر المخابرات الأمريكية عن قيامه بالتخفي والهرب من مطاردة شرطة جنوب أفريقيا بالعمل كسائق على سيارة أحد البيض المساندين لحزب المؤتمر الأفريقي ويدعى **سيسيل ويليامز** .. كانت المخابرات ترصد مقابلاتهما معا ، وكانت التقارير تصف ذلك الأبيض **ويليامز** بأنه أحد الشيوعيين البارزين في جنوب أفريقيا ..

وفي مطلع شهر أغسطس 1962 قدم **دونالد ريتشارد** – وهو أحد رجال المخابرات الأمريكية وكان يعمل تحت ستار وظيفة مستشار أمريكي في مدينة ديربان – معلومات هامة لشرطة جنوب أفريقيا تفيد بأن **مانديلا** سيتخفى كسائق في سيارة متجهة إلى ديربان وحدد لهم اليوم والساعة والطرق التي سوف يسلكها . وكان **ريتشارد** قد حصل على هذه المعلومات من أحد الخونة في حزب المؤتمر الأفريقي ..

وفي الخامس من أغسطس أعدت شرطة جنوب أفريقيا كمينا مسلحا عند بلدة متراس وقاموا بإلقاء القبض على **نيلسون مانديلا** بعد مطاردة استمرت سبعة أشهر متصلة .. وفي العام التالي انتهت مهام **دونالد ريتشارد** في جنوب أفريقيا .. وفي حفل وداع أقيم له في منزل أحد عملاء المخابرات الأمريكية في جنوب أفريقيا الكولونيل **هوار** ذكر **ريتشارد** بنفسه على مسمع من الحاضرين ، بعد عدة كؤوس من الخمر ورغبة منه في تأكيد نجاحه في مدة إقامته بجنوب أفريقيا ، أنه السبب وراء القبض على **مانديلا** .. فقد كان من المفترض أن يقابل **مانديلا** في تلك الليلة ، لكنه بدلا من ذلك أبلغ الشرطة **!** ..

وفي 10 يونيو 1990 جاء في صحيفة أتلانتا جورنال آند كونستتيوشن أن مسئولا متقاعدا في المخابرات الأمريكية – لم تحدد هويته – أفشى لها أنه بعد ساعات من اعتقال **مانديلا** ، دخل عليه أحد كبار مسئولي المخابرات الأمريكية بجنوب أفريقيا ويُدعى **بول آيكل** ، وأخبره في حماس قائلا : " لقد سلمنا **مانديلا** إلى فرع الأمن بجنوب أفريقيا ، لقد قدمنا لهم كل التفاصيل ، ماذا يرتدي ، الوقت المحدد من النهار ، المكان الذي يتواجد فيه على وجه الدقة ، واعتقلوه .. وكانت تلك واحدة من أعظم ضرباتنا " ..

* * *

لم تشأ الولايات المتحدة أن يتم إعدام **مانديلا** فيموت كبطل .. ويتخذ الناس من حياته وذكراه حافزا جديدا على مواصلة الكفاح والعبث بالمصالح الأمريكية .. فتم التنسيق مع الجهات الأمنية في جنوب أفريقيا أن يُسجن **مانديلا** مدى الحياة بجزيرة روبين ..

وفي الأشهر التي تلت اعتقال **مانديلا** ، ظهرت مؤشرات عديدة تؤكد مدى انغماس المخابرات الأمريكية في الأعمال المضادة لحزب المؤتمر الأفريقي .. فقد اتضح أن فرع المخابرات الأمريكية في جوهانسبرج كان يقدم أموالا ومعلومات وخبرات للقضاء على مقاومة السود أكثر بكثير مما كانت تقدم أجهزة الأمن والمخابرات في حكومة جنوب أفريقيا ذاتها ..

وقد أشار إلى ذلك أحد مسئولي مخابرات جنوب أفريقيا **جيرارد لودي** بعد تقاعده .. فقد أفصح في حوار أُجرى معه في مزرعته قائلا : " إن جنوب أفريقيا كانت قد انسحبت حديثا من الكومونويلث البريطاني .. وكنا قد فقدنا دعم أجهزة المخابرات البريطانية .. وفي ذلك الوقت ، لم نكن نملك أية موارد ، ولم يكن لدينا قسم استخبارات بالمعنى المفهوم .. كنا ثلاثة فقط نقوم بمثل ذلك العمل في عام 1962 .. لكن السي أي إيه كانوا يتوهجون بالمال .. لقد ساعدونا كثيرا .. " ..

وبعد سنوات طويلة أُطلق سراح **مانديلا** ، وخرج من سجنه في فبراير 1990 ، بعد أن مكث فيه ما يزيد على 27 عاما ..

ومن المفارقات الغريبة أن الرئيس الأمريكي **جورج بوش** خاطب **مانديلا** هاتفيا وأكد له أن " كل الأمريكيين مبتهجون لإطلاق سراحه " .. وكان هذا أمرا يدعو للسخرية .. فـ **جورج بوش** كان أحد

العاملين بالمخابرات الأمريكية ثم مديرا لها بعد سنوات قليلة من تعاونها مع جنوب أفريقيا للقبض على مانديلا ! ..

أما **ديك تشيني** وزير الدفاع في إدارته فكان أحد الذين صوتوا في وقت سابق كعضو كونجرس ضد التدخل للإفراج عن **نيلسون مانديلا** ..

ثم حدث أن وُجّه سؤالا للبيت الأبيض عما إذا كان **بوش** سيعتذر للزعيم الأفريقي **مانديلا** عن تورط الولايات المتحدة في اعتقاله ، وذلك في اجتماع وشيك بين الرجلين .. فخرجت المتحدثة الرسمية باسم البيت الأبيض **مارلين فيتزووتر** لتجيب عن تساؤلات الكثيرين قائلة : " لقد حدث ذلك خلال إدارة **كينيدي** . لا تحاسبني عما فعلته زمرة **كينيدي** " .. أما المخابرات الأمريكية فصدر عنها تصريح مقتضب يقول : " إن سياستنا هي عدم التعليق على مثل هذه الإدعاءات " ..

* * *

كانت علاقة الولايات المتحدة بجنوب أفريقيا علاقة خاصة جدا .. كانت الولايات المتحدة في حاجة إلى أمور عدة ..

كانت تحتاج إلى اليورانيوم بالأساس ، وكانت تستغل مناجم الماس والذهب وكافة ما تحتفظ به الأرض في باطنها في تلك البقعة ، فلم تكن تكتفي بالماس واليورانيوم والذهب ، بل كانت تستورد 58 % من احتياجاتها من الكروميوم من جنوب أفريقيا ، بالإضافة إلى 46 % من البلاتينيوم و27 % من واردات المنجنيز وغير ذلك .. كانت جنوب أفريقيا دولة من الطراز الرفيع بالنسبة لأمريكا ، حتى أنه قد أُطلق عليها في وقت سابق أنها " سعودية المعادن The Saudi Arabia of Minerals " ! ..

كما كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى حليف قوي تعتمد عليه في محاربة الشيوعية الدولية وضمان عدم تغلغلها في الجنوب الأفريقي ..

وفي المقابل كانت الولايات المتحدة تمد جنوب أفريقيا بالسلاح والتكنولوجيا النووية وأجهزة الكومبيوتر اللازمة لتسجيل بيانات السود وتسهيل تنفيذ نظام الجوازات ونزع الجنسية .. وكانت تساندها في الأمم المتحدة وتمنع قرارات عديدة من الصدور ضدها بسبب العنصرية .. وكانت تؤيد احتلال جنوب أفريقيا لدولة ناميبيا المجاورة .. وكانت تبرر كل تلك التصرفات أمام المجتمع الدولي ، فتعزوها إلى رغبتها في تشجيع حكومة جنوب أفريقيا على انتهاج سياسة مغايرة لسياسة التفرقة العنصرية ، وذلك بالمضي في مساعدتها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وتكنولوجيا ! ..

* * *

وإن دققنا النظر في عناصر تلك العلاقة الخاصة لأمكننا استيعاب ذلك الموقف السياسي للولايات المتحدة حتى ما قبل نهاية القرن بعقد واحد ..

* * *

من جهة صفقات الأسلحة والتربيطات النووية ، لم تمانع الولايات المتحدة في أن تمتلك جنوب أفريقيا أسرار القنبلة النووية .. وكانت تحتضن العلاقة النووية الحميمة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا .. بل لن نبالغ إن قلنا أن الارتباط كان وثيقا بين السماح بالتمادي في التسليح النووي وتوفير الغطاء الدولي لجنوب أفريقيا في مقابل لعب دور يشبه دور الوسيط لتزويد إسرائيل بالطاقة النووية الخام دون وقوع الولايات المتحدة في حرج دولي خاصة في حقبة الستينات أيام اشتعال الحرب الباردة والصراع العربي الإسرائيلي والتوازن النووي بين القوتين العظميين والحرص على المصالح الأمريكية في الوطن العربي وقت أن كان هناك وزن للعرب أو حساب لمشاعرهم ..

ونستطيع أن نستوضح تلك العلاقة النووية بالاستشهاد ببعض التواريخ والأحداث ..

في عام 1963 أمدت جنوب أفريقيا إسرائيل بعشرة أطنان من اليورانيوم الخام ..

وفي المقابل في عام 1964 أرسلت الولايات المتحدة إلى جنوب أفريقيا أول شحنة من اليورانيوم المخصب 235 لاستخدامه في المفاعل النووي سافاري 1 الذي ساهمت الولايات المتحدة في إنشائه بجنوب أفريقيا ..

وفي عام 1965 قدمت الشركة الأمريكية أليس تشالمرس 90 % من اليورانيوم المخصب اللازم لتشغيل المفاعل النووي ..

وفي عام 1967 قامت الولايات المتحدة بإنشاء المفاعل النووي سافاري 2 ، وزودته باليورانيوم المخصب وبالماء الثقيل ..

وفي الفترة ما بين عامي 1972 و1975 عادت جنوب أفريقيا لترد الجميل بإمداد إسرائيل باليورانيوم الخام والمستنزف .. وفي عام 1974 تقابل رئيس الوزراء الإسرائيلي **شيمون بيريز** مع رئيس وزراء جنوب أفريقيا **جون فورستر** في اجتماع سري بجنيف .. وقاما بتوقيع اتفاقية للتعاون الاستراتيجي بين البلدين ، وشمل الاتفاق معاهدة للدفاع المشترك تنص على " أن الدولتين يدعما بعضهما البعض في وقت الحرب عن طريق الإمداد بقطع الغيار واحتياطي الذخيرة الحربية وأن يفتح كل بلد أرضه أمام تخزين جميع أنواع الأسلحة التي تخص البلد الآخر " .. وكان من ضمن بنود الاتفاقية أن تمد إسرائيل جنوب أفريقيا بالخبراء والعلماء للمساعدة في الأبحاث النووية وتطوير القنبلة الذرية ..

وفي 22 مايو 1974 وقعت الولايات المتحدة اتفاقية مع جنوب أفريقيا ، كانت بمثابة تمديدا لاتفاقية عام 1957 السابق الإشارة إليها والتي كان سينتهي مفعولها في عام 1977 .. كانت الاتفاقية الجديدة تتيح لجنوب أفريقيا استيراد كميات متزايدة من اليورانيوم المخصب اللازم لتشغيل المفاعلين النوويين حتى عام 2007 .. كما أجريت تعديلات على الاتفاقية القديمة بحيث تسمح لجنوب أفريقيا بالحصول على كميات من اليورانيوم 235 اللازم لتصنيع قنبلة نووية ، هذا بالإضافة إلى البلوتونيوم ..

وفي أغسطس 1977 تزايدت الشكوك حول امتلاك جنوب أفريقيا للقنبلة النووية ، وذلك في أعقاب اكتشاف قمر صناعي سوفيتي أمر إجراء اختبار نووي في صحراء كالهاري .. وعندما تم إحراج الولايات المتحدة

بهذه المعلومات ، أمر الرئيس **كارتر** بإجراء تحقيق بشأن تلك الحادثة ، ولم يكن هناك مفر من التصديق على ما توصل إليه الروس .. وسارعت الحكومة الأمريكية إلى توجيه إنذار إلى جنوب أفريقيا من أجل عدم تكرار مثل هذه التجارب المحظورة ..

وفي أكتوبر من نفس العام طالب وفد من الدول الأفريقية باستصدار قرار من مجلس الأمن بشأن فرض عقوبات أكثر غلظة على جنوب أفريقيا وعلى رأسها حظر التعاون في المجال النووي .. وقد أعلنت الولايات المتحدة أنها ستستخدم الفيتو لمنع تمرير مثل ذلك القرار ، وعندما تبنى المجلس القرار رقم 418 الذي ينص على حظر تصدير الأسلحة إلى جنوب أفريقيا ، أبطلت الولايات المتحدة مفعوله بالفيتو ، وعادت من جديد لتؤكد على ضرورة عدم وقف التعاون النووي مع جنوب أفريقيا ، لأن استمرار العلاقة النووية مسألة حتمية لممارسة الضغط على حكومة جنوب أفريقيا من أجل التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية .. ومما يلفت الأنظار أن جنوب أفريقيا أوقفت مفاوضاتها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بشأن نشاطاتها المشبوهة في نفس ذلك العام – 1977 – !! ..

وفي ديسمبر 1980 توصلت جنوب أفريقيا إلى اتفاق مع كل من إسرائيل وتايوان يقضي بالتعاون في الإنتاج المشترك لصواريخ كروز وكذلك الطائرات النفاثة بدون طيار المصممة لحمل رءوس نووية .. كان ذلك الاتفاق تحت رعاية الولايات المتحدة ، فالدول الثلاث كما نلاحظ لها علاقات خاصة جدا بالولايات المتحدة ، هذا إن جاز التحدث عن تايوان باعتبارها دولة .. وكانت جنوب أفريقيا تصدر لجزيرة تايوان 70 % من احتياجاتها من اليورانيوم الخام ..

إنها شبكة من العلاقات بقدر ما تبدو معقدة التفاصيل ، بقدر ما تبدو واضحة الأهداف ..

وفي ديسمبر 1982 صدر قرار رقم 69/37 من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكان يدين تصرفات الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات التي لم تتوقف عن تطوير القدرات العسكرية والنووية لجنوب أفريقيا ، وذلك بالتعاون مع النظام العنصري .. ثم جاء في نص القرار أن الجمعية العامة " تستنكر سلوك تلك الدول – وبالأخص الولايات المتحدة وإسرائيل – التي استمرت وتمادت في تقديم الدعم السياسي والاقتصادي إلى جنوب أفريقيا " .. وفي سبتمبر 1983 سمحت الحكومة الأمريكية لشركة وستنجهاوس بإمداد جنوب أفريقيا بالمعدات الفنية والصيانة اللازمة لمحطة الطاقة النووية ..

وفي خلال الأشهر السابقة والتالية لهذا التاريخ قامت حكومة جنوب أفريقيا سرا بتعيين 25 أمريكيا لتقديم خدماتهم في المجال النووي ..

* * *

أما المخاوف الأمريكية من انتشار الشيوعية وفقدان مصادر الطاقة ، فقد تجلى أثرها بشدة في التناول الأمريكي لاحتلال جنوب أفريقيا لدولة ناميبيا المجاورة .. كانت جنوب أفريقيا تستعمر ناميبيا منذ عام 1915 .. وكان لناميبيا أهمية كبيرة .. فمن ناحية تحتل ناميبيا المركز الثاني أفريقيا في الإنتاج السنوي

لليورانيوم بعد النيجر وقبل جنوب أفريقيا .. ومن ناحية أخرى كان هناك نشاط شيوعي ملحوظ في ناميبيا يطالب بالاستقلال ويتزعم حرب عصابات لتحقيق ذلك الهدف ، وقد اشتد التيار الشيوعي منذ عام 1966 .. وتأزم الموقف أكثر بعد خروج البرتغال في منتصف السبعينات من كل من أنجولا وموزمبيق المجاورتين ..[62] وقد شغلت الشيوعية الفراغ الأكبر الناجم عن انسحاب البرتغال من الدولتين ..

وحينما أعلن في الأمم المتحدة عام 1969 أن احتلال جنوب أفريقيا لناميبيا هو احتلال غير شرعي وأدانته محكمة العدل الدولية ، كان رد فعل الأمريكان أن انتهجوا سياسة ابتكرها **كيسنجر** وسميت بـ " الدبلوماسية الهادئة " بحجة الحرص على عدم انفجار الموقف .. وخلال العشرين عاما التالية ، تدخلت الولايات المتحدة لفرض تسوية سلمية انتهت بإعلان استقلال ناميبيا في عام 1990 ، وذلك بعد أن سهلت لجنوب أفريقيا نهب أراضي واسعة من ناميبيا ومن ضمنها الميناء الرئيسي للبلد ..

* * *

أما موقف الولايات المتحدة من عنصرية جنوب أفريقيا ، فأحسب أننا أوضحناه .. لكن نضيف على ذلك أن حكومة جنوب أفريقيا كانت ستعاني كثيرا بسبب اعتمادها على استيراد البترول ، في حالة لو التزم الجميع بمقاطعتها عقابا لها على عنصريتها التي أدانتها الأمم المتحدة مرات عديدة .. لكن ما حدث كان غير ذلك .. كانت جنوب أفريقيا تستورد ثلثي احتياجاتها من البترول ، وكانت نسبة كبيرة من ذلك تتم من خلال شركات بترول أمريكية مثل كالتكس وموبيل .. ولم تكتف الولايات المتحدة بهذه المساندة غير المباشرة ، وهي ما كانت تكفل للنظام العنصري بقاءه وتمده بعنصر من عناصر قوته .. لكن الولايات المتحدة كانت تعارض جميع القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة والتي كانت تهدف بالأساس إلى معاقبة جنوب أفريقيا على عنصريتها البغيضة .. ويكفي أن نذكر أن عام 1981 شهد رقما قياسيا يصعب معادلته .. فمن أصل ثمانية قرارات تدين جنوب أفريقيا في ذلك العام ، صوتت الولايات المتحدة ضد سبعة منها وامتنعت عن التصويت في الثامن ! ..

وفي عام 1998 كانت هناك تحقيقات بشأن العنصرية في جنوب أفريقيا أمام لجنة سُمّيت بلجنة تقصي الحقيقة والمصالحة .. وقد جاء في التحقيقات أن الولايات المتحدة شجعت نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا على تنفيذ برنامج للأسلحة الكيميائية والبيولوجية يستهدف سكان البلاد السود .. وقد شهد الدكتور **ووتر باسون** – وهو جنرال من جنوب أفريقيا ترأس البرنامج منذ بدايته في 1981 – أنه من خلال عدة اجتماعات مع الميجور جنرال الأمريكي **ويليام أوجرسون** جاء على لسان **أوجرسون** ما معناه أنه " يعتقد أن الحرب الكيميائية سلاح استراتيجي مثالي ، لأن البنية الأساسية يتم الحفاظ عليها ، فضلا عن المرافق .. وأن البشر الأحياء فقط هم الذين يتم قتلهم .. وأن المناخ الدافئ لأفريقيا مثالي تماما لمثل هذا النوع من

[62] لأنجولا حدود مع ناميبيا ، ولموزمبيق حدود مع جنوب أفريقيا

الأسلحة ، لأن نشر السم يكون أفضل وامتصاصه يتزايد عن طريق العرق وزيادة تدفق الدم في الأشخاص المستهدفين " ..

* * *

كانت جنوب أفريقيا دولة مكروهة وكريهة إلى أبعد الحدود ، ولمدة اقتربت من نصف القرن ، حتى جاء الرئيس **دي كليرك** إلى الحكم في سبتمبر 1989 ، وقام بتطهير بلده من كل ما أساء إليها فيما مضى ، سواء ما يتعلق بنظام التفرقة العنصرية أو حيازة أسلحة نووية .. ثم توّج جهوده بالإفراج عن **نيلسون مانديلا** في 11 فبراير 1990 ورفع الحظر عن حزب المؤتمر الأفريقي ..

* * *

هل ينبغي أن نندهش لمساندة أمريكا لمثل هذا النظام ؟

هل يصح أن نتحير في فهم عقلية الإدارة السياسية الأمريكية ؟

لا أظن ..

والذي يقرأ العبارة التالية التي جاءت على لسان عضو مجلس شيوخ أمريكي أسبق يُدعى **ألبرت بيفيريدج** ، سوف يتحول ظنه إلى يقين .. يقول **بيفيريدج** :

" علينا أن نمتثل لما تمليه علينا دماؤنا ، فنحتل أسواقا جديدة وأراض جديدة أيضا إذا لزم الأمر .. لأن غاية الله النهائية تتمثل في حتمية اختفاء الحضارات المنهارة والأجناس الضعيفة أمام الحضارات العظمى التي تنشئها الأجناس الأكثر نبلا وحيوية " ..

فإن لم يكن ذلك تعبيرا رسميا عن أشد درجات العنصرية قسوة ، فماذا عساه أن يكون !! ..

(36)
سيشل : مباراة في الرجبي !

نُفي إليها زعيمنا **سعد زغلول** فيما مضى ..

إنها جزر سيشل التي تقع في المحيط الهندي أمام الساحل الشرقي للقارة الأفريقية على بعد 800 ميل من سواحل كينيا ، ولا يزيد عدد سكانها عن ثمانين ألف نسمة .. وكانت تلك الجزر ضمن المستعمرات البريطانية حتى نالت استقلالها في عام 1976 ..

وكانت تلك المنطقة بأسرها واقعة تحت نفوذ أمريكي بريطاني مشترك ، وأحسب أن ما قصصناه عن جزيرة دييجو جارسيا يوضح تلك المسألة .. ولم تنج جزر سيشل من التدخل الأمريكي الكلاسيكي ، وإن كان بلمسات خاصة ..

* * *

في عام 1977 وصل **فرانس ألبير رينيه** إلى الحكم في سيشل بعد انقلاب عسكري ..

وكانت الولايات المتحدة تحتفظ بقاعدة جوية ومحطة قمر صناعي في جزر سيشل أيام الاحتلال البريطاني .. وبعد مفاوضات مكثفة مع الحكومة الأمريكية سمح **رينيه** للولايات المتحدة بالإبقاء على القاعدة الجوية بشروط خاصة ، وعلى رأسها إنهاء الإيجار وإخلاء القاعدة والمحطة في عام 1990 .. وكان **رينيه** من أتباع سياسة عدم الانحياز ، فلم يتودد إلى الاتحاد السوفيتي ، كما سعى إلى تقليص التواجد الأمريكي على جزيرته وفي المنطقة ككل .. وكان يندد بالوجود العسكري الأمريكي في جزيرة دييجو جارسيا القريبة من سيشل ، كما نادى بجعل المحيط الهندي منطقة خالية من الأسلحة النووية .. تماما كما نادى من بعده رئيس وزراء جزر فيجي في المحيط الهادي ..

ولأن هذه النوعية من الحكام ليس لهم شعبية لدى الولايات المتحدة ، فقد حاولت المخابرات الأمريكية في عام 1979 أن تنفذ خطة لإرسال مجموعة من المرتزقة يطيرون من جنوب أفريقيا إلى سيشل .. لكن الخطة أمرها انكشف من قبل أن يغادروا مدينة ديربان بجنوب أفريقيا .. وفي تحقيق رسمي قامت به السلطات في سيشل ، كشفت حكومة الرئيس **رينيه** عن أن السفير الأمريكي في كينيا كان على اتصال مع مؤيدي **جيمس مانتشام** وهو الرئيس السابق على **رينيه** والذي قام بخلعه .. كما بينت التحقيقات أن واحدا من موظفي السفارة الأمريكية في سيشل كان هو حلقة الوصل من أجل إنجاح المؤامرة .. وعلى الفور قررت سلطات سيشل طرد العديد من موظفي الولايات المتحدة العاملين بالقاعدة الجوية الأمريكية على الجزيرة ..

وبعد عامين ، في نوفمبر 1981 عادت المخابرات الأمريكية لتمويل ودعم مجموعة جديدة من المرتزقة الذين غادروا جنوب أفريقيا أيضا .. ولكن غادروها في هذه المرة متنكرين في هيئة أعضاء فريق رجبي ..

سافروا من جنوب أفريقيا إلى دولة سوازيلاند – تلك المملكة الملاصقة لحدود جنوب أفريقيا الشرقية على ساحل المحيط الهندي – ومن سوازيلاند واصلوا رحلتهم إلى جزر سيشل .. كان التخطيط المسبق يقوم على الدخول الهادئ إلى سيشل ، ثم القيام بالانقلاب بعد ذلك .. غير أن ما حدث أفسد عليهم خطتهم .. فعندما هبطت طائرتهم التابعة للخطوط الملكية السوازيلاندية في المطار ، اكتشف الأمن أسلحة في أمتعتهم ، فخاضت فرقة المرتزقة معركة مسلحة خاطفة في المطار ، ونجحت في الهرب باختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية كانت قابعة على أرض المطار ، وعادوا بها إلى جنوب أفريقيا .. كانت بعثة فريق الرجبي المزعوم مكونة من 44 رجلا ، 23 منهم كانوا تابعين لجيش جنوب أفريقيا .. وفي عام 1982 تم تقديم هؤلاء للمحاكمة في جنوب أفريقيا بتهمة اختطاف طائرة .. أسفرت المحاكمة عن براءة أربعة من المتهمين ، أما الأربعون الآخرون فقد تمت إدانتهم ، لكنهم لم يبقوا في السجن سوى أربعة أشهر فحسب ، ليخرجوا في نوفمبر من نفس العام .. وقد اعترف أحدهم أثناء نظر القضية أن المخابرات الأمريكية كانت وراء تخطيط محاولة الانقلاب الفاشلة عبر جنوب أفريقيا .. أما قائد قوات المرتزقة فكان الكولونيل **مايكل هوار** الذي سبق وأن أشرنا إليه في الفصل السابق – هو ذلك الرجل الذي أقام حفل وداع لموظف المخابرات الأمريكية الذي نجح في القبض على **مانديلا** – وكانت المخابرات الأمريكية قد استخدمته أكثر من مرة في عمليات لحسابها في الكونجو وفي جنوب أفريقيا ..

لم يقتصر توجيه الاتهام إلى المخابرات الأمريكية على حكومة سيشل ، بل إن جريدة الصنداي تربيون الجنوب أفريقية والتي تُطبع في ديربان ، ذكرت في أحد أعدادها الصادرة بعد فشل محاولة الانقلاب بأيام أن السي آي إيه قامت بتمويل وتسليح المرتزقة ..

* * *

أجهض الانقلاب ..

ولم تُلعب مباراة الرجبي ! ..

(37)
الكـونـجـو : صـراع في الأدغـال

الصراع هنا قديم ..

بين أعمق أعماق مجاهل أفريقيا ، وبين أجيال متتالية من الاستعمار ..

كان البرتغاليون أول من بلغ الكونجو في عام 1482 ..

وكان مما أثار دهشتهم أن وجدوا هناك مملكة أفريقية قوية مترامية الأطراف ذات نظام ومعالم واضحة .. وكان يسكنها حوالي ثلاثة ملايين أفريقي ..[63] أما أهم ما لفت أنظارهم فهو نهر الكونجو العظيم الذي يجري وسط الأحراش ويخترق الغابات وصولا إلى ساحل أفريقيا الغربي ليصب في المحيط الأطلنطي .. وهو ثاني أطول أنهار أفريقيا بعد نهر النيل .. وكان له عدد من الأسماء مثل ليولابا وإنزاوي وإنزيري ، وهي الأسماء التي يطلقها عليه السكان الذين يعيشون على ضفافه في مختلف البقاع .. واسم إنزيري يعني النهر الذي يبتلع كل الأنهار ، ومع تحريف البرتغاليين للاسم الذي ينطقه الأفارقة تحول إنزيري إلى زائير .. وهو الاسم الذي عُرفت به الكونجو لفترة من الزمن سوف يأتي الحديث عنها لاحقا ..

* * *

وفي عام 1865 تولى **ليوبولد السادس** المُلك في بلجيكا ..

كانت لدى الملك **ليوبولد** رغبة عارمة في أن يحصل على مستعمرة لنفسه ولمملكته الصغيرة بلجيكا تلك الدولة ضئيلة الحجم وسط إمبراطورتي ألمانيا وفرنسا .. حتى أنه عرض على إسبانيا أن يشتري الفليبين ، وعرض على بريطانيا أن يشتري بحيرة من بحيرات النيل عند منبعه ، كما حاول أن يستأجر أراض من جزيرة فرموزا التي عرفت بعد ذلك باسم تايوان .. ثم تحول تفكيره في اتجاه الكونجو ..

وهنا جاء دور الأمريكي البريطاني المولد **هنري مورتون ستانلي** الذي عقد صفقة مع الملك على استعمار المكان من أجله .. كان **ستانلي** صحفيا وبحارا ومكتشفا مشهورا ، بل وكان عضوا في البرلمان .. وفي عام 1869 قام **ستانلي** بجولة صحفية في أفريقيا .. ثم عاد في عام 1874 ليذهب في جولة أخرى بدأها من زنزبار بتنزانيا الحالية ومعه 356 رجلا أغلبهم من الأفارقة .. ثم قام بالهجوم غربا مخترقا القارة من أقصى الشرق على سواحل المحيط الهندي ودمر عشرات المدن والقرى في طريقه حتى وصل إلى مصب نهر الكونجو على شاطئ الأطلنطي في أقصى الغرب ..

وفي عام 1879 رجع **ستانلي** من جديد إلى أفريقيا وكان في هذه المرة مبعوثا من الملك **ليوبولد** لكي يستعمر له الكونجو .. واستخدم **ستانلي** في هذه المهمة البندقية والسلع الأوروبية الرخيصة وكل وسائل

---

[63] جزء كبير من تلك المملكة يقع حاليا في عدد من الدول الأفريقية المجاورة ، بعد أن تحكم الأوروبيون في ترسيم الحدود في قارة أفريقيا عام 1885 ..

الغش والخداع الممكنة ليكسب ود 450 من الزعماء المحليين ويحكم سيطرته على أراضيهم .. وكان من ضمن وسائله أن طلب من زعماء القبائل الكونجوليين أن يوقعوا بعلامة إكس على المستندات القانونية المكتوبة بلغة أجنبية لم يروها من قبل .. وكان من ضمن المستندات بعض المسائل التي لابد وأن تثير السخرية .. ففي أول أبريل 1884 وقع زعماء بعض القبائل على معاهدة تنص على تلقيهم قطعة واحدة من الملابس الأوروبية أول كل شهر مقابل أن يدعوا السيادة والسلطة والحكم على كل أراضي الكونجو للملك **ليوبولد** على أن يشمل ذلك ملكية المناجم والغابات والأنهار ، بل والسكان أيضا ..

بواسطة معاهدات من هذا النوع استعمر **ستانلي** الكونجو لصالح **ليوبولد** ..

ومن بعد البرتغاليين ، ثم البلجيكيين بمساعدة الأمريكي ذي الأصل البريطاني ، جاء دور الفرنسيين الذين لم يتركوا الملك **ليوبولد** ينعم بكل هذه الغنائم .. فقاموا بإرسال الكونت **دي برازا** في بعثة استعمارية خاصة .. نزل **برازا** في إقليم يقع شمال نهر الكونجو ونجح في الإحاطة بهذه المنطقة لصالح فرنسا .. وصارت له مدينة باسمه ، وهي مدينة برازافيل – فيل تعني مدينة باللغة الفرنسية – التي أصبحت فيما بعد عاصمة الكونجو برازافيل ..[64]

* * *

وفي عام 1890 حدث شئ غير متوقع ساهم في تغيير النظرة إلى مستعمرة الكونجو بشكل كبير ..

فقد كان **جون دنلوب** في أيرلندا يجرب دراجة مع ابنه واكتشف مصادفة أن الإطارات المصنوعة من المطاط هي الأفضل للسير في الطريق .. فقام بتأسيس شركة **دنلوب** للإطارات في نفس ذلك العام .. وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط " إطارات **دنلوب** " ، وصار المطاط محط أنظار جميع الدول الصناعية .. وجاء هذا الاكتشاف في مصلحة مستعمري الكونجو الغني بالمطاط .. وكان يتم إجبار الأهالي على الذهاب إلى الغابات لجمع المطاط ، والذين كانوا يرفضون كانوا يتعرضون لمذابح جماعية ..

* * *

وتوالت السنوات ، وتغيرت الأحوال وبدأت معظم الدول الأفريقية تطالب بالاستقلال مع ظهور حركات تحررية ونشأة مذاهب وأحزاب سياسية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ..

ولم تشذ الكونجو عن ذلك ..

فقد استقلت كل من المغرب وتونس والسودان في عام 1956 ، واستقلت غانا في عام 1957 ، ثم لحقتها غينيا في عام 1958 .. ثم جاءت سنة 1960 لتضرب رقما قياسيا في عدد الدول التي استقلت ..

فقد استقلت 18 دولة في 11 شهرا – من يناير إلى نوفمبر – ، وهي : الكاميرون ، توجو ، مدغشقر ، الصومال الشمالي ، الكونجو ، الصومال الجنوبي ، بنين ، ساحل العاج (كوت ديفوار) ، الجابون ، تشاد ،

---

[64] هذا الفصل تدور أحداثه عن الكونجو الديمقراطية وعاصمتها كينشاسا ، لا الكونجو وعاصمتها برازافيل ..

فولتا العليا (بوركينا فاسو) ، النيجر ، أفريقيا الوسطى ، الكونجو برازافيل ، السنغال ، مالي ، نيجيريا ، موريتانيا ..

وفي الأعوام الخمسة التالية استقلت كل من سيراليون 1961 ، رواندا والجزائر 1962 ، كينيا 1963 ، مالاوي وتنزانيا 1964 ، جامبيا 1965 ..

ولم تكن هناك مقاومة تذكر من الغرب .. فلم يشاءوا أن يكبحوا جماح ثورات شعبية ترغب في الاستقلال .. فأعطوا الأفارقة ما أرادوا ، في مقابل احتفاظهم هم بما أرادوا ..

* * *

الكونجولي **باتريس لومومبا** ..

هو اسم أحد أشهر مناضلي القارة الأفريقية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ..

ينضم اسمه إلى جانب **نيلسون مانديلا** الجنوب أفريقي و**أحمد سيكيتوري** الغيني و**كوامي نكروما** الغاني و**موديبو كيتا** المالي و**أحمد بن بيلا** الجزائري و**جمال عبد الناصر** المصري .. وهم مجموعة من الزعماء الأفارقة كانوا رموزا للكفاح الثوري ضد الأطماع الغربية في تلك الحقبة الزمنية التي يمكن اعتبارها مرحلة انتقالية بين التواجد الاستعماري المادي وبين عودته في أشكال أكثر واقعية ..

والمتأمل للتاريخ السياسي للقارة الأفريقية والشرق الأوسط سوف يجد أن الشعوب بتاريخها وأحيانا بجغرافيتها كانت تسير وراء مجموعة من القادة اللامعين .. وبانطفائهم تتغير المصائر .. فطبيعة التاريخ الإنساني بشكل عام تعتمد على ظهور رجال يقودون حركة التاريخ .. لكن الخلفيات الاجتماعية والتاريخية في منطقتيّ أفريقيا والشرق الأوسط بشكل خاص ، تضفي المزيد من الأهمية على مثل هذا النوع من الرجال الذين يحركون عجلة التاريخ ، ويوجّهونها كذلك .. وقد تعامل الغرب مع هؤلاء على هذا الأساس . أساس القضاء على جماعة من الأفراد لتحقيق السيطرة على مجموعة من البلاد ..

* * *

أسس **باتريس لومومبا** – وكان الكونجولي الوحيد الحاصل على شهادة البكالوريا آنذاك – ما سمي بالحركة الوطنية الكونجولية في أكتوبر 1958 ، وكان الغرض من إنشائها هو مواجهة الاستعمار البلجيكي والمطالبة بالاستقلال .. وأمام تعاظم دور تلك الحركة وغيرها من الجماعات الوطنية في الكونجو ، لم تجد المملكة البلجيكية سوى التصدي لها بالعنف العسكري .. كانت حركة **لومومبا** هي أقوى الحركات السياسية في الكونجو على الإطلاق .. ونتيجة لحماسه المفرط وجاذبية شخصيته حظي بشعبية واسعة ، وأخذ يقود المظاهرات والمواجهات مع الاستعمار البلجيكي مما أسفر عن اعتقاله لمدة ستة أشهر .. وبعد أقل من عامين من بدء الثورة لم يكن هناك مفر من دخول بلجيكا في مفاوضات مع الوطنيين للاتفاق على استقلال الكونجو ، خاصة وأن دولا مجاورة عديدة قد بدأت في نيل حريتها من المستعمرين الأوروبيين الآخرين ..

أفرجت السلطات البلجيكية عن **لومومبا** لإنجاح المفاوضات التي كانت تجري في بروكسل لبحث مستقبل الكونجو .. فنقلوه من سجنه إلى بروكسل بالطائرة مباشرة ..

وبالفعل نالت الكونجو استقلالها في 30 يونيو 1960 ، وإن لم يكن لدى بلجيكا النية في التخلي عن ثروات أقاليم الكونجو الهائلة .. فقد تحولت قوات الأمن التابعة لمجموعة شركات استغلال الكونجو إلى شكل من أشكال الجيوش النظامية للدولة المستقلة حديثا ، وكان قائد تلك القوات ضابطا بلجيكيا .. وجاءت تعليماته في اليوم الأول للاستقلال في صورة منشور مطبوع تم توزيعه على الجنود ..

وكان المنشور يحمل عبارة واحدة تقول : " بعد الاستقلال = قبل الاستقلال " ..

وقبل ذلك التاريخ بأسابيع كان حزب **لومومبا** قد فاز بأكبر نسبة من المقاعد وسط منافسة من مائة حزب في الانتخابات البرلمانية التي أجريت في شهر مايو 1960 ..

حاولت بلجيكا التي كانت تشرف على الانتخابات بدعوى الحرص على الديمقراطية إخفاء النتائج وإسناد الحكم إلى حليفها **جوزيف إليو** .. لكن الضغط الشعبي أجبرها على تكليف **لومومبا** بتشكيل الحكومة ، ليصبح بذلك رئيس أول حكومة في جمهورية الكونجو المستقلة ، وكانت السلطة الفعلية وفقا للدستور في يد رئيس الحكومة لا في يد رئيس الجمهورية **جوزيف كازافوبو** ..

وفي أثناء تسليم الملك البلجيكي **بودوان الأول** الحكم إلى أبناء الكونجو رسميا ، حدثت أزمة سياسية أثناء مراسم التسليم .. فقد وقف الملك يخطب في خيلاء وكبر وجاء حديثه مفتقدا إلى اللياقة في إشارة إلى تخلف الأفارقة وفضل الأوروبيين عامة والبلجيكيين خاصة في نشر الرقي في القارة الهمجية ..

ثم جاء الدور على **باتريس لومومبا** رئيس الحكومة ، فألقى خطابا كالقنبلة رد به على وقاحة الملك البلجيكي وسمى خطابه خطاب " الدموع والدم والنار " ، وأمعن في الحديث عن معاناة الكونجوليين وما تعرضوا له من ظلم واضطهاد ، مما أثار غضب البلجيكيين ..

وبرغم الشد والجذب ، مر الموقف بسلام بسبب حرص الجميع على الحفاظ على ما تحقق ..

* * *

كانت طموحات **لومومبا** – شأن جميع الثوريين – واسعة لا حدود لها .. وكان مشروعه الوطني يقوم على تدعيم الكيان المستقل للدولة في مواجهة التدخلات الخارجية للقوى الاستعمارية .. اصطدمت أمانيه بالمصالح القبلية والمصالح الغربية القائمة على الاستحواذ على ثروات الكونجو عن طريق سيطرة الشركات الأجنبية على الموارد الطبيعية للكونجو ..

وقد نجح الغرب في استغلال التعصب القبلي ومصالح القبائل المتفاوتة لصالحه ..

وبعد أحد عشر يوما من رئاسة **لومومبا** للحكومة ، فوجئ الجميع بـ **مويس تشومبي** بتحريض من بلجيكا والولايات المتحدة يعلن انفصال إقليم كاتانجا أغنى مقاطعات البلاد على الإطلاق والذي يضم خلاصة

النحاس والكوبالت واليورانيوم والذهب بالكونجو.. كانت بلجيكا تحتفظ لنفسها بثروة معدنية هائلة في ذلك الإقليم ، كما كان لمسئولين بارزين في إدارة **أيزنهاور** مصالح مالية تتعلق بنفس تلك الثروة الكونجولية في إقليم كاتانجا .. ولم يكن لدى البلجيكيين أو الأمريكان أية نية في التخلي عما وضعوا عليه أياديهم البيضاء .

دبت الفوضى في البلاد وعجز **لومومبا** لأسابيع عن التصدي لحركة الانفصال بسبب عدم مساندة الجيش له .. فقد كان العديد من قواده عملاء للمخابرات الأمريكية أو لقوى خارجية أخرى ..

كما أن التدخل العسكري البلجيكي لمساندة الانفصاليين كان عنيفا رغم إدانته من قبل دول عديدة ..

وفي الخامس من سبتمبر 1960 فجّر رئيس الجمهورية **كازافوبو** مفاجأة أخرى بإقالته لرئيس حكومته **لومومبا** رغم عدم وجود صلاحيات دستورية تسمح له بذلك .. وكانت الولايات المتحدة هذه المرة أيضا وراء الإقالة ، فقد كان **كازافوبو** على رأس كشوف المرتبات التي تدفعها المخابرات الأمريكية لإدارة الأحداث في الكونجو ..

لجأ **لومومبا** إلى البرلمان الذي أيد بقاءه في الحكم بشدة ، وصوّت لصالح إعادته للحكم في نفس الأسبوع .. لم يهنأ لومومبا طويلا بنصره ..

ففي يوم 14 سبتمبر حدث أمران ينبغي الربط بينهما ..

فقد تمت إدانة التدخل البلجيكي في إقليم كاتانجا ، و" سمحت " الولايات المتحدة بصدور قرار من مجلس الأمن بسحب القوات البلجيكية من الإقليم وإحلال قوة عسكرية من الأمم المتحدة بدلا منها ، واتضح بعد ذلك أن القوات الأمريكية كانت تشكل أساس هذه القوة ..

غير أنه في نفس تلك الساعة التي كانت بلجيكا تخرج فيها من الإقليم ، ويتأهب فيها **لومومبا** لاتخاذ خطوات نحو استعادة الإقليم الضائع ، كانت الولايات المتحدة على الجانب الآخر تدبر انقلابا عسكريا بقيادة عميلها **موبوتو** وهو الرجل الثاني في الجيش الكونجولي .. فأطاح **موبوتو** بـ **لومومبا** قبل أن يستوعب ما يحدث ..

وهكذا .. انتهي يوم 14 سبتمبر بخروج بلجيكا من الإقليم المنفصل ، وخروج لومومبا من الوزارة ، ودخول الولايات المتحدة في شكل قوة من الأمم المتحدة إلى الكونجو بدلا من بلجيكا ، وتولي موبوتو عميل المخابرات الأمريكية السلطة في الكونجو بدلا من لومومبا ! ..

ثم تلاحقت الأحداث سريعا ، لتنتهي باغتيال درامي للزعيم الكونجولي **باتريس لومومبا** ..

* * *

الغموض الشديد كان – وما زال – يكتنف ملابسات مصرع لومومبا ..

المؤكد الآن أن المخابرات الأمريكية كانت تنوي قتله ..

لكننا لسنا على يقين من مدى تورطها في قتله .. عما إذا كانت قد قتلته ، أو شاركت في قتله ، أو سهّلت عملية قتله ، أو أبدت ترحيبها بقتله .. لكنها عموما استفادت من قتله ..

وأكتفي هنا بسرد ما تحت أيدينا من وقائع ..

تظهر أقوى إشارة إلى نية الولايات المتحدة بشأن اغتيال **لومومبا** في 18 أغسطس 1960 ..

ففي ذلك التاريخ ترأس **أيزنهاور** اجتماعا لمجلس الأمن القومي ، توصل فيه المجتمعون من وزارة الخارجية وأجهزة المخابرات ومجلس الأمن القومي إلى قرار حتمية التخلص من **لومومبا** .. كان الداعي إلى اتخاذ القرار هو فشلهم في إقناع **لومومبا** بالاعتماد على الأمم المتحدة وحدها لحل الأزمة الكونجولية التي كانت تهدد وحدة الكونجو .. فقد كان **لومومبا** مصرا على الاستعانة بالسوفيت لنجدته ووجه لهم نداء علنيا يحمل هذا المعنى وهو ما كان يعني التخلي عن ثروات الكونجو للشيوعية الدولية .. وقد جاء في تقرير للسفارة الأمريكية في أثينا أن شحنات أسلحة سوفيتية منقولة بالطائرات في طريقها إلى أجواء الكونجو .. كما ورد في تقرير آخر للسفارة الأمريكية في ليوبولدفيل أن مائة خبير روسي وتشيكي قد وصلوا إلى الكونجو كدفعة أولى ..

لكل هذه العوامل جاء القرار الرئاسي بضرورة اختفاء **لومومبا** من على الساحة .. وكان من بين الذين حضروا ذلك الاجتماع موظف من رتبة متوسطة يُدعى **روبرت هـ. جونسون** وهو أحد العاملين في مجلس الأمن القومي .. وقد صرح **جونسون** في عام 1975 أمام لجنة تشرش – لجنة من الكونجرس للتحقيق في أنشطة المخابرات الأمريكية – قائلا : " أثناء ذلك الحوار قال الرئيس **أيزنهاور** شيئا بدا لي – وإن كنت لا أذكر كلماته – أنه أمر باغتيال **لومومبا** .. لم يجر أي نقاش .. استمر الاجتماع بكل بساطة .. إلا أنني أتذكر إحساسي في تلك اللحظة بوضوح لأن تصريح الرئيس جاء بمثابة صدمة لي " ..

* * *

المهم .. جرت عدة محاولات من قبل المخابرات الأمريكية لاغتيال **باتريس لومومبا** ، لكنها فشلت جميعا . أولى هذه المحاولات وأهمها بدأت في 19 أغسطس 1960 عندما تلقى **لورانس ديلفين** مدير مركز المخابرات الأمريكية في ليوبولدفيل عاصمة الكونجو رسالة من واشنطن جاء فيها أن " **جو** من باريس " سيصل إليه حاملا تعليمات للقيام بمهمة مستعجلة ..

وبعد أسبوع وصل الدكتور **سيدني جوتليب** (**جو** من باريس) كبير علماء المخابرات الأمريكية ، وفي جعبته مركب كيميائي يشبه في أثره والأعراض الناتجة عنه مرضا متوطنا قاتلا في تلك المنطقة من القارة الأفريقية . وقد أبلغ **جوتليب ديلفين** أن هذا المركب السام يجب أن يتم دسه بطريقة ما في طعام **لومومبا** أو في معجون الأسنان الذي يستعمله ..

فشلت هذه المحاولة بسبب تردد **ديلفين** وتلكؤه .. ولعله كان يرى تدهور وضع **لومومبا** السياسي وعدم الحاجة الماسة إلى قتله بتلك الطريقة .. أو لعله وجد صعوبة في الوصول إليه وسط موجة من الأحداث المتلاحقة ..

الثابت أنه كان يختلق الأعذار في مراسلاته إلى رؤسائه بواشنطن لتأجيل التنفيذ .. وفي النهاية غادر الدكتور **سيدني جوتليب** ليوبولدفيل في 5 أكتوبر بعد أن رمى السم في نهر الكونجو قبيل رحيله ، لأنه بات غير صالح للاستخدام بعد انتهاء صلاحيته ..

ثم كانت هناك محاولة ثانية لاغتيال **لومومبا** باستخدام مجموعة من المسلحين لاختطافه من مسكنه حيث كان يقيم تحت حراسة قوات الأمم المتحدة .. وفشلت الخطة لصعوبة تنفيذها ، ولما قد يسفر عنها من إحراج لواشنطن هي في غنى عنه ..

ثم كان هناك اقتراح ثالث بإيفاد محترف متخصص إلى الكونجو وتزويده بواسطة الحقيبة الدبلوماسية ببندقية ذات منظار مقرب وكاتم للصوت .. ولم تر الفكرة النور ..

* * *

أما الاغتيال الفعلي للزعيم **لومومبا** ، فقد تعددت الروايات بشأن تفاصيله ..

كل ما نعلمه بدقة أن **لومومبا** قد غادر مقره باختياره خلسة في 27 نوفمبر 1960 رغم تحذيرات المخلصين له – وعلى رأسهم السفير المصري في الكونجو آنذاك **مراد غالب** – بألا يغادر مقر الأمم المتحدة الذي ينزل فيه حتى لا يكون عُرضة للخطر ..

لكن **لومومبا** كان يخشى أن يفقد حماية قوات الأمم المتحدة ، خاصة بعد أن صوتت الأمم المتحدة على الاعتراف بوفد الرئيس **كازافوبو** لا وفده هو في المباحثات الجارية بشأن الأزمة ..

آثر **لومومبا** أن يتجه إلى معقله الخاص – موطن قبيلته – في ستانليفيل والتي كانت تبعد مسافة نحو ألف وستمائة كم شرقا ..

وبدأ لومومبا رحلته الأخيرة ..

وعند هذه اللحظة الفارقة في تاريخ الكونجو ، تسيح الألوان وتتداخل الخطوط ، وتتوه أعيننا بين تفاصيل الخريطة ..

ونفقد كل أثر لـ لومومبا وسط الأدغال ..

* * *

وفقا لكتاب " برقيات بشأن الكونجو من عهد **أيزنهاور** إلى **كينيدي** " من تأليف الكاتبة الأمريكية **مادلين ج. كالب** ، فإن جنود الجنرال **موبوتو** – عميل المخابرات الأمريكية – قاموا باعتقال **لومومبا** في الطريق ، وسجنوه في تيسفيل على بعد مائة وخمسين كم من ليوبولدفيل ..

ظل **لومومبا** معتقلا هناك حتى أعلنت حامية تيسفيل العصيان في 13 يناير 1961 طالبة زيادة المرتبات ومهددة بإعادة **لومومبا** إلى السلطة ..

في نفس ذلك اليوم أرسل **لورانس ديلفين** مدير مركز المخابرات الأمريكية في الكونجو برقية إلى واشنطن قال فيها : " في اعتقاد المركز والسفارة أن الحكومة الحالية قد تسقط خلال أيام قليلة .. ومن المحتم أن يؤدي ذلك إلى الفوضى وربما عودة **لومومبا** إلى السلطة .. لذا فإن الامتناع عن اتخاذ خطوات جذرية في هذا التوقيت سوف يؤدي إلى فشل سياسة الولايات المتحدة في الكونجو " ..

كانت هذه البرقية العاجلة تدل على أن **ديلفين** قد تخلى عن حذره السابق .. وبعد أربعة أيام قام **موبوتو** بنقل لومومبا بالطائرة إلى إقليم كاتانجا موطن عدوه اللدود **مويس تشومبي** .. نزل **لومومبا** من الطائرة معصوب العينين موثوق اليدين ، واستقبله الجنود الكاتانجيون باللكمات والرفس ، ثم رموه في سيارة جيب وانطلقوا به .. بقي مصير **لومومبا** موضع تساؤل طوال الأسابيع القليلة التالية ..

وفي 13 فبراير أعلنت السلطات في كاتانجا أن **لومومبا** لجأ إلى الفرار .. ثم عادت بعد ثلاثة أيام لتعلن أنه قد أُسر وقُتل من قبل القبائل الكونجولية .. ولم تكن تلك رواية مقنعة للمتابعين ..

ثم قامت الأمم المتحدة بإجراء تحقيق لم تصل فيه إلى شئ محقق ، وإن كان قد تم ترجيح أن يكون قد اغتيل من جانب جنود **تشومبي** والمرتزقة البلجيكيين يوم 17 يناير فور وصوله إلى إقليم كاتانجا بالطائرة ..

* * *

لكن وفقا لكتاب هولندي من تأليف **لودو دي فيته** بعنوان " اغتيال **لومومبا** " ، فإنه يضيف إلى ذلك أن ستة جنود سويديين تابعين لقوات الأمم المتحدة كانوا حاضرين في لحظة اعتقال **لومومبا** ..

ثم يصل الكتاب إلى نهاية مختلفة حيث يؤكد أن **لومومبا** ومن معه قد نُقلوا إلى سجن بلجيكي في سيارة جيب يقودها ضابط بلجيكي ، وأعدموا رميا بالرصاص بعد بضع ساعات على يد كتيبة إعدام يقودها الضابط البلجيكي .. وتم التخلص نهائيا من الجثث بعد أربعة أيام بتقطيعها إلى قطع صغيرة وإذابتها في حمض الكبريتيك .. وقد نفذ المهمة ضابط بلجيكي اسمه **جيرارد سويت** ، وكان الحمض في شاحنة مملوكة لشركة تعدين بلجيكية .. وقد اعترف **سويت** بذلك في لقاء تليفزيوني أُجري معه في أواخر التسعينات ، وقال أنه احتفظ لنفسه باثنتين من أسنان **لومومبا** كتذكار لسنوات طويلة ، ثم تخلص منهما بإلقائهما في بحر الشمال ..

* * *

أما الكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** فلديه هو الآخر تعديلات على الختام في كتابه " قتل الأمل " ، فيوضح أن **جون ستوكويل** وهو أحد موظفي المخابرات الأمريكية السابقين المتخصصين في شئون القارة الأفريقية ، قد أشار في كتاب له صدر عام 1978 أن أحد ضباط وكالة المخابرات الأمريكية قد أخبره أن جثة **لومومبا**

انتهى بها الحال في شاحنته ، وأنه أخذ يدور بها في أرجاء كاتانجا دون أن يدري كيف يتخلص منها .. ويترك لنا **بلوم** النهاية مفتوحة ..

* * *

ربما أكون قد أطلت كثيرا وأسهبت في وصف وقائع محاولات اغتيال **لومومبا** ، ثم تفاصيل حادثة اغتياله الفعلي .. لكنني وجدت ذلك ضروريا لأنها من الوقائع النادرة التي تدخل فيها رئيس الولايات المتحدة بشكل شخصي ومباشر لاغتيال زعيم دولة أخرى ..

أما اختلاف روايات مصرع **لومومبا** ، فأنا لا أجد بينها تناقضا بقدر ما هو تكاملا ..

تخلصت الولايات المتحدة من **لومومبا** – سواء بأيديها أو بأيدي الآخرين – ، وكان ذلك أمرا ملحا حتى لا تدخل في متاهة سيطرة الشيوعية على دولة بهذه المساحة والموقع المتميز ناهيك عن الثروات الهائلة .. لكن الأمر استغرق بعض الوقت والمجهود قبل أن تستقر الكونجو بين أحضان الغرب .. فبعد ثلاثة أشهر من الانقلاب العسكري الذي قام به رئيس هيئة الأركان الجنرال **موبوتو** ، أعاد **موبوتو** الرئيس **كازافوبو** إلى منصبه ، والذي قام بدوره بتشكيل حكومة جديدة برئاسة **سيريل أدولا** ..

وفي 21 فبراير 1961 وافق الرئيس **كازافوبو** على قرار لمجلس الأمن بأن تضع الأمم المتحدة يدها على الكونجو ، وأن يشرف أمينها العام **داج همرشولد** على إعادة تنظيم الجيش والمالية وإعادة الأمن وحل أزمة انفصال كاتانجا ..

* * *

وحتى تكتمل الصورة دعونا نلقي الضوء على **داج همرشولد** ..

هو الأمين العام الثاني للأمم المتحدة بعد النرويجي **تريجفي لي** .. وهو سويدي الجنسية وكان يشغل منصب نائب وزير خارجية السويد حتى انتخابه كثاني أمين عام للأمم المتحدة في عام 1953 ، ثم تم التجديد له في عام 1958 ..

ولأن **همرشولد** (Hammarskjöld) كان شخصية مجهولة وقت انتخابه ، فقد حدثت واقعة طريفة عندما هبطت به الطائرة لأول مرة في مطار نيويورك حيث يقع مقر الأمم المتحدة .. فقد تجمع حوله الصحفيون الأمريكان وسألوه كيف يكتب اسمه وكيف ينطقه .. فأراد أن يبسط لهم المسألة ، فأجاب أنه مكون من مقطعين الأول : **هامر** ويعني المطرقة ، والثاني : **شيلد** ويعني الدرع .. وكان لسان حاله يقول أنه مطرقة تطرق الرؤوس الناشفة المغرورة للدول العظمى ، ودرع يصد به الهجوم والضغط المتواصل عن الدول الفقيرة ..

والحق أنه كان له موقف مشرف مع مصر أيام العدوان الثلاثي عام 1956 والإنزال العسكري الأمريكي في لبنان عام 1958 ..

* * *

المهم .. كان معنى تولي **همرشولد** شئون الكونجو أن يسعى لفرض الشرعية الدولية بإعادة الإقليم المنفصل إلى الدولة الأم .. وكان أتباع **لومومبا** بقيادة خليفته **أنطوان جيزينجا** ما زالوا موجودين ومدعومين من السوفيت .. وربما سبب ذلك شيئا من القلق لدى البعض ..

وفي يوليو 1961 بدأ **همرشولد** في اتخاذ خطوات واسعة نحو إعادة ترتيب إدارة شئون الجيش والنواحي الاقتصادية ..

وفي 18 سبتمبر 1961 طار **همرشولد** إلى روديسيا (زيمبابوي حاليا) لمفاوضة **مويس تشومبي** حول وقف إطلاق النار وانفصال إقليم كاتانجا .. وكانت الأخبار قد ذاعت قبل سفره أن **تشومبي** قد أعلن رفضه لقرارات الأمم المتحدة ..

انفجرت طائرة **همرشولد** في الجو ليلقي مصرعه دون أن تسفر التحقيقات التي أجريت بعد ذلك عن تحديد الجهة التي كانت وراء هذا الحادث ..

سؤال جانبي : مَن الذي تخلص من **همرشولد** ؟ ..

حسنا .. نحن لا نستطيع الجزم بشيء ..

لكنه على أية حال سؤال بايخ **!!** ..

* * *

في يناير 1962 تمكن الجيش بقيادة الجنرال **موبوتو** من اعتقال **جيزينجا** مخففا بذلك حدة التوتر والقلق من سيطرة أتباع **لومومبا** إذا ما سنحت الفرصة .. وفي تلك الأثناء كان الأمين العام الجديد **يوثانت** يواصل المفاوضات مع **تشومبي** بعد مقتل **همرشولد** .. لكن **تشومبي** دخل في مواجهات مع قوات الأمم المتحدة .. وبعد سنة من الشد والجذب قرر **يوثانت** بدعم من الولايات المتحدة إعادة كاتانجا بالقوة إلى الدولة الكونجولية .. سقطت كاتانجا في 14 يناير 1963 ، وغادر **تشومبي** إلى منفاه في إسبانيا ..

* * *

ربما بدا من التناقض أن تدعم الولايات المتحدة **يوثانت** لإعادة الإقليم المنفصل في الوقت الذي كانت ترفض فيه مساندة **لومومبا** أو **همرشولد** من بعده من أجل الوصول لنفس الهدف ..

لكن المدقق النظر سيرجح أن الولايات المتحدة أصبحت ترى الأرض ممهدة نحو السيطرة الكاملة على الكونجو ، وأن السيطرة يلزمها استقرار لن يتهيأ للكونجو إلا بالقضاء على النزاعات الأهلية ..

* * *

في أكتوبر 1963 اندلعت انتفاضات مؤيدة لأفكار الزعيم الراحل **لومومبا** ، واتسع نطاقها ليشمل المناطق الشرقية والشمالية من البلاد .. فرض رئيس الحكومة **سيريل أدولا** حالة الطوارئ ، ونزل الجيش بقيادة **موبوتو** إلى الشارع لقمع الناس ، ثم تم حل البرلمان .. وسحبت الأمم المتحدة قواتها من الكونجو ..

وفي يونيو 1964 قرر **أدولا** أن يستقيل بعد أن عجز عن إدارة شئون البلاد ، إلا أنه قبل استقالته اتصل بـ **تشومبي** في منفاه واتفقا على تولي الأخير رئاسة الحكومة بدلا من **أدولا** .. تسلم **تشومبي** الحكم في أغسطس 1964 .. ولكن سرعان ما أقاله رئيس الجمهورية **كازافوبو** في أكتوبر 1965 ، ثم فشل في تشكيل حكومة جديدة .. وهنا جاءت الفرصة التي طال انتظارها من جهات عديدة ..

فقد تدخل قائد الجيش الجنرال **موبوتو** وأقال **كازافوبو** وألزم البرلمان بانتخابه رئيسا للكونجو .. ثم قام بتعيين الكولونيل **مولامبا** – الذي أخمد ثورة أنصار **لومومبا** – رئيسا للوزراء ..

* * *

انتهت خمس سنوات (1960 – 1965) من الفوضى الشاملة والصراعات الدولية والقبلية ..

وبدأ عهد من السكون الدكتاتوري المحبب إلى قلب الولايات المتحدة ..

فقد جاء عميل المخابرات الأمريكية **موبوتو** إلى الحكم بعد أن خلت الساحة تماما من جميع المنافسين المزعجين وبدأ **موبوتو** حكمه بسلسلة من الإجراءات المعتادة من أمثاله .. قام بتعليق الدستور .. حل البرلمان .. ألغى الأحزاب .. واستعان بالجيش في إدارة شئون البلاد ..

ثم قام بتأسيس ما سماه بـ " الحركة الشعبية للثورة " جاعلا منها الحزب الوحيد في الكونجو عام 1967 ..

وفي 24 مارس من نفس العام أعلن **موبوتو** ولادة جمهورية الكونجو الثانية ، ووضع للجمهورية الناشئة دستورا جديدا يخول السلطة لرئيس الدولة بدلا من رئيس الحكومة كما كان ينص الدستور القديم .. وسرعان ما انتخب **موبوتو** رئيسا للبلاد بناء على الدستور الجديد بحصوله على نسبة 100 % من الأصوات .. ومن المفارقات الغريبة أن **موبوتو** المتورط حتى الثمالة في قضية اغتيال **لومومبا** قرر أن يقيم تمثالا لـ **لومومبا** في كينشاسا – العاصمة الجديدة – وأطلق عليه لقب شهيد الاستقلال الأول ..

ثم يواصل **موبوتو** غرائبه ، وإذا به يقرر في عام 1972 أن يدعو شعب الكونجو إلى العودة إلى الأصالة الأفريقية ونبذ الأسماء الأوروبية ، فأصدر قرارا جمهوريا بتغيير اسم الكونجو إلى زائير ، كما غير اسمه من **جوزيف ديزيريه** – وهو الاسم الذي كان يُعرف به رسميا حتى تاريخه – إلى **موبوتو سيسي سيكو** ..

ولا حاجة بنا إلى الدخول في تفاصيل بقية سنوات حكمه والتي امتدت حتى عام 1997 ..

لكن يمكن إجمالها بأن **موبوتو** كان واحدا من أكثر حكام أفريقيا فسادا ودموية ، وأن شعب الكونجو عاش في أدنى مستويات للفقر تشهده القارة الأفريقية في تلك الحقبة الزمنية رغم امتلاك البلد لثروات طبيعية هائلة .. إلا أن تلك الثروات جعلت من **موبوتو** واحدا من أغنى رجال العالم بامتلاكه مليارات الدولارات في حسابات بنكية خارج البلاد ، وقد وصل ثراؤه إلى حد تحكمه بشكل مطلق في نحو 20 % من موازنة الدولة السنوية لاستخدامه الشخصي ، بل هو ربما الحاكم الأوحد في التاريخ الذي كان في وسعه أن يسدد ديون بلده من حسابه الشخصي ! ..

وقد شهدت سنوات حكمه عددا من الإضرابات والانتفاضات ، وكان يستعين بكل من مصر والمغرب – في أواخر السبعينات – فضلا عن استعانته بفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة ، لمساعدته في قمع المتمردين ومنعهم من قلب نظام حكمه ..

ورغم أن **موبوتو** اشتهر في كافة الأوساط السياسية والمحافل الدولية أنه دكتاتور أفريقي فاسد ويمتلك سجلا حافلا في مجال انتهاك حقوق الإنسان ، إلا أن الولايات المتحدة لم تكن تأبه لمثل تلك الملاحظات الجانبية .. فقد استقبله الرئيس **جورج بوش** الأب في البيت الأبيض كأول زعيم أفريقي يتم استقباله هناك واصفا إياه بأنه " أفضل صديق لنا في أفريقيا ، وواحد من أكثر أصدقائنا قيمة " ..

انتهى حكم **موبوتو** بعد أن اشتدت قوى المعارضة ضده في منتصف التسعينات ، خاصة بعد أن حاول **موبوتو** أن يدخل في صراع مع قبائل التوتسي التي تعيش في شرقي الكونجو على حدود رواندا .. كانت هذه القبائل تؤيد **لوران كابيلا** المعارض الأكبر له في تلك الأيام .. وقد تلقى **كابيلا** دعم الدول الأفريقية المجاورة مثل أوغندا وبوروندي وتنزانيا وزامبيا وزيمبابوي وأنجولا .. وقام **كابيلا** بشن هجوم كاسح بادئا من الشرق ، وعندما أدرك **موبوتو** أنها النهاية سارع بالهرب إلى المغرب في 16 مايو 1997 ، ليموت بعدها هناك بمرض السرطان في سبتمبر من نفس العام ..

وليعود لزائير اسمها القديم الكونجو ..

* * *

يبقى أن نشير أن **لوران كابيلا** هذا كان واحدا من أتباع **لومومبا** وكان ماركسي التوجه في الستينات .. وكان واحدا من زعماء الأقلية المعارضة بعد مقتل **لومومبا** ، وكان متمركزا في شرق البلاد يقود أعمال المقاومة .. وظل يقوم بذلك لفترة تزيد على عشرين عاما .. ثم اختفى فجأة في عام 1988 ، كما عاد فجأة بعد أقل من عشر سنوات مصابا بتحول مدهش في أيدلوجياته الفكرية والسياسية ، وقد قيل أنه قضى بعض الوقت في الولايات المتحدة ..

أيا كان الأمر ، فإن الولايات المتحدة أعلنت بشكل صريح أن **موبوتو** لم يعد بمقدوره بعد كل هذه السنوات أن يحمي مصالحها في الكونجو ، وكان من رأيها أن رجل الساعة المنتظر هو **لوران كابيلا** .. استبد **كابيلا** بالحكم ، واتهم بارتكاب مذابح ضد لاجئي قبائل الهوتو في أثناء الصراع الأشهر في عقد التسعينات بين قبائل التوتسي والهوتو والذي اشتعل في منطقة منابع النيل والبحيرات العظمى وعلى رأسها رواندا وبوروندي .. تخلت الولايات المتحدة عن حليفها بعد تعقد الأمور .. وبعد فاصل من الصراعات والتكتلات من جانب دول مجاورة انتهى أمر **كابيلا** بأن أطلق أحد رجاله النار عليه في 16 يناير 2001 ، ليتولى ابنه **جوزيف كابيلا** الحكم من بعده ..

* * *

كانت الكونجو واحدة من بلاد أفريقيا المتخمة بالقبائل ..

وكانت الحياة – من قبل الاستعمار الأوروبي ثم التدخل الأمريكي – حياة هادئة بسيطة ..

الغابات موجودة والأنهار متوفرة وكل الخير متاح ومباح ..

ولم يكن هناك وجود لكلمات معقدة مثل الديمقراطية والليبرالية والعالم الحر والشيوعية الدولية ..

ثم جاء الغرب بجميع مساوئه ، ولوّث الماء ودمر الغابات ونهب كل الخير ، وملأ الأدغال بالشر ..

وانتشرت المذاهب والعقائد والمصالح .. وتعارك الجميع ..

ثم عاد الغرب من جديد ليتدخل لفض الخناقة .. تلك الخناقة التي ما كانت تنشب لولا تدخله ..

إن ذلك يشبه حكاية قديمة عن رجل دين مسيحي كان يعمل في مجال تنصير الإسكيمو ..

فبعد فترة طويلة من العمل المخلص ، تأمل الرجل سنوات خلت ، ثم قال في هدوء : " لقد مكثنا سنوات طوال لا نستطيع عمل شئ على الإطلاق مع شعب الإسكيمو ، فلم تكن لهم خطايا .. كان علينا أن نعلمهم الخطيئة أولا ، قبل أن نتمكن من فعل شئ من أجلهم " ! ..

كما أنها تذكرنا بنكتة ساخرة ..

يُحكى أن ثلاثة من الأولاد المشتركين في الكشافة ذهبوا إلى قائدهم في نهاية اليوم ، ثم بادر أحدهم بالكلام في فخر قائلا : " إن أفضل عمل قمنا به اليوم كان أن ساعدنا سيدة عجوز في عبور الطريق " ..

فرد القائد في اهتمام وقال : " عظيم .. ولكن لماذا استدعى ذلك أن يقوم به ثلاثتكم ؟ " ..

فأجاب الأولاد : " لأنها لم تكن تريد أن تعبر " ! ..

وهكذا نالت الكونجو حريتها على طريقة الكشافة ، لتنعم بكل مزايا الحضارة الزاهية التي لولاها لعاش الناس أفضل كثيرا ! ..

(38)
الصـــومـــال : غـــزوة و نـــزوة

حماره الذي يحمل زوجته ..

هكذا نُقش على الحجر ..

أما الحمار ، فهو حمار الزعيم **بارهو** حاكم بلاد بونت..

وأما الحجر ، فهو حجر أثري بالمتحف المصري ، والعبارة المنقوشة عليه تصف صورة مرسومة للحمار وعلى ظهره زوجة الزعيم ..

كان الحمار يحمل الزوجة **آتي** ومن أمامهما الحاكم **بارهو** واقفين جميعا في استقبال المبعوث المصري **بانحسي** الذي أتى على رأس رحلة مصرية من حوالي 3500 سنة أيام الأسرة الثامنة عشر في عهد الملكة **حتشبسوت** لزيارة بلاد الصومال المعروفة آنذاك ببلاد بونت ..

ومن خلف الحاكم وزوجته وحمارهما ، اصطف أهالي بونت أمام بيوتهم ينظرون في دهشة للبحارة المصريين وكانوا يسألونهم قائلين : " كيف وصلتم إلى هنا ؟ .. إلى هذا البلد الذي لا يعرفه الناس .. هل أتيتم عن طريق السماء ؟ .. أو أبحرتم على ظهر الماء ؟ .. " ..

وكانت تلك الرحلة التجارية الشهيرة في التاريخ الفرعوني دليلا موثقا منقوشا يبرز الاهتمام المصري منذ آلاف السنين ببلاد الصومال ، حيث كان التبادل التجاري متصلا في تلك الأيام .. كانت مصر تصدر للصومال المشغولات الذهبية والمصنوعات المعدنية والقمح والشعير .. وفي المقابل كانت تستورد منه العاج والأبنوس والذهب الخام والبخور والمر ..

* * *

حدث ذلك منذ آلاف السنين ..

أما الآن ..

فقد أصبح – أو ربما كان – الصومال دولة عربية .. لكنها دولة على هامش الهامش ..

رمز للمجاعات والضعف والفوضى .. دولة بلا حكومة ولا حدود مرسومة .. تركها العرب – جميع العرب – لكل من له مصالح في القرن الأفريقي ..

ولنبدأ الحكاية منذ أن احتُل الصومال – شأنه شأن سائر الدول العربية – من قبل الاستعمار الأوروبي قبل أن ينال استقلاله فيما بعد الحرب العالمية الثانية ..

* * *

الجغرافيا ..

بوابة للتاريخ ..

مفتاح لفهم العديد من الدوافع السياسية ..

شفرة لفك ألغاز النوايا الاستعمارية على مر العصور ..

افتتحت قناة السويس في عام 1869 .. اختُصر الطريق التجاري البحري بين أوروبا والشرق الأقصى .. ظهرت ضرورة لتأمين ذلك الطريق من خلال التواجد على جانبيه .. برزت الأهمية الاستراتيجية لموقع الصومال .. هكذا تسير الأمور ..

يطل الصومال على المحيط الهندي بالقرب من المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وهو أمر له أهميته بالنسبة لتموين وتأمين السفن المارة بالخطوط الملاحية العالمية .. ومن هنا بدأ تنافس المستعمرين الأوروبيين على الصومال في أواخر القرن التاسع عشر ..

فاحتلت فرنسا الصومال الفرنسي – جيبوتي حاليا – ، واحتلت بريطانيا الصومال البريطاني وهي الأراضي الواقعة جنوب جيبوتي بمحاذاة ساحل المحيط الهندي ، واحتلت إيطاليا بقية الأراضي الصومالية في الجنوب وحتى الحدود مع كينيا وهو ما عُرف منطقيا بالصومال الإيطالي ..

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية وانهزمت إيطاليا ، طردتها بريطانيا من الأراضي التي كانت تحتلها في عام 1941 ، لتمتد سيطرتها على كل الأراضي الصومالية فيما عدا جيبوتي .. وبعد انتهاء الحرب ، تم وضع الصومال الإيطالي تحت وصاية الأمم المتحدة إلى حين اختيار دولة تدير شئونه في مرحلة ما قبل الاستقلال ..

وفي نوفمبر 1949 أقرت الأمم المتحدة منح الصومال الإيطالي الاستقلال بعد عشر سنوات من تاريخ الإقرار ، على أن تتولى إيطاليا إدارة شئون البلاد وتأهيلها للاستقلال خلال تلك الفترة ، كما اشتمل قرار الأمم المتحدة على أن يعاون إيطاليا مجلس استشاري يضم مندوبي مصر والفليبين وكولومبيا ..

وبعد حصول الصوماليين البريطاني والإيطالي على استقلالهما في عام 1960 ، تم توحيد الشطرين وإعلان الدولة الصومالية ..

* * *

كان الصومال يعاني بشدة من الفوضى وضعف التنمية ونهب أموال المعونات ..

تولى الرئيس **عبد الله عثمان دار** الحكم من يونيو 1960 وحتى يونيو 1967 ، وجاء من بعده الرئيس **عبد الرشيد شارومارکي** ..

وفي 19 أكتوبر 1969 تم اغتيال الرئيس الصومالي **عبد الرشيد شارومارکي** على يد رجل شرطة من حراسه .. وبعد يومين قاد **سياد بري** انقلابا عسكريا وحكم به الصومال ..

بدأ الدكتاتور **سياد بري** حكمه بالاقتراب من الاتحاد السوفيتي .. فشهدت السنوات الأولى من السبعينات تدفق الخبراء الروس والأسلحة السوفيتية وتوقيع معاهدة للصداقة .. كما تم تأميم العديد من المشروعات الاقتصادية وتطبيق مذهب الاشتراكية ..

ثم جاءت سنة 1977 ، واندلعت حرب حدود بين الصومال وأثيوبيا ، حيث كان إقليم أوجادين محل نزاع منذ عهد الاستعمار ..

كان الصوماليون فيما مضى يعيشون في خمسة أقاليم مختلفة ، حتى أن علم الصومال يضم خمسة نجوم تمثلها .. كان هناك الصومال الفرنسي الذي استقل في شكل دولة جيبوتي ونالت اعتراف الصومال في عام 1977 ، وكان هناك الصومال الأثيوبي – إقليم أوجادين – الذي انتهى الخلاف حوله بانتصار أثيوبيا وتوقيع معاهدة سلام في عام 1988 ، ثم كان هناك الصومال الكيني – إقليم إنفدي – في الجزء الشمالي من دولة كينيا وقد انتهى أمره بتعايش الصوماليين هناك واندماجهم مع الكينيين وتمتعهم بكافة الحقوق المدنية .. ولم يبق سوى الصومال البريطاني والإيطالي اللذين اتحدا كما سبق وأشرنا ..

وكان دور السوفيت في دعم **مريام منجستو** حاكم أثيوبيا الشيوعي في حربه ضد الصوماليين ، هو ما أدى إلى طرد الخبراء الروس وإنهاء التسهيلات الجوية والبحرية الممنوحة للسوفيت في ميناء بربرة التي كانت تضم أكبر مدرج للطائرات في أفريقيا ..

أدت هزيمة الصومال في الحرب إلى أمرين ..

الأول : وجود حالة من الاستياء الداخلي وبدء التمرد ضد نظام **بري** .. والثاني : التحالف مع الولايات المتحدة بديلا للاتحاد السوفيتي ، حيث انتقلت قواعد السوفيت العسكرية إلى أثيوبيا ، وحل الأمريكان محل الروس في بربرة وغيرها من المدن ..

وفي حقبة الثمانينات ظلت الولايات المتحدة تقدم المساعدات للصومال ، وكانت عسكرية بالأساس .. وعندما أدركت أن نظام **سياد بري** ينهار وأن الشعب الصومالي على وشك الثورة ، آثرت الولايات المتحدة الانسحاب من قواعدها في عام 1988 ..

* * *

كان الشعب الصومالي مثل غيره من الشعوب ..

فعندما يظل حاكم ما في الحكم لمدة تزيد على عشرين عاما ، فإن الشعوب تصاب بحالة من الملل .. ثم إن الاستمرار في السلطة يخلق نوعا من البلادة والجمود ويصاب الحاكم بشيء من النضوب ، كما تنتابه حالة من التخمة ويزداد نفوذه ونفوذ المستفيدين من وراء بقائه المستمر ..

ولم يكن الوضع في الصومال مختلفا .. فقد استحوذ المقربون من **سياد بري** على رخص التصدير والاستيراد ، وكانت لديهم تسهيلات للحصول على قروض ضخمة من البنوك بلا ضمانات ، مما أدى إلى إفلاس تلك البنوك وضياع أموال المودعين من الشعب .. وكان أولئك الذين تضيع أموالهم ينضمون يوما

بعد يوم إلى صفوف المعارضة .. وكان الحصول على وظائف قاصرا على أتباع **بري** ، ولم يكن ممكنا إقامة أي مشروع بدون دفع رشاوى إلى الجهات الحكومية تزيد على نصف ميزانية المشروع نفسه .. وبينما كان معدل الوفيات في الصومال في أواخر الثمانينات سادس أعلى معدل في العالم نتيجة لنقص الغذاء والدواء ، كان أقارب **سياد بري** ومعارفه يتنافسون فيما بينهم على شراء أغلى وأحدث موديلات السيارات الفخمة .. وفي عام 1988 كان متوسط دخل الفرد في الصومال لا يتجاوز 28 دولارا سنويا .. وكان الجفاف قد ضرب البلاد ، ونتج عنه ضعف الثروة الحيوانية التي يشتهر بها الصومال .. وكانت البطالة في أعلى معدلاتها ..

أما المعونات التي كانت تأتي من الدول الغربية فقد توقفت احتجاجا على انتهاكات حقوق الإنسان .. وأما المعونات القادمة من الدول العربية فلم تتوقف ، حيث أن العرب لم يدينوا تلك الانتهاكات .. من ناحية لأن مثل تلك الشكليات لا تشغل بال الحكومات العربية خاصة وأنها لا تختلف كثيرا عن حكومة الصومال ، ومن ناحية أخرى فإن العرب فضلوا ألا يثيروا تلك القضية خشية أن يعد ذلك تدخلا في الشئون الداخلية لدولة عضو بالجامعة العربية ، مما كان سيعتبر سابقة خطيرة يقاس عليها تصرفات مستقبلية مماثلة.. بل إن عددا من الدول العربية – السعودية والكويت والإمارات – قد قدمت في عام 1990 مساعدات بنحو 70 مليون دولار لتعزيز الأسطول الجوي المدني الصومالي مكافأة لـ **سياد بري** على موقفه المعارض للغزو العراقي للكويت .. لكن هذه الأموال وغيرها لم تستخدم أبدا في الأغراض الممنوحة من أجلها ..

* * *

ولكل ما سبق شهدت السنوات الأخيرة من حكم **بري** حالة من الاحتقان، نتج عنها غليان، أسفر عن انفجار . ففي أحد أيام شهر أغسطس 1989 خرج المواطنون الصوماليون من المساجد في العاصمة مقديشيو بعد صلاة الجمعة متوجهين إلى مقر الرئاسة في مظاهرة حاشدة احتجاجا على اعتقال ستة من الزعماء المسلمين .. فقامت القوات الحكومية بفتح النار ، ووقعت مذبحة قتل فيها أربعمائة شخص بالإضافة إلى اعتقال ألف آخرين .. ولم يكن ممكنا أن يستمر حاكم مهما كان جبروته في ظل كراهية شعب بأكمله ..

وفي 26 يناير 1991 سقط **سياد بري** بانقلاب عسكري أسفر عن هروبه إلى خارج البلاد ، لتبدأ مرحلة أقل ما توصف به أنها كانت شديدة القسوة من الجميع على الجميع ..

ثم جاء التدخل الأمريكي في شكل نزوة ، انقلبت إلى غزوة ، وانتهت بفضيحة !

* * *

عرض سريع لأحداث ووقائع ما بعد **سياد بري** ..

كانت جميع الطوائف والقبائل قد شاركت في الإطاحة بـ **بري** ..

ومثلما يحدث في جميع الدول المفتقرة إلى نظام سياسي ناضج ، فإن الصراع بدأ بين الجنرال **محمد فارح عيديد** وبين المعارض السياسي **علي مهدي** .. كان **عيديد** يعتبر نفسه أنه هو الذي أطاح بالرئيس **سياد بري**

وأنه الأحق بخلافته ، بينما كان يرى آخرون أن **عيديد** لم يدخل العاصمة مقديشيو إلا بعد خروج **بري** منها هاربا إلى مسقط رأسه بجنوب الصومال .. وفي الوقت نفسه فإن الجنرال **عيديد** كان يريد تنفيذ اتفاق سري مع زعماء بعض الحركات الوطنية في الشمال والجنوب ، وهو اتفاق يقضي في أهم بنوده أن يصبح **عيديد** رئيسا للصومال ..

وبعد أربعة أيام من سقوط **سياد بري** سارعت إحدى الجماعات وتدعى جماعة البيان بإعلان **علي مهدي** رئيسا مؤقتا ، وأيدتها في ذلك حركات وطنية أخرى .. وكان المؤيدون لـ **علي مهدي** يرفضون أن يتولى حكم البلاد أي عسكري في ضوء تجربتهم الطويلة المريرة مع قائدهم العسكري السابق **سياد بري** .. احتدم الخلاف بين الطرفين .. ورغم محاولة التوصل إلى حل وسط بأن يظل **علي مهدي** في الرئاسة على أن يتولى الجنرال **عيديد** رئاسة ما يعرف باسم المؤتمر الصومالي الموحد ، فإن **عيديد** رفض الاعتراف بـ **علي مهدي** رئيسا للجمهورية ، وبالمثل رفض **علي مهدي** الاعتراف به رئيسا للمؤتمر ! ..

وتصاعد الصراع متحولا إلى نزاع دموي .. وانعقد أكثر من مؤتمر للمصالحة الوطنية في الشهور التي تلت هروب **سياد بري** ، ولم تسفر المؤتمرات عن أية مصالحة .. بل على العكس بدأت المعارك المسلحة للسيطرة على العاصمة ونجح **عيديد** في ذلك ..

انهار ما يمكن اعتباره دولة الصومال .. فقد أعلن الشمال الصومالي – الصومال البريطاني سابقا – استقلاله في 18 مايو 1991 تحت اسم جمهورية أرض الصومال .. كما سقطت مؤسسات الدولة ، فلم يعد هناك جيش ولا شرطة ولا تعليم ولا مستشفيات ولا مياه صالحة للشرب ، وتوقفت المصانع القليلة الموجودة عن العمل .. وصار لدى كل قبيلة ميليشيات خاصة بها ، واتسع نطاق المعارك وسقط عشرات الآلاف بين قتيل وجريح ..

واشتدت وطأة المأساة عندما ضرب الجفاف الصومال ، وجفت الأمطار ، وأعاقت الألغام التي زُرعت في عهد **سياد بري** الرعاة الذين يشكلون معظم سكان الصومال ، فقد كان هناك 1.2 مليون لغم ، بعضها كان مزروعا في الآبار .. وهلك الزرع ، وانتشرت الأمراض بين الأطفال والشيوخ ، ليقفز عدد الضحايا إلى ثلاثمائة ألف مواطن ممثلين حوالي 5 % من تعداد السكان آنذاك .. ولم تكن نشرات الأخبار العالمية تخلو من مشاهد للمأساة الصومالية العنيفة ، وكانت هناك صورة شهيرة لطفل صومالي هزيل يحتضر ويزحف بضعف وسط كومة من القمامة وفي طرف الصورة تتطلع نحوه في تحفز حدأة جارحة توشك أن تنقض على بقاياه الإنسانية .. وصار أبناء الصومال مضرب الأمثال للضعف والمرض والهزال ، حتى أنه أطلق مصطلح حزام الجوع على منطقة وسط وجنوب الصومال من كثرة الأعداد التي كانت تموت جوعا .. وكان الصوماليون يلجئون إلى أكل القات لأنه يصيب بفقدان الشهية حتى لا يحتاجوا إلى الغذاء .. وظهرت أنواع مخيفة من القراصنة وتجار الموت الأجانب .. فقد انتهزت بعض الدول تردي الأوضاع في الصومال

وأرسلت نفاياتها السامة إلى المياه الإقليمية الصومالية ، كما انتشرت عملية سرقة الأعضاء البشرية وتصديرها للخارج بأثمان خيالية ، وكانت تلك كلها عمليات تشرف عليها المافيا الدولية ..

كان من الضروري أن يلتفت العالم إلى الكارثة التي حلت بالصومال .. لكن العالم كان منشغلا بإعادة ترتيب الأوراق فيما بعد حرب الخليج الثانية التي بدأت في نفس الأسبوع الذي أطاحت فيه قوات المعارضة بالرئيس **سياد بري** في يناير 1991 ..

وعندما أظهرت الأمم المتحدة نيتها في التدخل من أجل تسوية سياسية للنزاع الدامي ، قابل الجنرال **عيديد** تلك النية بالرفض ، بينما رحب خصمه **مهدي** بالتدخل الدولي ، وكان ذلك انعكاسا للتفوق العسكري لـ **عيديد** ..

وفي نهاية الأمر تدخلت الأمم المتحدة وتوصلت إلى وقف لإطلاق النار في 3 مارس 1992 .. لكن الصراع لم يتوقف وتبادل الجميع الاتهامات بسرقة المعونات الغذائية التي بدأت تفد من دول عديدة .. وموورست ضغوط عنيفة على **علي مهدي** حتى تنازل عن الرئاسة ، ودخلت الصومال في مرحلة جديدة بلا رئيس جمهورية ولا حكومة ولو غير معترف بها ..

وفي تلك الأثناء نجح **سياد بري** في 29 أبريل 1992 في الهروب من جنوب الصومال عبر كينيا متجها إلى نيجيريا..

* * *

اتسمت هذه المرحلة المروعة التي مر بها الصومال بغياب كامل للولايات المتحدة ..

وحتى عندما أبدت الولايات المتحدة بعض الاهتمام ، فإنها ركزت على تمويل برنامج لإزالة الألغام بشمالي الصومال حيث توجد مصالح لشركات بترول أمريكية .. وكان هذا التراخي في القيام بالدور التقليدي كقوة عظمى راجعا بالأساس إلى انهيار الاتحاد السوفيتي .. كما تزامنت الكارثة الصومالية مع سقوط النظام الشيوعي في أثيوبيا المجاورة واستعدادات المعارضة الموالية للغرب لتولي الحكم في مايو 1991 ، وكان ذلك التحول في دولة بأهمية أثيوبيا – تشرف على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وترتبط تاريخيا ودينيا بالغرب – أهم كثيرا من إنقاذ فقراء الصومال من الموت في الصحاري الجافة .. ثم كان هناك الاهتمام الأمريكي بجيبوتي .. فقد كانت حكومتها تواجه في نفس تلك الفترة معارضة مسلحة ، ولم يكن ممكنا التخلي عن مساندتها بعد أن أظهرت تأييدا مؤثرا لقوات التحالف أثناء الحرب ضد العراق في مطلع عام 1991 ، حيث قدمت تسهيلات كثيرة من خلال موقعها المتميز المشرف على مضيق باب المندب والمطل على شبه جزيرة العرب .. لكل هذه العوامل لم تكن أمريكا في طليعة المهتمين بالتدخل الإنساني لنجدة الشعب الصومالي من الهلاك ..

* * *

إذاً .. ما سر التدخل الأمريكي في مرحلة لاحقة بالصومال فيما عُرف بعملية إعادة الأمل وما تلاها ؟
هناك مجموعة أسباب روتينية ..
ومنها أهمية موقع الصومال الجغرافي بالقرب من الخليج العربي مصدر البترول الأول في العالم ، والرغبة في العودة إلى قاعدة بربرة البحرية والجوية ، وقد كانت واحدة من أهم القواعد الأمريكية في القارة الأفريقية ..
الحفاظ على مصالح أربع شركات بترول أمريكية كبرى حصلت على امتيازات للتنقيب عن البترول في ثلثي مساحة الصومال في عهد الرئيس **سياد بري** ، وقامت بالفعل باكتشاف آبار بترول داخل المياه الإقليمية على طول الساحل ، وتتعرض مصالحهم واستثماراتهم للخطر في حالة عدم وجود نظام سياسي مستقر وحليف ..
وجود حاجة ماسة للبنتاجون – وزارة الدفاع – لإقناع أعضاء الكونجرس بعدم تخفيض الموازنة العسكرية في سنوات ما بعد الحرب الباردة ، وكانت الحملة الإنسانية العسكرية على الصومال واحدة من تلك المحاولات للتأثير على موقف الكونجرس ..
الخوف من انتشار تيار الأصولية الإسلامية الناتج عن نشاط حركة الاتحاد الإسلامي في الصومال ، وهو ما كان يمكن أن يؤثر على الاستقرار في كل من كينيا وأثيوبيا وهما أهم مراكز التبشير للمسيحية في أفريقيا ، فضلا عن المصالح الاقتصادية ..
ثم كان هناك التنافس الأوروبي الأمريكي وعدم الرغبة في ترك الساحة لأوروبا للسيطرة على تلك المنطقة ، خاصة بعدما بدأت المعونات الأوروبية تصل إلى أبناء الصومال قبل أن تفكر الولايات المتحدة في التحرك .. فقامت الولايات المتحدة بإرسال بعض المسئولين إضافة إلى وفد من الكونجرس في منتصف عام 1992 للتعرف على الوضع على أرض الواقع .. وعاد هؤلاء يطالبون بأن تقود أمريكا العالم لإغاثة الصومال ..
لكن يبقى السبب الرئيسي وراء التدخل الأمريكي في الصومال هو اقتراب موعد انتخابات الرئاسة في نوفمبر 1992 .. وكان الرئيس الأمريكي **جورج بوش** يعتمد في الانتخابات على نجاحه في السياسة الخارجية تعويضا عن فشله الداخلي .. وقد بدأ ذلك بغزو بنما في ديسمبر 1989 ، وتلاها حرب العراق ، وكان يريد أن يتوج نجاحه بحملة الصومال .. كما لعب الرئيس **بوش** على وتر آخر .. فقد كانت وسائل الإعلام الأمريكية تنقل مرارا وتكرارا صور المآسي الإنسانية في الصومال ، وعندما بدأت الإدارة الأمريكية في إرسال أطنان المواد الغذائية إلى الصومال ، كان ذلك بهدف تحويل دعم الأمريكان الأفارقة له في الانتخابات ، خاصة وأن السود يصوتون عادة لصالح الحزب الديمقراطي المنافس ..
بدأ التدخل الأمريكي الإنساني بعد عودة وفد الكونجرس .. واشتركت الطائرات العسكرية الأمريكية في نقل المواد الغذائية جوا من ميناء مومباسا الكيني إلى الصوماليين اللاجئين داخل كينيا وعلى الحدود المشتركة .

ولكن بمرور الوقت ظهر أن التدخل المعلن عنه من قبل الإدارة الأمريكية في شهر يوليو 1992 كان استعراضيا دعائيا وجزءا من الحملة الانتخابية ، فقد اشتكى موظفو منظمات الإغاثة الدولية أن الطعام الذي حملته الطائرات الأمريكية كان تابعا لبرنامج الغذاء العالمي وليس أمريكيا .. وأن الطعام الأمريكي لن يظهر أثره إلا في نهاية عام 1992 لأنه تابع لموازنة عام 1993 .. ووقتها تكون الانتخابات قد حسمت نتيجتها ! ..

وعندما ظهرت نتيجة الانتخابات ، وخسر **جورج بوش** أمام **بيل كلينتون** ، كان أمام **بوش** أقل من شهرين قبل أن يخلي البيت الأبيض رسميا .. فأراد **بوش** أن يجعل خروجه مدويا وصاخبا عن طريق إنجاز سياسي جديد يحسب له في سجله المضيء .. ونجحت إدارة **بوش** في إقناع الأمم المتحدة أن ترسل قوات كبيرة للصومال من أجل تأمين وصول مواد الإغاثة لليتامى والمساكين وأبناء السبيل ..

وكان ذلك هو ما يعرف في التاريخ الحديث باسم عملية إعادة الأمل ..

* * *

صدرت الأوامر للقوات الدولية ببدء تنفيذ عملية إعادة الأمل في شهر ديسمبر 1992 بمشاركة 37 ألف جندي من 23 دولة .. وكان للولايات المتحدة نصيب الأسد حيث شاركت بـ 24883 جنديا ..

وفور دخول القوات الدولية إلى العاصمة مقديشيو ، تصور الأمريكان أن بإمكانهم إنهاء الأزمة وخطف الأضواء .. فنجح المبعوث الأمريكي **روبرت أوكلي** في عقد اجتماع يضم **عيديد** و**علي مهدي** بعد يومين فقط من الدخول إلى العاصمة .. تم الاجتماع في مبنى شركة البترول الأمريكية كونوكو الذي كان مقرا مؤقتا للسفارة الأمريكية في مقديشيو .. وعقب الاجتماع أعلن الطرفان المتخاصمان في بيان مشترك استعدادهما لتبني خطة لوقف العنف ..

ثم قامت الأمم المتحدة بدعوة جميع الفصائل الصومالية – وعددها 15 – لحضور اجتماع تمهيدي لمؤتمر المصالحة الوطنية الصومالية في الفترة من 4 إلى 15 يناير 1993 .. اعترض **عيديد** على دعوة بعض الفصائل بزعم عدم مشاركتها في إسقاط **بري** ، كما أبدى اعتراضه على تفاصيل أخرى فرعية .. كان **عيديد** يتصرف من منطلق العناد والرغبة في السيطرة المطلقة بدون تنازلات .. لم يأت تصرفه على هوى القوات الأمريكية التي كانت تبغي سرعة الحسم ، فتدخلت بضرب قواعد للجنرال **عيديد** في مقديشيو ، كما ضغط الرئيس الأثيوبي على **عيديد** لإقناعه بقبول فكرة المؤتمر .. وهو ما حدث ، حيث أُعلن وقف فوري لإطلاق النار في جميع المواقع والدعوة إلى عقد مؤتمر للمصالحة الوطنية في أديس أبابا في 15 مارس 1993 ..

لم تؤد تلك المحاولات إلى حل الأزمة .. ومع تولي الإدارة الأمريكية الجديدة ، بدأ اللجوء إلى الممارسات العسكرية لفرض إطار سياسي يتلاءم مع متطلبات المرحلة ..

وفي 5 يونيو 1993 وقع حادث ساهم بشكل جذري في تحويل أهداف الحملة الأمريكية عن الأغراض الإنسانية إلى غزوة عسكرية محدودة .. ففي ذلك اليوم وقعت مواجهة بين قوات باكستانية تابعة للأمم المتحدة وبين مسلحين تابعين للجنرال **عيديد** في جنوبي مقديشيو ، وأسفرت المواجهة عن مصرع 24 جنديا باكستانيا ..

وقد اختلفت رواية **عيديد** عن رواية مصادر الأمم المتحدة بشأن الحادث .. ففي حين أعلنت الأمم المتحدة أن قيادة قواتها الدولية أبلغت ميليشيات **عيديد** – قبل 24 ساعة من تحركها – اعتزامها تفتيش مخزن أسلحة تابع له قرب مبنى الإذاعة ، وهي مهمة روتينية تتماشى مع البنود المتفق عليها في مؤتمر أديس أبابا ، وأن مسلحين صوماليين قاموا بإطلاق النار على الجنود الباكستانيين في أثناء تأديتهم مهمتهم المكلفين بها والمتفق عليها من الطرفين .. فإن **عيديد** أصر على أن قوات الأمم المتحدة قد قامت بعمليات استفزازية وأنها هاجمت مبنى الإذاعة التابعة له ، فما كان من الأهالي إلا أن ردوا بضربهم ، فحدث ما حدث ..

وفي اليوم التالي للحادث أصدر مجلس الأمن قراره رقم 837 بالإجماع ، ونص القرار على ضرورة القبض على مرتكبي الحادث ومحاكمتهم .. ثم تلا ذلك صدور أمر من الأدميرال الأمريكي المتقاعد **جوناثان هاو** – مبعوث الأمم المتحدة – بالقبض على **عيديد** شخصيا ، وقام برصد 25 ألف دولار مكافأة لمن يدلي بمعلومات تفيد في القبض عليه ..

كانت هذه فرصة أكثر من رائعة للقوات الأمريكية لممارسة نشاطها المحبب .. فرغم أن عملية إعادة الأمل قد انتهت رسميا في أول مايو 1993 ، وتم استبدالها بعملية يونوصوم 2 – وهي اختصار لعملية الأمم المتحدة في الصومال – ، فإن طائرات الهليكوبتر الأمريكية بدأت فور وقوع حادث جنود باكستان في قصف أماكن تجمع أنصار **عيديد** ، وأطلقت قذائف مباشرة من ارتفاعات منخفضة مما أدى إلى ارتفاع أعداد القتلى والمصابين ..

وكان هناك شهودا على العمليات الأمريكية الخارجة عن نطاق المهمة الرسمية الإنسانية ..

فقد صرح مصور وكالة أسوشييتدبرس البريطاني **بيتر نورثال** ومصور وكالة الصحافة الفرنسية المغربي **عبد الحق سنة** أن طائرة هليكوبتر أمريكية من طراز بلاكهوك قد أطلقت عليهما قنابل مخدرة في أثناء تصويرهما لمظاهرة صومالية .. وفي روايته للحادث قال البريطاني **نورثال** : " لقد حاولت التعريف بصفتي كصحفي وأبرزت معدات التصوير التي أحملها ، فقد كان الجنود الأمريكيون قادرين على رؤيتي بسهولة وكانت الطائرة تحلق على ارتفاع ما بين 30 و40 مترا من مكان وقوفي .. وعندما واصلت التقاط الصور أطلقوا النار ست مرات عليّ وعلى سيارتي .. " .. أما المغربي **عبد الحق سنة** فقد أوضح أن الجنود الأمريكيين لم يوجهوا له أي إنذار ، وأنه لم يدرك أنهم يطلقون عليه النار إلا بعد أن سمع الطلقات ، فابتعد .. ليكمل الباكستانيون عملية إطلاق النار على المتظاهرين في ظل مشاركة جوية فعالة من الطائرات الأمريكية ..

* * *

فشلت المخابرات الأمريكية في تحديد مخبأ عيديد .. فعادة ما تلجأ المخابرات إلى التجسس في العالم الثالث عن طريق تقديم رشاوى لبعض مسئولي الحكومات للحصول على المعلومات الضرورية ، أو تقوم وكالة الأمن القومي بالتنصت على المكالمات التليفونية ..

وكان منطقيا أن تفشل تلك الحيل في الصومال .. فليس هناك مسئولون حكوميون حتى تقدم لهم رشاوى ، وهذا بديهي بالنظر إلى عدم وجود حكومة أصلا ! ..

كما أنه من أجل أن تقوم الولايات المتحدة بالتنصت على المكالمات التليفونية ، لابد أن يتوافر شرط أساسي في البداية ، وهو أن تكون هناك تليفونات !! ..

كانت أجهزة التليفونات محدودة جدا ، وحتى إذا توافر للجنرال **عيديد** جهاز تليفون فإن تابعيه لم يتوافر لهم تلك الكماليات .. وكان **عيديد** في اتصالاته مع معاونيه يرسل مبعوثين منه وإليه .. وحتى عندما استخدم **عيديد** جهاز لاسلكي في بعض اتصالاته ، فإن أجهزة الولايات المتحدة الفائقة التقدم لم تنجح في التعامل مع ذلك الجهاز من فرط تخلفه ! ..

اضطرت الولايات المتحدة إلى اللجوء إلى الأسلوب القديم عن طريق دس عملاء للمخابرات وسط رجال **عيديد** .. ولم تنجح المحاولة لأن عملاء أمريكا كانوا من عشائر أخرى بطبيعة الحال وهو ما كان يسهل كشفهم لكونهم غرباء ، وهو مفهوم قبلي لم تنتبه له الإدارة الأمريكية .

وبعد أن أثبتت جميع الوسائل فشلها في اعتقال **عيديد** ، لجأت الولايات المتحدة إلى الحل الأخير ..

فقامت بإرسال قوة خاصة تعرف باسم الرينجرز – وتتكون من مجموعة من المحترفين لأداء عمليات خاصة – وجاء أداء هذه القوة فاصلا كوميديا صارخا متأثرا بأفكار السينما الأمريكية عن الكوماندوز الأمريكان الذين لا يقهرون وينجحون دوما في تحقيق جميع الأهداف الممكن منها والمستحيل ..

نزل 750 جنديا من 12 طائرة هليكوبتر عسكرية فوق أسطح مبان تابعة للأمم المتحدة في مقديشيو ليلا ، وذلك للاشتباه في وجود **عيديد** بها ! .. كسروا الأبواب ونجحوا في التسلل إلى مبنى خاص ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي .. وجدوا في المبنى 8 موظفين دوليين تابعين للأمم المتحدة ، وكانوا نائمين .. هجموا عليهم وقيدوهم وطلبوا منهم الانبطاح أرضا .. وبعد فاصل من الشرح والتوسل والاستجداء ، أفرجت القوة الأمريكية المحترفة عن موظفي الأمم المتحدة بعد أن تبين لهم أن مباني الأمم المتحدة يرجح أن يقطن بها موظفوها ! ..

وفي 3 أكتوبر 1993 تم اختيار 120 جنديا من أكفأ عناصر القوات الأمريكية ، وذلك للقيام باختطاف زعيمين من عشيرة **عيديد** .. انتهت المعركة التي شارك فيها الطيران الأمريكي مشكلا غطاء جويا بسقوط خمس طائرات أمريكية وقتل 18 أمريكيا وجرح 73 – وهو ما يعني نجاة 29 فقط من أصل القوة – ..

استمرت المعركة 15 ساعة متصلة ، وأدى القصف الجوي العشوائي إلى مصرع 500 صومالي وإصابة عدة آلاف ..

تغير موقف أمريكا كليا بعد مقتل جنودها في معركة مهينة ، وبدأت تركز على مبدأ التفاوض ، خاصة بعد نقل شبكات التليفزيون الأمريكية والعالمية مشهد جر جثمان جندي أمريكي في شوارع مقديشيو ..

وأعادت التطورات الأذهان إلى شبح فيتنام ، وخشيت الإدارة الأمريكية من التورط إلى درجة لا تستطيع التراجع معها .. فقام الرئيس الأمريكي **بيل كلينتون** بإرسال **روبرت أوكلي** من جديد إلى الصومال لإيجاد تسوية مشرفة مع **عيديد** ..

عاد **أوكلي** إلى الصومال ومعه صفقة .. عقد مع كبار معاوني **عيديد** عدة اجتماعات عرض خلالها وقف إطلاق النار في مقديشيو والإفراج عن طيار أمريكي أسير ومعه جندي نيجيري ، في مقابل ضمان الضغط الأمريكي للسماح بإعادة التحقيق في حادث مقتل الجنود الباكستانيين ، بحيث تقوم به لجنة محايدة ، وألمح **روبرت أوكلي** إلى مساع أمريكية لتبرئة **عيديد** والتوقف عن مطاردته .. وهو ما حدث لاحقا حيث أصدر مجلس الأمن قرارا جديدا بوقف مطاردة المشتبه في تورطهم في قتل الجنود الباكستانيين ، كما تم تشكيل لجنة تحقيق محايدة ، وكان المقصود من حيادها ألا تصل إلى شئ ! ..

وتأكد للجميع أن الولايات المتحدة قد بدلت موقفها من الأزمة الصومالية بشكل لا يصدقه عقل ، وذلك عندما خرج **عيديد** من مخبأه في حراسة قوات مشاة البحرية إلى مطار مقديشيو ، ثم غادر الصومال إلى أثيوبيا على متن طائرة عسكرية أمريكية !! ..

وفي الكونجرس دارت مناقشات تؤيد الانسحاب الأمريكي من الصومال ، وانتهوا إلى الموافقة على الانسحاب في موعد أقصاه نهاية مارس 1994 .. وفي 25 مارس انسحبت قوات المارينز .. وكانت هناك بعض اللحظات التي توقفت عندها الأقلام .. فقد تقدم الكولونيل **ماثيو برودريك** لإطفاء آخر أضواء قاعدة المارينز في الصومال ، وهو ما مثل مصادفة تاريخية في غاية الغرابة ، حيث أن نفس ذلك الرجل كان قائدا لسرية عسكرية في سايجون الفيتنامية ، وكان هو آخر من أخلى السفارة الأمريكية في عام 1975 قبل وقوع مدينة سايجون في أيدي الشيوعيين بالكامل ..

* * *

انتهت الغزوة .. وفترت النزوة .. وبدأ الضغط الأمريكي من أجل انسحاب كافة القوات الدولية في سبتمبر 1994 .. وكانت الضغوط شديدة نظرا لأن الولايات المتحدة كانت تتحمل 30 % من تكاليف عملية الأمم المتحدة في الصومال .. وقابل الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور **بطرس غالي** هذه الضغوط بضغوط مماثلة على أطراف النزاع في الصومال بتعجيل جهود التسوية السياسية ومحاولة التوصل إلى سلام يحفظ الأمن والاستقرار .. لكن الصراع على الحكم كان أقوى من كل النداءات .. واضطر الدكتور **بطرس غالي**

في النهاية إلى التوصية بانسحاب القوات الدولية في مارس 1995 ، خاصة وأن الأمم المتحدة كانت تواجه أزمة مالية حادة بعد الموقف الأمريكي ..

* * *

توارت المشكلة الصومالية إلى الظل ..

وفي 15 يونيو 1995 أعلن أتباع **محمد فارح عيديد** انتخابه رئيسا للبلاد .. لم يعترف أنصار **علي مهدي** برئاسته بطبيعة الحال ، وعاد الصراع العسكري من جديد .. لم تعترف أية دولة في العالم بـ **عيديد** رئيسا للصومال باستثناء ليبيا .. وظل مقعد الصومال في الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية خاليا من التمثيل .. وبعد وفاة **عيديد** في أول أغسطس 1996 ، تولى ابنه **حسن عيديد** الحكم حتى مارس 1998 .. ثم أشرف بعد ذلك ما سمي بمجلس الإنقاذ الوطني على البلاد في العامين التاليين ..

* * *

نسي العالم أجمع مشكلة الصومال ، واستغرقته الحرب الأهلية في يوجوسلافيا ..

ثم استيقظنا جميعا في أغسطس 2000 على انتخاب **عبد القاسم صلاد حسن** رئيسا للصومال ، ونال الاعتراف الدولي بحكومته .. لكن الصومال التي تولى رئاستها لم تكن أبدا الصومال التي تخلصت من الاحتلال في عام 1960 .. كانت جمهورية أرض الصومال قد أعلنت استقلالها في مايو 1991 وكانت تشغل الأراضي التي عرفت فيما مضى بالصومال البريطاني أو الصومال الشمالي .. لم تنل تلك الجمهورية اعتراف حكومات العالم ، ورغم ذلك استمرت وأصدرت عملة خاصة بها واعتمدت في مواردها على بقايا برامج المساعدات الأجنبية التي كانت تتلقاها من البريطانيين ثم الروس ثم الأمريكان في العقود الماضية .. ثم أعلنت أقاليم مجاورة اتحادها عام 1998 في شكل دولة ذات سيادة وسميت بونت لاند ، لكنها لم تطالب بالاستقلال أو تسعى له .. والأدهى من ذلك أن بونت لاند وجمهورية أرض الصومال قد دخلا في نزاع على الحدود المشتركة بينهما ! ..

كل ذلك حدث رغم حقيقة كون الحدود الصومالية الرسمية المعترف بها تضم كل تلك الأراضي المستقلة من تلقاء نفسها ..

* * *

مرة واحد صومالي ركبه عفريت ، مات العفريت من الجوع .. هذه نكتة مصرية ثقيلة الظل تستطيع أن تسمعها في عام 2004 ..

وإن دلت النكتة على شئ ، فإنما تدل على عدم اكتراث وسلبية ونستطيع أن نتمادى ونصل بالدلالات إلى حد الاحتقار والتجاهل ..

لم يصدر مثل هذا عن **حتشبسوت** يوم أن كنا سادة الأرض ..

* * *

وما زال الشعب الصومالي ضحية الغياب العربي والإهمال الأجنبي ..

انضم الصومال عضوا إلى الجامعة العربية في عام 1974 ، لكن **سياد بري** قرر وقتها أن تكون الصومالية هي اللغة الرسمية وأن تكتب بالأحرف اللاتينية وليست العربية .. وتعد الصومالية اللغة الأولى التي يتحدث بها الناس وتليها الإنجليزية ثم الإيطالية ثم العربية .. وربما يكون ذلك من أهم أسباب عدم تلاقي مشاعر الجماهير العربية مع فقراء الصومال الذين فتحوا بابا جديدا للتنكيت في الشارع العربي ..

أما الإهمال الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان تجسيدا جديدا على تلازم المصلحة الأمريكية مع الاهتمام المفتعل بحقوق الإنسان .. فعندما انتفى الغرض من الوجود الأمريكي بالصومال ، انقطعت صلة الولايات المتحدة بالصومال ، حتى أنها لم تفتح سفارة لها في مقديشيو رغم العودة الصومالية الرسمية للمحافل الدولية ..

* * *

ولا يفوتنا هنا ونحن نختتم الإشارة إلى العلاقة الأمريكية الصومالية – وهي خليط مقبض بين النزوة والغزوة – إلى وجود أمر آخر يجمع بينهما .. ففي ديسمبر 1989 اجتمعت هيئة الأمم المتحدة ، وتم تقديم ميثاق حقوق الطفل وعرضه على الدول الأعضاء .. وجاءت النتيجة بموافقة جميع دول العالم على الميثاق ، باستثناء دولتين .. الولايات المتحدة والصومال !! ..

جاءت القوات الأمريكية لإنقاذ أطفال الصومال من الموت جوعا ، والحياة هي أهم الحقوق المشروعة التي لابد وأن ميثاق حقوق الطفل قد اشتمل عليها .. أتت الولايات المتحدة إلى الصومال بحجة تطبيق أهم بنود الميثاق الذي عارضته وحدها مع الصومال في الأمم المتحدة !! ..

* * *

" إن الولايات المتحدة هي العقبة التي أفشلت كل محاولات الأمم المتحدة للعب دور مؤثر في حل قضايا النزاع في العالم " .. الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة كورت فالدهايم

(39)
رواندا : الضحية

فقط لو أنهم تعاركوا قبل ذلك ببضع سنوات !

* * *

هناك جديد في هذا الفصل ..

اعتدنا في فصول سابقة وفي فصول لاحقة أن البلدان التي يتناولها هذا الكتاب قد تعرضت لأذى ما من الولايات المتحدة ، وشغلت بسببه مساحتها المناسبة بين صفحاته .. تراوحت الأضرار بين اغتيال زعماء وتدبير انقلابات واستغلال ثروات وفرض عقوبات وقصف بالقنابل وزرع ألغام واحتلال عسكري إلى أخر القائمة السوداء ..

والجديد هنا ، والسبب الوحيد وراء إدراج رواندا بين صفوف الضحايا ، هو أن الولايات المتحدة هذه المرة لم تفعل أي شئ بالمرة ..

أجل ، لم تتعرض أمريكا لرواندا الصغيرة الفقيرة ، ولم تعرها انتباهها على الإطلاق ..

وكان هذا الموقف هو أبشع ما يمكن أن تفعله أمريكا برواندا ! ..

* * *

نلقي الضوء على أصل الأزمة .. تتلخص المشكلة :

في انتهاء الحرب الباردة ..

في عدم تهافت القوتين العظميين على جذب أنصار جدد أو الحفاظ على حلفاء قدامى ، بسبب أفول نجم إحدى القوتين ..

في عدم تحمس الولايات المتحدة للانغماس في صراعات ليس لها تأثير استراتيجي أو تداعيات اقتصادية على مصالح أمريكية ..

في تبرم الولايات المتحدة من نتائج تدخلها السابق في أزمة الصومال وهو ما ألحق بها بعض الخسائر البشرية المهينة ..

في اشتداد الخلافات بين الولايات المتحدة وبين هيئة الأمم المتحدة ممثلة في أمينها العام **بطرس غالي** ، وعدم رغبتها في التعاون معه أو إظهاره بمظهر الناجح في أداء عمله ..

وفي نهاية الأمر ، أسفر الصراع الرهيب الذي نشب بين قبائل الهوتو والتوتسي عن مذبحة نادرة الحدوث لقي فيها أكثر من مليون شخص مصرعه ، وسالت دماء مئات الآلاف من الروانديين تخضب مياه النيل عند منابعه ..

* * *

نبدأ أولا بتلخيص موجز للأزمة الرواندية قبل أن نتعرض للموقف أو بالأحرى اللا موقف الأمريكي منها .

بدأت جميع المشاكل العرقية في القارة الأفريقية تطفو على السطح بعد الاستقلال عن الاستعمار الأوروبي . كان الأوروبيون قد قاموا بتقسيم القارة بشكل عشوائي راعوا فيه مصالحهم السياسية والاقتصادية دون النظر لواقعية هذا التقسيم من الناحية العرقية ..

وتكمن مشكلة رواندا في أن رسم الحدود بينها وبين جيرانها أدى إلى تشتت القبيلتين الرئيسيتين في أواسط أفريقيا وهما التوتسي والهوتو .. وكان من البديهي أن تحدث خلافات بين الحين والآخر على الحكم والسلطة والسيطرة .. فمع استقلال رواندا عن بلجيكا في عام 1963 ، كانت قبيلة الهوتو تمثل حوالي 85 % من تعداد السكان في مقابل 15 % لقبيلة التوتسي .. وما أن غادر الأوروبيون المكان حتى قامت قبيلة الهوتو بتنفيذ موجات متعاقبة من المذابح خلال الستينات بهدف القضاء على العائلات الكبيرة من ملاك الأراضي الزراعية التوتسيين .. أسفرت تلك الاعتداءات عن هروب عشرات الألوف من التوتسي إلى بوروندي وأوغندا وزائير وتنزانيا ..

ظلت الهوتو تسيطر على البلاد بفعل العنف واعتمادا على الأغلبية ، إلا أن الفارين من التوتسي إلى الدول المجاورة قاموا بتشكيل ما يسمى بالجبهة الوطنية الرواندية ، وكونت الجبهة جيشا نظاميا بمرور الوقت .. وفي أكتوبر عام 1990 نجحت قوات الجبهة في دخول رواندا واحتلال الأجزاء الشمالية منها ، وهو ما أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية بين الهوتو والتوتسي .. وبعد أقل من عامين من الصراع المعتمد بالأساس على السلاح القادم من أوروبا وجنوب أفريقيا ، حاول بعض العقلاء تبني مصالحة وطنية في رواندا لإيقاف الحرب .. لكن المتشددين الهوتو بذلوا أقصى جهد لهم للحيلولة دون تغيير الوضع القائم ، لأن المصالحة قد تعني تقديم تنازلات للتوتسي وإعطاءهم بعض الامتيازات ..

لذا قام هؤلاء المتطرفون بتشكيل ما عُرف باسم مجموعة الصفر عنيت بتصفية الراغبين في السلام ..

وبحلول أغسطس 1993 نجحت الأطراف المتحاربة بمعاونة الأمم المتحدة في التوصل إلى اتفاق سلام في أروشا بتنزانيا .. لكن ظل للمتشددين الهوتو الكلمة العليا في إفشال أي اتفاق سلام بتنظيم المظاهرات وارتكاب مذابح محدودة ضد المدنيين من التوتسي ، وقاموا بالتشكيك في وطنية موقعي الاتفاق ووصفوهم بالخونة والعملاء ..

ووصلت الأحداث إلى ذروتها في 6 أبريل 1994 ، عندما أسقطت طائرة مدنية كانت تحمل على متنها رئيسي رواندا وبوروندي **جوفينال هابياريمانا** و**سيبريان نيتاريااميرا** وكلاهما من الهوتو .. كانت جميع الشواهد تؤكد أن منفذي الاغتيال هم من الهوتو المتشددين الذين رفضوا التخاذل والتهاون الذي بدا على رئيسي الدولتين أثناء اتفاقات السلام مع قبيلة التوتسي ..

ومع ذلك ، وفور إعلان نبأ سقوط الطائرة – وتحديدا بعد 45 دقيقة فقط – سارع هؤلاء الهوتو المتطرفون إلى التصريح بأن القتلة من التوتسي ، وشنوا حملة تستهدف ذبح كل سكان التوتسي ..

اندلع الصراع من جديد وتمكنت الجبهة الوطنية التوتسية بمعاونة المعتدلين من الهوتو من السيطرة على العاصمة وتحقيق مكاسب عديدة في أماكن متفرقة من البلاد .. وجاء رد فعل ميليشيات الهوتو غاية في العنف ، فقاموا بتنفيذ عملية إبادة هائلة ضد التوتسي والهوتو المتعاطفين معهم ، وهو ما أسفر عن مقتل نحو مليون شخص ، وفرار مليونين إلى الدول المجاورة خلال أربعة أشهر فقط ..

هدأ الصراع تدريجيا بنجاح جبهة التوتسي الوطنية في السيطرة على الأوضاع ، وتم تشكيل حكومة جديدة وجري تعيين **باستور بيزيمنجو** رئيسا للجمهورية – وهو من الهوتو الذين يشكلون أغلبية السكان – بينما كان معظم أعضاء الحكومة ينتمون إلى الأقلية التوتسية ..

هدأ الصراع ، لكنه استغرق عددا من السنوات وصولا إلى الاستقرار .. وإن كان استقرارا وهميا ، إذ تتجدد الأزمات بين الحين والآخر كنتيجة طبيعية للنزاعات العرقية الضاربة في القدم ..

* * *

يبقى أن نشير إلى دور الولايات المتحدة أثناء ذلك الصراع ..

فعندما فشلت اتفاقيات السلام الرواندية مع نهاية عام 1993 ، أرسل الجنرال الكندي **روميو داليـر** قائد بعثة الأمم المتحدة في رواندا برقية إلى إدارة عمليات حفظ السلام في الأمم المتحدة يذكر فيها أن مصدرا خاصا أطلعه أن قوات الهوتو تقوم بتخزين كميات كبيرة من الأسلحة تمهيدا لارتكاب مذابح جماعية ضد التوتسي .. وطلب الجنرال **داليـر** الإذن له بمحاولة الاستيلاء على الأسلحة ، لكن إدارة عمليات حفظ السلام لم يكن في وسعها أن تأذن له بمثل ذلك الأمر ، لأن الأمم المتحدة لم تكن مفوضة بمثل هذه العمليات من قبل أعضاء مجلس الأمن ..

وفي اليوم التالي – 12 يناير 1994 – قام **داليـر** بإبلاغ سفراء بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة بما علمه من مصدره الخاص ، أي أن تلك الدول الثلاث كانت على علم مسبق بالمذبحة الوشيكة ، ولم يتحرك أحد مبكرا ، وإن كانت بلجيكا وفرنسا قد شاركتا فيما بعد في محاولة احتواء الموقف .. وفي 6 أبريل تم اغتيال الرئيس الرواندي وبدأت المذابح في نفس الليلة .. وفي 7 أبريل لجأت رئيسة رواندا المؤقتة **أجاثا ويلنجييمانا** إلى مجمع المباني التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، وفشلت قوات الأمم المتحدة البلجيكية الجنسية في حمايتها ، حيث قاموا باختطافها وقتلها ، كما قتلوا عشرة من القوات البلجيكية ..

وصلت القوات الفرنسية والبلجيكية إلى العاصمة كيجالي وقاموا بإخلاء المواطنين الأجانب وتجهيز عدة مناطق آمنة للنازحين من المدنيين الروانديين .. لكن حدث أن قررت القوات البلجيكية التي تشكل الجانب الأكبر من عملية الأمم المتحدة في رواندا أن تنسحب تحت ضغط الرأي العام المحلي بعد ذبح جنودها .. وفي 21 أبريل لم يبق من قوات الأمم المتحدة في رواندا سوى 270 فردا من أصل 2500 كانوا موجودين

وقت اشتعال الأزمة .. وجاءت الأنباء من كيجالي ترسم صورة قاتمة : " لا توجد كهرباء أو مياه ، وجثث الموتى ملقاة في الشوارع منذ أسبوعين ، تنهشها الكلاب عندما يحل الليل " ..

وفي 30 أبريل اجتمع مجلس الأمن لمدة ثماني ساعات لمناقشة الأزمة الرواندية .. وضغطت الولايات المتحدة بشدة حتى يصدر قرار إدانة مائع يشجب القتل ولا يشير إلى كلمة " الإبادة " ، وكان لدى المتحدثين باسم الولايات المتحدة تعليمات واضحة بتجنب استخدام هذه الكلمة .. فلو أن هذا المصطلح قد ذُكر ، لكانت الأمم المتحدة ملزمة قانونا للتحرك ومطاردة المتورطين في تلك الجريمة وفقا لاتفاقية عام 1949 الخاصة بإبادة الأجناس ..

وفي 3 مايو 1994 ، وفي أثناء استمرار مذابح الإبادة بشكل لا مثيل له ، فوجئت هيئة الأمم المتحدة التي كانت تبحث عن دعم أكبر لتفادي الكارثة ، كما فوجئ المجتمع الدولي بأكمله بالرئيس الأمريكي **كلينتون** يوقع قرار التوجيه الرئاسي رقم 13 ، وقد أعيد تسمية القرار بـ " وثيقة القرار الرئاسي رقم 25 " ، وقد حملت الوثيقة عنوان " سياسة إدارة **كلينتون** بشأن إصلاح عمليات السلام متعددة الأطراف " .. ويتلخص مضمون الوثيقة الأمريكية في رفض الولايات المتحدة التدخل في الصراعات الدولية إلا وفقا لشروط وقواعد تعجيزية خاصة فيما يتعلق بنطاق العمليات وأهدافها ومدتها ومواردها ومخاطرها ، بحيث لا يمكن عمليا أن تشارك الولايات المتحدة إلا في أسهل عمليات حفظ السلام وأقلها كلفة وأكثرها أمنا .. وفي اليوم التالي نشرت إحدى الصحف الأمريكية عنوانا رئيسيا يقول : " الولايات المتحدة تنفض أيديها من العالم " .. كان هذا الموقف الأمريكي ضربة قاصمة للأمم المتحدة ولأمينها العام الدكتور **بطرس غالي** الذي كان على خلاف مستمر مع الولايات المتحدة بسبب رغبتها في فرض سيطرتها وإرادتها على الأمم المتحدة ، كما مثّل الموقف تشجيعا ضمنيا لجميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بأن تتخلى عن مسئولياتها تجاه الأزمات العالمية ، طالما أن القوة العظمى الوحيدة على هذا الكوكب قد قررت أن تتجاهل دورها ..

وفي 9 مايو قدم **بطرس غالي** اقتراحا بتشكيل قوة من الأمم المتحدة في حدود خمسة آلاف شخص ما بين جنود وقوات دعم بهدف توفير المساندة اللازمة للنازحين والمساعدة في توصيل المعونات الإنسانية لمحتاجيها ..

وبعد يومين ، قامت السفيرة **مادلين أولبرايت** – سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة وقتذاك – بعرض موقف الولايات المتحدة من هذا الاقتراح ، فقالت : " إن لدينا تحفظات جدية بشأن الاقتراحات الرامية إلى إنشاء بعثة كبيرة لفرض السلام تمارس عملها في كل أنحاء رواندا ، وتتمثل مهمتها في إنهاء القتال وإعادة القانون والنظام وطمأنة السكان " !! ..

كان كل يوم يمر على رواندا يضاعف من عدد القتلى واللاجئين ، وكانت الأمم المتحدة تقف عاجزة عن الحركة بسبب التعنت الأمريكي الغريب .. كانت أمريكا تريد إفشال **بطرس غالي** في مهامه بغرض

الإطاحة به من منصبه ، كما كانت تبدو غير مهتمة بمئات ألوف يموتون بلا مردود اقتصادي مؤثر على مصالحها الخاصة في القارة الأفريقية ..

وفي 17 مايو اتخذ مجلس الأمن أخيرا القرار رقم 918 والذي ينص على زيادة قوة بعثة الأمم المتحدة إلى 5500 فرد .. ثم تدخلت الولايات المتحدة لتأجيل نشر القوة ودخلت في جدال عقيم مع الأمم المتحدة بشأن تكلفة تزويد قوات حفظ السلام بعربات مسلحة ..

وظهرت مشكلة جديدة أمام قوات الأمم المتحدة .. فقد كانت محطة إذاعة كيجالي المسماة " ألف تل " تحرض يوميا بقوة على إبادة التوتسي .. فطلب **بطرس غالي** من الولايات المتحدة أن تشوش على الرسائل الملتهبة لهذه الإذاعة الرواندية ، فردت الإدارة الأمريكية عليه بأن استخدام مثل هذه التكنولوجيا لعرقلة إرسال أوامر القتل عبر موجات الإذاعة سيكون باهظ التكلفة ..

نعم .. لم تجد الولايات المتحدة المعنى في إنفاق عدة آلاف من الدولارات من أجل إغاثة مئات الألوف من المذبوحين يوميا ..

ثم طلب **بطرس غالي** مجددا أن يقابل الرئيس **بيل كلينتون** لعله يقنعه بتغيير الموقف الأمريكي من الأزمة سواء بإرسال جنود أو بتقديم دعم مادي أو تكنولوجي ، وتمكن بعد مجهود شاق من مقابلته ، وعندما بدأ كلامه عن رواندا ، أجابه **كلينتون** في برود واقتضاب أنه إذا كانت هناك دول أخرى على استعداد لتوفير القوات لرواندا ، فستكون الولايات المتحدة على استعداد لنقل تلك القوات جوا إلى هناك ! ..

ثم انتقل في حديثه بسرعة إلى موضوعات أخرى ..

انتصف شهر يونيو 1994 ، وظلت الجهود الأمريكية ناجحة إلى أقصى درجة في منع نشر قوات الأمم المتحدة في رواندا ، وكانت تعاونها بريطانيا على ذلك .. وفي 19 يونيو طالب **بطرس غالي** مجلس الأمن بأن يُنظر جديا في العرض الفرنسي بالقيام بعملية منفردة لحماية المدنيين في رواندا ، على أن تبقى القوات الفرنسية إلى الوقت الذي تصبح فيه قوة الأمم المتحدة قادرة على تولي الأمور ، وبعد ثلاثة أيام نال **غالي** موافقة مجلس الأمن على العرض الفرنسي ..

وفي نفس الأسبوع بعث الجنرال **داليير** قائد بعثة الأمم المتحدة برسالة غاضبة إلى الأمين العام يقول فيها : " منذ صدور القرار 918 المؤرخ في 17 مايو 1994 ، كانت بعثة الأمم المتحدة في رواندا تنتظر بفارغ الصبر زيادة عددها حتى تتمكن من الانتشار ، وتساعد في وقف هذه المذابح .. ولم يكن رد الفعل غير الفعال للوفاء بالاحتياجات الحاسمة للبعثة شيئا أقل من فضيحة بمعنى الكلمة ، بل ويصل إلى حد الشعور بانعدام المسئولية وتعريض أفراد البعثة للخطر هنا في مسرح الأحداث .. وقد أسفر هذا بصورة مباشرة عن فقدان المزيد من الأرواح بين الروانديين وزيادة الإصابات بين جنودنا ، وبطبيعة الحال إضعاف المبادرة الفرنسية .. لقد كان من شأن بذل جهد مبكر وحازم لتوفير القوات والموارد على مسرح الأحداث ،

بمقتضى ولاية الأمم المتحدة ، أن يجنبنا كل هذا وأن ينقذ أرواحا عديدة .. وعند هذه النقطة يجد قائد القوة أن إرسال تحياته أمر متعذر " ..

وفي 23 يونيو بدأت المبادرة الفرنسية التي أطلق عليها عملية الفيروز ، وقام الفرنسيون بإرسال 2500 جندي لإنشاء منطقة إنسانية آمنة في جنوب غربي رواندا .. وفي أول أغسطس عاد **بطرس غالي** لبث شكواه لمجلس الأمن من عدم توفير الـ 5500 جندي المتفق عليهم في 17 مايو .. ولم يصل إلى نتيجة مع حكومات الدول التي كانت قد وعدت بإمداده بالجنود ، فقد تراجع معظمهم نتيجة للضغوط الأمريكية أو تأثرا بالموقف الأمريكي من الأزمة ..

كانت القوات الفرنسية قد بدأت في الانسحاب مع نهاية يوليو يائسة من الأوضاع المتدهورة وناقمة على سلبية الأمم المتحدة ، وفي مطلع أغسطس تمكنت الجبهة الوطنية الرواندية من فرض سيطرتها العسكرية على رواندا وتحولت المشكلة من أزمة إبادة إلى كارثة لاجئين حيث فر الكثيرين من الهوتو إلى زائير خوفا من الانتقام ..

* * *

راح مليون رواندي ضحية التوقيت الخاطئ ..

كانت الولايات المتحدة تنفق في المتوسط نحو مليار دولار في اليوم أثناء الحرب الباردة ضد الشيوعية ..

لكن الولايات المتحدة لم تجد سببا وجيها واحدا لإنفاق مليون دولار في السنة من أجل سلام أفريقيا ..

(40)
غـــانـا: كـالمـعتـاد !

لا تبتئس أيها الزعيم ! ..

إن النصر سيكون حليفك ، وسوف تكون مملكتك عظيمة يشيد بها الناس .. لقد أخبرتني الآلهة بذلك ..

ولكن ، هناك شرط واحد بالمقابل ، وهو أن تحتفظ بالكرسي الذهبي الذي سوف تمنحه إياك الآلهة ..

وطالما أن الكرسي في مأمن ، فإن السوء لن يصيب مملكة الأشانتي ..

ولكن حذار أن يلمس الكرسي الأرض ، فإن قوة الأشانتي تتمثل فيه ..

كانت هذه هي وصية الساحر العظيم **أنوتشي** إلى زعيم قبيلة الأشانتي الغانية **أوزاي توتو الأول** – مجتمعا بالقبيلة – في أعقاب انتصار قبيلة الفانتي أقوى قبائل غرب أفريقيا عليها في نهاية القرن السابع عشر .. وكانت هذه أسطورة تناقلتها الأبناء عن الآباء ، حيث تُستكمل الأحداث الأسطورية بأن ينتهي الساحر العظيم من سرد نبوءته فتضئ السماء ببرق يخطف الأبصار ثم تهطل أمطار غزيرة تكاد تفرق الجمع ، وإذا بالساحر **أنوتشي** يصرخ فيهم قائلا : " لا تتحركوا .. إن تحركتم ، فلن ينزل الكرسي المقدس " .. وينزل الكرسي المقدس ، وتتوالى انتصارات الأشانتي الذين حرصوا تمام الحرص على إخفاء مكان الكرسي الذهبي بعيدا عن أعين الأعداء ، وكانوا يصنعون لكل ملك يموت كرسيا ذهبيا جديدا يضعونه إلى جوار الكرسي المقدس ليستمد خليفته القوة والقداسة من الكرسي .. وكانت قوة مملكة الأشانتي – غانا حاليا – مستمدة من الإيمان بوجود كرسي ذهبي مقدس ..

ثم جاءت الطلائع الأولى من المستعمرين الإنجليز الذين أقاموا مراكز تجمع صغيرة على سواحل غانا بمساعدة قبيلة الفانتي التي قدمت خدماتها في مقابل التعاون من أجل القضاء على قبيلة الأشانتي .. ورغم الفارق الرهيب في السلاح والعتاد ، فإن الأشانتي أبدوا بطولات خارقة ونجحوا في الصمود أكثر من نصف قرن أمام التسليح الأوروبي المتقدم .. وهنا سمع الإنجليز بقيادة حاكمهم سير **تشارلز مكارثي** عن أسطورة الكرسي الذهبي وعرفوا أن إيمان القبيلة الأفريقية بعقيدتها أقوى من أمضى سلاح .. ثم تمكنوا بمعاونة أحد الخونة من معرفة المكان المجهول الذي تحتفظ فيه الأشانتي بكرسيها الذهبي .. لجأ الإنجليز إلى إشعال النار في القرية التي استقر فيها الكرسي وذلك بعد أن فشلوا في الاستيلاء عليه .. احترق الكرسي المقدس ، وانهارت مقاومة الأشانتي لتسقط المملكة في عام 1900 وتصبح أراضيها محمية بريطانية ..

* * *

استمرت غانا تحت الاحتلال البريطاني حتى نالت الحكم الذاتي عام 1954 ، وكانت حتى ذلك التاريخ تسمى ساحل الذهب ..

وفي مارس 1957 نالت غانا استقلالها ، ودخلت في إطار الكومونويلث البريطاني ، وتولى رئاستها **كوامي نكروما** ..

كان **نكروما** أحد أبطال القارة الأفريقية ، وكان زعيما لما يسمى بحزب الميثاق الشعبي الغاني الذي قام بتأسيسه في عام 1949 وكان يطالب بالحرية ، وقد دخل السجن عدة مرات بتهمة الشيوعية .. وخلال فترة اعتقاله حقق حزبه انتصارا كاسحا في انتخابات عام 1951 ، مما أجبر سلطة الاحتلال البريطانية على إخراجه من المعتقل مباشرة إلى رئاسة أول حكومة للسود .. وقد نجح بتزعمه للحركة الوطنية النشطة وبتهيؤ الظروف في فترة ما بعد الحرب العالمية في الحصول على الاستقلال لبلده ..

كان لـ **نكروما** تطلعات خاصة بالوحدة الأفريقية وكان يحلم بعصر من الرخاء والتقدم .. وفي السنوات الأولى من حكمه قام بتكليف مجموعة من الباحثين الأوروبيين بجمع معلومات عن شركات الاحتكار الأجنبية الكبرى التي قامت بالاستيلاء على موارد الثروات الطبيعية في أفريقيا وعن علاقة هذه المؤسسات العملاقة ببعضها البعض .. وكان شاغله الأول هو أن يكشف هؤلاء الطامعين الأجانب في السيطرة على موارد القارة السوداء ، وكان يطلق على ممارساتهم " العصر الثاني للعبودية " .. كما كان **نكروما** يلعب دورا نشيطا في إطار حركة دول عدم الانحياز ، وقام بتوقيع ميثاق للاتحاد مع غينيا بقيادة رئيسها **أحمد سيكيتوري** ، وانضمت إليهما مالي بقيادة **موديبو كيتا** فيما بعد ..

وفي عام 1965 انعقد مؤتمر القمة الأفريقي الثاني في عاصمة غانا – أكرا – .. وقد خرج المتابعين له بانطباع يشير إلى أن المؤتمر كان مظاهرة أفريقية جماعية صاخبة ضد مخططات السيطرة الأجنبية ..

* * *

وكالمعتاد ..

ظلت الولايات المتحدة تتابع نشاط **نكروما** المعادي بمزيج من الفتور والغضب .. وقد زاد من إثارة الموقف اتهام نظام حكمه بالشيوعية نظرا لارتباطاته الاقتصادية والسياسية بمجموعة كبيرة من دول الكتلة الشرقية والنظم اليسارية .. وكان يهدف **نكروما** من وراء ذلك تقليل الاعتماد على الغرب بتدعيم الروابط مع الاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا الشرقية ..

وفي أكتوبر 1965 قام الرئيس الغاني **كوامي نكروما** بنشر كتابه الشهير " الاستعمار الجديد – المرحلة الأخيرة من الإمبريالية Neo-Colonialism- the last stage of Imperialism " ، وقد أهداه إلى المناضلين من أجل الحرية في جميع أرجاء القارة الأفريقية ، الأحياء منهم والأموات .. وفي ذلك الكتاب حمّل نكروما المخابرات الأمريكية بشكل واضح ومباشر مسئولية العديد من الانتكاسات والأزمات في العالم الثالث وأوروبا الشرقية .. كما كتب لاحقا يقول : " إن الحكومة الأمريكية قد أرسلت لي مذكرة اعتراض ، وألحقتها برفض فوري لتقديم مساعدة قدرها 35 مليون دولار " ..

وفي فبراير 1966 – بعد أربعة أشهر من نشر الكتاب – أُطيح بـ **نكروما** عن طريق انقلاب عسكري بدعم من المخابرات الأمريكية . فقد استغلت المخابرات خوف بعض قادة الجيش والشرطة على نفوذهم نتيجة لجوء **نكروما** لإنشاء قوات عسكرية خاصة قد تقلص من سلطاتهم مع الوقت ، وكان هؤلاء القادة يطمحون في الحفاظ على مكانتهم وتدعيمها ..

كان **نكروما** عاجزا رغم بسالته ، حائرا رغم صلابته .. فقد بدا واضحا استحالة التحرر من سيطرة شركات الاحتكار ومصالح الدول الغربية في المنطقة .. وكان كافيا لإزاحته أن تريد الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا ذلك .. وجاءت الترتيبات بتنسيق انقلاب عسكري بقيادة رئيس أركانه السابق وتم نفي **نكروما** إلى الخارج .. أعاد النظام الجديد إفساح المجال لكبريات الشركات الغربية للعمل بكامل حريتها ، أما حرية غانا وضلوعها في قضايا التحرر الأفريقي والعالمي ، فقد توارت مع اختفاء **نكروما** ..

وفي أبريل 1972 توفي **نكروما** بإحدى مستشفيات رومانيا متأثرا بمرض السرطان .. وفي عام 1975 أقيم نصب تذكاري لتخليد ذكراه أمام مقر البرلمان الغاني بالعاصمة أكرا ..

وفي عام 1977 كشفت وثيقة للمخابرات الأمريكية – رُفعت عنها السرية – أن المخابرات الأمريكية كانت على اتصال وثيق مع المتآمرين العسكريين وأنها كانت تقدم تقارير دورية إلى المسئولين في واشنطن طوال العام الأخير من حكم **نكروما** عن خطط العسكريين للإطاحة به ، وكان آخر تقرير قبل الانقلاب بيوم واحد ..

وفي عام 1978 قام ضابط المخابرات الأمريكية الأسبق **جون ستوكويل** – الذي أمضى معظم سنوات عمله متنقلا في أرجاء القارة السوداء – بنشر كتاب بعنوان " بحثا عن أعداء " .. وقد كشف فيه النقاب عن تفاصيل الدور الأمريكي في تدمير **نكروما** .. أفصح **ستوكويل** عن منح مركز المخابرات في أكرا موازنة ضخمة للإنفاق المتواصل بغرض إنجاح العملية وأن أعضاء المركز قد حافظوا على علاقاتهم الوثيقة مع مدبري الانقلاب أثناء تدبيره وأنهم شاركوا في وضع الخطة وتمكنوا من التنسيق مع المتآمرين لتغطية النقص في بعض المعدات العسكرية السوفيتية عالية الجودة عن طريق الحكومة الأمريكية خلال الساعات الأولى من التحرك العسكري ..

وبعد نجاح العملية ، قدمت المخابرات الأمريكية مبلغ مائة ألف دولار للنظام الجديد بغرض الحصول على بعض المواد السوفيتية المصادرة ومنها ولاعة سجائر تعمل ككاميرا ! ..

وبعد أيام من الانقلاب ، قام القادة الغانيون الجدد بطرد أعداد كبيرة من الروس والصينيين والألمان الشرقيين العاملين في غانا ، وعادت الصناعات المملوكة للدولة إلى أيدي المنتفعين الأجانب .. وسرعان ما تدفقت معونات صندوق النقد الدولي والمساعادات الأمريكية – التي رفضت تقديمها قبل أشهر – لتدعيم مشاريع التنمية وسد الفجوة الغذائية ..

كالمعتاد ..

أعلنت الولايات المتحدة تعاطفها مع الشعب الغاني ولبت النداء الإنساني لانتشاله من أزماته الاقتصادية كدولة أفريقية ناشئة تبحث عن مرفأ .. وكان ذلك مشروطا وبالضرورة باختفاء الزعيم الوطني المخلص وأفكاره البايخة عن الاستقلال السياسي والحرية وعدم التفريط في موارد بلاده لناهبي بلاده ..

* * *

وفي مطلع الألفية الثالثة ، أجرت إذاعة البي بي سي الموجهة لأفريقيا اقتراعا على الشخصية الأفريقية للقرن العشرين ، وطلبت من مستمعيها الأفارقة أن يصوتوا لصالح " رجل القرن العشرين " .. وجاءت الإجابة بأن كوامي نكروما هو رجل أفريقيا الأول عن القرن العشرين ..

جاء ذلك برغم – وربما بسبب ! – ما فعلته به الولايات المتحدة مما عجل برحيله عن الدنيا ..

وتبقى الأسطورة ..

أفـــريـــقيـــا ؟ .. ليس بعد !

عطفا وإحسانا من أفريقيا الغنية إلى أوروبا الفقيرة ! ..

في 15 يوليو 1920 ، تسلم الملك **خاما الثالث** حاكم بتسوانا – وكانت محمية بريطانية تقع داخل أراضي جنوب أفريقيا – خطابا أتاه بالبريد من سيدة أوروبية تدعى **ماك جريجور** كانت تعمل على جمع الأموال لإنقاذ الجوعى في أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .. كانت **جريجور** تعيش في جنوب أفريقيا وكانت صديقة لزوجة المندوب السامي البريطاني لورد **بوكستون** ..

أرفقت السيدة بخطابها صورة تثير الشفقة لأم أوروبية تحتضن ابنها الهزيل الجائع ..

أما الخطاب فقد كتبت فيه تقول : " إلى الملك **خاما** ، إن الليدي **بوكستون** تسألني أن أجمع من المحمية معونة من أجل الأطفال الجوعى في أوروبا ، وإني أسألكم إن كان يمكنكم أن تساعدونا وكذلك شعبكم لإيقاف هذه المأساة البشعة .. إن آلافا من الأطفال الأبرياء يعانون من الجوع ويموتون من شدة احتياجهم للطعام ويتعرضون للبرد القارص ولا توجد ملابس ولا حتى خرق تحميهم .. إنه يبدو مرعبا التفكير في هذه المعاناة الأليمة التي يتكبدها أطفال فقراء لا حول لهم ولا قوة ، وفي أفريقيا لديهم كل ما يحتاجونه .. إنني أهيب بكرمكم لكي نتفادى أهوال هذا البؤس .. وأنا واثقة أنكم لن تصموا أذنيكم عن صيحات البائسين ونداءاتهم .. إن الرغبة ملحة وكبيرة وكل جنيه يمنحه ملك بستوانا الكريم ستعطي حكومة جنوب أفريقيا والحكومة البريطانية جنيها مثله .. إنني أرسل لكم صورة واحدة تريكم شقاء الأمهات ومعاناة الأطفال ، وهناك الآلاف من هؤلاء في الصرب وأرمينيا وبولندا وبلجيكا وشرق فرنسا وفي كل وسط أوروبا .. إنني أعرف أنكم وشعبكم سترسلون ما تستطيعون من أجل هؤلاء الأطفال المساكين وستستجيبون للنداء بأسرع ما يمكن ، لأن المحنة عظيمة .. المخلصة **ماك جريجور** " ..

تأثر الملك **خاما الثالث** 1875 – 1923 بشدة من هذه الرسالة الإنسانية ، وقام بمنح مبلغ ضخم من الجنيهات إلى صندوق الأطفال النمساويين الجوعى ..

* * *

صدقة وتفضلا من أوروبا الثرية على أفريقيا المعدمة ! ..

في نهاية القرن العشرين ووفقا لتقديرات البنك الدولي للإنشاء والتعمير ، فإن هناك تسع دول أفريقية من بين أفقر عشر دول في العالم .. فالدول الثماني الأكثر فقرا في العالم هي : موزمبيق ، إثيوبيا ، تنزانيا ، وبوروندي ، ومالاوي ، وتشاد ، ورواندا ، وسيراليون ، وتأتي النيجر في المركز العاشر – رغم وجود خام اليورانيوم النفيس في أراضيها !! – ..

وقد جاءت 30 دولة أفريقية ضمن الخمسين دولة ذات الدخول المنخفضة في العالم .. ووصل إجمالي الديون الخارجية على دول أفريقيا إلى نحو ربع تريليون دولار ، والتريليون ألف مليار ! ..

ومن أجل تغيير هذه الصورة القاتمة ، اجتمع زعماء الدول الأفريقية مؤخرا في منتصف عام 2005 بمدينة سرت الليبية ، وأنهوا اجتماعاتهم بمناشدة أوروبا الغنية إسقاط الديون لإنقاذ أفريقيا الفقيرة ! ..

* * *

وفي عام 1870 نشب نزاع سياسي بين كل من البرتغاليين والفرنسيين والبريطانيين على بعض المناطق الغنية في غينيا .. كان البريطانيون يدعون ملكيتهم للأراضي ، وكان الفرنسيون قد تسللوا إلى نفس تلك الأراضي قادمين إليها من السنغال المجاورة التي كانوا يحتلونها ، أما البرتغاليون فقد كانوا أول من وصل إلى المنطقة في سالف العصر ..

وجاء التحكيم الدولي الذي أجراه رئيس الولايات المتحدة رقم 18 **سيمبسون جرانت** لصالح البرتغاليين ..

* * *

وفي عام 1998 قام الرئيس الأمريكي رقم 42 **بيل كلينتون** بجولة واسعة زار فيها ست دول أفريقية هي : غانا وأوغندا ورواندا وجنوب أفريقيا وبتسوانا والسنغال .. وقد استغرقت 11 يوما ما بين مارس وأبريل من ذلك العام .. وركز فيها **كلينتون** على فتح أسواق جديدة أمام التجارة الخارجية الأمريكية وتشجيع الانتقال إلى الاقتصاد الحر في القارة الأفريقية ، كما أعلن في فخر وخيلاء عن إلغاء 30 مليون دولار من ديون قارة أفريقيا للولايات المتحدة والتي تبلغ 4.6 مليار دولار ! ..

كانت الحكومات الأمريكية حتى ما قبل زيارة **كلينتون** تضع مصير القارة الأفريقية في أيدي المخابرات من جهة والشركات الأمريكية العملاقة من جهة أخرى ، حتى أن وزير خارجية أمريكا الأسبق – في منتصف التسعينات – **وارين كريستوفر** لم يقم بزيارة أفريقيا مطلقا إلا قبل أسابيع من انتهاء فترة توليه منصبه ، وكان الغرض الرئيسي غير المعلن هو إقناع الدول الأفريقية بعدم التصويت لـ **بطرس غالي** في مجلس الأمن ، وإغراؤهم باختيار مرشح أفريقي آخر ..

غير أن الجديد في النزعة الأمريكية الآن هو العمل الجاد على تنظيف القارة الأفريقية تماما من مواردها الطبيعة ، حتى لا تعطي فرصة للمارد الصيني الجديد أو حتى للأصدقاء في أوروبا إلى التمتع بأي امتيازات إضافية .. وهكذا ، فهي لم تنته من الاغتصاب الفردي للقارة المنهكة بعد .. طردت أمريكا روسيا من أفريقيا في مرحلة سابقة ، وعملت على الحد من تأثير دول أوروبا الاستعمارية السابقة في أفريقيا ، ثم بقي الأهم وهو الإجهاز النهائي على كل ما يمكن الحصول عليه ..

كانت الولايات المتحدة تحصل على جميع احتياجاتها من الماس والكوبالت والليثيوم والبريليوم من أفريقيا ، كما كانت تحصل على ما يتراوح ما بين الربع إلى النصف من احتياجاتها من الأنتيمون والكروم والمنجنيز ، بالإضافة إلى كميات أساسية من المطاط والذهب واليورانيوم والبترول ..

وإذا كان البترول هو المحرك الرئيسي لدوافع الولايات المتحدة الإنسانية تجاه عدد من دول العالم التي تبغي أمريكا تخليصها من شرور أنفسها بإبادتها وتدميرها ، فإن البترول هو أيضا ما يدفع الولايات المتحدة

لتركز جهودها حول القارة الأفريقية بدرجة أكبر في المرحلة الراهنة ، مرحلة القطب الأوحد التي تدرك أمريكا أنها لن تستمر إلى الأبد ..

تقول الإحصائيات أن ليبيا صاحبة الاحتياطي الأكبر في القارة ، ولعل هذا ما يسهم مؤخرا في تحسن العلاقات الثنائية وتليها نيجيريا ثم الجزائر .. كما تشير البيانات إلى أن نيجيريا تحتل المركز الأول على مستوى القارة في الإنتاج السنوي للبترول ، ولعل هذا ما يفسر اغتيال **بولا إيجي** وزير العدل النيجيري المرشح لرئاسة الجمهورية في ديسمبر 2001 بواسطة مجهول في غرفته ، حيث كان يعارض الامتيازات الممنوحة لشركة إكسون موبيل وشركة شيفرون للطاقة والتي كانت **كونداليزا رايس** تتولى فيها أحد المناصب الرفيعة ..

* * *

يزداد الاهتمام الأمريكي بالقارة الأفريقية ، وهو ما يؤهلها بقوة للحفاظ على جميع مراكزها الأولى بين أكثر دول العالم فقرا ..

الشرق الأوسط : باطن الأرض وظاهرها

هكذا هو قدره ..

الشرق الأوسط ..

محل اهتمام ، مثار جدل ، قائم على صراعات ..

أرض الأنبياء ، ثم مطمع للمستعمرين ، ثم التزامن العجيب بين غرز إسرائيل شوكة في صدره واكتشاف البترول بوفرة في بطنه ..

* * *

باللاتينية " بيترا " تعني " صخر " ، و" أوليوم " تعني " زيت " ، ومنها جاءت كلمة بترول أو Petroleum، وبالفارسية " نافت " تعني " القابلية للسريان " ، ومنها اشتقت كلمة نفط ..

والبترول هو زيت خام ، سائل كثيف ، قابل للاشتعال ، بني اللون مع ميل خفيف إلى الاخضرار ، ويوجد في الطبقة العليا من القشرة الأرضية ..

كان البترول معروفا في العصور القديمة ، فكان الإغريق يستخدمون القار في إشعال الحرائق في أساطيل العدو .. وكان سكان شواطئ بحر قزوين يقدسون نيرانا أبدية لم يكن لها من مصدر سوى الغاز الطبيعي المنبعث من باطن الأرض .. كما كان البترول يتدفق من باطن الأرض إلى السطح ، ويسيل على وجه الماء مكونا العديد من البقاع البترولية الطافية في أنهار عديدة ..

أما أول بئر في التاريخ فقد تم حفره في الصين في القرن الرابع الميلادي .. وفي القرن الثامن كان يتم رصف الطرق الجديدة في بغداد باستخدام القار .. وفي القرن التاسع الميلادي كانت المرة الأولى في التاريخ التي يتم فيها إنتاج البترول بطريقة اقتصادية وذلك في حقول باكو عاصمة أذربيجان ، حيث كان يتم حفر حقول البترول واستخراجه بكميات وفيرة ، وهو ما وصفه الرحالة البرتغالي الشهير **ماركو بولو** أثناء مروره بتلك المناطق في القرن الثالث عشر ..

ويبدأ التاريخ الحديث للبترول في عام 1853 باكتشاف عملية تقطير البترول .. فقد تم تقطير البترول والحصول منه على الكيروسين بفضل العالم البولندي **إجناسي لوكاسفيز** .. وفي العام التالي تم إنشاء أول معمل تكرير (أو تقطير) في مدينة يولازوفايز البولندية عن طريق **لوكاسفيز** .. وسرعان ما ذاع أمر هذه الاكتشافات في جميع أنحاء العالم ..

وقد بدأت صناعة البترول في الولايات المتحدة في عام 1859 في ولاية بنسلفانيا باكتشاف الأمريكي **إدوين راك** للزيت بالقرب من مدينة تيتوسفيل ببنسلفانيا ..

وكان تزايد الطلب على البترول في تلك الآونة محدودا ومقترنا بحجم الاحتياج للكيروسين ومصابيح الزيت .. وبحلول القرن العشرين تضاعفت أهمية البترول بسبب استخدام محركات الاحتراق الداخلية وازدهار

الصناعة بصفة عامة مما رسخ الاحتياج المتزايد للبترول في الدول الصناعية الكبرى حول العالم .. وبعد أعوام قليلة من بداية القرن العشرين كانت حقول البترول قد اكتشفت في أماكن متفرقة من العالم القديم والجديد في إيران وفنزويلا والمكسيك .. كانت عوامل الصراع بين الدول الكبرى قائمة بشدة في مطلع القرن الجديد ، وكانت دوافع السيطرة على الأراضي والموارد مهيمنة على أفكار حاكميها ..

وكانت ألمانيا إحدى الدول التي عانت في تلك المرحلة من خسارة عدد من مستعمراتها ومن تراجع وزنها العالمي إلى حد ما .. وهو ما دفع السياسة الألمانية إلى أن تتوجه بأنظارها صوب الشرق الأوسط طمعا في السيطرة على أراض جديدة ومزاحمة الأسد البريطاني في مناطق نفوذه المتعددة .. وجاء التطور الصناعي ومستجدات التصنيع الحديث ليساهم في رسم خطة طموح في الدخول إلى المنطقة العربية بلا جيش أو سلاح .. فقد أخرجت ألمانيا من جعبتها مشروع إنشائي ضخم يهدف إلى مد خطوط السكك الحديدية ما بين برلين وبغداد ، وكان هذا المشروع الخطير ينطوى على اعتبارات عسكرية ، فالسكة الحديدية كانت ستمكن ألمانيا من نقل قواتها إلى قلب الشرق الأوسط بسرعة تفوق سرعة بريطانيا في نقل قواتها عبر أساطيلها البحرية المنتشرة ، في حالة إذا ما نشبت الحرب ..

وبالصدفة البحتة ، أدى هذا المشروع الألماني الهادف بالأساس إلى التسريع في نقل وحشد القوات إلى أرض الشرق أرض معارك مستقبلية محتملة إلى إزاحة الستار عن كنوز عظيمة مدفونة تحت الرمال .. فقد حدث أن قام المهندسون الألمان بزيارة لمدينة الموصل في شمال العراق من أجل بدء عمليات المسح الضرورية لمد خطوط السكة الحديد ، وأثناء الزيارة لاحظ أحد المهندسين وجود منطقة يطفح منها البترول بكميات كبيرة على سطح الأرض .. قامت البعثة الألمانية بإبلاغ الحكومة التركية – العراق كان لم يزل إحدى الولايات التابعة للدولة العثمانية – .. أبدت الحكومة التركية اهتمامها بالمسألة ، وكلفت رجل الأعمال الأرمني **كالوستا زكي كولبنكيان** بإجراء عمليات مسح شاملة لتقصي الأمر .. وكان الأرمني أحد خبراء البترول الذين عملوا مبكرا في ذلك المجال بالتنقيب عن البترول بأذربيجان على بحر قزوين ..

وصلت أنباء البترول المكتشف في الموصل إلى الإمبراطورية الفارسية التي داعبتها أحلام أن تكون البلاد غنية هي الأخرى بالبترول ، خاصة وأن الأراضي الإيرانية تعد امتدادا طبيعيا للأراضي العراقية الملاصقة ولا يفصل بينهما سوى سلسلة من الجبال .. سافر أحد المسئولين الإيرانيين إلى لندن وعاد ومعه المغامر البريطاني الشهير **ويليام نوكس دي أركي** الذي اشتهر باكتشافاته المدوية لمناجم الذهب في أستراليا .. جاء **دي أركي** وقابل الشاه **مظفر الدين** ، ولقاء 20 ألف جنيه استرليني حصل على حقوق التنقيب عن البترول في الجنوب الغربي من إيران ، ليشهد عام 1902 أولى عمليات الحفر الرسمية في تاريخ الشرق الأوسط .. لم تسفر سنوات التنقيب الأولى عن نجاح يذكر .. ولكن في 26 مايو 1908 جاءت عملية الحفر في منطقة مسجد سليمان لتحقق نجاحا باهرا ، إذ تدفق البترول على شكل نافورة بلغ ارتفاعها نحو 160

مترا وسط صيحات الرجال المنتشين بحلاوة الإنجاز ، ليصرخ أحد هؤلاء الرجال في حماس قائلا : " من الآن فصاعدا ، سيتغير العالم تغييرا جوهريا " ..

ولم تبتعد العبارة كثيرا عما أتى به المستقبل .. مستقبل الشرق الأوسط ..

كان ذلك اليوم من شهر مايو 1908 هو يوم تغيرت فيه معالم الخريطة النفطية على مستوى العالم .. فبهذا الاكتشاف الجديد تصدرت إيران قائمة الدول المنتجة للبترول وحازت على ما يقرب من نصف بترول العالم المكتشف حتى ذلك الحين ..

جذبت هذه الأحداث **ونستون تشرشل** – المسئول آنذاك عن الأسطول البريطاني – .. وقرر أنه من الواجب أن تسيطر بلاده على منابع البترول المكتشفة حديثا في إيران ، وكان له أكثر من دافع .. فمن ناحية ، كان يخشى أن يدخل الشرق الأوسط ضمن أطماع القيصرية الروسية ، كما كان يشك في أهداف المشروع الألماني لربط برلين ببغداد عبر السكك الحديدية .. ومن ناحية أخرى ، كان الأسطول البريطاني في حاجة ماسة للتخلي عن استخدام الفحم والاستعاضة عنه بالبترول الأكثر فاعلية ..

قام **تشرشل** بإقناع حكومته بحتمية المشاركة الجادة في مشروع البريطاني **دي أركي** بنسبة 50 % ، ونجحت مساعيه مع بدء الحرب العالمية الأولى في صيف 1914 لتأسيس شركة البترول الإنجليزية الفارسية Anglo-Persian Oil Company والتي تطورت لاحقا إلى شركة البترول الشهيرة British Petroleum (BP) ..

* * *

انتهت الحرب العالمية الأولى ، ولم يعد العالم بعدها كما كان قبلها ..

انتصرت بريطانيا وفرنسا بمساندة أمريكية متأخرة .. انهزمت ألمانيا وذهبت أطماعها أدراج الرياح .. اختفت الدولة العثمانية وتوزعت ولاياتها العربية بين الحلفاء الأوروبيين .. وأخيرا ظهرت الحاجة الشديدة للبترول كمصدر للطاقة لا غنى عنه في الحرب والسلم ..

بعد انتهاء الحرب في عام 1918 ، أحكمت بريطانيا سيطرتها على البترول العراقي بعد أن استولت على حصص ألمانيا فيه ، وتحولت شركة البترول التركية Turkish Petroleum Company (TPC) إلى شركة البترول العراقية Iraqi Petroleum Company (IPC) ، وكان أبرز المساهمين في الشركة هم شركة البترول البريطانية وشركة رويال دانش شل وشركة إكسون بالإضافة إلى شركة البترول الفرنسية ..

ثم ظهرت مشكلة غريبة ..

فقد كانت الاتفاقية المعقودة بين هذه الشركات تمنع انفراد طرف واحد بالعمل منفردا على استغلال البترول في المنطقة المشتركة Area of Mutual Interest ، وهو ما كان يمثل قيدا مزعجا يمنع الشركات من بسط نفوذها على أراضي الشرق الأوسط ..

ثم ظهرت مشكلة أغرب ..

كانت الاتفاقية تمنع الاستغلال الفردي للأراضي الواقعة داخل نطاق الاتفاق وهي الأراضي التي كانت تتبع الدولة العثمانية السابقة .. وتعقد الموقف عندما نشب خلاف بين الجميع حول حدود الدولة العثمانية ذاتها .. وهنا ظهر الحل الأكثر غرابة ..

فقد أخرج الأرمني **كولبنكيان** خلال احتدام الصراع المتعدد الأطراف قلما أحمر من جيبه ، وأعلن على الملأ أنه بصفته أرمنيا فهو أعلم الحاضرين بحدود الدولة العثمانية ، وراح يرسم خطا أحمر على الخريطة يوضح فيها حدود تلك الدولة التي خلت من إمارة الكويت ومشيخات العرب المتناثرة على الخليج العربي إضافة إلى إيران ومصر ..

ثم نجحت بريطانيا في التفاوض مع بعض شيوخ قبائل العرب على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، لتنال حق امتياز التنقيب عن البترول مقابل مبالغ زهيدة جدا حيث كانت القبائل العربية تعاني من الفقر والحرمان وتسكن مناطق منعزلة عن بعضها البعض وهو ما كان يحول دون توحيد كلمتها ومصالحها في مواجهة احتلال غربي للموارد الطبيعية ..

وفي 25 أبريل 1920 وقعت فرنسا وبريطانيا اتفاق مؤتمر سان ريمو الذي وضع المستطيل العربي الواقع بين البحر المتوسط وحدود إيران تحت الانتداب وتم تقسيم المنطقة فيما بينهما .. وفي 27 أبريل وقعت الدولتان اتفاقا آخر – سريا هذه المرة – في مدينة سان ريمو أيضا لتوزيع الثروة البترولية المحتمل العثور عليها في المنطقة .. وكانت هذه الاتفاقية قد استثنت إيران ، لأن الامتياز الذي كانت شركة BP قد حصلت عليه ظل ساري المفعول ..

علمت الولايات المتحدة بأمر هذه الاتفاقية السرية بشأن البترول ، وفوضت رجل الأعمال الأمريكي الأشهر ورجل البترول الأول على مستوى العالم **جون د. روكفلر** بالتصرف حيال هذه الأزمة .. وكان **روكفلر** يدرك أهمية البترول بالنسبة للاقتصاد الأمريكي وعرف في وقت مبكر أن الاحتياطي الوطني من البترول لن يسد حاجة البلاد إلى أجل غير مسمى .. قررت الولايات المتحدة عدم الرضوخ لما تم الاتفاق عليه بين دولتي أوروبا الكبيرتين .. وتم التوصل إلى حل دبلوماسي تقوم بمقتضاه حكومة الولايات المتحدة بتعزيز الموقف البريطاني في الشرق الاوسط في مقابل مراعاة المصالح البترولية الأمريكية ، وكان **آلان دالاس** رئيس قسم الشرق الأوسط آنذاك في مقدمة المسئولين عن متابعة تحقيق هذا الحل الدبلوماسي ..

وفي عام 1925 جاء إلى المنطقة مقامر جديد هو النيوزيلندي **فرانك هولمز** الذي كان قد أجرى مفاوضات مكثفة للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في ظل منافسة شديدة بين الأمريكيين والإنجليز .. تركزت اهتمامات **هولمز** على البلدان الواقعة خارج الخط الأحمر وعلى شركتي البترول الأمريكيتين جولف أويل وستاندارد أويل كاليفورنيا "سوكال" (شيفرون حاليا) اللتين لم تكن لهما حصة في شركة البترول العراقية أصلا ..

وحقق **هولمز** نجاحه الأول في البحرين إذ حصل على امتياز للتنقيب عن البترول في مقابل قيامه بحفر بئر ماء لشيخ العرب ! ..

وفي مايو 1932 أسفرت عمليات التنقيب عن العثور على كميات وفيرة من البترول في البحرين ..

ثم عاد الصراع الأمريكي البريطاني ليشتعل من جديد لإحكام السيطرة على إمارة الكويت .. ثم استقرا في النهاية على التعاون بين شركة جولف أويل الأمريكية وشركة بريتيش بيتروليوم الإنجليزية ، فتحالفتا من خلال تأسيسهما شركة البترول الكويتية Kuwait Oil Company (KOC) .. وفي ديسمبر 1934 وقع الأمير الكويتي على عقد الامتياز .. وفي عام 1938 تم اكتشاف حقل البرقان وفي باطنه 60 مليار برميل بترول ، وهو ثاني أكبر حقل على مستوى العالم ..

تزامنت تلك الأحداث مع الدخول الأمريكي إلى المنطقة ، وتحديدا إلى السعودية من خلال اتفاقيات بترول وعقود امتياز ..

* * *

ومع نشوب الحرب العالمية الثانية خشي الإنجليز من احتمال تعرض الشرق الأوسط للاجتياح الألماني الرهيب فقاموا بإعداد خطة لتدمير آبار البترول ، بل وقاموا فعلا بصب الأسمنت في بعض آبار البترول بالكويت على أن يكونوا على أهبة الاستعداد لتدميرها تماما إذا ما وصل الجيش الألماني إليها .. وباستمرار الحرب زادت أهمية الشرق الأوسط كمصدر رئيسي للطاقة الرئيسية على وجه الأرض ..

وبدأ الإنجليز يشكون في نوايا الأمريكان حيال بترول الشرق الأوسط ، حتى أن اللورد **بيفر بروك** صاحب الصحف البريطاني الشهير أخبر رئيس الوزراء البريطاني **ونستون تشرشل** قبيل نهاية الحرب قائلا : " إن البترول هو الثروة الوحيدة الباقية لنا بعد الحرب العالمية ، ويجب أن نرتضي اقتسامها مع الأمريكان " ..

ومع اقتراب الحرب من نهايتها استدعى الرئيس الأمريكي **روزفلت** اللورد **هاليفاكس** سفير بريطانيا في الولايات المتحدة ، وعندما دخل عليه في مكتبه ، أشار روزفلت إلى الخريطة من خلفه وقال في وضوح لا يخلو من غلظة : " إن النفط الإيراني لكم ، لكننا سنشترك معا في تقاسم بترول المنطقة " ..

وقد كان ما أراده الرئيس الأمريكي ، وأكثر منه ..

ففي عام 1946 كان نصيب الولايات المتحدة من بترول الخليج لا يتعدى 3.35% ، وبنهاية عام 1953 ارتفعت حصة الولايات المتحدة لتصل إلى 58.4% ، بعد السيطرة على بترول السعودية والاستيلاء على بترول إيران بدلا من بريطانيا التي هبط نصيبها من بترول الخليج من 50% إلى 28% .. وقد جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية لتترك بصماتها الواضحة على طبيعة الدور الأمريكي في الشرق الأوسط ، والذي لم يعد يحركه بالأساس سوى رائحة البترول أينما فاحت ..

وتتلخص نظرة الولايات المتحدة إلى المنطقة في عبارتين .. الأولى للمدير التنفيذي بشركة بترول نيوجيرسي الذي وصف الوضع العالمي في عام 1946 قائلا : " إن الولايات المتحدة ملزمة بتولي

المسئولية عن حملة الأسهم في هذه الشركة الكبيرة التي تسمى العالم " .. والأخرى تصريح صدر عن عضو مجلس الشيوخ الأمريكي في أوائل الخمسينات **كيفوفر** الذي قال في شفافية بالغة : " نحن نعلم أنه لا يمكن الفصل بين الشرق الأوسط والبترول .. فالاثنان كيان متكامل لا يمكن تجزئته ، حتى أن المناقشة الحكيمة التي تتناول الواحد منها لا يمكن أن نتابعها دون فهم الآخر " ..

* * *

وبدءا من عام 1950 كان إنتاج البترول يرتفع بشكل كبير ، فقط ظل يزيد بمعدل 7% سنويا طوال العشرين سنة التالية ..

تزامنت زيادة الإنتاج مع انخفاض أسعار البترول ، خاصة وأن الاتحاد السوفيتي كان يدفع بالمزيد من إنتاجه إلى الأسواق العالمية عبر صفقات مقايضة ، هادفا بذلك أن يجعل أوروبا تعتمد عليه مما يضعف الناتو .. حاولت الشركات الأمريكية والأوروبية أن تنافس الأسعار السوفيتية ، فقامت BP بتخفيض سعرها بنسبة 10% في عام 1959 ، وتلتها شركة ستاندارد نيوجيرسي بتخفيض السعر بنسبة 7% في العام التالي .. لجأت شركات الغرب إلى ذلك التخفيض دون استشارة الدول المصدرة ودون إعلامها مسبقا ..

كانت الهيمنة على سوق البترول بيد سبع شركات عالمية – سميت وقتها بالشقيقات السبع – ، وكانت هذه الشركات قد دأبت على تحميل الدول المنتجة للبترول الخسائر التي كانت تتكبدها بسبب استمرار التراجع في أسعار البترول الناتج عن تفوق العرض على الطلب ..

وكانت الدول العربية تعتمد اعتمادا كليا على العوائد المالية التي كانت تصل إليها من الشركات العملاقة التي تحفر في أرضها وتستولي على بترولها في مقابل نسبة من الإيراد ، إذ لم يكن لدى العرب أي مصدر دخل تتكسب من خلاله العملة الصعبة سوى عوائد البترول ..

وقد أدى موقف الشركات غير العادل تجاه تحميل الدول المنتجة للخسائر الناجمة عن انخفاض الطلب والسعر إلى ازدياد التبرم من قبل الحكومات العربية التي كانت تعاني ضغطا شعبيا كبيرا يطالبها بالتصدي للشركات الغربية وتأميم البترول ..

ومن هنا جاءت فكرة إنشاء منظمة الأوبك التي تبادرت إلى ذهن وزير البترول الفنزويلي **ألفونسو بيريز** الذي قام بعرض أفكاره على نظرائه في كبرى دول العالم الثالث المنتجة للبترول ولاقى تأييدا واسعا .. وفي 10 سبتمبر 1960 اجتمع مندوبون من السعودية وفنزويلا والكويت والعراق وإيران في بغداد وحضرت قطر بصفة مراقب ، واتخذوا قرارا بالرد العملي على ممارسات الشركات العالمية بتأسيس منظمة الدول المصدرة للبترول أوبك والتي كانت تهدف إلى الحفاظ على سعر البترول وانتهاج سياسة موحدة في السوق العالمية ، وأصبح لزاما على الشركات أن تستشير الدول بشأن الأسعار ، خاصة وأن الدول الخمس المؤسسة للمنظمة كانت تمثل 80% من صادرات البترول الخام على مستوى العالم .. وقد

اتخذت المنظمة من العاصمة النمساوية فيينا مقرا لها ، ثم زاد عدد الأعضاء مع الوقت إلى 13 دولة بعد انضمام كل من الجزائر والإكوادور والجابون وإندونيسيا وقطر وليبيا ونيجيريا والإمارات تباعا ..

وفي أعقاب هزيمة 1967 تم استخدام سلاح البترول للمرة الأولى .. فقد اجتمع وزراء بترول السعودية والكويت والعراق وليبيا والجزائر واتفقوا على إيقاف شحن البترول إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية .. ثم قام وزير البترول السعودي **أحمد زكي اليماني** بإبلاغ شركة أرامكو العاملة في السعودية بالقرار وهدد بأن الشركة ستكون مسئولة إذا وصلت قطرة بترول واحدة إلى الدول الثلاث ..

وجاء رد فعل الدول الغربية ، بأن نسقت الموقف فيما بينها ، فصار البترول القادم من الدول العربية يذهب إلى الدول الغربية غير المحظورة ، أما البترول القادم من الدول غير العربية فكان يذهب إلى الدول الثلاث المحظورة ! ..

وبعد أقل من خمسة أسابيع هدأت الحماسة العربية ، واختفى الوعيد .. وعادت الأمور إلى سابق العهد ..

وفي عام 1971 تمكنت منظمة الأوبك للمرة الأولى من رفع سعر البترول في السوق العالمية ، خاصة بعد ارتفاع الطلب عليه ..

وبعد انتصار 1973 عاد سلاح البترول للظهور من جديد ، وإن كان بشكل أكثر فاعلية ، خاصة بعد أن تزايد اعتماد العالم على البترول العربي من 19 مليون برميل يوميا في منتصف الستينات إلى 44 مليون برميل قبل حرب أكتوبر ، ليعلن العرب حظر تصدير البترول إلى الولايات المتحدة وهولندا ..

وفي 15 أكتوبر 1973 أعلنت ست دول عربية تابعة لمنظمة الدول العربية المصدرة للبترول أوابك زيادة سعر البترول بنسبة 70% ليرتفع السعر إلى 5.12 دولارا للبرميل بعد أن كان أقل من دولارين حتى عام 1970 .. كما وافق وزراء العرب على تخفيض الإنتاج بنسبة 50% ومواصلة التخفيض 5% شهريا إلى حين تحقيق الأهداف السياسية للعرب ..

وفي 23 نوفمبر امتد الحظر ليشمل البرتغال وروديسيا (زيمبابوي) وجنوب أفريقيا .. وفي نهاية العام ارتفع السعر إلى 11.65 دولارا للبرميل بعد اجتماع لدول الأوبك في طهران ، فيما عرف في التاريخ بالأزمة النفطية الأولى ..

وفي 18 مارس 1974 قررت الدول العربية فيما عدا ليبيا إلغاء الحظر المفروض على الولايات المتحدة .. عاد الهدوء من جديد لأسواق البترول ، ثم ارتفعت الأسعار مجددا في نهاية عقد السبعينات وبداية عقد الثمانينات بسبب الثورة الإيرانية ضد حكم الشاه في مطلع عام 1979 ثم اندلاع حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران في سبتمبر 1980 لتصل إلى نحو الأربعين دولارا ، فيما سمي بالأزمة النفطية الثانية ..

وفي منتصف الثمانينات تدهورت الأسعار بشدة ، حتى أنها قد تأرجحت ما بين 10 إلى 15 دولارا .. وفي أوائل التسعينات عادت لترتفع فوق مستوى 30 دولارا للبرميل تزامنا مع نشوب حرب الخليج الثانية والاحتلال العراقي للكويت ، وتوقف البلدين عن ضخ البترول ..

وفي أواخر التسعينات هبطت الأسعار إلى أقل مستوياتها منذ منتصف الثمانينات بسبب عودة العراق إلى السوق العالمي عن طريق برنامج النفط مقابل الغذاء وزيادة المعروض في مقابل نقص الطلب الأسيوي على البترول بعد أزمات جنوب شرق أسيا التي تسببت في ركود اقتصادي .. ومع تجاوز النمور الأسيوية لأزماتها وخفض الأوبك لإنتاجها من البترول ارتفعت الأسعار مرة أخرى إلى مستوى الثلاثين دولارا ، لكنها عادت للانخفاض إلى ما دون العشرين دولارا في أعقاب أحداث سبتمبر 2001 بسبب تزايد المخاوف من حدوث انكماش في الاقتصاد العالمي .. ومنذ الغزو الأمريكي للعراق في مارس 2003 لم تعرف أسعار البترول سوى الصعود المتواصل حتى شارفت السبعين دولارا في منتصف 2005 ، وذلك بسبب التوتر القائم في الشرق الأوسط والنمو الرهيب في الطلب الصيني على البترول إضافة إلى عدم الاستقرار السياسي في فنزويلا على فترات ثم توج ذلك كله سلسلة من الأعاصير في الولايات المتحدة أدت إلى توقف الإنتاج في خليج المكسيك ..

* * *

بشكل تدريجي ، تزايد استهلاك البترول في العالم في المائة سنة الماضية ..

فقد زاد من 2 مليون برميل يوميا في بداية القرن العشرين إلى 8 مليون برميل في منتصف القرن إلى 40 مليون في عام 1970 إلى 60 مليون في عام 1980 إلى 70 مليون في عام 1995 وتجاوز الـ 80 مليون برميل يوميا في العام الحالي مع التزايد المحموم للطلب الصيني على البترول لتصبح ثاني أكبر مستهلك في العالم بعد الولايات المتحدة .. وبشكل تدريجي ، يزداد الاهتمام العالمي بالشرق الأوسط عبر المائة سنة الماضية كلما ازداد استهلاك البترول وكلما شعر العالم بالخطر من احتمالات نضوبه القادمة لا ريب ..

حقائق عدة تنبئ باشتعال الصراعات وارتفاعات قادمة في أسعار البترول :

- تمثل احتياطيات النفط في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا نحو 70 % من إجمالي الاحتياطي العالمي ، أي حوالي 700 مليار برميل من إجمالي ألف ومائة مليار على مستوى العالم ، وتتركز نصف هذه النسبة في أربع دول خليجية هي السعودية والعراق والكويت وإيران ، ولدى السعودية وحدها ربع الاحتياطي العالمي من البترول ..
- من المتوقع أن يرتفع عدد سكان كوكب الأرض إلى نحو عشرة مليارات نسمة في عام 2050 ، وسيتركز هذا النمو السكاني في الدول النامية ، وتشير التقديرات إلى أن استهلاك الطاقة سيرتفع في الصين والهند في الأربعين عاما المقبلة إلى أربعة أضعاف الوضع الحالي ..
- في الوقت الراهن يوجد ما يزيد على 43 ألف حقل بترول مكتشف على مستوى الكرة الأرضية ، إلا أن الأربعمائة الكبرى منها تحتوي على 75% من المجموع الكلي للاحتياطيات ، مع الأخذ في الاعتبار أن غالبية الحقول الكبرى قد اكتشفت قبل ما يزيد على ثلاثين عاما ، حيث قدرت الاكتشافات البترولية في الستينات بنحو 40 مليار برميل سنويا آخذة في التراجع منذ ذلك الحين ،

وهو ما يعني أن العلم الحديث لم يستطع مؤخرا أن يكشف عن أماكن جديدة عامرة بالبترول .. وكان بحر الشمال بما يحتوي من احتياطي يقدر بنحو 60 مليار برميل هو أكبر اكتشاف بترولي في الخمسين سنة الماضية ..

- كمية البترول المتوقع اكتشافها مستقبلا على مستوى العالم تبلغ نحو 144 مليار برميل ، منها في دول الخليج العربي 43 مليار برميل ، تليها في المرتبة الثانية دول الاتحاد السوفيتي السابق حول بحر قزوين ..
- يبلغ الاستهلاك السنوي للبترول نحو 27 مليار برميل ، علما بأن معظم البترول الكامن في جوف الأرض قد تم اكتشافه ، وهو ما يعني أن البترول الذي سيستهلكه سكان الأرض اعتبارا من بضع سنوات قليلة مقبلة لن يكون في الإمكان تعويضه من خلال اكتشاف حقول جديدة ، وبعبارة أدق فإن البشرية أوشكت على الاستهلاك من رأسمال غير متجدد ..

هي مجموعة من الحقائق المفزعة التي تفسر كثيرا مما يحدث حولنا ، ومما سوف يحدث لاحقا ..

(41)
السعودية : علاقة بتروسياسية !

هو فصل يتسم بخصوصية شديدة جدا ..

هي علاقة معقدة ، لكنها سهلت على أمريكا حياتها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ..

لسنا بصدد عدوان أمريكي على السعودية ، لكننا بصدد استغلال دولة لبلد ما باتفاق كامل بين الطرفين على مزاولة السذاجة التاريخية بمنتهى الوعي السياسي ! ..

* * *

على اسمه سميت ، ولولاه ما كانت ..

هو الملك **عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود** مؤسس الدولة السعودية ، والشخصية المحورية في تاريخها ..

لكن ، دعونا نعود قليلا إلى ما قبل **سعود** ونتعرف على ملابسات البداية ..

منذ فجر الإسلام وحياة الناس في شبه الجزيرة العربية تعتمد على الرعي والتجمع حول مناطق الواحات حيث تتوفر المياه في بعض أرجاء الحجاز ونجد ، وكان البعض يعتمد على عوائد الحج في مكة وما حولها ، وعلى التجارة مع جزر الهند الشرقية ودويلات المحيط الهندي وجنوب أسيا .. وفي السنوات الأولى من القرن السادس عشر آلت شبه الجزيرة العربية إلى حكم الدولة العثمانية ، لكنها لم تكن تسيطر سوى على المناطق الغربية المجاورة للبحر الأحمر وعلى طرق الحجاج من الشام ومصر إلى مكة والمدينة ، أما المنطقة الشرقية بالكامل فلم تخضع لسلطانها الفعلي ..

وقبل أن ينتصف القرن السادس عشر ، كان المغامرون والتجار قد بدأوا يفدون من أوروبا .. وصل البرتغاليون أولا ، وتلاهم الإنجليز والهولنديون والفرنسيون في القرنين السابع والثامن عشر .. وبحلول القرن التاسع عشر تمكنت بريطانيا من تصفية الوجود الأوروبي على ساحل الجزيرة العربية الشرقي ، وامتد نفوذها بطول سواحلها بعقد معاهدات مع المشيخات العربية على امتداد الساحل الشرقي .. حدث ذلك مع بقاء الجزيرة العربية اسما تابعة للعثمانيين وفعلا لم يكن يسيطر العثمانيون إلا على منطقة الحجاز ..

كانت الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية تخلو من أي جديد منذ فترات طويلة ، وكان الإسلام يعاني من بعض التراجع وانطفأ لمعانه القديم الذي ملأ الدنيا إشعاعا قبل قرون .. وكان من الطبيعي أن تظهر بعض الحركات الإصلاحية ، وكانت أقواها على يد **محمد بن عبد الوهاب** (1703-1792) الذي نجح في اجتذاب أتباع كثيرين منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وكانت نجد مركزا للدعوة الوهابية وكانت قبيلة آل سعود من أشد المؤمنين بالدعوة الوهابية ، حتى أن **محمد بن عبد الوهاب** لجأ إلى الأمير **محمد بن سعود** أمير الدرعية الذي قام بحمايته ونشر دعوته بعد أن أصبح من كبار المؤمنين بها ..

انتشرت تعاليم الدعوة الوهابية في جهات متفرقة من الجزيرة العربية ، وتحالف الدين مع الدولة ، ليحكم الوهابيون والسعوديون منطقة الحجاز لتنشأ ما يعرف في التاريخ بالدولة السعودية الأولى (1747-1811) .. لم تنعم الحركة الوهابية بالاستقرار طويلا ، فقد أثارت غضب خليفة المسلمين السلطان العثماني الذي طلب من الوالي **محمد علي** حاكم مصر أن يتدخل للقضاء على الوهابيين ، فقام **محمد علي** بإرسال ابنه **إبراهيم** على رأس حملة عسكرية إلى الجزيرة العربية ونجح في تشتيت أتباع الوهابية حتى عام 1835 ..

تمكن الوهابيون من استعادة نفوذهم في نجد ، وعاد آل سعود إلى حكم الحجاز فيما أسماه التاريخ بالدولة السعودية الثانية (1841-1892) ..

كانت المشكلة الرئيسية التي تواجه آل سعود أنهم بحمايتهم للحركة الوهابية ومحاولة نشرها دخلوا في نزاعات كبيرة مع القبائل العربية الأخرى في شبه الجزيرة .. وبعد خمسين سنة من قيام دولتهم الثانية نجح أمير حائل الأمير **ابن رشيد** في احتلال منطقة الرياض مركز نفوذ آل سعود وتشريدهم في سائر أنحاء الجزيرة العربية ..

وفي عام 1891 فر زعيم العائلة السعودية الشيخ **عبد الرحمن بن سعود** مع أبنائه الخمسة في رحلة شاقة إلى قطر ومنها إلى البحرين حتى استقر في نهاية عام 1892 في الكويت في استضافة عائلة آل صباح الكويتية بزعامة الشيخ **مبارك آل صباح** ..

كان **عبد العزيز بن عبد الرحمن** آل **سعود** هو أكبر الأبناء المولود في عام 1880 .. وبتشجيع من آل صباح ممثلي المصالح البريطانية في الكويت وبدعم مادي من بريطانيا أمر **عبد الرحمن آل سعود** ابنه **عبد العزيز** في الأخذ بالثأر من آل رشيد الموالين للعثمانيين وإعادة سيطرة الوهابيين على نجد .. وفي عام 1902 قام **عبد العزيز** بقيادة حملة صغيرة من أربعين رجلا ، ودخلوا الرياض ليلا وقاموا بمحاصرة بيت الأمير **ابن رشيد** وقتلوه مع حرسه عند خروجه من منزله لأداء صلاة الفجر في المسجد المجاور .. ثم قاموا باعتلاء مئذنة المسجد وأعلنوا عودة آل سعود إلى حكم الرياض ، ولم يجدوا اعتراضا يذكر من الأهالي الذين ألفوا حكم آبائهم قبل الفرار من الرياض ..

استمر **عبد العزيز بن سعود** يحارب نحو ربع قرن تمكن أثناءه من إخضاع القبائل المعارضة وطرد العثمانيين من الإحساء في أقصى الشرق بعد تغلبه على الحامية العثمانية الضعيفة هناك في عام 1913 .. وبقي الهم الأكبر في إخضاع المنطقة الغربية من الجزيرة العربية التي كان يتنازع عليها مع الهاشميين .. وفي ذلك الوقت أثناء استعداد العالم لاستقبال الحرب العالمية الأولى كان البريطانيون يلعبون دورا تقليديا للاستعمار الغربي .. فقد ساهموا في إشعال الصراع بين آل سعود والهاشميين عن طريق الوعود الوردية للهاشميين والمساندة الكلامية بمُلك وهمي وتزامن ذلك مع توقيع معاهدة عام 1914 مع **ابن سعود** تعهدوا فيها بدعمهم القوي للطموحات السعودية ومنحهم معونات مادية بلغت 60 ألف جنيه إسترليني سنويا على

أن يتعهد في المقابل **ابن سعود** بالولاء وعدم الدخول في أي أحلاف أو علاقات مع أية دولة أجنبية غير بريطانيا ، وكان الدافع البريطاني من وراء ذلك هو تأليب العرب ضد الدولة العثمانية ..

وبعد انتهاء الحرب نجح **ابن سعود** في توسيع سلطانه بعد هزيمة العثمانيين ليشمل الحجاز والمدينة ومكة بين عامي 1924 و1926 بمساعدة بريطانية .. فقد حدث أن احتدم الخلاف بين آل سعود في المنطقة الشرقية من الجزيرة وبين الشريف **حسين** في المنطقة الغربية الحجاز .. وكان **حسين** قد رفض التوقيع على وثيقة صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، لذا رجحت بريطانيا أن يكون الشريف **حسين** عقبة أمام سياستهم المستقبلية في الجزيرة العربية ، هذا رغم ثورته على العثمانيين أعداء بريطانيا في عام 1916 بإيعاز ودعم من بريطانيا .. وبمقتضى تلك المستجدات تخلت بريطانيا عن التوازن في علاقتها بين الكفتين ، وراحت تشجع عناصر خارجية ضد الشريف **حسين** في الحجاز في عام 1924 .. ثم قام **ابن سعود** بالتنسيق مع الإنجليز بغزو الحجاز والاستيلاء عليها بدعوى تعرض قوافل الحجاج الآتية من الشرق للسلب من بين أسباب أخرى كثيرة .. خرج الشريف **حسين** من الحجاز ، ونجح السعوديون في ضم الحجاز إلى نجد والإحساء ..

وفي معاهدة جدة عام 1927 اعترفت الحكومة البريطانية بالوضع السياسي الجديد للسعوديين ، كما اعترف **ابن سعود** بحكم الهاشميين في كل من الأردن والعراق ، وكذلك اعترف بحماية بريطانيا على المشيخات الواقعة على ساحل الخليج العربي .. وفي عام 1928 أعلن **ابن سعود** نفسه ملكا على نجد والحجاز وما حولهما.. وفي عام 1932 أعلن قيام المملكة العربية السعودية رسميا .. ثم تم ضم منطقة عسير – بعد نزاع مع الإمام **يحيى** في اليمن – عام 1934 ، وبذلك تكون الدولة السعودية قد اتخذت شكلها الحالي ..

* * *

هكذا نشأت المملكة العربية السعودية .. فكيف نشأت العلاقات الأمريكية السعودية وكيف واجهت صعابا ولماذا تطورت فجأة ، لتتحول السعودية من دولة لا أهمية لها على الإطلاق بالنسبة للدبلوماسية الأمريكية إلى واحدة من أهم البلدان للولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ؟ ..

طوال القرون الماضية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت نظرة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط ككل مزيجا من التجاهل واللامبالاة والتعالي .. وقد بدأت العلاقات الأمريكية بالمنطقة بعد استقلال الولايات المتحدة بسنوات قليلة وتحديدا في عام 1784 عندما بدأت السفن الأمريكية تتوسع في التجارة الدولية وانتقل جزء من نشاطها إلى البحر المتوسط ، لتتعرض لهجمات القراصنة الجزائريين ، مما دعا الكونجرس إلى إيفاد لجنة خاصة للتفاوض مع دول شمال أفريقيا بهدف التوصل إلى عقد معاهدة لضمان حماية طرق التجارة ..

وفيما عدا ذلك كان نشاط أمريكا محصورا في بعثات التبشير والهيئات التعليمية ، وفي بعض المغامرات الفردية لرجال الأعمال .. وكان من المنطقي أن تفشل بعثات التبشير في نشر المسيحية في موطن الإسلام

الرئيسي على مستوى العالم رغم قيامها ببناء عدة مستشفيات في البحرين وعمان والكويت وإشرافها على إنشاء بعض المدارس ، لذا لم يبق للأمريكان من اهتمام بالمنطقة سوى الأنشطة التعليمية والثقافية المحدودة ، كما حدث أن زار الطبيب الأمريكي **بول هاريسون** الأراضي السعودية بناء على دعوة من **ابن سعود** لعلاج المرضى وكان ذلك في عامي 1917 و1919 ..

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى استمرت شبه الجزيرة العربية الأقل أهمية من بين كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية بالنسبة للولايات المتحدة ، وكانت الصحف الأمريكية تنشر بين الحين والآخر أخبارا متفرقة عن الجزيرة العربية تدور أغلبها حول سحر الشرق والصحاري الواسعة وخيال الصحفيين الجامح ..

وعلى الصعيد الرسمي كان القنصل الأمريكي في عدن المستعمرة البريطانية في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية هو الممثل السياسي الأمريكي الوحيد في الجزيرة كلها ..

وفي يوليو 1925 قام الممثل المالي للشريف **حسين** في الاسكندرية بالاتصال بالمسئول الأمريكي هناك **ستيوارت جونسون** طالبا منه التدخل الأمريكي ومساندتهم في حرب الهاشميين ضد السعوديين التي كانت على وشك الانتهاء لمصلحة السعوديين ، وكذلك طلب قرضا بمبلغ مليون جنيه إسترليني مقابل تعهد الهاشميين بإعطاء الولايات المتحدة امتيازا للتنقيب عن البترول في الحجاز على أن تكون موارد الجمارك في جدة ضمانا لسداد القرض .. وجاء رد **ستيوارت جونسون** على هذا الطلب باستحالة موافقة الحكومة الأمريكية على مثل هذا المشروع ..

وبعد عامين كانت العديد من الحكومات الأوروبية تعترف تباعا بمملكة نجد والحجاز ومعتمداتها كما كانت تسمى المملكة في تلك الفترة .. وفي يونيو 1927 استفسر رجل أعمال أمريكي يدعى **جون واتسون** عن سبب عدم اعتراف الولايات المتحدة بهذه المملكة الوليدة ، وجاءه رد وزارة الخارجية بأنه ليس هناك حاجة إلى إقامة مثل هذه العلاقة الدبلوماسية ..

وفي سبتمبر 1928 دعت الولايات المتحدة جميع الدول المستقلة للتوقيع على معاهدة منع الحروب اتفاقية كيلوج – بريان الموقعة من وزيري خارجية أمريكا وفرنسا .. انتهزت السعودية هذه المناسبة السياسية ، وقام **فؤاد حمزة** مدير العلاقات الخارجية بالمملكة بإرسال خطاب إلى وزير خارجية أمريكا **فرانك كيلوج** في 29 سبتمبر 1928 مقترحا فيه بأن تتبادل السعودية والولايات المتحدة الاعتراف والتمثيل الدبلوماسي فيما بينهما ..

وفي الأسابيع التالية وقعت حكومة **ابن سعود** على معاهدة منع الحرب ، بينما جاء رد وزارة الخارجية الأمريكية على اقتراح **حمزة** بأن أبلغت ممثلها في مصر بأن يخبر ممثل المملكة هناك بأن الحكومة الأمريكية لا توافق على اقتراح **حمزة** في الوقت الحاضر ولكنها سوف تنظر في الأمر في المستقبل بعين الاعتبار ..

وبعد أيام كتب **بول أولينج** مساعد مدير قسم شئون الشرق الأوسط لوزارة الخارجية الأمريكية مذكرة يناقش فيها مسألة الاعتراف ، وأوصى بالاعتراف بالسعودية ، خاصة وأن الولايات المتحدة قد اعترفت بحكام أقل أهمية من **ابن سعود** مثل حاكم أفغانستان وعمان ، مع مراعاة أن العلاقات التجارية بين البلدين قد تزداد في القريب وبأسرع مما يتصور البعض ..

وفي عام 1930 أوصى **كلويس هتسون** نائب القنصل الأمريكي في عدن بحتمية التمثيل الدبلوماسي ، خاصة وأن السعودية تفضل العلاقات التجارية مع أمريكا عن غيرها من دول الغرب بسبب عدم وجود أطماع سياسية للولايات المتحدة في المملكة ..

وكانت ردود وزارة الخارجية على كل هذه التوصيات بالرفض وبتوضيح أن الاعتراف الرسمي في الوقت الحالي لا لزوم له ..

وبعد إلحاح متكرر من أطراف كثيرة ، طلبت وزارة الخارجية الأمريكية من **رالف تشسبرو** مساعد الملحق التجاري بالقنصلية الأمريكية في الاسكندرية أن يقدم لها تقريرا تفصيليا عن طبيعة العلاقات التجارية الأمريكية في السعودية .. وسافر **تشسبرو** إلى جدة وأمضى هناك أسبوعا ، وعاد بتقرير في 30 يونيو 1930 جاء فيه أن 43 % من واردات المملكة من أصل أمريكي وأن فرصا عظيمة متاحة أمام الولايات المتحدة بالمملكة ، وأوصى بشدة أن تنشئ أمريكا قنصلية على الأقل في جدة .. كما أشار التقرير إلى أن **ابن سعود** يحاول أن ينقص من شراء السيارات الأمريكية وأنه الآن متجها نحو التعامل مع شركة فيات الإيطالية بسبب عدم اعتراف أمريكا بالمملكة العربية السعودية حتى الآن ..

وفي يناير 1931 تحدث وزير الخارجية الأمريكية مع الرئيس **هوفر** بخصوص الاعتراف بالمملكة وأبدى الرئيس موافقته المبدئية .. وقررت وزارة الخارجية أن تبدأ محادثاتها مع ممثل **ابن سعود** في لندن ، وهكذا بدأ سفير أمريكا في لندن **تشارلز دوز** محادثاته مع الوزير السعودي هناك **حافظ وهبة** .. و طلبت وزارة الخارجية من سفيرها أن يتأكد من إمكانية عقد معاهدة صداقة وتجارة وامتياز مرور ، وأن يجمع بيانات واضحة عن القانون السعودي المدني والجنائي والتجاري ، وكذلك أن يستفسر عن معاملة الرعايا الأجانب في السعودية ..

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالمملكة العربية السعودية في عام 1931 ، وبعد محادثات طويلة عقدت معها معاهدة تجارة وصداقة في 7 نوفمبر 1933 تم توقيعها في لندن ، ورغم أن هذه المعاهدة قد نصت صراحة على ضرورة التمثيل الدبلوماسي بين البلدين ، فإن وزارة الخارجية الأمريكية لم تكن تعتبر المصالح الأمريكية المحدودة في المملكة السعودية بالأهمية الكافية لتبرير التمثيل السياسي المباشر بين البلدين ..

* * *

وبالتوازي مع تطور العلاقات السياسية بين البلدين ، كان للبترول الدور الأبرز في تدعيم آراء المروجين في الولايات المتحدة لضرورة الاهتمام بإقامة علاقات على المستوى الرسمي المناسب مع السعودية ..

فقبل عام 1914 كانت شركات البترول الأمريكية تنقب عن البترول خارج الولايات المتحدة في دولتين اثنتين فقط هما المكسيك ورومانيا .. ومع اتضاح أهمية البترول خلال الحرب العالمية الأولى ، ظهرت ضغوط شديدة على الحكومة الأمريكية من قبل الصفوة والمهتمين بشئون الدولة لتقوم برسم سياسة بترولية جديدة أكثر فاعلية تحمي الولايات المتحدة من مخاطر نضوب البترول في أرضها خلال المستقبل .. أسفر الضغط عن إعطاء وزارة الخارجية الأمريكية تعليمات لسفاراتها وقنصلياتها حول العالم بأن تعطي أهمية خاصة لمصالح البترول الأمريكية وأن تعمل على المساعدة في الحصول على امتيازات في تلك الدول الأجنبية التي تمثل الولايات المتحدة فيها ..

وفي سبتمبر 1920 قدم السفير الأمريكي بلندن مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة البريطانية مذكرا بأن أمريكا ساعدت على النصر في الحرب وأن من حقها أن تشارك في الغنائم منددا بمحاولات بريطانيا أن تحتكر بترول العالم والشرق الأوسط على الأخص ..

وفي عام 1923 أعطت السعودية أول امتياز للتنقيب عن البترول في أراضيها لشركة بريطانية ، ثم قامت بإلغاء العقد بعد أن خالفته الشركة عندما تأخرت عن دفع إيجار العقد السنوي وقيمته ستة آلاف جنيه إسترليني عن ثلاث سنوات .. وفي الوقت نفسه بدأت المساعي السعودية لاستجلاب رجال أعمال أمريكيين للتنقيب عن الماء والمعادن في المملكة ..

وفي عام 1929 مرت المملكة بضائقة مالية شديدة نتيجة تراجع الإيراد الموسمي للحج وهو المورد المالي الرئيسي للسعودية وذلك بسبب الركود الشديد الذي خيم على الاقتصاد العالمي ..

وقد تلاحقت أحداث منفصلة متصلة أدت إلى تطورات هامة في المنطقة ..

ففي ذلك التوقيت كان في جدة مواطن بريطاني يدعى **هاري جون فلبي** وكان موظفا في الإدارة الحكومية في الهند سابقا ثم نقل لجدة ليتحول إلى رجل أعمال يدير مصالح عدد من الشركات العالمية وعلى رأسها شركة فورد .. وكان **فلبي** يحظى بود الملك **عبد العزيز بن سعود** حتى صار مستشاره الخاص .. ولما ساءت الحالة المعيشية في البلاد ، اقترح **فلبي** على الملك أن يجري اتصالا بـ **تشارلز كرين** وهو واحد من الصناعيين الأمريكيين الكبار الذين يمولون مشاريع تنموية في مصر واليمن .. وبناء على توصية **فلبي** حظي **كرين** باستقبال حافل من الملك الذي بالغ في إبداء كرم الضيافة العربي ، ثم طلب الملك أن يقوم مهندس المناجم والخبير في شئون الآثار **كارل تويتشيل** بمساعدة **كرين** وشد أزره .. وفي الأسابيع التالية قام **تويتشيل** بجرد ما في المملكة من ثروات مائية وبترولية ولم يكن الملك مهتما كثيرا بالبترول إذ كانت اهتماماته الرئيسية تدور في المقام الأول حول العثور على الماء الذي يكفل لشعبه الحياة والاستقرار ..

وفي أبريل 1931 عاد **تويتشيل** من رحلته الاستكشافية بنتيجة مفادها أنه ليس هناك احتمال كبير في العثور على ثروات مائية ذات شأن إلا أن ثمة مؤشرات توحي بوجود ثروة بترولية في شرق البلاد .. وفي العام التالي جاء اكتشاف البترول في جزر البحرين المحاذية للمنطقة الشرقية في السعودية والتي تتسم بنفس التركيب الجيولوجي بواسطة شركة ستاندارد أويل كاليفورنيا "سوكال" الأمريكية ليشد انتباه الملك **ابن سعود** ويجعله يعيد ترتيب أولوياته .. اجتمع الملك بـ **تويتشيل** وأوصاه بأن يحاول جذب رؤوس أموال أمريكية للتنقيب عن البترول في المملكة ، غير أن محاولات **تويتشيل** صادفها فشل مبدئي ، إذ لم ينجح في إقناع شركتي تكساكو وجولف في قبول العرض السعودي ، وذلك لأسباب ثلاثة : سوء حالة الاقتصاد العالمي الذي كان يمر بأزمة عنيفة في أوائل الثلاثينات .. اكتشاف حقول بترول جديدة في ولاية تكساس في أواخر العشرينات ساهم في تأجيل اهتمام الشركات الأمريكية بالاستثمار في خارج البلاد .. عدم رغبة معظم الشركات الكبرى في استخراج كميات جديدة من البترول كي لا تتفاقم مشكلة الإنتاج الزائد عن الطلب ..

لم ييأس **تويتشيل** وقام بالاتصال بشركة سوكال التي أبدت اهتمامها وأسرعت لإرسال مندوب عنها لعقد اتفاق تحصل بموجبه على امتياز للتنقيب في المنطقة الشرقية .. وكان سبب اهتمامها الرئيسي هو وجودها خارج اتفاقية الخط الأحمر (السابق الإشارة إليها) ، كما أن الجيولوجيين اتجهت أنظارهم إلى منطقة الأحساء في شرقي السعودية المحاذية للبحرين .. حصلت سوكال على عقد الامتياز على مساحة 300 ألف ميل مربع على الساحل الشرقي للمملكة في مطلع عام 1933 لقاء 35 ألف جنيه إسترليني ذهبي قامت بتعبئتهم في سبعة صناديق شُحنت من الولايات المتحدة إلى السعودية .. وعن طريق هذا المبلغ تخطت المملكة العربية السعودية ضائقتها المالية ووضعت الولايات المتحدة أول قدم لها داخل أغنى بلد بترولي في العالم ..

* * *

بدأت ستاندارد أويل كاليفورنيا "سوكال" عملية المسح والتنقيب في سبتمبر 1933 وتكبدت مصروفات باهظة في عامي 1934 و1935 .. ولما لم تسفر العمليات عن نتائج إيجابية ، اتجه المسئولون عن الشركة إلى بيع نصف امتيازها إلى شركة أخرى هي تكساس أويل تكساكو في العام التالي ، ليتم تنظيم التسويق فيما بينهما من خلال شركة سميت كاليفورنيا تكساس أويل وهي ما نعرفها اليوم باسم كالتكس .. وبفضل توفير ميزانية أكبر نتيجة التعاون ، نجحت الجهود المشتركة في التوصل إلى نتائج إيجابية باكتشاف البترول بكميات تجارية في مارس 1938 .. ثم حصلت الشركتين على اتفاقية أخرى مكملة للتنقيب أبرمت في عام 1939 قبيل نشوب الحرب ..

وبسبب قيام الحرب ازدادت صعوبة عملية الشحن وتعرضت حقول البترول إلى التهديد المباشر ، حتى توقفت عمليات الإنتاج تماما في 19 أكتوبر 1940 بعد الغارة الإيطالية على حقول البترول في الدمام

والبحرين .. انقطع دخل المملكة العربية السعودية بشكل مفاجئ وقاسي .. فقد فقدت ريعها القادم من إنتاج البترول في نفس الوقت الذي فقدت فيه دخلها السنوي الثابت من نفقات الحج والعمرة بسبب تعذر الوصول إلى الأماكن المقدسة نتيجة لاندلاع الحرب .. ففي عام 1938 كان عدد الحجاج 64 ألف حاج ، هبط العدد إلى 58 ألف حاج في عام 1939 ، وإلى 32 ألف حاج في عام 1940 ، ثم إلى عشرة آلاف حاج فحسب في عام 1941 ، علما بأن معدل الحجاج في السنوات العشر السابقة على تلك التواريخ تراوح بين مائة ألف إلى 130 ألف حاج ..

فطنت الشركة الأمريكية إلى ضرورة تدعيم مركز السعودية المالي للإبقاء على الاتفاقيات المنعقدة ، وحاولت كثيرا أن تضغط على الحكومة الأمريكية من أجل العمل على إيجاد تمثيل دبلوماسي وقنصلي مباشر مع السعودية بدلا من أن يكون التمثيل عن طريق المفوض الأمريكي في القاهرة .. وفي فبراير 1940 تم تعيين **بيرت فيش** الوزير الأمريكي المفوض في القاهرة كوزير مفوض غير مقيم في السعودية .. وبعد دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية في نهاية عام 1941 راجعت موقفها تجاه السعودية للحاجة الماسة للبترول في الحرب ، فجاء القرار بإنشاء مفوضية أمريكية في جدة وتعيين **جيمس موسى** كأول قنصل أمريكي في جدة في مايو 1942 ..

بدأت النظرة الأمريكية تتغير تجاه السعودية ..

فقد كانت هناك مخاوف من الأطماع الألمانية مع تقدم حملتها في شمال أفريقيا أن تستولي على قناة السويس ومنها إلى البترول في الجزيرة العربية .. ومع استمرار الحرب بدأت الحكومة الأمريكية في القيام بمسح لاحتياطي البترول خارج الولايات المتحدة من أجل ضمان تموين الجيش بالبترول في حالة إذا ما طالت الحرب .. وقد جاءت دراسات قام بها خبراء متخصصون في الحكومة الأمريكية تؤكد على وجوب إقامة علاقات جيدة مع الدول الأجنبية المنتجة للبترول ومساعدة الشركات المنتجة ، إضافة إلى عقد اتفاقيات عالمية للتنقيب عن البترول ..

تطورت الأمور سريعا ، فقامت وزارة الخارجية الأمريكية بافتتاح قنصلية في مدينة الظهران على الساحل الشرقي للسعودية في مارس 1944 ، وجاء ذلك استثناء للقاعدة ، حيث لم يكن يسمح للدول الأجنبية وخصوصا غير الإسلامية منها بأن تفتتح مقار لها خارج جدة ..

ثم ظهرت الحاجة إلى إنشاء قاعدة عسكرية أمريكية في السعودية مع تعقد الموقف بالنسبة للحلفاء .. وكان عمال شركات البترول في المملكة الذين يزورون ذويهم في الولايات المتحدة قد طالبوا الحكومة الأمريكية منذ أبريل 1942 بحتمية العمل على حماية حقول البترول في المنطقة الشرقية ، كما طالب السفير الأمريكي في القاهرة والقنصل الأمريكي المقيم في جدة بإحضار مدافع مضادة للطائرات من أجل نفس الهدف ..

وفي أكتوبر 1943 وصلت أول شحنة عسكرية من الولايات المتحدة إلى السعودية ، ثم جاء طلب الملك **ابن سعود** بإيفاد بعثة عسكرية أمريكية إلى السعودية لتدريب الضباط السعوديين على استعمال الأسلحة الجديدة وهو ما وافقت عليه الولايات المتحدة .. وفي أبريل 1945 وافق الملك **ابن سعود** على إنشاء قاعدة جوية أمريكية داخل الأراضي السعودية من أجل متابعة العمليات الجوية الأمريكية ضد اليابان .. جاءت هذه الموافقة في مقابل قيام الولايات المتحدة بتدريب عدد من السعوديين على الطيران المدني والعسكري ، وأن تسلم القاعدة إلى الحكومة السعودية عند نهاية الحرب مع السماح للسلاح الجوي الأمريكي وبعض حلفائها باستخدام القاعدة لمدة ثلاث سنوات من نهاية الحرب ..

ثم جاءت فكرة إنشاء خط التابلاين – خط أنابيب بترول يمتد من الخليج العربي إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط – لترسخ التواجد الأمريكي في الجزيرة العربية ..

تبدأ قصة إنشاء التابلاين عندما اقتربت الحرب العالمية الثانية من نهايتها وتحديدا منذ منتصف عام 1944 .. فقد زاد إنتاج شركة أرامكو – هي شركة مؤلفة من أربع شركات كبرى هي سوكال وتكساكو السابق الإشارة إليهما حتى عام 1948 ، ثم انضمت إليهما نيو جيرسي(إكسون حاليا) وسوكوني(موبيل حاليا) – من البترول بشكل ملحوظ ، خاصة بعد أن أصبح الحلفاء في الموقف الأقوى مما أدى إلى توافر قطع الغيار والآلات بلا عراقيل ناتجة عن تأخير في الشحن .. وقد اقتضت زيادة الإنتاج إلى الحاجة الماسة إلى وجود وسائل رخيصة لنقل كميات البترول إلى الأسواق العالمية بسبب عدم كفاية الأسطول الكبير من ناقلات البترول ..

ومن المفارقات الغريبة أن أرامكو تقدمت بطلب إنشاء هذا الخط إلى الحكومة الأمريكية ، غير أن المشروع لاقى معارضة كبيرة في الكونجرس ، إذ كان يخشى البعض من تأثير المشروع على مستقبل السياسة الخارجية الأمريكية، وقد حدث أن وقف **هاورد بوفيت** ممثل ولاية نبراسكا في مجلس النواب يقول محذرا :

" إن حكومة الولايات المتحدة قد تقوم بتجنيد ابنك أو ابني وترسلهم إلى هناك – الشرق الأوسط – ليحاربوا وليدافعوا عن خط الأنابيب ، لماذا ؟ لأنه في تلك الحالة ستدّعي الحكومة أنه من الواجب الوطني على كل مواطن أن يدافع عن شرف وممتلكات الحكومة الأمريكية المتمثلة في استثماراتها هناك " ..

كان بوفيت يستشرف المستقبل ، يقرأ صفحة من التاريخ يعيشها أحفاده ..

والغريب أن أحدا لا يضاهيه اليوم لا في غضبه ولا في خوفه ولا في بصيرته ..

وبعد معارضة الكونجرس للاقتراح بتبني الحكومة الأمريكية المشروع ، قررت أرامكو إنشاء خط الأنابيب على حسابها الخاص .. وكانت العقبة الرئيسية تتمثل في الحصول على حق المرور في البلدان التي سيعبرها خط الأنابيب وكذلك نقطة انتهاء الخط على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وكان ميناء حيفا في فلسطين يعتبر أفضل الموانئ من جهة التسهيلات ورخص رسوم الإنشاء وطول المسافة ، ولكن وجدت

شركة أرامكو أنه من الأنسب أن ينتهي الخط في لبنان بسبب الموقف المتأزم في فلسطين بين العرب واليهود ..

وفي عام 1947 انتهت الدراسات ، ورست عقود إنشاء خط التابلاين على شركتي بكتيل ووليافر براذر .. وقد بدأ العمل من كلا الجانبين للخط ، فبدأت بكتيل من ساحل الخليج العربي حيث حقول البترول السعودية متجهة غربا ، في حين بدأت شركة وليافر من ميناء صيدا بلبنان متجهة شرقا .. وقد بلغ طول الخط 1040 ميلا وتم إكماله في 25 سبتمبر 1950 ، وكان أول بترول يصل إلى ميناء صيدا في 10 نوفمبر 1950 ..

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت الظروف جميعها مواتية لأن تسيطر الولايات المتحدة على بترول الخليج العربي وأن تنزوي بريطانيا وأن يسلم العرب جزيرتهم وأن تضيع فلسطين ..

فقد بعث الرئيس **روزفلت** في أواخر أيامه وهي نفسها أواخر أيام الحرب لجنة رئاسية إلى الشرق الأوسط زارت كل من السعودية والعراق وإيران والكويت والبحرين وقطر .. عادت اللجنة بتقرير هام يبدأ بالعبارة الآتية : " إن بترول الشرق الأوسط هو أعظم كنز تركته الطبيعة للتاريخ .. وإن التأثير الاقتصادي والسياسي لهذا الكنز سوف يكون فادحا " .. اطلع **روزفلت** على التقرير ومعه وزير خارجيته **إدوارد ستيتينياس** الذي سأل رئيسه في اهتمام قائلا : " ولكن ما الحصة التي ينبغي لنا أن نسيطر عليها من بترول الشرق الأوسط يا سيادة الرئيس ؟ " .. وهنا سكت **روزفلت** برهة ، ثم أجابه في كل جدية : " لا أقل من 100 % " !! ..

* * *

أما مشكلة المشاكل التي كانت تؤرق السعودية وتثير مخاوف الأمريكان من حين إلى حين ، فهي التعارض الواضح بين المصالح الأمريكية السعودية المشتركة والمتمثلة في بترول يخرج من الجزيرة وأموال تتدفق عليها ، وبين انحياز الولايات المتحدة الكامل لإسرائيل في الأزمة الطاحنة منذ منتصف الأربعينات .. وقد بدأ الإحراج السياسي في عام 1943 عندما انعقد المؤتمر الصهيوني الشهير في مدينة بلتمور الأمريكية ، وهو المؤتمر الذي أعلنت فيه المنظمات الصهيونية بدء العمل على تكوين كومونويلث يهودي في فلسطين .

وقد علق **ابن سعود** على ذلك المؤتمر ، فقال : " إن آخر شئ أريده هو أن تجبرني الظروف على أخذ الخطوات التي أصبح فيها عدوا لكل من بريطانيا وأمريكا حتى يمكن تجنب هذا الخطر الذي يهددنا جميعا وهو الخطر الصهيوني .. إلا أنه من المؤكد أن المضي في هذه السياسة ، سياسة هجرة اليهودي إلى فلسطين واغتصاب أراضي المواطنين العرب الفلسطينيين وإعطائها لليهود ورفض الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، كل ذلك لن يجلب فقط عداوة العرب لهاتين الدولتين (بريطانيا وأمريكا) وإنما سيجلب أيضا سخط وعداوة العالم الإسلامي كله حتى حدود الصين والهند " ..

وفي مقابلة لمراسل مجلة لايف الأمريكية مع الملك **ابن سعود** في 21 مارس 1943 قال الملك : " لقد بقيت صامتا إلى الآن بالنسبة للقضية الفلسطينية حتى لا أضع العرب في موقف يحرج الحلفاء ولكن بصفتك أيها

المراسل واحدا من أصدقائنا فإنه عليّ أن أوضح لك رأيي حتى يمكنك إبلاغه إلى أصدقائنا الأمريكيين كي يمكنهم الإطلاع على حقيقة الأمر .. أولا : إنني لا أعرف أي شئ يبرر مزاعم اليهود في فلسطين .. ثانيا : إنني لا أرفض بأن يكون هناك وطن في مكان آخر .. ولكنني أؤمن بأن مطالب اليهود ومزاعمهم في هذه الأرض إنما هو خطأ جسيم .. لأنها تشكل عملا غير عادل وغير شرعي ضد عرب فلسطين .. وإن ذلك سيسبب نزاعات وخلافات بين المسلمين جميعا وبين أصدقائهم الحلفاء " ..

ولم يكن هذا النزاع المزعوم سوى افتراضات نظرية عما ينبغي أن يكون عليه رد فعل العرب تجاه قضيتهم الأولى ، ولم يتحقق على أرض الواقع شئ من ذلك ..

وفي فبراير 1945 وفي أعقاب مؤتمر يالطا على شاطئ البحر الأسود جاء إلى مصر على ظهر الطراد الأمريكي كوينسي رئيس الولايات المتحدة **فرانكلين روزفلت** ، وعلى ظهره استقبل ثلاث زعماء دول إقليمية (الملك **فاروق** والملك **ابن سعود** و**هيلاسيلاسي** ملك إثيوبيا) بعد أن رسي وسط البحيرات المرة على مجرى قناة السويس ..

استقبل **روزفلت** الملك **عبد العزيز آل سعود** واستمع إليه طويلا ، وبدا له ما سمعه غريبا على ثقافته ، فالملك يحدثه بلغة زعماء القبائل ويقول له " أنت أخي وكنت أشتاق دائما إلى رؤيتك ، وأريد أن يكون تعاملي معك أنت وليس مع غيرك لأنك رجل مبادئ ونصير حقوق ونحن العرب نتطلع إليك في طلب العدل والإنصاف من تحكم واستبداد الآخرين " .. وقد تناولا ثلاثة مواضيع رئيسية .. موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين وإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فما كان من الملك إلا أن قام من مجلسه ووضع يده في يد **روزفلت** وطلب منه أن " يقسم بالله تعالى بألا يؤيد الصهاينة في فلسطين ضد العرب " ، فلم يجد **روزفلت** مفرا من أن يضع يده في يد الملك وتعهد له بأن الولايات المتحدة " سوف لن تؤيد الصهاينة ضد العرب وأنه لن يكون هناك أي تغيير في سياسة أمريكا دون استشارة مسبقة لليهود والعرب هناك " .. ومن العجيب أن الموضوع الثاني الذي تطرقا إليه كان فكرة إنشاء جامعة الدول العربية .. أما الموضوع الثالث فكان بخصوص استقلال سوريا ولبنان .. وامتد الحوار بينهما وركز الملك السعودي على أنه هو والرئيس الأمريكي " توأمان في الروح " وأن ظروفهما الصحية متشابهة ، فكلاهما غير قادر على المشي ، إذ يجلس **روزفلت** على كرسي متحرك بسبب إصابته بشلل الأطفال و**ابن سعود** يعاني من مشاكل في ساقيه بسبب وهن العظام ، وقد أهداه **روزفلت** كرسيا متحركا ..

وواقع الأمر أن المملكة العربية السعودية في علاقتها بأمريكا كانت تجلس على كرسي متحرك تدفعه الولايات المتحدة .. مورد رزق أوحد لا شريك له هو البترول ، ومصدر أموال وحيد هو الولايات المتحدة من خلال الشركات الأمريكية المستحوذة على البترول ..

ومن الغريب أنه قبل أيام من لقاء **ابن سعود** بـ **روزفلت** ، كان **ابن سعود** قد أدلى بتصريح أثناء استقباله للضباط الأمريكيين الملحقين بالمفوضية وجاء فيه ما يلي : " أما فيما يخص فلسطين ، فإن أمريكا

وبريطانيا أمامهما حرية الاختيار بين عالم عربي هادئ ومسالم أو دولة يهودية غارقة في الدم .. إننا نطالب أمريكا أن تسوي مشكلة فلسطين وفقا لتقاليد العدالة الأمريكية .. أما إذا اختارت أن تحابي اليهود الملعونين في القرآن إلى آخر الزمان ، فإنها تكون قد خسرت بذلك صداقتها معنا وسوف تندم على ذلك .. إن الاختيار على أية حال لأمريكا .. ونحن قلنا رأينا ، ونرغب منكم أن تنقلوه إلى حكومتكم " ..

وفي 10 مارس 1945 كتب **ابن سعود** رسالة إلى **روزفلت** مكررا رأيه بشأن قضية فلسطين ، متهما الصهيونية بالعدوان السافر على فلسطين .. ولقد رد الرئيس الأمريكي على خطاب **ابن سعود** في 5 أبريل مذكرا بوعده في مؤتمرهما في فبراير بأن الولايات المتحدة لن تتخذ أي عمل يمكن أن يعتبر معاديا للعرب في فلسطين .. ثم مات **روزفلت** في 12 أبريل قبل أن يشهد التاريخ على كذبه ، وربما صدقه ! ..

وفي أغسطي 1945 أصدر الرئيس **ترومان** أمرا يعلن فيه السماح لمائة ألف يهودي بالهجرة من أوروبا إلى فلسطين .. وبعث إليه الملك **ابن سعود** رسالة يبدي فيها اندهاشه من هذا القرار المناقض لتعهد حصل عليه من سلفه **روزفلت** جاء فيه أن الولايات المتحدة لن تتخذ قرارات تخص فلسطين بدون الاتصال بالعرب أولا .. ورد الرئيس **ترومان** على تلك الرسالة بأنه لا يعرف شيئا عن وجود مثل هذا التعهد ! .. وفي العام التالي صدر عن **ترومان** تعهدا سريا ولكن هذه المرة إلى اليهود بأن تتحمل الولايات المتحدة تكاليف تلك الهجرة والتي بلغت نحو 450 مليون دولار ..

وفي منتصف مايو من عام 1948 أعلنت إسرائيل عن قيام دولتها ، واستتبع ذلك قيام الحرب الأولى بين العرب واليهود .. وجاء الموقف الأمريكي منحازا بشدة إلى إسرائيل .. وقد أرسل **جيمس تيري** مدير أرامكو في الظهران إلى **جورج مارشال** وزير خارجية الولايات المتحدة محذرا من عواقب الأمور ، فقال : " إن الملك **عبد العزيز بن سعود** أخبره أنه سيتحتم عليه في ظروف خاصة أن يطبق حظرا على النفط الذاهب إلى أمريكا ، فالرأي العام يمارس ضغطا هائلا لا يمكن مقاومته " ..

غير أن **ابن سعود** اكتفى مع تلاحق الأحداث بأن علق قائلا : " إن الدعم الأمريكي لإسرائيل سيدمر المصالح الأمريكية في العالم العربي " .. وأعاقه إحراجه الشديد من أن يصعّد الموقف ، فأرامكو هي المصدر الوحيد للدخل في السعودية .. وهنا نجح **ابن سعود** في أن يريح ضميره ويهدئ من روعه بأن صار يميز بين أرامكو كشركة تجارية خاصة وبين الحكومة الأمريكية التي تدعم الصهاينة ، حتى أنه عندما طالبه أحدهم بمقاطعة أمريكا ، رد الملك السعودي بذكاء شديد قائلا : " إن الأموال التي تأتينا من النفط هي خير عوض لنا لتقوية بلادنا ودعم جيراننا العرب في مواجهة إسرائيل " ..

وفي عام 1948 جاء الاكتشاف الأعظم في التاريخ .. ففي هذا العام تم اكتشاف حقل عظيم يبلغ طوله 220 كم وعرضه 25 كم ، أي ما يساوي 5500 كم مربع ، وهو حقل الغوار الذي احتل برصيده البالغ مائة مليار برميل المركز الأول على مستوى العالم كله ..

وقد يبدو غريبا أن يكون العام الذي يتم فيه الكشف عن أكبر حقل بترول في التاريخ هو نفسه العام الذي تعلن فيه إسرائيل قيام دولتها وتلقى مساندة هائلة من الولايات المتحدة .. يجتمع الحدثان في عام واحد ، ولا يمثل الحدث الأول ورقة ضغط على الولايات المتحدة كي تتخذ موقفا أكثر عدالة تجاه الحدث الثاني ..

وربما لا تفوتنا الإشارة إلى أنه نفس العام الذي أنشأت فيه الولايات المتحدة الأسطول السادس الشهير لتحقيق تواجد بحري أمريكي دائم في حوض البحر المتوسط ، وذلك بغرض حماية ما يخصها في المنطقة : البترول العربي ، ودولة إسرائيل ..

* * *

وبمرور الوقت أحس السعوديون أن العائد من البترول يمكن أن يزيد ، خاصة وأن أرامكو كانت تكسب في ذلك الوقت 1580 مليون دولار سنويا ، في الوقت الذي كانت تعرض فيه أمريكا مساعدات على الشعوب العربية مجتمعة مقدارها 135 مليون دولار .. وكانت هذه الأرقام متماشية مع المفهوم الذي تتبناه شركات البترول في أربعينات القرن العشرين ، ويتلخص في أن البترول هبة من الطبيعة جاءت بالمصادفة وليس لأصحاب الأرض أي فضل في وجودها ، بل إن الفضل كله يعود إلى الخبراء الذين درسوا ونقبوا وخاطروا وأنفقوا أموالهم ، فلولا الشركات لظل أصحاب الأرض فقراء .. وكانت فنزويلا أول من تصدى لهذا المفهوم .. فخلال الحرب العالمية الثانية كانت فنزويلا أهم مصدر خارجي للبترول بالنسبة للولايات المتحدة ، وقد استغلت فنزويلا هذا الاحتياج وطالبت بتقسيم عوائد البترول مناصفة بين الشركات الأجنبية والحكومة الفنزويلية .. أقر الكونجرس الفنزويلي هذه الاتفاقية في مارس 1943 ، وتم تفعيلها مع نهاية الحرب ..

وفي عام 1949 علمت الحكومة السعودية بمبدأ المناصفة الذي ظفرت به فنزويلا .. وكانت أرامكو آنذاك تربح ثلاثة أضعاف أرباح السعودية ، وكانت الحكومة الأمريكية تحصّل ضرائب من أرامكو على البترول السعودي تفوق الأرباح التي تحصل عليها السعودية نفسها من بيع البترول ! .. درست السعودية الأمر جيدا ، حتى أنها أرسلت خبيرا يدرس قانون الضرائب الأمريكي .. فعثر هذا الخبير على فقرة صدرت في عام 1918 تنص على أن الشركة التي تعمل خارج الولايات المتحدة تحصل على ميزة خاصة ، وهي أن كل مبلغ تدفعه الشركة بصفة ضرائب إلى حكومة أجنبية ، فإنه يخصم من مبلغ الضريبة المقررة داخل أمريكا .. وفي عام 1949 على سبيل المثال ، كانت السعودية قد قبضت 39 مليون دولار ثمنا لبترولها ، بينما قبضت حكومة الولايات المتحدة 43 مليون دولار كضرائب ! .. وهكذا إذا طالبت السعودية بمبلغ إضافي آخر هو 39 مليون دولار بصفة ضرائب للسعودية ، فإنه سوف يخصم من مبلغ 43 مليون دولار ، وبالتالي لا تدفع أرامكو للحكومة الأمريكية سوى أربعة ملايين دولار .. كان أفضل ما في مسألة التفاوض السعودي مع أرامكو ، أن السعودية تستفيد من الوضع الجديد وفي الوقت ذاته لا تضر التعديلات المطلوبة أرامكو التي سوف تدفع المبلغ على كل حال ..

رضخت أرامكو لطلبات السعودية ، خاصة وأن الحرب الكورية كانت قد اندلعت في يونيو 1950 وكان هناك تخوف أمريكي من الأطماع السوفيتية في الشرق الأوسط ، وكان لابد من تأمين كافة الأوضاع وتحقيق الاستقرار الكامل لجميع الأطراف ..

وهكذا انقلبت الآية .. ففي عام 1951 قامت أرامكو بدفع 110 مليون دولار للسعودية ، بينما دفعت ستة ملايين دولار فقط كضرائب لوزارة المالية الأمريكية ..

* * *

وفي التاسع من نوفمبر 1953 فارق مؤسس المملكة العربية السعودية الحياة في قصره بمدينة الطائف ..

ومن بعده اعتلى الملك **سعود بن عبد العزيز** العرش ..

لم يتغير شئ في طبيعة العلاقة السعودية الأمريكية .. فالمملكة مقيدة تجاه اتخاذ أي موقف سياسي لا يلقى قبول الأمريكان .. ومن الغريب أن يكون هذا هو الحال ، رغم أن البترول على أرض السعودية ، وكان الأولى أن تعمل الولايات المتحدة ألف حساب لكل ما يزعج السعودية حفاظا على مصالحها .. ورغم أن التأميم ظهر كبديل متوفر لمعظم دول العالم الثالث تجاه الشركات الأجنبية التي تنهب مواردها الطبيعية ، إلا أن المملكة العربية السعودية تلكأت في اتخاذ مثل هذه الخطوة الجريئة كي لا تغضب أحدا .. وبقيت أرامكو Arab American Company شركة أمريكية برأسمال أمريكي مسجلة في الولايات المتحدة الأمريكية .. وحتى تخفف الشركة من الضغط الشعبي على الحكومة السعودية نحو تأميم البترول في السعودية فقد قبلت الشركة في 11 مارس 1972 ببيع نسبة من أسهمها إلى الحكومة السعودية تبلغ 20 % ، ثم ارتفعت النسبة إلى 40 % .. وفي أواخر السبعينات جرت مباحثات في ولاية فلوريدا أسفرت عن تحول أسهم شركة أرامكو بالكامل إلى السعودية في عام 1980، وكذلك مجلس الإدارة أصبح أعضاؤه كلهم سعوديين ..

وفي عام 1974 تم التوصل إلى اتفاق بين الحكومتين الأمريكية والسعودية لتنظيم العلاقة بينهما ، وذلك بتكوين ما سمي باللجنة السعودية الأمريكية ، والتي ترأسها كل من ولي العهد السعودي الأمير **مهند بن عبد العزيز** و**هنري كيسينجر** وزير الخارجية الأمريكية .. وبموجب هذا الاتفاق قسمت عوائد البترول السعودي إلى ثلاثة أقسام : ثلث العائد يوجه إلى شراء بضائع وخدمات من السوق الأمريكية .. والثلث الثاني يوجه إلى شراء أسهم وسندات حكومية أمريكية .. أما الثلث الأخير فتتصرف فيه الحكومة السعودية وفقا لما تراه ! ..

وقد سمى ذلك بعملية إعادة تدوير دولارات البترول Petrodollars Recycling ..

وفي مقابل ذلك تتعهد الولايات المتحدة بالحفاظ على الأمن الداخلي والخارجي للمملكة العربية السعودية ..

جاءت تلك الاتفاقية المدروسة بعناية من جانب الخبراء الأمريكان لتجنب تكرار أزمة أكتوبر من جديد .. فالصعود المفاجئ في سعر البترول ساهم في أن تصبح السعودية فاحشة الغنى ، وكان لابد من إعادة

تحصيل تلك الدولارات لسد عجز الموازنة الأمريكية ..[65] أما استثمار ثلث العائد في أسواق المال الأمريكية فكان ضمانا جيدا على قوة الموقف الأمريكي ، فالأموال السعودية معرضة للتجميد إذا ما خرقت الاتفاق ..

وتشير إحصائيات وزارة الخزانة الأمريكية إلى أن حوالي ثلثي عائدات دول الأوبك من البترول في عام 1974 قد أنفق على استيراد السلع والخدمات من الدول الرأسمالية المتقدمة ، كما ارتفعت قيمة الصادرات الأمريكية إلى دول الشرق الأوسط من 3500 مليون دولار في عام 1973 إلى 5440 مليون دولار عام 1975 وإلى 7110 مليون دولار عام 1976 ثم إلى 12300 مليون دولار في عام 1977 ..

وكان هذا التطور يتماشى مع نظرة أمريكا للسعودية ..

وقد شهدت فترة ما بعد الحرب حالة من الجشع المتبادل ..

فكان الأمريكان يضغطون على السعوديين بشكل مستمر لشراء تجهيزات عسكرية أو طائرات بوينج أو القيام بأعمال البنية التحتية بمعرفة شركة بيكتل الأمريكية ، وفي المقابل كان السعوديون يلزمونهم بعمولات 5 % تدفع للـ 8000 أمير في البلاد ..

وهكذا يذهب البترول السعودي إلى أمريكا عبر البحار ، على أن تلحق به الأموال السعودية في أول طائرة ! ..

* * *

وللدلالة على الأهمية القصوى للمملكة العربية السعودية ، يمكن الإشارة إلى ما جاء في أحد تقارير لجنة الميزانية بالكونجرس الأمريكي في مطلع الثمانينات ، إذ يقول التقرير في إحدى فقراته : " إن حرمان الولايات المتحدة من بترول السعودية وحدها لمدة عام واحد سيترتب عليه انخفاض إجمالي الناتج القومي الأمريكي بمقدار 272 مليار دولار ، وارتفاع معدل البطالة في الاقتصاد الأمريكي بنسبة 2 % فضلا عن ارتفاع معدل التضخم " ..

ولم تكن الولايات المتحدة ترى في وجود البترول بهذه الكثافة في منطقة الخليج إلا خطأ ينبغي تصحيحه والحد من تداعيات خطورته ، وقد ذكر أحد سفراء الولايات المتحدة السابقين في السعودية ما يلي : " إننا ذهبنا لتصحيح خطأ الرب ، حيث جعل الثروة هنا ، بينما العالم المتحضر في مكان آخر " ..

* * *

ورغم الحرص المتبادل من الطرفين على تجنب المصادمات أو الدخول في مشاكل من أي نوع ، إلا أن أحداث حرب أكتوبر 1973 كانت لها تداعيات أقوى من أن يسيطر عليها أحد ..

ففي ذلك الوقت كان يتولى عرش المملكة الملك **فيصل بن عبد العزيز** الذي اعتلى السلطة في عام 1964..

---

[65] ارتفعت العائدات البترولية العربية من 14 مليار دولار عام 1972 إلى 214 مليار دولار في عام 1980 ..

وكان **فيصل** في طليعة العرب الذين اتخذوا قرارا بحظر البترول .. وأسفر القرار عن اشتعال أسعار البترول وعن حدوث أزمة دولية شديدة .. وقد حاول **هنري كيسينجر** التدخل لحل الأزمة .. ودعونا نتأمل تفاصيل ذلك التدخل ..

ففي أول نوفمبر 1973 مر الرئيس **السادات** بالسعودية في طريق عودته من زيارة للكويت ، وكان ذلك بناء على طلب عدد من الأمراء السعوديين يرجونه أن يجئ لتهدئة الملك **فيصل** لأنه متشدد جدا مع الأمريكان ولا يريد أن يقابل **كيسينجر** عندما يأتي إلى منطقة الشرق الأوسط ، وذلك لأن المملكة لم يدخلها في تاريخها يهودي ..

وعندما أتى **كيسينجر** إلى القاهرة ، قابل الكاتب الصحفي **محمد حسنين هيكل** وسأله :" إنني غدا مسافر إلى عمان، وليست عندي مشكلة مع الملك **حسين** فأنا أعرفه وتعاملت معه من قبل .. ولكن مشكلتي في المحطة التالية بعد عمان وهي المقابلة مع الملك **فيصل**، وأنا متشائم من جدوى هذه المقابلة، وأشعر أنني لن أستطيع أن أتعامل مع **فيصل** ، لأنه يبدو لي رجلا شديد التعصب ، فهل تنصحني بطريقة ما للتعامل معه ؟ " ..

ثم أكمل قائلا :"القدس .. القدس .. هذه أكبر العقد في المشكلة كلها . يظهر أن الطريق إلى **فيصل** مسدود" .

وعندما وصل **كيسينجر** إلى الرياض وقابل الملك ، رفض الملك أن يعطيه وعدا بإنهاء حظر البترول إلا إذا تم التوصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية وللصراع العربي الإسرائيلي ، بل إنه قد قال في حزم : " اسمع يا **هنري** .. أنا رجل مسن .. وقبل أن أموت أريد أن أصلي في مسجد عمر بالقدس " ..

وعن تلك المقابلة كتب الصحفي الأمريكي **دانييل بيرجين** يقول : " كان الملك **فيصل** قد رفض إعطاء وعد لوزير الخارجية **هنري كيسنجر** بإنهاء حظر البترول بعد حرب أكتوبر 1973 ، وقال له : الشرط الوحيد هو عودة القدس مدينة إسلامية عربية كما كانت تماما .. إن أمنيتي الوحيدة الباقية هي أن أصلي في المسجد الأقصى ولو كلفني ذلك حياتي .. وبالفعل كلفه ذلك حياته فقد جاء بعد تلك المقابلة حادث اغتيال الملك **فيصل** على يد ابن أخيه الذي جاء لتهنئة الملك **فيصل** عام 1975 بعيد الأضحى وبعد السلام على الملك أفرغ رصاصات مسدسه في صدر الملك وقتله فورا .. أشيع بعد ذلك أن القاتل مجنون ، لكن الحقيقة معروفة وإن لم يعترف بها أحد ، فقد قال الملك : أتمنى أن أصلي في المسجد الأقصى " ..

وكان الملك **فيصل** قد أدلى بحديث للتليفزيون الأمريكي قبل يومين اثنين من مصرعه قال فيه أن عودة القدس إلى الإدارة العربية أمر حيوي ولا يمكن القبول بغير ذلك ..

أما تفاصيل الاغتيال فهي كالآتي : في 25 مارس 1975 كان الملك **فيصل** يستقبل كبار رجال الدولة في مكتبه لتهنئته بعيد الأضحى ، وقد دخل عليه من بين الحضور ابن أخيه الأمير **فيصل بن مساعد بن عبد العزيز** وتظاهر بالسلام عليه ثم أطلق عليه الرصاص .. وقد تواترت شائعات تقول أن الأمير **فيصل بن مساعد** يعاني من خلل عقلي أفضى به إلى ارتكاب الجريمة النكراء .. وظلت هذه الشائعة متداولة لمدة ستة أيام بعد مصرع الملك حتى أعلنت مصادر القصر الملكي السعودي أن **فيصل** كان عندما ارتكب الجريمة :

" يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولا يزال كذلك " .. وقد اتضح فيما بعد أن الأمير **فيصل بن مساعد** عاش في الولايات المتحدة فترة طويلة وله عشيقة تدعى **كريستين** وأنه اعتقل في سبتمبر 1969 بتهمة ترويج المخدرات .. وفي 18 يونيو 1975 تم إعدامه بالسيف ، وفي ساحة العدل بالرياض علقت رأسه على خشبة لمدة 15 دقيقة ..

* * *

ومن بعد **فيصل** تولى الملك **خالد** حتى وفاته في عام 1982 ومن بعد **خالد** تولى الملك **فهد** ، وفي عهد الأخير تطورت علاقات الود والصداقة ووصلت إلى أعلى مراتب الانسجام .. ونرصد هنا واحدا من أبرز تلك المواقف التي تجلت فيها مظاهر الحميمية ..

كانت الإدارة الأمريكية تعاني من نفاد الأموال المخصصة لتمويل أنصارهم في نيكاراجوا (الكونترا) ، وكان الكونجرس يعترض على تخصيص المزيد من الأموال ، وكان لابد من إيجاد حل بديل .. وكانت الإدارة الأمريكية تدرك جيدا أنه في ظل النظام الملكي السعودي لا توجد مجالس تشريعية مماثلة أو لجان إشراف لها سلطة الرقابة على الحكم ، ومن هنا جاءت القناعة الأمريكية بأن الولايات المتحدة تستطيع أن تطلب من السعوديين المعونة الاقتصادية عندما تحتاج إلى دعم لا يقره الكونجرس ..

ولكن ظلت المشكلة الرئيسية تتمثل في أن السياسة الخارجية السعودية في أمريكا الوسطى تتعارض مع سياسة الولايات المتحدة هناك .. فحكومة الساندنيستا في نيكاراجوا والتي تستهدفها الولايات المتحدة موالية للعرب ، في حين أن النظامين اللذين تساندهما أمريكا في كوستاريكا والسلفادور قد قاما بإجراءات دبلوماسية معادية للعرب عندما نقلا سفارتيهما في إسرائيل من تل أبيب إلى القدس ..

وعندما طلبت الولايات المتحدة من السعودية تلك المعونة بشكل مبدئي ، اعترضت السعودية في البداية ، خاصة وأن السعوديين كانوا لا يثقون في إمكان الاحتفاظ بالأسرار في إدارة **ريجان** ، وأن أية مساعدة سعودية سرية للكونترا إذا تسربت ستثير حرجا شديدا للسعودية .. وفي نهاية الأمر رضخت السعودية للإلحاح الأمريكي في صفقة مقايضة عسكرية اقتصادية ..

ففي ذلك الوقت من عام 1984 كانت إيران تهدد حركة الملاحة البترولية في الخليج ، وذهب **بندر بن سلطان** السفير السعودي لدى الولايات المتحدة لمقابلة وزير الخارجية **جورج شولتز** لعرض تطورات الموقف .. وعلى الفور بعث الرئيس **ريجان** برسالة إلى الملك **فهد** يؤكد فيها مساندة السعوديين في أية مواجهة مع إيران .. وكان الملك **فهد** يريد عدة مئات من صواريخ ستينجر المتقدمة المضادة للطائرات ، إلا أن الولايات المتحدة وضعت بعض القيود على الصفقة .. وسارع **فهد** بكتابة رسالة سرية من سبع صفحات وأرسلها مع سفيره إلى الرئيس الأمريكي مباشرة الذي ما أن قرأها حتى قال للسفير السعودي : " نحن لا نفرض شروطا على أصدقائنا " ..

واستخدم **ريجان** سلطاته لإتمام صفقة الأسلحة دون عرضها على الكونجرس وتم نقل 400 صاروخ ستينجر سرا إلى السعودية .. وعندئذ سافر **بندر** إلى السعودية وحصل هناك على موافقة **فهد** على دفع مبلغ 8 مليون دولار لمساعدة الكونترا ..

وفي 22 يونيو 1984 التقى مستشار الأمن القومي **ماكفرلين** مع **بندر** في البيت الأبيض ، وهناك سلمه بطاقة مطبوعة تحمل رقم حساب الكونترا في بنك انترناشيونال في جزر كايمان .. ولضمان السرية قال **بندر** إنه سيسافر بنفسه إلى جنيف بسويسرا حيث يمتلك منزلا لكي يتولى بنفسه عملية تحويل النقود من خلال بنك سويسري ، واتفقا على أنه بمجرد أن تأخذ الأموال طريقها أن يبعث **بندر** بكلمة تفيد ذلك ، وإذا ما أرادا أن يشيرا إلى العملية في محادثة تليفونية فقد اتفقا على استخدام كلمة شفرية تشير إلى تسليم " السجائر " ..

وصل **بندر** إلى جنيف يوم 27 يونيو وطلب أن يأتيه في بيته مسئول من سويس بنك كوربوريشن حيث سلمه الشيك السعودي بمبلغ 8 مليون دولار ورقم الحساب في جزر كايمان ، وأخبره أنه يريد تحويل مبلغ مليون دولار إليه كل شهر وطلب إيداع المبلغ في الحساب العام للبنك وتحويلها منه بحيث لا يمكن تتبع مصدرها الأصلي .. وفي نفس الوقت كان **ماكفرلين** قلقا من التأخير واتصل بـ **بندر** تليفونيا قائلا : " إن صديقي لم يتلق سجائره وهو يدخن كثيرا " .. واستغرق الأمر في البنك السويسري أكثر من أسبوع لتصفية الشيك السعودي ، وتم تحويل المليون دولار الأولى في 6 يوليو .. وأرسل **ماكفرلين** بطاقة إلى الرئيس يبلغه فيها أن السعوديين يقومون الآن بتمويل الكونترا سرا .. ووصل إجمالي التمويل السعودي إلى الكونترا إلى نحو 21 مليون دولار .. وبالإضافة إلى تلك العملية ، تعاونت السعودية مع أمريكا في دعم الجهود المناهضة لـ **القذافي** في تشاد وتكلفت 8 مليون دولار ، وفي تنفيذ عملية سرية للحيلولة دون وصول الشيوعيين للحكم في إيطاليا وتكلفت 2 مليون دولار ، وفي دعم معارضي نظام الحكم الشيوعي في إثيوبيا وتكلفت نصف مليون دولار سنويا ..

* * *

وظل كل شئ هادئا ومستقرا حتى قامت حرب الخليج الثانية ، واقترب الخطر العراقي من المملكة .. ومع اندلاع الحرب في الخليج ، كانت هذه فرصة ذهبية للولايات المتحدة للدخول بقواتها إلى المنطقة والبقاء بالقرب من مصالحها البترولية .. وفي مكالمة تليفونية للرئيس **بوش** الأب مع الملك **فهد** ، قال فيها : " يا صاحب الجلالة ، يجب أن تعلموا بأن **صدام حسين** لن يتوقف عند الكويت .. نحن إلى جانبكم " .. وهكذا جاءت القوات الأمريكية إلى شبه الجزيرة العربية ، وأخرجت العراق من الكويت ومنعت احتمالات دخوله إلى باقي الجزيرة العربية ، وبقيت هي بدلا منه على أن تدفع السعودية 100 مليون دولار سنويا ثمنا لإقامتها ! ..

* * *

وفي عام 2003 كانت الجزيرة على موعد جديد مع حرب جديدة لإسقاط النظام العراقي ، وجاءت ألوف إضافية من القوات الأمريكية .. ولكن في هذه المرة كان الاعتماد على الكويت بالأساس .. لم تكن العلاقة الأمريكية السعودية على ما يرام منذ أحداث سبتمبر 2001 ، خاصة بعد أن أُعلن أن أغلب المتهمين في إسقاط الطائرات كانوا من السعوديين ..

وفي 26 أغسطس 2002 تحدث **بوش** الابن هاتفيا مع ولي عهد السعودية لطمأنته .. إذ كانت لجنة الدفاع السياسي وهي هيئة لتقديم الآراء مرتبطة بالبنتاجون برئاسة **ريتشارد بيرل** ، قد سربت إلى الصحافة أقوالا أوردها خلال أحد الاجتماعات محلل من راند كوربوريشن وهي هيئة قريبة إلى وزارة الدفاع ، فقد وصف ذلك المحلل المملكة العربية السعودية في مداخلة له بأنها بذرة إرهاب وأنها " أول وأخطر خصم للولايات المتحدة في الشرق الأوسط ، وقد أوصى بتجميد الممتلكات السعودية ، واقتطاع القسم الشرقي من المملكة ، وهو القسم الذي يضم آبار البترول " ..

* * *

أما عن المستقبل ، فالغموض يكتنفه ..

فالأحوال الداخلية للسعودية تعاني من أزمة عنيفة ناتجة عن عمليات إرهابية متكررة ..

ثم إن الطفرة الأخيرة في أسعار البترول تمنح السعودية وسائر دول الخليج إحساسا زائفا بالنمو الاقتصادي الكبير ، وهو ما لم يحدث فعليا .. كما أن أوضاع العائلة المالكة ليست في أفضل حالاتها .. لدرجة أن الملك **عبد الله** – وقت أن كان وليا للعهد – بذل قصارى جهده للحد من امتيازات الـ 8000 أمير ، فألزمهم بدفع فواتير الهاتف المستحقة عليهم ، وقد وصل المبلغ غير المدفوع عن المكالمات المستحقة بين عامي 1998 و2000 إلى رقم فلكي غير معقول فاق 880 مليون دولار .. فضلا عن أن 20 % من عائدات البترول في السعودية مخصصة لأفراد العائلة المالكة ، وهو رقم خرافي يثير الكثير من التوتر لدى بعض الأوساط ..

أما الأهمية الكبيرة للمملكة لدى الولايات المتحدة فقد تراجعت نوعا ما في الآونة الأخيرة بعد أن صار بترول العراق في متناول الأيدي ..

والمتابع للرصيد السعودي من البترول ، سوف يجد أنه لم يُعثر في السعودية في العشرين سنة الأخيرة على حقول جديدة تستحق الذكر وقد استخرج ما يقارب من مائة مليار برميل حتى الآن ، وإذا طرحنا هذا الرقم من إجمالي الاحتياطي السعودي ، فسوف يبقى نحو ثلثي الرصيد .. وإذا ما عرفنا أن السعودية تنتج نحو 9 مليون برميل يوميا ، أي 3.3 مليار برميل سنويا ، فإن ذلك معناه أنه في حالة ثبات الإنتاج حول هذا المعدل – والمرجح أن يزيد كنتيجة طبيعية لزيادة الاستهلاك العالمي – ، فإن المخزون البترولي لدى السعودية سوف ينتهي تماما قبل ستين عاما من الآن ، وليس الحال بأفضل من ذلك في باقي دول المنطقة .

حسنا .. ما زال أمام السعودية نحو نصف قرن من البقاء في دائرة الاهتمام ..

* * *

" للسعوديين سلوك غريب قائم على أنهم لا يريدون أن يُنظر إليهم من جيرانهم بالذات على أنهم يقيمون علاقات مع الولايات المتحدة ، أو يسعون لإقامة علاقة معنا " ..

مادلين أولبرايت وزير خارجية أمريكا في عهد **كلينتون** ..

علاقة غريبة بالفعل .. علاقة مقصوفة العمر ، مفتعلة من الطرفين ، قائمة على توازن مؤقت ..

بدأت فجأة منذ ستين عاما من أجل الاستحواذ على البترول ، وسوف تنتهي دون سابق إنذار بعد ستين عاما من الآن حين الانتهاء من نهبه بالكامل ..

(42)
فـلســطيــن : الجــريــمــة

نظر أحد سكان المجرات المجاورة في تلسكوبه المتطور نحو الأرض ، فلفت انتباهه المشهد التالي :
كلب شرس يسير في تحفز ، يجر خلفه رجلا أعمى يربطه بسلسلة طرفها الأول في رقبة الكلب والثاني في معصم الرجل .. ثم لاحظ أن الكلب يقود الرجل حيث يشاء ، حيث يشاء الكلب لا الرجل ..
هنا سأل ساكن المجرة البعيدة نفسه هذا السؤال :
ترى مَن السيد ومَن الخادم على هذا الكوكب ؟ .. هل هو الرجل أم تراه الكلب الذي يقوده .. أيهما الرابط وأيهما المربوط ، أيهما التابع وأيهما المتبوع ؟ .. ثم انتهى إلى هذا التفسير المعقول :
رغم أن الكلب ضئيل الحجم مقارنة بالرجل ، ورغم أنه يبدو أدنى في المكانة ..
إلا أنه مع ذلك ..... هو السيد ..

* * *

ربما تكون فلسطين أكثر "دولة" في العالم – حتى هذا اللقب " لم تحظ به بعد – تعرضت لبطش أمريكا .. يكفي مثلا أن الولايات المتحدة استخدمت حق النقض الفيتو 79 مرة حتى الآن ، ومن بين هذه المرات كانت هناك 39 مرة ذات صلة بإسرائيل ، وفي معظم هذه المرات كان المتضرر الوحيد من الفيتو هو الشعب الفلسطيني ، وكان المستفيد الوحيد هو ذلك الكلب الإسرائيلي الذي يجر سيده الأمريكي نحو مزبلة التاريخ ..

* * *

عموما .. سأكتفي في هذا الفصل الخاص بفلسطين ببعض الملاحظات العابرة[66] ، ولكن قبل ذلك أطلب من القارئ التركيز في الفقرة المقبلة :

ما الذي تعنيه كلمة الشام .. بلاد الشام ؟ .. شام تحريف لـ " **سام** " .. و**سام** هو ابن **نوح** .. ولـ **نوح** ثلاثة أبناء هم **سام** أبو العرب والفرس ومن حولهما ، و**حام** أبو السود ، و**يافث** أبو الروم .. وساكنو بلاد الشام هم أبناء **سام** .. والعرب ساميون .. واليهود أيضا من نسل **سام**[67].. و**إبراهيم** وآل **يعقوب** من أحفاد **سام** .. وسيدنا **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر** هو الآخر من أحفاد **إسماعيل** ابن **إبراهيم** .. وعرب الشام الآن هم خليط من عرب الجزيرة الذين هم أحفاد **إسماعيل** ونزحوا إلى الشام مع انتشار الإسلام ، بالإضافة إلى أحفاد **سام** الموجودين من البداية في الشام .. و**إسماعيل** هو ابن **هاجر** المصرية وأخو **إسحاق** الذي هو أبو **يعقوب** ..

---

[66] تفاصيل كثيرة خاصة بفلسطين وبالموقف العربي ككل نؤجلها لكتاب آخر بإذن الله تعالى ..
[67] يهود العرب فقط من نسل **سام** وهؤلاء لا يمثلون سوى 5% من تعداد اليهود الحالي ، فلا يُعقل مثلا أن يكون يهود الفلاشا الأثيوبيين من أحفاد **سام** .. قطعا ولا يهود أمريكا الذين هم جميعا تقريبا إضافة إلى معظم يهود أوروبا من أحفاد يافث ..

و**يعقوب** هو **إسرائيل** .. أي أن **إسماعيل** عم **إسرائيل** .. والمصريون هم خليط من أحفاد **سام** وأحفاد **حام** ولديّ **نوح** .. ثم إن أحدا لا يعادي أحدا لأن جده الأكبر الذي عاش من عشرة آلاف سنة هو أخ شقيق أو غير شقيق للجد الأكبر لأبناء العمومة **!!**

اقرءوها من الأول ..

* * *

ثم هذه بعض المشاهد المتفرقة ترسم لقطات عابرة عن المدخل إلى الأزمة وطبيعة علاقة إسرائيل بأمريكا .

* * *

بدأت هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة في القرن السابع عشر ، حيث وصل إليها 23 يهوديا استقروا في مدينة نيو أمستردام التي أصبحت نيويورك فيما بعد .. ثم ازداد عددهم بعد استقلال الولايات المتحدة في عام 1776 ليصل إلى أربعة آلاف في عام 1820 ، ثم 280 ألف عام 1880 ، وقبل الحرب العالمية الثانية كان عددهم يقدر بـ 4.8 مليون يهودي ، وحاليا هم ستة ملايين يهودي في الولايات المتحدة ..

* * *

في عام 1897 كان زعماء اليهود في أوروبا يجهزون لمؤتمرهم الأشهر .. وكان **ماكس نوردو** أحد هؤلاء الزعماء ، لكنه كان مترددا في قبول فكرة إنشاء وطن في فلسطين خاصة مع وجود آراء أخرى تروج إلى وطن آخر في الأرجنتين أو في أوغندا .. وكان مبعث تردده أنه أراد قبل انعقاد المؤتمر أن يقنع بعض الحاخامات الأوروبيين المترددين ، وقام بإعداد رحلة لاثنين منهم إلى فلسطين كي يتأكد الحاخامات مما كان يروج له **تيودور هرتزل** في مشروعه الخاص بإقامة دولة يهودية في فلسطين من أن فلسطين هي " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " .. وجاءت المفاجأة بأن تلقى **نوردو** تلجرافا من رسوليه إلى فلسطين يقول في كلمات مقتضبة : " العروس جميلة جدا ومستوفية لجميع الشروط ولكنها متزوجة بالفعل " **!** .. لكن زواج العروس لم يحل دون قيام الدولة الإسرائيلية بعد أن نجح اليهود في خلع الزوج ..

* * *

في عام 1914 مع بداية الحرب العالمية الأولى وعدت بريطانيا العرب بمساعدتهم على الاستقلال عن الدولة العثمانية بشرط دخولهم الحرب إلى جانب بريطانيا ضد الدولة العثمانية التي دخلت الحرب بجانب ألمانيا ..

تزامن هذا الوعد مع وعد آخر ..

ففي أثناء الحرب العالمية الأولى عُيّن عالم الكيمياء اليهودي **حاييم فايتسمان** - أول رئيس لدولة إسرائيل بعد ذلك - مديرًا لمختبرات سلاح البحرية البريطانية ، حيث ساهم في تطوير اكتشاف مادة الأسيتون الحارقة واستخدامها للأغراض الحربية التي ساعدت المجهود الحربي للحلفاء .. ثم شارك في المفاوضات الصهيونية البريطانية التي أسفر عنها وعد **بلفور** في الثاني من نوفمبر 1917 ..

* * *

في مذكرة بتاريخ 28 يناير 1944 كتب **أدولف بيرل** مساعد وزير الخارجية الأمريكي إلى وزير الخارجية **كوردال هيل** يقول : " عزيزي الوزير .. أرفق لكم مع هذه المذكرة نص مشروع القرارين رقمي 418 و419 المعروضين على مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وهما بنفس الصيغة : " قرر الكونجرس الطلب إلى حكومة الولايات المتحدة بأن تبذل كل مساعيها الحميدة وأن تقوم بكافة الخطوات الضرورية لفتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، وأن يكون لهم الحق في استعمار هذه البلاد وإنشاء دولة يهودية حرة ديمقراطية فيها " .. إن زعيم الأغلبية في مجلس النواب **جون ماكورمك** وكذلك زعيم الأقلية **جوزيف مارتن** اتصلا بي تليفونيا وأبلغاني بهذا المشروع ، وطلبا تقديمه إليك " ..

* * *

وفي 9 مارس 1944 نشرت وكالة رويترز برقية صادرة من واشنطن تقول : " إن الحاخامين الدكتور **ستيفن وايز** والدكتور **أباهيلل سيلفر** ممثلين عن الحركة الصهيونية الفلسطينية قد قابلا الرئيس **روزفلت** اليوم ، وقد صرح لهما بإعلان البيان التالي على لسانه : إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة 1939 والذي حدد هجرة اليهود إلى فلسطين .. إن الرئيس **روزفلت** يعلن عن سعادته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود .. وعندما يحين الوقت لتقرير شئون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومي لليهود في فلسطين .. إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكي بعطف عميق .. والآن وأكثر من أي وقت مضى ، فإن مأساة مئات الألوف من اليهود لابد وأن تلفت أنظار الجميع وأن توجههم إلى حيث العدل والخير " ..

* * *

وفي عام 1946 كتب الكولونيل **ويليام إيدي** الوزير الأمريكي المفوض في جدة في مذكراته يقول أن الرئيس **ترومان** قد أبدى اهتماما بالمطالب اليهودية في فلسطين ، فحاول **إيدي** أن يلفت انتباهه أن ذلك قد يغضب العرب ، فانفعل عليه **ترومان** وقال غاضبا : " اسمع .. إنني أنوي ترشيح نفسي للرئاسة مرة أخرى ، وحسب علمي فإن العرب ليس لديهم أصوات في الانتخابات الأمريكية ، لكن اليهود لهم أصوات ولهم تأثير " ..

* * *

عندما صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 لعام 1947 ، فقد طالب بتقسيم فلسطين التي كانت لم تزل بعد تحت انتداب عصبة الأمم إلى دولة عربية وأخرى يهودية على أن تكون القدس تحت الوصاية الدولية وقد منحت خطة التقسيم هذه 44 % من أرض فلسطين للفلسطينيين ليقيموا عليها دولتهم ، في الوقت الذي كان يملك فيه الفلسطينيون آنذاك 94% من الأراضي مقابل 6% فقط لليهود .. وبالمقارنة

بقرار مجلس الأمن رقم 242 الذي طالب بجلاء إسرائيل عن "الـ" أراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب يونيو 1967 ، فإن هذا القرار يمنح الفلسطينيين 20 % فقط من أرض فلسطين .. بينما تمنحهم خارطة الطريق الحالية 13 % من فلسطين ، ويبذل جميع العرب كل غال ورخيص في مقابل الظفر بهذا الإنجاز العظيم ، وتتلكأ إسرائيل والولايات المتحدة في المضي قدما نحو إنشاء دولة فلسطين على هامش التاريخ والجغرافيا ! ..

* * *

في 15 مايو 1948 أعلن البيت الأبيض أن الرئيس الأمريكي **هاري ترومان** منح اعترافا دبلوماسيا للدولة الجديدة إسرائيل ، وذلك بعد إحدى عشرة دقيقة من قيامها ..[68]

وعقب إعلان قيام الدولة عرض **بن جوريون** إعلان حدود الدولة الجديدة ، لكن **بنحاس روزن** الذي أصبح فيما بعد وزيرا للعدل اعترض لأسباب قانونية مؤكدا إمكانية إعلان قيام دولة بدون الإشارة إلى حدودها ، وأضاف قائلا : " إننا نعتزم احتلال الخليل والقدس بكاملهما ونضمهما لدولتنا ، فلم نتخذ من الآن قرارا يلزمنا بحدود ؟ " ..

كانت هذه ملاحظة في منتهى الأهمية التاريخية ، تزداد قيمتها كلما تمادت الولايات المتحدة في تأييد إسرائيل استغلالا لضعف العرب..

* * *

في مقدمة كتاب " التاريخ اليهودي .. عبء ثلاثة آلاف سنة " كتب الأديب الأمريكي **جور فيدال** يقول أنه سمع من الرئيس الأمريكي **جون كينيدي** أن الرئيس **هاري ترومان** كان يشعر بالإحباط أثناء ترشيحه للرئاسة في انتخابات 1948 لأن معظم أصدقاء سلفه **روزفلت** قد تخلوا عنه لاعتقادهم في ضعف فرص نجاحه .. وقد ساءت معنوياته تماما إلى جاء يوم ظهر أمامه فجأة أحد الناشطين في الحركة الصهيونية في محطة توقف عندها قطار حملته الانتخابية ، ثم قدم إليه في سرعة حقيبة يد فيها 2 مليون دولار نقدا وهو يرجوه اعتبارها مساهمة في حملته الانتخابية .. وقد ختم **فيدال** عبارته أن **كينيدي** قال له في النهاية : " وهكذا اعترفنا بدولة إسرائيل قبل إعلان قيامها " ! ..

* * *

اعترافا بفضل **ترومان** في إنشاء دولة إسرائيل ، أثنى عليه حاخام إسرائيل الأكبر وربت على كتفه قائلا في صدق وتأثر : " لقد وضعك الله في رحم أمك كي تعيد إنشاء إسرائيل " ..

* * *

في 17 سبتمبر 1948 اغتالت عصابة شتيرن الصهيونية وسيط الأمم المتحدة الكونت السويدي **برنادوت** – وهو ابن عم ملك السويد – في القطاع الإسرائيلي من القدس .. جاء الاغتيال بعد يوم واحد من تقديم تقريره

---

[68] بعض المصادر الأخرى تتحدث عن ستة عشر دقيقة .. أي أنه قد يكون هناك خمس دقائق كاملة من التقصير !

إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة عن مهمته في فلسطين والذي تضمن مقترحاته وتوصياته بشأن حل الأزمة .. لم ترق مقترحاته للعصابات الإسرائيلية إذ كان من بينها وصيته بأن توضع مدينة القدس تحت إشراف الأمم المتحدة وأن تكون منطقة النقب في الجنوب الفلسطيني ضمن الدولة العربية ، حتى يستمر الاتصال العربي عبر النقب شرقا وغربا .. وللإنصاف ، نذكر أن مقترحاته لم تحظ بتأييد العرب كذلك ..

* * *

في 11 مايو 1949 تم فرض إسرائيل بالقوة على منظمة الأمم المتحدة تحت ضغط شديد من أمريكا ، فقبلتها الأمم المتحدة عضوا ، لكن بشروط ثلاثة : أولا : عدم المساس بوضع مدينة القدس ، وثانيا : السماح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم ، وثالثا : احترام الحدود التي وضعها قرار التقسيم .. ويبدو أن هذه الشروط قد دوّنت بالقلم الرصاص ..

* * *

في عام 1950 وقبيل انتهاء العصر الملكي في مصر، رغبت الولايات المتحدة في إيجاد حل لقضية اللاجئين الفلسطينيين التي كانت في مهدها آنذاك .. فقامت بعرض مشروع على الملك **فاروق** بأن تقوم الولايات المتحدة بشراء شبه جزيرة سيناء مقابل مبلغ يتم التفاوض بشأنه على أن تقوم بتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها .. ورفض الملك **فاروق** ذلك العرض بشكل حاسم ..

* * *

في الانتخابات الأمريكية لعام 1952 جاء أكثر من 80% من أموال الحملة الانتخابية الرئاسية للحزب الديمقراطي من اليهود ، في حين بلغ نصيبهم في تمويل حملة الجمهوريين نحو 60% ..

* * *

في أول مقابلة لـ **كينيدي** مع الرئيس الإسرائيلي **بن جوريون** في فندق وولدورف استوريا بنيويورك عام 1961 ، قال له **كينيدي** : " أعرف تماما أنني انتخبت بفضل أصوات اليهود الأمريكيين وأنا أدين لهم بانتخابي ، فقل لي بالضبط ماذا عليّ أن أفعل من أجل الشعب اليهودي " ..

* * *

عن **كينيدي** قال أحد المسئولين الإسرائيليين : " لقد فقدنا صديقا كبيرا ، ولكننا وجدنا من هو أفضل منه .. إن **جونسون** هو أفضل صديق عرفته الدولة اليهودية في البيت الأبيض " ..

* * *

في 2 يونيو 1964 وقف الرئيس **جونسون** مستقبلا رئيس الوزراء الإسرائيلي **ليفي أشكول** على أبواب البيت الأبيض ، ثم وجه **جونسون** كلامه إليه أمام الصحافة بشكل علني قائلا : " إن إسرائيل لها أن تعرف وأن تثق بأن لها صديقا وفيا وحميما في البيت الأبيض ، وأن سلامة وأمن إسرائيل هما جزء لا يتجزأ من سلامة وأمن الولايات المتحدة " .. وعلى الفور اجتمع ثلاثة عشر سفيرا عربيا في واشنطن ، وقرروا أن

يذهبوا معا إلى مبنى وزارة الخارجية ليسلموا احتجاجا جماعيا باسم العرب على تصريحات **جونسون** الرسمية بشأن إسرائيل ، وهناك استقبلهم مساعد وزير الخارجية واستمع إليهم في ضجر ثم قال في استخفاف : " إن مواكب احتجاج السفراء العرب آن لها أن تتوقف ، لقد أصبحت مثل مواكب الجنازات " .. وكانت هذه إهانة جماعية ذات صبغة رسمية ..

* * *

في 7 يونيو 1966 أعلنت البيانات الأمريكية الرسمية أن الجنرال الإسرائيلي **موشي ديان** قام بزيارة إلى البيت الأبيض وأنه توجه من واشنطن إلى فيتنام ليدرس سير الحرب هناك ويقدم تقريرا عما يقترحه بشأن إدارتها إلى الرئيس الأمريكي **جونسون** ..

إلى هذا الحد المفزع كانت الولايات المتحدة تحترم إسرائيل وتثق في قدراتها ..

* * *

" على الولايات المتحدة أن تساعد إسرائيل ، كما لو كان العرب غير موجودين " .. عبارة قالها **روبرت كينيدي** عضو مجلس الشيوخ الأمريكي عن دائرة نيويورك والمرشح لرئاسة الجمهورية لعام 1968 ..

والحق أن الولايات المتحدة تفعل ذلك منذ ثلاثين عاما ..

* * *

في عام 1977 التقى **جيمي كارتر** بقداسة البابا **شنودة** بطريرك الأقباط ، وقد بادره **كارتر** بسؤال عن موقف الكنيسة المصرية من أن اليهود ليسوا شعب الله المختار .. فقام البابا بشرح التفسير المسيحي لما ورد في العهد القديم موضحا أن اليهود كانوا في العهد القديم وقت أن نزلت التوراة هم شعب الله المختار، لأنهم ببساطة كانوا الشعب الوحيد الذي خرج منه الأنبياء حين كان العالم كله لم يزل وثنيا .. أما الآن فقد صار من غير المنطقي أن يختص الله اليهود ويترك ملايين المؤمنين به في العالم من حولهم ..

ولا أظن أن **كارتر** قد استوعب حرفا واحدا مما قاله البابا المصري ..

ففي أواخر السبعينات وقف الرئيس **جيمي كارتر** في أحد المعابد اليهودية بنيو جيرسي مرتديا ثوبا فضفاضا من القطيفة الزرقاء ، وهو يقول في تأثر : " إنني أعبد نفس الرب مثلكم .. ونحن المعمدانيون ندرس نفس التوراة مثلكم " .... ثم ختم خطابه بقوله : " إن بقاء إسرائيل على قيد الحياة لا يقوم على السياسة ، ولكنه قبل أي شئ واجب أخلاقي " ..

* * *

في عام 1992 وأثناء المعركة الانتخابية في الولايات المتحدة بين **بوش** و**كلينتون** حدث أن أذيع تسجيل نص مكالمة تليفونية لـ **ديفيد ستينر** مدير منظمة آيباك اليهودية الشهيرة – وهي أساس قوام اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة – وقد جاء في المكالمة ما يدل على أن مدير المنظمة اليهودية قادر على تعيين وزراء الخارجية والدفاع في إدارة **كلينتون** – إذا ما نجح – كما أنه قادر في ذات الوقت على فرض

أوامره وشروطه على كبار مسئولي إدارة **بوش** ، فضلا عن عبارة أخرى تؤكد على أن العديد من المقاعد في مجلس الشيوخ ومجلس النواب هي تحت تصرفه الشخصي ..

* * *

في أثناء حملته الانتخابية ، أعلن **كلينتون** أن " قس الكنيسة الذي يؤدي الصلاة عنده أوصاه خيرا بإسرائيل " .. وقد قام **كلينتون** ونائبه **آل جور** بنشر كتاب في إطار حملتهما بعنوان " Putting People First: How We Can All Change America" وقد أوضحا فيه أن الإدارة الجمهورية السابقة بقيادة **بوش** الأب قد أظهرت تقصيرا بالغا في حق إسرائيل وذلك بممارستها ضغوط هائلة على إسرائيل لتقديم تنازلات من جانب واحد في عملية السلام ، كما أنها باعت أسلحة متطورة لجيرانها العرب ، وأعلنا بوضوح لا لبس فيه أن القدس هي عاصمة إسرائيل وعارضا إنشاء دولة فلسطينية مستقلة ..

* * *

أثناء صلاة فجر يوم الجمعة 25 فبراير 1994 اقتحم **باروخ جولدشتاين** الإسرائيلي الأمريكي المولد قبر **إبراهيم** في الخليل وفتح النار من سلاحه الآلي على الفلسطينيين وقتل نحو 50 فلسطينيا وأصاب أكثر من 70 آخرين .. وقُتل **جولدشتاين** نفسه أثناء الحادث ، فقد ضربه حتى الموت شهود المذبحة الغاضبون وعمت أعمال الشغب وإلقاء الحجارة سائر أنحاء الضفة الغربية وغزة ، وفتح الجنود النار على المظاهرات ليقتلوا 19 فلسطينيا وأصيب كثيرون .. كتب **بطرس غالي** إلى رئيس وزراء إسرائيل **إسحق رابين** في نفس اليوم قائلا له إن الأمم المتحدة مستعدة للمساعدة في تخفيف حدة التوتر الناجمة عن تلك الأحداث ، بما في ذلك الوجود في الخليل في حالة إعراب كافة الأطراف عن رغبتها وموافقتها وبعث برسالة مماثلة إلى **ياسر عرفات** .. غير أن **جيمس روبين** المتحدث باسم البعثة الأمريكية لدى الأمم المتحدة هاجم موقف **غالي** بشدة معلنا : " نحن لا نعتقد أن اقتراح الأمين العام عامل نافع أو مفيد على الإطلاق " ..

وعندما سأل صحفي عربي بطرس غالي عن ذلك ، قال له : " إنه أمر غريب أن أبعث برسالة إلى رابين في القدس ، ثم أتلقى الرد من روبين في نيويورك " ..

* * *

كان من رأي الرئيس **كلينتون** أنه من صالح العرب أن يتركوا القدس لإسرائيل .. وإذا كان العرب والمسلمون على تصميمهم بأن القدس عربية ، فإنه في مقدورهم تغيير اسم قرية قريبة وراء التل هي " أبو ديس " ويطلقوا عليها اسم القدس ، وميزتها أنها على بعد كيلومترات قليلة من القدس الأصلية أمام التل ، وبذلك يتم حل المشكلة العويصة المزمنة بمنتهى البساطة .. وقد أضاف **كلينتون** إلى ذلك أنهم قد فعلوا ذلك كثيرا في أمريكا ، فهناك مدن كثيرة في أمريكا اسمها القدس ، وهناك مدن اسمها القاهرة والاسكندرية وبيروت !..

تاهت ولقيناها ! ..

* * *

بلغ مجموع المساعدات الرسمية التي قدمتها الولايات المتحدة لإسرائيل من عام 1949 وحتى عام 1996 حوالي 76.6 مليار دولار ، مع ملاحظة أن قيمة هذه المبالغ أعلى بكثير إذا ما وضعنا في الاعتبار معدلات التضخم وفروق الأسعار والعملة منذ خمسينات القرن العشرين ومرورا بجميع مراحل الإقراض حتى يومنا هذا ..

* * *

تلتزم الولايات المتحدة باستيراد الصادرات الإسرائيلية التي لا تنجح إسرائيل في تسويقها ، وهو الأمر الذي يفسر الفائض التجاري الإسرائيلي الدائم مع الولايات المتحدة ، على عكس الميزان التجاري الإجمالي لإسرائيل الذي يحقق عجزا مستمرا ..

* * *

في منتصف عام 2000 أعلن المرشح الجمهوري **جورج بوش** الابن أنه سيبدأ إجراءات نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس في حالة فوزه في الانتخابات .. ووصف الدول العربية بـ " جيران إسرائيل المعادين لها " ، وتحدث عن رغبة إسرائيل في السلام وأمله في أن تحذو الدول العربية حذوها ، مقدرا تضحيات إسرائيل غير المحدودة من أجل السلام ! ..

* * *

في 29 سبتمبر 2000 بدأت انتفاضة الأقصى ، وهو اليوم الذي تلا ذهاب **شارون** إلى الحرم الشريف في حراسة ألف جندي ..

وفي اليوم التالي وكان يوم جمعة فوجئ الفلسطينيون بعد انتهاء صلاة الجمعة بتواجد كبير للجيش الإسرائيلي ، فبدأوا بإلقاء بعض الحجارة كالمعتاد ، إلا أن الجيش الإسرائيلي رد بإطلاق الرصاص فورا ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى مقتل ستة فلسطينيين وجرح أكثر من 200 .. وفي الأيام الأولى من أكتوبر قامت طائرات الهليكوبتر بتصعيد العنف وقصف المدنيين بشكل عشوائي ..

وفي 3 أكتوبر أعلنت الصحف أن الولايات المتحدة وإسرائيل وصلتا إلى اتفاق هو الأعظم خلال العقد يقتضي بإرسال طائرات الهليكوبتر العسكرية الأمريكية الهجومية إلى إسرائيل بالإضافة إلى قطع الغيار .. ثم أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي عن عدم قدرة بلاده على إنتاج طائرات الهليكوبتر .. ومن ثم ، فعلى إسرائيل أن تأتي بها من الولايات المتحدة .. وفي 19 أكتوبر أصدرت منظمة العفو الدولية تقريرا يلزم الولايات المتحدة بعدم إرسال طائرات عسكرية هليكوبتر إلى إسرائيل تحت هذه الظروف الطارئة ..

وفي 19 فبراير 2001 أعلن البنتاجون عن اتفاقية أبرمت بين إسرائيل والولايات المتحدة تتعلق بتنفيذ بصفقة قيمتها نصف مليار دولار من طائرات الأباتشي المهاجمة ..

وكان اللافت للنظر بعد كل ذلك ، أن يصدر تصريح رسمي من الإدارة الأمريكية في مارس 2001 يقول في إيجاز صارم : " نحن لا نؤمن بمكافأة العنف " ..

لم يكن هذا التصريح موجها إلى إسرائيل ! ..

* * *

في 23 أغسطس 2001 دخلت الدبابات الإسرائيلية إلى مدينة الخليل ، وكان هناك مشهد مأساوي لجندي إسرائيلي يطرح امرأة فلسطينية أرضا ويدوس على رأسها بجزمته ، وفي اليوم التالي خرج **بوش** يعلن في مؤتمر صحفي ما يلي : " لن يفاوض الإسرائيليون تحت تهديد الإرهاب .. الأمر هو هكذا ، بكل بساطة . فإذا كان الفلسطينيون معنيين بالحوار ، أنا أدعو **عرفات** بحزم ليبذل جهوده مائة بالمائة لوقف النشاط الإرهابي .. وأنا على يقين بأنه يستطيع أن يفعل ما هو أفضل مما يفعله الآن " ..

* * *

في أبريل 2002 كان قد صدر قرار من الأمم المتحدة يدعو إلى الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي التي احتلت حديثا وبدون تأخير .. وقد كانت تلك هي الفترة التي شهدت حبس **عرفات** في مقره والتهديد بقتله واجتياح عدد من المدن الفلسطينية .. وردت إسرائيل على القرار الدولي بتصعيد عملياتها ضد الفلسطينيين ، فظهر وزير خارجية الولايات المتحدة **كولن باول** على شاشات التليفزيون يقول في سرور : " أنا سعيد لسماعي ما يقوله رئيس الوزراء عن تعجيله في عملياته " ..

أي الإسراع بقتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين في أقل مدة زمنية !! ..

* * *

" من يقف بجانب إسرائيل ، يقف بشجاعة إلى جانب المسيح " ..

هكذا وقف زعيم الأغلبية **ويب توم دي لاي** يهتف في الكونجرس أمام جموع الحاضرين في أحد مؤتمرات عام 2003 .. ويؤكد هذا المعنى القس الأمريكي الشهير **جيري فولويل** عندما يقول في خطبه التبشيرية : " إن من يقف ضد إسرائيل ، فهو يقف ضد الله " ..

* * *

في يوليو 2004 أقرت محكمة العدل الدولية إزالة الجدار العنصري الذي تبنيه إسرائيل وتعويض المتضررين .. أعلنت المحكمة رأيها الاستشاري حول مدى شرعية بناء جدار عازل في الضفة الغربية .. وجاءت موافقة 14 قاض على عدم شرعية الجدار في مقابل اعتراض صوت واحد للقاضي الأمريكي ..

* * *

في كل مرة أسمع أحدهم يقول بأن إسرائيل هي حليفتنا الوحيدة في الشرق الأوسط أحدث نفسي قائلا : إننا وقبل إسرائيل لم نكن نملك أعداء في تلك المنطقة .. القس الأمريكي **جون شيهان**

* * *

لقد استطاعت إسرائيل أن تنتهك 250 قرارا من قرارات الأمم المتحدة منذ نشأتها ، نتيجة تمتعها بالحماية والدعم غير المشروط من جانب القوة العظمى التي تمتلك تكنولوجيا التدمير الأكثر فعالية في العالم .. المفكر الفرنسي **روجيه جارودي**

* * *

كتب **ويليام سافير** وهو واحد من أبرز كتاب جريدة نيويورك تايمز مقالا جاء فيه : " أنه لا يستطيع أن ينام الليل مستريحا إلا بعدما يسمع صوت **شارون** على التليفون ، ثم يغمض عينيه " ! ..

* * *

إن قوة اللكمة اليهودية تأتي من القفاز الفولاذي الأمريكي الذي يلفها ، والدولارات التي تبطنها .. الكاتب الإسرائيلي **يسهايا هوليبوفيتش**

* * *

" إن تأثير رئيس الوزراء الإسرائيلي على السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط يفوق بكثير تأثيره في بلده " .. الكاتب الأمريكي **بول فندلي**

ربما تكون هذه العبارة هي أدق ما نختم به وصف علاقة الكلب الشرس بسيده الأعمى عن حقوق فلسطين . إنه العمى الانتقائي ..

(43)
مـصـر : الحـيـاد .. سـلـبا وإيـجـابا

يُحكى أن رجلا تزوج من امرأتين ، إحداهما تصغره كثيرا والأخرى تكبره كثيرا ..
فكانت الصغيرة عندما تجلس معه تنبش في رأسه لتلتقط الشعيرات البيضاء ، ليبدو صغيرا مثلها ..
أما الكبيرة فكانت تقضي وقتها معه فتلتقط الشعيرات السوداء ليبدو كبيرا مثلها ..
وفي النهاية وجد الرجل رأسه صلعاء بلا شعر ..

* * *

من يقف في الوسط تماما ، بين عدونا وبيننا ، يبدو لنا أقرب إلى عدونا ، ويبدو لعدونا أقرب إلينا ..
اعتدل في صداقة أصدقائك فقد ينقلبون أعداء ، واعتدل في عداوة أعدائك فقد ينقلبون أصدقاء ..
إذا كان عدوك في الماء حتى وسطه ، فمد إليه يدك .. وإذا كان الماء يبلغ كتفه ، فاضغط على رأسه ..

* * *

أما الحكاية فهي من التراث اليهودي في التلمود ، وتتشابه مع حالة مصر في تشتتها بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي في الربع الثالث من القرن العشرين وما ترتب على ذلك من خسائر ناتجة عن سوء التقدير في الحالتين ..
وأما العبارات الثلاث فهي تلخص أزمة العلاقات المصرية الأمريكية منذ قيام الثورة وحتى ما بعد نصر أكتوبر ، وهي لا تختلف في مدلولها كثيرا عن الحكاية اليهودية ..

* * *

كانت البداية معتادة ..
ففي 7 مايو 1830 قامت الولايات المتحدة بتوقيع معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية والتي بمقتضاها أصبح لها حق إنشاء قنصليات في جميع أقاليم الدولة العثمانية .. وكان أول وكيل قنصلي للولايات المتحدة الأمريكية في الاسكندرية هو التاجر البريطاني **جون جليدون** بتاريخ 12 يناير 1832 .. وفي عام 1848 رفعت الولايات المتحدة مستوى تمثيلها في مصر إلى مرتبة القنصلية العامة ، وكان الأمريكي **دانييل ماكولي** هو أول قنصل أمريكي في مصر ..
وبينما كانت البداية معتادة ، إلا أن حدثا فريدا من نوعه جاء خارجا عن كل معتاد ومألوف ..
فقد كان هناك صراع دولي قائم في المكسيك في منتصف القرن التاسع عشر بين الولايات المتحدة وفرنسا ، حيث كانت الولايات المتحدة ترفض الوجود الفرنسي في المكسيك وكانت تلح على ضرورة جلاء الفرنسيين عن المكسيك .. وكان أصل الأزمة أن فرنسا أقامت عرشا للأمير النمساوي **مكسيمليان** في المكسيك دون أن تحترم مبدأ **مونرو** الذي لا يقر الوجود الأوروبي في الأمريكتين .. وقد سعت فرنسا

مرارا أن تقنع أمريكا بالاعتراف بحكومة **مكسيمليان** في مقابل سحب جنود فرنسا من المكسيك ، لكن الولايات المتحدة أصرت على رفضها لأي وجود أوروبي على حدودها .. وهكذا صارت المكسيك مسرحا لعمليات حربية محدودة بين الأمريكيين والفرنسيين .. ولما كانت الأحوال الجوية في أراضي المكسيك لا تلائم جنود فرنسا الذين تعرضوا للموت بسبب تفشي الحمى الصفراء والحرارة العالية ، فقد فكرت فرنسا في أصدقائها الذين يحكمون مصر آنذاك من الأسرة العلوية كي ينقذوا الموقف .. فقد طلبت فرنسا من مصر أن تمنحها بعض الجنود الأفارقة الذين اعتادوا على الأجواء الحارة كي تستبدل جنودها بهم .. وكانت فرنسا واثقة من أن الخديو **سعيد** (1854- 1863) لن يخذلها خاصة بعد بدء أعمال حفر قناة السويس .. فاستخدم الإمبراطور **نابليون الثالث** نفوذه لدى **سعيد** دون الرجوع إلى الباب العالي في الأستانة ، وطلب منه إمداده بألف جندي سوداني للعمل تحت إشراف القوات الفرنسية بالمكسيك .. وعلى الفور استجاب الخديو **سعيد** لطلبه ، وجاء التدخل المصري لصالح فرنسا ضد أمريكا بأن تكتم المسئولون المصريون أمر إرسال الجنود حتى أن إعداد الترتيبات اللازمة لإبحارهم ليلا من الاسكندرية تم من مكان غير مستخدم لرسو السفن إمعانا في السرية ..

لم تنجح مصر في إبقاء الأمر طي الكتمان ، فقد حدث أن علم قنصل الولايات المتحدة الجنرال **تاير** بالتحركات المريبة على ساحل الاسكندرية ، فاستفسر من **خورشيد** باشا محافظ الاسكندرية وجاءه الرد المصري بأن تلك القوة متجهة إلى مراكش لإخماد ثورة قام بها الأهالي هناك .. غير أن الأمريكان علموا بحقيقة الموقف ، وتسبب ذلك في حرج بالغ للحكومة المصرية التي سارعت إلى تقديم اعتذار رسمي عن هذا الخطأ الذي وصفته بأنه غير مقصود ، خاصة بعد أن هدد القنصل الأمريكي الجديد **تشارلز هيل** باستخدام القوة قائلا : " إذا كان في استطاعة والي مصر أن يستغني عن بضع مئات من الجنود الملائمين للخدمة في المكسيك ، فإن لدى حكومة الولايات المتحدة أكثر من ألف جندي مسلحين من نفس النوع ويصلحون للعمل بصفة خاصة في مصر .. وإن الولايات المتحدة على استعداد تام بأن تعامل الوالي بالمثل وأن تقوم بنفس الدور الذي قام به الوالي في المكسيك بناء على رجاء دولة أخرى صديقة " ..

وانتهت الأزمة العجيبة على خير !! ..

ومع بدء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة في عام 1861 فرض **لينكولن** حصارا بحريا على شواطئ الجنوبيين الذين كانوا يصدرون القطن إلى أوروبا وهو ما أدى إلى ازدياد الطلب على القطن المصري طويل التيلة في الأسواق العالمية ، حتى أن مصر أصبحت آنذاك المصدر الرئيسي لهذا القطن على مستوى العالم .. وقد تسببت الأزمة الأمريكية في متاعب بالغة لصناعة النسيج الأوروبية التي كانت تقف على حافة الإفلاس في صيف عام 1862 ، وهو ما أدى إلى تحول فكر الإنجليز نحو احتلال مصر التي تزرع قطنا عالي الجودة ، خاصة وأن قرب الانتهاء من حفر قناة السويس زاد من أهمية موقع مصر الجغرافي ..

وهكذا ساهمت الولايات المتحدة دون أن تدري أو تقصد في احتلال مصر !! ..

وفي عام 1869 تم افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية ، ولم تتفاعل الولايات المتحدة مع الحدث ، حتى أنها لم توقع معاهدة القسطنطينة في عام 1888 والتي تقضي بتنظيم الملاحة عبر القناة .. وفي عام 1876 تم نقل مقر القنصلية الأمريكية إلى القاهرة ..

وفي مطلع القرن العشرين جاءت أول زيارة أمريكية رفيعة المستوى إلى القاهرة ..

ففي مارس 1910 قام الرئيس الأمريكي **تيودور روزفلت** بزيارة مصر ، ودعاه الأمير **أحمد فؤاد** رئيس الجامعة الأهلية لزيارة الجامعة الوليدة لإلقاء محاضرة بها .. لبى الرئيس الأمريكي الدعوة المصرية ، وكانت هذه بداية غير مشجعة – ولم يحدث فيها أدنى تغيير – لطبيعة العلاقات المصرية الأمريكية .. فقد راح **روزفلت** يخطب مسهبا في الثناء على اللورد **كرومر** وهو ألد أعداء المصريين في ذلك الوقت .. ثم بدأ يتدخل في شئون مصر الداخلية فأشار في خطابه إلى مقتل **بطرس غالي** ووصف الحادث بأنه جريمة نكراء تدل على تعصب أعمى وتنذر بضياع وحدة الأمة .. ثم استفاض في خطابه فأكد على خطأ التعجل بالمطالبة بالدستور ، وأوضح أن الأمم التي لم تستكمل نضجها بعد – في إشارة إلى مصر – بحيث تنتفع بدستور ينص على حكم نفسها بنفسها ، سوف تفشل تماما في محاولاتها ..

وكان هذا الخطاب مفرطا في غرابته ، إذ ألقاه داخل أعلى قمة تعليمية في البلاد وكال فيه اتهاماته للشعب المصري بالجهل وسوء التقدير والتطلع إلى ما لا يحق لهم أن يأملوا فيه أو يدركوه لأنه أكبر من إمكاناتهم .. جاءت هذه المعاني على لسان رئيس دولة لم يكن قد مر على قيامها أكثر من 134 سنة موجهة إلى واحدة من أقدم الحضارات على وجه الأرض ! ..

أثارت هذه المحاضرة موجة عاصفة من الغضب والنقد .. وأفرد عدد من الصحف الوطنية صفحات مطولة للرد على بذاءات الرئيس الأمريكي ..

* * *

وبخلاف هذه الواقعة التاريخية التي شهدت أول زيارة لرئيس أمريكي إلى مصر – وإن كانت فترة حكمه قد انتهت في العام السابق للزيارة – ، فإن الولايات المتحدة لم تبد اهتماما بمصر إلا في حدود أنشطتها الثقافية والتعليمية المعتادة في منطقة الشرق الأوسط ، حيث قامت بإنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة في عام 1919 ..

ونتيجة لطبيعة العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة ، فإن مصر تحت الاحتلال البريطاني كانت إحدى الدول التي أقامت فيها أمريكا قواعد عسكرية في فترة ما بين الحربين ، حيث كانت هناك قاعدة هايكستب البرية – والمعروفة بنفس الاسم والموقع حتى الآن – ومطار باين الحربي وكان يقع في المكان الذي أنشئ فيه مطار القاهرة الدولي ..

وفي عام 1937 امتد نشاط شركات البترول الأمريكية إلى مصر حيث حصلت على امتياز للتنقيب عن البترول في مساحة 61 ألف كم مربع شرقي قناة السويس .. وبحلول عام 1938 كان إجمالي النشاط

الاقتصادي الأمريكي قد بلغ 14 مليون دولار بعد أن فتحت شركتي جنرال موتورز وكوداك سينجر سوينج فروعا لهما في مصر ، هذا فضلا عن ميزانية الجمعيات التبشيرية والخيرية والتعليمية التي كانت تقدر بنحو أربعة ملايين دولار ..

وفي فبراير 1945 تقابل الملك **فاروق** مع الرئيس **روزفلت** فوق أرض مصرية وتحديدا في عرض البحيرات المرة بقناة السويس على ظهر الطراد كوينسي .. وركز **فاروق** حديثه على بث شكواه من الإنجليز الذين قاموا بتحجيم دوره منذ عام 1942 .. ووعد الرئيس الأمريكي بأنه سوف يبذل أقصى ما في وسعه كي تنال مصر استقلالها التام ، وكانت هذه بداية مبكرة لسحب البساط البريطاني من المنطقة سعيا وراء السيطرة ..

وفي عام 1946 استجابت الحكومة الأمريكية لمطالب الحكومة المصرية بإزالة القواعد الأمريكية ، وقد جاءت هذه الاستجابة بسبب حرص الأمريكان على عدم إتاحة المبرر أمام السوفيت لإبقاء قواتهم في شمالي إيران على أساس مبدأ المعاملة بالمثل .. وفي يونيو من نفس العام تم رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي بين البلدين من مستوى القنصليات إلى السفارات ، وتم تعيين **محمود حسن** أول سفير لمصر في واشنطن وتعيين **بنكتي توش** أول سفير لأمريكا في القاهرة ..

وفي عام 1947 تم افتتاح بنك برأسمال قدره 5.6 مليون دولار زيد إلى 7.3 مليون دولار بهدف إعادة إعمار ما دمرته الحرب في مصر بالإضافة إلى النهوض بالصناعات المحلية .. وفي يونيو 1948 شاركت أمريكا في مجلس إدارة شركة قناة السويس كنتيجة لازدياد استخدامها للقناة مع نمو مصالحها البترولية في الشرق الأوسط ..

وفي السنوات الأخيرة من الأربعينات حاولت الولايات المتحدة قدر الإمكان استغلال الخلافات المصرية البريطانية لصالحها بمزيد من التقرب إلى مصر ، حيث أبدت الحكومة الأمريكية موافقتها على تقديم بعض المعونات الاقتصادية وكهربة خزان أسوان وإنشاء مصنع للمخصبات .. ومع ذلك ، فقد تزامنت المعونات الاقتصادية مع توافق سياسي واضح بين بريطانيا وأمريكا بشأن القضية المصرية ووجود قوات بريطانية في قناة السويس وكافة الموضوعات المصيرية التي كان يطالب بها السياسيون المصريون ..

وفي 8 أكتوبر 1951 أعلن **مصطفى النحاس** قرار مصر بإلغاء معاهدة 1936 ، وكان ذلك يعني نهاية الأساس الذي بنيت عليه العلاقات المصرية البريطانية .. وفي 13 أكتوبر قدمت الدول الأربع الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا ، وتركيا اقتراحا إلى مصر بإنشاء منظمة دفاعية ضد العدوان الخارجي وخاصة الشيوعي فيما عرف بالقيادة المتحالفة للشرق الأوسط AMEC على أن يكون مقرها القاهرة ، ونص الاقتراح على سحب بريطانيا لقواتها غير المشاركة في القوات المتحالفة مقابل أن تقدم مصر التسهيلات على أرضها متضمنا استخدام الموانى والمطارات والمواصلات في حالة الحرب على أن تسلم

القاعدة البريطانية في قناة السويس إلى مصر بصفة رسمية مقابل تحولها إلى قاعدة مشتركة للدول الداخلة في الحلف ، أي تخرج بريطانيا وحدها وتعود ومعها الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا !! ..
وجاء الرفض المصري قاطعا ..

* * *

وبعد قيام الثورة أشاعت المخابرات الأمريكية أنها قد أسهمت في إنجاحها ولم يكن ذلك صحيحا ، ويعلق على ذلك الكاتب الأمريكي **ويليام بلوم** موضحا أن المخابرات الأمريكية كانت دوما تنفي ضلوعها في جميع المؤامرات والانقلابات على مستوى العالم ، إلا أنها أول مرة تدعي المخابرات شرف القيام بعملية ، وكان ذلك وفقا لتقديره نابعا من كونها قد أنشئت في عام 1947 وكانت لم تزل تبحث عن مجد وبطولات حتى وإن كانت زائفة .. وأكبر دليل على ذلك أنها لم تتوصل إلى أسماء أعضاء قيادة الثورة إلا بعد أسابيع من قيامها ، ولم تعرف الرجل القوي فيهم إلا بعد عدة أشهر ..
وبعد أيام من قيام الثورة وجه مستشار السفارة الأمريكية **لويس جونز** الدعوة إلى القائمقام **عبد المنعم أمين** أحد الضباط الأحرار على عشاء في منزله .. وبعد أسبوع واحد رد **عبد المنعم أمين** الدعوة واستقبل مستشار السفارة وزوجته والوزير المفوض للسفارة ، وكانت المفاجأة أن **جمال عبد الناصر** قرر حضور العشاء ومعه **عبد الحكيم عامر** و**صلاح سالم** ، وكان هذا أول لقاء على هذا المستوى بين قيادة الثورة وممثلين عن الولايات المتحدة الأمريكية ..
وفي نهاية شهر أغسطس 1952 أصدرت الحكومة الأمريكية بيانا أعلنت فيه تأييدها للنظام الجديد في مصر وكانت لها أغراضها الخاصة كما تكشف وثائق وزارة الخارجية الأمريكية مثل إشراك مصر في خطط الدفاع المشترك والسلام مع إسرائيل .. وكانت الأجواء الجديدة متفائلة إلى درجة الوهم ، حيث تصور المصريون أن أمريكا سوف تساند ثورتهم الوليدة .. فكتبت صحيفة الأهرام في عددها الصادر بتاريخ 5 سبتمبر 1952 تقول : " إن أمريكا التي حاربت طويلا من أجل الاستقلال والحرية لقادرة اليوم على تقدير معاني كفاحنا لنيل حريتنا " .. أما جريدة الأخبار الجديدة ، فكتبت بتاريخ 5 نوفمبر تقول : " على جميع البلدان الإسلامية والعربية أن تقر وتعترف بأن السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط مقارنة بسياسات الدول الكبرى الأخرى هي الأقرب من غيرها إلى العدالة ومناصرة الدول الصغيرة .. " .
وفي نهاية أكتوبر وصل إلى القاهرة لمقابلة **عبد الناصر** رجل المخابرات الشهير **كيرميت روزفلت** – حفيد الرئيس **تيودور روزفلت** – تحت ستار أنه مستشار خاص للرئيس **ترومان** ودار بينهما نقاش حول مسألة إسرائيل والسودان وجلاء الإنجليز وموضوع شراء الأسلحة من الولايات المتحدة ولم يتم التوصل لأي شئ من الطرفين ..
وفي 2 نوفمبر جاء إلى القاهرة مساعد وزير الدفاع الأمريكي **ويليام فوستر** وأقام له السفير **كافري** مأدبة عشاء حضرها الرئيس **محمد نجيب** و**جمال عبد الناصر** وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وكان هدف

الزيارة بحث مسألة شراء الأسلحة الأمريكية وبدا **فوستر** متجاوبا بشدة مع ما يسمعه حتى أنه راح يسأل عن تفاصيل الأسلحة ويناقش أسعارها وطرق السداد وبعد عودته بأيام أبدت الولايات المتحدة استعدادها لاستقبال بعثة مصرية تناقش طلبات الأسلحة وتبحثها مع وزارة الدفاع .. وتقرر اختيار **علي صبري** رئيسا للبعثة التي سافرت في أواخر ديسمبر 1952 ومكثت هناك حتى أبريل 1953 دون أن تفعل شيئا باستثناء زيارة المتاحف والمزارات السياحية والعسكرية .. ثم اتضح بعد ذلك أن **تشرشل** تدخل واحتج على صفقة السلاح وطلب تأجيلها لحين انتهاء مفاوضات الجلاء .. ففي أول مكالمة من **تشرشل** إلى **أيزنهاور** لتهنئته بفوزه في الانتخابات طلب منه ألا يتسرع بالبت في طلبات عسكرية يحتمل أن تكون مصر قد قدمتها إلى سلفه ، ثم قال: "إنني لا أتصور أن يقوم **أيزنهاور** بتسليم سلاح للمصريين يحتمل استعماله في منطقة قناة السويس ضد بريطانيين سبق لهم أن حاربوا تحت قيادته في الحرب ضد **هتلر** " – وكان **أيزنهاور** يشغل منصب القائد العسكري لقوات الحلفاء في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية – .. وحاولت أمريكا تخفيف الصدمة على القاهرة فعرضت بيع صفقة صغيرة إلى مصر توازي ربع الصفقة السابقة أي عشرة ملايين دولار وقبلت مصر العرض ، ومرة أخرى تدخلت بريطانيا وعرقلت الصفقة ..

ولم تحصل مصر على سلاح من أمريكا سوى مسدس أرسله أيزنهاور هدية إلى محمد نجيب ، وحتى هذا السلاح كان بلا ذخيرة ! ..

* * *

وفي مطلع عام 1953 نجحت أمريكا في تدعيم نفوذها الدبلوماسي بسبب تدخلها النشط في مفاوضات السودان لإنجاحها وكان ذلك موضع تقدير من القيادة المصرية .. وفي نفس تلك الأسابيع الأولى من عام 1953 قدمت الولايات المتحدة إلى مصر 15 مليون دولار خصصت للنهوض بالزراعة في منطقتي الدلتا والفيوم كنوع من التعويض والترضية ومحاولة ترسيخ فكرة التواجد الأمريكي في المنطقة بشكل عام وبأكثر من أسلوب وتصور ..

وفي 11 مايو 1953 قام وزير الخارجية **دالاس** بأول زيارة رسمية لمصر على رأس وفد رفيع المستوى حاملا معه مشروع ضخم للدفاع عن الشرق الأوسط يماثل في أهميته بالنسبة للمنطقة مشروع حلف الأطلنطي بالنسبة لأوروبا ، وكان ضمن مشروعه أفكار لتحقيق صلح بين مصر وإسرائيل .. لكن مصر استقبلت مشروع **دالاس** بفتور شديد خاصة وأن أول تصريح أدلى به في القاهرة أكد فيه على ضرورة بقاء قاعدة قناة السويس في متناول الغرب للدفاع عن المنطقة ثم أوضح أن الولايات المتحدة لن تستطيع مد مصر بأسلحة ذات قيمة إلا بعد الاتفاق مع الإنجليز ..

وفي الشهور التالية اتضحت الرؤية ، فقد بات جليا أن الولايات المتحدة لن تقدم يد العون إلى المصريين إلا إذا توصلوا إلى اتفاق نهائي مع بريطانيا بشأن قناة السويس وإلا إذا – وهو الأهم – أبدوا بعض المرونة بخصوص العلاقات مع الجارة الجديدة إسرائيل ..

وفي الوقت نفسه فإن الولايات المتحدة قد استأنفت منح المساعدات الاقتصادية لإسرائيل في أواخر نوفمبر 1953 وهو ما سبب ضيقا للحكومة المصرية من عدم العدالة في معاملة الطرفين ..

وفي 19 أبريل 1954 بدأ **عبد الناصر** يلمح إلى أن رفض الولايات المتحدة إمداد مصر بالأسلحة قد يضطر مصر إلى التفاوض مع الكتلة الشرقية ، إلا أن وزارة الخارجية المصرية عادت وأكدت أن مصر ما زالت تتطلع إلى الحصول على أسلحة أمريكية ولكن بدون قيود مجحفة مثل السداد نقدا ..

* * *

وفي 27 يوليو 1954 تم توقيع اتفاقية الجلاء والتي نصت على انسحاب القوات البريطانية من منطقة القناة على مراحل خلال عشرين شهرا من توقيع الاتفاقية .. وتزامن ذلك مع إبداء الولايات المتحدة استعدادها للنظر في مسألة المعونة الاقتصادية والعسكرية ، وكانت هناك أرقام مبدئية تتحدث عن 20 مليون دولار مساعدات اقتصادية ومثلها مساعدات عسكرية .. لكن الحديث عن المساعدات العسكرية لم يتطور إلى أكثر من ذلك وبرر بعض المسئولين الأمريكيين ذلك التقاعس بما يمكن أن يسببه ذلك من حرج مع الدول الصديقة مثل إسرائيل التي تخشى على أمنها .. ثم إن الإدارة الأمريكية تخشى أن تفسر مساعدة مصر بأن الولايات المتحدة تجامل الدول التي ترفض التفاهم معها أكثر مما تفعل مع الدول الحليفة ..

ومع نهاية عام 1954 كان المشروع المصري لبناء السد العالي قد أخذ منحى أكثر جدية .. فهو المشروع الذي قام مدير البنك الدولي **يوجين بلاك** بدراسته مع اللواء **محمد نجيب** في منتصف عام 1953 .. وقد تقدمت مصر بطلب إلى البنك الدولي للإنشاء والتعمير للحصول على قرض قيمته 600 مليون دولار لتمويل البناء .. وفي منتصف عام 1954 وافقت أمريكا على تقديم 40 مليون دولار كقرض للمساهمة في المشروع ..

* * *

ثم تعاقب عدد من الأحداث كان لها أكبر الأثر فيما جرى بعد ذلك ..

فمع توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا ، ارتأت إسرائيل ضرورة العمل على إساءة العلاقات المصرية الأمريكية حتى لا تفي الولايات المتحدة بوعودها في تقديم المساعدات إلى مصر ، وذلك عن طريق ضرب المصالح الأمريكية في مصر وإلصاق التهم بالمصريين وهو ما عُرف بفضيحة **لافون** .. عُرضت الخطة على رئيس الوزراء الإسرائيلي **ديفيد بن جوريون** فتحمس لها وقبل أن تنفذ كان **بن جوريون** قد ترك الوزارة ، فقام أعوانه بموافقته على تزوير إمضاء **بنحاس لافون** وزير الدفاع الجديد في وزارة **موشي شاريت** على أمر تنفيذ العملية رغم أن **لافون** و**شاريت** لم يعرفا شيئا عن العملية .. وبدأ التنفيذ بتفجير قنبلة أمام مكتب الاستعلامات الأمريكي في القاهرة ، ثم قنبلة أخرى أمام مكتب الاستعلامات الأمريكي في الاسكندرية وقامت الولايات المتحدة بتقديم احتجاج وطالبت توضيح حقيقة ما يحدث ..

وبالمصادفة البحتة تم اكتشاف المخطط الإسرائيلي ..

ففي مساء يوم 24 يوليو 1954 اشتعلت النار في ملابس شاب أجنبي أمام مبنى سينما ريو في الاسكندرية وراح الشاب يجري مستغيثا وأحاط به الجمهور ثم استدعى البوليس واتضح أن الشاب كان يحمل في جيبه عبوة حارقة سالت بعض محتوياتها في جيبه فاشتعلت فيه النار .. وأسفر التحقيق عن اكتشاف الحقيقة ، فالشاب اسمه **فيليب ناتاثون** عضو في شبكة يهودية كلفت بنسف عدد من المنشآت الأمريكية في مصر واعترف على شركائه وأن الشبكة الكبيرة درب أفرادها في إسرائيل وتجمعوا في باريس تحت قيادة ضابط مخابرات إسرائيلي سبقهم إلى مصر ..

وفي 24 فبراير 1955 تم التوقيع على الميثاق التركي العراقي وهو النواة الأولى لحلف بغداد ، وفي 5 أبريل من نفس العام انضمت بريطانيا إلى الحلف ، وتبعتها باكستان في 23 سبتمبر ثم إيران في 3 نوفمبر .. وجاء هذا الحلف في محاولة لتقويض الجهود المصرية نحو جمع العرب في إطار قومي واحد ..

وفي 28 فبراير شنت إسرائيل غارة مفاجئة على غزة – وكانت تحت الإشراف المصري – وأسفرت عن استشهاد 37 جنديا مصريا ومقتل 8 إسرائيليين .. وقد أظهرت هذه الغارة مدى احتياج الجيش المصري للأسلحة المتطورة التي تكفل له حماية الحدود وردع الاعتداء الإسرائيلي .. فقد كان كل تملكه مصر هو ست طائرات صالحة للاستعمال و30 طائرة تلزمها قطع غيار سليمة ، كما كانت ذخيرة الدبابات لديها لا تكفي لأكثر من ساعة قتال واحدة ، ثم إن 60% من الدبابات متوقفة عن العمل ..

وبدأت مصر تشعر بالخطر الشديد من الموقف الأمريكي المجحف ، ففي الفترة من 1945 وحتى 1955 حصلت مصر على 30 مليون دولار منها 26 مليون قروض وأربعة ملايين دولار منحة ، في الوقت الذي حصلت فيه إسرائيل في نفس الفترة على 370 مليون دولار منها 233 مليون قروض و137 مليون دولار منحة ..

وفي 28 أكتوبر طلب **جون فوستر دالاس** من شقيقه **آلان دالاس** مدير المخابرات تقريرا عما يمكن عمله إزاء **جمال عبد الناصر** وما إذا كان في الإمكان التخلص منه .. وكان ذلك نفس ما تسعى إليه إسرائيل ، حيث قامت بتجنيد رئيس خدم من أصل يوناني اسمه **أندرياس** يعمل في محلات جروبي وكان وقتها متعهد الحفلات الرسمية بأن يضع جرعة من السم فيما يتناوله **جمال عبد الناصر** من طعام أو شراب ، وبالفعل وضع الرجل جرعة سم في فنجان قهوة وكاد يضعه أمام **عبد الناصر** بعد حفل عشاء رسمي ولكن أعصابه خانته في اللحظة الأخيرة فارتعشت يداه واضطرب على نحو لاحظه مسئول الأمن في الحفل وبعد استجوابه اعترف **أندرياس** بكل شئ ..

* * *

ثم جاءت ردود الأفعال المصرية متوالية ..

فجاء الإعلان عن أفكار لقيام حركة عدم الانحياز بقيادة مصر ويوجوسلافيا والهند ، وأعلن الاتحاد السوفيتي تأييده للحركة ، في حين رفضت الولايات المتحدة الاعتراف بكتلة الحياد ، وجاء تصريح **دالاس**

وزير الخارجية فور إعلان مبدأ الحياد الإيجابي قائلا : " إن سياسة الحياد الإيجابي مبدأ غير أخلاقي وإني أقرر إذا لم تكن معي فأنت ضدي " .. وفي أبريل 1955 انعقد المؤتمر الأول لمجموعة الدول الأفريقية والأسيوية في باندونج بإندونيسيا بمشاركة فعالة لمصر ، وجاءت كل بياناته لتندد بالاستعمار بكافة صوره ، وخاصة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ..[69]

وفي 20 مايو 1955 أعلنت مصر اعترافها الرسمي بجمهورية الصين الشعبية ، وعلى الفور خرج علينا **دالاس** بتصريح جديد يقول فيه : " إنني أجد نفسي مضطرا لأن أعبر عن أسفي العميق لاعتراف الحكومة المصرية بالحكومة غير الشرعية في بكين وإن الولايات المتحدة تعتبر هذا الاعتراف عملا غير ودي تجاهها " ..

وفي يونيو أبلغ **عبد الناصر** السفير الأمريكي **هنري بايرود** بأنه إذا لم يحصل من أمريكا على ما طلب من السلاح فسوف يحصل عليه من الاتحاد السوفيتي .. وكان السوفيت قد استغلوا توقيع ميثاق حلف بغداد فأبلغوا مصر عن طريق سفيرهم **دانييل سولود** باستعدادهم لتزويد مصر بالسلاح الذي تحتاجه .. وكانت الولايات المتحدة تظن في أول الأمر أن مصر تخادع وتحاول ابتزازها لنيل ما تريد ، فاستمرت على إصرارها بحجب السلاح ..

وفي 29 يوليو قام **ديميتري شبيلوف** رئيس تحرير البرافدا بزيارة للقاهرة و تم الاتفاق النهائي على تفاصيل صفقة القطن مقابل الأسلحة ..

وفي 27 سبتمبر 1955 أعلنت مصر توصلها لإتفاقية سلاح مع تشيكوسلوفاكيا – كغطاء لموسكو – نصت على أن تمدها بالسلاح مقابل أن تدفع مصر ثمن ما تطلبه بما تنتجه من قطن وأرز ..

* * *

ثم عاد مشروع السد العالي لتسلط عليه الأضواء من جديد ، بعد أن أعلن الاتحاد السوفيتي استعداده لتمويل السد في أكتوبر 1955 وذلك بضمان محصول القطن لمدة 25 سنة وجاء العرض بتقديم قرض بـ 600 مليون دولار بفائدة 2% تسدد على 50 عاما.. ومع ذلك فقد صرحت مصر أنها تفضل تلقي المساعدات الغربية لتنفيذ هذا المشروع وأن الأسبقية سوف تكون إلى البنك الدولي أولا والحكومات الغربية ثانيا والحكومة المصرية ثالثا والاتحاد السوفيتي رابعا .. ولم تجد الولايات المتحدة مفرا من التحرك ..

فقد كانت الولايات المتحدة تسعى بكل وسيلة ممكنة لإبعاد السوفيت عن الشرق الأوسط وعن مصر بالأخص كقائد واسع التأثير على الشعوب العربية .. فقد كانت تتخوف من ضياع بترول الشرق الأوسط .. فعلى الرغم من تمتع الاتحاد السوفيتي بالاكتفاء الذاتي في مصادر الطاقة ، إلا أنه كان ينظر إلى البترول

---

[69] كان مؤتمر باندونج هو النواة الحقيقية للنشأة الرسمية لمجموعة دول عدم الانحياز والتي عقدت مؤتمرها الأول بعد ذلك في بلجراد عاصمة يوجوسلافيا في أغسطس من عام 1961 ..

العربي في إطار ما يعرف باستراتيجية الحرمان أي حرمان الدول الرأسمالية من البترول برغم عدم حاجته هو إليه ..

وفي 21 نوفمبر بدأت في واشنطن محادثات بين مصر من جهة والولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي من جهة أخرى للبحث عن أسلوب لتمويل السد .. وفي 17 ديسمبر أعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا شروط التمويل بتقديم قرض بإجمالي 70 مليون دولار خلال المرحلة الأولى من المشروع على أن يقدم البنك الدولي 200 مليون دولار تسدد خلال 40 عاما بفائدة 5.5 % تقدم خلال المرحلة الثانية مع وعد أمريكي بتقديم 200 مليون دولار خلال سنوات مقبلة .. أما أهم الشروط فكان ألا تسعى مصر خلال مرحلة بناء السد العالي إلى الاتفاق على أي قرض آخر مع أية جهة أجنبية وذلك كي تنمعها من التعاقد على صفقات أسلحة جديدة لن تملك القدرة على سداد قيمتها .. وقد رأت مصر أن الشروط مجحفة وأن البنك قد ينسحب من المشروع ولا يقدم بقية القرض في أثناء تنفيذه مع عدم ضمان وعد الولايات المتحدة بتمويله في سنوات لاحقة تحت إدارة أخرى ، فضلا عن سعي الولايات المتحدة لرسم سياسة مصر الخارجية من خلال حرمانها من اقتراض ما تحتاجه من الخارج ..

وفي فبراير 1956 تم التوصل إلى اتفاق يخضع بمقتضاه الاقتصاد المصري لإشراف البنك الدولي وأن يقوم البنك بدور الاستشاري وأن تقدم مصر للبنك الدولي تقريرا عن وضعها الاقتصادي وخطة التنمية الاقتصادية ..

* * *

كان مشروع السد العالي خطوة جبارة في تاريخ الاقتصاد المصري الحديث ، ولم يكن من الممكن إنجازه دون مساعدات خارجية .. وكانت مصر تواجه أكثر من مشكلة .. فهي لا تستطيع الارتماء في أحضان الشيوعية ولا يمكنها تقديم تنازلات للولايات المتحدة بشأن السلام مع إسرائيل أو الدخول في أحلاف عسكرية تضعها في إطار لا علاقة له بالحياد وعدم الانحياز الذي انضمت إليه مؤخرا ..

وكانت مصر تأمل في تمويله بشكل جاد وعادل وواقعي من خلال البنك الدولي للإنشاء والتعمير كقناة رسمية دولية تتولى مثل تلك المشاريع العملاقة التي لا تقدر على تمويلها الدول النامية بمفردها ..

أما الولايات المتحدة ، فكانت ترغب في استغلال المشروع للضغط بكل قواها على مصر فيما يربطهما من قضايا معلقة ..

وكان مشروع السد العالي يلقى تأييدا ومعارضة في آن واحد داخل الأوساط الأمريكية ، وكان لكل فريق حججه ومبرراته ..

فمؤيدو المشروع كانوا يرونه وسيلة ضغط لقبول الأحلاف الغربية ، وحرمان مصر من استيراد صفقات أسلحة جديدة من الكتلة الشرقية نظرا للصعوبات الاقتصادية المتوقعة للوفاء بتكاليفه ، واستنزاف موارد مصر الاقتصادية في مشاريع داخلية تقلل من قدرتها على مواجهة إسرائيل عسكريا .. أما المعارضون

فكانوا يخشون من تفوق القطن المصري على قطن الجنوب الأمريكي إذا ما نجح المشروع ، وكانوا يرون في التقارب المصري السوفيتي بعد صفقة السلاح صفعة لا يمكن الرد عليها بتقديم المساعدة ، وكان هناك ضغط الكونجرس على الحكومة لتخفيض المساعدات الخارجية للدول غير الحليفة ومصر على رأس تلك الدول ..

وكانت مصر على علم بنية أمريكا للتراجع عن عرضها بتقديم المساعدة لبناء السد العالي وذلك من خلال تقرير وضعه سفير الهند في إيران عن اجتماع مؤتمر حلف بغداد في طهران في أبريل 1956 ..

وفي 19 يوليو 1956 انتصر الضغط الصهيوني وتغلبت مصالح إسرائيل وقررت الولايات المتحدة الانسحاب من المشروع بحجة أن الوضع الاقتصادي الأمريكي لا يسمح بالتمويل واحتياج ولايات أمريكية إلى سدود أصغر من السد العالي ، فضلا عن عدم مقدرة مصر على تحمل أعباء مثل ذلك المشروع الضخم .. وقد جاء إعلان الولايات المتحدة عن عدولها بأسلوب يخلو من كل لياقة دبلوماسية ..

فقد حدث أن اجتمع السفير المصري بواشنطن **أحمد حسين** بوزير الخارجية **دالاس** وأخبره أن مصر وافقت على جميع شروط الولايات المتحدة ، فجاء رد فعل **دالاس** بأن قال: " إن الولايات المتحدة غيرت رأيها في موضوع السد العالي ، وإنها الآن تعتذر عن المضي في أية مفاوضات تتعلق بتمويل المشروع وأن أسبابها في ذلك أن بلدا من أفقر بلدان العالم لا يستطيع أن يتحمل تكاليف مشروع من أكبر المشروعات ، ثم إن مياه النيل ليست ملكا لمصر وحدها وإنما هناك آخرون على مجرى النيل لهم آراء أخرى وأنه يود إخطاره بأن هذا القرار اتخذ بعد مشاورات بين الرئيس والكونجرس " .. فقال **أحمد حسين** : " إن هذا القرار سوف يكون صدمة لمصر والعالم العربي ، فمصر كانت تعلق آمالا كبرى على هذا المشروع " .. ابتسم **دالاس** في خبث وقال: " إنك في هذا المكتب وقبل شهور قليلة قلت لي أن لديكم عرضا من الاتحاد السوفيتي ، وإذا كان الاتحاد السوفيتي على استعداد للمساعدة في تمويل هذا المشروع الضخم ، فهذا شئ طيب لهم ولكم Good for them good for you " ..

وفي اليوم التالي أعلنت بريطانيا انسحابها هي الأخرى ، وفي 23 يوليو أعلن البنك الدولي انسحابه من تمويل المشروع .. وفي الساعات التي تلت سحب أمريكا لعرضها ، قامت بشن حملة إعلامية ضخمة تشهّر فيها بالاقتصاد المصري وتؤكد أن الخزانة المصرية مفلسة ..

* * *

وفي 26 يوليو فجر الرئيس **جمال عبد الناصر** قنبلة شديدة الدوي في بيان تاريخي ألقاه في الذكرى الرابعة لخروج الملك من مصر ، بإعلان تأميم قناة السويس واستغلال عائداتها في بناء السد ، حيث كانت قناة السويس تدار بواسطة شركة قناة السويس البحرية التي تمتلك إنجلترا 44% من أسهمها وفرنسا 50% ، وفي عام 1955 كان إجمالي دخل الشركة حوالي 100 مليون دولار يخص مصر منها 3% فقط ..

وكان ذلك القرار في منتهى الخطورة ، إذ كانت ناقلات البترول القادمة من الخليج تقطع حوالي 11 ألف ميل حول رأس الرجاء الصالح في رحلتها إلى بريطانيا ، أما من خلال القناة فكانت تقطع 6500 ميلا فقط .. وفي عام 1955 كان البترول يشكل 70 % من المواد المنقولة عبر تلك القناة، وكانت حقول البترول في الشرق الأوسط آنذاك تنتج 145 مليون طن في العام ، مر منها في عام 1955 عبر قناة السويس نحو 70 مليون طن .. وقد عبرت القناة في نفس تلك السنة 14666 باخرة ، ثلاثة أرباعها تمتلكها دول حلف شمال الأطلنطي ، وثلثها تقريبا من البواخر البريطانية ..

* * *

وفي أول رد فعل أمريكي لقرار التأميم ، عقد **دالاس** مؤتمرا صحفيا في بيرو – حيث كان – وأوضح فيه موقف حكومته من التأميم وأكد عدم اعتزام واشنطن استعمال القوة ضد مصر .. ومع ذلك فقد قامت الولايات المتحدة بتجميد أرصدة مصر وودائعها في البنوك الأمريكية في إجراء تابع لقرارات بريطانيا وفرنسا بالتجميد ، ثم قامت بوقف مساعداتها الاقتصادية .. كانت الولايات المتحدة حذرة في إبداء ردود فعل عنيفة تجاه الأزمة .. فمن ناحية فإن استخدام القوة ضد مصر سوف يبطل الإدعاء بأن الشرق الأوسط معرض للخطر الشيوعي ، ومن ناحية أخرى فقد كانت تخشى من المقارنة مع وضع قناة بنما التي تحتلها ، فهي إذا طالبت بالإدارة الدولية لقناة السويس فإنه سوف يكون من الصعب عليها التصدي لمن يطالب بإدارة قناة بنما دوليا .. ويضاف عاملان آخران إلى رغبة الولايات المتحدة في عدم تصعيد الأزمة ، أولهما عدم اعتماد أمريكا آنذاك على بترول الخليج العربي بشكل مؤثر كما هو الحال مع بريطانيا وفرنسا ، وثانيهما رغبتها في اجتياز مرحلة الانتخابات في نوفمبر بدون مشاكل خارجية قد يكون لها تأثير سلبي ما على فرصة الجمهوريين .. غير أن الحذر الأمريكي قابله تهور إنجليزي فرنسي ، وكانت كل من إنجلترا وفرنسا تتصوران أن الولايات المتحدة سوف تكون إلى جوارهما إذا ما أعلنتا الحرب على مصر ..

وفي 31 يوليو اجتمع **أيزنهاور** بعدد من أعضاء حكومته وقياداته العسكرية وعلى رأسهم **جون فوستر دالاس** وشقيقه **آلان دالاس** والأميرال **إيرلي بيرك** مدير العمليات في الجيش الأمريكي والجنرال **جود باستير** المساعد العسكري لـ **أيزنهاور** .. وقد أبدى **أيزنهاور** اسغرابه من حماقة **إيدن** الذي يدق طبول الحرب دون أن يكون جاهزا لها ودون أن يمتلك احتياطي من البترول يجعل بلاده في غنى عن بترول الشرق الأوسط الذي سيتوقف إمداده فور نشوب الحرب .. ثم أوضح **أيزنهاور** أن الولايات المتحدة لن تشترك في حرب دون موافقة مسبقة من الكونجرس وأنه يفضل القضاء على **عبد الناصر** بعزله عن جيرانه العرب ، وأنه سوف يعمل على تشجيع السعوديين لتسلم القيادة بدلا من مصر في المرحلة المقبلة ..[70]

---

[70] وبالفعل قامت الولايات المتحدة بدعوة **ابن سعود** لزيارة أمريكا في فبراير 1957 واتفقوا معه على إمداده بالأسلحة اللازمة مقابل تجديد عقد قاعدة الظهران لمدة خمس سنوات أخرى ، ونجحوا في إيهام الملك السعودي بأن الوقت قد حان كي تكون السعودية بديلا عن مصر في قيادة المنطقة العربية .. وكان لتلك الزيارة تداعيات كثيرة على العلاقات المصرية السعودية فيما بعد ..

وفي الأشهر الثلاثة التي تلت الإعلان عن تأميم القناة ، دارت الكثير من التفاصيل وكانت هناك مناوشات دبلوماسية من جميع الأطراف وبمشاركة أمريكية فعالة لحمل مصر على التخلي عما أعلنته بأفكار مثل إنشاء هيئة دولية من المنتفعين بقناة السويس تتولى مسئولية حرية الملاحة في القناة ، وانعقد مؤتمران دوليان في لندن – في غياب مصر – من أجل التوصل لاتفاق على أسلوب لإدارة القناة مع الضغط على مصر .. وجاءت لجنة دولية إلى مصر مكونة من خمسة أعضاء برئاسة **روبرت منزيس** رئيس وزراء أستراليا وعضوية مندوبين من الحبشة والسويد وإيران والولايات المتحدة ، ووصلت إلى القاهرة في أول سبتمبر ، وانهارت المباحثات بعد يومين بسبب عجرفة **منزيس** الذي استخدم لغة التهديد وألمح إلى تحرك القوات البريطانية والفرنسية واستعدادها للضرب إذا ما أصرت مصر على موقفها ، وهنا قام **عبد الناصر** بطي الأوراق التي أمامه وقام من اجتماعه مع رئيس الوزراء الاسترالي وتركه وحيدا ..

وفي 15 سبتمبر انسحب المرشدون الأجانب من العمل في قناة السويس واستطاعت مصر أن تتخطى هذا المأزق باستقدام مرشدين من اليونان وإيطاليا وإسبانيا إضافة إلى تدريب عدد من عناصر ضباط البحرية المصرية ..

* * *

وفي تلك الأسابيع كان موقف الولايات المتحدة الرسمي متذبذبا بين إرضاء حلفائها وعدم إغضاب مصر حتى لا ينتهز السوفيت الموقف ، خاصة وأن الاتحاد السوفيتي كان يساند مصر بمنتهى القوة في أزمتها .. فهي من جهة كانت تدعو لإنشاء هيئة المنتفعين وترفض السيطرة المصرية على القناة ومن ناحية أخرى وافقت على استمرار المرشدين الأمريكيين العاملين بالقناة كما وافقت على دفع رسوم العبور عن السفن الأمريكية لمصر خلافا لمقترحات أوروبا بدفع الرسوم المقررة لهيئة المنتفعين .. وبينما كانت الحكومة الأمريكية مقيدة باعتبارات عديدة حالت دون ممارسة دورها التقليدي في البطش بـ **عبد الناصر** كنموذج مواز لأقرانه في أمريكا الوسطى والجنوبية ، كانت الصحف الأمريكية أكثر حرية في تشكيل الرأي العام الأمريكي والتعبير عنه ، فكتبت النيويورك تايمز في الأول من أكتوبر تقول: " سيكون من المضحك أن نمكّن لـ **ناصر** من أن يقف أمام الأمم المتحدة أو العالم ، وكأنه الضحية البريئة للعدوان .. ومن المضحك كذلك أن نمد له يد الحماية ، فعلى العكس من ذلك ، إذا كان ثمة رجل ارتكب العدوان فهو الرئيس المصري ، لأنه شن حرب الدعاية على إسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، وقام بتهريب الأسلحة وأمر عصابات القتلة بالتسلل .. كما أوقد الثورة في شمال أفريقيا ، واستولى على قناة السويس بالقوة ، ومزق المعاهدات بنفس الطريقة التي اتبعها **هتلر** في الزحف على الراين ، وأغلق القناة في وجه الملاحة الإسرائيلية متحديا بذلك أوامر الأمم المتحدة .. وأخيرا، أعلن طموحه الرامي إلى إلقاء إسرائيل في البحر بمعاونة الدول العربية الأخرى ، وإلى خلق إمبراطورية عربية تحت زعامته تمد في نفوذه في دوائر متصلة حتى يشمل أفريقيا كلها والعالم الإسلامي بأسره " ..

وبعد فشل مؤتمريّ لندن قررت إنجلترا وفرنسا عرض المشكلة على مجلس الأمن لإكساب قرار الحرب شرعية الأمم المتحدة ، لكن الاتحاد السوفيتي تصدى لمحاولتهما بالفيتو السوفيتي في 13 أكتوبر ..

وفي 26 أكتوبر 1956 كتب **أيزنهاور** في مذكراته يقول : " عرض عليّ **هوفر** وكيل وزارة الخارجية الأمريكية خطة لإسقاط **ناصر** تقوم بها إحدى وكالاتنا ولم أوافق عليها لأنه يسهل كشفها " .. وفي 27 أكتوبر بدأت الولايات في إجراءات ترحيل الرعايا الأمريكيين من مصر ، وهو ما يؤكد أن الولايات المتحدة كانت – على عكس المعلن – على درجة ما من العلم بموعد بدء العدوان الثلاثي على مصر ..

* * *

وفي فجر يوم 29 أكتوبر بدأ الهجوم الإسرائيلي على سيناء .. وفي اليوم التالي وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا إلى مصر وإسرائيل يقضي بوقف إطلاق النار والانسحاب لمسافة عشرة أميال شرقا وغربا عن شاطئ قناة السويس خلال 24 ساعة .. ورفضت مصر الإعلان ، لأنه كان يعني ترسيخ احتلال إسرائيل لشبه جزيرة سيناء ، وقامت الدولتان بإنزال قواتهما خلف الخطوط المصرية المتقدمة في عمق سيناء لصد العدوان الإسرائيلي .. وكانت بريطانيا وفرنسا قد اختارتا هذا الموعد لبدء خطتهما قبيل إجراء الانتخابات الأمريكية بأسبوع واحد فقط والتي تحدد لها يوم 6 نوفمبر حتى لا تتمكن الولايات المتحدة من اتخاذ موقف قوي .. لكن الولايات المتحدة لم تكن تريد أن تترك الساحة للاتحاد السوفيتي وحده يظهر تعاطفه ومساندته للعرب ، بل رغبت أكثر في استغلال انشغاله بالاجتياح الروسي الرهيب للمجر والذي بدأ في 24 أكتوبر ، كي تسرق الأضواء .. وفي يوم 30 أكتوبر تقدم المندوب الأمريكي **كابوت لودج** بمشروع قرار أمريكي إلى مجلس الأمن يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة وناشد القرار جميع الأعضاء أن يمتنعوا عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها ..

وفي 31 أكتوبر أذاع **أيزنهاور** بيانا جاء فيه : " إن الولايات المتحدة لم تستشر بأي طريقة وعلى أي وجه من الوجوه في القيام بمثل هذا العمل ولم نعلم مسبقا بأية تفاصيل حوله .. وإن كان هذا من حق أي دولة أن تقرر ما تشاء من أعمال فهذا أمر يخصها وحدها .. وإن دستورنا إذ ينص على حتمية أن نقف موقف المعارضة من مثل هذا العدوان ، فإننا نؤكد أن مثل هذه الأعمال تعد عملا إجراميا لأننا نعارض استخدام القوة المسلحة كأسلوب غير سوي وغير صحيح لحل المشاكل في العالم .. وإنني أؤكد أنني لم أكن من دعاة الاستعمار ... وفي مثل هذا الصراع فإن بريطانيا وفرنسا ليسوا حلفاءنا الآن " ..

* * *

وهكذا اندلعت الحرب لتشهد مقاومة باسلة من الشعب المصري الذي قدم أروع صور البطولات وهو يتصدى لجيوش مسلحة في مدن القناة وعلى رأسها بور سعيد .. كما شهدت الحرب أول مظاهر التلاحم العربي عندما دخلت سوريا الحرب إلى جانب مصر فقامت بنسف خطوط أنابيب البترول العابرة لأراضيها في اتجاه البحر المتوسط وهو ما أدى إلى انقطاع بترول الشرق الأوسط تماما عن أوروبا الغربية بعد توقف

الملاحة في قناة السويس كذلك .. كما اشتركت البحرية السورية في الحرب ، فقام الضابط البحري السوري **جول جمال** بإغراق البارجة الفرنسية جان بار في عملية فدائية بقناة السويس أسفرت عن استشهاد البطل السوري .. وأصبحت بريطانيا وفرنسا في وضع حرج تماما ..

* * *

وفي 4 نوفمبر وافقت الأمم المتحدة على الاقتراح الكندي باستدعاء الأمين العام للأمم المتحدة لوضع خطة لإحلال قوات الأمم المتحدة بدلا من القوات المعتدية .. وفي 5 نوفمبر وجه الاتحاد السوفيتي إنذاره الشهير إلى الدول الثلاث وطالب " بوقف العمليات العسكرية فورا وانسحاب القوات المعتدية دون إبطاء " وأشار بوضوح إلى أن " لندن وباريس ليستا بعيدتين عن مدى الصواريخ النووية " ، أما إنذاره إلى إسرائيل فقد تضمن تهديدا للوجود الفعلي لدولة إسرائيل حيث جاء فيه : " إن إسرائيل تتصرف إذعانا لإرادة أجنبية ووفقا لأوامر من الخارج وأنها تعبث على نحو إجرامي غير مسئول بمصير العالم وبمصير شعبها وتبذر بذور الكراهية لدولة إسرائيل فيما بين الشعوب الشرقية وهو أمر لابد أن يترك آثاره على مستقبل إسرائيل ويشكك في وجود إسرائيل ذاته كدولة " ..

وفي الساعات الأولى للإنذار رفضته بريطانيا وفرنسا تحت تصور أن الولايات المتحدة سوف تحميهما بمظلتها النووية في حلف الأطلنطي ..

وفي صباح اليوم التالي استقبل **أيزنهاور** السفير الفرنسي في واشنطن **هرفيه الفان** وقال له : " عليكم أن توقفوا هذه الحرب وأن تنسحبوا من مصر ، فنحن مع ميثاق الأمم المتحدة .." .. وفي نفس اليوم أعلنت الحكومة البريطانية وبعدها بدقائق الفرنسية استعدادهما لقبول وقف إطلاق النار وسحب قواتهما من مصر .. وفي 7 نوفمبر وصل تقرير إلى إسرائيل من السفير الأمريكي في موسكو يقول في إيجاز : " إن السوفيت يعتزمون تسوية إسرائيل بالأرض في اليوم التالي " .. وتحركت الطائرات السوفيتية في اتجاه الحدود التركية وطلبت المدمرات البحرية الإذن من تركيا لعبور المضايق التركية عبر البحر المتوسط واضطرت إسرائيل مجبرة على قبول وقف إطلاق النار وقبول مبدأ الانسحاب من سيناء .. وطوال الأسابيع التالية كانت بريطانيا وفرنسا تتباطأن في عملية الانسحاب ، وشهدت تلك الفترة ضغطا أمريكيا على بريطانيا كي تعلن موعدا محددا لانسحابها وقامت بتهديدها بإيقاف المعونات الاقتصادية التي كانت بريطانيا في أمس الحاجة إليها بعد أن انهار الجنيه الاسترليني بسبب تداعيات الحرب ، ولم تكن الحالة في فرنسا أقل سوءا .. وفي 3 ديسمبر 1956 أصدرت كل من بريطانيا وفرنسا بيانا مشتركا أعلنتا فيه أن الجلاء عن مصر قد بات ممكنا ..

ومن الغريب أنه برغم المساندة التي قدمتها الولايات المتحدة لمصر والتي عجلت برحيل المعتدين ، إلا أنها استمرت في موقفها بتجميد المساعدات المقدمة إلى مصر ، ورفضت أن تمدها بما يلزمها من قمح وأدوية ، بل إن الفائض لدى الولايات المتحدة من القمح قامت بإغراق أسواق إيطاليا خصيصا به وبأسعار بخسة

هادفة من وراء ذلك إلى بوار المحصول الرئيسي لسوريا وكانت الولايات المتحدة تعلم أن إيطاليا هي المستورد الأكبر للقمح السوري ..[71] وانتهز الاتحاد السوفيتي الفرصة وقدم إلى مصر كل ما تحتاجه ..
وفي 23 ديسمبر جاء الانسحاب البريطاني والفرنسي كاملا من الأراضي المصرية ..
وبقت إسرائيل وحدها تعاند في الانسحاب مستندة إلى دعم أمريكي قوي ، وكانت تتعلل بأنها لا تستطيع أن تنسحب من سيناء ولا من غزة حفاظا على أمنها القومي وأن الكنيست الإسرائيلي قد وافق على ضم سيناء وغزة إلى إسرائيل .. وكان **ليندون جونسون** زعيم الأغلبية الديمقراطية في الكونجرس – والرئيس الأمريكي فيما بعد – في طليعة المؤيدين لمطالب إسرائيل وأحد أهم الذين كانوا يضغطون على **أيزنهاور** كي يلبي رغبات إسرائيل .. وفي النهاية خضعت إسرائيل للضغوط الأمريكية بقيادة **أيزنهاور** ومن يؤيدونه في الدوائر السياسية الأمريكية وللضغوط السوفيتية التي لم تتوقف أبدا عن تهديداتها الجدية .. وامتثلت إسرائيل لقرار الانسحاب في مقابل ضمان حرية الملاحة في خليج العقبة – وهو الخسارة الوحيدة لمصر في الحرب بجواز مرور إسرائيل في خليج العقبة – وإشراف القوات الدولية على قطاع غزة وشرم الشيخ .. وجاءت آخر مراحل الانسحاب من قطاع غزة وشرم الشيخ في يوم 7 مارس 1957 ، ودخلت قوات الطوارئ الدولية منطقة شرم الشيخ في اليوم التالي .. وتم إعادة افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية في 10 أبريل 1957 ..
وهكذا انتهت حرب السويس بانتصار سياسي ساحق للمصريين بقيادة **عبد الناصر** ، وفقد حلف بغداد بريقه بشكل تام ، إذ كان الهدف المعلن من إنشائه هو التصدي للخطر الشيوعي ، وهو ما أصبح يمثل مفارقة سياسية لا تخلو من سخرية ، حيث كانت دول أوروبا الغربية إضافة إلى إسرائيل هي التي اعتدت على العرب ، وكان الاتحاد السوفيتي الشيوعي هو الذي تصدى للعدوان الأوروبي ونجح بفاعلية كبيرة بالمشاركة مع الولايات المتحدة في إيقاف المعتدين عند حدهم ..
وكان أهم ما أسفرت عنه الحرب فيما يختص بالولايات المتحدة أنها أصبحت في مأزق سياسي نتيجة حماقات حلفائها ، وكان لابد من البحث عن حلول سريعة تعيدها إلى المنطقة في شكل جديد ..

* * *

وفي يناير 1957 جاء الإعلان عن مبدأ **أيزنهاور** ، وهو مشروع أمريكي جاء من أجل ملء فراغ مزعوم نشأ في الشرق الأوسط نتيجة خروج الاستعمار الأوروبي وحرصا على عدم تغلغل الاتحاد السوفيتي في المنطقة .. وجاء في نص الإعلان ما يلي : " نجد اليوم من الضروري أن تعمل الولايات المتحدة على مساعدة دول الشرق الأوسط التي ترغب في تقبل هذه المساعدات الأمريكية . إذ أن الاتحاد السوفيتي سوف

---

[71] قد يعجز المرء عن استيعاب ما يحدث .. فالولايات المتحدة كانت تمنع القمح عن مصر التي كانت في أمس حاجة إليه ، وسوريا كانت تتعرض لبوار محصولها من القمح بسبب لجوء الولايات المتحدة إلى إغراق السوق الإيطالي بالقمح الأمريكي ، فلماذا بحق السماء لم تبع سوريا قمحها الذي لا تجد من يشتريه إلى مصر التي لا تجد من يبيعه لها !!! .. وإذا ما قال قائل أن مصر ليس في وسعها أن تدفع نقدا ، وأن سوريا ليس في إمكانها ألا تقبض الثمن فورا ، فإن مبدأ المقايضة الذي مارسته الحضارات القديمة قبل اختراع العملات النقدية كفيل بحل المشكلة ..

يستغل شعور عداء العرب للغرب لتنمية مصالحه في المنطقة ..... كما أنه ليس خافيا أن أي عمل من شأنه أن ينال من حرية الشعوب الحرة ووحدة أراضيها يمس أمن الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها " .. وجاء في التشريع الذي اعتمده الكونجرس توفير مبلغ 200 مليون دولار لتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية للدول التي تتعرض للخطر الشيوعي ، وأن تتدخل القوات الأمريكية لتأمين سلامة واستقلال دول الشرق الأوسط لدفع العدوان الشيوعي .. ثم قام أيزنهاور بإرسال رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب **جيمس ريتشاردز** إلى الشرق الأوسط ليقوم بالدعاية للمشروع ، فقام بزيارة لبنان وتركيا وإيران والعراق وإسرائيل والمغرب وباكستان والسعودية والسودان وتونس واليمن وامتنع عن زيارة مصر وسوريا والأردن .. ولم تنجح مهمته كما كان متوقعا لها حيث لاقت معارضة مصرية شديدة مع كل محطة يتوقف فيها كما ترددت الدول العربية في إعلان قبولها للمشروع رغم استعدادها لذلك تحسبا لمعارضة مصر وسوريا ..

وفي 31 يوليو 1958 قدم مدير المخابرات الأمريكية **آلان دالاس** إلى الرئيس **أيزنهاور** تقدير موقف كامل للوضع في الشرق الأوسط يتلخص في الآتي : إذا ما أرادت الولايات المتحدة القضاء على القومية العربية ، فعليها أن تسلك أحد مسلكين : إما اغتيال **عبد الناصر** ، وإما فرض هزيمة ساحقة عليه بواسطة إسرائيل .

ثم هدأت المخاوف الأمريكية من **عبد الناصر** بعض الشئ بعد أن تابعت العداء المصري للشيوعية في الداخل وخلافاتها الحادة مع الثورة العراقية التي تسامحت كثيرا مع الشيوعيين ..

وفي 9 ديسمبر 1958 استجابت الولايات المتحدة لرغبة مصر في الاستفادة بالقانون رقم 480 الخاص ببيع فائض محصول القمح الأمريكي ..[72] ومع نهاية فترة حكم **أيزنهاور** كانت العلاقات المصرية الأمريكية آخذة في التحسن بشكل ملحوظ ، وتزامن ذلك مع توتر العلاقات المصرية السوفيتية في أبريل 1959 بسبب الموقف المصري الرافض للتغلغل الشيوعي في العراق وسوريا .. ووصل الفتور في العلاقات لدرجة أن تلقت الحكومة المصرية رسائل من موسكو من طلبة البعثات الدراسية المصرية في الجامعات السوفيتية يشكون فيها من سوء المعاملة .. ورد **عبد الناصر** على ذلك بأن سحب جميع البعثات الدراسية من الاتحاد السوفيتي وقام بتحويلها إلى الولايات المتحدة ، ليؤكد للجميع عدم تبعية مصر للاتحاد السوفيتي بسبب اشتراكهم في تمويل مشروع السد العالي أو غير ذلك من المساعدات الاقتصادية ..

وكعادتها ، كانت إسرائيل تتابع ذلك التحسن في العلاقات المصرية الأمريكية ولم تكن راضية عنه بالمرة .

---

[72] صدر القانون 480 عام 1954 وكان الهدف من إصداره هو تصريف فوائض الحاصلات الزراعية الأمريكية غير المرغوب فيها لخطرها على خفض أسعار المحاصيل الأمريكية لدرجة أن بعضهم اقترح إتلاف تلك الفوائض ولو عن طريق الحريق ، ثم طرحت فكرة تحويلها إلى مبيعات ميسرة لبعض الدول التي لا تستطيع توفير طعامها مقابل عملات محلية من هذه الدول يجري صرفها داخلها على احتياجات الولايات المتحدة من عملات هذه الدول وكانت الفكرة أن ذلك يكفل تصريف فوائض المحاصيل الأمريكية كما تقفل بعض الأسواق العالمية في وجه منافسيها ، كما أنها تمنحها إمكانيات للتأثير السياسي عن طريق النفوذ الناشئ من مبيعات القمح .. وجاءت الاتفاقية الأولى بين مصر والولايات المتحدة لتوريد القمح لتغطي أعوام 1959 و1960 و1961 ، ثم جري تمديد الاتفاقية لثلاثة أعوام إضافية انتهت في عام 1964 ووصل حجم الاتفاقتين معا إلى 900 مليون دولار ..

وفي شهري مارس وأبريل 1959 حاولت إسرائيل تحريك الأوضاع بمحاولة المرور في قناة السويس ومنعتها مصر .. وهنا بدأت إسرائيل في استعمال نفوذها في الولايات المتحدة للرد على التصرفات المصرية .. وفي مايو 1959 أصدر اتحاد البحارة الأمريكيين بيانا بمقاطعة عمليات دخول البواخر المصرية والعربية إلى الموانى الأمريكية على اعتبار أن تلك الدول العربية تقاطع إسرائيل وتمنعها من دخول موانيها .. وبعد أن أصدر الاتحاد الأمريكي بيانه تصادف أن دخلت ميناء نيويورك باخرة كليوباترا المصرية حاملة شحنة تصدير قطن مصري إلى الولايات المتحدة ، فرفض الميناء تقديم الخدمات للباخرة بما في ذلك تفريغ حمولتها .. وهكذا اشتعل الموقف كما أرادت إسرائيل .. وعلى الفور اجتمع اتحاد العمال العرب في القاهرة وقرر الرد على اتحاد البحارة الأمريكيين واتخذ قرارا بمقاطعة البواخر الأمريكية في موانى الجمهورية العربية المتحدة[73] وانضمت إلى قرار المقاطعة اتحادات العمال في لبنان والأردن والكويت والمغرب وتونس والسودان والسعودية واليمن .. وأسرعت إسرائيل إلى استغلال الموقف فقدم أنصارها في الكونجرس مشروع قانون بوقف شحنات القمح الأمريكي إلى مصر إذا ما واصلت أعمال الحصار ضد الملاحة الإسرائيلية .. ولم تستجب الولايات المتحدة لتلك الضغوط في ظل سعيها في ذلك التوقيت إلى علاقات أفضل مع مصر مستغلة التوتر في علاقتها مع الروس ..

وبنهاية عام 1960 كانت علاقة مصر بكلا المعسكرين غير مستقرة .. فالاتحاد السوفيتي غير راض عن الموقف المصري من الشيوعيين في الوطن العربي .. والولايات المتحدة غير راضية عن تأييد مصر لحركات التحرر في أفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية وبالأخص حالتي **لومومبا** و**كاسترو** .. بينما كانت مصر غاضبة من صفقات السلاح التي تتدفق على إسرائيل عن طريق الولايات المتحدة وحلفائها ..

ومع ذلك ، فقد نجحت مصر في الاستفادة من حيادها من زاوية أخرى .. فكانت تحصل على السلاح من الروس الذين لم يكن لديهم فائض من قمح ، وكانت تحصل على القمح من الأمريكان الذين رفضوا إمدادها بالسلاح ..

وفي يوليو 1961 جاءت القوانين الاشتراكية الخاصة بالتأميم ، كي تزيد من الفجوة بين الولايات المتحدة ومصر ، حيث وجه الأمريكان الاتهامات لمصر بأنها بدأت في تطبيق المبادئ الشيوعية ..

* * *

ثم توالت الأزمات في طبيعة العلاقات المصرية الأمريكية في أكثر من اتجاه ..

ففي منتصف عام 1962 انتهت مصر من إنشاء مفاعل أنشاص النووي وبدأت تجهز لمشروع إنتاج المياه الثقيلة لإنتاج اليورانيوم المخصب ، وتزامن ذلك مع اكتشاف طبقات من اليورانيوم في الواحات وفي جنوبي الصحراء الشرقية ، وهكذا دخل البرنامج النووي المصري في مرحلة جدية من التطور .. وفي 21

---

[73] كانت مصر وسوريا قد اتحدتا اعتبارا من فبراير 1958 وحتى سبتمبر 1961 فيما عرف باسم الجمهورية العربية المتحدة ، ليطلق على سوريا الإقليم الشمالي وعلى مصر الإقليم الجنوبي ، ورغم انتهاء الوحدة عام 1961 إلا أن مصر ظلت محتفظة باسم الجمهورية العربية المتحدة لسنوات تالية ..

يوليو أجرت مصر أربع تجارب متواضعة لصاروخين مصريين هما القاهر والظافر وجاءت تجارب مصر ردا على إطلاق إسرائيل لصاروخ مقتبس عن الصاروخ الفرنسي جابرييل قبل ذلك التاريخ بعام واحد ..
لم تثبت التجربة المصرية نجاحا يُذكر إلا أن ظهور صواريخ مصرية في المنطقة كان حدثا كبيرا ..
وفي 19 سبتمبر 1962 ذهب السفير الأمريكي **جون بادو** لمقابلة **عبد الناصر** حاملا رسالة شفهية من **كينيدي** تقول أن إطلاق مصر لصاروخ طويل المدى من شأنه أن يخلق سباقا للتسلح في المنطقة .. وكان **كينيدي** يريد تعهدا بأن مصر لن تحاول الحصول على أسلحة نووية وكضمان على صدق هذا التعهد فإن أمريكا كانت تريد مزاولة حق تفتيش المفاعل الذري المصري الذي بناه الاتحاد السوفيتي في منطقة أنشاص ..[74]
وفي 26 سبتمبر 1962 حدث انقلاب عسكري في اليمن أطاح بأسرة **حميد الدين** ، وبعدها بيومين اعترفت الجمهورية العربية المتحدة بالنظام الجمهوري في اليمن وأعلنت استعدادها لمساعدة اليمن وشعبه ..
وفي المقابل وفي صباح يوم 2 أكتوبر بدأت المساعدات العسكرية الأمريكية تصل إلى جدة بالسعودية بناء على طلب المملكة لتنقل إلى نجران بغرض القضاء على الثورة اليمنية ، وهو ما مكّن الأمير **الحسن** عم الملك **البدر** الموجود في نجران من توزيع السلاح والذهب على بعض القبائل التي قامت بشن هجوم على مدينة صعدة .. وهنا توجهت الحكومة اليمنية الوليدة بنداء يطلب المساعدة العسكرية من مصر لتصل طلائع القوات المصرية في مساء نفس يوم 2 أكتوبر ووضعت القوات المصرية نفسها تحت قيادة الرئيس **السلال** ..
تصاعدت الأحداث وزاد الانزلاق المصري غير المدروس في اليمن ، وتوترت العلاقات مع السعودية التي كانت ترى في ثورة اليمن تمهيدا غير مشروع لأفكار من شأنها زعزعة الاستقرار الملكي في السعودية وهو ما دفعها إلى إيواء الإمام **البدر** المخلوع وتكوين قيادة عسكرية مشتركة سعودية أردنية انتقلت إلى نجران في جنوبي السعودية لدعم القبائل اليمنية ومدها بالمال والسلاح ..

---

[74] كانت هذه الرغبة الأمريكية في التدخل غير المشروع في شئون مصر الداخلية تمهيدا مبكرا جدا لما يحدث الآن من تربص متواصل لأية دولة في المنطقة تسعى لامتلاك التقنية النووية في أية مرحلة لها ، وذلك حماية لإسرائيل التي ينبغي لها أن تظل وحدها التي تملك السلاح النووي في الشرق الأوسط .. وتكشف الوثائق الأمريكية الموجودة في مكتبة الرئيس **جونسون** بولاية تكساس عملية الخداع التي قامت بها الإدارة الأمريكية آنذاك ، ففي الوقت الذي نقل فيه السفير الأمريكي التأكيدات الأمريكية إلى **عبد الناصر** بأن معلومات حكومة الولايات المتحدة تقطع بأن إسرائيل لا تصنع ولا تنوي أن تصنع أسلحة نووية ، فإن برقية سرية من وزير الخارجية **دين راسك** إلى سفيره في القاهرة **جون بادو** بتاريخ 2 سبتمبر 1962 احتوت على فقرة هامة تقول : " عليك أن تحذر الحكومة المصرية من التوسع في برنامج الصواريخ الذي يدفع بسباق السلاح في المنطقة إلى درجة خطيرة من التصعيد ، ولابد لك أن تلاحظ أن هناك خيطا دقيقا بين أن يفهم **ناصر** منك خطورة طبيعة التصعيد ويقدر نتائجه وبين أن تعطيه الانطباع بأن إسرائيل توشك أن تصبح قوة نووية بمعرفتنا وقبولنا الضمني ولك أن تختار أفضل السبل لإقناع **ناصر** بأن لا يقحم نفسه في لعبة لا يستطيع أن يربحها بسبب تقدم إسرائيل التكنولوجي والوسائل الخارجية المتاحة لها للحصول على ما تحتاجه من موارد ومعدات " .. وقد وصل التدخل الأمريكي إلى حد المطالبة بالاستغناء عن خدمات عالم الصواريخ الألماني **فولفجانج بيلتس** باعتباره نازيا سابقا .. واستطاعت إسرائيل بأساليب المافيا والاغتيالات من القضاء على جميع مساعدي الدكتور **بيلتس** وأجبرت الحكومة الألمانية على سحب عالمها من مصر..

وكانت الولايات المتحدة ترى في التدخل المصري في جنوبي جزيرة العرب خطرا شديدا على مصالحها الخاصة ، وكانت تلك مواجهة مصرية أمريكية ساهمت في تردي العلاقات تماما مع بداية عهد الرئيس **جونسون** ..

وقد حدث أن عددا من الطيارين السعوديين كلفوا بأعمال عسكرية ضد ثورة اليمن ورفضوا تنفيذ الأوامر ولجأوا إلى القاهرة بطائراتهم الأمريكية الصنع والمحملة بأسلحة وذخائر كانت لا تزال في صناديقها الأمريكية كما أن بعض الطيارين الأمريكيين اشتركوا في عمليات نقل العتاد والجنود ما بين الأردن والسعودية إلى حدود اليمن .. وبقدر ما كانت أمريكا متخوفة من التواجد المصري في جزيرة العرب ، كانت تستغل ذلك التواجد بالعمل على زيادة التورط المصري في اليمن لإبقاء الجيش المصري منهكا في اليمن بعيدا جدا عن حدود مصر الشرقية مع إسرائيل ..

وبالاقتراب من منتصف الستينات كان العداء بين مصر والولايات المتحدة قد أصبح علنيا ..

فالرئيس الجديد **ليندون جونسون** من أشد المتحيزين لليهود وللدولة الإسرائيلية ، فقد تربى في رعاية عائلة **إدوين فايتسل** اليهودية ، وكان **إدوين** هو أحد كبار أثرياء يهود نيويورك ومن أكثرهم نفوذا وتأثيرا ، وكان **جونسون** دائما ما ينزل ضيفا عليهم ويقضي أياما في بيتهم ..

وبالوصول إلى عام 1964 لم يعد خافيا على أحد أن مصر تعتمد على الاتحاد السوفيتي في مجابهة إسرائيل المعتمدة تماما على المساندة الأمريكية اللا محدودة .. وكانت الولايات المتحدة تتابع تطورات الأمور في مصر بكل قلق ..

* * *

ففي عام 1964 كانت القاهرة ملتقى لمؤتمرات القمم وعاصمة حقيقية للعالم الثالث بأكمله .. فقد شهدت القمة العربية الأولى في يناير 1964 ، ثم شهدت قمة مصرية سوفيتية في مايو 1964 والتي أعلن **خروشوف** فيها أن الاتحاد السوفيتي سوف يمنح مصر قرضا يبلغ 252 مليون روبل ووعد بزيادة المساعدات العسكرية والسياسية .. ثم شهدت قمة أفريقية في يوليو 1964 ، ثم شهدت الاسكندرية القمة العربية الثانية في سبتمبر 1964 ، ثم شهدت القاهرة في أكتوبر 1964 المؤتمر الثاني لمجموعة دول عدم الانحياز والذي حضرته 46 دولة إلى جانب 11 دولة بصفة مراقبين ..

وفي 27 نوفمبر 1964 قام طلاب الكونجو بالقاهرة بمظاهرة توجهوا على إثرها إلى السفارة الأمريكية وقاموا بحرق المكتبة الأمريكية وتسبب تأخر قوات الإطفاء المصرية في غضب الأمريكان وتقدمت مصر باعتذار رسمي مع استعدادها لتقديم تعويضات عن خسائر الحريق ..

وفي 19 ديسمبر دخلت طائرة صغيرة قادمة من اتجاه البحر إلى مدينة الاسكندرية وتصدت لها مقاتلة مصرية طالبة منها تحديد هويتها واتجاهها ولم تتلق ردا – وكان ذاك بسبب اختلال جهاز اللاسلكي – فقامت بإسقاطها وقتل طيارها ، ثم اتضح أن الطائرة أمريكية مملوكة لصاحب شركة بترول من تكساس هو

جون ميكوم وهو صديق شخصي للرئيس **جونسون** وجاره في مزرعته في نفس الولاية تكساس ولم يكن **ميكوم** على الطائرة التي جاءت من الأردن .. وبعد الحادث اتصل **ميكوم** من عمان بصديقه **جونسون** يبلغه بما جرى لطائرته ، لتثور ثائرة **جونسون** ..

كانت كل هذه الأحداث تساهم بشكل كبير في تعقيد العلاقات الثنائية ، خاصة مع استعداد الرئيس الأمريكي الجديد لذلك العداء دعما منه لأصدقائه في إسرائيل ..

وفي مطلع عام 1965 كانت اتفاقيات القمح المبرمة بين مصر والولايات المتحدة قد انتهت ، وكان من المفترض أن يتم تجديدها كما حدث في سنوات سابقة .. ولم تكن تلك الأيام كالتي سبقتها ..

ففي 26 يناير 1965 اتخذ مجلس النواب قرارا بأغلبية 204 أصوات ضد 177 صوتا بوقف اتفاقيات بيع القمح الأمريكي إلى مصر حتى تغير الحكومة المصرية سياساتها وتتخذ سياسات أقرب إلى مصالح الولايات المتحدة الأمريكية ..

وفي الأسابيع التالية لم يصدر عن الإدارة الأمريكية ما يفيد بأنها سوف تتخذ قرارا مغايرا لما أوصى به مجلس النواب .. وفي أبريل أعلنت بشكل رسمي أنها لن تجدد هذه الاتفاقيات وكانت مصر على شفا مجاعة ، إذ لم يكن المحصول المصري لذلك العام قد نضج بعد ، وكانت حكومة مصر تتخبط في تلك الحقبة التاريخية ، حتى أنها ظلت تحارب طواحين الهواء في اليمن وهو ما كان يكلف خزانة الدولة نحو مائة مليون دولار ، وهو نفسه المبلغ الذي كانت تحتاجه مصر لسد احتياجاتها من القمح من الخارج !! ..

وكالعادة تدخل السوفيت لإنقاذ مصر ، حيث طلبت مصر شراء قمح سوفيتي ، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتي أي فائض من القمح في ذلك العام ، ومع ذلك أرسل رئيس الوزراء السوفيتي **أليكسي كوسيجين** برقية عاجلة يقول فيها : " إن المحصول السوفيتي من الحبوب هذه السنة جاء أقل من المتوقع ، مما اضطر الاتحاد السوفيتي أن يدخل سوق القمح مشتريا من السوق الكندية ، لكنه بالنظر إلى تعرض مصر لضغوط أمريكية ، فإن القيادة السوفيتية أمرت بتحويل شحنات قمح مشتراة للاتحاد السوفيتي إلى مصر ، وسوف تتوجه البواخر الحاملة للقمح وهي الآن في المحيط الأطلنطي إلى ميناء الاسكندرية على البحر الأبيض بدلا من الذهاب إلى ميناء أوديسا على البحر الأسود " ..

وفي نوفمبر 1965 كان هناك اقتراح أمريكي لوزير الخارجية الأمريكي **دين راسك** بأن تبيع أمريكا القمح لمصر في مقابل عدة شروط من بينها أن تقلص مصر المساحة التي تزرعها قطنا لأن القطن المصري منافس قوي لقطن الجنوب الأمريكي ..[75]

* * *

[75] لم يتم تنفيذ الاقتراح الأمريكي في حينه ، غير أنني لا أستطيع أن أؤكد للقارئ أنه لم يلق قبولا في مرحلة ما ، وربما تفسر لنا مثل تلك التوصية سر ضآلة الأراضي المصرية المزروعة بالقمح والقطن في الوقت الحالي ..

وفي المرحلة التي سبقت حرب يونيو 1967 ، كانت الولايات المتحدة تبذل كل ما في وسعها لضمان التفوق الإسرائيلي ومحاولة كسر **عبد الناصر** .. فكانت الولايات المتحدة تمول جميع صفقات الأسلحة التي تشتريها إسرائيل من الدول الأوروبية ، وعلى رأسها صفقة كبيرة من الدبابات والمدفعية وصلت إسرائيل من ألمانيا الغربية وكانت سببا في قطع العلاقات السياسية بين عشر دول عربية وألمانيا الغربية .. وهكذا كانت مبيعات الأسلحة إلى إسرائيل في عهد **جونسون** ضخمة جدا حتى أن إسرائيل كانت تملك أسلحة تجعلها متفوقة على الدول العربية جميعا إذا حاربوها معا ! ..

وفي عام 1966 بلغت المعونات الأمريكية الاقتصادية والعسكرية لإسرائيل 1.1 مليار دولار ، بينما كانت في العام السابق عليه مباشرة 92 مليون دولار فقط ، أي أن الدعم الأمريكي لإسرائيل تضاعف بنسبة 1200% قبيل حرب يونيو مقارنة بالعام الذي يسبقه ..

وفي أبريل 1966حدثت تغييرات هامة في الإدارة الأمريكية صبت في مصلحة إسرائيل ، وكأن الشواهد كلها تتجه نحو حرب إسرائيلية على أراض عربية بشهادة ضمان أمريكية .. فقد استقال **ماك جورج باندي** من منصب مستشار الرئيس للأمن القومي وحل محله **والت روستو** وأصبح شقيقه **يوجين روستو** مساعدا لوزير الخارجية وعين **أرثر جولدبرج** مندوبا دائما للولايات المتحدة في الأمم المتحدة وصار **ريتشارد هيلمز** مديرا للمخابرات الأمريكية ، وكان الأربعة المذكورون من اليهود ولأول مرة في التاريخ يكون مدير المخابرات ومستشار الأمن القومي والمندوب الدائم لدى الأمم المتحدة في آن واحد من اليهود ، لتنتقل السلطة في أيدي اليهود قبيل الحرب ..[76]

وبنهاية عام 1966 كانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها بالقضاء على **جمال عبد الناصر** ، وكان **جونسون** يطلق على المهمة عملية اصطياد الديك الرومي حيث كانوا يصفون **عبد الناصر** بأنه يمشي في المنطقة العربية مختالا بنفسه كأنه ديك رومي ، وكانت الولايات المتحدة تسعى إلى تحسين صورتها بعدما حدث لها في فيتنام ، ولم يكن هناك أفضل من إحراز نصر عسكري إسرائيلي في الشرق الأوسط يزيح **عبد الناصر** ويرد الإهانة للسوفيت ..

وفي مطلع عام 1967 سخّرت المخابرات الأمريكية كل التسهيلات لإسرائيل فأباحت لها بكل المعلومات المتوفرة لديها وأتاحت لها إمكانية فك شفرة معظم مفاتيح الشفرة المصرية المدنية والعسكرية ووفرت لها إمكانيات الحرب الالكترونية من تشويش إلى إعاقة كما أجرت اتصالاتها مع المخابرات البريطانية كي تحصل إسرائيل على وثائق الخطط البريطانية للضرب الجوي الذي قامت به بريطانيا ضد الطيران المصري في عدوان 1956 ..

---

[76] ولا ينبغي إغفال أن أقرب أصدقاء **جونسون** المحامي الشهير **فورتاس** ، وكذلك عشيقته **ماتيلدا كريم** كانا من اليهود ..

وفي أول مارس 1967 قدم السفير الأمريكي **باتل** شروطا محددة لإعادة تصدير القمح إلى مصر تتلخص في انسحاب القوات المصرية من اليمن وعدم تأييد الوطنيين في عدن وتسريح جزء من الجيش المصري والعدول عن صناعة الصواريخ وعدم توجيه انتقادات لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط !! ..

وفي 9 مارس أبلغت مصر السفير الأمريكي أنها عدلت نهائيا عن رغبتها في شراء القمح الأمريكي ..

وفي 21 مارس 1967 وصلت إلى مصر تقارير مخابراتية عن قيام وكالة المخابرات الأمريكية بالاتفاق مع بعض شركات الطيران الدولية على تركيب كاميرات خاصة في بطون طائراتها بحيث تستطيع أن تلتقط صورا تغطي سطح مصر كلها أثناء طيرانها في الأجواء المصرية .. كما أفادت نفس التقارير بأن الطائرات الحربية الأمريكية التي تمر في المجال الجوي المصري بإذن خاص تفعل نفس الشئ على نطاق أوسع .. وصدر قرار يحدد ممرات جوية خاصة للطيران المدني كذلك صدر قرار بمنع الطيران العسكري الأمريكي تماما فوق الأراضي المصرية ..

* * *

كانت أجواء الحرب تخيم على كل شئ ، وكأن المنطقة تندفع بلا قدرة على التمهل نحو معركة ليس في نية أحد أن يوقفها ، كما لو أن شخصا مربوط في قطار يتحرك ، فإن لم يتحرك معه انكفأ على وجهه ، وإن تحرك معه انكفأ على وجهه أيضا ..

ففي الأشهر الأربعة الأولى من عام 1967 صعدت إسرائيل من هجماتها الجوية ضد سوريا وكبدتها خسائر متلاحقة ..

وكان الضغط العربي على مصر شديدا كي تكشر عن أنيابها وتردع إسرائيل .. ولم تكن مصر مستعدة للحرب ، ولم تكن تدري أنها غير مستعدة للحرب ، كما لم يكن لديها حلول أخرى سوى التلويح بالحرب أملا في وقف إسرائيل عند حدها بدون إشعال الحرب فعليا .. وكانت مصر تستند في ذلك إلى دور الأمم المتحدة ودعم الاتحاد السوفيتي .. وكانت تتصور أن كلامها غير محسوب عليها وأن التهديد بالحرب لن يأتي إلا بالمردود الإيجابي خوفا من الجيش المصري .. وكان الفخ معدا لاصطياد الديك الرومي ..

وفي 14 مايو أعلنت مصر التعبئة العامة وحشد الجيش في سيناء .. وفي 15 مايو أجرت إسرائيل احتفالات بذكرى إعلان قيام الدولة باستعراض مبالغ فيه لأسلحتها الأمريكية الحديثة من دبابات ومدافع في استفزاز متعمد .. وفي الوقت نفسه نجحت إسرائيل بالتنسيق مع المخابرات الأمريكية في خداع الروس والمصريين وإيهامهم بأن إسرائيل تحشد جيشها على الحدود السورية ..

وفي 19 مايو كتب **جونسون** إلى رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي **كوسيجين** يقترح فيه مبادرة مشتركة لمنع النزاع بين إسرائيل والعرب من التحول إلى حرب .. وفي 22 مايو توجه الأسطول السادس وحاملتا الطائرات ساراتوجا وأمريكا إلى شرق البحر المتوسط في رسالة إلى الجميع بأن إسرائيل تحت الحماية الأمريكية .. وكان اقتراب الحاملتين من الشواطئ الإسرائيلية لسد الثغرة التي يمكن أن تنشأ إذا ما بدأت

إسرائيل في تسديد ضربتها الجوية .. فقد كانت هناك مخاوف أن يتسرب موعد الضرب ويقوم الطيران المصري بهجمة مضادة على المطارات الإسرائيلية لتدمير مدارجها ، فإذا ما ذهبت الطائرات الإسرائيلية إلى ضرب المطارات المصرية وجدتها خالية من الطائرات لأن الطيران المصري سوف يكون وقتها فوق إسرائيل ، وإذا ما حاولت الطائرات الإسرائيلية العودة تعذر عليها ذلك لأن المطارات الإسرائيلية لن تكون في حالة تسمح بذلك ، بينما تستطيع طائرات مصر أن تهبط في مطارات جيرانها العرب في الأردن أو السعودية أو السودان .. وهكذا رست حاملتا الطائرات الأمريكيتان أمام إسرائيل كي تحمي قواعدها الجوية وكذلك لتأمين جميع الأهداف الداخلية في العمق الإسرائيلي، إذا ما أبدى العرب بعض المقاومة أو المهارة في إدارة الحرب ..[77]

وفي 23 مايو أرسلت الولايات المتحدة شحنة كبيرة من الأسلحة وقطع الغيار والذخيرة في الوقت الذي كانت تعلن فيه الحظر على جميع الأسلحة المرسلة إلى الشرق الأوسط .. وفي نفس اليوم أعلنت مصر إغلاق مضيق تيران..

وفي 24 مايو تساءل **جونسون** في اجتماع لمجلس الأمن القومي الأمريكي عن إمكانية نجاح إسرائيل في شن حرب ضد العرب فأجابه مدير المخابرات **ريتشارد هيلمز** أن في وسع إسرائيل أن تربح حربا ضد الدول العربية منفردة أو مجتمعة بصرف النظر عن الطرف الذي يسدد الضربة الأولى وذلك خلال أسبوع من بدء الحرب .. وفي 25 مايو بدأت الولايات المتحدة اتخاذ إجراءات لترحيل رعاياها من مصر وتلقى عدد كبير منهم إخطارات من القنصلية الأمريكية تطلب إليهم أن يجهزوا أنفسهم للرحيل عن مصر في ظرف أسبوع على أقصى تقدير ..

وفي 26 مايو طلب السفير الأمريكي في القاهرة مقابلة عاجلة مع **عبد الناصر** لينقل له رسالة من الرئيس **جونسون** يطلب فيها عدم البدء بالعدوان على إسرائيل لأن ذلك يضر موقف مصر دوليا ، وأكد السفير رغبة الولايات المتحدة في قبول دعوة **زكريا محي الدين** نائب رئيس الجمهورية للزيارة والبحث في حل النزاع القائم دبلوماسيا وكان مقررا الزيارة في 7 يونيو في تمويه أمريكي عملا على زيادة الاسترخاء المصري واستبعاد فكرة الحرب ..

وفي فجر يوم 27 مايو توجه السفير السوفيتي **ديمتري بوجداييف** إلى منزل الرئيس **عبد الناصر** وطلب بإلحاح إيقاظه لإطلاعه على أمر هام لا يحتمل التأجيل ، وقام السفير بتسليم **عبد الناصر** رسالة من **أليكسي كوسيجين** فحواها أن الرئيس **جونسون** اتصل بـ **كوسيجين** على الخط الساخن قبل ساعة وأبلغه أن القوات المصرية ترتب لهجوم وشيك على إسرائيل وأنه إذا حدث ذلك فإن الولايات المتحدة سوف تعتبر نفسها في حل من تعهداتها التي أعطتها للاتحاد السوفيتي لممارسة ضبط النفس وأن من يضرب الضربة الأولى

---

[77] في أثناء حرب يونيو كان الفريق **عبد المنعم رياض** قائدا للقوات العربية المشتركة في الأردن ، وعندما كانت الطائرات الإسرائيلية تحلق فوق الأجواء المصرية حاول إقناع السوريين والأردنيين بضرب مطارات إسرائيل كي يحقق ما كانت تخشاه الولايات المتحدة ، ولم يأبه أحد لأفكاره !

سوف يكون عليه تحمل تبعات ما يحدث.. وأكد السفير أن السفير السوفيتي في تل أبيب **ديمتري تشوفاخين** ينقل رسالة مماثلة لرئيس الوزاء الإسرائيلي **ليفي أشكول** في نفس تلك اللحظات ..

وفي 30 مايو قام مدير المخابرات الإسرائيلية بزيارة سرية إلى الولايات المتحدة ، وهناك أوضح له المسئولون في البنتاجون والمخابرات أنه " إذا تصرفت إسرائيل بمفردها وحققت نصرا حاسما على العرب فإن أحدا لن ينزعج في واشنطن " ..

وفي 31 مايو جاء تصريح **دين راسك** وزير الخارجية الأمريكي بخصوص الموقف الأمريكي من احتمالات نشوب الحرب قائلا : " لا أظن أن من شأننا أن نقيد أحدا .. I don't think it's our business to restrain anybody ".. بل على العكس من ذلك ، فكانت أمريكا تمعن في إطلاق إسرائيل بمنتهى الحرية نحو شن الحرب .. فقد كانت هناك خطة طارئة أعدتها هيئة الأركان المشتركة الأمريكية قبل الحرب بأيام للترتيب لتدخل عسكري أمريكي في الحرب إذا ما سارت في غير مصلحة إسرائيل .. وكانت طائرات النقل الأمريكية تقوم بنقل كميات ضخمة من المهمات العسكرية من قاعدة هويلس في ليبيا إلى إسرائيل ..

وفي 3 يونيو وقع **جونسون** أمرا رئاسيا بأن تقوم القوات الجوية الأمريكية المتمركزة في قاعدة رامشتاين بألمانيا الغربية بترتيب عملية استطلاع للجبهة المصرية بواسطة طائرات رف-4 سي وبالفعل تم التجسس وقدمت الطائرات آلاف الصور لكافة التحركات على الجبهة المصرية .. وفي 4 يونيو كان **جونسون** يحضر اجتماعا حزبيا في نيويورك ، وفي أثناء الجلسة اقترب منه **أيبي** أحد زعماء الحزب الديمقراطي وأسر إليه أنه لا يمكن التأخير أكثر من ذلك ، وأن إسرائيل ستبدأ هجومها خلال 24 ساعة .. وعندئذ قام **جونسون** وألقى خطابا حماسيا حول وجود إسرائيل وضرورة حمايتها وتأييدها بكافة الوسائل ..

وفي صباح الخامس من يونيو هاجمت إسرائيل مصر ، وكانت مصر على علم مسبق عن طريق عملائها وجواسيسها بموعد العدوان وطبيعته ، لكنها لم تتمكن من صده بسبب أخطاء قاتلة في إدارة الساعات الأخيرة قبل المعركة وبسبب تخوفها من التدخل الأمريكي إذا ما بكرت هي بالهجوم .. وبدأت الحرب بضربة جوية عبارة عن ثلاث طلعات جوية قامت بها 492 طائرة لضرب 11 قاعدة جوية مصرية في الدلتا والصعيد وسيناء ، لتنتهي الحرب قبل أن تبدأ ..[78]

وفي اليوم التالي للحرب كان هناك مشروع في مجلس الأمن لوقف إطلاق النار والعودة إلى موقف ما قبل الحرب لكن أمريكا نجحت في تأجيل ظهوره حتى تؤكد إسرائيل انتصارها ليظهر بعد ذلك مشروع وقف إطلاق النار مع بقاء الوضع كما هو عليه دون انسحاب نتيجة إصرار الولايات المتحدة على ذلك .. ليصدر في نفس اليوم بيان مصري بشأن قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة بسبب اشتراكها في

---

[78] كانت الولايات المتحدة قد زودت إسرائيل بخزانات إضافية للوقود تحملها الطائرات المغيرة وتستعمل وقودها في رحلتها ذهابا إلى أهدافها في أقصى العمق المصري وبعد انتهاء مهامها تقذف بهذه الخزانات الإضافية في الجو لتستعمل بعد ذلك وقودها الأصلي في رحلة العودة إلى قواعدها في إسرائيل ، وهو ما أسفر عن خطأ في الإبلاغ عن سقوط طائرات إسرائيلية لم تسقط ..

الحرب ضد مصر .. وفي يومي 8 و9 يونيو قامت الولايات المتحدة بمهام الاستطلاع الليلي لرصد التحركات العربية حتى تسهل الهجمات الإسرائيلية في صبيحة اليوم التالي ، وكان تلك المساعدة الأمريكية في منتهى الأهمية ، فقد كانت إسرائيل لا تملك أية مقدرة على الاستطلاع الليلي في عام 1967 ..

وبعد ستة أيام من بدء الحرب ، كانت المعركة قد حسمت تماما لصالح إسرائيل .. وقد أسفرت الحرب عن خسارة مصر 340 طائرة و600 دبابة ، في مقابل 40 طائرة و105 دبابة على الجانب الإسرائيلي ..

لكن مصر خسرت ما هو أغلى من ذلك بكثير .. خسرت بضعة آلاف من أبنائها ، وخسرت هيبتها وكرامتها ..

وفي 14 يونيو اجتمع مجلس الأمن القومي الأمريكي وقرر إرسال شحنة أسلحة إلى إسرائيل لتعويض خسائرها المحدودة في الحرب ، فقامت بتسليم إسرائيل 62 طائرة بدلا مما خسرته ..[79]

وفي 19 يونيو صرح **جونسون** في بيان له أن الولايات المتحدة لن تضغط على إسرائيل للانسحاب طالما أنه ليس هناك سلام ..

وكان مجلس الأمن قد أصدر قراره الأشهر رقم 242 الذي ينص على انسحاب إسرائيل .. وكان العرب يفسرون القرار على أساس أن يتم الانسحاب إلى خطوط الرابع من يونيو ، بينما تفسره إسرائيل على أنه انسحاب لحدود آمنة ومعترف بها ..

* * *

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ..

فمصر المهزومة صارت فريسة للشماتة الأمريكية ، ولم تعد الولايات المتحدة تخفي حفاوتها بإسرائيل ، بل على العكس أصبحت تفتخر بذلك ..

وفي لقاء لـ **جونسون** بالسفراء العرب في أعقاب الهزيمة ، دخل عليهم الرئيس **جونسون** ومعه كلبه بيجل ممسكا بوثاق من الجلد يقود به الكلب .. ولم يبادر بتحية السفراء الذين ينتظرونه في حجرة الاستقبال ، ولم يلتفت إليهم أو يوجه لهم أي كلام ، بل بدأ في الحديث إلى كلبه بيجل قائلا :

" اسمع يا بيجل .. حكاية رجل شرير تخانق مع جاره الطيب متصورا أن هذا الرجل الطيب لا يستطيع الرد عليه ، ولكن الجار الطيب يا بيجل استجمع كل قواه ولكم جاره الشرير لكمة قوية طرحته على الأرض ..

له حق يا بيجل ، أليس كذلك ؟

لماذا يحق لأصحاب هذا الرجل الشرير أن يشتكوا للآخرين ؟ .. ما رأيك يا بيجل ؟ " ..

وكانت هذه إهانة بالغة للعرب أصابت الحاضرين بالذهول ..

---

[79] وفي أكتوبر 1967 قدمت الولايات المتحدة مائة طائرة لإسرائيل ، خمسين من طراز فانتوم 4 وخمسين من طراز سكاي هوك كمكافأة لها على ما أبلته من بلاء حسن ، وفي أكتوبر 1968 قدمت خمسين طائرة إضافية من طراز فانتوم 4 ..

حاولت مصر العودة سريعا إلى المعركة .. ونجحت إلى حد بعيد في ذلك ، عندما تمكنت قواتها البحرية من إغراق المدمرة إيلات في يوم 21 أكتوبر 1967 .. وفي اليوم التالي انتقمت إسرائيل بقصف معامل تكرير البترول في الزيتية بالسويس والمساكن المدنية المحيطة .. وفي نفس اليوم أعلنت أمريكا قرارها بتسليم إسرائيل عددا جديدا من قاذفات القنابل ..

ورغم أن مصر قامت بقطع علاقتها الدبلوماسية بالولايات المتحدة بعد قيام الحرب مباشرة ، إلا أنه لم يكن ممكنا على أرض الواقع ألا تكون هناك اتصالات بين البلدين .. فكان **دونالد بيرجس** هو القائم على شئون رعاية المصالح الأمريكية تحت مظلة السفارة الإسبانية في مصر وكان السفير **أشرف غربال** يقوم بنفس المهمة في واشنطن تحت مظلة السفارة الهندية .. وهكذا استمرت المفاوضات بين مصر والولايات المتحدة بشأن الاحتلال الإسرائيلي لأراض عربية في كل من مصر وسوريا وفلسطين .. ونلتقي عدة مشاهد لنوعية الحوارات والمفاوضات في فترة ما بعد الهزيمة وحتى رحيل **عبد الناصر** في نهاية سبتمبر 1970 ..

* * *

ففي يوليو 1968 اجتمع **عبد الناصر** بالمبعوث الأمريكي **ماك جورج باندي** ، وقد علق **عبد الناصر** على الموقف الأمريكي قائلا : " إن الولايات المتحدة موالية لإسرائيل بنسبة مائة في المائة " .. فرد **باندي** : " بل بنسبة 77 في المائة يا سيادة الرئيس " .. فعاد **ناصر** ليؤكد : " بل 101 في المائة " ! ..

وفي نوفمبر 1968 شددت الولايات المتحدة ضغطها على مصر لقبول مبدأ الحل المنفرد مع إسرائيل ، لكن مصر رفضت فكرة الحل المنفرد واستبعدته تماما ..[80]

وبعد أن تولى **نيكسون** الحكم رسميا في يناير 1969، اختار **ويليام سكرانتون** حاكم ولاية بنسلفانيا مبعوثا خاصا للشرق الأوسط وجاء **سكرانتون** في زيارة للمنطقة ، ثم عاد منها وأدلى بتصريح قال فيه إن الإدارة الأمريكية سوف تتبنى سياسة متوازنة حيال الشرق الأوسط " The United States will adopt an even-handed policy in the middle East" .. وقامت الدنيا ولم تقعد في الولايات المتحدة على **سكرانتون** ، الذي اختفى في الحال تماما من الحياة السياسية ..

وفي 10 أبريل 1969 تقابل الدكتور **محمود فوزي** مع **كيسنجر** في مكتبه بالبيت الأبيض ، سأله **كيسينجر** هل ستقبل مصر مناطق منزوعة السلاح ؟ .. فأجاب **فوزي** : إننا قبلنا إنشاء مناطق منزوعة السلاح وقد كتبنا ذلك إلى السفير **يارنج** على أن تكون على جانبي الحدود .. فعاد **كيسينجر** يسأله عما إذا كانت مصر تشترط أن تكون المناطق على الجانبين بنفس العمق .. فأجاب **فوزي** قائلا : " من الممكن النظر في ذلك في ضوء فوارق مساحات الأراضي القائمة على الجانبين عموما .. فرد **كيسينجر** قائلا : " هذا معقول fair enough " ..

---

[80] ظل هذا هو المطلب الأمريكي الرئيسي طوال سنوات ما بين الحربين ، فكانت الولايات المتحدة تسعى لفرض سلام أحادي بين إسرائيل وكل دولة عربية على حدا حتى تكون إسرائيل في الموقف الأقوى دائما ، وقد تحقق لها ذلك بشكل أو بآخر طوال العقود التالية ..

وفي لقاء لوزير خارجية الولايات المتحدة **ويليام روجرز** مع السفير المصري **أشرف غربال** ، استشهد **روجرز** بمباحثات الولايات المتحدة الأخيرة مع المكسيك كدليل على المرونة المطلوبة في مثل تلك المفاوضات ، حيث تنازلت الولايات المتحدة للمكسيك حسب قوله عن أراض هي قانونا من حق أمريكا ، لكنهم فعلوا ذلك لحسم الخلافات وللإبقاء على علاقات حسن الجوار ، فعقب **غربال** مداعبا : خسارة أن أمريكا ليست جارتنا ! ..

* * *

وفي ذلك العام 1969 اشتدت حرب الاستنزاف واخترق المصريون قناة السويس مرات عديدة وصولا إلى عمق سيناء .. وكان رد إسرائيل بالقصف الجوي في عمق مصر في الدلتا وفي نجع حمادي وفي طرة وفي مدرسة بحر البقر ، مما اضطر **عبد الناصر** إلى السفر سرا إلى موسكو في يناير 1970 للبحث عن أسلوب فعال لصد غارات العمق والطيران المنخفض فوق الأهداف المدنية حيث كانت صواريخ سام 2 السوفيتية تتصدى للطيران المرتفع فقط .. وأسفرت الرحلة عن تقديم السوفيت لصواريخ سام 3 المعدة لمواجهة الطيران المنخفض .. ووافق السوفيت بعد جدال شديد على قدوم قوات سوفيتية لتدريب المصريين على الصواريخ الجديدة والمشاركة المؤقتة في تأمين العمق والدفاع عنه وذلك بعد أن هدد **عبد الناصر** بترك الحكم لزميل له يستطيع التفاهم مع الأمريكان ..

وفي 22 فبراير 1970 وصلت برقية من الحكومة الأمريكية تنصح الحكومة المصرية بأن تعلن قبولها لوقف إطلاق النار وألا تربط ذلك بالانسحاب الإسرائيلي .. وأضافت الرسالة أنه إذا لم تقبل مصر ذلك فإن الغارات الإسرائيلية في العمق المصري وضد السكان المدنيين سوف تستمر وربما تتزايد بصورة أكبر لتشمل أهدافا تضر بالاقتصاد المصري بشكل قوي .. وكانت تلك البرقية تعني أن الولايات المتحدة تهدد مصر علنيا بدون رتوش أو تجميل ..

وفي الشهور التي سبقت وفاة **عبد الناصر** مباشرة كانت إسرائيل قد توقفت تماما عن غارات العمق بفضل الدعم السوفيتي ، وتزامن ذلك مع تقديم مبادرة روجرز لتحقيق السلام في الشرق الأوسط ، وقد قبلتها مصر حتى تتمكن من استكمال بناء حائط الصواريخ الذي يحمي سماءها من الطيران الإسرائيلي ..

وفي 4 يوليو أجازت وزارة الدفاع الأمريكية إرسال شحنة من الأسلحة الالكترونية المضادة للصواريخ المصرية من طراز سام لإسرائيل لاستخدامها ضد الأنواع المتطورة التي وضعتها مصر على طول قناة السويس ..

ثم مات عبد الناصر في 28 سبتمبر 1970 قبل أن يحقق هدفه باستكمال الاستعداد النهائي لرد العدوان الإسرائيلي واسترجاع شبه جزيرة سيناء .. وجاءت وفاته لتعلن انتهاء حقبة هامة من الصراع العربي الإسرائيلي ، وكذلك من الصراع الأمريكي السوفيتي .. [81]

* * *

كان الموقف في مصر يدعو للتساؤل والغموض بالنسبة لأي مراقب خارجي ..

وكان السوفيت يفضلون في تلك المرحلة سياسة التهدئة في الشرق الأوسط وإبقاء الوضع على ما هو عليه .. وتباطأوا في تنفيذ صفقة كانوا قد اتفقوا عليها مع **عبد الناصر** قبيل وفاته ، وذلك بتسليم مصر القاذفات الكبيرة من طراز اليوشين 23 القادرة على الوصول إلى عمق إسرائيل ، واعتذروا مفضلين بقاء الطائرات في روسيا على أن تستعمل من هناك إذا ما قامت الحرب وطلبت مصر استخدامها !! .. بل إن **كوسيجين** رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي صرح في أثناء تقديمه واجب العزاء في **عبد الناصر** قائلا : " نحن نريد أن نساعدكم على استعادة أراضيكم المحتلة ، ولكننا لا نعتقد أن الحرب المسلحة ضرورية لتحقيق هذا الهدف ، وإنما يجب أن تعطي الفرصة كاملة للعمل السياسي ، وفي مطلق الأحوال فإننا نرجوكم أن تعرفوا أننا لسنا على استعداد لمواجهة خطرة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ونأمل أن يكون ذلك مفهوما لديكم جيدا باعتباركم أصدقاء للاتحاد السوفيتي " ..

ومر عام 1971 دون أن تتمكن مصر من حسم موقفها بشأن الحرب كما كان مقررا ، وكان **السادات** يبحث عن نفسه وعن طريق يستعيد به سيناء سواء بالحرب أو بالسلام ، وكانت قنوات الاتصال الخلفية مفتوحة على مصراعيها مع الولايات المتحدة ، ولم تأت بنتيجة من أي نوع ، فإسرائيل موقفها قوي والولايات المتحدة لن تتنازل عن دعمها بكل ما أوتيت من قوة ، خاصة مع استمرار تأزم الموقف الأمريكي في الهند الصينية ..

وفي شهر يوليو 1972 أقدمت مصر على قرارين في اتجاه غير متوقع حازا على إعجاب الولايات المتحدة بشدة ..

ففي 2 يوليو 1972 تم الإعلان عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة .. وفي نفس الشهر أصدر **السادات** قراره الشهير بطرد الخبراء الروس من مصر .. ومن عجائب الأمور أن ذلك القرار كان له أكبر الأثر في تحول الموقف السوفيتي المائع ، فوافقوا فورا على شحن كل الطلبات المتأخرة من صفقات سابقة ووافقوا كذلك على تقديم أسلحة متطورة لمصر لم تظهر من قبل على مسرح العمليات في منطقة الشرق الأوسط مثل طائرات ميج 23 وسوخوي 20 وصواريخ من طراز R17E والتي يبلغ

---

[81] لن يكون من قبيل المبالغة إذا قلنا أن **عبد الناصر** كان يمثل الكثير بالنسبة للاتحاد السوفيتي ، فعن طريق تصديه للأمريكان أمكن للروس أن يدخلوا أفريقيا وأن يكتسبوا شعبية في الشرق الأوسط .. وبغيابه فقد الاتحاد السوفيتي أهم من يناصرونه ويتحدون به الولايات المتحدة .. وربما تكون وفاة **عبد الناصر** المبكرة وتخلي **السادات** عن الروس في السنوات التالية ما عجل بانهيار أحد أركان الكيان السوفيتي وساهم في أفول نجمه في العقد التالي ..

مداها 300 كم .. والأرجح أن السوفيت استشعروا أنهم بخسارة مصر سيفقدون كل شئ في المنطقة ، لذا كان عليهم التعاون مع **السادات** حتى ولو كانوا غير راضين عن مواقفه منهم من أجل تحقيق نصر مصري بسلاح سوفيتي على إسرائيل ذراع أمريكا في الوطن العربي ، وبذلك يكون الاتحاد السوفيتي قد استرد لسمعته ولسلاحه الهيبة التي تبعثرت في عام 1967 ..

ومع انتهاء عام 1972 اتضحت الرؤية تماما أمام المصريين ، وأصبح جليا أن التفاوض مع إسرائيل وأمريكا لن يعيد الأرض المفقودة ، وأن الحرب وحدها كفيلة بتحقيق الطموحات المرجوة .. وطوال الأشهر التسعة الأولى من عام 1973 كانت هناك عمليات تمويه وخداع على أعلى مستوى من المصريين ، نجحوا بها في خداع المخابرات الأمريكية والإسرائيلية ..[82]

* * *

وفي السادس من أكتوبر 1973 اندلعت الحرب على الجبهتين المصرية والسورية في يوم من ألمع أيام التاريخ المصري على قدمه وعراقته .. وفي أول أربعة أيام قتال فقدت إسرائيل 49 طائرة و500 دبابة وهو ما كان يمثل خمس الطائرات وربع الدبابات ..

ودون التطرق إلى تفاصيل سير المعركة والتسرع الذي أشركت به مصر الولايات المتحدة في إنهاء الحرب واللجوء إلى طاولة المفاوضات [83] ، فإن الدور الأمريكي في هذه الحرب كان عاملا حاسما وراء العودة السريعة لإسرائيل لشن الهجمات المضادة وإحداث الثغرة من خلال صور استطلاع أرض المعركة التي مكنتهم من الاختراق ..

وكان لابد أن تقبل مصر وقف إطلاق النار ، لأنه بدا عمليا على أرض الواقع أن الولايات المتحدة لن تسمح بهزيمة إسرائيل هزيمة كاملة ، وقد كتب **السادات** في رسالة إلى **حافظ الأسد** يشير فيها إلى قبول وقف إطلاق النار قائلا : " إنني أستطيع أن أحارب إسرائيل ، لكني لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة الأمريكية " ..

ولم يكن **السادات** مبالغا ..

وقد تكشفت الحقائق بشأن الدور الأمريكي في حرب 1973 في ندوة أقامها معهد الشرق الأوسط في واشنطن لإعادة تقييم حرب أكتوبر بمناسبة مرور ربع قرن على قيامها ، وقد حضر الندوة عدد من الذين كان يشغلون موقع المسئولية في الإدارة الأمريكية في ذلك التاريخ ، وكشفوا بالوقائع والتواريخ كيف أنقذت أمريكا إسرائيل من هزيمة ساحقة وكيف عدلت الميزان العسكري .. ففي كلمة لوزير الدفاع الأمريكي الأسبق **شليزنجر** قال : " في عام 1973 كان تعويض الخسائر عاليا جدا ، وكان لدينا خوف من أن تُهزم إسرائيل بينما الولايات المتحدة لا تريد إظهار دورها الصريح في إرسال الإمدادات إليها .. وقلت للبيت

---

[82] الكثير من تفاصيل تلك العمليات نوردها في كتاب قادم يختص بالصراع العربي الإسرائيلي بمزيد من التفاصيل إن شاء الله ..

[83] الكثير من تفاصيل الحرب ومدى إمكانية الاستفادة من النصر السريع في الضغط على الجانب الأمريكي الإسرائيلي في المفاوضات نوردها في كتاب قادم يختص بالصراع العربي الإسرائيلي إن شاء الله ..

الأبيض نحن نستطيع أن نمشي نصف الطريق بأن ننقل إليها الإمدادات على الطائرات الأمريكية بشرط أن تصل الطائرات إلى إسرائيل في الظلام وأن تفرغ حمولتها قبل حلول النهار .. وجاءني السفير الإسرائيلي **سمحا دينتز** والتزم أمامي بذلك .. وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي تحركت طائراتنا شرقا مستخدمة في طريقها قواعدنا في البرتغال وحدثت مفاجأة لم نكن نتوقعها ، فقد كانت هناك عاصفة أدت إلى أن هبطت الطائرات في الصباح وعليها علامات الجيش الأمريكي ، ولم نكن نستطيع عندئذ أن نقول أننا لسنا مشاركين فيما يجري ، بل إن فرحة الإسرائيليين بوصول الإمدادات جعلت نصف سكان تل أبيب يلتفون حول مكان هبوطها ويصفقون لوصول الطائرات الأمريكية " ..

وفي 12 أكتوبر وبينما كان الجسر الجوي الأمريكي لا يتوقف دقيقة ، اجتمع **نيكسون** بـ **كيسينجر** وقال له : " إننا سوف نتلقى لوما من العرب سواء أرسلنا ثلاث طائرات أو مائة طائرة ولهذا فإن التردد لم يعد له معنى .. قل لهم (يقصد وزارة الدفاع) أن يتحركوا بسرعة وبدون حرج وأن يبعثوا حمولاتهم في وضح النهار على أي شئ يمكن أن يطير من هنا إلى إسرائيل " ..

ويتضح من سير العمليات أن الحرب كانت تسير في صالح مصر لمدة 13 يوما ، لكن الجيش المصري كان يحارب جيشا جديدا في صبيحة كل يوم جديد ..

فقد استخدمت الولايات المتحدة 228 طائرة في الجسر الجوي وقد نفذت هذه الطائرات 569 رحلة تم فيها نقل 22497 طنا من الأسلحة والمعدات والذخيرة ، هذا بخلاف الجسر البحري الذي قام بنقل حمولة مقدارها 33210 طنا من الدبابات والمدافع والعربات ..

* * *

انتهت حرب أكتوبر 1973 بهزيمة فريقين وانتصار فريقين ..

فقد انتصرت مصر والولايات المتحدة ، وانهزمت إسرائيل والاتحاد السوفيتي !! ..

انتصرت مصر لأنها عبرت القناة وتمركزت قواتها على الجانب الآخر في أرض سيناء وكبدت عدوها خسائر بشرية وعسكرية فادحة ..

وانتصرت الولايات المتحدة ، لأنها بعد اندلاع الحرب مباشرة أصبحت الطرف الأوحد الذي يملك في جعبته أوراق عملية السلام في الشرق الأوسط بعد أن استبعدت مصر قدرة الاتحاد السوفيتي على دعمها للنهاية ..[84]

وانهزمت إسرائيل لأنها فقدت أرضا ما كانت لتخرج منها أبدا لو سلكت مصر الطرق الدبلوماسية ، وكانت سيناء ستظل محتلة حتى يومنا هذا مثلما هو الحال في الجولان والضفة الغربية والقدس ..

---

[84] ما يشاع عن تأثير سلاح البترول العربي على الولايات المتحدة في أعقاب الحرب ليس له أساس من الصحة ، فالشركات الأمريكية هي التي تسيطر على سوق البترول وهي التي تستخرجه من باطن الأرض العربية ، وقد استفادت الشركات الأمريكية من ارتفاع الأسعار على حساب أوروبا واليابان ، ويكمن التأثير الحقيقي على الولايات المتحدة في الأثر الأدبي لفكرة معاقبة أمريكا وهو ما قد يمس مكانتها ..

وانهزم الاتحاد السوفيتي ، لأنه قدم كل شئ لمصر في سبيل الحفاظ على مكانته هو ، لكن مصر لم ترد له الجميل حفاظا على أرضها هي ، وتجرع الروس كؤوس المرارة عندما وقف **السادات** في مجلس الشعب المصري في عام 1975 ليعلن إلغاء معاهدة التحالف التي وقعها بنفسه مع الاتحاد السوفيتي في عام 1971 ، ليفقد الاتحاد السوفيتي دوره تماما في الشرق الأوسط ، وإلى الأبد ..

* * *

لكن النصر المصري جاء منقوصا .. فبتسليم مصر أن الولايات المتحدة تملك جميع خيوط اللعبة السياسية وكل كروت الضغط على سائر الأطراف ، فإن مصر لم تكن تتصور أن الولايات المتحدة ليست طرفا محايدا في عملية السلام وأنها لن تسعى للوصول إلى حلول عادلة ونزيهة تكفل للعرب حقوقهم المسلوبة .. وكيف يُعقل ذلك وهي الحليف الأكبر لإسرائيل في المنطقة منذ نشأة الدولة اليهودية ..

وجاءت معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية لتقبل مصر شروطا لم تكن تقبلها أثناء الهزيمة ، ولم يكن منطقيا أن تقبل بها وهي في موقف المنتصر .. فقد استردت مصر سيناء بالكامل ولكن بشرط أن تبقى منزوعة السلاح بلا جيش يحميها ، ولم يشمل الاتفاق وجود منطقة منزوعة السلاح على الجانب الإسرائيلي .. فإذا ما نشبت الحرب تصل القوات الإسرائيلية إلى خط القناة بلا اعتراض من أحد ..[85]

* * *

في الستينات كان للدولة المصرية هيبة كبيرة ..

فقد حدث أن كان الرئيس **عبد الناصر** في زيارة إلى السعودية في أغسطس 1965 عبر البحر الأحمر ، وفي لحظة دخول الباخرة المصرية التي تقله ميناء جدة حدث واقعة غريبة .. كان **عبد الناصر** يقف على سطح الباخرة الحرية ويتطلع نحو ميناء جدة ولاحظ وجود مدمرة أمريكية تقف على جانب من الميناء .. لكن المدمرة الأمريكية لم تتبع التقاليد البحرية المعتادة في مثل هذه المواقف لتحية علم رئيس الدولة الذي يرفرف على ظهر الباخرة .. وقام قائد الحرية بلفت نظر قائد المدمرة الأمريكية إلى أنه خالف التقاليد وطلب منه إيضاحا ..

وفي صباح اليوم التالي قدمت الولايات المتحدة اعتذارا رسميا إلى الحكومة المصرية عن عدم قيام المدمرة الأمريكية بالتحية الواجبة وإطلاق مدافعها لدى وصول الرئيس المصري وبررت ذلك بعدم إبلاغ السلطات السعودية بقدوم باخرة رئيس الجمهورية في ذلك الموعد تحديدا .. وأضاف بيان الاعتذار أن مدمرة أمريكية أخرى يُنتظر أن تصل إلى ميناء جدة اليوم وستقوم بإطلاق 21 طلقة تحية لليخت الحرية في حالة وجود الرئيس في جدة !! ..

كانت كرامة مصر فوق كل شئ وكل أحد ، حتى لو كانت أكبر دولة في التاريخ الحديث ..

---

[85] وإذا ما اتخذ تجار المخدرات من أراضي سيناء موطنا ضخما لمزارع الخشخاش وإذا ما تحولت جبال سيناء ومغاراتها إلى أوكار لجماعات إرهابية تستهدف أمن مصر كما يحدث الآن ، فإن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى غياب التواجد الأمني والعسكري في سيناء طبقا لمعاهدة كامب ديفيد ..

وفي السبعينات كانت الدولة المصرية لم تزل تتمتع بالهيبة ..

فعندما زار الرئيس **السادات** إسرائيل ، كان هذا هو الحدث الأبرز على مستوى العالم ولعدة سنوات تالية .. وتصدرت مشاهد نزول الرئيس **السادات** من طائرته المصرية في مطار تل أبيب جميع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة .. واستقبله شعب إسرائيل بحفاوة بالغة ، رغم أنه عدوهم الأكبر .. ورغم أن التاريخ يحتفظ لنا بمعارضة معظم العرب والمصريين لتلك الزيارة الصادمة ، إلا أن أحدا لا يمكن أن ينكر أن مصر كانت في منتهى القوة والتألق متجسدة في شخص رئيسها وهو يدعو العالم إلى السلام بكل اعتزاز وكبرياء ..

وفي عصرنا الذهبي الحالي ، تضاءل ثقل مصر السياسي وتلاشى تأثيرها في العالم الثالث ، وخفت بريقها ، وأصبح اقتصادها مثقلا بالمعونات الآتية من الولايات المتحدة والتي يظهر بين الحين والآخر في الكونجرس من يهدد بقطعها أو يطالب بتخفيضها ، فتنبري له الأقلام المصرية في الصحف القومية لتؤكد على مكانة مصر وقامة مصر وقيمة مصر .. ثم لا تخجل نفس تلك الصحف أن تعلن عن سفر بعثة مصرية يطلق عليها بعثة طرق الأبواب إلى الولايات المتحدة للمرة الثالثة والعشرين من أجل فتح أسواق جديدة .. ولا يخفى على القراء أن طارقي الأبواب هم من المتسولين الذين يكتسبون رزقهم بعرض ما لديهم من بضاعة رديئة على أصحاب البيوت ، فإذا ما كان أصحاب البيوت في مزاج طيب أشفقوا على الباعة وطيبوا خاطرهم ، وإذا كانوا غير ذلك ، قاموا بطرد السائلين وأقفلوا الأبواب في وجوههم ..

* * *

كانت القوتان العظميان تتنازعان المنطقة العربية ، وتتنافسان على اجتذاب مصر إلى صفوفها ..

قدمتا إلى مصر الكثير ، ودفعت مصر مقابله أكثر ..

وانتهى بها المطاف بأن أرضت السوفيت في مرحلة ، وأرضت الأمريكان في مرحلة أخرى ..

وبعد أن فقدت الدعم السوفيتي ، فقدت مع الزمن الاحترام الأمريكي ..

وبقت رأسها صلعاء بلا شعرة واحدة ! ..

(44)
السـودان : أكـثـر مـن هـدف

بعد عشر سنوات من الآن ..

ربما كان هذا هو التوقيت الأنسب لكتابة مثل هذا الفصل ..

فكأننا اليوم نعلق على مباراة لا نعرف نتيجتها بعد ..

ولا يملك المعلق ولا المتفرجون سوى الدعاء بالنصر ، أو بعدم الهزيمة ! ..

* * *

نشأ السودان الحديث كما نعرفه اليوم عقب الفتح المصري التركي في عام 1820 ..

قبل ذلك التاريخ لم تكن هناك سلطة مركزية ، بل كانت الفوضى والحروب القبلية هي العلامة المميزة لتلك المساحة الشاسعة من الأراضي ، وخاصة في الجنوب ..

تزامن الفتح المصري التركي للسودان مع بدء وصول بعثات التبشير الأوروبية إلى جنوب السودان .. اختار مسيحيو أوروبا هذه الرقعة من أفريقيا كنقطة انطلاق للوصول إلى مملكة إثيوبيا المسيحية من أجل الاستيلاء على كنيستها القبطية ..

وفي عام 1882 احتلت بريطانيا مصر ..

وفي عام 1888 نشبت الثورة المهدية بقيادة **محمد المهدي** ضد الحكم المصري أو بالأحرى المصري البريطاني المشترك .. وفي سبتمبر 1898 قاد الإنجليز جيشا مشتركا مع مصر ، ونجحوا في إعادة احتلال السودان بعد انتصارهم في معركة أم درمان ، ليخضع السودان من جديد للحكم الثنائي ..

فتح الاحتلال البريطاني الطريق أمام انتشار بعثات التبشير في الجنوب .. وكانت سياسة بريطانيا ترمي إلى فصل الجنوب كليا عن شمال السودان ، فقامت بحظر اللغة العربية في الجنوب ، وأصدرت ما يعرف بقانون المناطق المقفلة في عام 1929 بغرض التطوير المنفصل عن طريق خلق نظام سياسي خاص بالجنوب يعتمد على الحكم غير المباشر من خلال زعماء القبائل .. ثم كان هناك التفكير البريطاني في انتزاع الجنوب السوداني من الدولة الأم وضمه إلى أوغندا أو كينيا حيث تنتمي تلك المنطقة في تقديرها إلى قلب أفريقيا السوداء أكثر منها إلى الشمال العربي .. وبمرور الوقت نجحت تلك السياسة البريطانية في تعميق الفوارق بين الشمال والجنوب على كافة الأصعدة ، فغابت اللغة العربية عن الأجيال الناشئة ، كما انتشرت المسيحية ، وصار شمال السودان عربيا مسلما ، أما الجنوب فأصبح أفريقيا مسيحيا ..

وفي يوليو 1952 قام انقلاب عسكري في مصر ، وتنازل الملك عن عرشه ..

وفي يونيو 1953 أعلنت الجمهورية في مصر ..

بارك الشعب انقلاب الجيش ، وتحول إلى ثورة اجتماعية شاملة ..

وبدأت الأنظار تلتفت إلى السودان ، وكان الموقف معقدا بحق .. فقد نالت مصر استقلالها عن بريطانيا ، إلا أن السودان كان خاضعا للحكم المشترك المبني في الأساس على احتلال بريطانيا ومن قبلها الأتراك لمصر .. لم تنتبه الثورة المصرية لأهمية السودان ولا لإمكانية التكامل بين البلدين وتحقيق وحدة هي بالفعل قائمة منذ آلاف السنين بدون تعقيدات التقسيمات السياسية التي أبدع فيها الاحتلال الأوروبي للقارة السوداء بشكل عام .. وربما أدرك رجال الثورة عبء المهمة ، واعتبروها أكبر من حجمهم ومن قدرتهم على إدارة مثل تلك الأزمة السياسية والخروج منها بأكبر مكسب ممكن ..

قامت المظاهرات في الخرطوم تهتف : " لا مصري ولا بريطاني .. السودان للسوداني " ..

وأوفدت مصر إلى الجنوب السوداني **صلاح سالم** الذي برع في ارتداء ملابس طرزان وقام بالسباحة والاستحمام في مياه النيل والرقص على دقات الطبول القبلية ، والتقط الجميع صورا تذكارية رائعة ! ..

انتهت الأزمة باستفتاء شعبي في السودان لتقرير المصير ، وجاء قرار الشعب بالاستقلال والانفصال عن مصر وتحقق لهم ذلك في يناير 1956 ..

* * *

ومع استقلال السودان عادت مشكلة الجنوب لتتصاعد من جديد ، بسبب رفض الجنوبيين لسياسات الحكومات الشمالية المتعاقبة التي توسعت في تطبيق سياسة التعريب والأسلمة ..

وفي عام 1963 أسفرت جهود حركات المعارضة عن نشأة منظمة الأنيانيا بواسطة مجموعة من الجنود الجنوبيين الذين فروا من الجيش النظامي ولجأوا إلى الكفاح المسلح ضد السلطة .. تدخل عدد من الأطراف العربية والدولية ، لكن الصراع ظل مشتعلا بين الجانبين طوال عقد الستينات ..

وفي عام 1969 تولى الرئيس **جعفر نميري** الحكم ، وأعلن في هدوء عن تبنيه الأزمة الجنوبية وسعى لإيجاد حل بتطبيق نوع من الحكم الذاتي الإقليمي في الجنوب ولكن في ظل حكومة سودانية موحدة ، خاصة بعد أن أدرك الرئيس السوداني عجز الحكومة عن تحقيق أهدافها بالقوة العسكرية ..

وفي عام 1972 تم توقيع اتفاقية أديس أبابا لتنتهي بذلك الحرب الأهلية في جنوب السودان ..

ظلت الأوضاع مستقرة في الجنوب السوداني حتى عام 1983 ، عندما اندلعت الحرب الأهلية مرة أخرى في أعقاب تشكيل الجيش الشعبي لتحرير السودان بقيادة **جون جارانج** ..[86] استأنف **جارانج** الصراع المسلح خاصة بعدما لجأ النظام الحاكم إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقدوم رئيس جديد للجيران الشماليين في مصر وعودة الحديث عن التكامل بين البلدين الشقيقين وهو ما اعتبره الجنوب الأفريقي المسيحي إمعانا في تأكيد الهوية العربية للسودان ..

وربما يكون السبب الأهم على الإطلاق هو اكتشاف البترول في جنوبي إقليم دارفور غربي السودان وشمالي إقليم جنوب السودان قرب الحدود مع المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة ..

---

[86] **قرنق** في بعض الأحيان !

ومنذ عام 1983 وحتى يومنا هذا لم تتوقف الحرب ، بل تعددت أطرافها واتسعت لتشمل مناطق أخرى في الشرق والغرب ..

* * *

لن يكون من السهل الآن أن نسلط أضواء تكشف حقيقة الدور الأمريكي في النزاع الشمالي الجنوبي أو في تداعي أزمة دارفور التي تتلخص النظرة الدولية لها على أنها صراع بين ميليشيات عربية بدعم رسمي من الحكومة السودانية وميلشيات أفريقية بتأييد من مسيحيي السودان ، وأن هذا الصراع قد أخذ شكل الإبادة الجماعية لأفارقة السودان ، ولن يكون من الحكمة أن نتصدى بالتناول لأحداث تتغير كل ساعة فيما يتعلق بدارفور .. كل ما يمكن الجزم به في هذه المرحلة أن ثمة مصالح أمريكية إسرائيلية في انهيار وحدة السودان .. هناك مصلحة أمريكية تتعلق بالبترول السوداني امتدادا للسيطرة المطلقة على بترول الشرق الأوسط .. وهناك مصلحة أمريكية إسرائيلية مشتركة تتعلق بإشراف السودان الجنوبي التابع لهما معا على مصادر المياه القادمة من الحبشة وفيكتوريا إلى مصر في الشمال ، وهي ورقة ضغط سوف يتم استخدامها لاحقا ضد مصر في مقابل تنازلات ما سوف تُجبر عليها إن لم تتحرك من الآن .. وهناك مشروع أمريكي حديث يرمي إلى ترسيخ بنية أساسية في قلب أفريقيا بالقرب من البحيرات العظمى لصالح شركات التعدين الأمريكية تتألف من أوغندا والكونجو الديمقراطية ورواندا وبوروندي وجنوب السودان إذا نجحت مساعي انفصاله ، ويلاحظ في هذا الشأن أن حكام هذه الدول جميعا من أبرز حلفاء الولايات المتحدة في أفريقيا ، مثل **موسوفيني** في أوغندا ، و**كاجامي** في رواندا ، و**زيناوي** في إثيوبيا ، و**جارانج** في جنوب السودان ..
وهناك استفادة أمريكية من توسيع نشاطها العسكري في الخارج حتى أنها لوحت في زيارة لوزير الخارجية السابق **كولن باول** إلى السودان في منتصف عام 2004 أنه من المطروح أن تقوم الولايات المتحدة بنشر 25 ألف جندي أمريكي يعملون تحت مظلة الأمم المتحدة بغرض تهدئة الأوضاع في إقليم دارفور .. وهذا النشاط العسكري في بقعة جديدة قريبة من مناطق المصالح والنفوذ والتوتر هو هدف في حد ذاته بصرف النظر عن البترول واليورانيوم وصراع الأديان والقوميات وقضية المياه .. وتطل هنا أيضا الانتخابات الأمريكية برأسها ، فـ **بوش** الذي لم يعطه 90 % من السود أصواتهم في الانتخابات الرئاسية الأولى كان يخشى أن تذهب أصواتهم والتي تمثل 12.9 % من إجمالي الناخبين إلى منافسه الديمقراطي **جون كيري** ، لذا رأى القائمون على حملته الانتخابية أن يستميل السود وتعاطفهم مع أفارقة السودان بمحاولة تبني قضية دارفور وفرض عقوبات على حكومة السودان ، ونلاحظ في هذا الصدد أن الاهتمام الأمريكي بقضية دارفور قد انكمش نسبيا بعد نجاح **بوش** في انتخابات الرئاسة الأخيرة .. وتظل خطورة الموقف في السودان ، غربه وجنوبه ، خاصة مع امتداد نفوذ **جارانج** إلى مناطق غربي السودان في الاحتمالات المظلمة التي قد تصل إليها الأوضاع هناك ..

* * *

كي لا ينتهي الفصل من دون لمسة أمريكية مؤثرة نتوقف عند حادثة شهيرة تعود تفاصيلها إلى عام 1998 .
ففي شهر أغسطس من ذلك العام أمر الرئيس الأمريكي **بيل كلينتون** بقصف كل من السودان وأفغانستان بدعوى أن البعبع **أسامة بن لادن** الذي كان يعيش في السودان ثم انتقل منها إلى أفغانستان يمتلك معامل لإنتاج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في هاتين الدولتين ..
في السودان تم قصف مصنع " الشفاء " للأدوية بدون أي تفتيش مسبق .. ثم اتضح بعد ذلك أن هذا المصنع هو المصنع الوحيد في السودان الذي ينتج العقاقير البيطرية وبالذات تلك التي تقتل الطفيليات التي تنتقل من قطعان الماشية إلى البشر ، وهو أحد الأسباب الرئيسية لوفيات الأطفال بالسودان ، ثم إن المصنع ينتج 90 % من منتجات السودان الدوائية الهامة وعلى رأسها عقار الكلوروكوين وهو العلاج المعتمد للملاريا .. لقد كان هذا المصنع ينتج العقاقير بسعر حوالي خمسة جنيهات مصرية في الشهر للشعب السوداني الفقير ..
تسبب قصف المصنع في وفاة عشرات الآلاف معظمهم من الأطفال ، إذ لم يكن في الإمكان استيراد الأدوية اللازمة لسد العجز حتى بفرض توافر القدرة الشرائية – ولم تكن متوافرة – بسبب العقوبات الاقتصادية المفروضة على السودان من قبل أمريكا بدعوى رعاية الإرهاب وكذلك امتلاك أسلحة دمار شامل ..
أجل .. اتهمت الولايات المتحدة السودان في وقت سابق بامتلاك أسلحة دمار شامل !! ..
سعت السودان لدى الأمم المتحدة كي تجري تحقيقا في هذه المهزلة والبحث عن تبرير مفهوم لأغراض القصف المتعمد ، وطلبت الحكومة السودانية من المفتشين الدوليين الحضور إلى السودان وإجراء فحوص لبقايا المصنع لإثبات عدم وجود غاز الأعصاب وعدم وجود مواد بيولوجية في التربة ...
ولم يفكر أحد في تلبية الدعوة بسبب حر الصيف ..

* * *

كما يبدو لنا ..
يترنح السودان ..
التهم كثيرة وسابقة التجهيز ..
رعاية إرهاب ، امتلاك أسلحة محرمة ، إبادة عرقية ، وخرق لحقوق الإنسان ..
والدوافع عديدة ونافذة الصبر ..
سيطرة على البترول، لعب بورقة المياه ، تقسيم على أساس ديني ، وتواجد عسكري في موقع استراتيجي .
أكثر من هدف ..
المباراة لم تنته بعد ..
والهجوم خير وسيلة للدفاع ! ..

(45)

لـيـبـيـا : هُـنـا المـسـتـقبـل !

طواعية ..

هكذا قرأنا ..

قررت الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى التخلي عن جميع أسلحة الدمار الشامل ، وأضافت إلى ذلك القرار مناشدة عاجلة لجميع الدول وخاصة العربية منها كي تحذو حذوها وتقوم بإنهاء برامج التسليح النووي حتى يعم السلام وينتشر الوئام وتسود المحبة ويفيض الخير ..

وكان قرارا جريئا بحق ، لولا أن ..

لولا أن ليبيا لم تكن تملك أسلحة نووية من الأصل ولا حتى كانت في منتصف الطريق للوصول إلى ذلك المستوى من التسليح !..

وبعد ذلك ..

أعلن الزعيم الليبي في ذكرى الفاتح من سبتمبر لعام 2004 عن استعداده التام لدفع تعويضات لليهود الذين غادروا ليبيا فيما مضى إلى فلسطين ، بشرط أن يثبتوا أنهم لم يأخذوا بيت فلسطيني ..

وكان هذا موقفا نبيلا ، لولا أن ..

لولا أنه لم يذكر كيف يثبت هو أن إثباتهم سليم ..

وقبل ذلك ..

في أعقاب هجمات 11 سبتمبر 2001 أصدر الزعيم الليبي بيانا قويا أدان فيه الهجمات ووصفها بالمفزعة والشنيعة ، وحث الليبيين على التبرع بالدم إلى الضحايا الأمريكيين ..

وكانت هذه لافتة إنسانية كريمة ، لولا أن ..

لولا أننا لم نسمع أبدا عن حملات ليبية متواصلة للتبرع بأنهار من الدماء الليبية للضحايا المسلمين والعرب حيث يسقطون ..

* * *

هذه بعض ملامح الحاضر التي تنبئ عن مستقبل مفعم بالآمال العريضة لراغبي استغلال بلد عربي ذي موارد بترولية هائلة ..

غير أن نفس هذه الملامح لا تدل مطلقا على الماضي القريب والذي من أجله احتلت ليبيا مكانها بين صفحات هذا الكتاب ..

* * *

في 21 نوفمبر 1949 مررت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يقضي باستقلال ليبيا عن إيطاليا – التي انتزعتها من الإمبراطورية العثمانية المترنحة في عام 1911 – قبل الأول من يناير من عام 1952 .. وقبل أسبوع واحد من الموعد المحدد نالت ليبيا استقلالها في 24 ديسمبر 1951 ، لتكون بذلك أول دولة تنعم بالحرية من خلال هيئة الأمم المتحدة الوليدة ، كما أصبحت بذلك واحدة من أوائل البلدان الأفريقية التي تتخلص من الاحتلال الأوروبي ..

وفي الحال ، أعلنت ليبيا بموجب الدستور كدولة ملكية يورث الحكم فيها ، وتولى عرشها الملك **إدريس السنوسي** وانضمت للأمم المتحدة في فبراير 1952 ..

وفي عام 1959 تم اكتشاف البترول بكميات ضخمة ، وتحولت ليبيا من واحدة من أفقر دول العالم إلى مملكة فاحشة الثراء ، خاصة في ظل العدد الضئيل من السكان الذين يقطنون الصحاري الليبية الشاسعة .. ولكن ، برغم التأثير البالغ لمبيعات البترول على الدخل الليبي ، إلا أن التذمر الشعبي أخذ في التصاعد تدريجيا بسبب استفادة نخبة محدودة من العائلة المالكة وأعوانها من عوائد البترول ..

ومع ذيوع أفكار القومية العربية ووحدة الشعوب والمد الناصري تحول الغضب الشعبي إلى انقلاب عسكري في الأول من سبتمبر 1969 دبرته مجموعة من الضباط الشباب بقيادة ضابط في الثامنة والعشرين من عمره هو **معمر محمد أبو منيار القذافي** ..

نجحت الحركة ، وتنازل الملك **إدريس** عن عرشه وتم نفيه إلى مصر ..

ألغيت الملكية ، وتأسست الجماهيرية العربية الليبية بزعامة الأخ العقيد قائد الثورة الذي لا يحمل لقب رئيس جمهورية رغم مضي 36 عاما على وجوده في السلطة ! ..

* * *

لم تسبب الحركة الليبية أي قلق في أيامها الأولى بالنسبة للإدارة الأمريكية ، فالملك **إدريس السنوسي** كان يبدو عاجزا عن خدمة أهداف الولايات المتحدة على النحو الأمثل ، فهو ينحدر من سلالة أصولية إسلامية ولا يتمتع بالمرونة الكافية للتكيف مع العصر الجديد ..

ثم إن القائد الجديد لدولة ليبيا كانت له ميول عدائية معلنة للشيوعية الدولية منذ الساعات المبكرة لتوليه الحكم ..

ولكن ، لم تكد تمضي أشهر قليلة حتى تسرب الشك إلى الأمريكان حيال الأيدلوجية الليبية المبهمة ..

ففي مارس 1970 قامت ليبيا بإغلاق القاعدة العسكرية البريطانية بـ طبرق ، وتلاها في يونيو من نفس العام غلق القاعدة الأمريكية بـ هويلس بالقرب من العاصمة طرابلس ..

وبدأت تتضح توجهات القيادة الليبية الجديدة بتأميم جزء من ممتلكات شركات البترول الأمريكية وتأميم معظم المصالح الأجنبية ..

كان تحول ليبيا من حليف للغرب إلى معاد له في فترة ما بين الحربين – يونيو 1967 وأكتوبر 1973 – يمثل أمرا شديد الخطورة .. إذ أن الموقع الليبي يتيح للغرب وخاصة أوروبا شراء خمسة ملايين برميل يوميا من البترول الليبي دون الاعتماد على قناة السويس المغلقة بسبب الحرب أو الاضطرار إلى الدوران حول رأس الرجاء الصالح وبأقل تكلفة ممكنة .. كما أن قاعدة هويلس العسكرية كانت تمثل أهمية قصوى من ناحية الإمداد والتموين للأسطول السادس الأمريكي الرابض في البحر المتوسط وكانت الولايات المتحدة تخزن أسلحة نووية فيها تم سحبها بعد الثورة مباشرة ..

ثم بدأت الإدارة الأمريكية تراقب بتخوف بعض التصرفات الليبية المارقة ..

فقد استضافت ليبيا بعض عناصر المقاومة الفلسطينية على أراضيها وقامت بإنشاء معسكرات لتدريبهم .. وقدمت ليبيا دعما ماليا كبيرا لمناضلي جنوب أفريقيا ضد النظام العنصري .. وكانت تشتري في أوائل السبعينات صفقات أسلحة ضخمة من الاتحاد السوفيتي تقدر بنحو مليار دولار سنويا وهو ما ينعش الاقتصاد الروسي ويشكل خطرا على الأصدقاء في إسرائيل .. وفي النصف الثاني من عام 1973 قامت ليبيا باحتلال إقليم أوزو شمالي دولة تشاد التي تقع إلى الجنوب من ليبيا ، وكان هذا الإقليم غنيا باليورانيوم ، مما ساهم في ازدياد احتمالات الصراع الأمريكي الليبي .. وفي عام 1974 خططت ليبيا للوحدة مع تونس – بعدما فشلت الوحدة مع مصر – في صورة ما يسمى بالجمهورية العربية الإسلامية ..

وفي ذلك الوقت حاولت الولايات المتحدة بمعاونة بريطانية أن يرتبا لمقاطعة غربية للبترول الليبي ، غير أن ليبيا وجدت بدائل سريعة في أوروبا الشرقية مكنتها من مقاومة الضغط الأمريكي .. وفي تلك المرحلة تم توجيه بعض الاتهامات لـ **القذافي** بضلوعه في مخططات لاغتيال بعض زعماء الدول الأفريقية والعربية وأنه دبر انقلابات فاشلة للإطاحة بالبعض الآخر ..

ففي عام 1971 أثنى **القذافي** على محاولة انقلاب تعرض لها الملك **الحسن الثاني** العاهل المغربي وإن لم تظهر آدلة مؤكدة على اشتراكه في المؤامرة ..

وفي عام 1976 اتهمت ليبيا بتدبير محاولة لقلب نظام حكم الرئيس السوداني **جعفر النميري** ..

وفي يوليو 1977 وصلت معلومات إلى القيادة المصرية أن ليبيا تخطط لاغتيال الرئيس **السادات** ، فصدرت الأوامر للقوات المسلحة المصرية بشن هجمة محدودة على شرقي ليبيا ، وتم تنفيذ الهجوم بالفعل وأسفر عن تدمير الدفاعات الجوية وعدد من الطائرات الليبية ! ..

وبعد أقل من عشر سنوات من حكم **القذافي** كان قد نجح بتفوق في كسب عداوة عدد غير محدود من جيرانه العرب والأفارقة ..

* * *

ورغم أن الممارسات الليبية كانت تشجع الجميع على عداء النظام الليبي إلا أن الولايات المتحدة كانت لديها الرغبة في المبالغة والتهويل من شأن **القذافي** ومدى خطورته على السلام العالمي ، تماما كما كان **بن لادن** ثم **صدام حسين** من بعده ..

اتخذت الولايات المتحدة سياستها الكلاسيكية بإلصاق جميع التهم الممكنة وغير الممكنة بـ **القذافي** عدوها الخطير ..

وربما لن يكون من السهل أن نفهم الدوافع الأمريكية بشكل واضح ، لكنه خليط من رغبة في حماية إسرائيل من أية تصرفات عشوائية ، ورغبة في تفرقة العرب عن بعضهم البعض ، واستغلال وجود أسباب تساعد على تدعيم الخلافات .. ثم كان هناك عدم ارتياح من موقف ليبيا تجاه عدد من القضايا العالمية مثل مساندتها لإيران في حربها ضد العراق ودعمها للحركات الثورية في العالم النامي في أفريقيا وأمريكا الجنوبية ..

" لم تكن جريمة القذافي الأساسية في أعين ريجان أنه كان يدعم الجماعات الإرهابية ، بل لأنه كان يدعم الجماعات الإرهابية الخطأ .. فلم يكن القذافي يقدم الدعم لنفس الإرهابيين الذين كانت تساندهم واشنطن ، مثل مقاتلي الحرية في نيكاراجوا ، وحركة يونيتا في أنجولا ، والمنفيين الكوبيين في ميامي ، وحكومتي السلفادور وجواتيمالا .. الجماعة الوحيدة التي تلقت دعمهما معا – القذافي وريجان – كانت جماعة المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الروس " .. ويليام بلوم

بل اتهم بتقديم الدعم المادي لمنظمات مثل الجيش الأحمر في اليابان وجماعة بادر ماينهوف الألمانية ومنظمة إيتا الانفصالية في إقليم الباسك الإسباني وعدد من المعارضين السياسيين في كوستاريكا وجامايكا والدومينيكان وجنوب أفريقيا وغيرهم ..

وكان أيضا من ضمن الدوافع الأمريكية البحث عن أعداء ضعفاء لا يشكلون خطرا حقيقيا – وليسوا على علاقات وثيقة مع موسكو – يمكن من خلالهم أن تستعيد الولايات المتحدة بعض كبرياءها المفقود منذ نهاية حرب فيتنام في عام 1975 ، وكان ذلك ملمحا من ملامح السياسة الخارجية الأمريكي في عهد ريجان ..[87] والأكثر وضوحا من ذلك كله هو شخصية الزعيم الليبي التي تشجع على اتخاذه عدوا حميما يقنع الرأي العام الأمريكي بمدى خطورته على السلام العالمي ..

إن وجود مخاطر خارجية تهدد الأمن القومي الأمريكي هو سياسة أمريكية مستمرة تعمل الإدارات الأمريكية المتعاقبة على ترسيخها ..

وكانت ليبيا واحدة من الدول الجاذبة للأخطار ..

* * *

[87] راجع فصلي جرينادا ونيكاراجوا ..

في عام 1977 أضاف البنتاجون اسم ليبيا إلى قائمة أعداء أمريكا ..

وفي يناير 1978 أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن ليبيا تأتي في مقدمة الدول التي تقترح أمريكا اتخاذ إجراءات ضدها وذلك لموقفها من القضية الفلسطينية والسلام العربي الإسرائيلي ..

وفي يونيو 1980 وضعت المخابرات الأمريكية خطة لضرب طائرة **القذافي** في أثناء رحلة له إلى أوروبا الشرقية ، وقد تم ضرب طائرة إيطالية فوق مياه أوستيكا معتقدين أنها طائرة **القذافي !** ..

وفي عام 1980 بدأ صوت المعارضة الليبية يعلو في الخارج ، وكانت هناك تكهنات بوجود دعم غربي معتاد في مثل تلك المواقف وخاصة من الولايات المتحدة .. وفي عامي 1980 و 1981 قامت الحكومة الليبية باغتيال أحد عشر منفيا يعيشون في أوروبا .. أدان الغرب ومنظمات حقوق الإنسان هذه الاغتيالات بشدة .. وتزامن ذلك مع محاولة أخرى – لكنها فشلت – لاغتيال أحد المنفيين الليبيين في الولايات المتحدة ، وتم على إثرها طرد ستة دبلوماسيين ليبيين في أبريل 1980 من الولايات المتحدة ، ثم تم إغلاق السفارة الليبية نهائيا في واشنطن في مايو 1981 مع بداية عهد **ريجان** .. ومنذ الأسابيع الأولى لولاية **ريجان** كان هناك إصرار على ضرورة استفزاز **القذافي** لوضعه في مكانه المناسب المخطط له كأحد ألد أعداء البشرية الذين يجب اتقاء شرهم المستطير ..

ففى مارس 1981 أعلن وزير الخارجية الأمريكي **ألكسندر هيج** بأن " لديه أدلة دامغة على وجود معسكرات تدريب إرهابيين في ليبيا "..

وفي أغسطس 1981 قامت ثمان طائرات أمريكية بإسقاط طائرتين من طائرات السلاح الجوي الليبي في أثناء مهمة استطلاع روتينية كانت تقوم بها الطائرات الليبية فوق المياه الليبية .. وفي أكتوبر اتهمت الولايات المتحدة ليبيا بمحاولة اغتيال السفير الأمريكي في إيطاليا .. وفي نوفمبر أعلنت الولايات المتحدة عن اكتشافها لمؤامرة ليبية لزرع متفجرات داخل السفارة الأمريكية بالخرطوم .. وفي 6 ديسمبر اتهمت الولايات المتحدة ليبيا باغتيال الملحق العسكري الأمريكي في باريس .. وفي اليوم التالي أعلن **رونالد ريجان** عن وجود أدلة لا تقبل الشك تثبت تورط النظام الليبي في إرسال فرق اغتيال لقتل كبار موظفي الحكومة الأمريكية ، وقام بإصدار أمر لكل الرعايا الأمريكيين الموجودين في ليبيا آنذاك وعددهم 1500 بمغادرة ليبيا على الفور ..

وفي الأسابيع التالية أطلقت الصحافة الأمريكية على **القذافي** لقب " أخطر رجل في العالم " **!!** ..

وفي مارس 1982 أعلنت الولايات المتحدة حظر استيراد البترول الليبي وحظر تصدير التكنولوجيا الأمريكية الخاصة بصناعة البترول ..

وفى عام 1984 اتهمت الولايات المتحدة ليبيا بوضع ألغام في البحر الأحمر لتفجير ناقلات البترول العملاقة ..

وفي عام 1985 وجهت أمريكا اتهاماتها إلى ليبيا بمسئوليتها عن 15 عملا إرهابيا أثناء ذلك العام ..

وفي العام التالي وصلت الأعمال الإرهابية التي يُفترض مسئولية ليبيا عنها إلى 19 عملا عدوانيا ..
وقد عكف مجلس الأمن القومي الأمريكي في السنوات الأولى من الثمانينات على دراسة شخصية **القذافي** والوضع العام في ليبيا من أجل التحرك في اتجاهين : الأول هو كيفية استفزاز **القذافي** حتى يقع في المحظور ويهاجم مصالح حيوية أو يغتال شخصيات عامة إذا ما شعر بأن الولايات المتحدة تخطط للتخلص منه بالقتل أو بقلب نظام حكمه .. والثاني هو تأليب شعبه عليه وإقناعهم بأنه العقبة الوحيدة أمام رضا الولايات المتحدة والغرب من ورائها ، وأن الشعب من بعده سوف يعيش أفضل كثيرا ..
وفي يناير 1986 قامت الولايات المتحدة بقطع جميع العلاقات الاقتصادية مع ليبيا ، ثم اتُخذ قرار في أحد اجتماعات البيت الأبيض بالعمل على إثارة **القذافي** بإرسال مجموعة من السفن والطائرات الحربية إلى خليج سيدرة الذي تطل عليه ليبيا ، ثم انتظار أي رد فعل من أي نوع حتى يتم اتخاذه ذريعة لشن هجوم عسكري ..[88]
ثم قررت الولايات المتحدة استغلال قرار **القذافي** غير المبرر بمد المياه الإقليمية إلى مسافة 120 ميلا بدلا من 12 ميلا وقامت المقاتلات الأمريكية بطلعات جوية متكررة بغرض إيقاعه في أي خطأ صغير .. وفي إحدى المرات قامت ليبيا بإطلاق عدة صواريخ في اتجاه الأهداف الأمريكية ، وإن سقطت بعيدا جدا عنها . لكنه كان عذرا كافيا حتى تتخذ أمريكا قرارها بمهاجمة السواحل الليبية وإغراق إحدى السفن ، ثم الإعلان عن معاملة أية سفينة أو طائرة حربية ليبية تفكر في عبور مياه ليبيا الإقليمية باعتبارها عدو لا مفر من التخلص منه على الفور ..
وهو ما تم بالفعل ، فقد تم إغراق سفينة لخفر السواحل بمجرد دخولها المياه الدولية فضلا عن تدمير سفينة أخرى مما أسفر عن غرق 72 بحارا ليبيا في تلك المواجهات ..
وفي 5 أبريل 1986 انفجرت قنبلة في ملهى ليلي في برلين أسفرت عن مصرع جندي أمريكي واحد .. وعلى الفور أشارت أصابع الاتهام إلى ليبيا .. وفي 14 أبريل قررت الولايات المتحدة الانتقام لحادث برلين .. فقامت بإرسال تسع طائرات إف 111 لمهاجمة مجمع **القذافي** السكني تحمل مجتمعة 36 قنبلة تزن 2000 رطل .. ووقتت الضربة لتسبق بقليل نشرة الأخبار المسائية ، وأعدت نشرة إخبارية لإعلان أن وفاة **القذافي** جاءت كنتيجة عارضة لهذا العمل الذي يهدف إلى الدفاع عن النفس .. ونجا الزعيم الليبي ، وإن أصابت الضربات سبعة من أبنائه وزوجته وقتلت مائة من المدنيين ، إضافة إلى ابنته بالتبني .. كان الغرض من استهداف منزل **القذافي** هو ما أشار إليه تقرير سابق للمخابرات الأمريكية بأن الشعب الليبي هو مجموعة من القبائل البدوية ، وأن عادات البدو سوف تجعل **القذافي** كقائد يسقط من نظرهم ، فالزعيم الحقيقي لابد وأن يكون قادرا على حماية منزله ، وإلا فهو لا يستحق الزعامة ..

---

[88] وهو سيناريو يتشابه بشكل أو بآخر مع بدايات حرب فيتنام ..

وسرعان ما ظهر الرئيس **ريجان** أمام الرأي العام الأمريكي مؤكدا على وجود آدلة دقيقة وقاطعة بشأن تورط ليبيا في حادث تفجير الملهى الليلي ، وأن الهجوم الأمريكي لم يجئ سوى رد فعل تلقائي على الحادث الأليم ..

وعندما مرت الأيام ولم تقم الإدارة الأمريكية بالإفصاح عن تلك البراهين الساطعة ، عادت الولايات المتحدة لتبرير هجومها الجوي على لسان أحد المسئولين الذي أكد أن ضرب ليبيا بالقنابل كان من أجل " الدفاع عن النفس ضد هجوم مقبل " ! ..

* * *

ثم تأتي الحادثة الأشهر في تاريخ العلاقة الليبية الأمريكية ..

إنها طائرة بان أميريكان التي انفجرت وعلى متنها 270 شخصا فوق قرية لوكيربي الاسكتلندية وهي في طريقها من مطار هيثرو بالعاصمة الإنجليزية لندن إلى مطار جون كينيدي بمدينة نيويورك على الجانب الآخر من الأطلنطي بتاريخ 21 ديسمبر 1988 ..

عندما وقع الانفجار لم توجه الاتهامات إلى ليبيا في بادئ الأمر ، بل كانت تقارير المخابرات والتحريات الأمنية تشير إلى احتمالات تورط كل من إيران بدافع الانتقام بسبب تفجير طائرة إيرانية في المجال الجوي الإيراني بمعرفة القوات البحرية الأمريكية في يوليو من نفس ذلك العام[89] ، وسوريا المعروف عن بعض الجهات بها نشاطها في تجارة المخدرات ، والاتجار في المخدرات كما ذكرنا في أكثر من مناسبة هو أحد أهم نشاطات المخابرات الأمريكية ، وربما يكون قد جرى اختراق شبكة ترويج المخدرات التي تديرها الوكالة بحيث قامت بعض العناصر باستبدال إحدى حقائب المخدرات على الطائرة بحقيبة القنابل التي انفجرت في الجو .. كان هذا هو السيناريو الذي روج له البعض ..

ثم جاء أغسطس 1990 ، وحدث ما حدث ..

وأصبحت الولايات المتحدة في حاجة إلى الدعم السوري والسكوت الإيراني كي تدخل بقواتها إلى الجزيرة العربية وتتصدى للعدوان العراقي على الكويت ، خاصة وأن التواجد العسكري الأمريكي المكثف في منطقة الخليج كان لابد له من حالة استقرار في علاقة أمريكا بالدول المحيطة بقواتها وبالعراق وبالبترول ..

وهكذا أعلنت أمريكا بمشاركة بريطانية وفرنسية في 14 نوفمبر 1991 – بعد ثلاث سنوات من حادثة لوكيربي ! – أن عناصر من المخابرات الليبية هي المسئولة عن تفجير الطائرة وطالبت ليبيا بتسليم المشتبه فيهم وإلا سوف تتعرض للمقاطعة الاقتصادية ..

وفي 4 ديسمبر 1991 قامت أجهزة الأمن الليبية بالقبض على رجلين مشتبه فيهما ، غير أنها رفضت تسليمهما إلى أمريكا أو بريطانيا ..

---

[89] انظر فصل إيران

وفي 13 مارس 1992 نجحت الولايات المتحدة في استصدار قرار من مجلس الأمن ينص على حظر الرحلات الجوية من وإلى ليبيا وعلى منع بيع السلاح ..

وفي 11 نوفمبر 1993 واصلت الولايات المتحدة جهودها ليصدر مجلس الأمن قرارا جديدا يطالب فيه بحظر بيع المعدات البترولية وتجميد كل الأرصدة الليبية بالخارج مع ضرورة تسليم المتهمين للقضاء البريطاني .. ونتيجة للضغوط الأمريكية المتواصلة وخلو الساحة من أي توازن في القوى العالمية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم يكن أمام ليبيا سوى عدم المكابرة ، فأعلنت عن استعدادها لإرسال المتهمين إلى جهة ثالثة محايدة ، ولكن قوبل عرضها بالرفض من أمريكا وبريطانيا ..

وتواصلت المقاطعة الاقتصادية ..

وفي أبريل 1995 أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية تقريرها السنوي عن حقوق الإنسان ، واتهمت ليبيا فيه بالاستمرار في تمويل الإرهاب وقتل المعارضين الليبيين للنظام القائم .. وفي 22 ديسمبر أصدر الكونجرس الأمريكي قانونا – قام بعرضه على المجلس السيناتور **إداورد كينيدي** – يمنع الشركات العالمية من الاستثمار في قطاعي البترول الليبي والإيراني بما يزيد على 40 مليون دولار .. وقد عارضت الدول الأوروبية مشروع هذا القانون الذي نص كذلك على فرض عقوبات صارمة على كل شركة تبيع أي تكنولوجيا متقدمة إلى ليبيا ..

وفي عام 1996 أصدر الكونجرس قانوناً يسمح لعائلات ضحايا لوكربي برفع قضية ضد الحكومة الليبية أمام القضاء الأمريكي ..

وفي 14 أكتوبر 1996 أصدرت ليبيا تقريرا مطولا يتناول الآثار المدمرة للعقوبات الدولية والتي كلفت الاقتصاد الليبي حتى تاريخه نحو 19 مليار دولار ..

وفي 8 مايو 1997 خالف **القذافي** الحظر الجوي للمرة الأولى وقام بالطيران إلى دولة النيجر المجاورة في زيارة رسمية .. وفي 19 أكتوبر أرسلت الحكومة الليبية إلي عائلات ضحايا لوكربي تطالبهم فيها بقبول تعويضات مالية من أجل إنهاء تلك الأزمة .. وقبل نهاية الشهر نفسه قام رئيس جنوب أفريقيا **نيلسون مانديلا** بالسفر إلى طرابلس ، وإن كان قد وصلها عن طريق البر احتراما للحظر الجوي ، وأصبح **مانديلا** أهم شخصية دولية مرموقة تزور ليبيا منذ قرار مجلس الأمن الصادر في عام 1992 ..

وفي 20 مارس 1998 عادت ليبيا إلى مطالبة مجلس الأمن بمناقشة مسألة العقوبات الاقتصادية والنظر في آثاره الضارة على الشعب الليبي ، لكن ممثل الولايات المتحدة في مجلس الأمن **بيل ريتشاردسون** تدخل وحمّل الحكومة الليبية مسئولية معاناة الشعب الليبي بسبب تعنتها في الامتثال لقرارات الشرعية الدولية ، وكان المقصود بتلك الشرعية أن تقدم ليبيا المتهمين إلى الولايات المتحدة لتحاكمهما أينما وكيفما تشاء وتحب ..

وبعد طول انتظار ..

في 24 أغسطس 1998 أعلن كل من وزير الخارجية البريطاني **روبين كوك** ووزيرة الخارجية الأمريكية **مادلين أولبرايت** بعد اجتماع مشترك عن استعداد بلديهما لقبول مشروع تسليم المتهمين الليبيين إلى هولندا لمقاضاتهما .. وفي 27 أغسطس صوّت مجلس الأمن لصالح تعليق تطبيق العقوبات إذا ما وافق **القذافي** على تسليم المتهمين لمحاكمتهما أمام القضاء .. قبل **القذافي** العرض ، لكنه اشترط الحصول على ضمانات من الأمم المتحدة من خلال ممثل ليبيا بالأمم المتحدة الذي ألقى خطابا أمام الجمعية العامة بتاريخ 6 سبتمبر شدد فيه على ضمان الأمم المتحدة لمحاكمة عادلة وعدم ترحيل المتهمين عنوة إلى بريطانيا أو الولايات المتحدة ..

وفي المقابل هدد الرئيس الأمريكي **بيل كلينتون** ليبيا في لقاء مع عائلات الضحايا بمناسبة الذكرى العاشرة لحادثة لوكيربي في حالة عدم تسليم المتهمين بمزيد من الحظر وتغليظ العقوبات ..

تدخل **كوفي أنان** الأمين العام للأمم المتحدة وقام بزيارة ليبيا وأجرى محادثات مع **القذافي** ، وتدخلت كل من جنوب أفريقيا ومصر والسعودية في مراحل زمنية مختلفة من المفاوضات الطويلة ، أسفرت في النهاية عن تقديم الأمم المتحدة للضمانات اللازمة التي طلبها **القذافي** ، وكان في مقدمتها أن تقتصر الاتهامات في حال ثبوتها على المتهمين بشخصهما وليس بما يمثلاه ، بالإضافة إلى عدم تعرضهما لأي استجوابات من قبل السلطات الأمريكية أو البريطانية ، وأن يقضيا فترة العقوبة إذا ما تمت إدانتهما في أحد سجون اسكتلنده تحت إشراف الأمم المتحدة ..

وفي 5 أبريل 1999 قامت ليبيا بتسليم كل من **عبد الباسط علي المقرحي** و**الأمين خليفة افحيمة** بغرض محاكمتهما في هولندا ..

وفي نفس ذلك اليوم قامت الأمم المتحدة بتعليق العقوبات ورهنت رفعها الدائم بمدى التعاون الليبي الذي ستبديه مع المحكمة ..

استغرقت المحاكمة 85 يوما تم الاستماع فيها إلى 235 شاهدا ، وسُجلت في عشرة آلاف صفحة من الوثائق القانونية ..

وفي 31 يناير 2001 صدر الحكم بإدانة **المقرحي** وبراءة **افحيمة** .. استؤنف الحكم من جديد ..

وفي 14 مارس 2002 أقرّت المحكمة إدانة **المقرحي** ومعاقبته بالسجن الذي خفف من المؤبد إلى عشرين عاما .. وبعد انتهاء المحاكمة لم يبق إلا امتثال ليبيا لمسألة دفع تعويضات لعائلات الضحايا بقيمة 2.7 مليار دولار ..

وقد جاء قبول ليبيا بتحمل مسئولية ما ارتكبه موظفيها بسبب رغبتها الشديدة في ربط دفع التعويضات برفع العقوبات المفروضة من قبل الولايات المتحدة وشطب اسم ليبيا من قائمة الدول الراعية للإرهاب .. وتمت الصفقة ودفعت ليبيا مبالغ التعويض في سبتمبر 2003 وتم رفع العقوبات الدولية عنها .. غير أن التصريحات التي صدرت في أعقاب الصفقة الليبية مع عائلات الضحايا جاءت مخيبة للآمال الليبية ، فقد

أعلن البيت الأبيض قائلا : " إن سلوك النظام الليبي بما في ذلك تاريخه الهزيل في مجال حقوق الإنسان ، وانعدام المؤسسات الديمقراطية ، ودوره المخرب بإشعال الفتن الإقليمية في أفريقيا ، واستمراره المزعج في الحصول على أسلحة الدمار الشامل ووسائط إطلاقه ، مازال يشكل قلقا خطيرا.. وستضاعف الولايات المتحدة من جهودها لإزالة العناصر المهددة في سلوك ليبيا ، وستظل المقاطعة الأمريكية مستمرة حتى يتم الاهتمام بهذه القضايا "..

وهكذا وجد **القذافي** أنه قدم كل شئ ، ولم ينل أي شئ من أمريكا في المقابل ، ولا حتى مجرد وعد ! ..

بدأ **القذافي** يشعر بخيبة الأمل وبالعزلة ..

ومع سقوط بغداد والقبض على **صدام حسين** وظهوره على شاشات التليفزيون في حالة لم يكن يتصورها عربي ، خاصة وأن حكامنا العرب لهم هالة وهيبة ليست لأمثالهم في بلاد العالم من حولنا .. فالحاكم لدينا لا يشيخ ولا يشيب ولا يكبر ولا تظهر عليه علامات السنين .. وقد فوجئنا بـ **صدام** وقد انطبعت على ملامحه علامات الشيخوخة والمرض والذل والمسكنة بعد القبض عليه في حفرة تحت الأرض كان يختبئ بها .. تابع العالم العربي هذه المشاهد بخليط من مشاعر التشفي والأسى والدهشة ..

وربما كان **القذافي** أكثر المتابعين ارتباكا وتخبطا ..

* * *

وفي 6 يناير 2004 جاء الإعلان الليبي المفاجئ عن تخليها عن برامج التسليح النووي دون شرط أو قيد ، وذلك بالتصديق على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية ..

وفي مارس 2004 طالبت ليبيا الدول العربية وخاصة سوريا بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل ..

وفي أبريل نقلت معدات البرنامج النووي الليبي لأمريكا ، وقامت ليبيا بالتوقيع على البروتوكول الإضافي للمعاهدة النووية ، وتم إنشاء مكتب لشركة بترول أمريكية في ليبيا ، وبدأت الولايات المتحدة تدريجيا في تخفيف العقوبات المفروضة على ليبيا ..

* * *

" ماذا تفعل إذا كان لديك فيروس ؟

أولا : تقضي عليه ..

ثانيا : تقوم بعملية تطعيم لمن تظن أن الفيروس سيطولهم ..

تلك هي الخطوط الاستراتيجية الرئيسية للولايات المتحدة مع دول العالم الثالث " .. نعوم تشومسكي

وقد نجحت العملية ..

وانفتحت بوابة المستقبل على مصراعيها ..

وصارت السكة خضراء ، في لون الكتاب والعلم ! ..

(46)

لـبـنـان : تـدخـل أمـريـكاني !

كان هذا هو التطبيق العملي الأول والأخير لمبدأ أيزنهاور ..

جاء المبدأ كمحاولة لملء الفراغ الناجم عن انقضاء الاستعمار البريطاني والفرنسي ورحيله عن الشرق الأوسط ..

جاء المبدأ لسد الطريق على الشيوعية ..

وجاء المبدأ لمحاربة النفوذ الناصري ..

لكنه كما جاء ، ذهب ! ..

* * *

كان **كميل شمعون** رئيس جمهورية لبنان منذ عام 1952 .. وكانت له علاقات خاصة بالولايات المتحدة وبالغرب عامة منذ انتخابه .. وفي نهاية عام 1956 ظهر ذلك بوضوح أثناء العدوان الثلاثي على مصر .. فقد كان لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي رفض قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا ، وقد لاقى ذلك معارضة شديدة من معظم الطوائف اللبنانية آنذاك ..

وفي يناير 1957 جاء الإعلان عن مبدأ **أيزنهاور** ..

وفي أبريل 1957 أعلن مجلس الشيوخ الأمريكي أن أول عمل يتم بمقتضى مبدأ **أيزنهاور** هو تخصيص مبلغ 10 مليون دولار معونة اقتصادية خاصة للبنان مقابل انضمام لبنان في الكفاح ضد الشيوعية الدولية .. ومع قيام الوحدة في مطلع عام 1958 بين مصر وسوريا تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة ، تزايدت أهمية البلدان المجاورة لهما بالنسبة للولايات المتحدة .. فالنفوذ السوفيتي كان موجودا في سوريا قبل الوحدة ، والمصريون على علاقات طيبة مع الروس ، لذا جاء الحرص على كل من مملكتي العراق والأردن والجمهورية اللبنانية ، خوفا من انجرافهم خلف التيار الناصري أو الشيوعي ..

كانت سنة 1958 حسب الدستور اللبناني هي آخر أعوام حكم الرئيس اللبناني **كميل شمعون** ، إذ تنتهي فترة الست سنوات التي كان يسمح بها الدستور آنذاك في سبتمبر 1958 ، وهي غير قابلة للتجديد .. وفي الأسابيع التالية على قيام الجمهورية العربية المتحدة بدأ **شمعون** يلوح بإمكانية بقائه في الحكم لفترة جديدة ، وكانت حجته في ذلك أن الجمهورية العربية المتحدة تشكل خطرا شديدا على أوضاع المسيحيين الموارنة في لبنان بسبب قوة تأثير النفوذ السوري في لبنان ، وهو نفوذ قد يكون له طابع إسلامي .. وكان يردد أن من واجبه في تلك المرحلة الحرجة أن يؤدي ما عليه لإنقاذ المسيحيين في الشرق الأوسط .. كانت هذه هي الصورة التي أقنع بها **كميل شمعون** نفسه ومؤيديه من حوله ..

وفي 15 أبريل 1958 بدأت آراؤه تتخذ شكلا عدوانيا .. ففي ذلك اليوم تم القبض على خمسة من حرس الجمارك السوريين بسبب دخولهم بالخطأ الحدود اللبنانية أثناء مطاردة لعصابة من المهربين .. وفي الأيام التالية من شهر أبريل بدأت موجة من الاضطرابات تتصاعد في أماكن عديدة في لبنان اعتراضا على نوايا **شمعون** بتجديد مدة الرئاسة ، وهنا كتب **كميل شمعون** رسالة إلى الرئيس **أيزنهاور** يسأله فيها " عما إذا كان يستطيع أن يعتمد على مبدأ **أيزنهاور** لتحقيق الحماية للبنان المعرض حاليا للخطر " .. لم يرسل **أيزنهاور** ردا على رسالة **شمعون** ، لكنه اكتفى بتحريك بعض قطع من الأسطول الأمريكي السادس إلى شرق البحر المتوسط ..

ثم حدث أن أجرى **شمعون** حديثا صحفيا مع إحدى صحف فرنسا ، وجاء فيه على لسانه ما يلي : " إنني لا أريد تجديد مدة رئاستي ، لكنني إذا لم أتأكد من وجود رئيس من بعدي قادر على تحمل مسئولية المخاطر الجديدة المحيطة بلبنان ، فسوف أستجيب لنداء الواجب والوطن " ..

ساعد هذا التصريح على إثارة الموقف واشتدت المعارضة من الأحزاب وفي الصحف ، حتى أمر **شمعون** باعتقال أعنف وأشهر المعارضين لتعديل الدستور وهو الصحفي **نسيب المتني** .. اندلعت المظاهرات احتجاجا على اعتقال الصحفي الشهير حتى أفرج عنه .. وبعد ثلاثة أيام من الإفراج تم اغتياله في 8 مايو 1958 ..

وصلت الأحداث إلى ذروة الغليان ، وهاجت أحزاب المعارضة ، واتحدت معظم الطوائف على مطلب واحد ، أن يستقيل **كميل شمعون** وتتألف حكومة وطنية مؤقتة حتى يحين موعد الانتخابات بعد ثلاثة أشهر . رفض **شمعون** الاستجابة لمطالب المعارضة ، وقام بحشد أنصاره لمواجهة الأزمة ، وعلى رأسهم حزب الكتائب بميليشياته المسلحة .. وفي الوقت ذاته كان الزعيم **كمال جنبلاط** يقوم هو الآخر بإعداد الميليشيات الدرزية ، وصارت الحرب الأهلية على وشك الاندلاع .. ثم أصدر **شمعون** قرارا بترحيل 1400 سوري يقيمون في لبنان بدعوى اشتراكهم في إثارة القلاقل ..

وفي 11 مايو كتب **شمعون** رسالة ثانية إلى **أيزنهاور** يحثه فيها على إنزال قوات أمريكية إلى بيروت لحفظ الأمن فيها .. لكن **أيزنهاور** لم يكن على استعداد للتغلغل في الأزمة ، وقد كتب في يومياته أن **شمعون** هو من تسبب في تفاقم الأوضاع بإصراره على مخالفة الدستور ..

وفي 20 مايو التقى **جمال عبد الناصر** بالسفير الأمريكي بالقاهرة **ريموند هير** .. دار الحوار بينهما عن الأوضاع في لبنان .. وقد واجهه **عبد الناصر** بتصريحات أمريكية رسمية تتهم الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل في شئون لبنان الداخلية وطالبه بإظهار الأدلة التي تؤيد تلك الاتهامات .. ثم عرض **عبد الناصر** عليه أن يتعاون معهم لنزع فتيل الأزمة ، وقدم اقتراحا بالاتصال بزعماء المعارضة في لبنان ، على أن تفعل الولايات المتحدة مثل ذلك مع الطرف الآخر .. وتبذل كل الأطراف ما في وسعها للاتفاق على حلول

سلمية .. وعد السفير الأمريكي بنقل مقترحات **عبد الناصر** إلى واشنطن ، ولم يتلق المصريون ردا على ما عرضوه ، فلم تكن الولايات المتحدة ترغب في حل المشكلة ، بل كانت ترغب في استغلالها ..

وفي 21 مايو أعلن **كميل شمعون** في تصريح مفاجئ أنه لن يرشح نفسه لفترة رئاسة ثانية .. تزامن تصريحه هذا مع شكوى قدمتها الحكومة اللبنانية إلى الأمم المتحدة تتهم فيها رسميا الجمهورية العربية المتحدة بإرسال متسللين وأسلحة عبر الحدود بغرض التدخل غير المشروع في شئون لبنان ..

قام **داج همرشولد** السكرتير العام للأمم المتحدة بتشكيل قوة مراقبة للنظر في شكوى لبنان على أرض الواقع .. أرسل فريق المراقبة إلى منطقة الحدود بين لبنان وسوريا – الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة – ليقوم بالتحري وتقديم تقرير إلى **همرشولد** ليقوم بعرضه على مجلس الأمن ..

وفي 15 يونيو أرسل **كميل شمعون** إلى الرئيس **أيزنهاور** يطلب منه رسميا إرسال قوات أمريكية إلى لبنان فورا لأن الأوضاع الأمنية قد تدهورت بشكل حاد بسبب تدخلات الجمهورية العربية المتحدة .. ومن جديد لم يتحرك **أيزنهاور** لنجدته ، فقط دعا إلى اجتماع طارئ لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض .. وعن ذلك الاجتماع كتب **أيزنهاور** في يومياته ما يلي : " إن **شمعون** يطلب تدخل قواتنا ولا أعرف كيف يكون في إمكاني أن أقوم بإرسال بحارة الأسطول إلى بيروت قبل أن يقدم **همرشولد** تقريره إلى الأمم المتحدة .. إننا لم نكن نحن الذين ذهبنا إلى مجلس الأمن ، ولكن **شمعون** هو الذي اختار أن يذهب ، ولا أعتقد أنه باستطاعتنا أن نتدخل طالما أن الأمم المتحدة لم تقل كلمتها بعد في التحقيق الذي كلفت به .. ثم ما المطلوب من تدخلنا ؟ هل نتدخل لحساب رجل هو الآن سجين في قصره ، أو في فندق لا أعرف .. ثم ما مدى تدخلنا المطلوب ؟ .. لقد كنت أقول للإنجليز والفرنسيين عندما تدخلوا في السويس أنهم يجب أن يعرفوا هدفهم من التدخل ، وأن يقرروا مدى تدخلهم ، وأنا لا أريد أن أتورط فيما كنت أحذر الآخرين منه " ..

وفي 18 يونيو ذهب **داج همرشولد** بنفسه إلى بيروت ، والتقى مع فريق المراقبة الذي أرسله .. وأسفرت التحقيقات التي أجراها الفريق وأطلع عليها **همرشولد** عن عدم وجود دليل واحد يدين الجمهورية العربية المتحدة .. وفي19 يونيو أقام رئيس الوزراء اللبناني مأدبة غداء احتفاء بـ **همرشولد** .. وبعد الغداء أحضر القائمون على الحفل كعكة عملاقة مغطاة بالكريمة البيضاء وقد كُتب عليها باللون الأحمر باللغة الفرنسية : " أيتها الأمم المتحدة أنقذي لبنان " .. وفي الحال رد **همرشولد** على تلك الحركة الاستعراضية بتوجيه الكلام إلى رئيس الوزراء قائلا : " سيدي .. إنني لا يمكنني قبول هذه الدعوة ، لأن لبنان وحده هو الذي يستطيع أن ينقذ لبنان " ..

وفور الإعلان عن نتيجة التحقيقات وموقف **همرشولد** من الاتهامات اللبنانية لمصر وسوريا ، بدأت حملة صحفية أمريكية تهاجم **همرشولد** وتتهمه بالتخاذل في أواخر يونيو وأوائل يوليو 1958 ..

وفي 7 يوليو توجه **همرشولد** إلى واشنطن للقاء بـ **دالاس** وزير الخارجية الأمريكي .. ومع بدء المقابلة قدم **دالاس** له ملفا مخبرا إياه أنه يضم تقارير كاملة عن تفاصيل عمليات التسلل التي تقوم بها الجمهورية

العربية المتحدة إلى لبنان .. قلب **همرشولد** في محتويات الملف ، ثم علق في اقتضاب أن تقاريره هذه ليس لها مصدر ولم يتحقق أحد من صحة معلوماتها ولا يمكن الاعتماد عليها كأدلة للاتهام ..

وفي فجر يوم 14 يوليو قامت الثورة في العراق وأطاحت بالملكية وأعلنت الجمهورية ..

وفي منتصف ليل واشنطن – بعد اندلاع الثورة بدقائق – أيقظ الرئيس الأمريكي مستشاره **شيرمان آدامز** وأبلغه بالنبأ هاتفيا ، وأنهى الخبر بتعليق شخصي قائلا : " سيدي الرئيس .. لابد أن يكون هذا من صنع الكولونيل **ناصر** أيضا " ..

* * *

وعند هذه اللحظة ، اختلطت الأوراق ولم يعد ممكنا أن تتفرج الولايات المتحدة على الشرق الأوسط وهو يتسرب بلدا بعد الآخر من تحت سيطرتها أو سيطرة حلفائها ..

طلب **أيزنهاور** فور تلقيه نبأ الثورة العراقية أن ينعقد مجلس الأمن القومي في مكتبه في الحال .. وفي ذلك الاجتماع تم استعراض أوضاع القوات الأمريكية القريبة من الشرق الأوسط لتجهيزها فورا تحسبا لبدء التدخل الأمريكي بشكل عسكري مباشر ، ثم أنهى **أيزنهاور** الاجتماع بقوله : " إن الحساب أمامنا بالدقائق والساعات ، وليس بالأيام والأسابيع " .. ثم قام بتكليف مجموعة عمل بأن تقدم له تقريرا في صباح اليوم التالي عن التحرك المحتمل وتداعياته .. وفي نص التقرير جاءت هذه الفقرة : " ناقشت المجموعة الآثار المحتملة لتدخل الولايات المتحدة عسكريا في المنطقة .. كما ناقشت الآثار التي يمكن أن تترتب على عدم التدخل واهتمت اللجنة بصفة خاصة بطلب **شمعون** للتدخل في لبنان باعتباره طلب رسمي يعطي أساسا قانونيا للتدخل ، كما أن التدخل في لبنان يمكن أن يتم بدون مقاومة ، وهو ما يرجح أن يكون لبنان هو الاتجاه الأول لأي عمل عسكري " ..

وهكذا أضحت لبنان في يوم وليلة مهددة بالعدوان الشيوعي وبالفتنة الطائفية وبالتدخل الناصري السافر ! ..

وفي صباح يوم 15 يوليو عاد **أيزنهاور** للاجتماع بمجلس الأمن القومي ، وتمت مناقشة التقرير والاستماع إلى الآراء المختلفة ، ثم جاء القرار الرئاسي بالتدخل الفوري في لبنان .. وقد دون **أيزنهاور** تفاصيل ما قاله في يومياته كاتبا ما يلي : " لقد وصلنا الآن إلى مفترق الطرق .. فمنذ سنة 1945 وسياستنا تقوم على ضرورة الوصول إلى منابع البترول ، وضمان سيطرتنا عليها بدون أية عوائق من جانب أي طرف ، وأن يتحقق ذلك سلميا إذا أمكن .. والآن فإن علينا أن نناضل لكي نمنع **ناصر** من السيطرة على هذه الموارد ، وإلا أعطيناه المال والنفوذ والقوة التي يتمكن بها من تدمير العالم الغربي .. لقد كان علينا في نقطة ما على الطريق أن نواجه هذه المشكلة ، وقد وصلنا إلى هذه النقطة الآن " ..

كانت المخاوف من **جمال عبد الناصر** تتمثل في قوة تأثيره على الشعوب العربية وعدم اتفاقه في الوقت ذاته مع الأنظمة العربية التقليدية التي كانت تسمى آنذاك بالقوى الرجعية .. وكانت هذه الأنظمة التقليدية ملكية في المعتاد وخليجية على الأرجح ، وكان معنى سقوط الملكية دولة بعد الأخرى في الوطن العربي ، وعلى

الأخص في الدول الغنية بالبترول أن يسيطر **جمال عبد الناصر** – من وجهة نظر الغرب – على منابع البترول ، وهو ما يكفل له تحقيق أحلام القومية والوحدة العربية .. ولم يكن واردا أن تسمح الولايات المتحدة بمثل هذا السيناريو أن يتحقق على أرض الواقع ..

وقد جاء سقوط الملكية في العراق إنذارا جادا باحتمالات سقوطها في الأردن – ذات الموقع الاستراتيجي وصاحبة أطول حدود مع إسرائيل – ، وسقوطها كذلك في السعودية – المصدر الأهم للحصول على البترول في الشرق الأوسط – ، بل وربما قيام أنظمة جمهورية على ساحل الخليج العربي بدلا من الإمارات والمشيخات المتفرقة على طول الشاطئ ..

ويمكننا بسهولة أن نتبين الأسباب الحقيقية وراء التدخل الأمريكي من مواصلة القراءة في يوميات **أيزنهاور** ، ففي مساء يوم 15 يوليو كتب **أيزنهاور** في يومياته ما يلي : " هذه أول مرة في مدة رئاستي ألجأ فيها إلى استعمال قواتنا المسلحة ، والحقيقة أنني أفعل ذلك بمشاعر مختلطة .. فأنا لا أريد أن أعود إلى دبلوماسية المدافع ، فـ **شمعون** قد أعلن فعلا أنه لن يعدل الدستور ولن يسعى إلى تجديد مدة رئاسته .. كما أنني لا أملك دليلا على اشتراك الروس أو المصريين فيما يجري في لبنان ، أو فيما وقع في العراق .. ولست أرى أن هناك مصالح حيوية لنا معرضة في هذين البلدين .. إذاً ، فلمن أحشد هذا الاستعراض الكبير للقوة ؟ .. بالتأكيد هو غير موجه للسوفيت ، ففي استطاعتهم أن يعرفوا ما هو أكثر مما يجري على السطح .. بالطبع الهدف الحقيقي هو **ناصر** .. إن **ناصر** لابد أن يغير سياسته ، فهو يبدو لي مقتنعا بأن الولايات المتحدة بسبب تقاليدها الديمقراطية لا تستطيع أن تتحرك بسرعة وحزم لحماية مصالحها الحيوية .. إنني في الغالب أريد بما أفعله الآن أن أعطيه مادة للتفكير بينما هو يحاول تحقيق حلمه بتوحيد البلاد العربية " ..

* * *

أصدر **أيزنهاور** أوامره بالتدخل العسكري في لبنان ، لكن كان عليه أن يسارع إلى الالتقاء بقيادات الكونجرس ويطلعهم على آخر التطورات حتى لا يواجه مشكلة معهم في حال تصعيد الأمور فيما بعد .. وبعد أن انتهى من أمر الكونجرس ، انشغل بعد ذلك في مسألة صياغة البيان الذي يعلن فيه على الشعب الأمريكي أن القوات الأمريكية قد بدأت فعلا في النزول على السواحل اللبنانية ..

وهنا واجهته مشكلة بسيطة ، فقد توقف بعض الوقت أمام التعبير الذي يصف به عملية إنزال القوات ، فلم يكن يبغي استخدام كلمة تدخل intervention حتى لا يسئ للموقف الأمريكي أمام الرأي العام ، فقام باستدعاء أحد مستشاريه القانونيين واستقر بعد مناقشة معه على استعمال كلمة تمركز stationed التي لا توحي بالغزو أو الاعتداء ..

وفي نفس اليوم الذي تدخلت فيه أمريكا في لبنان ، ذهب السفير الأمريكي بالقاهرة إلى رئاسة الجمهورية وقدم تحذيرا لمصر نتيجة لالتقاطهم إشارة موجهة من الإقليم الشمالي في الجمهورية العربية المتحدة إلى بعض القوى في لبنان تحثهم على مقاومة القوات الأمريكية والتصدي لها .. وفي اليوم التالي – 16 يوليو

– كتبت النيويورك تايمز : " لقد بررنا احتلالنا للبنان بأنه استجابة لنداء **شمعون** ولحماية الرعايا الأمريكيين .. هذا من الناحية النظرية ، لكن في الواقع إننا فعلنا ذلك لمحاصرة الثورة العراقية داخل حدود العراق ومنعها من الانتشار " ..

جاء الإنزال الأمريكي بدون موافقة من الأمم المتحدة أو تصريح منها ، واستندت الولايات المتحدة في تدخلها إلى المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة التي تنص على أنه " ليس في الميثاق ما يحرم أية دولة عضو في الأمم المتحدة من حقها الطبيعي في الدفاع الفردي والجماعي عن نفسها إذا وقع عليها عدوان مسلح وذلك إلى حين اتخاذ مجلس الأمن الإجراءات ..... " .. ولم يكن هذا الاستناد في محله ، إذ لم يقع أي عدوان مسلح على لبنان حتى تتدخل الولايات المتحدة للدفاع عنها ، ثم إن الثورة ضد **شمعون** كانت قد بدأت قبل تاريخ التدخل بأكثر من شهرين ، فضلا عن تقرير هيئة المراقبة الذي برأ ساحة مصر وسوريا من التدخل في شئون لبنان ..

بدأت العملية الأمريكية بمشاركة سبعين سفينة ومئات الطائرات ، وتم إمداد الحكومة المفروضة على الشعب والمرفوضة منه بالأسلحة الأمريكية .. وبحلول يوم 25 يوليو وصل عدد القوات الأمريكية على أرض لبنان إلى 10600 جندي ، وارتفع العدد إلى 14 ألف جندي في 13 أغسطس ، وهو ما كان يفوق آنذاك تعداد الجيش والشرطة في لبنان مجتمعين ! .. ثم تطور الأمر ، وبدأت الطائرات الأمريكية تضرب شمال لبنان بالقنابل ، وتوترت أعصاب قائد الجيش اللبناني اللواء **فؤاد شهاب** ، وذهب في زيارة إلى مبعوث **أيزنهاور** الدبلوماسي الأمريكي **روبرت ميرفي** بمقر السفارة الأمريكية في بيروت يحذره فيها من أن الشعب اللبناني غير مرتاح وممتعض تماما ومصمم على ضرورة استقالة **شمعون** ومغادرة القوات الأمريكية على الفور ، وإلا فإن اللواء **شهاب** لن يكون مسئولا عن العواقب ، خاصة وأن بعض ضباطه قد يتمردون ويبدءون في مهاجمة القوات الأمريكية ..

استمع **ميرفي** في صبر إلى تحذيرات اللواء **شهاب** ، ثم قام من مقعده في هدوء واصطحب معه **فؤاد شهاب** إلى نافذة في نهاية الحجرة تطل على البحر المتوسط ، ثم أشار بإصبعه في بطء إلى حاملة الطائرات ساراتوجا الرابضة أمام ساحل بيروت ، وقال في برود أن أيا من الطائرات الموجودة على سطح ساراتوجا يمكن تحميلها بأسلحة نووية ، وأنها قد تمحو بيروت وضواحيها من على وجه الأرض في دقيقة واحدة .. ثم أضاف إلى ذلك أن الحكومة الأمريكية قد أرسلته خصيصا إلى لبنان حتى يتأكد من عدم وجود ضرورة للقوات الأمريكية لأن تستعمل مثل تلك الأسلحة ..

خرج اللواء **شهاب** من الاجتماع ممتقع الوجه بعد أن انقلبت المائدة فوق رأسه ورأس وطنه ..

* * *

انتهت الأزمة باتفاق جميع الأطراف اللبنانية على انتخاب اللواء **فؤاد شهاب** رئيسا للجمهورية ، على أن يتولى مهامه بدءا من شهر سبتمبر 1958 ، وفي نهاية أكتوبر رحلت آخر قوات أمريكية عن لبنان ، فلم يعد هناك مبرر سياسي أو عسكري يمكن أن تتذرع به للبقاء على الأرض ..

والجدير بالاهتمام أن دراسة عن وزارة الدفاع الأمريكية أكدت في أعقاب الأزمة أن تقويم معتدل للسلوك الأمريكي أثناء الأزمة اللبنانية يوضح أن نتيجة التدخل الأمريكي في الأزمة اللبنانية كانت ستتساوى تماما مع نتيجة عدم التدخل ، هذا إذا لم تكن الولايات المتحدة قد تدخلت ! ..

* * *

ثم تنقضي السنوات ، وتتبدل الكثير من الأحوال في الوطن العربي ، وتشتعل حرب أهلية في لبنان عام 1975 .. وتعود الولايات المتحدة بعد نحو ربع قرن للتدخل مرة ثانية في الشئون الداخلية للبنان ، وذلك في أواخر عام 1982 ..

كان لإسرائيل هذه المرة دور كبير في هذا التدخل ، على عكس عام 1958 ، حيث لم يكن لها سوى تأثير محدود على صناعة القرار في واشنطن ..

ففي أبريل 1982 كانت مصر قد تسلمت سيناء بالكامل ، واتخذت إسرائيل قرارا بالهجوم على لبنان بعد أقل من شهرين .. وكان لدى إسرائيل دوافع نفسية لإزالة الرواسب المريرة الناجمة عن الهزيمة في حرب أكتوبر 1973 والتي تجددت آلامها مع الانسحاب الكامل من الأراضي المصرية في ربيع عام 1982 .. كما كان لديها دافع آخر وهو تصفية منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تتخذ من لبنان مقرا لها في تلك المرحلة التاريخية ، أما أهم أهدافها فكان الضغط على لبنان لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل بقوة السلاح وإقامة حكومة تسيطر عليها الأقلية المارونية المتعصبة و تطيع أوامر إسرائيل ، وكان **موشى ديان** يقول : " نريد ضابطا لبنانيا ولو صغيرا من غلاة المارونيين يقوم بانقلاب ويطلب مساعدة إسرائيل ثم تصبح لبنان تحت سيطرتنا " ..

وقبيل الهجوم الإسرائيلي على لبنان ، استقبل مدير المخابرات الأمريكية **ويليام كيزي** وزير الدفاع الإسرائيلي **أرييل شارون** .. وكان **شارون** يريد من الأمريكان مساعدات قيمتها عشرة ملايين دولار لدعم الميليشيا المسيحية في لبنان وهي حزب الكتائب اليميني بقيادة **بشير الجميل** ..[90]

و**بشير الجميل** هذا هو شاب لبناني أتم دراسته للعلوم السياسية والقانون في بلده ، ثم سافر إلى الولايات المتحدة للعمل في شركة قانونية في واشنطن في أوائل السبعينات ، وهناك قامت المخابرات الأمريكية بتجنيده لحسابها ، إذ كان يمدها بالمعلومات مقابل المال .. وفي عام 1976 اتسع دور **بشير** بعد أن تولى قيادة ميليشيا حزب الكتائب بدلا من شقيقه الأكبر ، وعاد إلى وطنه ..

---

[90] بالرجوع إلى بداية الفصل سنجد أن حزب الكتائب أيضا هو الذي كان يساند **كميل شمعون** ضد إرادة الشعب اللبناني ..

وعندما طلب **شارون** عشرة ملايين دولار لحزب الكتائب اليميني ، كان يعلم جيدا أن هذه ليست المرة الأولى التي يمول فيها الأمريكان رجلهم **بشير الجميل** .. وبالفعل وقع الرئيس **ريجان** أمرا تنفيذيا بتقديم مساعدة سرية عاجلة قدرها عشرة ملايين دولار إلى ميليشيات **بشير الجميل** ، وتزامن ذلك مع إعطاء الضوء الأخضر – عن طريق الجنرال **ألكسندر هيج** وزير خارجية الولايات المتحدة – لإسرائيل للبدء في عملية الغزو ، خاصة بعد أن قام الجنرال **شارون** وزير الدفاع الإسرائيلي بإخطار **هيج** بنفاذ صبر إسرائيل تجاه الأوضاع في لبنان وأنها سوف تتدخل بقوة لتصفية " الاحتلال الفلسطيني " للبنان وإعادة السيادة إلى اللبنانيين وتنصيب **بشير الجميل** رئيسا للجمهورية ..

وفي 6 يونيو 1982 بدأ الاجتياح الإسرائيلي لجنوبي لبنان .. بدأت الأعمال العسكرية بتوجيه ضربات جوية ضد معسكرات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوبي لبنان ، ثم اتسع القصف ليشمل العاصمة بيروت ، ولم تمهل القوات الإسرائيلية أحدا ليستوعب ما يحدث ، فعجلت بتوجيه هجوم بري ضارٍ بقوات كبيرة إلى الجنوب اللبناني ، مطلقة على هذه العملية عملية السلام للجليل ..

كان التبرير الرسمي الذي أعلنته إسرائيل بشأن الحرب التي شنتها ، هو عزمها على طرد إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزين في الجنوب اللبناني ، والذين يشكلون خطرا داهما دائما على الشمال الإسرائيلي وعلى المصالح الإسرائيلية في كل مكان في العالم ، وأقرب دليل على ذلك هو محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن قبل بدء الغزو بثلاثة أيام . وكان هذا التبرير واهيا ، فمهاجمو السفير الإسرائيلي كانوا من جماعة **أبو نضال** التي انشقت عن منظمة التحرير الفلسطينية ، بل ودخلت معها في حالة صراع علني معروف للجميع . وكان معنى ذلك أن الهجمات الإسرائيلية كانت موجهة للجانب الخطأ .

وخلال أيام كان الجيش الإسرائيلي على مشارف بيروت مدعوما بتأييد أمريكي كامل على المستوى الرسمي والإعلامي .. وفي الوقت ذاته أعلنت الولايات المتحدة تقديم ضمانات لحماية المدنيين العزل في بيروت بواسطة قوات الطوارئ الدولية .. ولكن ما أن انسحب مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان متوجهين إلى تونس ، حتى انسحبت القوات الدولية الأمريكية ثم الفرنسية ثم الإيطالية ..

انفتح الباب على مصراعيه ، واقتحمت إسرائيل بيروت وقامت بمجازر رهيبة بمنتهى الوحشية .. ووقعت أشهر المذابح في 18 سبتمبر 1982 وهي مذبحة صابرا وشاتيلا بالتواطؤ مع ميليشيات حزب الكتائب ، فكان الإسرائيليون يضيئون المكان بأنوارهم الكشافة ليلا حتى يتمكنوا من سرعة القضاء على الفلسطينيين العزل في مخيمات صابرا وشاتيلا ، وقد قتل في هذه المذبحة الشهيرة عشرات الرجال والنساء والأطفال والعجائز .. وبعد أن اطمأنت إسرائيل لنجاحها في مهمتها ، عملت على تشكيل حكومة لبنانية جديدة ومساندة **بشير الجميل** لنيل منصب رئيس الجمهورية .. وقام تحالف غير مكتوب بين إسرائيل والمارونيين أحكم السيطرة على لبنان ووضعه تحت الحماية الإسرائيلية ..

وفي 23 أغسطس 1982 تم انتخاب **بشير الجميل** رئيسا للبنان ، وكان من المقرر أن يتولى مهام منصبه في سبتمبر .. لكن **بشير** كان يدرك صعوبة الموقف ، فأعداؤه كثيرون في الداخل والخارج .. فهناك المعارضة الداخلية ، وهناك بقايا منظمة التحرير الفلسطينية ، ثم هناك الدعم السوري المضاد ، وصعود نفوذ الخميني في إيران وارتباطه بحزب الله في الجنوب اللبناني[91] ..

وفي مواجهة كل هؤلاء المتربصين به ، بعث **بشير** برسالة إلى المخابرات الأمريكية يطلب فيها تزويده بمساعدات سرية في مجالي الأمن والمخابرات من أجل حمايته .. وجاءت موافقة الرئيس **ريجان** فورية ، وكانت عملية المساعدة تتضمن كبداية إنفاق 600 ألف دولار ، يُنتظر أن تصل إلى أربعة ملايين دولار سنويا .. ولكن لم يتسع الوقت للمخابرات الأمريكية لمساعدة رجلها ماديا ، أو حمايته من أعدائه ..

ففي 14 سبتمبر 1982 – قبل تسعة أيام من توليه مهام الرئاسة رسميا – كان **بشير الجميل** يلقي خطابا في المقر المحلي لحزب الكتائب في بيروت الشرقية ، وكان مقررا أن يلتقي في الساعة الخامسة مع عدد من ضباط الموساد كانوا موجودين في بيروت في ذلك اليوم .. ولكن قبل خمسين دقيقة من موعده معهم ، انفجر مبنى حزب الكتائب بواسطة قنبلة ولقي **بشير** مصرعه تحت الأنقاض ..

انتخب شقيقه **أمين الجميل** رئيسا للبلاد ، وتحولت لبنان إلى ساحة من الفوضى والصراع ..

وهنا عادت القوات البحرية الأمريكية إلى التدخل من جديد بدعوى مساندة الرئيس اللبناني الجديد .. حشدت الولايات المتحدة طائراتها وسفنها أمام السواحل اللبنانية وشرعت في قصف وسط لبنان ..

وكانت هذه هي الطريقة الأمريكية المعتادة للتدخل لمناصرة حاكم دولة مختلف عليه من شعبه .. بالخلاص من الشعب ! ..

* * *

ومع بداية عام 1983 حاول **أمين الجميل** أن يبتعد نسبيا عن إسرائيل والولايات المتحدة ، وأن يسترجع علاقات لبنان بالدول العربية .. ومع ذلك ، كان **الجميل** حريصا على بقائه تحت مظلة الحماية الأمريكية .. وانتهزت الولايات المتحدة الفرصة ، خاصة مع تقلص نفوذ مخابراتها عقب مصرع **بشير الجميل** ، فاقترحت عليه مرشحا يصبح مستشار الأمن القومي للبنان .. وافق **أمين الجميل** ليتولى **وديع حداد** منصب المستشار .. كان **حداد** يعمل من قبل في البنك الدولي وكان يعرف باسم الأمريكي بسبب صلاته الوثيقة بالولايات المتحدة ..

وفي 18 أبريل 1983 اندفعت شاحنة مليئة بالمتفجرات إلى مبنى السفارة الأمريكية المكون من سبعة طوابق والمطل على شاطئ البحر في بيروت ، وانفجرت الشاحنة ليتهدم المبنى بالكامل .. أسفر الانفجار عن مصرع 63 شخصا من بينهم 17 أمريكيا وعلى رأسهم رئيس محطة المخابرات الأمريكية في بيروت ونائبه وستة ضباط مخابرات ، بالإضافة إلى شخص آخر في منتهى الأهمية هو **روبرت أميس** المستشار

[91] لم يُعلن حزب الله كتنظيم سياسي إلا في عام 1985 ، لكنه كان موجودا في أعقاب الغزو الإسرائيلي عام 1982 كخلايا مقاومة عسكرية سرية

غير الرسمي لوزير الخارجية الأمريكي **جورج شولتز** في منطقة الشرق الأوسط وهو في الوقت ذاته كبير محللي منطقة الشرق الأوسط في المخابرات الأمريكية .. وكانت أصابع الاتهام تشير إلى سوريا وإيران ..

وكان من الواضح في تلك السنوات الأولى من حقبة الثمانينات أن دعم الولايات المتحدة المستمر لإسرائيل قد شكل صعوبة بالغة في إقناع الكثيرين بأن القوات الأمريكية موجودة في لبنان للعب دور الوسيط النبيل الذي يتدخل للحفاظ على الأمن وعلى الرعايا الأمريكان .. وحتى **ريجان** نفسه كان أكثر صراحة عندما سئل عن سبب بقاء جنوده في لبنان .. ففي 16 أكتوبر 1983 لقي جندي سادس من مشاة البحرية الأمريكية مصرعه في بيروت .. وعندما وجه أحد الصحفيين سؤالا إلى الرئيس الأمريكي عن جدوى استمرار وحدة المشاة التي تضم 1200 جندي في بيروت ، جاء رد **رونالد ريجان** حاسما : " لأنني أعتقد أن ذلك يتسم بأهمية حيوية لأمن الولايات المتحدة والعالم الغربي " .. وبقدر ما كان رده واضحا ، بقدر ما كان يدعو للتساؤل .. فأمن الولايات المتحدة أو العالم الغربي لم يكن ليتعرض للخطر بسبب صراعات داخلية على الحكم في لبنان ، لكن أمن إسرائيل هو الذي كان يحتاج إلى حكومة بعينها تتولى شئون لبنان وتتعاون مع إسرائيل حتى ترتاح من مشاكل الجبهة الشمالية العنيدة ..

وجاء الرد على تصريحات **ريجان** بعد أسبوع واحد في منتهى العنف ..

ففي صباح يوم 23 أكتوبر 1983 انطلقت شاحنة صفراء ضخمة من طراز مرسيدس في اتجاه مقر مشاة البحرية الأمريكية ، وارتطمت بالمبنى لتنفجر وبداخلها 12 ألف رطل من مادة تي إن تي ، وأسفر الانفجار عن مقتل 241 جندي أمريكي ..

كانت هذه أكبر كارثة عسكرية أمريكية منذ حرب فيتنام ..

انعقدت الاجتماعات في البيت الأبيض ، ووافق **ريجان** على توجيه ضربة جوية انتقامية في سهل البقاع في لبنان ، لكنه تراجع في آخر لحظة مفضلا أن يقوم الإسرائيليون بتلك المهمة .. وبالفعل قامت إسرائيل بقصف عدد من المنشآت التي يعتقد أنها مخصصة لتدريب الإرهابيين ، كما قاموا بقصف مستشفى ، وكانوا على وشك قصف أحد المساجد بدعوى استخدامه في تجميع الشاحنات الملغومة ، لكن تم التراجع عن ذلك خوفا من ردود أفعال أكثر عنفا ..

ولكن العنف لم يتوقف ..

ففي 16 مارس 1984 تم اختطاف **ويليام باكلي** الرئيس الجديد لمحطة المخابرات المركزية في بيروت والمسئول الأول عن نشاط المخابرات في الشرق الأوسط بأكمله ، وكان ذلك الاختطاف مدعاة للعار ، فليس من المألوف أن يُختطف رئيس المخابرات المسئولة أصلا عن عمليات قتل واختطاف أعدائها ، إلى جانب حماية أصدقائها من الاختطاف بواسطة المعلومات الاستخباراتية رفيعة المستوى **!!** .. تم استجواب **باكلي** بطريقة مكثفة لم يتحملها فأدلى باعترافات كاملة ، ثم تم التخلص منه بعد ذلك ..

وفي 20 سبتمبر 1984 اندفعت من جديد سيارة نقل تحمل لوحة أرقام دبلوماسية إلى مبنى ملحق السفارة الأمريكية في بيروت الشرقية ، وانفجرت أمام جراج السفارة ولقي 24 شخصا مصرعهم ، من بينهم جنديان أمريكيان وأصيب تسعون آخرون ، من بينهم السفير الأمريكي **ريجينالد بارثولوميو** الذي دفن تحت الأنقاض ولكنه لم يصب إلا بإصابات طفيفة ..

وربما يصاب القارئ بالدهشة كيف تكررت نفس العملية بنفس الأسلوب دون أن ينجح الأمريكان في التصدي لها ؟ . والحقيقة أنهم حاولوا وقاموا بوضع كتل خرسانية أمام المباني التابعة لهم في بيروت بهدف إبطاء سرعة كل السيارات القادمة في اتجاه المباني ، لكن منفذي العمليات كانوا يتدربون على ماكيتات بنفس أبعاد المبنى المستهدف بحواجزه ، بحيث ينجحون دائما في إنجاز العمليات في سرعة قياسية ..

توترت أعصاب المخابرات الأمريكية ، وصممت على الرد بعملية انتقامية ، وهداهم تفكيرهم إلى اغتيال زعيم حزب الله الشيخ **محمد حسين فضل الله** .. وكان **ويليام كيزي** مدير المخابرات قد حدد جائزة مقدارها ثلاثة ملايين دولار لمن يأتي برأس الشيخ **فضل الله** ..

وفي 8 مارس 1985 أشرفت المخابرات الأمريكية على تنفيذ عملية اغتيال الشيخ **فضل الله** ، فتم وضع قنبلة خارج مسجد كان يؤدي فيه الشيخ الصلاة .. ولكن فشلت العملية فقد تم تفجير القنبلة في اللحظة التي ظن فيها المفجرون أن الشيخ قد خرج من المسجد ، ولكن حدث أن تأخر الشيخ ليتحدث مع بعض المصلين بالداخل ، فانفجرت القنبلة مبكرا وقتلت ثمانين شخصا وجرحت مائتين آخرين ..

وبعد فشل العملية تولت المخابرات السعودية بالتنسيق مع المخابرات الأمريكية شراء سكوت الشيخ **فضل الله** بمبلغ مليوني دولار كرشوة لمنعه من الانتقام ! ..

* * *

كان التورط الأمريكي في عام 1958 تحصيل حاصل وفقا لدراسة البنتاجون السابق الإشارة إليها ، وكان التورط الأمريكي في عام 1982 وما بعده أكبر دليل على أن الولايات المتحدة لم تتعظ من تجربتها السابقة ولم تدرك خصوصية الأوضاع في لبنان الذي تتنازعه قوى خارجية وداخلية عديدة ليس للولايات المتحدة قبل بالإحاطة بها جميعا ، فضلا عن إيقافها عند حدها ..

* * *

عندما تُعقد صفقة ما من تحت الترابيزة يُطلق عليها عملية أمريكاني ..

وعندما يقود شاب متهور سيارته ثم ينحرف بها بزاوية حادة فجأة ويزعج المواطنين الآمنين في الشارع فإننا نصف ما فعله بسيارته بأنه أمريكاني ..

وعندما تتدخل أمريكا في الشئون الداخلية لبلد صغير مثل لبنان بدون أي قرار من مجلس الأمن في المرة الأولى وبدون تبرير وجيه في المرة الثانية فإنه لا يسعنا إلا أن نصف هذا التدخل بأنه تدخل أمريكاني ! .

(47)

إيـــران : الأعـــدقـــاء !!

علاقة تستحق التأمل ..

نصف قرن مضى عليها ..

نصفه صداقة ودعم ومساندة بلا نهاية ،

ونصفه الآخر عداوة وكراهية وتعنت بلا حدود ..

* * *

ربما لا يوجد ما يسترعي الانتباه في العلاقة الإيرانية الأمريكية فيما قبل عام 1953 ..

فقط ، قد يمكن الإشارة إلى أن السفارة الأمريكية في طهران قد تأسست في يونيو 1883 ، وأن أول سفير أمريكي في إيران هو **س. ج. بنجامين** ، وكانت إيران هي الساعية آنذاك إلى توطيد علاقتها بالقوة العالمية الجديدة ..

وقد يمكن الإشارة كذلك إلى ما حدث في نوفمبر 1935 عندما قامت الحكومة الأمريكية بالقبض على السفير الإيراني في واشنطن **غفار جلال علاء** وتكبيله بالقيود الحديدية والإلقاء به في السجن ! .. جاء هذا الموقف العجيب بسبب حادث سير عادي في الطريق العام ، وهو ما أثار حفيظة **رضا شاه بهلوي** حاكم إيران ، فقام بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة في مارس 1936 ، وظلت مقطوعة حتى عام 1940 عندما أرسل وزير الخارجية الأمريكي مبعوثا خاصا للاعتذار للشاه الإيراني ، خاصة مع بدء التوسع البريطاني في الكشف عن البترول في منطقة الخليج العربي ..

وفي عام 1941 تولى **محمد رضا شاه بهلوي** الحكم بدلا من والده الذي أجبره الحلفاء في الحرب العالمية الثانية على التخلي عن الحكم ، وأتوا بابنه وهو في الثالثة والعشرين من عمره لتسهيل السيطرة على البترول الإيراني ..

وفي الفترة بين عامي 1945 و1950 ربحت شركة البترول الأنجلو-إيرانية AIOC – وهي شركة مملوكة لبريطانيا ، وكانت شركة البترول الوحيدة في إيران – ربع مليار جنيه إسترليني ، في حين لم يتعد نصيب إيران 90 مليون جنيه فقط ..

لم يكن الشعب الإيراني سعيدا بهذا الوجود البريطاني ، لذلك دعا مجلس النواب الإيراني في عام 1950 إلى إلغاء امتيازات هذه الشركة ، كما طالب بتأميم كامل للبترول الإيراني ، ثم قام المجلس بانتخاب الدكتور **محمد مصدق** رئيسا للجنة البترول في مجلس النواب ..

كان **محمد مصدق** عضوا لامعا في البرلمان فيما بين عامي 1923 و1928 حتى نفاه الشاه **رضا بهلوي** بسبب آرائه السياسية والاقتصادية المتحررة .. لكنه اضطر لإعادته تحت الضغط الشعبي في مارس 1939 .. وظل **مصدق** معارضا للتبعية الغربية ، حتى وجد فيه البرلمان الإيراني ضالته المنشودة لتحقيق تطلعات الشعب ..

وفي مارس 1951 صادق المجلس على قرار التأميم ، وفي نهاية شهر أبريل تم انتخاب الدكتور **محمد مصدق** رئيسا للوزراء بأغلبية ساحقة ليقوم بتنفيذ القانون الجديد ..

وقف **مصدق** يعلن في البرلمان : "إن بترول إيران هو لإيران، ولن أفرط بقطرة منه وأنا على قيد الحياة" . لكنه أراد أن يوضح خطورة الموقف للشعب الإيراني ، فأضاف منبها : " إن الإيرانيين قد قاموا بالكشف عن كنز كان مخفيا ، ومن فوق ذلك الكنز يرقد تنين " ..

أُجبر **الشاه** على التصديق على هذا القانون في أول مايو 1951 ..

* * *

لم تشأ حكومة **مصدق** أن تستعدي الإنجليز ، فعرضت عليهم 25 % من صافي أرباح الشركة المؤممة كنوع من التعويض .. كما قدمت ضمانات للحفاظ على أرواح ووظائف الإنجليز العاملين بالشركة .. وكان هناك حرص شديد على بيع البترول الإيراني بدون أي إزعاج أو إحداث خلل في النظام القائم حتى لا يلحق الضرر بكبار المستهلكين من القوى العالمية التي كانت إيران تحرص على عدم الصدام معها ..

لكن كل ما سبق لم يشفع لإيران .. فقد كانت بريطانيا تريد استعادة شركتها وبترولها ، وكذلك كانت تريد الإطاحة بـ **مصدق** بأي ثمن ..

ثارت بريطانيا وفرضت حصارا ومقاطعة اقتصادية على إيران ، وقامت بتجميد الأصول الإيرانية في الخارج فقد خشيت أيضا من انتقال فكرة التأميم إلى مصر فتقوم بتأميم قناة السويس ..

ولجأت إلى الولايات المتحدة تطلب المساعدة ..

* * *

ثم جاءت سنة 1953 ، السنة التي بدأت تتشكل فيها صداقة أمريكية مع النظام الإيراني الحاكم استمرت ربع قرن من الزمان ..

كانت الإدارة الأمريكية الديمقراطية بقيادة **هاري ترومان** (1945 – 1952) ترى في **مصدق** الشخص المناسب لتحجيم تأثير الحزب الشيوعي الإيراني المعروف بحزب " تودة " .. وكانت تقديراتها مبنية على وقائع عايشتها وتابعت موقف **محمد مصدق** منها ..

فمن المعروف أن حدود إيران الشمالية بالكامل مع الاتحاد السوفيتي ، وهي تزيد على ألف وستمائة كم ..

ومع بدء الحرب الباردة كان هناك الكثير من المتابعة عن كثب لكل ما يتعلق بالانتشار الشيوعي في جميع بقاع العالم ، وكانت المتابعة الأشد للدول الملاصقة لحدود السوفيت ، خاصة إذا كانت في ثراء الدولة الإيرانية ..

لكن الأحداث المتلاحقة أعطت انطباعا مريحا لدى الإدارة الأمريكية في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات .. ففي أكتوبر 1947 قاد الدكتور **مصدق** البرلمان الإيراني لرفض اقتراح حكومي بإنشاء شركة بترول سوفيتية إيرانية مشتركة للتنقيب عن البترول في شمالي إيران ..

وفي منتصف يوليو 1951 قامت حكومة **مصدق** بقمع مظاهرة ممولة من الحزب الشيوعي الإيراني ، وأسفر الصدام عن مصرع ما يقرب من مائة شخص وجرح خمسمائة .. لذلك ، لم يكن هناك الحماس الكافي لدى إدارة **ترومان** للاستماع إلى النداءات البريطانية بالتدخل المباشر .. ولكن مع قدوم إدارة **دوايت أيزنهاور** الجمهورية في مطلع عام 1953 ، وعلى رأس مساعديه وزير الخارجية **جون فوستر دالاس** أشد المتعصبين ضد الشيوعية ومعه شقيقه **آلان فوستر دالاس** مدير المخابرات الأمريكية ، تغيرت النظرة ، ولاح الخطر في أعين الأمريكان ..

* * *

في عام 1979 ألف رجل المخابرات الأمريكية **كيرميت روزفلت** كتابا يوضح فيه كيف قامت المخابرات الأمريكية بتدبير انقلاب للإطاحة بـ **محمد مصدق** .. جاء كتابه بعنوان " الانقلاب المضاد " للإيحاء بأن التدخل الأمريكي ما كان ليتم إلا لمنع الحزب الشيوعي الإيراني من القيام بانقلاب شيوعي والوصول إلى السلطة بمساعدة الروس .. وهكذا أكد **روزفلت** في كتابه – وهو رجل المخابرات المسئول عن عملية الانقلاب التي عرفت باسم " أجاكس " – أن الإطاحة بـ **مصدق** كانت عملا ضروريا لا مفر منه لإنقاذ إيران من مخاطر الشيوعية الوشيكة .. ولم يكن هذا صحيحا ، من ناحية لعدم وجود أي تعاون بين **مصدق** وبين الروس أو الحزب الشيوعي المحلي ، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك حماس من قبل الروس في بداية عهد ما بعد **ستالين** للدخول في صراعات جديدة مع الأمريكان في أي مكان ..

جاءت البداية بأن تم حث **الشاه** وإقناعه بضرورة عزل **مصدق** وتعيين الجنرال **زاهيدي** بدلا منه .. وبالفعل سارع **الشاه** إلى تنفيذ الأوامر ، وكان **زاهيدي** هذا قد تم سجنه أثناء الحرب العالمية الثانية بمعرفة الإنجليز بسبب تعاونه مع النازيين ..

وفي منتصف ليل 14 أغسطس 1953 وصل مبعوث **الشاه** الخاص إلى منزل **مصدق** وفي يده المرسوم الملكي الذي ينص على قرار العزل .. رفض **مصدق** استقبال المبعوث الملكي وأجبر على ترك المرسوم مع الخادم الذي فتح له الباب ووقع بالاستلام على القرار بدلا من سيده ! ..

وفي صباح اليوم التالي أعلن **محمد مصدق** في الإذاعة أن **شاه** إيران قد حاول القيام بعزل الحكومة بدون مشاورة البرلمان صاحب السلطة الحقيقية مدفوعا بعناصر أجنبية تريد ضرب استقرار البلاد ، ثم أعلن أن

لهذا السبب وحرصا منه على صالح البلاد قد وجد نفسه مضطرا لاعتلاء السلطة وتنحية **الشاه** .. ثم اتهم **مصدق** الجنرال **زاهيدي** على الهواء بأنه خائن يستحق العقاب والسجن ، لكن فريق عمل المخابرات الأمريكية برئاسة **كيرميت روزفلت** نجح في إخفائه عن العيون ..

هرب **الشاه** بعد ساعات مذعورا ومعه زوجته إلى بغداد ومنها إلى روما بدون حزم حقيبة واحدة ، فقد كان يخشى أن تتطور الأمور ويتعرض للقتل أو السجن ..

وفي 16 أغسطس قامت مظاهرة ضخمة في العاصمة طهران ، وكانت تردد هتافات معادية لـ **الشاه** وللولايات المتحدة .. وقد تم الزج بعناصر عميلة للمخابرات الأمريكية وسط المظاهرة للتصرف كما لو كانوا تابعين لحزب تودة الشيوعي .. فكانوا يهيجون الجماهير ويلفتون الانتباه إليهم بإلقاء الطوب والحجارة على المساجد والشيوخ .. وكان الغرض الواضح من ذلك الأسلوب هو التأكيد على دور الشيوعية في الاضطرابات التي تهدد أمن إيران وسلامتها حتى يتم تبرير التدخل الأمريكي فيما بعد ..

وبعد أن تم إبراز الخطر الشيوعي الذي يهتف ضد أمريكا بلا مناسبة وجيهة وتصوير الأمور كما لو أن المظاهرات الشعبية هي مظاهرات شيوعية ، جاء الدور على تنظيم مظاهرات مؤيدة لـ **الشاه** تمهيدا لتحقيق رغبات الجماهير بعودته **!** ..

وفي 19 أغسطس نجح عملاء **روزفلت** في إيران في حشد مظاهرة عن طريق شراء الجماهير المتظاهرة . وقد جاء التمويل من خزينة بالسفارة الأمريكية تم إيداع مليون دولار بها ..[92]

فتم تنظيم مسيرة عجيبة خرجت من حي قديم في وسط العاصمة ، وكان في مقدمة المسيرة بهلوانات السيرك لجذب المارة في الشوارع **!!** .. وبعد أن تم حشد أعداد كبيرة ارتفعت الرايات والأعلام وعلت الأصوات تهتف بحياة **الشاه** ، وعلى أطراف الموكب كان هناك رجال يوزعون العملات الإيرانية على الوافدين الجدد .. وكلما تقدمت المسيرة في شارع انضم إليها آخرون ، تارة لمشاهدة ألعاب السيرك ، وتارة أخرى لمشاركة إخوانهم في قبض العملات الإيرانية .. ثم راحت الكفة تميل ضد **مصدق** ، وبدأ عملاء **روزفلت** من داخل المسيرة في اختراق الصفوف وسط ضجة كبيرة ومهاجمة مكاتب الصحف الموالية لـ **مصدق** والأجهزة الحكومية ومقر الحزب الشيوعي ..

وفي أثناء ذلك ، خرج صوت مجهول يعلن في الإذاعة " أن تعليمات **الشاه** بعزل **مصدق** قد تم تنفيذها بنجاح وأن رئيس الوزراء الجديد الجنرال **فضل الله زاهيدي** يباشر مهامه الآن في مكتبه ، وأن جلالة الإمبراطور المعظم في طريق العودة إلى بلاده ".. ولم يكن هذا صحيحا حتى ذلك الوقت .. كان الأمريكان إنما يقصدون الضغط النفسي على **مصدق** ومؤيديه ، والإيحاء بأنهم على وشك تلقي الهزيمة ..

---

[92] وقد وصل الدعم المالي إلى 19 مليون دولار تم توجيه غالبيتها إلى رشوة أعضاء في البرلمان من أجل العمل على الإطاحة برئيس الوزراء **محمد مصدق** ..

أخرج **روزفلت زاهيدي** من مخبأه ، ورتب له الإجراءات والملابسات اللازمة للذهاب في موكب رسمي إلى منزل رئيس الوزراء حتى يحل محله .. وأمام المنزل وفي الشوارع المحيطة دارت معركة عنيفة بين مؤيدي **مصدق** وأنصار **الشاه** **وزاهيدي** الممولين من الولايات المتحدة .. انتهى الصراع باستسلام **مصدق** وأعوانه ..

عاد **الشاه** الهارب إلى عرش إيران ، وسُجن **محمد مصدق** ثلاثة أعوام ، ثم أُفرج عنه وحُددت إقامته جبريا حتى توفي في 5 مارس 1967 ..

* * *

لم يقتصر الدور الأمريكي على تدبير الانقلاب فحسب ، بل امتد هذا الدور ليشمل حمايته لتحقيق أهدافه .. كانت جميع العناصر الأمريكية تفخر بدورها في الانقلاب الذي أحبط مخططات الشيوعية الدولية في السيطرة على إيران على حد قولهم .. وقد أعلن الميجور جنرال **جورج ستيوارت** قائد البعثة العسكرية الأمريكية الموجودة في إيران في شهادته أمام الكونجرس ما يلي :" عندما نشبت هذه الأزمة وكانت الأمور على وشك الانهيار ، فقد اضطررنا إلى التخلي عن المعايير الاعتيادية لتقويم الأمور، وقمنا بإمداد الجيش الإيراني بشكل عاجل بالبطاطين والأحذية والملابس والمولدات الكهربائية والتجهيزات الطبية ، وهو ما هيأ للجيش المناخ المناسب لدعم **الشاه** في محنته .. كل ما كان بحوزتهم قدمناه لهم من خلال البرنامج الدفاعي للمساعدات العسكرية .. البنادق التي كانت في أيديهم ، الشاحنات التي قادوها ، العربات المصفحة التي تجولوا بها في الشوارع ، وتسهيلات الاتصالات الإذاعية التي مكنتهم من التحكم والسيطرة "..

* * *

عاد **الشاه** إلى إيران ، وأصبح قرار التأميم كأنه لم يكن ..

وفور رجوعه عاونته المخابرات الأمريكية تدعيما لعرشه على سجن واغتيال آلاف المعارضين له وللوجود الأجنبي ..

أدى نجاح الانقلاب الذي أعاد **الشاه** بتخطيط أمريكي إلى أن تأخذ الشركات الأمريكية نصف الحصة البترولية المخصصة لبريطانيا ، وهو ما يمثل 40 % من إجمالي حقوق التنقيب في إيران ..

* * *

وفي عام 1954 صدر تبرير معقول جدا للتدخل الأمريكي على لسان ريتشارد روبرتسون – أحد كبار مسئولي الخارجية الأمريكية – إذ قال : "لقد كان علينا أن نتدخل للدفاع عن مواردنا " .. وقد علق الكاتب الأمريكي نعوم تشومسكي على هذا التبرير قائلا : "مواردنا التي حدث أن وُجدت في أراضيهم" !! ..

وفي افتتاحية النيويورك تايمز بتاريخ 6 أغسطس 1954 جاءت هذه الفقرة لتكمل الصورة : " على البلدان النامية الساعية للتطور ، والتي تملك موارد طبيعية لا بأس بها ، أن تتعظ من هذا المثال الذي تم ضربه .. فإذا اتبعت من يهذي بقومية مجنونة ، فإن هذا سيكلفها دون شك الكثير .. إن التجربة الإيرانية تبدو مقنعة

لأي **مصدق** آخر ، وتظهر له أن عليه أن يخلع نفسه من السلطة .. كما أن التجربة ذاتها توضح لباقي القادة وتضئ لهم التصور المحدد لأولوياتنا " ..

* * *

وبمرور الوقت بدأ الأمريكان يحلون محل الإنجليز في البلاد ..

ثم ظهر أن الهدف الرئيسي من كل ما جرى لم يكن مجرد الفوز بنصيب من بترول إيران ، بل كان استغلال موقع إيراني الجغرافي المتميز في إدارة الصراع المحتدم مع السوفيت .. لقد صارت إيران منذ عام 1953 أداة فعالة لتحقيق مكاسب متعددة أثناء الحرب الباردة ..

كان على **الشاه** أن يدفع فاتورة إعادته إلى المجد من جديد .. وجاء استغلال إيران كنافذة تطل على الاتحاد السوفيتي كأحسن ما يكون .. فأنشأت الولايات المتحدة محطات رادار وتنصت إلكتروني بالقرب من الحدود السوفيتية ، كما استُخدمت الأراضي الإيرانية كقاعدة جوية شهدت طلعات جوية عديدة للتوغل السري داخل الأراضي السوفيتية ، وكذلك تم تجنيد جواسيس يتسللون عبر الحدود المشتركة ، ناهيك عن القواعد العسكرية الأمريكية التي انتشرت في أرجاء الدولة الإيرانية ..

كانت الولايات المتحدة تعتبر إيران دولة محورية في استراتيجية تحجيم الاتحاد السوفيتي .. وتبرز حقيقة النظرة الأمريكية لإيران في برقية مرسلة من وزير الخارجية الأمريكي **دالاس** إلى الوزير البريطاني للشئون الخارجية في شهر سبتمبر 1953 ، يقول فيها : " إنني على اعتقاد بأننا لو تعاونا معا على الحركة السريعة والفعالة في إيران ، فإننا قد ننجح في سد الثغرة الأكثر خطورة على طول الطريق من أوروبا وحتى جنوب أسيا " .. والحقيقة أن الولايات المتحدة لم تكن أبدا في حاجة إلى معاونة بريطانيا المنهكة ، فهي كانت تسيطر تماما على أفكار **الشاه** وتتحكم في بوصلة مواقفه السياسية وتوجهاته الاقتصادية بشكل كبير ..

وفي فبراير 1955 انضمت إيران إلى حلف بغداد الذي كان محاولة لم يكتب لها النجاح لإحكام السيطرة الأمريكية على الشرق الأوسط ..

* * *

لن نحتاج هنا إلى التطرق إلى تفاصيل سنوات الصداقة الحميمة بين النظام الإيراني المتمثل في **الشاه** وبين الإدارات الأمريكية المتعاقبة التي كانت تضعه في مرتبة تقترب أحيانا من مرتبة إسرائيل في الشرق الأوسط لدى صناع القرار في الولايات المتحدة .. ونكتفي فقط بالإشارة إلى بعض الوقائع التاريخية المتفرقة ..

في 26 أكتوبر 1963 جاء أول ظهور حقيقي للإمام **آية الله الخميني** ، وذلك عندما وجه خطابا للشعب الإيراني انتقد فيه الحصانة القضائية التي يقدمها **الشاه** إلى الأمريكيين المقيمين في إيران ، وهو استثناء

غير مفهوم للرأي العام .. أمر **الشاه** باعتقال **الخميني** ونفيه إلى تركيا ، ثم انتقل منها إلى العراق ، وأقام في مدينة النجف الأشرف .. وفي مرحلة لاحقة انتقل إلى الإقامة في باريس ..

في أبريل 1965 قام وزير الخارجية الأمريكي **دين راسك** بزيارة إلى إيران ، التقى خلالها بـ **الشاه** ، وتم الاتفاق والتوقيع على سلسلة من القروض واتفاقيات التعاون الثنائية ..

في أبريل 1967 وصل المرشح الجمهوري **ريتشارد نيكسون** إلى طهران في زيارة خاصة .. أسفرت هذه الزيارة عن حدوث اضطرابات ومظاهرات وسقوط عدد من الضحايا .. كما كشفت هذه الزيارة غير الرسمية بوضوح عن رفض الشعب الإيراني لخصوصية العلاقة مع الولايات المتحدة ..

في نوفمبر 1968 قام **نيكسون** الفائز في الانتخابات الرئاسية بإرسال برقية خاصة لـ **الشاه** ، كان موضوعها يتعلق باستعداد واشنطن لتوطيد الروابط الخاصة مع النظام الحاكم بصورة استراتيجية ..

في مايو 1970 بدأت حملة توعية دينية واسعة ضد اتجاهات **الشاه** الذي كان يصر على تبعية إيران الكاملة العمياء للسياسة الأمريكية .. أدت هذه الحملة إلى اعتقالات واسعة بين صفوف رجال الدين وأتباعهم ، وهو ما عمّق الخلافات بين الجانبين ، النظام الحاكم من ناحية والأصوليين من ناحية أخرى ..

في مارس 1971 أعلنت وزارة الخارجية الإيرانية عن تكليف زوجة الرئيس **نيكسون** برئاسة اللجنة العليا في الولايات المتحدة بمناسبة الاحتفال بأعياد مرور ألفين وخمسمائة عام على قيام مملكة **قورش** الإيرانية . وكانت فكرة هذا الاحتفال قد جاءت بعد أن قابل **الشاه** في عام 1959 بعض العلماء الإسرائيليين الذين لفتوا نظره إلى أن الذكري الـ 2500 لتأسيس مملكة **قورش** باني الحضارة الإيرانية سوف تحل بعد سنوات قليلة، وأنه من الواجب أن يتم الاحتفال بها ، وقد لاقت فكرتهم استحسانا كبيرا لدى **الشاه** ، الذي خصص وقتها 20 مليون ريال استعدادا للاحتفال مبكرا .. وكان من المفترض أن يتم الاحتفال في سنة 1962 ، لكنه تأجل أكثر من مرة ، وشاركت منظمة اليونسكو في التنسيق والإعداد ، حتى تم الاستقرار على شهر أكتوبر 1971 ..

في مايو 1972 قام **نيكسون** وزوجته بزيارة رسمية لإيران ، وهو ما أثار موجة احتجاجات جديدة بين الوطنيين والإسلاميين ، خاصة وأن الولايات المتحدة كانت طرفا أصيلا في تمكين إسرائيل من إحكام السيطرة على القدس وفلسطين وأجزاء عديدة من العالم العربي الإسلامي فيما قبل حرب أكتوبر 1973 ..

في أكتوبر 1973 سافر **الشاه** إلى الولايات المتحدة ، وتسلم في فيلاديلفيا أول غواصة متقدمة للبحرية الإيرانية من الإدارة الأمريكية ..

خلال الأيام الأولى من معركة أكتوبر 1973 أرسل **هنري كيسنجر** إلى **الشاه** يطلب منه أن يمارس بعض الضغوط العسكرية على الحدود مع العراق حتى يحد العراق من نشاطه دفاعا عن الجبهة السورية ، وقد جاء في رسالته تقديرا لدور **الشاه** في رفض مرور الأسلحة السوفيتية عبر الأجواء الإيرانية في الطريق إلى سوريا وهذه فقرة من رسالة **كيسنجر** إلى **الشاه** : " إنني آمل أن توافقوا جلالتكم معي على أن انتصارا

عربيا في المعركة الدائرة الآن سوف يكون منسوبا إلى الاتحاد السوفيتي .. فإذا أضفتم جلالتكم إلى ذلك انتصارا عسكريا سابقا تحقق بقوة السلاح السوفيتي ، وهو انتصار الهند على باكستان في حرب 1971 بينهما ، فإنكم سوف ترون بلا شك أن مثل هذا الانتصار العربي الآن سوف يؤدي إلى زيادة تطرف الأنظمة في المنطقة .. إن الرئيس **نيكسون** بالطبع يقدر لكم شجاعة قراركم القيادي برفضكم طلب الاتحاد السوفيتي بمرور إمداداته من السلاح إلى العراق وإلى سوريا عبر الأجواء الإيرانية " ..

في أعقاب حرب أكتوبر 1973 لم يشارك **الشاه** في الحظر البترولي الذي فرضته الدول العربية والعديد من الدول الإسلامية ، فقد ظل رجل الولايات المتحدة الأول في الشرق الأوسط ، ولم يكن ممكنا عمليا أن يتحرك ضد مصلحة إسرائيل ..

في يناير 1975 أصر **الشاه** على استفزاز شعبه من جديد بتشكيل لجنة إيرانية تجتمع دوريا في قصره الإمبراطوري للتنسيق من أجل الاحتفال بالذكرى المائتين لعيد الاستقلال الأمريكي (4 يوليو 1976) ! ..

في يناير 1976 تم إبرام صفقة طائرات إف 14 الأمريكية ، لتدخل الخدمة العسكرية الإيرانية لأول مرة سابقة بذلك العديد من الدول الحليفة للولايات المتحدة ..

في أبريل 1977 وافق **كارتر** على بيع طائرات الأواكس التجسسية المتقدمة لإيران ..

في عام 1977 بدأ **الخميني** في توجيه عدد كبير من الخطب إلى رجال القوات المسلحة ، كان الغرض الأساسي منها هو تحريضهم على عصيان النظام الحاكم ، وقد جاء في إحداها ما يلي : " ينبغي عليكم ألا تخدموا **الشاه** .. فـ **الشاه** هو الشيطان الطاغوتي المتجسد ، وأنتم جنود الله المستضعفين .. وينبغي عليكم ألا تطلقوا النار على إخوانكم من المسلمين ، لأن كل رصاصة تصيب قلب كل مسلم هي أيضا رصاصة تصيب قلب القرآن .. يجب أن تعودوا إلى قراكم وأسركم وأراضيكم ، يجب أن ترجعوا إلى المسجد ، إلى الله " (!!) ..

في 15 نوفمبر 1977 اندلعت مظاهرة كبيرة جدا تهتف ضد **الشاه** ، وقد رفع خلالها المتظاهرون لأول مرة صور الإمام **الخميني** ..

في 28 ديسمبر 1977 وقع انفجار كبير هز مبنى جمعية الصداقة الإيرانية الأمريكية ..

في أغسطس 1978 أعلنت السفارة الأمريكية في طهران عن إصابة عشرة أمريكيين في انفجار بمطعم في شمال العاصمة ..

في 4 نوفمبر 1978 بدأ الرعايا الأمريكيون في الخروج من إيران بعد سلسلة من أعمال العنف المباشرة إلى جانب ازدياد المظاهرات المعادية للولايات المتحدة ولـ **الشاه** الذي فقد شعبيته تماما ..

في 15 يناير 1979 اغتيل كبير المستشارين الأمريكيين مع أحد كبار مساعديه في طهران ..

وفي اليوم التالي مباشرة هرب **الشاه** من إيران متجها إلى مصر بعد أن رفضت جميع دول العالم بما فيها الولايات المتحدة استقباله .. استقر **الشاه** في مصر ومات بها في 27 يوليو 1980 ..

وفي الأول من فبراير عاد **الخميني** إلى إيران ، وتم استقباله في مظاهرة غير مسبوقة في التاريخ الإيراني ، لتبدأ مرحلة جديدة بتأسيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ..

وكان هروب الشاه – للمرة الثانية بعد ربع قرن – وعودة الخميني بعد خمسة عشر عاما من المنفى ، إيذانا بنهاية عهد الصداقة الوثيقة بين الأمريكان وبين النظام الحاكم في إيران ، ليبدأ عصر جديد مناقض تماما لكل ما تركه من ورائه ..

* * *

جاءت البداية عنيفة متوترة من الجانب الإيراني ، ولم يكن الجانب الأمريكي على استعداد للتفاهم أو للبحث عن صياغة جديدة لمستقبل العلاقات الثنائية .. فقد سارع الأمريكان بالتفتيش عن البديل المناسب في الشرق الأوسط ووجدوا ضالتهم في العراق ، رغم أنه لم يكن البديل المثالي لعدة أسباب نترك تفاصيلها للفصل الأخير الخاص بالعراق ..

كانت الولايات المتحدة قد وجدت صعوبة في تخيل التعامل مع الأصوليين في إيران – رغم أنهم فعلوها في نفس الحقبة الزمنية مع الأصوليين في أفغانستان – ، فقامت بمصادرة أموال الدولة الإيرانية وما يسمى بثروات **الشاه** وكانت تلك الأموال مودعة في بنوك أمريكية ..

وحرصت الولايات المتحدة على المبالغة في إقناع الجميع أن الاتجاه الإيراني الجديد معاد للغرب بشكل مطلق ..

وأنقل هنا فقرة عن **محمد حسنين هيكل** من كتاب " الإمبراطورية الأمريكية " : " وأتذكر أيام كنت أغطي وقائع الثورة الإسلامية في إيران أنني صادفت طواقم عدد من شركات التليفزيون الأمريكية تبحث في طهران وقم وأصفهان عن مظاهرات تحرق العلم الأمريكي ، وكانت تلك هي الصورة المطلوبة لإظهار أن الثورة الإسلامية عدو للولايات المتحدة وللغرب ، وبالتالي فإن الرأي العام الأمريكي والأوروبي عليه أن يعاديها .. وفي مرة من المرات في ساحة الشاهياد في طهران ، صادفت موقفا لا يكاد يصدق ، فقد وصل طاقم إحدى وكالات التليفزيون الأمريكي جاهزا بمصوريه وعدساتهم ، واللافت أنهم جاءوا معهم أيضا بمجموعة من الأعلام الأمريكية يسلمونها بأيديهم إلى المتظاهرين كي يحرقوها أمام الكاميرات ، وكان المتظاهرون بحماستهم متلهفين على تخاطف الأعلام الأمريكية وإشعال النار فيها إظهارا لمشاعرهم ، دون أن يخطر لهم أنهم وقعوا غير مدركين في شراك فخ الصور ، الذي يبغي تسجيل المشهد الذي يقول كل شئ ويعبر عن كل واقع في لقطة واحدة .. " ..

وربما لو توافرت النية والإرادة لدى الولايات المتحدة لتغيير مجرى الأحداث ، لنجحت نسبيا في ذلك .. ففي 22 يناير 1979 – وقبل عودة **الخميني** إلى وطنه بعشرة أيام – اجتمع وزير العدل الأمريكي الأسبق **رامزي كلارك** بالإمام **الخميني** في نوفل شاتو في باريس .. وقد خرج الوزير من اللقاء يقول عنه أنه يملك

مفتاح حل المشاكل في إيران .. لكن الإدارة الأمريكية كان لها ترتيبات وتصورات أخرى بشأن تلك المنطقة من العالم ..

* * *

وفي 11 فبراير 1979 انتصرت الثورة الإيرانية نهائيا بعد سقوط آخر معاقل **الشاه** .. في تلك الأيام كان الأمريكان ما يزالوا يتساءلون عن مدى إمكانية النجاح في القيام بانقلاب عسكري مضاد ، وجاء ذلك خلال مكالمة هاتفية بين مستشار الأمن القومي **برجينسكي** والسفير الأمريكي الأخير – الأخير حتى يومنا هذا – في طهران **سوليفان** .. وكانت الولايات المتحدة قد حاولت تجنيد عدد من الضباط الإيرانيين للقيام بانقلاب عسكري ، إلا أن المحاولة اكتشفت مبكرا وتم إخمادها ..

وفي 4 نوفمبر 1979 قامت مجموعة من الطلبة باحتلال السفارة الأمريكية في طهران ، مبررين فعلتهم بأن السفارة كانت مقرا للتجسس والتدخل في الشئون الداخلية لإيران .. ورغم أن ذلك كان صحيحا ، لكنه لم يكن يبرر ما فعلوه .. احتجز الطلبة جميع الدبلوماسيين والموظفين العاملين بالسفارة ، وتصاعدت الأزمة ، ورفض الإيرانيون الإفراج عنهم ..

وفي أبريل 1980 حاولت الولايات المتحدة القيام بعملية سرية للكوماندوز لإنقاذ 53 أمريكيا محتجزين بالسفارة .. كانت خطة الإنقاذ تشمل إرسال طائرات تجسس وأخرى مقاتلة وحاملة جنود لتحرير الرهائن .. لكن حدث أن اصطدمت طائرتان ببعضهما البعض ، فقتل ثمانية أمريكيين بدون قتال في عاصفة رملية بصحراء طبس الإيرانية .. انكشفت العملية ، وتوترت أعصاب الإدارة الأمريكية ، ليقرر الكونجرس قطع علاقات بلاده مع إيران في 18 أبريل 1980 بعد استنفاد وسائل تحرير الرهائن وانقطاع الأمل في إيجاد أي حلول للأزمة ..

ثم تدخلت العديد من الدول لإنهاء الموقف المتأزم .. وتحت رعاية الجزائر تم التوصل إلى حل دبلوماسي ، وأفرج عن الرهائن بعد 444 يوما في يناير 1981 ..

والجدير بالذكر أن المرشح الجمهوري للرئاسة **رونالد ريجان** ونائبه **جورج بوش** قد أجريا اتفاقا سريا مع عناصر إيرانية لتأجيل الإفراج عن الرهائن للمساعدة على فوز **ريجان** على **كارتر** في سباق الانتخابات الرئاسية في مقابل أن تقوم الولايات المتحدة بإمداد إيران بالسلاح عن طريق إسرائيل ، فضلا عن الحصول على مبلغ 2.87 مليار دولار من إجمالي الأرصدة الإيرانية المجمدة لدى الحكومة الأمريكية والبالغة 12 مليار دولار أمريكي ..

وبالفعل ، قام **ريجان** بحلف اليمين ، وبعد دقائق تم الإفراج عن الرهائن **!** ..

* * *

اندلعت حرب الخليج الأولى – الحرب العراقية الإيرانية – في سبتمبر 1980 .. وسوف يكون من العبث الآن أن نبحث في أسبابها أو نفتش عن المسئول عن بدئها أو تحديد صاحب الطلقة الأولى .. وإن كان لا يمكننا تجنب الدهشة التي قد تعترينا عندما نستحضر كلمات **الخميني** عن الرصاص الذي يصيب قلب المسلمين والقرآن معا ، وعن حرمة قتل إخواننا من المسلمين ، وحتمية العودة إلى المسجد وإلى الله .. كيف نسي **الخميني** وأتباعه هذه المعاني النبيلة بتلك السهولة والسرعة ؟؟

وعلى كل حال سوف نترك بعض تفاصيل تلك الحرب الحمقاء للفصل الأخير من الكتاب ..

لم يكن موقف الولايات المتحدة واضحا في المرحلة الأولى من الصراع ، ولا يمكن اعتبارها جهة محايدة كذلك ، خاصة وأن الحياد لا يمكن أن يعني تزويد الطرفين بالأسلحة والمعلومات للعمل على إضعافهما معا لصالح جبهة ثالثة هي إسرائيل ! ..

المهم .. كانت المخابرات الأمريكية منذ عام 1982 تدعم الحركة الرئيسية للإيرانيين المنفيين المعارضين لـ **الخميني** وهي جبهة تحرير إيران التي كانت تتخذ من باريس مقرا لها .. كان الدعم بمبلغ مائة ألف دولار ، ولم يكن أحد يتوقع أن تنجح مثل هذه الحركة في القيام بانقلاب ، إلا أن اتصالاتهم كانت تشكل مصدرا نافعا نوعا ما للحصول على القليل من المعلومات السرية .. كما كان هناك مبلغ آخر يتراوح بين 20 و30 ألف دولار شهريا تقدمه المخابرات لتمويل ما يعرف باسم راديو التحرير الذي كان يبث برامج معادية لـ **الخميني** من مصر إلى إيران لمدة أربع ساعات يوميا ..

* * *

مرت الأعوام سريعا ، ولم يتمكن أي من الطرفين من حسم الحرب لصالحه ..

وفي عام 1986 تفجرت فضيحة إيران جيت أو بالأحرى إيران كونترا ، وهي فضيحة تستحق أن نتناولها في مجموعة من الأسطر ..

كانت الولايات المتحدة تعاني من أزمة رهائن جديدة ، ولكن هذه المرة كان الرهائن محتجزين في الجنوب اللبناني .. ولأن الجنوب اللبناني الشيعي مرتبط بشكل جذري بإيران الشيعية ، فقد رتبت أمريكا لعقد صفقة من نوع خاص ..

تم الإعداد للصفقة بأن تقوم إسرائيل بشحن صواريخ مضادة للدبابات من طراز تاو إلى إيران على أن تقوم الولايات المتحدة بتعويض المخزون الإسرائيلي فيما بعد ، وفي المقابل تضمن إيران الإفراج عن الرهائن الأمريكيين في لبنان .. أنجز المطلوب ، ولكن كان للصفقة تكملة .. فقد نسقت المخابرات الأمريكية مع الموساد الإسرائيلي بأن يتم إدماج عمليتي شحن الأسلحة لإسرائيل ودعم الكونترا المناهضين لحكومة نيكاراجوا ، بحيث يتم تحويل الأموال التي ستأتي من إيران لتمويل متمردي الكونترا .. وقد حققت هذه العملية السرية عدة أهداف : أولا : حوّلت إيران من ممول لحكومة الساندنيستا الشرعية في نيكاراجوا – إذ

كانت قد قدمت لها ائتمانات بترولية بمبلغ 100 مليون دولار على مدى سنوات سابقة – إلى ممول لقوات الكونترا ، وبذلك تمكنت المخابرات الأمريكية من جعل عدو لها – وهو إيران – يمول صديقا لها – وهم الكونترا – ! ..

وثانيا : تسهيل الإفراج عن الرعايا الأمريكيين المعتقلين ، وهو ما حدث بالفعل ..

وثالثا : التخلص من مأزق تعنت الكونجرس الأمريكي في اعتماد أموال لتمويل الكونترا[93] عن طريق أموال جاءت واختفت بشكل سري ودون أن يتابعها أحد ..

ورابعا : فتح قنوات ولو غير مباشرة للاتصال مع طهران تحسبا لما قد يأتي به المستقبل من أحداث ..

وخامسا : الإبقاء على التوازن بين القوة الإيرانية ومثيلتها العراقية لأطول وقت ممكن بغرض إنهاك قواهما لأقصى مدى من أجل صالح إسرائيل والمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط بشكل عام ..

لقد كانت صفقة رائعة من الناحية التخطيطية لولا أنها انكشفت وتحولت إلى فضيحة كبرى في عام 1986 .

* * *

اقتربت الحرب من نهايتها ، وبدأ الموقف الأمريكي ينحاز بشدة إلى العراق ، لمحو آثار فضيحة إيران كونترا من ناحية ، وللحفاظ على العلاقات الناشئة مع العراق من ناحية أخرى .. فقد تم إعادة العلاقات الرسمية بين البلدين في عام 1984 بعد فترة انقطاع دامت 17 سنة منذ حرب 1967 ..

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك سلسلة من الإجراءات الأمريكية لحماية البترول في منطقة الخليج العربي ..

وفي 3 يوليو 1988 قامت سفينة حربية أمريكية بتدمير الطائرة المدنية الإيرانية رحلة رقم 655 وهي في الجو داخل المجال الجوي الإيراني ، وأسفر القصف عن سقوط 299 قتيلا ..

بشأن هذا التدمير كتب القبطان الأمريكي **ديفيد كارلسون** في جريدة الأسطول الرسمية يقول : " أنه عبّر عن دهشته بصوت عال وهو لا يكاد يصدق عندما رأى من سفينته القريبة أن المدمرة فينسينيز التي كانت حينذاك في المياه الإقليمية لإيران قد أسقطت بقذائفها ما كان يبدو بوضوح أنه طائرة مدنية إيرانية في خط سير تجاري معتاد " ..

أما الرئيس الأمريكي **جورج بوش** الأب – وكان لم يزل نائبا لـ **ريجان** وقت الحادث – فقد أخبر الأمم المتحدة قائلا : " إن شيئا واحدا كان واضحا ، وهو أن فينسينيز تصرفت دفاعا عن النفس وسط هجوم بحري قامت به سفن إيرانية " ! .. ثم عاد وواجه الرأي العام العالمي بقوله : " لن أقوم بالاعتذار إطلاقا عن الولايات المتحدة الأمريكية ، أنا لا يهمني ما قد تكون عليه الحقائق " .

وفي 17 يوليو 1988 أعلنت إيران قبول وقف إطلاق النار وهو ما اعتبر نهاية الحرب العراقية الإيرانية ، تلك الحرب التي بدأت وانتهت دون تحقيق أي مكاسب تذكر لأي من الطرفين ..

* * *

---

[93] راجع فصل نيكاراجوا

في شهر يونيو 1989 توفي **الخميني** .. وفي شهر أغسطس 1990 هاجمت العراق الكويت ..
خفت بريق الصراع مع إيران ، خاصة أنه لم يكن ممكنا على أرض الواقع أن تهاجم الولايات المتحدة العراق دون ضمان حياد إيران .. وللحصول على هذا الحياد ، كان ينبغي أن يتوقف العداء العلني المباشر[94] ، ولم يكن ذلك بالأمر المستحيل بعد رحيل **الخميني** وانكسار حدة الأصولية ..
ثم تعاقبت الأحداث العالمية مؤدية إلى تهميش المشاكل المتعلقة بإيران .. فقد جاءت حرب تحرير الكويت في 1991 ، وتلتها مشكلة البوسنة والهرسك في 1992 – 1995 ، ثم أزمة كوسوفو في 1998 – 1999، وكذلك مطاردة **أسامة بن لادن** الذي لمع اسمه في أعقاب حوادث تفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام في عام 1998 وتدمير المدمرة كول أمام سواحل اليمن في عام 2000 .. ووسط كل ذلك ، الانشغال الأمريكي بمحادثات السلام بين إسرائيل والعرب طوال عقد التسعينات .. ثم تُوِّج ذلك التهميش بأحداث 11 سبتمبر 2001 ..

وفي نهاية شهر يناير 2002 ، عاد فجأة الحديث من جديد عن إيران بشكل عدائي مباشر .. كان ذلك عندما تم ابتكار مصطلح محور الشر لأول مرة في خطاب حالة الاتحاد للرئيس بوش الابن ، ليتم جمع إيران مع كوريا الشمالية والعراق في قارب واحد .

* * *

وفي هذه الأيام التي تُكتب فيها هذه السطور يشتد الضغط النفسي الذي تمارسه الولايات المتحدة بحرفية شديدة على إيران مستخدمة أكثر من سكة للوصول إلى أهدافها ..[95]
فرغم أن إيران أكثر ديمقراطية من الدول العربية جميعا ، إلا أن الولايات المتحدة تلعب على أوتار الإصلاح الديمقراطي وحقوق الإنسان في إيران .. وفي أكتوبر 2003 كانت الولايات المتحدة وراء منح جائزة **نوبل** للسلام لسيدة مجهولة تماما على الساحة الدولية ، هي المحامية الإيرانية **شيرين عبادي** تقديرا لمجهوداتها في مجال حقوق الإنسان والمرأة والطفل في إيران .. واللافت للنظر أن منح **شيرين عبادي** الجائزة جاء على حساب مرشح آخر هو بابا الفاتيكان **يوحنا بولس الثاني !!** .. ولم يكن ممكنا أن تُمنح الجائزة لأكبر معارض في العالم الغربي المسيحي لشن الحرب الأخيرة ضد العراق ، فهذه الجائزة كانت ستكون تتويجا لمجهوداته في الاتجاه المعاكس للإرادة الأمريكية ..
وعندما أعلنت لجنة جائزة **نوبل** عن شخصية الفائز بالجائزة جاء في إعلانها الرسمي أن اللجنة تأمل أن تكون الجائزة مصدر إلهام لكل من يكافح من أجل حقوق الإنسان والديمقراطية في بلده ، ثم صدر بيان من غير ذي صفة عن البيت الأبيض أشاد بفوز **شيرين** بالجائزة مؤكدا أن واشنطن تساند تماما طموحات وتطلعات الشعب الإيراني من أجل الحرية والديمقراطية ! ..

---

[94] راجع فصل ليبيا
[95] تم الانتهاء من هذا الفصل في نهاية عام 2004

ثم خرجت مظاهرات في شوارع العاصمة طهران تؤيد **شيرين عبادي** – رغم أن الحكومة لم تعارض فوزها بالجائزة – وتطالب الحكومة الإيرانية بالإفراج عن المعتقلين وتنادي بالعدل والحرية ..

إن الولايات المتحدة تحاول الضغط على النظام الحاكم في إيران من خلال طلبة الجامعة والمتعلمين والشباب المنفتح – رغم أنف الجميع – على ما يدور في العالم من حوله .. لكن الضغوط الأكثر جدية وخطورة تتمثل فيما تتعرض له إيران في عام 2004 من ضغوط دولية من الدول الأوروبية ومن وكالة الطاقة الذرية بإيعاز من الولايات المتحدة للتخلي عن نشاطها النووي والتخلص من أية كميات من اليورانيوم المخصب قد تكون حصلت عليها أو أنتجتها ، حتى أن مدير وكالة الطاقة الذرية **محمد البرادعي** يطلع وزير الخارجية الأمريكي على مستجدات الأمور في اجتماعات ثنائية كلما سنحت الفرصة ، وكأن الوكالة تقدم تقاريرها إلى الولايات المتحدة كجهة إشرافية ..

وتثار التكهنات عن احتمالات أن تلقى إيران مصير العراق .. وإن كنا نستطيع أن نصل إلى درجة الجزم بأن إيران 2004 أقوى كثيرا من عراق 2003 من الناحية العسكرية وعلى صعيد الاستقرار الاجتماعي الداخلي ..

لكن صعوبة موقفها تتمثل في كونها محاطة شرقا بأفغانستان الأمريكية ، وغربا بالعراق المحتل ، وهو ما يوفر أرضية هائلة للتمركز الأمريكي إذا ما تفاقمت الأزمة ودارت آلة الحرب الأمريكية الحمقاء ..

ولا يسعنا سوى الانتظار قلقين على مصير إيران ، ومصائرنا من بعدها ..

* * *

" الأوطان – على نحو ما – أشبه ما تكون بحاملات الطائرات العملاقة ، وأما النظم فمجرد " حمولات " تصادف وجودها على السطح لحظة عابرة ، وليس مهما أن تصاب إحدى الطائرات بالعطب ، وإنما الكارثة أن تغرق الحاملة ! " .. **محمد حسنين هيكل**

والشعب الإيراني يعيش في وطنه إيران .. تغير النظام الحاكم من حوله ، لكن الشعب عريق ضارب في جذور التاريخ .. وإن كانت الولايات المتحدة تصادق النظام الشاهنشاهي وتعادي النظام الإسلامي ، فإن الشعب لم يكن يوما على وفاق مع الولايات المتحدة ..

وإذا لم يكن الشعب راضيا عن حكامه – وقطعا هناك تحفظات من طوائف عديدة لأسباب متفاوتة – فليجئ التغيير من الداخل بإبدال الحمولة بحمولة أخرى ، بهدوء وبدون عواصف وبلا انفلات ، حرصا على عدم الغرق ..

وإن كان الشعب راضيا عن حكامه ، فعليه أن يفتخر بهم وأن يعلن بأعلى صوت أن الغرق من نصيب الأفكار الهادفة للإغراق ..

(48)

أســلحــة الدمــار الشــامــل العــادل !!

.... ثم نطهّر مدينتنا الفاضلة من كل هذه الأشياء ،

بادئين بالأبيات التالية :

إني لأفضل البقاء في الأرض عبدا لغيري ،

عبدا لرجل لا يملك إلا القليل ،

على أن أكون سلطانا على كل الهالكين ..

الفيلسوف الإغريقي **سقراط**

* * *

إن إهدار قوى الدول بالإنفاق على أسلحة تستعملها كل دولة ضد غيرها من الدول ، وما يؤدي إليه ذلك من خراب ناجم عن الحروب ، فضلا عن الحاجة الدائمة لأن تكون الدولة في حالة استعداد مستمر لخوض الحرب ، من شأن هذا كله تعطيل الازدهار الكامل للطبيعة البشرية ..

الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط**

* * *

إن المحرمات النووية مثل كل المحرمات ..

لابد من أن يُنتهك هذا التحريم عند الضرورة ..

فالأفراد سوف يأكلون أغذية ممنوعة ، إذا كان البديل هو الجوع ..

وسوف تملك الدول وتستخدم الأسلحة المحظورة لو اعتبرتها ضرورية للبقاء ..

الكاتب السياسي الأمريكي **مايكل ماندلباوم**

* * *

شامل !! ..

سلام شامل ..

ودمار شامل ..

قطعتان من اللبان في أفواه كريهة الرائحة ..

* * *

أمريكية كانت البداية ..

كانت الولايات المتحدة الأمريكية أول من توصل إلى سر القنبلة الذرية ..

وكانت أول وآخر من استعملها ضد البشر حتى يومنا هذا ..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام 1945 ، حاول الأمريكان أن يحتفظوا بسر التفوق ، لكن خابت محاولاتهم .. وتمكن الاتحاد السوفيتي من اختبار قنبلته الذرية الأولى في عام 1949 ، ثم بريطانيا في عام 1952 ، وفرنسا في عام 1960 ، وفي نهاية عام 1964 أنتجت الصين قنبلتها لتنضم إلى النادي النووي العالمي ..

ولم تقف رغبة الولايات المتحدة عند الاستئثار بالسلاح النووي المدمر ، لكنها سعت أيضا إلى ما يملكه الغير من تفوق إجرامي .. فقد كانت اليابان أكبر دولة في التاريخ تستخدم الأسلحة الجرثومية على أوسع نطاق أثناء الحرب العالمية الثانية ضد الصين وعدد من دول جنوب شرق أسيا .. وكان ذلك بفضل إنشاء الوحدة العسكرية رقم 731 في إقليم منشوريا بالصين – والذي احتلته اليابان أثناء الحرب – وكانت هذه الوحدة معنية بإجراء الأبحاث والتجارب على الأسرى الأسيويين ..

وبعد هزيمة اليابان ، قام الجنرال الياباني **إيشي** بتفجير موقع الوحدة 731 وطمس جميع معالم المكان وقام بحرق كل الوثائق والمستندات .. ولكن بعض أعضاء الوحدة سقطوا أسرى في أيدي القوات السوفيتية التي كانت تزحف إلى منشوريا ، وتمت محاكمتهم في محاكم عسكرية أصدرت قرارها الفوري بإعدام جميع أعضاء الوحدة .. وعندما علمت أجهزة الاستخبارات الأمريكية بهذا التطور ، سارعت إلى البحث عمن تبقى من أعضاء الوحدة ونجحت في القبض على الفارين، وقامت بترحيل كبار الضباط والتقنيين إلى أمريكا لاستجوابهم .. وهناك عقدت الإدارة العسكرية الأمريكية اتفاقا مع اليابانيين بأن يفشوا أسرار الأسلحة الجرثومية اليابانية في مقابل إطلاق سراحهم وإعادتهم سالمين إلى أرض الوطن ..

هكذا هي النظرة الأمريكية إلى أسلحة الدمار " الشامل " ، طالما نجحت في لم " شمل " العلوم التدميرية وضمها إلى صدر ترسانتها النووية الحنون ! ..

* * *

ثم جاء أول قرار تتخذه الجمعية العامة للأمم المتحدة على الإطلاق في دورتها الأولى يدعو إلى ضرورة تأمين استخدام الطاقة النووية في الأغراض السلمية وحدها ..

وبعد الفشل الأمريكي في الاحتفاظ بسر الخلطة ، ظهرت محاولات دعائية بين القوتين العظميين لمحاولة السيطرة على انتشار الأسلحة النووية بل وإزالتها تماما ، ثم ظهرت مشروعات خيالية لإدارة الانتشار النووي مثل برنامج " الذرة من أجل السلام " الذي طرحته الولايات المتحدة في بداية الخمسينات ..

وبمرور الأعوام ، لم تعد الأسلحة النووية حكرا على الدول النووية الخمس ..

ففي عام 1973 أجرت الهند تفجيرات نووية وأنكرت في ذلك الوقت أنها توصلت إلى صنع القنبلة النووية ، غير أنها وبعد 25 سنة – 1998 – أجرت خمس تجارب نووية علنية وتلتها باكستان بعد أسابيع وردت على تفجيرات الهند بتفجيرات باكستانية نووية ..

يضاف إلى هؤلاء جنوب أفريقيا التي تنازلت طواعية عما تمتلكه من أسلحة نووية في مطلع تسعينات القرن العشرين ، وهناك بيلاروسيا وليتوانيا وكازاخستان وأوكرانيا الذين نالوا من الإرث السوفيتي بعض ما فيه .. كما تمتلك إسرائيل القنبلة النووية ..

ويتابع العالم الموقف الإيراني والكوري الشمالي ..

إلا أن المؤكد ، أنه مع بداية القرن الحادي والعشرين كان على سطح الكرة الأرضية نحو 614 مفاعلا نوويا يعمل في مختلف أرجاء الأرض .. وهناك 60 دولة في العالم تمتلك مفاعلات قوى نووية ما بين مفاعلات أبحاث يقل التخوف منها ومفاعلات طاقة تكثر حولها الشبهات ، لقدرتها في مراحل متقدمة على إنتاج القنبلة النووية .. وإضافة إلى ذلك العدد الضخم من المفاعلات ، فإن هناك حوالي 462 مفاعلا تم إغلاقها أو تفكيكها أو إيقاف نشاطها مؤقتا أو بشكل دائم ، كما يوجد بشكل تقريبي 36 مفاعلا تحت الإنشاء في جميع القارات الست ..

ففي أسيا تمتلك سبعة عشر دولة مفاعلات نووية هي : اليابان : 55 مفاعل طاقة و13 مفاعل أبحاث ، كوريا الجنوبية : 20 مفاعل طاقة و 2 مفاعل أبحاث ، الهند : 16 مفاعل طاقة و5 مفاعلات أبحاث ، الصين : 10 مفاعلات طاقة و14 مفاعل أبحاث ، كوريا الشمالية: 3 مفاعلات طاقة (في السجلات الرسمية لا تحوز كوريا الشمالية على أي مفاعلات طاقة عاملة ، وإن كان يجري العمل فيها بشكل متقطع بسبب المشاكل مع وكالة الطاقة الدولية والولايات المتحدة ، بعضها لم يزل تحت الإنشاء والبعض الآخر تم تعليق العمل فيها) ومفاعل أبحاث واحد ، باكستان : 2 مفاعل طاقة و 2 مفاعل أبحاث ، إيران: مفاعل طاقة واحد (رسميا لا تملك إيران مفاعل طاقة يعمل ، وإن كان يجري العمل فيه بشكل متقطع ولا يمكن الجزم يقينا أنه يعمل كبقية مفاعلات القائمة التي نحن بصددها) و5 مفاعلات أبحاث ، أرمينيا : مفاعل طاقة واحد ، إسرائيل : 2 مفاعل أبحاث (من بينها مفاعل للماء الثقيل لا توجد عنه معلومات لدى وكالة الطاقة الذرية منذ عام 1974، ثم إن مصادر أخرى تتحدث عن عدد أكبر من المفاعلات)، وكل من كازاخستان وإندونيسيا : 3 مفاعلات أبحاث ، وكل من تايلاند وماليزيا وأوزباكستان وبنجلاديش وفيتنام وسوريا : مفاعل أبحاث واحد ، بالإضافة إلى جزيرة تايوان والتي تلقى دعما أمريكيا كبيرا ولديها : 6 مفاعلات طاقة ومفاعل أبحاث واحد..

وفي أمريكا الجنوبية والوسطى تمتلك ست دول مفاعلات نووية هي : الأرجنتين : 2 مفاعل طاقة و5 مفاعلات أبحاث – ولديها مصدر نووي – ، البرازيل : 2 مفاعل طاقة و4 مفاعلات أبحاث ، بيرو : 2 مفاعل أبحاث ، وكل من شيلي وكولومبيا وجامايكا : مفاعل أبحاث واحد ..

وفي أفريقيا تمتلك سبع دول مفاعلات نووية هي : جنوب أفريقيا : 2 مفاعل طاقة ومفاعل أبحاث واحد – ولديها مصدر نووي وهي الوحيدة في أفريقيا المالكة لمفاعلات طاقة – ، وكل من الجزائر ومصر : 2 مفاعل أبحاث ، وكل من غانا وليبيا ونيجيريا والكونجو الديمقراطية : مفاعل أبحاث واحد – وللكونجو الديمقراطية مصدر نووي – ، في حين تمتلك كل من أفريقيا الوسطى والجابون وناميبيا والنيجر مصدر نووي في أراضيها ..

وفي أوروبا تمتلك ستة وعشرون دولة مفاعلات نووية هي : فرنسا : 59 مفاعل طاقة و14 مفاعل أبحاث ، روسيا : 31 مفاعل طاقة و49 مفاعل أبحاث ، بريطانيا : 19 مفاعل طاقة و3 مفاعلات أبحاث ، ألمانيا : 17 مفاعل طاقة و12 مفاعل أبحاث ، أوكرانيا : 15 مفاعل طاقة ومفاعل أبحاث واحد ، السويد : 10 مفاعلات طاقة ، إسبانيا : 8 مفاعلات طاقة ، بلجيكا : 7 مفاعلات طاقة و4 مفاعلات أبحاث ، جمهورية التشيك : 6 مفاعلات طاقة و3 مفاعلات أبحاث ، سويسرا : 5 مفاعلات طاقة و3 مفاعلات أبحاث ، سلوفاكيا : 5 مفاعلات طاقة ، المجر : 4 مفاعلات طاقة و2 مفاعل أبحاث ، فنلندا : 4 مفاعلات طاقة ومفاعل أبحاث واحد ، بلجاريا : 2 مفاعل طاقة ، هولندا : مفاعل طاقة واحد و3 مفاعلات أبحاث ، رومانيا : مفاعل طاقة واحد و2 مفاعل أبحاث ، سلوفينيا : مفاعل طاقة واحد ومفاعل أبحاث واحد ، ليتوانيا : مفاعل طاقة واحد ، إيطاليا : 5 مفاعلات أبحاث ، وكل من اليونان والنرويج : 2 مفاعل أبحاث ، وكل من النمسا وتركيا وبولندا والبرتغال ويوجوسلافيا سابقا : مفاعل أبحاث واحد ..

وفي أستراليا وما حولها من جزر لا يمتلك مفاعلات نووية سوى أستراليا إذ تملك 2 مفاعل أبحاث ولديها مصدر نووي ..

وفي أمريكا الشمالية تمتلك الدول الثلاث التي تتكون منها القارة مفاعلات نووية : فتمتلك المكسيك 2 مفاعل طاقة ، 2 مفاعل أبحاث ، وتمتلك كندا 18 مفاعل طاقة و8 مفاعلات أبحاث ، ويوجد بالولايات المتحدة وحدها 103 مفاعل طاقة و41 مفاعل أبحاث – أي حوالي ربع مفاعلات العالم أجمع – ..

وبتأمل سريع لهذه الأرقام المفزعة ، يمكن الجزم أنه لا توجد منطقة واحدة في العالم في مأمن أو في معزل عن الدمار الشامل ، فقد تم توزيع القدرات التدميرية الشاملة على جميع أركان الأرض بالعدل ..

* * *

لكن الصورة لم تبلغ هذه الدرجة من السواد إلا في العقد الأخير من القرن العشرين ، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ..

ففي عام 1968 ، وكان السلاح النووي ما زال حكرا على خمس دول تمثل ما يعرف باسم النادي النووي ، ظهرت إلى النور معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية ..

وبالنظر إلى نصوص المعاهدة ، نجد المادة الأولى من نص المعاهدة تتعهد فيها كل دولة من الدول الحائزة للأسلحة النووية والتي هي طرف في المعاهدة بألا تقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة بنقل أية أسلحة

نووية ، وبعدم القيام إطلاقا بمساعدة أو تشجيع أو تحفيز أية دولة من الدول غير الحائزة للأسلحة النووية على صنع أسلحة نووية أو اقتنائها أو اكتساب السيطرة عليها بأية طريقة أخرى ..

أما المادة السادسة فتنص على تعهد كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة بمواصلة إجراء المفاوضات بشأن التدابير الفعالة المتعلقة بوقف سباق التسلح النووي في موعد قريب وبنزع السلاح النووي كاملا في ظل مراقبة دولية شديدة وفعالة ..

ومن الغريب أن المعاهدة قد حررت في الأول من يوليو 1968 ، وأن عدد الدول التي وقعتها قد وصل إلى 186 دولة في عام 1997 ، وأنه رغم ذلك ظلت الأسلحة النووية تنتشر بمعدل يفوق ازدياد عدد الدول الموقعة على المعاهدة ..

كما أن الدول النووية التي تعهدت في المادة السادسة من المعاهدة بأن تنزع سلاحها النووي بالكامل قد تناست هذا الأمر تماما ، وراحت تفتش عن الأسلحة النووية التي تسربت إلى الآخرين ..

وقد ساعد على عدم فاعلية هذه المعاهدة هو موقف الدول الكبرى تجاه موادها التي قامت بصياغتها بنفسها .. فلم يكن من المنطق ألا تلتزم الولايات المتحدة مثلا بنزع سلاحها النووي كاملا وفقا للمادة السادسة من المعاهدة ، وفي الوقت ذاته تستجيب دول العالم من حولها للبنود الداعية لعدم محاولة امتلاك الأسلحة النووية ..

وللرئيس الأرجنتيني الأسبق **راؤول ألفونسين** عبارة يوضح فيها وجهة نظر الغالبية العظمى من الدول التي تشعر بالغبن الشديد من جراء تصرفات الكبار ، إذ يقول : " لقد امتنعت الأرجنتين لسنوات عن التوقيع على معاهدة الحد من انتشار السلاح النووي ، لأننا كنا مقتنعين بفكرة السفير **خوليو كاراساليس** في كتابه " نزع سلاح العزل " والتي ترى أن المعاهدة المذكورة تقنن انعدام المساواة بين دول ذات سيادة ، إذ تشطرها إلى دول نووية لها الحق في إملاء ما تريد ودول غير نووية تنفذ هذا الإملاء .. لهذا السبب انتهجت الأرجنتين منهجا مغايرا .. عقدنا مع جارتنا البرازيل اتفاقية كشف كامل بين البلدين ، ووجدنا هذه الضمانة المتبادلة أفضل من التوقيع على المعاهدة بكل ما تحويه من انعدام التكافؤ بين الدول " ..

وفي مطلع تسعينات القرن العشرين امتلأ المشهد سوادا ، فقد تضخم حجم الترسانات النووية إلى درجة وصل معها عدد الرؤوس الحربية النووية في عام 1990 إلى نحو 50 ألف رأس نووي موزعة ما بين أراضي الدول المالكة للأسلحة النووية وبعض الدول الحليفة غير المالكة للأسلحة إضافة إلى أسلحة نووية منتشرة في عرض المحيطات جاهزة للتصويب في كل اتجاه ممكن ..

تزامن ذلك مع سقوط الاتحاد السوفيتي وما صاحب ذلك من فقدان جزئي للسيطرة على ممتلكاته النووية المبعثرة في بقاع متباعدة من الإمبراطورية السوفيتية ، وهو ما ساهم في ظهور عصابات تتاجر في السلاح النووي وتبيعه لمن يدفع أكثر ..

وقد أدت هذه الأحداث المتلاحقة إلى بروز تساؤلات تتعلق بإمكانية منع استخدام السلاح النووي متجاوزة بذلك تساؤلات أخرى قديمة بشأن وقف انتشاره ، فقد حدث ما حدث وصار السلاح النووي في يد العديد من الدول ..

وهنا اعتمدت وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون خطط عسكرية غير مسبوقة تتعلق بالعمل على منع استعمال الأسلحة النووية فيما عرف باسم سياسة مكافحة الانتشار Counter Proliferation التي تدعو إلى مطاردة من يحوز السلاح ونزعه بالقوة إن فشلت المفاوضات السلمية في تحقيق ذلك ..

ورغم أن الانتشار النووي له شقين ، أحدهما يتمثل في الانتشار الأفقي ويعني انتشار الأسلحة النووية في دول لم تكن تمتلكها من قبل ، والآخر هو الانتشار الرأسي ويعني زيادة مخزونات الأسلحة النووية لدى الدول التي تمتلكها بالفعل بحيث توزع الزيادة على مواقع متفرقة داخل وخارج أراضيها ، فإن الانتشار الأفقي هو ما يقض مضاجع الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة ، بغض النظر عما تقوله الأرقام من امتلاك الولايات المتحدة وروسيا لحوالي 95 % من المخزون العالمي من الأسلحة النووية ..

* * *

وفي ظل هذه الأجواء الخطيرة والاندفاع المحموم نحو حيازة أسلحة الدمار الشامل ، التي لا تقتصر على السلاح النووي فحسب ، بل تعتبر الأسلحة الكيميائية والبيولوجية هي أسلحة الدول الفقيرة التي لا تملك الإمكانات المادية والتقنية اللازمة لصنع القنابل النووية ..

في ظل هذه الظروف كان الملاذ الأوحد لدى بعض الدول التي لم تفقد عقلها بعد هو العمل على إنشاء مناطق خالية من الأسلحة النووية nuclear weapon free zones ..

ومنذ منتصف خمسينات القرن العشرين تم طرح 25 مشروعا جادا لإقامة مناطق خالية من الأسلحة النووية في مختلف أقاليم العالم .. ولكن لم يتم فعليا سوى إقامة 4 مناطق منها مع وجود جوانب قصور شديدة في التطبيق الحازم للفكرة أو الهدف ، ويكمن ذلك في ضرورة أن توافق الدول النووية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة على مبدأ إخلاء منطقة ما في العالم من السلاح النووي وهو ما واجهته أمريكا مرارا بالاعتراض ..

المنطقة الأولى الخالية من الأسلحة النووية هي أمريكا الجنوبية والبحر الكاريبي في ظل معاهدة تلاتيلولكو عام 1967 ، وقد دعا البروتوكول الأول للمعاهدة الأطراف الخارجية المسئولة عن أقاليم تقع ضمن حدود المنطقة الجغرافية المحددة في معاهدة تلاتيلولكو بأن يتعهدوا بتطبيق نظام اللانووية فيما يتعلق بالأغراض الحربية في تلك الأقاليم وهذه الدول هي فرنسا وبريطانيا وهولندا والولايات المتحدة وهي جميعا ما عدا هولندا من الدول المالكة للأسلحة النووية ..

وقد أثارت الولايات المتحدة أزمة في التوقيع والتصديق على المعاهدة بسبب عدم رغبتها في إدخال جزر فيرجن التابعة لها وبورتوريكو وكذلك قاعدة جوانتانامو المتنازع عليها مع كوبا في المعاهدة وهو ما يعني

إخلاءهم من الأسلحة النووية ، ولكن تحول الموقف الأمريكي في عهد **كارتر** .. وقد صدقت بريطانيا على المعاهدة في ديسمبر 1969 ، وهولندا في يوليو 1971 ، والولايات المتحدة في نوفمبر 1981 ، ثم فرنسا في أغسطس 1992 ..

والمنطقة الثانية الخالية من الأسلحة النووية جاءت من خلال معاهدة راروتونجا في جنوب المحيط الهادي .. وتضم قارة أستراليا بما حولها من جزر .. وهي منطقة منعزلة عن العالم ، وإن كانت تهم الولايات المتحدة وفرنسا بشكل خاص بما لهما من مصالح وجزر تابعة .. فبالنسبة للولايات المتحدة هناك اتفاقيات بينها وبين الجزر التابعة لها – والتي تتمتع بالحكم الذاتي – تتعلق بعبور الطائرات بمجالها الجوي والسفن الحربية بمياهها الإقليمية وكذلك تخزين الأسلحة النووية في أراضيها في حالات الطوارئ .. واللافت للنظر فيما يخص تلك المنطقة أنه باستثناء أستراليا لا تمتلك أية دولة أو جزيرة أي مرافق نووية ..

وقد كانت – وما زالت – تلك المنطقة النائية من العالم تتمتع بجاذبية فريدة للولايات المتحدة حيث استخدمتها كمنطقة اختبار للأسلحة النووية حتى أنها أجرت في شمال ذلك الإقليم ما بين عامي 1946 و1958 حوالي 66 تجربة نووية ، كما أجرت فرنسا وبريطانيا عشرات التجارب في نفس المناطق .. كما تمتاز المنطقة عن غيرها بقيام الولايات المتحدة بتفريغ النفايات النووية المشعة في المياه المحيطة بتوابعها في المحيط الهادي وخاصة جزر المارشال ، وفي أواخر السبعينات صدرت تقارير حول عمليات دفن النفايات النووية في جزر غير آهلة بالسكان بالمحيط الهادي ..

إلى جانب هذا كله ، ترتبط دول عديدة في تلك المنطقة بعلاقات دفاعية وأحلاف عسكرية مع الولايات المتحدة ، وهو ما يسهل ممارسة النشاطات النووية واختبار الصواريخ الباليستية وعبور السفن الحربية والقاذفات المحملة بأسلحة نووية في مياه وأجواء ومواني دول المنطقة .. ونتيجة لكل ذلك ، جاءت صياغة المعاهدة لتنسفها من أساسها ، حيث تعمد القائمون عليها أن يتفادوا المساس بمصالح الولايات المتحدة الأساسية .. فتم تحديد منطقة التطبيق بحيث لا تتجاوز 12 ميلا من ساحل كل دولة – المياه الإقليمية – على نجو جعل المنطقة أشبه برقع متباعدة داخل المياه ، وبحيث أصبح الحد الخارجي لها صوريا .. ثم تم استبعاد دول ما يطلق عليه إقليم الثقة الأمريكي لجزر المحيط الهادي الواقعة شمال خط الاستواء من الدول المرشحة لعضوية المنطقة وهي جزر مارشال وميكرونيزيا وبالبو ..

كما جاء في أحد بنود المعاهدة أنه " يظل كل طرف إعمالا لحقوقه السيادية حرا في أن يقرر بنفسه ما إذا كان يسمح للسفن والطائرات الأجنبية بالملاحة في مياهه البحرية أو الأرخبيلية الإقليمية " .. كما لم تحظر المعاهدة إجراء اختبارات الصواريخ في المنطقة ، وسمحت بوجود نظم القيادة والاتصال وقواعد الاستخبارات والإنذار الخاصة بالأسلحة النووية في المنطقة ..

وفي النهاية خرجت المعاهدة في شكل أضحوكة سياسية ، ولاقت انتقادات حادة حتى وصفت بأنها منطقة رسوم متحركة Mickey Mouse Zone ..

ومن أعجب ما يمكن ، أن المعاهدة التي أفرغت تماما من مضمونها قد قامت كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا والصين بالتصديق على بروتوكولاتها الثلاثة التي تدعو الدول الخارجية إلى تطبيق الأحكام الرئيسية للمعاهدة وعدم استعمال أو التهديد باستعمال الأسلحة النووية ضد الدول الأعضاء في المعاهدة والامتناع عن اختبار أي جهاز متفجر نووي في المنطقة ..

صدَّقت الدول النووية الأربع ، ورفضت الولايات المتحدة التصديق عليها ! ..

والمنطقة الثالثة الخالية من الأسلحة النووية أقيمت عام 1995 في جنوب شرق أسيا ، وهي معاهدة بانجوك .. وهذه المعاهدة تلاقي صعوبات شديدة في التطبيق ، إذ لا تعترف بها الدول النووية الكبرى ولم تقم بالتصديق عليها حتى الآن ، بسبب اعتراضها على ما جاء في البروتوكول فيما يختص بما يسمى بضمانات الأمن السلبية ..

أما المنطقة الرابعة الخالية من الأسلحة النووية فقد أقيمت في القارة الأفريقية في عام 1996 وعُرفت بمعاهدة بليندابا .. وقد واجهت فكرة إقامة منطقة خالية في أفريقيا تحديات كبيرة منذ طرحت الفكرة في عام 1960 بسبب موقف الدول النووية وعلى رأسها الولايات المتحدة الداعم بشدة لجنوب أفريقيا التي كانت تمتلك أسلحة نووية .. وحتى بعد أن أقيمت المعاهدة عام 1996 ، لم يصدق عليها سوى فرنسا والصين ، بسبب مشكلة أرخبيل شاجوس في المحيط الهندي[96] ، حيث امتنعت الولايات المتحدة وبريطانيا عن التصديق وردت روسيا على ذلك الامتناع بامتناع مماثل .. وقد صدر بيان أمريكي في أعقاب توقيع المعاهدة جاء فيه أنه " لا تنطبق كل من المعاهدة أو البروتوكول الثالث على أنشطة كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في دييجو جارسيا أو أي مكان آخر في أقاليم بريطانيا في المحيط الهندي " ..

ثم هناك منطقة خامسة دعت إليها كازاخستان في وسط آسيا ، وتم التوقيع عليها في ألمآتا عام 1997 ولم تدخل حيز التنفيذ بعد ..

وبعد استعراض ملابسات إنشاء مناطق خالية من الأسلحة النووية ، يمكن القول أن تلك العملية تعترضها عقبات متعددة بشكل مستمر ، فلم تنجح محاولات إقامة مثل تلك المناطق في أقاليم العالم الأخرى كأوروبا أو الشرق الأوسط بسبب الصراعات الإقليمية والمصالح الدولية المتشابكة ..

فعلى سبيل المثال دعت بولندا في عام 1957 والسويد في عام 1984 إلى إنشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في وسط أوروبا ، ودعت فنلندا إلى إنشاء منطقة مماثلة في شمال أوروبا في عام 1963 ، ودعت رومانيا في عام 1972 واليونان في عام 1988 إلى إنشاء منطقة خالية في البلقان ، ودعت بيلاروسيا إلى ذات القضية في عام 1990 في منطقة شرق ووسط أوروبا .. كما دعت كل من مصر وإيران إلى إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط في عام 1974.. ولم يحالف النجاح أيا من تلك الاجتهادات الفردية ..

---

[96] راجع فصل دييجو جارسيا

وما كانت الولايات المتحدة لتوافق على مثل هذا الشطط الجانح إلى السلام .. بل إن الموقف الرسمي للولايات المتحدة – ويماثله موقف بريطانيا – ، قد أُعلن ذات مرة في أثناء انعقاد الدورة العاشرة الاستثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة في عام 1978 المخصصة لنزع السلاح ، حيث أعلنت الدولتان أنه يصعب الموافقة على إنشاء مناطق خالية كمبدأ عام ، وإنما يمكن التعامل معها بمنطق كل حالة على حدا ، وأكدتا أن إقامة مثل تلك المناطق يجب أن يقيد بعبارتي " حيثما كان ذلك مناسبا " و" حيثما كان ذلك ممكنا " ..

أكثر من ذلك ، فإن التناقض الصارخ بين الإصرار الأمريكي على نزع أسلحة كل المارقين ، وتجاهلها لامتلاك عدد من الدول – هي على رأسهم – لجميع أشكال أسلحة الدمار الشامل ، قد تجلى تماما في شهر مايو 1997 حين صدق مجلس الشيوخ الأمريكي على قانون يضطلع بتنفيذ اتفاقية حظر تطوير وإنتاج وتخزين واستخدام الأسلحة الكيميائية وتدميرها و تعرف بالاتفاقية الكيميائية وهي معاهدة دولية صدقت عليها أكثر من مائة دولة .. لكن المجلس الأمريكي أصر على إضافة تعديل قبل التصديق على الاتفاقية ، وينص التعديل على " أن الرئيس يمكن أن يرفض طلبا بالتفتيش على أي مرفق في الولايات المتحدة في الحالات التي يحدد فيها الرئيس أن التفتيش قد يشكل تهديدا لمصالح الأمن القومي للولايات المتحدة " ..[97]

ولا يقل في درجة التناقض حقيقة أن الولايات المتحدة هي أكبر الدول المصدرة للأسلحة المدمرة في العالم وبفارق كبير لصالحها ، ويكفي أن نعلم أن صادرات الولايات المتحدة من الأسلحة في الفترة ما بين 1990 و1998 قد بلغت 133 مليار دولار .. وهو أمر يدعو للدهشة أن تقبض الولايات المتحدة مليارات الدولارات لإرضاء الغرائز التدميرية لدى دول العالم من حولها ، ثم تسعى بكامل قوتها لنزع تلك الأسلحة وكبح جماح الغريزة الشريرة !! ..

* * *

وكأن الدول كالبني آدميين .. منها العاقل ومنها غير العاقل ..

أو كالحيوانات .. منها الأليف المستأنس ومنها الجامح المتوحش ..

يحوز الأليف على الطاقة النووية ، فيستخدمها في إفشاء المحبة والسلام ..

وتقع في يد المتوحش ، فيضرب بها الآخرين ويقضي على مظاهر الحياة في الكون ..

وكأن أمريكا هي الترمومتر النووي ..

تقيس حرارة الدول المالكة للطاقة النووية ، فتعلن سلامة البعض وتعلن مرض البعض الآخر ..

ذلك المرض الذي تؤدي أعراضه إلى الهيجان والركل والرفس وتدمير البشرية ..

تمكنت أمريكا من حصر المرض ومحاصرة المرضى ..

وجاري الخلاص من المرض بالتخلص من المرضى ! ..

---

[97] فعل **صدام حسين** مثل ذلك قبيل اندلاع حرب الخليج الثالثة ولم يسمعه أحد ..

(49)

11 سبتمبر : الله أعلم !

سوف يكون خطأ فادحا ..

إذا ما حاولت إقناع القارئ هنا بأن ما سوف يقرأه في السطور التالية هو بمثابة المعلومات المؤكدة والأدلة القاطعة التي تثبت وجهة نظر بعينها ..

لكن ..

سوف يكون خطأ أكثر فداحة ..

لو تجاهلت رصد ما أثير من تساؤلات وملاحظات حول احتمال وجود خدعة مفزعة فيما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 ..

ربما ..

لن أستطيع ادعاء الحياد في العرض خاصة بعد كل ما كتبته عن جرائم أمريكا في حق عشرات البلدان ..

ومع ذلك ..

فلمن يقرأ مطلق الحرية في السير وراء منطق فكري متسلسل ، أو أن يعتبر كل ما يلي هذه الفقرة ضربا من الخيال المريض ..

وعل كل حال ..

ما قد يبدو الآن خيالا ،

وما قد يشخّص اليوم مرضا ..

أمامه سنوات طويلة قبل أن نتأكد أنه :

خيال لمجانين مرضى ،

أم واقع لمجانين قتلة ..

* * *

في القانون هناك ما يسمى بقرائن الاشتباه ، وعلى ضوئها قد يتم توجيه الاتهام للمشتبه فيه بناء على سابق اتهامه في جريمة مماثلة في وقت سابق .. أي أننا قد نعتقد أن شخصا ما قد ارتكب جريمة ما بسبب تشابه ملابسات وأسلوب تنفيذ تلك الجريمة مع جريمة أخرى سبق وأن اتهم فيها نفس ذلك الشخص ..

وحاليا .. هناك قرائن من ذلك النوع تدين الولايات المتحدة وتجعلها موضع شبهة ومحل اتهام ..

* * *

في عام 1992 عاد الرأي العام الأمريكي من جديد ليتساءل عن أسباب اغتيال الرئيس **كينيدي** بعد عرض فيلم للمخرج الشهير **أوليفر ستون** يلقي الضوء على التناقض الشديد في الصيغة الرسمية لواقعة الاغتيال وتعارضها مع بعض القرائن .. وتحت ضغط الرأي العام أمر الرئيس **كلينتون** برفع سرية عدد من ملفات عهد **كينيدي** ، فتم العثور مصادفة على النسخة الوحيدة الباقية من مشروع قديم باسم " نورث وودز " بين أوراق **روبرت مكنمارا** وزير الدفاع آنذاك ..

كان مشروع نورث وودز هذا خطة أمريكية تهدف إلى إيجاد ذريعة قوية لإعلان الحرب على كوبا المجاورة والقيام بغزوها واحتلالها والخلاص من **فيدل كاسترو** ..

في أبريل 1961 فشلت عملية خليج الخنازير[98] ، وقام **كينيدي** بفصل مدير المخابرات الأمريكية الأشهر **آلان دالاس** ومساعده **شارل كابل** .. كان غضب **كينيدي** راجعا لمحاولة توريط الولايات المتحدة في حرب مفتوحة علنية ضد كوبا قد يكون لها تداعيات بالغة الخطورة ..

ثم قام **كينيدي** بتكوين فريق خاص لإعداد تصور للقضاء على نظام **كاسترو** .. كان فريق العمل يتكون من أخيه **روبرت كينيدي** وزير العدل ، والمستشار العسكري الجنرال **ماكسويل تيلور** ، و مستشار الأمن القومي **ماك جورج باندي** ، ووزير الخارجية **دين راسك** ، ووزير الدفاع **روبرت مكنمارا** ، والمدير الجديد للمخابرات **جون ماكون** ، والجنرال **ليمان لمنتزر** رئيس الأركان المشتركة للقوات ..

حاول هذا الفريق الوصول إلى تخطيط ما لعدد من العمليات السرية على أن يتم دراسة وضع بعضها موضع التنفيذ .. وقبل إحراز أي تقدم احتدم الصراع مع العسكريين الأمريكيين المتطرفين الذين كانوا يستنكرون رفض **كينيدي** للتدخل العسكري في كوبا واعتبروا المدنيين بالمخابرات مسئولين عن فشل التخطيط لعملية الإنزال البحرية في خليج الخنازير ، كما وصفوا الرئيس **كينيدي** بالجبن بسبب رفضه التعزيز بالسلاح الجوي الأمريكي ..

وبسبب إصرار هؤلاء العسكريين على تأديب كوبا بالقوة ، فكروا في ذريعة فعالة تدفع **كينيدي** دفعا إلى التدخل العسكري في كوبا ، وأطلقوا على هذه الخطة اسم " نورث وودز " ، وقد اتضح فيما بعد اشتراك الجنرال **ليمان لمنتزر** رئيس الأركان المشتركة للقوات في هذه الخطة ..

كانت عملية نورث وودز تهدف إلى إقناع المجتمع الدولي بأن **كاسترو** يشكل خطرا جسيما على الغرب .. ولكي يقتنع الجميع بذلك ، كان مقررا تنظيم عمليات تلحق خسائر فادحة بمصالح الولايات المتحدة ، ثم العمل على إلصاق التهم بكوبا .. وهناك قائمة طويلة من تلك العمليات التي تضمنتها خطة نورث وودز ، ومنها ما يلي :

---

[98] سبق الإشارة إليها في فصل كوبا ..

الهجوم على القاعدة العسكرية الأمريكية بجزيرة جوانتانامو[99] على أن يقوم بتنفيذ العملية مجموعة من المرتزقة الكوبيين وهم يرتدون الزي الرسمي لقوات **فيدل كاسترو** ، ويشمل الهجوم تفجير مخزن للذخيرة ينتظر أن يسفر عن خسائر مادية وبشرية جسيمة ..

الهجوم على سفينة أمريكية في المياه الإقليمية الكوبية وإغراقها بطريقة تعيد إلى الأذهان تدمير البارجة ماين عام 1898.. وكان مقررا أن تكون السفينة خاوية ويتم التحكم فيها عن بعد بحيث يتم التفجير على مرأى من ميناء هافانا حتى يتم الحصول على شهود .. وكان مقررا تنظيم عمليات إنقاذ وهمية للتأكيد على مصداقية وقوع خسائر ، إضافة إلى نشر قائمة بأسماء الضحايا – الذين لا وجود لهم – في الصحف وتنظيم جنازات مزيفة ، على أن تُنفذ العملية أثناء وجود بعض السفن والطائرات الكوبية في المنطقة المحيطة حتى يسهل إلصاق التهمة بها ..

إيهام الدول المجاورة لكوبا بأن هجوما كوبيا على وشك الحدوث .. وكان مقررا أن تقوم طائرة كوبية مزيفة ليلا بقصف جمهورية الدومينيكان على أن تكون القذائف المستخدمة صناعة سوفيتية ..

تدمير مركبة فضائية بها رائد فضاء ، وكان مقررا أن يكون رائد الفضاء الأمريكي **جون جلين** أول من قام بدورة كاملة حول الأرض هو الضحية حتى يتم تعبئة الرأي العام العالمي خاصة بعد أن يتم ترتيب توجيه الاتهام للكوبيين ..

أما أهم تلك العمليات في خطة نورث وودز فكانت العملية الآتية التي ينبغي أن ندقق في تفاصيلها إلى أقصى درجة ممكنة : اختلاق حادثة تثبت بطريقة مقنعة قيام طائرة كوبية بمهاجمة طائرة ركاب أمريكية مدنية في الجو وإسقاطها وهي في طريقها من الولايات المتحدة إلى جامايكا أو جواتيمالا أو بنما أو فنزويلا .. وكان مقررا أن يقوم فريق من الركاب المتآمرين – يمكن أن يكونوا طلبة مثلا ولا يركب سواهم في الطائرة – باستقلال رحلة خاصة بشركة طيران مرتبطة بالمخابرات الأمريكية ، وبينما تحلق الطائرة فوق سماء فلوريدا ، تقابلها طائرة خاوية بدون طيار مماثلة لها تماما من حيث الشكل .. أما طائرة الركاب فكان هناك ترتيب بأن تعود إلى قاعدة عسكرية تابعة للمخابرات ، في حين تستكمل الطائرة الخاوية مسارها ظاهريا ، ثم يرسل جهازها اللاسلكي إشارة استغاثة تفيد بأن مقاتلة كوبية قد هاجمتها بشكل مفاجئ ، ثم تنفجر في الجو بعد لحظات من الاستغاثة ..

ورغم المجهود الشديد الذي تم بذله لإعداد الدراسات الخاصة بتلك العمليات السالفة الذكر وغيرها من العمليات المشابهة الأخرى ، فإن وزير الدفاع **مكنمارا** رفض الخطة عندما قدموها له في مارس 1962 .. ثم أصدر الجنرال **لمنتزر** أوامره بتدمير كل أثر لمشروع نورث وودز لخطورته الفائقة ، إلا أن **روبرت مكنمارا** احتفظ لنفسه بنسخة المذكرة التي قُدّمت له ، ليتم كشف حقيقتها بعد أربعين عاما ..

---

[99] تلك الجزيرة الكوبية التي تستولي عليها الولايات المتحدة بالإكراه رغم انتهاء حق استغلال الجزيرة لمدة 99 عاما والذي منحته كوبا للولايات المتحدة في أعقاب الحرب الأمريكية الإسبانية عام 1898 ..

ليست هذه الواقعة دليلا مؤكدا على مسئولية الولايات المتحدة عن أحداث 11 سبتمبر 2001 .. لكن المشروع الذي لم ير النور في عام 1962 يلقي بظلال كثيفة من الشك حول حقيقة ما حدث ..

ومما يزيد من الريبة هو بعض التفاصيل المتعلقة بأحداث ما قبل وما بعد التفجيرات ، والتي قام الكاتب الفرنسي **تيري ميسان** بتسليط الضوء عليها في كتابه المثير للجدل " الخديعة المرعبة " الصادر في فبراير 2002 ، كما قام الألماني **أندرياس فون بولوف** – وهو مدير سابق للمخابرات الألمانية – بجهد مماثل في كتابه " المخابرات الأمريكية والحادي عشر من سبتمبر " الذي صدر في يونيو 2003 ، إضافة إلى مجهودات مخرج الأفلام التسجيلية الأمريكي الشهير **مايكل مور** في فيلمه التسجيلي فهرنهايت 11 سبتمبر وكتابه الذي صدر في 2003 " أين هي بلادي Dude, where's my country " ، وكتاب الفرنسي **إريك لوران** " حرب آل **بوش** " الذي صدر في عام 2003 ، وأخيرا كتاب الأمريكي **ديفيد راي جريفين** " بيرل هابور الجديدة The New Pearl Harbor " الذي صدر في عام 2004 ..

وفيما تبقى من الفصل نعرض ما قدموه من ملاحظات وأدلة ..

والله أعلم !! ..

* * *

تتعرض الرواية الأمريكية الرسمية للأحداث ، فتشرحها كما يلي :

أقلعت الطائرة الأولى بوينج 767 رحلة رقم 11 من مطار بوسطن شمال الساحل الشرقي للولايات المتحدة في الساعة 7:45 صباحا متوجهة إلى لوس أنجلوس في أقصى جنوب الساحل الغربي .. وبعد دقائق قام خمسة إرهابيين مسلمين باختطاف الطائرة بواسطة سكاكين ، ونجحوا في تحويل المسار إلى نيويورك جنوب بوسطن على الساحل الشرقي ، وهناك اصطدمت بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في الساعة 8:45 صباحا ، فأصابت الطوابق ما بين 94 إلى 98 ، وهو ما أدى إلى اشتعال النار بها وانهيار البرج تماما في الساعة 10:28 صباحا .. ولم تجد السلطات الأمريكية الصندوق الأسود للطائرة بين الأنقاض ، بينما نجحت في العثور على جواز سفر الإرهابي **محمد عطا** سليما وسط حطام البرج المشتعل ..

أقلعت الطائرة الثانية بوينج 767 رحلة رقم 175 من مطار بوسطن في الساعة 7:58 صباحا متوجهة أيضا إلى لوس أنجلوس .. ليقوم خمسة من الإرهابيين المسلمين باختطاف الطائرة بواسطة السكاكين محولين المسار إلى نفس الوجهة في نيويورك ، لتصطدم الطائرة بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي في الساعة 9:05 ، وترتطم بالطوابق ما بين 78 إلى 84 وتشعل النار بها ، لينهار البرج بالكامل في الساعة 9:56 ، ولم تفلح السلطات في العثور على الصندوق الأسود للطائرة ..

أقلعت الطائرة الثالثة بوينج 757 رحلة رقم 77 من مطار دالاس بواشنطن العاصمة في الشمال الشرقي في الساعة 8:10 متوجهة إلى لوس أنجلوس .. وبواسطة نفس تلك السكاكين قام خمسة إرهابيين مسلمين

باختطاف الطائرة ، وعكسوا المسار عائدين إلى واشنطن ، وهناك هبطت الطائرة لمستوى الأرض ثم اصطدمت بإحدى واجهات البنتاجون في الساعة 9:39 ..

أما الطائرة الرابعة بوينج 757 رحلة رقم 93 ، فقد أقلعت من مطار نيوآرك في نيوجرسي في الساعة 8:01 صباحا متوجهة إلى سان فرانسيسكو على الساحل الغربي ، وقام أربعة إرهابيين مسلمين باختطاف الطائرة بواسطة السكاكين إياها ، وغيروا مسارها ، لتقوم بعد ذلك معركة بين المختطفين والركاب الذين سمعوا عن أحداث البرجين إثر مكالمات تليفونية ، وسقطت الطائرة على إثرها فوق بنسلفانيا ، وفي هذه المرة وجدت السلطات الصندوق الأسود ..

كانت هذه هي ملخص البيانات الرسمية المتعلقة بحوادث اختطاف الطائرات الأربع في الأجواء الأمريكية .

لكن هناك مَن دقق في هذه المعلومات وخرج باستنتاجات وملاحظات ينبغي ألا نغفلها ..

* * *

بعدما ضربت الطائرة الأولى برج التجارة العالمي ، سارعت القنوات الإخبارية بتثبيت كاميرات للبث الحي من فوق البنايات المحيطة بالبرج الذي لم يكن قد انهار بعد ، وذلك لتصوير مشاهد الحريق الضخم ..

وعندما ضربت الطائرة الثانية البرج المجاور شاهدها العالم أجمع على الهواء مباشرة وهي تدخل في جسم المبنى بسرعة مخيفة ، وهنا تأكد للعالم أجمع أن الانفجار الأول لم يكن حادثا عارضا ، وإنما هو تدبير شيطاني مستحيل التصور .. وبعد 13 ساعة من وقوع انفجارات برجي التجارة ، انفردت وكالة جاما الإخبارية ببث مشاهد قام الأخوان **جول** و**جيديون نوديه** بالتقاطها بالصدفة للطائرة الأولى وهي تقتحم البرج الأول ، ثم ظل الأخوان في موقع الحادث يصوران طوال اليوم حتى قدماه لوكالة جاما ..

ما معنى ذلك ؟ .. المعنى أن جميع سكان الكرة الأرضية قد شاهدوا الطائرة الثانية وهي تضرب البرج الثاني ، قبل أن يشاهدوا الطائرة الأولى وهي تضرب البرج الأول ..

لكن شخصا واحدا فقط شاهد الأحداث بترتيبها الحقيقي الذي سارت الأمور وفقه ..

كان هذا الشخص هو الرئيس الأمريكي **جورج بوش !** ..

كيف تم التوصل إلى ذلك الاستنتاج العجيب ؟ ..

في لقاء عقده الرئيس **بوش** في مدينة أورلاندو في يوم 4 ديسمبر 2001 ، قام أحد الشباب بتوجيه السؤال التالي للرئيس : سيدي الرئيس ، أود أولا أن أقول لكم أنه لا يمكنكم تصور مقدار ما فعلتموه لبلادنا .. ثانيا أود أن أطرح عليكم السؤال التالي : كيف كان شعوركم عندما علمتم بالهجوم الإرهابي ؟

فأجاب **بوش** قائلا : شكرا يا **جوردان** .. لا يمكنك أن تتخيل كيف كان حالي عقب علمي بالهجوم الإرهابي .. كنت في فلوريدا أنا و**أندي كارد** ، سكرتيري العام .. كنت في الواقع داخل إحدى قاعات الدرس للتحدث عن برنامج تعليمي للقراءة الفعالة .. وبينما كنت جالسا خارج قاعة الدرس أنتظر الدخول شاهدت على شاشة التليفزيون – الذي كان مفتوحا بالطبع – طائرة ترتطم بالبرج .. ولأنني طيار سابق فقد قلت باله من

طيار مفزع ، ولابد أن الأمر عبارة عن حادث مروع .. ثم استدعوني عندئذ لدخول الفصل ، ولم أتمكن من التفكير فيما حدث .. وبينما كنت جالسا في القاعة ، دخل **أندي كارد** سكرتيري العام الذي تراه جالسا هناك ، ليقول لي : " اصطدمت طائرة ثانية بالبرج .. إن أمريكا تتعرض لهجوم " .. في الواقع يا **جوردان** لم أعرف في البداية كيف أفكر ، فأنت تعلم أنني عشت في عهد لم يكن ليجول بخاطري فيه أبدا أن تتعرض أمريكا لهجوم .. وربما كان والداك يفكران مثلي أيضا .. وفي تلك اللحظات القليلة أخذت أفكر بعمق في مغزى تعرُّض الولايات المتحدة للهجوم .. وكنت أعلم أنه حينما تتوفر لدى كل الحقائق مؤكّدة تعرُّضنا للاعتداء سيكون الثمن هو الجحيم لمَن سولت له نفسه التهجم على أمريكا ..

وهنا علت القاعة بالتصفيق الحاد ..

إذاً .. لقد اعترف الرئيس بوش بقدراته الذهنية المعهودة عنه أنه شاهد الطائرة الأولى تضرب البرج قبل أن يدخل إلى تلاميذ المدرسة الابتدائية في القاعة المخصصة للقائه بهم ، ثم جاءه سكرتيره بعد دقائق ليخبره بنبأ الهجوم الثاني حسب ما قال في أورلاندو ..

ويخلص البعض من ذلك إلى أن أجهزة أمريكية رسمية كانت تصور الهجوم الأول أثناء حدوثه ، وهو ما يعني معرفتها به قبل حدوثه ..

والله أعلم !! ..

* * *

كانت وكالة رويترز الإخبارية أول من وصل إلى مبنى البنتاجون بعد دقائق لتغطية حادث الانفجار الذي وقع هناك في صباح يوم 11 سبتمبر .. وأعلنت من هناك على الفور أن أحد مباني البنتاجون قد تعرض لانهيار جزئي من جراء انفجار طائرة مروحية .. ولكن قامت وزارة الدفاع الأمريكية بتصحيح المعلومة بعد دقائق ذاكرة أن الطائرة لم تكن مروحية ، بل كانت طائرة ركاب ..

ويتعجب البعض من تفاصيل هذا الارتطام بمبنى وزارة الدفاع .. فلكي تلحق طائرة بوينج خسائر ذات قيمة بمبنى البنتاجون ، كان عليها أن تصطدم بسقف هذا المبنى كأنها صاروخ موجه يهوي من السماء دون الحاجة إلى أية مناورة من أي نوع ، وهذا هو أذكى وأسهل الحلول لأن البنتاجون – كما هو واضح من اسمه – مبني على شكل خمسة أضلاع متوازية على مساحة ضخمة تقترب من 28 فدانا ، أي أنه مبنى منخفض الارتفاع صعب المنال بشكل أفقي على عكس أبراج نيويورك ، فهو لا يرتفع عن الأرض سوى خمسة طوابق ، لكن اتساعه يتمثل في كبر المساحة الأفقية .. لكن الإرهابيين قرروا ضرب واجهة لا يزيد ارتفاعها عن 24 مترا وكان هذا الجزء بالذات من المبنى خاضعا للترميم بغرض إعداد وتجديد مركز قيادة القوات البحرية ، لذا كانت أغلب المكاتب – دونا عن بقية مواقع البنتاجون – شاغرة من موظفيها ..

لكن الدهشة التي تعتري البعض تصل إلى ذروتها عندما يعود هؤلاء البعض إلى تأمل الطريقة التي جرى بها الاصطدام والنتائج التي أسفرت – أو بالأحرى – لم تسفر عنه ..

فلكي تضرب طائرة الركاب المدنية ذلك الموضع الذي تم تدميره بالفعل وبالطريقة التي جرى تنفيذها ، كان عليها أن تقترب من الأرض كما لو كانت ستهبط بالشكل المعتاد ، بحيث تحتفظ بوضعها الأفقي أثناء النزول بطريقة رأسية دون أن تلحق أية خسائر بعواميد النور على جانبي الطريق السريع الملاصق لموقف السيارات التابع للبنتاجون ، بل ودون أن تلمس خطوط التليفون المواجهة للمبنى .. والأغرب من ذلك أنه من المعروف أن الطائرة عندما تنخفض متخذة وضعية النزول ، فإن مجموعة تجهيزات الهبوط تخرج تلقائيا من أسفل الطائرة جاعلة ارتفاع الطائرة البوينج نحو 13 مترا ، أي ما يعادل ارتفاع ثلاثة طوابق من مبنى البنتاجون ، ومع ذلك فإن الطائرة لم تصطدم بواجهة المبنى إلا على ارتفاع الطابق الأرضي والأول فقط محدثة فجوة في المبنى لا تتناسب مع أبعاد الطائرة البوينج ، وبعد نصف ساعة انهارت الطوابق العليا .. وبالتالي فإن مجموعة تجهيزات الهبوط لابد وأن تكون قد انخلعت وسقطت على الأرض قبل الدخول في مبنى البنتاجون ، وهو ما يحير البعض ، إذ أن الطائرة التي نزلت إلى الأرض وزحفت على بطنها لترتطم بالطابقين الأرضي والأول ، لابد وأن تلحق بعض الضرر بالحديقة المحيطة بالمبنى أو بموقف السيارات ، بل إن جناحي الطائرة لم يصطدما بواجهة المبنى وهي مسألة محيرة حقا ، فطائرة عملاقة بحجم بوينج تهبط من السماء في سرعة مخيفة وتدخل برأسها في أحد مباني الضلع الأول من أضلاع البنتاجون الخمسة وتتوقف في دقة شديدة قبل اصطدام جناحيها بالمبنى ، ومع كل ذلك فإن الصورة الملتقطة بعد دقائق من الحادث تحمل لنا مفاجأة مذهلة .. فالطائرة التي قيل أنها اصطدمت بمبنى البنتاجون لا أثر لها في الصورة بالمرة ولا يمكن أن يتسبب الحريق والأدخنة المتصاعدة في تلاشي جسم الجريمة ، ألا وهو حطام الطائرة ذات نفسها !! ..

ومما يؤكد على وجود خلل ما أن كاميرات أجهزة المراقبة في موقف سيارات البنتاجون لم ترصد أية طائرة في أية لحظة ومن أية زاوية ..

ويفسر البعض عدم وجود الطائرة في الصورة الرئيسية الملتقطة بعد دقائق من وقوع الانفجار ، أن عدم وجود الطائرة يعني عدم وجود جريمة ، أي أن الحادث بالكامل عبارة عن خدعة رهيبة ملفقة ..

والله أعلم !! ..

* * *

في عصر يوم 11 سبتمبر تم وضع تصور لسيناريو الهجوم ، وظهرت التصريحات الإعلامية والرسمية تؤكد قيام إسلاميين متعصبين ينتمون لتنظيم **أسامة بن لادن** بتنفيذ الهجوم .. وفي اليوم التالي توصلت المباحث الفيدرالية إلى أن 19 إرهابيا قد قسموا أنفسهم إلى أربع مجموعات تتألف كل منها من خمسة إرهابيين قاموا باختطاف الطائرات باستخدام سكاكين معدنية بغرض استعمالها في شن هجمات انتحارية ضد أهداف أمريكية حيوية .. وفي 14 سبتمبر نشرت المباحث الفيدرالية قائمة بأسماء الإرهابيين الـ 19 ..

لكن البعض أبدى تحفظه على ذلك السيناريو لأكثر من سبب :

عدم معقولية سيطرة خمسة إرهابيين على طيار ومساعده وطاقم ضيافة وقرابة المائة راكب باستخدام سكاكين ..

عدم معقولية أن يدخل اثنان من المختطفين داخل كابينة الطائرة ولأول مرة في حياتهما – أو حتى بعد تلقي دروس في الطيران – ليعمل أحدهما طيارا والآخر مساعده ويقودا الطائرة بمنتهى الدقة والإتقان ، ويظل ثلاثة من المختطفين يسيطرون على الطائرة بسكاكينهم المتواضعة .. ثم يقوم قائدا الطائرة بخفض ارتفاعها قبيل الوصول إلى نيويورك ليتسنى لهما رؤية واجهة الأبراج حتى يمكن إصابتهما ، مع الأخذ في الحسبان أن عرض البرج يبلغ 63.7 متر وعرض الطائرة البوينج يبلغ 47.6 متر ، وهو ما يعني أن لو أحد الطائرتين قد انحرفت عن موضعها بمقدار 55.65 متر فقط لما أصابت الهدف ، وهي مسافة لا يستغرق قطعها بمتوسط سرعة 700 كم في الساعة سوى ثلاثة أعشار الثانية !! .. وقد أكد طيارون محترفون الصعوبة البالغة لتنفيذ مثل تلك العملية واستحالة قيام طيارين هواه بأدائها ، وألمح البعض الآخر إلى أن الاعتماد على إشارات تنبعث من هدف معين سيجذب إليه الطائرة إذا كانت تسير آليا بدون تدخل بشري .. وهناك تقديرات تشير إلى أنه قد تم تركيب أجهزة كومبيوتر للقيادة مزودة بنظام توجيه عن بعد في أكثر من 600 طائرة أمريكية ، كما أن هناك مصلحة مدنية تابعة للبنتاجون قامت بتطوير تكنولوجيا التحكم عن بعد بحيث يمكن سماع المحادثات في كابينة القيادة بالطائرة وسلب قيادة الطائرة من الطيارين ، ووصل التقدم في هذا المجال إلى حد إمكانية السيطرة والتوجيه لأربع طائرات في وقت واحد ..

عدم معقولية أن تطير أربع طائرات خارج مساراتها لمدة ساعة تقريبا لكل طائرة ، وبالذات تلك الطائرة التي توجهت إلى البنتاجون دون أن تتصدى لها القوات الجوية الأمريكية .. علما بأن كل رحلة لها في المعتاد خط سير في ممر جوي تحدده المحطات الأرضية ومجال عرضه نحو عشرة أميال ، وإذا خرجت الطائرة عنه ، لا يمر أكثر من خمس ثوان حتى يأتيها تنبيه من المحطة الأرضية ، وإذا تكرر الخروج عن المجال يأتيها إنذار بدفع مخالفة ، أما إذا تكرر مرة ثالثة ، فللقوات الجوية الحق في التعامل مع الطائرة بما تراه مناسبا ، بما في ذلك إسقاط الطائرة .. والأهم من ذلك أن البنتاجون يمتلك شاشات رادار في طوابقه الأرضية ترصد حركة الطيران ، وإذا ما انحرفت أية طائرة خطوط طيران تجارية عن مسارها داخل دائرة نصف قطرها 500 كم حول واشنطن دون أن تستجيب للحديث مع المحطة الأرضية لتأمين الطيران ، فإن طائرة مقاتلة بسرعة الصوت يُفترض أن تقلع فورا من قاعدة أندريوس ، لتقوم بإسقاط الطائرة المريبة دون نقاش .. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن إعطاء إشارة خطف طائرة هو أمر سهل للغاية لا يستغرق من طاقم الطائرة سوى استخدام الشفرة الرقمية المكونة من أربعة أرقام (7700) على جهاز اللاسلكي أو بواسطة جهاز إرسال المعلومات الأوتوماتيكي المتصل بمحطة التحكم الأرضية ، ويبدو من العسير تصور نجاح القراصنة في جميع الطائرات المخطوفة في السيطرة على الكابتن ومساعده والطاقم المعاون دون أن يتمكن واحد منهم في أية طائرة من الضغط على أربعة أرقام تشير إلى اختطاف الطائرة .. وإلى جانب كل

ذلك ، فإن هناك مناطق بعينها في كل دولة من دول العالم تعتبر مناطق محظور التحليق فوقها لأي سبب من الأسباب ، وهذه المناطق عادة ما تكون ذات أهمية خاصة مثل مقر الرئاسة أو مبنى وزارة الدفاع أو المنشآت النووية الهامة ..

صعوبة تصديق أن يتحطم الصندوقان الأسودان الخاصان بطائرتي نيويورك مع ملاحظة أن الصندوق الأسود مصنوع من مادة تتحمل أصعب الظروف ، في حين ينجو جواز سفر **محمد عطا** منفذ الهجوم ولا يحترق ، بينما تحترق جميع جوازات سفر الركاب الآخرين .. هذا مع وجود حقيقة علمية تقول أن الصندوق الأسود لا يتحطم ولا يحترق إلا في درجات حرارة تفوق الـ 1500 درجة مئوية ، علما بأن الكيروسين الذي يملأ خزانات وقود الطائرات لا تتعدى درجة حرارته 375 درجة مئوية عند احتراقه وأن الصلب الذي يتكون منه مبنى التجارة العالمي ينصهر عند 1300 درجة مئوية ، ثم إن هناك لغز في كيفية انهيار البرج الجنوبي قبل البرج الشمالي رغم أن الشمالي قد ضرب أولا وإذا كان الانهيار بفعل الحريق والانصهار ، فكان ينبغي أن يسقط البرج الذي ضرب أولا .. أضف إلى ذلك عدم وجود ما يبرر سقوط المبنى رقم 7 المجاور للبرجين ..

وجود لغز ما فيما يتعلق بعدد ضحايا برجي نيويورك ، فقد صدر البيان الرسمي يوم 9 فبراير 2002 ذاكرا أن إجمالي عدد ضحايا نيويورك قد بلغ 2843 قتيلا بما فيهم ركاب وأفراد طاقمي الطائرتين البوينج ورجال الشرطة والإطفاء الذين لقوا حتفهم تحت الأنقاض خلال عمليات الإنقاذ .. وتعتبر هذه النتائج أقل كثيرا من التقديرات الأولية لأعداد الضحايا ، وهو ما يشير إلى أن تفجير البرجين لم يهدف إلى التسبب في خسائر بشرية كبيرة بقدر ما كان يهدف إلى إحداث أثر نفسي .. وقد كشفت صحيفة ها آرتس الإسرائيلية عن تلقي شركة أوديجو رسائل تحذير مجهولة المصدر تحذر من وقوع الهجمات قبل ساعتين من حدوثها ، وهناك أكثر من جهة أخرى تلقت مثل ذلك التحذير ..

قيام المباحث الفيدرالية بنشر ترجمة إنجليزية لوثيقة مكتوبة بخط اليد باللغة العربية تتحدث عن العمليات الإرهابية ، وقد صرحت المباحث أنها عثرت على ثلاث نسخ من الوثيقة ، واحدة في حقيبة سفر لـ **محمد عطا** كان قد فقدها أثناء الرحلة ، والثانية عثر عليها في سيارة كان قد تركها أحد الإرهابيين **نواف الحازمي** في مطار دالاس ، والثالثة عثر عليها وسط حطام الطائرة التي انفجرت فوق ولاية بنسلفانيا .. ويشكك البعض في صحة هذه الوثيقة ، إذ تبدأ بعبارة تقول " بسم الله وباسمي وباسم عائلتي " ، وهي افتتاحية غير مألوفة على الإطلاق بين كتابات جميع طوائف المسلمين ، فلا يستهل المسلم كتاباته بالدعاء باسمه وباسم عائلته .. ثم إن إحدى عبارات النص تتضمن تعبيرا لغويا أمريكيا لا شأن له بطبيعة اللغة العربية أو منطق مثل هؤلاء الإرهابيين وتقول العبارة " عليك بمواجهته وفهمه بنسبة 100 % " ..

ظهور الآدلة الأمريكية التي تفيد بأن منفذي الهجمات كانوا بين المتدربين في مدارس الطيران الأمريكية في الأشهر السابقة على ارتكاب الجريمة .. وقد اتضح أن معظم هؤلاء المتدربين قد لفتوا أنظار المعلمين

في مدارس الطيران بسبب ضعف مستواهم ، فعلى سبيل المثال **هاني هانجور** الذي قيل أنه اصطدم بمبنى البنتاجون لم تكن لديه القدرة على اجتياز امتحان الطيران ، فقد قام منذ منتصف أغسطس 2001 في مطار ماريلاند بثلاث محاولات للحصول على تصريح بقيادة إحدى الطائرات التابعة لهذا المطار ، إلا أن محاولاته قوبلت بالرفض ، وأكد **مارسيل برنارد** رئيس مدرسة الطيران التابعة لهذا المطار أن **هاني هانجور** قام بصحبة مدرسي الطيران بثلاث طلعات جوية في النصف الثاني من أغسطس بطائرة من طراز سيسنا 172 ، لكن معلمه أكد أنه ما زال عاجزا عن الطيران بمفرده لذا لم تعطه المدرسة شهادة نهائية تسمح له بتأجير طائرة كما كان يتمنى ، وهو ما يؤكد عمليا استحالة أن يتمكن مثل ذلك المبتدئ من القيام بعملية البنتاجون التي تحتاج إلى مهارة وتحكم فائقين .. وكذلك **محمد عطا** الذي اتهم بكونه أحد العقول المدبرة لعمليات التفجير ، فقد أوضح معلمو الطيران أنهم لم يصرحوا له أبدا بقيادة طائرة من طراز سيسنا لقلة ثقتهم في قدراته .. وقد صرح أحد مدرسي مدرسة جونز أن **محمد عطا** و**مروان الشيحي** قد جاءا لتسجيل اسميهما لديه في سبتمبر أو أكتوبر 2000 ، ووصف **عطا** بأن درجة انتباهه كانت محدودة جدا ، ولم يستطع أحد منهما اجتياز اختبار القبول الذي يسمى باختبار التعقب والإيقاف ، وبعد أن تم إخبارهما بالرسوب ، انصرفا في هدوء ولم يطردهما أحد من المدرسة ، لكنهما عجزا عن تحقيق الحد الأدنى من متطلبات الاستمرار لتلقي الدروس .. وأشارت صحيفة واشنطن بوست أن **نواف الحمزي** و**خالد المدحار** قد التحقا بمدرسة طيران محلية في سان دييجو بولاية كاليفورنيا لفترة محدودة ، لكنهما لم يكملا الدورة التدريبية بسبب ضعفهما الملحوظ باللغة الإنجليزية وهو ما يحول دون استيعاب الدروس ، كما أنهما عجزا بعد ذلك عن أداء اختبارات القبول .. وقد قاما بزيارة لمطار مونتجومري فيلد لتلقي دروس في الطيران وتحدثا مع المعلمين بنادي طيران سوربيز وتلقيا ساعتين من الدروس رأي المعلمون بعدها أنها كافيتين لإنهاء أية محاولة لتعلم الطيران ، وبرر أحد المعلمين ذلك قائلا : " إن لغتهما الإنجليزية مخيفة ، وقدراتهما الفنية أكثر من سيئة ، وأعطيا انطباعا وكأنهما لا يستطيعان قيادة سيارة أجرة ، وكانا بالنسبة لي لطيفين جدا ، ولكن في الطيران أغبياء " ..

إعلان قائمة الإرهابيين الـ 19 الذين كانوا على متن الرحلات الأربع بعد أقل من ثلاثة أيام من وقوع التفجيرات وكأن القائمة معدة سلفا ، وهو ما أثار ارتياب البعض من سرعة تحديد أسماء منفذي العمليات .. وتزايدت درجات الارتياب بعد أن أكدت سفارة السعودية بواشنطن أن أربعة من الإرهابيين المسجلين في القائمة على قيد الحياة ويقيمون بالسعودية وهم : **عبد العزيز العمري** و**مهند الشحري** و**سالم الحمزي** و**سعيد الغامدي** ، كما أجرت صحيفة القدس العربي التي تصدر في لندن باللغة العربية حوارا صحفيا مع أحد الأسماء وهو **وليد الشحري** الذي يقيم في الدار البيضاء ويعمل طيارا لدى شركة الخطوط الملكية المغربية ..

ثم تبين من بحث قام به عدد من الصحفيين الإنجليز أن سبعة من التسعة عشر المتهمين بتنفيذ العملية ما زالوا أحياء .. كما اتضح من تحقيق لإذاعة الـ بي بي سي أن أحد الإرهابيين ويدعى **خالد المدحار** وهو سعودي الجنسية كذلك قد توفي بالفعل قبل أحداث 11 سبتمبر !! ..

أما أهم ما يثبت فبركة القائمة الإرهابية فهو العودة إلى قوائم الركاب المسافرين على الرحلات المنكوبة .. فشبكة الـ سي إن إن كانت قد نشرت يوم الهجمات قوائم بأسماء المسافرين وأطقم الطائرات ، ولم يكن هناك أي وجود لاسم عربي أو احتمال أن يكون عربيا في أية قائمة تخص أيا من الطائرات الأربع ..

وبفرض أن منفذي الاعتداءات قد تسللوا إلى الطائرات بأسماء مزورة من جنسيات أخرى باستعمال بطاقات مزيفة ، فإن ذلك سيخلق فرضا من اثنين : إما أن الأشخاص الذين تم انتحال أسمائهم ما زالوا على قيد الحياة وبالتالي كانوا سيسارعون إلى إبلاغ الجهات الأمنية بواقعة التزوير وبأنهم لم يموتوا في الحادث ، وإما أن الأسماء وهمية وفي هذه الحالة كانت التحقيقات ستكتشف الاختلاق بالكشف التقليدي عن المعلومات الخاصة بكل ضحية على متن الطائرات المخطوفة ..

وبالرجوع إلى البيانات التي أصدرتها شركات الطيران يوم 11 سبتمبر – حسب ما أذاعتها وكالة الأسوشييتدبرس – سوف نجد أن الرحلة رقم 11 (طائرة نيويورك الأولى) كانت تقل 81 مسافرا ، وأن الرحلة رقم 175 (طائرة نيويورك الثانية) كانت تقل 46 مسافرا ، وأن الرحلة رقم 77 (طائرة البنتاجون) كانت تقل 58 مسافرا ، وأن الرحلة رقم 93 (طائرة بنسلفانيا) كانت تقل 38 مسافرا ..

وبالعودة إلى قوائم الضحايا التي نشرتها شركات الطيران يوم 13 سبتمبر سوف تعتري البعض الدهشة لسببين اثنين : أولا : خلو القوائم من أسماء خاطفي الطائرات .. وثانيا : وجود 78 ضحية في قائمة طائرة نيويورك الأولى ، ووجود 46 ضحية في قائمة طائرة نيويورك الثانية ، ووجود 36 ضحية في قائمة طائرة بنسلفانيا .. وبالتدقيق في الفقرة السابقة ، سوف يعني ذلك أنه بفرض إسقاط أسماء المختطفين لأسباب مجهولة من قوائم الضحايا المنشورة يوم 13 سبتمبر ، فإن طائرة نيويورك الأولى لم تكن تتسع إلا لثلاثة إرهابيين ، والطائرة الثانية لم يكن عليها مكان واحد لأي إرهابي ، وطائرة بنسلفانيا كانت تتسع لإرهابيين اثنين فقط ..

ويستنتج البعض من عدم وجود أسماء المختطفين في قوائم الركاب أو قوائم الضحايا وعدم تناسب الأعداد المعلنة للركاب مع فكرة وجود إرهابيين يمثل ركوبهم الطائرات زيادة غير واردة على قوائم المسافرين ، يستنتج البعض من كل ذلك أن هؤلاء الإرهابيين الـ 19 لا وجود لهم من الأساس ..

والله أعلم !! ..

* * *

انتهت الأحداث ، وبدأ الاستعداد للحرب ، لتظهر مفارقات أخرى نجح البعض في رصدها ..
أثناء إدلائه بأقواله في مجلس النواب ، وقف **بروس هوفمان** نائب رئيس راند كوربوريشن – أحد أكبر المراكز الأمريكية للأبحاث العسكرية والاستراتيجية – يقول : " لقد كانت الاعتداءات بعيدة عن كل تخيل " .. لكن أغرب ما في الأمر أن **بروس هوفمان** نفسه كان قد ألقى محاضرة منشورة في مارس 2001 بأكاديمية القوات الجوية الأمريكية ذاكرا فيها : " نحن نحاول إعداد أسلحتنا ضد تنظيم القاعدة الحركة المرتبطة بـ **أسامة بن لادن** .. فلتفكروا للحظة ماذا حدث عندما انفجرت قنبلة داخل مركز التجارة العالمي في عام 1993[100] ، الآن يمكنكم تصور احتمال إسقاط البرج الشمالي على البرج الجنوبي مما قد يسفر عن مصرع ستين ألف شخص .. وسيجدون أسلحة أخرى وتكتيكات أخرى ووسائل أخرى لبلوغ أهدافهم .. إن لديهم خيارات جلية من الأسلحة ، ومن بينها طائرات دون طيار " !! ..
وفي منتصف شهر يوليو 2001 شارك وفد أمريكي في مفاوضات برلين متعددة الأطراف بشأن مستقبل أفغانستان .. ومع نهاية المؤتمر وتيقن الجميع من فشل المحادثات ، وجّه الوفد الأمريكي – وكان برئاسة سفير الولايات المتحدة السابق في باكستان **توم سيمونس** وعضوية مساعد وزير الخارجية السابق **كارل إندرفورث** والخبير السابق في وزارة الخارجية **لي كولدرن** – إنذارا غامضا بحدوث أمر خطير .. وطبقا لما ذكره **نياز نايك** سفير باكستان في باريس والذي كان مشاركا في المفاوضات ، فإن الوفد الأمريكي أعلن أمامه بوضوح وبشكل لا يحتمل اللبس أن الولايات المتحدة سوف تقوم بغزو أفغانستان في منتصف أكتوبر[101] وسوف تقوم بالإطاحة بنظام طالبان .. كما اتضح بعد ذلك أن الولايات المتحدة كانت قد أطلعت كلا من حكومة الهند وحكومة باكستان على رغبتها في التدخل العسكري في أفغانستان في وقت سابق على أحداث سبتمبر ..

وفي التاسع من سبتمبر وقبل يومين من أحداث التفجيرات جري اغتيال القائد الأفغاني **أحمد شاه مسعود** أحد أشد معارضي الولايات المتحدة في المنطقة ، وظل خبر وفاته سرا حتى تمت إذاعته بعد 11 سبتمبر ومن المرجح وفقا لتصريحات الشهود التي حصلت عليها الصحفية الفرنسية **فرانسواز كوس** بعد اغتياله مباشرة أن المخابرات الباكستانية هي التي قامت بالعملية .. وربما يتمهل البعض أمام العلاقة الحميمة التي تجمع المخابرات الباكستانية بالمخابرات الأمريكية ، إضافة إلى النفع العائد على الولايات المتحدة من إزاحة قائد معارض مثل **مسعود** قبيل الهجوم الأمريكي على أفغانستان .. لذا لجأ هؤلاء البعض إلى طرح هذا التساؤل : إذا كانت الولايات المتحدة تخطط لغزو أفغانستان ، فكيف بحق السماء تحققت هذه المصادفة العجيبة بأن تجد الولايات المتحدة سببا وجيها جدا للهجوم على أفغانستان تدعيما لما خططت له وأعلنت عنه للبعض في يوليو 2001 ، وبعد يومين اثنين من اتخاذ خطوة على طريق الاستعداد للغزو تمثلت في

---

[100] تم الانفجار بواسطة سيارة ملغومة أسفل البرج الأول .. وتم التنفيذ بواسطة مجموعة من الإرهابيين بقيادة رمزي يوسف ، وأسفر الحادث عن مصرع ستة أشخاص ..
[101] الغزو الفعلي بدأ في السابع من أكتوبر !! ..

اغتيال **مسعود** تمهيدا لاستبعاد بقية قادة الفصائل الأفغانية واستبدالهم بحكومة دمية تحقق لها مصالحها الخاصة في المنطقة ؟؟

مصالح الولايات المتحدة الخاصة في المنطقة ..

إنها نفس تلك المصالح في معظم المناطق الأخرى .. إنه البترول كالعادة .. البترول المدفون في بحر قزوين القريب من أفغانستان وما حولها..[102]

فعندما رُشح **جورج بوش** الابن لتولي رئاسة الولايات المتحدة قام باختيار برجاله – أو للإنصاف قاموا هم باختياره – من بين كبار العاملين وأصحاب النفوذ في مجال البترول .. فـ **ديك تشيني** نائب الرئيس كان يرأس شركة هاليبورتن أكبر مورد للمعدات البترولية في العالم ، و**كونداليزا رايس** مستشارة الأمن القومي مديرة سابقة وصاحبة أسهم في شركة شيفرون تكساكو ، و**جيل نورتن** وزير الداخلية كان يمثل مصالح شركة بي بي أموكو ثالث أكبر مجموعة بترولية في العالم .. وقد قام **تشيني** بتشكيل ما يسمى بفريق تنمية سياسة الطاقة القومية ، وكان أحد أبرز أهدافه هو استغلال موارد الطاقة في بحر قزوين وبحث كيفية نقل البترول والغاز الطبيعي من هناك دون اللجوء إلى روسيا أو إيران .. وكان هناك وقتها مشروعان على وشك التنفيذ ، أحدهما يصل بين بحر قزوين والبحر الأسود ، لكنه يمر بروسيا التي تقوم بتحصيل رسوم مقابل مرور خط الأنابيب عبر أراضيها وقد تم تدشينه في 27 نوفمبر 2001 .. والثاني يربط بين بحر قزوين والبحر المتوسط بدءا بأذربيجان ومرورا بجورجيا وانتهاء بتركيا وهو المشروع المسمى " BTC " إشارة إلى الحروف الأولى من باكو عاصمة أذربيجان ، وتبليسي عاصمة جورجيا وسيهان الميناء التركي .. أما المشروع الثالث وهو الأهم والأكثر جدوى فهو يربط بحر قزوين بالمحيط الهندي ، وكانت هناك عقبة تعترض تنفيذ هذا الخط ، فلكي يصل خط الأنابيب إلى باكستان ومنها إلى المحيط الهندي ، كان يجب أن يمر أولا في الأراضي الأفغانية .. وفي ديسمبر 1997 اضطرت شركة يونوكال الأمريكية إلى تعليق هذا المشروع بسبب تعنت طالبان التي حاولت التفاوض على الاعتراف بها دوليا كممثل شرعي لدولة أفغانستان في مقابل السماح بمرور خط الأنابيب عبر أراضيها ، وهو ما لم يكن ممكنا ..

وقد جاء في تقرير وزارة الطاقة الأمريكية لعام 1998 ما يلي : " إن موارد البترول والغاز الطبيعي المتوقع العثور عليها في إقليم بحر قزوين ستبلغ 178 مليار برميل ، أي أنها ستساوي على نحو تقريبي الاحتياطي العربي " ..

لذا كان الخلاص من طالبان والمجيء بـ **حامد قرضاي** رئيسا لوزراء أفغانستان يحقق هدفا طال انتظاره .. خاصة إذا علمنا أن **قرضاي** كان على صلة بـ **ويليام كيزي** مدير المخابرات الأمريكية أثناء الحرب الأفغانية الروسية ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وصار صديقا لعائلة **بوش** وتم إلحاقه بأحد فروع شركة يونوكال للبترول ..

---

[102] راجع فصل روسيا

وفي ديسمبر 2002 قام **حامد قرضاي** رئيس وزراء أفغانستان والجنرال **برويز مشرف** رئيس وزراء باكستان بإبرام اتفاق حول إنشاء خط أنابيب أسيا الوسطى ..

* * *

ثم هناك الملابسات التي صاحبت أو سبقت قيام ما عُرف باسم الحرب ضد الإرهاب التي شنتها الولايات المتحدة ضد أفغانستان ، وكانت قد أطلقت على حملتها العسكرية اسم " عدالة لا نهائية " ، لكنها تلقت نصيحة من بعض العقلاء أن اسم الحملة سوف يستفز العالم الإسلامي الذي لا يؤمن إلا بالله تعالى عادلا بلا حدود ، فتم تغيير اسم الحملة العسكرية إلى " الحرية الراسخة " ..

* * *

في 12 سبتمبر 2001 أقر مجلس الأمن القرار رقم 1368 الذي يعترف بـ " حق الولايات المتحدة في الدفاع الشرعي الفردي أو الجماعي طبقا لميثاق سان فرانسيسكو " .. وقد نص القرار الصادر على ما يلي : " يدعو مجلس الأمن جميع الدول إلى التعاون المشترك لتقديم الجناة ومخططي ومنفذي هذه الاعتداءات الإرهابية للعدالة ، ويؤكد على ضرورة محاسبة كل من تورط في مساعدة ودعم وإيواء الجناة " ..

ويعتقد البعض أن هذا القرار هو من أخطر ما اتخذ من قرارات مع بدء القرن الجديد ، إذ يمنح الولايات المتحدة الحرية والحق في الغزو المباشر لكل الدول المارقة وفقا لتصوراتها – بلدا بعد الآخر – دون تقديم دليل مادي ملموس على مبررات مثل ذلك الغزو سوى الحديث المبهم عن الحملة النبيلة للقضاء على الإرهاب الدولي أينما وجد ! ..

وفي 13 سبتمبر عقد وزير العدل **جون أشكروفت** ومدير مكتب المباحث الفيدرالية **روبرت مولر** مؤتمرا صحفيا مشتركا .. وفي أثناء شرح **مولر** للصحفيين ضرورة عدم التسرع في التحقيقات حتى يتم جمع الأدلة اللازمة لإدانة المشتبه فيهم ، قاطعه وزير العدل بحدة مؤكدا أن الوقت يمر سريعا وأن مهمة المباحث الفيدرالية هي القبض الفوري على المتآمرين الإرهابيين قبل قيامهم بارتكاب جرائم أخرى ، ولتذهب الأدلة إلى الجحيم ..

وقد ذهبت !! ..

وفي 14 سبتمبر تمكنت الإدارة الأمريكية من تطعيم دوافعها لغزو أفغانستان بمسحة دينية عميقة التأثير .. فقد أقيم في الكاتدرائية القومية حفل تأبين مهيب شارك فيه الرئيس **بوش** ورؤساء أربعة سابقون هم **بيل كلينتون** و**جورج بوش** الأب و**جيمي كارتر** و**جيرالد فورد** ، بالإضافة إلى معظم أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب ، وقام الجميع بالصلاة على أرواح الضحايا الأبرياء ..

ثم قام الرئيس **بوش** باعتلاء المنبر وسط الدموع والمشاعر الحارة ، وألقى كلمة مؤثرة جاء فيها الآتي : " نحن مسئولون أمام التاريخ ومسئوليتنا واضحة جلية ، إذ يجب علينا أن نرد على هذه الاعتداءات ونقود العالم نحو الخلاص من الشر .. لقد شنت علينا الحرب بالمكر والغش والاغتيال ، فنحن أمة محبة للسلام ،

ولكنها تصبح شرسة إذا ما استشاط غضبها ..... إن أمريكا أمة حظيت بالحظ الوفير بفضل بركة الرب الذي أغدق عليها النعم ولكنها – على الرغم من ذلك – لم تكن بمنأى عن الألم .. لقد شهد العالم على مر الأجيال أعداء للحرية قاموا بشن هجمات على بلادنا لأنها معقل الحريات .. فالتعهد بالدفاع عن الحرية الذي التزم به آباؤنا في الماضي أصبح ضرورة ملحة في الحاضر .. " ..

وقد أبرزت وسائل الإعلام مشاهد للرئيس **بوش** وهو يصلي في إيمان وخشوع بينما الوعاظ من حوله يؤيدونه ويباركونه ويصفون زعامته التي جاءت في موعدها مع القدر بأنها عمل إلهي ! ..

وفي نفس ذلك اليوم – 14 سبتمبر – قامت ما يقرب من مائة دولة في مختلف قارات العالم بالوقوف لمدة ثلاث دقائق حدادا على أرواح الضحايا ، وأقيم قداس في كنائس العالم المختلفة وتردد فيها النشيد الوطني الأمريكي الشهير " فليبارك الرب أمريكا " ! ..

وتهيأ العالم أجمع لمتابعة الرد الأمريكي المدفوع بدعوات المخلصين والمؤمنين للقضاء على الإرهاب وأعوانه بدءا بتنظيم القاعدة في أفغانستان وانتهاء بما يطيب لها من تنظيمات أو حكومات دول في البقعة التي يشير عليها إصبع تمثال الحرية من نيويورك المقدسة ! ..

وعلى المستوى المحلي تحول الرئيس **بوش** من صورة الرئيس الضعيف المهزوز المشتهر بالغباوة وسوء التصرف إلى زعيم حقيقي أرسله الله في المكان والزمان لتحقيق السلام وردع الشر ، وفوضه الكونجرس الأمريكي نيابة عن الشعب والحكومة في صباح نفس ذلك اليوم 14 سبتمبر بـ " استخدام كل القوى اللازمة والمناسبة ضد الدول أو المناطق أو الأشخاص التي قامت في تقديره بتدبير أو تنفيذ أو تسهيل الهجمات الإرهابية التي وقعت يوم 11 سبتمبر 2001 ، أو قامت بإيواء مثل هذه المنظمات أو هؤلاء الأشخاص ، وذلك تجنبا لوقوع أي عمل إرهابي دولي مستقبلا ضد الولايات المتحدة " ..

إذاً .. لقد ترك الكونجرس التصرف وفقا لـ " تقدير " **بوش** ..

وكان هذا في حد ذاته كارثة بالغة التأثير ! ..

وفي 20 سبتمبر اصطحب الرئيس **بوش** معه رئيس الوزراء البريطاني **توني بلير** لإلقاء خطاب هام أمام الكونجرس ، وفي نهاية خطابه أشار رسميا إلى **أسامة بن لادن** وتنظيم القاعدة التابع له باعتبارهم مدبري أحداث 11 سبتمبر ، وتضمن الخطاب تهديدا نهائيا إلى حكومة طالبان ، جاء نصه كما يلي : " على حكومة طالبان تسليم كل زعماء القاعدة المختبئين في أراضي أفغانستان إلى السلطات الأمريكية ، وعليها كذلك إطلاق سراح جميع الرعايا الأجانب بما فيهم الرعايا الأمريكيين المحتجزين دون وجه حق ، وتوفير الحماية اللازمة للصحفيين والدبلوماسيين والعاملين الأجانب في بلادها .. كما يتعين عليها أن تغلق فورا وبصفة نهائية جميع معسكرات التدريب الإرهابية في أفغانستان وأن تسلم إلى السلطات المعنية الإرهابيين وجميع من يساندهم .. وهذه الطلبات غير قابلة للتفاوض أو المناقشة ، وعلى طالبان الاستجابة لها وتنفيذها فورا .. فإما أن تسلم الإرهابيين وإما أن تلقى نفس مصيرهم المشئوم " ..

وفي 23 سبتمبر صرح وزير الخارجية **كولن باول** لبرنامج " لقاء الصحافة " في شبكة إن بي سي قائلا : " نحن نبذل قصارى جهدنا لتجميع كل المعلومات القضائية والاستخبارية ، وأعتقد أننا سنتمكن في المستقبل القريب من نشر وثيقة تصف بوضوح ما لدينا من أدلة عن علاقة **بن لادن** بالهجوم " ..

لكن الإدارة الأمريكية اكتفت باعترافات **بن لادن** في شرائط الفيديو التي ظهرت بعد ذلك لتؤكد دقة التفسير الأمريكي للأحداث إلى أقصى درجة ممكنة بما في ذلك حادثة البنتاجون الذي اختفت في مواجهته الطائرة البوينج التي ضربته وكأنها تعرضت للتبخر .. وعندما عادت الإدارة الأمريكية لاستجلاء الحقائق فيما بعد ، اكتفت بالتركيز على تقصير المخابرات الأمريكية وتمت إقالة مدير المخابرات **جورج تينيت** في عام 2004 ، ولم يكن هناك الجديد الذي يمكن إعلانه عن إثبات تورط **أسامة بن لادن** ، فقد أثبته هو بنفسه بالصوت والصورة ..

وكان الغريب أن يحدث ذلك ، رغم أن **بن لادن** سارع إلى نفي التهمة عن نفسه في حوار أجراه مع صحيفة أمات الباكستانية في 28 سبتمبر 2001 ، وفي حديثه هذا استنكر **بن لادن** الهجوم ونفى مشاركته فيه أو علمه المسبق بوقوع الاعتداءات ، وأكد أنه يستنكر قتل الأبرياء من النساء والأطفال وأن الإسلام يحرم مثل هذا السلوك تحريما قاطعا .. ولم يكن من الذكاء أن يثبت الجريمة على نفسه إلا إذا كان يريد أن يبرر للولايات المتحدة قيامها بغزو أفغانستان وتدميرها ومحاولة قتله هو شخصيا ، ولا يبدو هذا تفكيرا معقولا ، حتى لأكثر الناس جنونا ! ..

وفي 4 أكتوبر قدم **توني بلير** تقريرا لمجلس العموم البريطاني بعنوان " مسئولية العمليات الإرهابية البشعة التي وقعت ضد الولايات المتحدة " .. ولم يحتو التقرير على دليل مادي واحد يؤكد تلك المسئولية ، بل كان المبرر الوحيد الذي اعتمد عليه التقرير أنه " لا توجد أية منظمة لديها الدافع والقدرة على شن اعتداءات مثل تلك التي وقعت في 11 سبتمبر سوى تنظيم القاعدة الذي يتزعمه **أسامة بن لادن** " .. وهو مبرر ضعيف جدا لا يلجأ له سوى قاض معتوه لإصدار حكم ما ..

وفي نفس اليوم – 4 أكتوبر – أعلن وزير خارجية باكستان **رياز محمد خان** أن الأدلة الأمريكية التي تم نقلها إلى حكومته " توفر قاعدة من الأدلة الكافية لتقديم **بن لادن** للعدالة " .. لكنه لم يفصح عن دليل واحد من تلك القاعدة من الأدلة ، لتقوم القوات الأمريكية والبريطانية بشن هجوم عسكري على قاعدة **بن لادن** في السابع من أكتوبر بعد أن أخطروا الأمم المتحدة مشكورين أثناء قيامهم بالقصف الجوي .. وفي مساء نفس اليوم ظهر **جورج بوش** على شاشات التليفزيون ، وجاءت هذه العبارة العجيبة ضمن محتوى خطابه : " ستمثل هذه الحرب في الوقت نفسه فرصة يدرك من خلالها شعب أفغانستان المقهور مدى كرم الولايات المتحدة وحلفائها ، فنحن نوجه ضرباتنا نحو أهداف عسكرية لكننا نلقي في الوقت ذاته بالمؤن والأدوية والأدوات اللازمة إلى الرجال والنساء والأطفال الذين يتضورون جوعا في أفغانستان " ..

وقد كتب السفير الأمريكي في الأمم المتحدة **جون نجروبونتي** إلى مجلس الأمن يقول : " لقد توصلت الحكومة الأمريكية إلى معلومات واضحة لا تقبل النقاش تفيد بأن تنظيم القاعدة بدعم من نظام طالبان في أفغانستان قد لعب دورا مركزيا في الهجوم " ..

لقد أوضح **نجروبونتي** أن المعلومات لا تقبل النقاش .. وهكذا امتثلت الأمم المتحدة إلى التعليمات الحرفية ولم تسع – ولو من باب الفضول أو حب الاستطلاع – إلى معرفة تلك المعلومات ، فضلا عن مناقشتها **!!** .

وفي أول نوفمبر وقف وزير الدفاع **رامسفيلد** يخطب مؤكدا على أهمية الحرب وجدواها ومدى تأثيرها الإيجابي المنتظر ، وقبل انتهاء المؤتمر الصحفي توجه أحد المراسلين بسؤاله إلى الوزير قائلا : "إن بيانك الذي ألقيته علينا اليوم لم يكن عن إدارة شئون الحرب ، بل بدا الأمر أنه كان حول بيع سلعة اسمها الحرب ومحاولة إقناع الشعب الأمريكي بما تستغرقه من وقت وما تتطلبه من صبر .. والسؤال سيادة الوزير هو : كم من وقتك تخصصه لعمليات البيع والترويج، وهل يقتنع الناس بما تقول ؟ هل يشترون ما تبيعه لهم **؟؟** ".

وأخيرا .. جاء الفرج ..

ففي 10 نوفمبر كشفت صحيفة الصنداي تلجراف البريطانية عن وجود شريط فيديو تم تسجيله يوم 20 أكتوبر يعلن فيه **أسامة بن لادن** مسئوليته عن اعتداءات سبتمبر ، ولم يكن هذا الشريط سوى حديث أجرته معه قناة الجزيرة الإخبارية ..

وفي 9 ديسمبر كشفت صحيفة واشنطن بوست عن وجود شريط فيديو آخر قام بتسجيله أحد المقربين من **أسامة بن لادن** يوم 11 سبتمبر ، كما لو أنه يريد إثبات التهمة على **بن لادن** بتسجيل اعترافاته ثم تمريرها إلى الأمريكان ، ليشهدوا العالم كله على صحة موقفهم .. وقد أذاع البنتاجون هذا الشريط يوم 13 ديسمبر ، وفيه يصرح **بن لادن** باعترافات متطابقة بالحرف الواحد مع بيانات الحكومة الأمريكية بشأن الهجوم ..

وفي تلك الفترة ظهر في أفغانستان ما يزيد على 50 شريط فيديو لعدد كبير من الإرهابيين المجهولين ، وكان يتم العثور علي الشرائط في منازل مهجورة ثم يتم إرسالها إلى المخابرات الأمريكية أو البنتاجون للإطلاع عليها وتفريغها ..

ويشكك البعض في سلامة شرائط الفيديو ، ويستدل هؤلاء على ذلك بسابقة قريبة للبنتاجون ، حيث أذاعت الإدارة الأمريكية فيلما أرادوا أن يبرهنوا به على قيام تنظيم القاعدة بتجريب أسلحة كيميائية على الكلاب ، وكانت نقطة الضعف التي زادت من احتمالات زيف الفيلم أن ظهر في الشريط كلاب صيد ذهبية اللون وهي سلالة لا وجود لها في دولة أفغانستان **!** ..

*** * ***

وقد تمهل البعض طويلا أمام حقيقة علاقة **أسامة بن لادن** بالولايات المتحدة الأمريكية ، فضلا عن طبيعة علاقة عائلة **بن لادن** بعائلة **بوش** ..

ولد **أسامة بن لادن** في عام 1957 ، وهو أحد أبناء الشيخ **محمد بن لادن** الـ 54 .. حصل على بكالوريوس الاقتصاد وإدارة الأعمال من جامعة الملك **عبد العزيز** ، وقد عُرف عنه مهارته الإدارية الفائقة كرجل أعمال شاب ..

وفي ديسمبر 1979 طلب منه الأمير **تركي الفيصل آل سعود** – وكان مديرا للمخابرات السعودية في الفترة ما بين 1977 وأغسطس 2001 – أن يقوم بإدارة العمليات السرية للمخابرات الأمريكية في أفغانستان من الناحية المالية[103] ، وكانت المخابرات السعودية والأمريكية تقومان بتجنيد الإسلاميين وتسليحهم وتمويلهم بغرض محاربة الاتحاد السوفيتي .. وكان دور **أسامة بن لادن** يختص بإدارة الاحتياجات والشئون المالية والاتصالات المتبادلة بين جميع الأطراف عن طريق قاعدة بيانات Data base على الحاسب الآلي سميت بالقاعدة وهو اسم يقصد به حرفيا قاعدة معطيات ، ومن هنا جاء اسم تنظيم القاعدة ! ..

وبعد انتهاء الحرب الأفغانية في عام 1989 أهملت الولايات المتحدة مصير أفغانستان ومصير عملائها هناك ، فقام **أسامة بن لادن** بلم شمل المقاتلين للعمل تحت قيادته ..

وفي عام 1990 قام **صدام حسين** بغزو الكويت ، واقترح **أسامة بن لادن** على الحكومة السعودية أن يقوم مقاتلوه بطرد **صدام حسين** من الكويت ، وعارض بشدة استعانة السعودية بالتحالف الغربي بقيادة الولايات المتحدة لرد العدوان العراقي وحماية الأراضي السعودية .. ثم أعلن أن حكومة السعودية وحكومات دول عربية أخرى هي حكومات عميلة للولايات المتحدة ودعا إلى قلب أنظمة حكم تلك الحكومات بالقوة ، خاصة بعد أن رابطت القوات الأمريكية في الجزيرة العربية في أعقاب حرب الخليج .. وعلى إثر ذلك تم سحب الجنسية السعودية منه في عام 1994 وتم منعه من دخول البلاد ، كما صودرت أملاكه ..

وعقب إسقاط الجنسية السعودية عنه ، استقر بعدها في السودان وحصل على نصيبه من ميراث والده ويقدر بنحو 300 مليون دولار ، استثمر بعضها في إقامة شركات تصنيع مواد غذائية وقام ببناء مطار وأنشأ عددا من الطرق واحتكر أغلب إنتاج الصمغ الغربي .. وعلى الرغم من كل ذلك قام السودان بطرد **أسامة بن لادن** في عام 1996 تحت ضغط من مصر بسبب اتهامه بتدبير مؤامرة لاغتيال الرئيس المصري في أديس أبابا ، فسارع بالعودة إلى أفغانستان ..

وبانتهاء حرب الخليج الثانية وسقوط الاتحاد السوفيتي وأفول نجم الشيوعية ، تغيرت الصورة ، وصار **أسامة بن لادن** العدو الأول للولايات المتحدة على الصعيد الإعلامي وأمام الرأي العام الأمريكي والعالمي . فتم اتهام مجاهدي أفغانستان تحت قيادته بالاشتراك في العملية العسكرية التي لقي خلالها 18 جنديا أمريكيا مصرعهم في الصومال في عام 1992[104].. ثم وجهت له الولايات المتحدة قائمة من الاتهامات بخصوص جميع الأعمال الإرهابية التي تم تنفيذها ضد المصالح الأمريكية في السنوات التالية .. الهجوم على قاعدة

---

[103] راجع فصل روسيا

[104] راجع فصل الصومال

عسكرية أمريكية بمدينة الخبر السعودية ومقتل 19 جنديا أمريكيا في يونيو 1996 .. والهجوم على سفارتي الولايات المتحدة في عاصمتي تنزانيا وكينيا والتسبب في مصرع 298 شخصا من بينهم 12 أمريكيا في 7 أغسطس 1998 ، وعرضت المباحث الفيدرالية وقتها خمسة ملايين دولار لمن يرشد عن **بن لادن** .. والهجوم على المدمرة الأمريكية كول أمام السواحل اليمنية بخليج عدن ومقتل 17 بحارا أمريكيا في 12 أكتوبر 2000 ..

وفي مقابل الاتهامات الأمريكية ، كان **أسامة بن لادن** قد أعلن دعوته للجهاد ضد الولايات المتحدة وإسرائيل في خطاب شهير له في عام 1996 قائلا : " اطردوا المشركين بالله من شبه الجزيرة العربية " ، ثم أعلن إنشاء ما أطلق عليه الجبهة الإسلامية الدولية ضد اليهود والصليبيين بالاشتراك مع مساعده المصري **أيمن الظواهري** في عام 1998 ..

ورغم كل هذا العداء العلني السافر ، فمن المثير للعجب أن **أسامة بن لادن** لم يكن بعيدا عن أيدي المخابرات الأمريكية طوال الوقت ، أو على الأقل في شهر يوليو 2001 .. ففي الفترة ما بين 4 و 12 يوليو 2001 دخل **أسامة بن لادن** المستشفى الأمريكي بدبي في دولة الإمارات العربية للعلاج من آلام الكلى .. وفي 12 يوليو زاره في المستشفى القائم بأعمال المخابرات الأمريكية في الإمارات **لاري ميتشيل** ، وصحبه في الزيارة الأمير السعودي **تركي الفيصل آل السعود** مدير المخابرات السعودية .. والأدهى من ذلك أن **أسامة بن لادن** قد تم إدخاله إلى مستشفى عسكري في العاصمة الباكستانية روالبندي لإجراء عملية غسيل كلوي في مساء ليلة الحادي عشر من سبتمبر **!** ..

* * *

أما علاقة عائلة **بوش** بعائلة **بن لادن** ، فلم يكن ممكنا أن يمر عليها المتابعون مرور الكرام ..

أسس الشيخ **محمد بن لادن** مجموعة بن لادن السعودية في عام 1931 .. وينقسم نشاط الشركة إلى قسمين : الأول يختص بأعمال التشييد والأشغال العامة ، والثاني يختص بالأعمال الهندسية والعقارية والتوزيع والاتصالات والنشر ..

وبعد وفاة الشيخ **بن لادن** في عام 1968 ، خلفه في إدارة المجموعة ابنه الأكبر **سالم بن لادن** ..

وفي منتصف السبعينات تشابكت الأحداث والمصالح ..

ففي يناير 1976 عُين **جورج بوش** مديرا للمخابرات الأمريكية ، وفي نفس ذلك العام قام **بوش** ببيع عدة طائرات كانت ملكا للمخابرات الأمريكية لرجل أعمال أمريكي من هيوستن هو **جيم باث** الذي قام **بوش** بضمه إلى كوادر العمل في المخابرات والذي أيضا كان يدير شركة ساي ويز إيركرافت ليسينج لاستئجار الطائرات ، وهي شركة بمساهمة رءوس أموال سعودية ، والمساهم الأول فيها هو **خالد بن محفوظ** ، والذي يتصادف أن تكون أخته هي إحدى زوجات **أسامة بن لادن !!** ..

وفي عام 1976 أصبح **جيم باث** وكيلا لأعمال **سالم بن لادن** في الولايات المتحدة ، فكلفه **سالم بن لادن** ببحث إمكانية الاستثمار في الأراضي الأمريكية ، وكان من بين العمليات الأولى شراء مطار هيوستن جولف أحد أهم مطارات ولاية تكساس مركز نفوذ عائلة **بوش** ..

وفي عام 1977 قدم **بوش** الأب استقالته من منصب مدير المخابرات الأمريكية ليصبح رئيسا للجنة التنفيذية لـ فيرست ناشيونال بنك في هيوستن ..

وفي عام 1978 قرر **بوش** الابن أن يرشح نفسه للكونجرس ، ووقف **جيم باث** إلى جانبه يدعمه ماليا طوال حملته ، لكنه فشل في دخول الكونجرس .. وبدلا من ذلك ، بادر بتأسيس شركة بترول خاصة باسم آربوستو إينيرجي في مطلع عام 1979 ، وكانت آية في الفشل الذريع لولا استثمارات المخلصين ومن بينهم **جيم باث** المالك لـ 5 % من رأس المال ، وكان **باث** على الأرجح مجرد ستار لـ **سالم بن لادن** ..

وتمتلك مجموعة **بن لادن** حصة كبيرة في شركات جنرال إليكتريك ونورتل نيتوورکس وكادبوري شويبس ، ويعد **عدنان خاشقجي** – تاجر السلاح الشهير – ممثل الأنشطة الصناعية للمجموعة في الولايات المتحدة ، بينما تتكفل مجموعة كارلايل بإدارة الشئون المالية إذ تقوم بإدارة الأرصدة المالية لمجموعة **بن لادن** منذ تأسيس كارلايل جروب في عام 1987 ، كما تساهم عائلة **بن لادن** في تلك المجموعة بعدة ملايين من الدولارات ..

ولم تكن كارلايل مجرد شركة استثمارات مالية ، بل كانت شبكة مخيفة من رجال سلطة يحتلون مواقع تنفيذية عليا ، فكانت تضم بين صفوفها قدامى رجال البنتاجون والمخابرات والبيت الأبيض ..

وقد انضم الرئيس **جورج بوش** الأب إلى مجموعة شركات كارلايل بعد ترك رئاسة الولايات المتحدة كمستشار خاص للفرع الأسيوي للمجموعة والذي يغطي من بين ما يغطي المملكة العربية السعودية ، ليلحق بابنه الذي كان قد عُين في مجلس الإدارة منذ عام 1989 وحتى 1994 ، وما زال الأب يمارس وظيفته إلى يومنا هذا ..

وقد قام **فرانك كارلوتشي** رئيس المجموعة – والمدير السابق للمخابرات – بصحبة **جيمس بيكر** أحد الشركاء في المجموعة – ووزير خارجية **بوش** – بزيارة مدينة جدة بالسعودية عدة مرات ، التقيا خلالها بإخوة **أسامة بن لادن** في المقر العام لمجموعة **بن لادن** الكائن بجدة ..

وفي عام 1998 قام الرئيس الأسبق **جورج بوش** بنفسه بزيارة عائلة **بن لادن** بالسعودية بصحبة **جيمس بيكر** الذي عاد لزيارتهم بمفرده بعد عام على متن طائرة خاصة مملوكة لعائلة **بن لادن** ..

وعند اندلاع أحداث سبتمبر كان هناك سبعة من اخوة **أسامة بن لادن** موجودين في بوسطن للدراسة وقد قامت الحكومة الأمريكية في تكتم وسرية بترتيب هروبهم وعائلاتهم من الولايات المتحدة بتسفيرهم إلى العاصمة الفرنسية رغم حظر الطيران في ذلك الوقت ..

وفي 24 سبتمبر 2001 عقد الرئيس **جورج بوش** الابن مؤتمرا صحفيا بحديقة البيت الأبيض أعلن فيه بدء الهجوم على الشبكات المالية التي تدعم الإرهاب ، وكان من بين ما قاله : " يجب على البنوك الأمريكية تجميد كل الحسابات الجارية لتلك الجماعات أو لأولئك الأفراد .. ويحظر على المواطنين الأمريكيين أو رجال الأعمال عقد الصفقات مع تلك الجهات " ..

وقد علق الصحفي الأمريكي **واين مدسين** على خطبة **بوش** في مقال بعنوان " تعقب أموال **بن لادن** طريق يقود إلى ميدلاند " [105] يقول : " لم يمارس الرئيس دائما ما يطالب به الآن ، فالأعمال الخاصة بآل **بوش** كانت على ارتباط بشخصيات مالية تقوم في المملكة العربية السعودية بدعم **بن لادن** " ..

وبعد نحو شهرين من أحداث سبتمبر قامت مجموعة كارلايل تحت ضغط من الرأي العام بإنهاء مشاركة عائلة **بن لادن** في الصفقات التجارية للمجموعة وقاموا برد أموالهم إليهم ..

أما مسألة انقطاع علاقة **أسامة بن لادن** ببقية العائلة وهو ما قد يبرر تعامل عائلة **بوش** بلا أدنى تحفظ مع العائلة ، فربما يجدر بنا أن نتحفظ على هذه النظرة .. فـ **أسامة بن لادن** لم يقطع علاقاته مع عائلته بالشكل الذي يصوره الجميع ، بدليل التقاط المخابرات الأمريكية لمكالمة تليفونية أجراها من أفغانستان لإحدى زوجات أبيه قبل عمليات سبتمبر بيوم واحد فقط ، وهو ما أكد لهم وجوده في أفغانستان .. كما أن لدى المخابرات الأمريكية شريط فيديو لحفل زفاف نجل **أسامة بن لادن** في 28 فبراير 2001 ، وفيه يظهر عدد من أعضاء عائلة **بن لادن** ، ومنهم والدته وشقيقته واثنان من اخوته ..

* * *

هناك ما يسمى بمشروع القرن الأمريكي الجديد ..

قام بالمشاركة في صياغته وإعداده عدد من مسئولي الإدارة الجمهورية للرئيس **بوش** ، فشارك نائب الرئيس **ريتشارد تشيني** ، ووزير الدفاع **دونالد رامسفيلد** ، ونائب وزير الدفاع **بول وولفيتز** ، ورئيس دائرة مستشاري البنتاجون للسياسة الدفاعية **ريتشارد بيرل** ، وممثل وزير الخارجية **ريتشارد آرميتاج** ، ومحافظ فلوريدا **جيب بوش** – أخو الرئيس **بوش** – ، وسفير الولايات المتحدة في أفغانستان ..

وكانت هذه المجموعة تعد المسئول الرئيسي عن رسم الاستراتيجيات السياسية والعسكرية للإدارة الأمريكية مع تولي الرئيس **بوش** الحكم في مطلع القرن الجديد في يناير 2001 ..

يتلخص مشروع القرن الأمريكي الجديد في ضرورة تأمين أدوات الدفاع والهجوم فيما يتعلق بالاستراتيجيات السياسية والقوة العسكرية لضمان سيادة الولايات المتحدة للعالم لمدة قرن آخر من الزمان .

يشتمل المشروع على عدد من الأفكار الهامة ، نورد بعضها :

التأمين العسكري لضمان احتكار القوة العظمى ..

الحفاظ على السيادة الصناعية والتكنولوجية والاقتصادية ..

---

[105] الحي الذي كان يعيش فيه **بوش** الابن في هيوستن ..

التأمين الذاتي ضد الاعتداءات من الفضاء ، وأولوية العمل على إزالة قيود معاهدة حظر التسلح مع روسيا في الفضاء ..

السيطرة على الشبكة الإلكترونية وكل ما يتصل بالحصول على المعلومات ..

تطوير القدرة العسكرية الأمريكية لتتمكن من شن أكثر من حرب كبيرة بنجاح في القارات المختلفة في وقت واحد ..

ضمان التفوق التكنولوجي للولايات المتحدة في مجال التطورات الجديدة للأسلحة ..

تطوير الأسلحة النووية التكتيكية لتفجير المخابئ تحت الأرض التي يستعملها الأعداء الذين ما يزالوا يقاتلون بالطرق التقليدية ..

مواصلة تطوير الأسلحة البيولوجية كأداة من أدوات الحرب الحديثة ..

العمل على رفع النفقات المخصصة للتسلح ، لأن تأمين الإمبراطورية الأمريكية يتكلف الكثير من المال ، وعلى ذلك فإن الشعب الأمريكي ينبغي أن يتخلى عن أمانيه بالتمتع بالسلام وبأرباح ناجمة عن انهيار الاتحاد السوفيتي واختفاء الشيوعية المفاجئ ..

وينتهي المشروع الذي اكتملت صياغته العملية في سبتمبر 2000 بعبارات ذات لهجة آسفة تشير إلى أن التغيير الضروري اللازم حدوثه حتى يمكن تمويل مثل هذا البرنامج الطموح يجب أن يؤجل ، وذلك حتى تحدث كارثة تجبر الجميع على الانصياع الكامل لأفكاره ! ..

وقد حدثت !! ..

(50)
العـــراق : المـــاريـــونيـــت !

لا يمكنك التحضير لحرب ومنعها في نفس الوقت .. **ألبرت أينشتاين**

* * *

" يقول الشيطان النبيل ذو البصيرة عن الحرب وأثرها المدمر على المجتمع : " لا يوجد عادل واحد أو شريف واحد بين مشعلي الحروب .. يمكنني أن أرى مليون عام في المستقبل لا تتغير فيها تلك القاعدة في أكثر من نصف الحالات .. فكالعادة سوف تهتف القلة صاحبة الصوت المرتفع داعية إلى الحرب .. وسوف يقوم الوعاظ بالاعتراض بحذر في البداية .. أما الجماهير العريضة الصامتة من أبناء الأمة فسوف تفرك عيونها النائمة وتحاول أن تفهم لماذا ينبغي لها أن تدخل الحرب ، ثم تقول بحدة وسخط : إنه ظلم ومهانة ، ولا توجد ضرورة لذلك .. فتقوم القلة بالصياح بصوت أعلى ، وتقوم قلة على الجانب الآخر بمعارضة الحرب وفقا للمنطق ، بالقلم والكلمة .. وفي أول الأمر سوف يستمع الناس إليهم ويرحبون بهم ، إلا أن هذا لن يستمر طويلا ، فسوف يطغى صوت أولئك عليهم فيتقلص عدد المستمعين المعادين للحرب ويفقدون شعبيتهم .. وقبل أن يمر وقت طويل سنرى المتحدثين يُرشقون بالحجارة فوق المنابر وحرية الرأي تُخنق على أيدي بعض الغاضبين الذين في قرارة أنفسهم لا يزالون مع المتحدثين ولكنهم لا يجرؤون على قول ذلك .. والآن يرتفع صوت الأمة كلها – الوعاظ وكل الناس – بنداء الحرب ويتم استبعاد أي مواطن شريف يحاول أن يفتح فمه .. وعما قريب سوف تكف هذه الأفواه عن الحديث .. بعد ذلك سوف يخترع رجال الدولة أكاذيب رخيصة يلقون فيها باللوم على الدولة التي هاجموها ، وسوف يسعد الجميع بذلك الزيف الذي يخفف من وخز الضمير ، ويرفضون أية حجة قد تفندها .. وشيئا فشيئا يقتنع الفرد بأن الحرب عادلة ويشكر ربه على النوم الهادئ الذي استمتع به بعد هذه العملية من خداع النفس " ".."

هذه فقرة من رواية " الغريب الغامض " التي توفي الأديب الأمريكي العظيم **مارك توين** في عام 1908 قبل أن يسمح بنشرها ، لتنشر بعد ذلك أول مرة في عام 1916 ..

* * *

التقى الذئب في الطريق بحمل صغير شارد عن القطيع ..

كان الذئب يريد افتراس الحمل الضعيف ، لكنه أراد أن يبرر لنفسه وللغابة من حوله الدافع وراء التهامه ..

فأوقف الحمل ، وأخبره في جفاء : أيها الحمل .. لقد شتمتني في العام الماضي شتيمة لا تُنسى ..

فأجاب الحمل في فزع : يا سيدي هذا مستحيل ، ففي العام الماضي لم أكن قد ولدت بعد ..

فقال الذئب : إذاً فأنت الآن تأكل من العشب الخاص بي ..

فدافع الحمل عن نفسه صارخا : أبدا يا سيدي ، فأنا لم أذق طعم العشب بعد ، يمكنك أن " تفتش " داخل فمي ، لن تجد أي أثر لأغذية "محظورة" ..

فعاد الذئب يتوعده قائلا : إذاً فقد شربت من نبعي ..

فصاح الحمل في توسل: والله لم يحدث يا سيدي الذئب، فأنا – لصغر سني – لم أشرب بعد سوى لبن أمي .

نفد صبر الذئب ، وقال في ضجر : على كل حال ، لا يمكن أن ينقضي اليوم دون عشاء ..

وما أن أنهى الذئب عبارته واستنفد أسبابه وأراح ضميره أمام المجتمع الحيواني حتى انقض على الحمل المسكين وافترسه دون رحمة ..

* * *

كأننا عرائس ماريونيت تحركنا الخيوط ..

كأننا قطيع من الغنم تهشنا عصا من خشب ..

كأننا عادم سيارات تدوس الأقدام البنزين – الذي هو البترول – فنتبعثر في الهواء ، بل ونلوثه ..

جئ بـ **صدام حسين** في عام 1979 بمساندة منهم ..

استخدموه لإنهاك القوى الإيرانية المتمردة ولإضعاف الجيش العراقي الكبير ..

استغلوا غروره وأوقعوه في شر أعماله ليقوم بغزو الكويت ، كي يستقر بهم المقام في جزيرة العرب ..

اتخذوا من طغيانه ذريعة ليحتلوا العراق بحثا عن أسلحة وهمية وسعيا وراء تحرير كاذب للشعب ..

انتهوا من أمر العراق ، وبدأ حبل المشنقة يضيق حول رقبة سوريا ذات الجسد الحبيس في زنزانة معتمة ..

تحول العراق إلى منطقة نفوذ أمريكية تنسجم مع الطموح الإسرائيلي في الخلاص من كافة الشرور المحتملة في منطقة الشرق الأوسط ..

وبوجود كبيرة العالم الولايات المتحدة الأمريكية في منطقتنا ، فلا ينقصها ولا ينقصنا شئ كي نتحول إلى شرق أوسط كبير ..

أما باقي العرائس في شرقنا السعيد المجيد ، فتنتظر دورها لتحركها القوى الخفية بخيوط متينة ..

* * *

يبدأ التاريخ الرسمي للاحتلال البريطاني للعراق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ..

حيث دارت معارك في جنوبي العراق بدءا من عام 1914 كجزء من الحرب العالمية ، ونجحت بريطانيا في احتلال الجنوب في نفس ذلك العام .. وفي عام 1917 اقتحمت القوات البريطانية العاصمة بغداد ، وسيطرت على الحكم ..

وفي أبريل 1920 تم إخضاع العراق للوصاية البريطانية ..

وفي أغسطس 1921 تم تنصيب **فيصل بن حسين** ملكا على العراق ، وهو أحد فروع العائلة الهاشمية التي تحكم الأردن كذلك ..

وفي عام 1927 تم اكتشاف حقل كركوك الذي يحتوي على 16 مليار برميل ..

وفي أكتوبر 1932 أعلنت بريطانيا استقلال المملكة العراقية ، وهو الاستقلال الصوري إياه الذي كانت تمنحه بريطانيا للدول العربية تحت ضغط المقاومة ، لينضم العراق إلى عصبة الأمم .. وفي العام التالي توفي الملك **فيصل** ، وتولى العرش من بعده ابنه **غازي** الذي توفي بعد ست سنوات من الحكم في عام 1939 .. مر العراق بفترة توتر وانقلابات ، خاصة وأن الأمير **فيصل بن غازي** لم يكن قد تخطى الثالثة من عمره بعد عند وفاة أبيه .. ونجحت بريطانيا في فرض كلمتها في النهاية .. وفي عام 1953 تسلم الملك **فيصل الثاني** عرشه بعد أن أتم السن القانونية ..

وفي عام 1957 تم اكتشاف أكبر حقل في العراق وهو حقل الرميلة الذي يحتوي على 26 مليار برميل ..

وفي 14 يوليو 1958 قامت الثورة في العراق ، وانتهت بمقتل الملك وولي العهد ورئيس الوزراء **نوري السعيد** وتم إعلان الجمهورية بقيادة **عبد الكريم قاسم** ..

وفي عام 1959 جرت محاولة لاغتيال **عبد الكريم قاسم** بتدبير من حزب البعث وشارك فيها **صدام حسين** .. فشلت المحاولة ، وفر **صدام** هاربا إلى مصر لمدة ثلاث سنوات ..

وفي عام 1960 أعلنت بريطانيا استقلال الكويت ، ولم تكن هناك قبل ذلك التاريخ حدود فاصلة رسمية بينها وبين العراق ..

وفي فبراير 1963 أسقط **قاسم** في انقلاب عسكري ليتولى **عبد السلام عارف** الحكم والذي توفي في حادث طائرة في أبريل 1966 ، ليخلفه أخوه **عبد الرحمن عارف** ..

وفي أعقاب هزيمة يونيو 1967 قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة .. وكان من غرائب السياسة العربية أن تعيد كل من مصر وسوريا علاقتهما مع الولايات المتحدة بعد نصر أكتوبر 1973 ويبقى العراق مصرا على قطع هذه العلاقة ..

وفي يوليو 1968 حدث انقلاب على **عارف** أتى بـ **أحمد حسن البكر** الذي أمعن في التقرب من الاتحاد السوفيتي مبتعدا أكثر وأكثر عن الولايات المتحدة ..

وفي عام 1972 بدأ تأميم صناعة البترول في العراق ..

وفي مارس 1974 قمعت القوات العراقية الحكومية جماعات كبيرة من الأكراد الذين كانوا يتلقون التمويل من إيران ومن الولايات المتحدة بشكل غير مباشر .. وفي العام التالي توصلت إيران والعراق إلى اتفاق حول النزاع الحدودي القديم فيما بينهما ، وجاء على رأس بنود الاتفاق – الذي عرف باسم اتفاق الجزائر – أن تتوقف إيران عن مساندة الأكراد في العراق في مقابل أن تعترف العراق بسيادة إيران على نصف الممر المائي في شط العرب .. وجاء ذلك الاتفاق بضغط من الولايات المتحدة على العراق ..

وفي يونيو 1979 تم تجريد **أحمد حسن البكر** من جميع سلطاته واعتقل في منزله ، وجاء نائبه **صدام حسين** إلى السلطة بدعم قوي من المخابرات الأمريكية .. وكان هذا الموقف الأمريكي ضروريا وملحا ردا

على قيام الثورة الإسلامية في إيران في مطلع نفس ذلك العام ، خاصة وأن **البكر** كان قد ركن إلى السلام مع الإيرانيين ..

وتزامن تولي **صدام حسين** للسلطة مع تسلمه قائمة أمريكية بأسماء الأشخاص الذين يجب إبعادهم عن الحياة العامة ، وكان عددهم نحو 5000 شخص .. ونفذ **صدام** المهمة بكفاءة عالية حيث تم تصفيتهم جميعا قبل انقضاء العام الأول لوجوده في السلطة ..

وكان لدى المخابرات الأمريكية ملفا كاملا عن شخصية **صدام حسين** وتاريخه وتحليل نفسيته .. وجاء القرار باستغلال طبيعته العدائية العنجهية التي تميل إلى استعراض القوة والتفوق .. وتم دفعه إلى محاربة جارته إيران أملا في إضعاف شوكتهم ، تحت دعوى استعادة شط العرب كاملا الذي كان الأمريكان قد ضغطوا على العراق قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات من أجل التنازل عنه لإيران في عهد **الشاه** ، حتى أن **صدام حسين** نفسه كان هو الطرف العراقي الموقع على تلك الاتفاقية في عام 1975 ..

وفي 17 سبتمبر 1980 أعلن **صدام** إلغاء الاتفاقية من طرف واحد ، وأكد عدم اعترافه بشرعية الوجود الإيراني في شط العرب ، ورفضه للحدود المرسومة بين البلدين ..

وفي 22 سبتمبر 1980 اشتعلت الحرب العراقية الإيرانية التي اختلف المؤرخون طويلا حول البادئ فيها بالعدوان ..

وسارعت المخابرات الأمريكية إلى تقديم العون للقيادة العسكرية العراقية في حربها بإعطائها صور التقطتها الأقمار الصناعية توضح حجم القوات الإيرانية وأسلوب زحفها وتوقيته .. لكنها في الوقت نفسه كانت تريد منع العراقيين من تحقيق نصر حاسم على إيران ، فعملت المخابرات الأمريكية بالتعاون على الموساد على تزويد الجبهة الإيرانية كذلك بصور ملتقطة بالأقمار الصناعية ..

وأسوأ من ذلك ، فإن إسرائيل استغلت الحرب ، لتقوم بغارة جوية في يونيو 1981 لتحطم فيها المفاعل النووي العراقي على أطراف بغداد ..

ولم يختلف الحال فيما يتعلق بالتسليح ، فكانت شركات الأسلحة الأمريكية تمول ترسانة العراق الحربية ، وكانت إسرائيل التي لديها مصلحة مؤكدة في منع تزايد القوة العراقية في الشرق الأوسط ترسل من مخازنها بالتنسيق مع الولايات المتحدة أسلحة إلى إيران ، حتى أن الحرس الشخصي لـ **الخميني** كانوا يستعملون رشاشات عوزي الإسرائيلية ..

وكان من رأي السياسي الأمريكي الشهير كيسينجر أن العراق وإيران معا يجب أن يخسرا الحرب .. وقد عبر عن رأيه هذا بقوله : " هذه أول حرب في التاريخ أتمنى أن لا يخرج بعدها منتصر ، وإنما أن يخرج طرفاها وكلاهما مهزوم " .. وقد سميت هذه السياسة فيما بعد بسياسة " الاحتواء المزدوج " ..

وفي فبراير 1982 نُشر تقرير في مجلة كيفونيم العبرية – معناها التوجهات بالعربية – والتي تصدرها في القدس المنظمة الصهيونية العالمية تحت عنوان " الخطط الاستراتيجية لإسرائيل في الثمانينات " ، هذه فقرة

منه : " إن تفكيك العراق وسوريا إلى مناطق محددة على أساس المعايير العرقية أو الدينية ينبغي أن يكون على المدى الطويل هدفا ذا أولوية لإسرائيل ، على أن تكون الخطوة الأولى هي تحطيم القوة العسكرية لهاتين الدولتين .. والعراق الغني بالبترول والمرتع للنزاعات الداخلية هو الهدف المباشر لإسرائيل وتفكيكه سيكون بالنسبة لنا أهم من تفكيك سوريا ، لأنه يشكل على المدى القصير أخطر تهديد لإسرائيل " !! ..

وبعد أقل من عامين من بدء الحرب تمكن الإيرانيون من صد الهجوم العراقي وأجبروا الجيش العراقي على التراجع إلى ما وراء الحدود وقاموا بشن هجوم كاسح داخل الأراضي العراقية في يونيو 1982 ..

وقد أثار التراجع العراقي قلق واشنطن فضلا عن حلفائها الرئيسيين في المنطقة العربية ، وهنا كان القرار بتشديد الدعم الأمريكي للعراق في مختلف صوره ..

ففي عام 1982 تم حذف اسم العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب الدولي ..

وفي 19 ديسمبر 1983 وصل مبعوث أمريكي خاص إلى بغداد حاملا رسالة بخط اليد من الرئيس **رونالد ريجان** إلى الرئيس **صدام حسين** بغرض العمل على إعادة افتتاح السفارة الأمريكية ببغداد ودعم العراق في حربه وتنشيط العلاقات الثنائية .. وكان اللقاء مع الرئيس العراقي طويلا وديا ، وقد سجل التليفزيون العراقي تلك اللحظات التي صافح فيها المبعوث الخاص الرئيس **صدام حسين** بحرارة ناقلا له تحيات الرئيس الأمريكي ومعبرا له عن سروره لوجوده في بغداد ومؤكدا للإعلام تطابق وجهات النظر حيال القضايا المشتركة ومتانة العلاقات الثنائية .. وبعد عودته إلى واشنطن رسم المبعوث الخاص عن **صدام حسين** صورة كلها مديح ، بحيث وُجّهت رسالة بعد 12 يوما إلى حكام الخليج تتحدث عن أن " هزيمة العراق في حربه مع إيران سوف تكون معادية لمصالح الولايات المتحدة التي اتخذت مجموعة تدابير لتجنب مثل هذه النتيجة " ..

وفي مارس 1984 عاد المبعوث إلى بغداد لإجراء محادثات جديدة ، وفي اليوم الذي وطأت فيه قدماه أرض العاصمة العراقية ، كانت برقيات وكالات الأنباء الدولية تفضح استخدام العراقيين لتوهم للأسلحة الكيميائية لضرب الإيرانيين – وهي نوعية الجرائم التي يحاكم عليها **صدام حسين** بعد مضي ربع قرن ! – .. ولم يصدر عن المبعوث أي تصريح بهذا الشأن .. على العكس من ذلك ، فإن تصريحا رسميا قد صدر عن الدبلوماسية الأمريكية وجاء فيه أن الولايات المتحدة تعبر عن " رضاها عن العلاقات بين العراق والولايات المتحدة وتقترح إعادة العلاقات الدبلوماسية العادية بين الدولتين " .. وهو ما حدث بالفعل في نوفمبر 1984 .. وعندما سألت صحيفة شيكاجو تريبيون ذلك المبعوث بعد ذلك التاريخ بعامين عن أكثر عمل يثير في نفسه الاعتزاز ، أجاب المبعوث بكل فخر قائلا : " استعادة العلاقات مع العراق " ..

أما المبعوث الأمريكي الخاص الذي صافح صدام حسين بحرارة ، ونقل التحيات ، وقص الشريط ، وأشاد بدفء العلاقات وتوافق الآراء وافتخر بدوره التاريخي والمحوري في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، فهو نفسه دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الحالي الذي قاد الحرب الأخيرة ضد العراق ! ..

* * *

تطورت العلاقات الأمريكية العراقية في سرعة شديدة ..

وفي يناير 1985 قدم السفير العراقي الجديد **نزار حمدون** أوراق اعتماده إلى واشنطن .. وتم تأسيس مركز عراقي أمريكي لترويج التجارة بين البلدين بمبادرة من ثماني شركات أمريكية كبرى يترأسها الوزير الأمريكي الأسبق **ويلي مارشال** ..

وفي ذلك التوقيت كانت الولايات المتحدة تغمض عينها تماما عن أي تجاوزات للنظام العراقي ضد جيرانه أو ضد المعارضين من شعبه ..

وليس أدل على ذلك من إعلان الولايات المتحدة إعادة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع العراق بعد أقل من عام من صدور تقرير للأمم المتحدة يدين العراق لاستخدام الغاز ضد إيران ..

والحقيقة أنه لم تكن هناك أية أسلحة بيولوجية أو كيميائية باستثناء تلك التي أعطتها الولايات المتحدة للعراق في الثمانينات والتي استخدمها ضد الأكراد وضد الإيرانيين بعد أن منحته الولايات المتحدة صور الأقمار الصناعية عن مواقع القوات الإيرانية وتحركاتها .. وهو ما كشف عنه الصحفي الأمريكي الشهير **بوب وودوارد** في عام 1986 بأن المخابرات الأمريكية قدمت للعراقيين معلومات وصور من أقمار الاستطلاع الأمريكية أتاحت لهم تنفيذا أكثر دقة لهجماتهم بغاز الخردل على القوات الإيرانية ..

وعندما أدانت الأمم المتحدة استخدام العراق للأسلحة الكيميائية في مارس 1986 ، وصدر عن مجلس الأمن بيان يستنكر هذه الممارسات التي تخرق بروتوكول جنيف ، فإن الولايات المتحدة صوتت ضد صدور هذا البيان ..

وفي 16 مارس 1988 شنت القوات العراقية هجوما بالغاز على قرية حلبجة الكردية ، مما أدى إلى مقتل 5000 شخص ، وهي الواقعة التي تشير إليها باستمرار إدارة **جورج بوش** الابن لتبرير الغزو والتأكيد على بشاعة النظام العراقي ، علما بأن **بوش** الأب في حينه لم يظهر أي استنكار حيال تلك الجريمة التي نفذت بطائرات هليوكوبتر أمريكية من طراز هوك ..

وعندما قام مراسل تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية **تشارلز جلاس** بالكشف عن برامج **صدام** للحرب البيولوجية بعد عشرة أشهر من ضرب حلبجة ، قامت وزارة الخارجية الأمريكية بتكذيب هذه الحقائق ..

وفي نفس ذلك العام 1988 تتابعت أربعة أحداث هامة .. أباد **صدام حسين** آلاف الأكراد في مذبحة حلبجة الشهيرة .. وبعدها مباشرة منحت الولايات المتحدة العراق مبلغ 500 مليون دولار هدية من أجل شراء المنتجات الزراعية الأمريكية .. وفي يوليو من نفس ذلك العام انتهت حرب الخليج الأولى .. أما أهم الأحداث الأربعة فهو التقرير السنوي لعام 1988 الخاص بإدارة الطاقة الأمريكية والذي جاء فيه أن واردات الولايات المتحدة من بترول الدول العربية أعضاء أوبك ارتفعت من 293 ألف برميل يوميا في

عام 1964 إلى 18.28 مليون برميل عام 1988 ، ثم إن تكلفة إنتاج البترول الأمريكي في ألاسكا ثمانية أضعاف تكاليف إنتاجه في دول الخليج ..

كان ذلك مؤشرا في غاية الخطورة .. إن تزايد الاعتماد على البترول العربي يلزمه تأمين كاف لمصادر الطاقة ، وأي تأمين أفضل من التواجد العسكري في المنطقة ..

ورغم أن الخارجية الأمريكية سارعت بتكذيب ما توصل إليه المراسل البريطاني في مطلع عام 1989 ، إلا أن ذلك كان فقط من أجل إتاحة الوقت لوضع واحدة من أعظم خطط أمريكا الشريرة ..

وتم تعديل خطة الحرب المعروفة بكود رقم 1002 والمطروحة في الأصل للتصدي للخطر السوفيتي ، إلى الكود رقم 1002-90 بعد إعادة صياغة الخطر الخارجي ووضع اسم العراق عليه بدلا من الاتحاد السوفيتي ..

وخلال الأشهر الأخيرة من عام 1989 تم الإيحاء للرئيس **صدام** من خلال سفيرة أمريكا أن الولايات المتحدة لن تتدخل إذا ما أراد **صدام حسين** الاستيلاء على جزء من الأراضي الكويتية ، وأن ما ترفضه فقط هو أن يحاول غزو السعودية ..

تشجع **صدام حسين** وفعل ما كان يريد أن يفعله الرئيس العراقي **عبد الكريم قاسم** قبل أربعين عاما ومنعه الإنجليز ..

* * *

قبل بدء الحرب ، كانت كل الشواهد تؤكد قيامها وتؤكد كذلك رغبة الولايات المتحدة واستعدادها الذهني الكامل للتعامل مع تبعاتها ..

فمنذ أواخر عام 1989 كان البنتاجون يدرب موظفيه على أجهزة الكومبيوتر المحملة ببرنامج عسكري يتصدى افتراضيا لما يسمى بـ " التهديد العراقي " في خطة حرب إذا ما قام العراق بغزو الكويت أو السعودية .. وطوال الأشهر السبعة الأولى من عام 1990 كان المشاركون في البرنامج تطرح عليهم أسئلة بشأن أفضل الوسائل للتصدي للعدوان العراقي في المدرسة العسكرية في نيوبورت بولاية رود أيلاند ، وفي قاعدة شو الجوية بولاية كارولينا الجنوبية كانوا يتدربون على لعبة حرب أخرى تتضمن تحديد أهم الأهداف العراقية التي يمكن قصفها من الجو ..

وفي مطلع شهر مايو 1990 وصلت إلى البيت الأبيض رسالة من المخابرات تشير إلى وجود معلومات تكشف بأن الهجوم على الكويت أصبح مرجحا .. لكن أحدا لم يتحرك .. كما لم ينفعل البنتاجون وهو يتابع تحركات القوات العراقية وتقدم فرق الحرس الجمهوري لاتخاذ أوضاع هجومية في جنوبي العراق ، وهو ما كان مكتب استطلاع القيادة المركزية بقيادة الجنرال **نورمان شفارتسكوبف** يرصده في شهر يوليو ، خاصة مع تفاقم أزمة العراق الاقتصادية بسبب زيادة المعروض من البترول من جانب دول الخليج العربي وانخفاض أسعار البترول ومعاناة العراق من آثار حربه مع إيران ..

كما اتصل رئيس الأركان **كولن باول** بالبيت الأبيض يوم 25 يوليو 1990 يتشاور مع مستشار الأمن القومي **برنت سكوكروفت** بشأن تكليف السفيرة الأمريكية في بغداد **أبريل جلاسبي** بطلب مقابلة عاجلة مع الرئيس العراقي حتى تلفت نظره بتحذير مبكر إلى التزام الولايات المتحدة بحماية الكويت لكي يراجع حساباته .. غير أن **سكوكروفت** عاود الاتصال برئيس الأركان يبلغه بما استقر عليه الرأي في البيت الأبيض وهو أن أي تحذير مبكر للعراقيين لا داعي له ، وأن القرار هو الانتظار " حتى نرى ما سوف يفعلون ثم نتصرف بما نجده مناسبا " ! ..

وفي 27 يوليو صوت مجلس الشيوخ الأمريكي لصالح فرض عقوبات اقتصادية على العراق بسبب عدم احترامه لحقوق الإنسان ، ومع ذلك سارعت إدارة **بوش** إلى معارضة هذا الاتجاه بشكل فوري ..

كانت الحرب آتية لا محالة ، وكانت التصريحات تخرج متضاربة من الجهات الرسمية في الولايات المتحدة بشأن موقفها من الدفاع عن دول الخليج العربي ، حتى أن أكثر من مسئول رسمي أعلن في الأسبوع الأخير قبل الغزو العراقي في مناسبات مختلفة أن الولايات المتحدة لم توقع أية اتفاقية دفاع مشترك مع الكويت أو أية دولة خليجية أخرى ..

وفي فجر الثاني من أغسطس اقتحمت القوات العراقية الأراضي الكويتية ، وأعلنتها المحافظة رقم 19 في الجمهورية العراقية ..

وفي اليوم التالي أصدر مجلس الأمن قراره رقم 660 يدين العراق ويطالبه بالانسحاب الفوري من دولة الكويت ..

وفي 5 أغسطس أعلن الملك **حسين** ملك الأردن أنه توصل إلى إقناع القيادة العراقية بأنها إذا لم تنسحب من الكويت فسوف تواجه ما لا طاقة لها به .. وكان شرط العراق الأساسي هو أن تتعهد الولايات المتحدة بأنها لن تطارد الجيش العراقي في وطنه إذا ما عاد إلى بلاده وخرج من الكويت .. ولم تبال الولايات المتحدة لمثل هذه المحاولات السلمية .. وفي اليوم ذاته كان وزير الدفاع الأمريكي **ديك تشيني** يزور الرياض منبها الملك **فهد** أن بلاده على وشك التعرض لخطر جسيم .. وكانت تلك أكذوبة واضحة ، فالعراق لم يكن في حاجة إلى احتلال الكويت حتى يصل إلى السعودية ، لأن له حدود طويلة مع السعودية .. ثم إنه كان بوسعه أن يوسع عملياته في اتجاه السعودية دون انتظار لوصول قوات التحالف .. والحقيقة أن الخطر العراقي على السعودية كان ضعيفا إن لم يكن معدوما ..

وبدءا من 6 أغسطس بدأت الولايات المتحدة تكثف حشودها حول العراق ، وراحت الفرق المدرعة وحاملات الطائرات وقواعد الصواريخ تتخذ مواقعها في القواعد العربية .. وفي نفس ذلك اليوم صدر القرار رقم 661 بفرض العقوبات الدولية على العراق ..

وفي 7 أغسطس أمعنت الولايات المتحدة في التهويل من حجم الخطر العراقي ، فأخطرت المملكة العربية السعودية بأن القوات العراقية تتمركز على الحدود السعودية ، وضغطت بشدة على الملك **فهد** حتى وافق

مضطرا على قبول التواجد العسكري الأمريكي داخل السعودية .. ورغم ذلك ، فإن صور الأقمار الصناعية لم تُظهر أي وجود للقوات العراقية على الحدود العراقية السعودية ..

وفي 8 أغسطس أرسلت الولايات المتحدة 40 ألف جندي إلى السعودية بزعم حمايتها ..

ثم جاء مؤتمر القمة العربي في القاهرة 10 أغسطس ليعمي الدنيا بدلا من تكحيلها ..

وفي 12 أغسطس حاول العراق الخروج من المأزق مرتديا دور البطولة الزائف باقتراحه الربط بين انسحابه من الكويت وانسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلية من الأراضي المحتلة ، ورفضته الولايات المتحدة ، كما رفضت عرضا آخر قُدّم بعد ذلك بالانسحاب غير المشروط ، ثم رفضت أي شكل من أشكال المفاوضات ، وفي 22 أغسطس نشرت النيويورك تايمز إن إدارة **بوش** مصممة على عرقلة المسار الدبلوماسي خوفا من أن يفتت الأزمة ..

وفي أكتوبر 1990 أبدى **صدام** استعداده لسحب قواته من الكويت في مقابل سيطرته على حقل الرميلة وضمان وجود منفذ على الخليج العربي ورفع العقوبات وحل مشكلة الأسعار وإنتاج البترول ..

آخر عرض أُعلن عنه قبل قصف العراق بأيام – وقد تنازل العراق رويدا رويدا تماما كما حدث في الحرب الأخيرة – تضمن العرض انسحابا كاملا من الكويت دون التطرق لمسألة الحدود ، لكنه اشترط بعض الأمور العامة مثل القضاء على أسلحة الدمار الشامل في المنطقة كلها ولا يستثنى من ذلك إسرائيل ، بالإضافة إلى تنفيذ جميع قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالشرق الأوسط بما في ذلك القرار رقم 425 الذي ينص على انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان،لكن أمريكا ردت على كل هذا بأنه قد فات وقت الدبلوماسية .

وعندما تعالت بعض الأصوات في الولايات المتحدة تتساءل في استنكار : " كيف ترسل أمريكا أبناءها من أجل شيوخ النفط المستبدين ؟ "، جاءت إجابة بوش غاضبة : " نحن ذاهبون إلى هناك من أجل شيوخ أمريكا ، لا من أجل شيوخ العرب ! " ..

وفي 8 نوفمبر تضاعف عدد القوات الأمريكية في المنطقة إلى 400 ألف جندي ..

وفي 29 نوفمبر أجازت الأمم المتحدة استخدام القوة ضد العراق إذا لم ينسحب من الكويت بدون شروط قبل 15 يناير 1991 ..

وفي مطلع يناير 1991 اجتمع الرئيس **بوش** بأهم مساعديه في قاعة الاجتماعات الملاصقة للمكتب البيضاوي ، وقام بسؤال رئيس الأركان **كولن باول** : " إذا انسحب **صدام** من الكويت دون حرب ، هل يمكن اعتبار هذا الحل مرضيا لنا ؟ " .. أجابه **باول** في سرعة : " نعم يا سيادة الرئيس .. هذا هو الهدف الذي نسقنا له مع حلفائنا ، علاوة على أننا لن ننكب بخسائر في الأرواح " .. وقد وافقه الرأي وزير الخارجية **جيمس بيكر** .. وعند هذه اللحظة بدأ **سكوكروفت** حديثه – وطوال التحليل الذي أجراه ، كان **بوش** يهز رأسه موافقا – ، فقال : " أيها الزملاء الأعزاء .. أنتم لا تنتبهون إلى خطورة الموقف .. إذا انسحب **صدام** ، سوف يصبح من الصعب علينا أن نسيطر عليه ، فلن يكون بإمكاننا إبقاء 500 ألف جندي

في المنطقة إلى أجل غير محدد .. فهذا الأمر مستحيل من الناحية اللوجيستية ، علاوة على أنه سياسيا لا تستطيع الولايات المتحدة تمديد إقامة قواتها العسكرية ، فالكابوس الحقيقي هو انسحاب **صدام** من الكويت ، ورجوعه إلى العراق ، مع احتفاظه بفرقه العسكرية مجتمعة على الحدود إذ يستطيع جيشه البقاء هناك متمركزا في مواقعه إلى ما لا نهاية ، مشكلا تهديدا دائما للكويت بغزو جديد " .. فتابع **بوش** مكملا حديث مستشاره : " هذا صحيح .. يجب أن يفوز تحالفنا بتدمير جيش **صدام حسين** ، أو على الأقل بإضعافه بما يكفي كي لا يشكل تهديدا لاحقا ، في المستقبل القريب " ..

وإذا كان الرئيس **بوش** قد عبر عن حقيقة الوضع في الغرف المغلقة حفاظا على صورة الإدارة الأمريكية ، فإن الرئيس الأسبق **نيكسون** لم يجد حرجا في قول الحقيقة علنا ..

فقد كتب الرئيس **نيكسون** لجريدة نيويورك تايمز في 7 يناير 1991 يقول : " نحن لا نذهب إلى هناك للدفاع عن الديمقراطية ، لأن الكويت ليست بلدا ديمقراطيا ، ولا توجد دولة ديمقراطية في المنطقة .. ونحن لا نذهب إلى هناك لقتل ديكتاتور .. ونحن لا نذهب إلى هناك لندافع عن المساواة الدولية .. بل نحن نذهب إلى هناك ، لأنه يجب علينا أن نذهب ، لأننا لن نسمح بأن تهدد أو تمس مصالحنا الحيوية " ..

وفي منتصف يناير ، حشدت أمريكا جيوشها وجيوش الجيران ، وتم طرد العراق من الكويت ، وكان يُفترض في ذلك التوقيت العمل على التخلص من صدام حسين وهو في أضعف حالاته .. لكن أمريكا لم تفعل ، وظل صدام حسين في المنطقة كخيال المآتة الذي يفزع العصافير ، وظلت العصافير تدفع فاتورة الحرب ..

وعن هذه الفاتورة تحدث مواطن سعودي يعمل مدرسا إلى إحدى القنوات الإعلامية في فترة الحرب قائلا : " إن الجنود الأمريكان يشكلون نوعا جديدا من العمالة الأجنبية هنا .. فالباكستانيون لدينا من أجل قيادة التاكسيات ، وأصبح لدينا الأمريكيون الآن للدفاع عنا " ..

هكذا نظر العرب بسذاجة إلى التواجد الأمريكي في جزيرتهم .. وكان للأمريكان وجهة نظر مختلفة تماما .

* * *

انتهت الحرب بعد ستة أسابيع من نشوبها مخلفة وراءها ألوف من الضحايا من المدنيين الأبرياء في العراق .. وكانت من الحوادث الشهيرة قيام الطائرات الأمريكية بتفجير مصنع لألبان الأطفال بمدينة العامرية متسببة في مقتل 1500 مدني ، ثم ادعت الإدارة الأمريكية أن ذلك المصنع ما هو إلا أحد الأوكار الخطيرة لتخزين الأسلحة البيولوجية ، وقامت حكومة نيوزيلاندا بتكذيب تلك المزاعم بأن أقرت حقيقة المصنع لأنها كانت مشاركة في إقامة ذلك المصنع ..

وقد شهد الطريق الموصل إلى الحدود العراقية الأردنية مآسي منقطعة النظير .. فكانت الطائرات الأمريكية تهبط إلى أقرب نقطة مستهدفة سيارات وأتوبيسات المدنيين الذين كانوا يحاولون الفرار من الجحيم نحو

حدود الأردن وكان ذلك يتم في وضح النهار .. وعندما كان بعض الركاب يغادرون سياراتهم فرارا إلى الصحاري كانت الطائرات تتبعهم في وحشية بطلقات مدافعها الرشاشة ..

وفي نهاية عام 1991 أجرى الصحفي الفرنسي **إريك لوران** مقابلة صحفية طويلة مع وزير الدفاع الأمريكي **ديك تشيني** في مكتبه بالبنتاجون ، وخلال المقابلة سأله : " هل كنتم تظنون بجدية أن العراق لديه رابع أقوى جيش في العالم ؟ .. فالتزم الصمت لوهلة ، وطيف ابتسامة على شفتيه ، ثم قال : حسنا .. أعتقد أننا قد أخطأنا قليلا في تقديراتنا " ..

وخلال السنوات التالية عانى الشعب العراقي من العزلة والعقوبات الاقتصادية ، فلم يرحمه حاكمه حتى يرحمه المجتمع الدولي .. وحتى عام 2001 قُتل أكثر من 1.5 مليون مواطن عراقي من بينهم ستة آلاف طفل تحت سن خمس سنوات كانوا يموتون شهريا وفقا لتقارير منظمة الصحة العالمية ..

وفي لقاء تليفزيوني مع سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة آنذاك **مادلين أولبرايت** ، سألتها مقدمة البرامج **ليزلي شتال** عن إحساسها تجاه مقتل نصف مليون طفل عراقي نتيجة العقوبات الدولية التي فرضتها الولايات المتحدة ، لم تحاول **أولبرايت** التنصل من أي شئ بل قالت في منتهى الجرأة : " لقد كان اختيارا صعبا للغاية .. ولكنني أعتقد بأن الثمن كان يستحق " ..

ولم تكن السفيرة تكذب ، فالثمن كان قطعا يستحق ..

وطوال تلك السنوات كانت الولايات المتحدة تضغط على مفتشي الأمم المتحدة الذين راحوا يفتشون عن أسلحة الدمار الشامل داخل الأراضي العراقية .. وقد اعترف مساعد **ريتشارد بتلر** – رئيس المفتشين – **سكوت ريتر** أنه كان ينسق كل تصرفاته مع إسرائيل ، وأنه في فترة عمله زار إسرائيل سرا 22 مرة ..

وفي عام 1994 اعترف العراق بحدود الكويت وفقا للخرائط التي أعدتها الأمم المتحدة .. كما جاء تقرير فريق التفتيش الخاص بإزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية الذي قدمه لمجلس الأمن في عام 1995 ليؤكد إزالة المقومات العسكرية العراقية من أسلحة كيماوية وصواريخ ذات مدى بعيد ..

وفي عام 1998 قام المفتشون الدوليون بزيارة إلى مجلس الوزراء العراقي وتفقدوا غرفة مخصصة للرئيس **صدام حسين** ، وبعدها مباشرة جاءت الطائرات الأمريكية لتقصف الغرفة، وحين انسحب المفتشون الدوليون بقيادة **بتلر** في نفس ذلك العام بناء على طلب أمريكي جري قصف العراق بعدها بيومين ..

وفي تصريح لإحدى المجلات السويدية أعلن أحد رؤساء فرق التفتيش الدولية أن بعض المفتشين كانوا يعملون مع المخابرات الأمريكية ..

وفي الشهور الثمانية الأولى من عام 1999 ، حلقت الطائرات الأمريكية والبريطانية في عشرة آلاف طلعة جوية في سماء العراق ، ألقت خلالها قنابلها على أكثر من أربعمائة هدف وتسببت في مصرع عدة مئات ..

وقد علق الجنرال الأمريكي **ويليام لوني** قائد هذه العملية قائلا : " لو أنهم أداروا راداراتهم ، فإننا سننسف صواريخ سام الملعونة الخاصة بهم .. هم يعرفون أننا نملك بلدهم ، أننا نملك فضاءهم ، أننا نملي الطريقة

التي يعيشون بها ويتحدثون .. وهذا هو الشئ العظيم بالنسبة لأمريكا الآن .. إنه أمر طيب خاصة عندما يكون هناك قدر كبير من البترول الذي نحتاجه " ..

* * *

وفي سبتمبر 2001 حدث ما حدث ، وتحركت آلة الحرب الأمريكية صوب أفغانستان للقضاء على **بن لادن** وتنظيم القاعدة وتنصيب حكومة أفغانية جديدة تابعة .. ويكشف الصحفي الأمريكي **بوب وودوارد** في كتابه "Plan of Attack" المنشور في أبريل 2004 عن دار سيمون وشوستر أنه بعد خمسة أيام فقط من أحداث 11 سبتمبر التقى **بوش** بمستشارة الأمن القومي **كونداليزا رايس** وأخبرها أنه فور الانتهاء من أمر أفغانستان عليه أن يبدأ في إجراء ما بشأن **صدام حسين** .. وبعد أسابيع من بدء الحرب على أفغانستان ظهرت حالة احتقان عسكري في الجيش الأمريكي حتى أن **رامسفيلد** واجه **بوش** في أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي بأنه لا يستطيع أن يطالب القوات المسلحة بأكثر مما تقوم به ، ومع أنه كان أول من ضغط عليها لكي تحقق نتائج أكثر إبهارا ، إلا أنه الآن أول من يدرك استحالة مطالبتها بالمزيد ، لأن أفغانستان ليس فيها هدف واحد يثير خيالا ، فقد كانت هناك في أفغانستان تسعة أهداف تم ضربها وجرت العودة إلها عشرات المرات ، والآن أصبح التكرار أضحوكة ولابد من ميدان آخر تثبت فيه القوة الأمريكية اقتدارها وكان **رامسفيلد** يضع عينه على العراق وكان تعبيره في محضر مجلس الأمن القومي في يومي 14 و 15 سبتمبر 2001 " إننا كلما رفعنا البيرسكوب[106] فوق سطح الماء وأدرنا البصر في عرض البحر حولنا لا نجد هدفا أنسب من العراق " ..

وفي 21 نوفمبر عقد الرئيس **بوش** اجتماعا في مجلس الأمن القومي انفرد بعده بوزير دفاعه **دونالد رامسفيلد** وسأله " ما الخطوات التي اتخذتها فيما يتعلق بالعراق ، وما آخر مستجدات خطة الحرب ؟ إنني أريد منك أن تعمل على الانتهاء منها وأن تبقيها سرا " .. وفور انتهاء هذا الحوار القصير خرج **رامسفيلد** ليلتقي بالجنرال **تومي فرانكس** مكلفا إياه بوضع خطة لغزو العراق والإطاحة بـ **صدام حسين** ..

وفي ديسمبر 2001 تحدث **جيمس وولسي** المدير السابق للمخابرات الأمريكية إلى صحيفة واشنطن بوست ودعا إلى غزو العراق وعدم المبالاة برد فعل العالم العربي ، وقد جاء في حواره العبارة الآتية : " إن صمت الرأي العام العربي في أعقاب الانتصارات الأمريكية في أفغانستان يثبت أن الخوف وحده هو الذي سيعيد الاحترام للولايات المتحدة " ..

وفي مطلع عام 2002 تصدى وزير الدفاع **رامسفيلد** لأولئك الذين ألمحوا إلى عدم وجود رابطة واضحة بين القاعدة والنظام العراقي ، بالإضافة إلى عدم وجود آدلة ملموسة على أن العراق قد عاد إلى برنامج تصنيع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وانفعل في تصريح متميز لم يسهل على أحد فهم المقصود به قائلا : " إن غياب الوضوح الأكيد لا يعني الوضوح الأكيد للغياب " !! ..

---

[106] منظار الغواصة

وبدأ دق طبول الحرب يعلو في النصف الأول من عام 2002 ، وصدرت العديد من البيانات التي تشير إلى خطورة النظام العراقي الذي تذكرته الولايات المتحدة فجأة بعد 12 عاما من انتهاء حرب الخليج الثانية ..

وفي 12 سبتمبر 2002 جاء خطاب الرئيس **بوش** أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ليؤكد نية أمريكا على إشعال الفتيل ، حيث أطلق **بوش** تحذيرات جدية إذا ما ظل العراق على رفضه بشأن عودة المفتشين الدوليين خاصة وأن الولايات المتحدة على يقين من إخفاء العراق لنشاطه النووي الشرير ..

وفي اليوم التالي أعلن العراق رفضه القاطع لعودة المفتشين ..

وفي 16 سبتمبر تلقى الأمين العام للأمم المتحدة رسالة من الحكومة العراقية بأنها غيرت رأيها ومستعدة لاستقبال المفتشين الدوليين نزولا على رغبة المجتمع الدولي وأنها تسمح بتفتيش كافة منشآت العراق وقواعده وأي مكان على أرض العراق بما في ذلك القصور الرئاسية ..

وفي 7 أكتوبر 2002 في ذكرى مرور عام واحد على بدء الحرب على أفغانستان ، أعلن **بوش** في بيان للشعب الأمريكي أن **صدام حسين** يستطيع مهاجمة الولايات المتحدة وحلفائها بأسلحة الدمار الشامل في أي يوم يختاره وأن إدارته سوف تؤدي الواجب المفروض عليها لمواجهة أسوأ الاحتمالات .. وطلب **بوش** تفويضا من الكونجرس باستعمال القوة المسلحة إذا ما وجد ذلك ضروريا ونال هذا التفويض في 11 أكتوبر .. وفي نفس اليوم طلب وزير الدفاع من هيئة أركان الحرب المشتركة أن تتحرك مجموعة الجيش الخامس وفرقة جنود المارينز الأولى إلى منطقة الخليج دون انتظار لأي رد فعل دولي ..

وكان هذا معناه أن الحرب آتية لا ريب فيها ..

وفي 8 نوفمبر صدر قرار مجلس الأمن رقم 1441 بإجماع خمسة عشر عضوا – ومن بينهم سوريا – وفيه تحذير شديد اللهجة للنظام العراقي بضرورة التخلي عن أسلحة الدمار الشامل والسماح للمفتشين بالقيام بعملهم دون عرقلة وإلا تعرض العراق لـ " عواقب وخيمة " ..

وبعد يومين أعلن الرئيس **بوش** في خطبة له : " إن الولايات المتحدة لن تنتظر حتى يوافق مجلس الأمن على تفويضها بالعمل العسكري ضد العراق ، لأن الخطر الذي تمثله أسلحته داهم ، ومهمة التفتيش لا ينبغي لها أن تتسبب في تعطيل إجراء تراه الولايات المتحدة واقيا من هجوم مفاجئ لأنها تعلمت الدرس من بيرل هاربور ولا تزال تذكره " ..

وفي 27 نوفمبر 2002 بدأ مفتشو الأمم المتحدة يتوجهون لأول مرة بعد غياب أربع سنوات إلى بغداد .. وقبل الذهاب بأيام توجه رئيس فرق التفتيش الدولي **هانز بليكس** إلى واشنطن في محاولة للحصول على وعد بوقف الغارات أثناء عمل المفتشين حفاظا على سلامتهم ، لكنهم أبلغوه هناك أن الغارات سوف تزيد ولكن مع وجود تنسيق خاص بين فريق المفتشين والقيادة الأمريكية في الكويت للحفاظ على أرواحهم .. ثم طلب **بليكس** من **كونداليزا رايس** أن تقوم الولايات المتحدة بمساعدة فريقه بتزويده بالمعلومات التي في حوزتهم ثم كرر طلبه هذا من **كولن باول** وتلقى تأكيدا بأن الولايات المتحدة سوف تضع تحت تصرفه

المعلومات الكافية للوصول إلى مخابئ أسلحة الدمار الشامل ، لكنهم اكتفوا في النهاية بتسليمه تقريرا سريا أعدته مخابرات وزارة الدفاع الـ DIA بعنوان " المنشآت الهامة لمواقع الأسلحة العراقية " ، ولم يكن له أدنى فائدة ..

وفي 12 ديسمبر 2002 استجاب العراق لما يطالبه به الجميع ، وقام بتقديم تقرير تفصيلي عن كل ما كان لديه من أسلحة دمار شامل .. وكان التقرير من 11 ألف صفحة بينها مئات من صور الوثائق والمستندات وحسابات فواتير الشركات الدولية التي باعت للعراق ما حصل عليه من مواد ومعدات .. وحمل الوفد العراقي الدائم لدى مجلس الأمن ثلاث نسخ من التقرير إلى مبنى الأمم المتحدة ، وجري تسليمها إلى رئيس مجلس الأمن لذلك الشهر وهو السفير الكولومبي .. ولم تكد تنقضي دقائق حتى جري اقتحام مكتبه بواسطة مجموعة من رجال المخابرات الأمريكية بصحبة سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة **جون نجروبونتي** وأصروا على أن تسلم إليهم النسخ الثلاث التي قدمها الوفد العراقي ، وحاول رئيس مجلس الأمن أن يناقشهم بلا جدوى ، واضطر تحت الضغط إلى الرضوخ لطلبهم بعد أن أخبروه باتصال **كولن باول** بالحكومة الكولومبية في العاصمة بوجوتا ..

وفي صباح اليوم التالي تلقى بقية الأعضاء الخمسة الدائمين نسخا من التقرير بعد أن تم حذف أجزاء كبيرة منه، أما باقي أعضاء مجلس الأمن فلم يحصلوا إلا على ملخص معلومات مكتوب يدويا .. وكان التبرير الذي قدمته الولايات المتحدة أن النظام العراقي يسعى إلى تضمين تقريره تفاصيل دقيقة عن تقنيات تصنيع الأسلحة البيولوجية والكيميائية فضلا عن محاولاته النووية السابقة وذلك رغبة منه في الانتقام ونشر أسرار قد تستفيد منها دول مارقة أو تنظيمات إرهابية تؤدي إلى انتشار أسلحة الدمار الشامل ..

وكان هذا التفسير ساذجا وواهيا ، إذ كيف للولايات المتحدة أن تعرف فحوى التقرير العراقي بدون الإطلاع عليه حتى يتخذوا قرارهم بمصادرته !.. ثم اتضح بعد ذلك أن السبب الحقيقي هو حرص الولايات المتحدة على إخفاء دور 25 شركة أمريكية عملاقة هي التي كانت قد باعت للعراق كل ما مكنه من بناء ترسانته العسكرية وذلك خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية .. والأكثر إثارة من ذلك أن مجالس إدارات تلك الشركات كانت تضم آنذاك عددا من أعضاء الحكومة الأمريكية في عام 2002 مثل **ديك تشيني** و**دونالد رامسفيلد** و**ريتشارد بيرل** وعشرات من أعضاء مجلس سياسات الدفاع ..

وفي 21 ديسمبر تلقت رئاسة الأركان المشتركة توجيها رئاسيا بتمركز خمسين ألف جندي أمريكي في منطقة الخليج العربي ..

وفي 2 يناير 2003 وقف **هانز بليكس** و**محمد البرادعي** رئيس هيئة الطاقة النووية يقدمان تقريرهما إلى مجلس الأمن ، وختم كبير المفتشين تقريره بقوله : " لقد مضت علينا الآن في العراق عدة أسابيع وقد مسحنا مناطق شاسعة في ذلك البلد ، لكننا حتى هذه اللحظة لم نعثر على سلاح الجريمة وتقديرنا أن فرق التفتيش تحتاج إلى وقت إضافي لإنجاز مهمتها " ، ثم قام الدكتور **البرادعي** يقول " إننا نحتاج إلى ستة

شهور حتى نتأكد من الحقائق في شأن المهمة التي كلفنا بها " .. ولم يكن لتقاريرهما أي وزن ، ففي نفس ذلك اليوم صدر قرار من وزير الدفاع بالبدء في تحريك 35 ألف جندي إلى مناطق الحشد في الكويت ..

لم تكن لدى الإدارة الأمريكية أية آدلة تدعم تسريعها بخطوات الحرب ، حتى أن الصحفي الأمريكي **ديفيد كورن** سأل **ريتشارد بيرل** قائلا : " ما الأدلة التي في حوزة الولايات المتحدة وتبرهن بأن **صدام حسين** يشكل تهديدا عاجلا للولايات المتحدة ؟ " .. وجاءه رد **بيرل** في تلقائية شديدة : " صدقني " ! ..

وفي كتاب ثمن الولاء لوزير المالية الأمريكي السابق **بول أونيل** الذي صدر في 13 يناير 2004 جاء فيه أن الرئيس **بوش** خطط لغزو العراق منذ بداية وصوله للبيت الأبيض ، وقبل أحداث سبتمبر ببضعة أشهر .. وكان توجيه **بوش** لإدارته : " اذهبوا واعثروا لي على طريقة لتنفيذ ذلك " .. وكان العالم أجمع على موعد مع خطاب الرئيس السنوي عن حالة الاتحاد والذي يلقيه في آخر يناير من كل عام .. وكان مضمون ذلك الخطاب هو الذي سوف يؤكد قيام الحرب من عدمه ..

ولمعرفة ملابسات الأسابيع الأخيرة السابقة على إلقاء الخطاب ، يمكن الرجوع إلى كتاب The Right Man من تأليف **ديفيد فروم** ، وكان واحدا من فريق **كارين هيوز** ، وهي مستشارة العلاقات العامة للرئيس ومسئولة المكتب الخاص المكلف بكتابة خطبه .. كانت **كارين هيوز** قد طلبت **فروم** للعمل في البيت الأبيض حتى تستفيد من قدراته كمحرر مرموق في وول ستريت جورنال يتميز بقدرته على صياغة الأفكار المعقدة في عبارات مبسطة من أجل المشاركة في كتابة خطب الرئيس **بوش** ..

يقول **فروم** في كتابه : " في أواخر ديسمبر 2002 اتصل بي في مكتبي بالبيت الأبيض **مايكل جيرسون** وهو كبير كُتّاب خُطب الرئيس والمساعد الرئيسي لـ **كارين هيوز** قائلا لي : " عندي اليوم مهمة تتعلق بخطاب الرئيس السنوي عن حالة الاتحاد ، فهل نستطيع الاعتماد عليك في صياغة فقرة أو أكثر لشرح الأسباب التي تدعونا إلى ملاحقة العراق .... كان واضحا لي أن طلب **جيرسون** مني هو كتابة الفتوى التي تبرر حربا على العراق توضع في سياق خطاب الرئيس عن حالة الاتحاد ..... فهمت مقصد **مايكل جيرسون** وسألته هل يستطيع أن يعطيني مهلة إلى ما بعد الغد أتقدم بعدها إليه بمشروع صيغة يمكن قبولها؟ .. ورد علىّ **مايكل جيرسون** بقوله : " شأنك غريب ، أنت تحتاج إلى يومين كاملين لكي تتوصل إلى صيغة يفتح بها الرئيس هذا الملف " .. فهمت وأدركت على الفور أن قرار الحرب ضد العراق قد اتخذ ، وأن صياغة أكثر الفقرات حساسية وخطورة فيه قد أوكلت إلىّ ، وكنت أعرف أن هناك مجموعة من خمسة غيري في مكتب العلاقات العامة يعكفون على كتابة مشروع الخطاب ، كل واحد منا يكتب جزءا ، ثم يسلم كل منا ما توصل إليه إلى **مايكل جيرسون** الذي يعيد تحريره لتوحيد الأسلوب ، ثم يعطيه لـ **كارين هيوز** مسئولة العلاقات العامة ، تراجعه وتضيف إليه لمساتها ، بحيث يصبح جاهزا للعرض على الرئيس ومستشاريه السياسيين .... سألت نفسي من أين أبدأ .. من السهل جدا تبرير حرب على **صدام حسين** لأنه أسوأ من يمكن أن نلقاهم على طول المسافة من الجزائر إلى كابول ، لكن المشكلة في هذه النقطة أن رئيس

الولايات المتحدة لا يصح له أن يتحدث عن التاريخ القديم لـ **صدام حسين** ، لأنه لا مجال لحسابه الآن عنه بعد السكوت الطويل عليه ، ثم إن الرئيس لا يستطيع أن يتحدث عن التاريخ القريب وإلا بدا ذلك نقدا للإدارات السابقة التي سكتت على ما فعل ولم تحاسبه ، ونحن لا نريد أن نوجه لوما إلى إدارة سبقت لأننا في شأن الحرب نفضل سياسة تعلو على أي خلافات حزبية ، لأننا في قرار الحرب نريد وفاقا بين الحزبين .. وإذاً فأنا لا أستطيع استعمال هذه الحجة .. انتقلت إلى التفكير في ذريعة أخرى : لقد قرأت كثيرا عبارة أن **صدام حسين** استخدم الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد في العراق ، أي ضد شعبه ، لكنني لو استعملت هذه الذريعة في الخطاب ، فإن أعضاء الكونجرس وأفراد الشعب قد يتساءلون " وأين كنا منذ حدث ذلك " ، وهو سؤال وجيه ، لكنه مرة أخرى سوف يُلقى اللوم على الذين سكتوا عن هذا العمل الشنيع خصوصا أن **بوش** الأب كان في البيت الأبيض حينها نائبا للرئيس **ريجان** ، وإذاً فإن الذريعة الثانية لا تصلح لصياغة خطاب عن ضرورة الحرب مع العراق .. وصلت في التفكير إلى تهمة محاولة اغتيال **بوش** الأب أثناء زيارته للكويت سنة 1993 ، لكني عدلت عن هذه الذريعة مرة ثالثة ، لأن أي كاتب من الدرجة الثالثة يستطيع أن يجد فيها مجالا لاتهام الإدارة بأنها تسعى للثأر الشخصي على طريقة عصابات المافيا ..... وفي بعض الأحيان يكون أفضل أسلوب للبحث عن مدخل لخطاب سياسي هو التفتيش أولا عما يحتمل أن يقوله الخصوم الذين يعارضونه ، وفي حالة العراق تثار دائما نقطتان : الأولى : أنه لم تثبت لـ **صدام حسين** صلة بحوادث 11 سبتمبر 2001 ، فلماذا نعاقبه ؟ .. والثانية : أن **صدام حسين** ديكتاتور طاغية ، لكن **ستالين** كان كذلك أيضا ، ونحن لم نحاربه ، وإنما اكتفينا باحتواء الاتحاد السوفيتي ، فلماذا نشهر على **صدام حسين** حربا لم نقم بها ضد **ستالين** ، إلا إذا اعترفنا أن قوة الاتحاد السوفيتي ردعتنا ، في حين أن ضعف العراق يغرينا ! .... كنت أعرف أننا نريد تغيير النظام في العراق ، لكن ظني أن الرأي العام سوف يتساءل : هل نظام **صدام حسين** وحده هو الذي يستحق التغيير ؟ .. وإذا كنا سنغير المنطقة كلها ، إذاً فنحن نتحمل عبئا لم تتحمله الإمبراطوريات التي حكمت المنطقة من الرومان إلى آل عثمان ..... إن الرئيس يحتاج باعتباره الرئيس أن يقول شيئا واضحا يربط **صدام حسين** بمستقبل استقرار السلام في العالم ، بحيث يظهر أن المطلوب هو تصفية الخطر على هذا المستقبل وليس مجرد ردعه .... توصلت من هنا إلى فكرة رئيسية مؤداها أن ضرب **صدام حسين** جزء من مواجهة المخاطر التي تهدد سلام العالم ، لأنه أول الشرور ..... توصلت إلى صياغة حول ما فكرت فيه وعرضتها على **مايكل جيرسون** وعلى **كارين هيوز** وقد جلسنا لمناقشة الصياغات النهائية لأجزاء الخطاب في مكتب **كونداليزا رايس** ، وكان عليها أن تراجع نصه الأخير قبل أن ندخل به إلى المكتب البيضاوي .. وقد أعجبت **كونداليزا رايس** بالصيغة التي اقترحتها ، ورأت أنها تتسع لآخرين بينهم إيران ، وأضافت " نحن نريد إيران كذلك " ..... ودارت مناقشة بدا فيها أن أول بلدان في طابور الشر : العراق وإيران ، دولتان إسلاميتان ، وذلك يمكن أن يولد حساسيات لا نريدها في العالم الإسلامي ، واقترح **جيرسون** أهمية إضافة دولة ثالثة غير إسلامية ، وقالت **كوندي** : " كوريا

الشمالية " .. وعقبت قائلة : " إذاً ، فإن الثلاثة معا أصبحوا محورا للشر ، ولا داعي لأن نقول من الآن أن الشر طابور طويل " .. وهكذا جرت ولادة تعبير " محور الشر " وقد أسعدني أن الرئيس **بوش** قرأ الفقرة المتعلقة بالعراق في خطابه كما كتبتها نهائيا ، لم يغير فيها حرفا " ..

هكذا تسير الأمور في الولايات المتحدة ! ..

وقد جاء في خطاب الاتحاد أن المعلومات المتاحة تؤكد أن أسلحة الدمار الشامل العراقية جاهزة للتشغيل في ظرف 45 دقيقة بإشارة إصبع من صدام حسين وهو ما يرسخ حق المبادرة في الدفاع عن النفس بردع أخطر رجل في العالم قبل أن يفكر في تدمير الكوكب ! ..

* * *

ثم نتوقف أمام مسألة المعلومات الاستخباراتية بشأن شراء العراق لليورانيوم من دولة النيجر الأفريقية والتي استشهد بها **بوش** في نفس ذلك الخطاب الذي أغلق الباب تماما أمام تسوية سلمية للأزمة العراقية المفتعلة ..

ففي عام 2001 وردت معلومات عن مساع عراقية لشراء 300 طن من اليورانيوم 235 من جمهورية النيجر وهو ما يسمى بالكعكة الصفراء التي تصنع منها الأسلحة النووية .. وعلى رأس قائمة المعلومات ظهرت صورة لخطاب رسمي من أحد وزراء حكومة النيجر يتحدث عن صفقة اليورانيوم .. اهتمت الإدارة الأمريكية بالمعلومات ، واختار مدير المخابرات **جورج تينيت** واحدا من أكثر خبرائه اتصالا بالشئون الأفريقية وهو **جوزيف ويلسون** الذي الذي كان يشغل منصب السفير الأمريكي في الجابون ، وأمره بأن يذهب بنفسه إلى النيجر في مطلع عام 2002 ويعود بالخبر اليقين .. وبالفعل ذهب **ويلسون** إلى النيجر وراح يتقصى التفاصيل وخرج بعد شهرين بأن القصة كلها ملفقة ، وأن الخطاب المشار إليه بتوقيع أحد الوزراء مزور ، بل إن ذلك الوزير المنسوب إليه توقيع الخطاب الرسمي لم يكن يشغل أي منصب في التاريخ الذي ورد أعلى الخطاب ! .. وقد كشف السفير **ويلسون** هذا الخطاب من أول أسبوع قضاه في نيامي عاصمة النيجر ، لكنه مضى مع ذلك يستوثق حتى يأتي بالخبر اليقين عن هذا الموضوع الخطير .. ثم كتب إلى **تينيت** تقريرا عن نتائج مهمته ، وأكد فيه أنه بحث المسألة مع سفيرة الولايات المتحدة الحالية في نيامي وأنها قالت له " إننا سمعنا كلاما كثيرا عن جهود بذلها العراق للحصول على اليورانيوم 235 ، وقد تابع خبراء السفارة هذا الموضوع ، وهم يتابعونه بتكليف دائم لأن اليورانيوم في النيجر ليس مسألة هينة ، لكنهم جميعا لم يعثروا على أي دليل ، بل إن ما عثروا عليه ينفي نفيا قاطعا محاولة العراق من الأصل شراء يورانيوم من هنا " .. ثم قالت السفيرة : " إن هذه السفارة كتبت إلى واشنطن عشرات المرات عن هذا الموضوع ، لكنه يبدو أنهم في واشنطن لا يصدقون إلا ما يريدون تصديقه ، وهذا أمر غريب ! " .

وقد تلقى مكتب نائب الرئيس **تشيني** نسخة من تقرير **ويلسون** الذي يجزم بأن الموضوع ملفق بالكامل ولا أساس له من الصحة .. ورغم ذلك فإن يورانيوم النيجر خصص له فقرة كاملة في خطاب **بوش** الشهير !!

.. وحين انكشف الموضوع بكل تفاصيله أمام الرأي العام ، اضطرت الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالخطأ .. ولم يجد البيت الأبيض ملاذا سوى الإعلان بأن مدير المخابرات قد اطلع على نص خطاب الرئيس عن حالة الاتحاد متضمنا الفقرة الخاصة بشراء اليورانيوم من النيجر ولم يعترض على حرف فيه .. وارتضى **تينيت** أن يقوم بدور كبش الفداء لأنه لم يكن أمامه سوى ذلك ..

وهكذا ألقى **بوش** خطابه في 29 يناير 2003 وجاء بمثابة دعوة للحرب مغلفة بمسحة دينية ساذجة، إذ يقول فيه أن " الحرية التي نناضل من أجلها ليست هدية أمريكا إلى العالم ، بل هي هدية الرب إلى البشرية "..

وفي 5 فبراير ذهب **كولن باول** إلى مجلس الأمن ليعرض عليهم آدلة الولايات المتحدة من صور ومستندات على شاشة عرض ، وأكد أن العراق ما زال ينتج أسلحة الدمار الشامل وأن العلاقة بين النظام العراقي وتنظيم القاعدة مؤكدة ومتمثلة في الجماعة الكردية المعروفة باسم أنصار الإسلام .. ثم ظهر فيما بعد أن كل ما جاء في تقرير **باول** كان أكذوبة كبيرة وأن زعيم جماعة أنصار الإسلام يعيش في حرية تامة في العاصمة النرويجية أوسلو وأن الولايات المتحدة لم تفكر يوما في اعتقاله .. وقد اعترف **باول** بعد خروجه من الوزارة أن ذلك اليوم الذي اضطر فيه للكذب على مرأي ومسمع من العالم أجمع كان أسوأ أيام حياته على الإطلاق ..

وقبل بدء الحرب بأيام كتب الدكتور **هارلان أولمان** أحد مستشاري البيت الأبيض مذكرة بعنوان " الصدمة والرعب " وُضعت أمام الرئيس الأمريكي ونشرتها الصحف الأمريكية ويقول فيها : " إن الولايات المتحدة عليها أن تستعمل أقوى شحنة من القوة المكثفة والمركزة والكاسحة بحيث تنهار أعصاب أي عدو يقف أمامها ، وتخور عزيمته قبل أن تنقض عليه الصواعق من أول ثانية في الحرب إلى آخر ثانية ، ويتم تقطيع أوصاله وتكسير عظمه وتمزيق لحمه دون فرصة يستوعب فيها ما يجري له " .. هذا الدكتور ذو الخيال الدموي المفزع هو أستاذ جامعة يدرّس للطلبة العلوم السياسية في كلية الدفاع الوطني ..

وفي منتصف مارس شنت القوات الأمريكية الحرب تحت عنوان ملفت هو Coalition of the Willing بمشاركة 49 دولة وهو عدد كبير من الدول يعطي انطباعا بموافقة المجتمع الدولي على شن هذه الحرب .. إلا أن المتأمل لأسماء الدول سيجد أن التحالف يضم معظم الجزر الموجودة في المحيطين الهادي والهندي وهي دويلات لا تمتلك قوات عسكرية أصلا لكنها تشارك بوجدانها .. فعلى سبيل المثال جزيرة بالاو كانت في طليعة الدول التي شاركت في التحالف الدولي لكنها لا تمتلك سوى ثمار جوز الهند وليس لديها عسكري واحد ..

أما الدول الحقيقية التي شاركت في التحالف فقد شهدت معارضة شعبية شديدة لكنها شاركت بضغوط أمريكية على حكوماتها مثلما كان الحال في أستراليا التي لم يكن أمام رئيس وزراءها سوى الرضوخ وإلا الحرمان من اتفاقية التجارة الحرة ..

* * *

وبعد أشهر من نشوب الحرب ، أحدثت فضيحة الانتهاكات في سجن " أبو غريب " ضجة مدوية في جميع أنحاء العالم .. وجاء التكليف بإعداد تقرير عسكري قصد به في البداية أن يكون سريا ، وأشرف على إصداره الجنرال **أنتونيو تاجوبا** بتكليف من **ريكاردو سانشيز** قائد القوات الأمريكية في العراق .. وجاء في التقرير عن الممارسات الأمريكية الشاذة ما يلي : تصوير السجناء والسجينات فوتوجرافيا وبكاميرات الفيديو ، وهم عراة تماما .. إجبار محتجزين على الاستمناء وتصويرهم أثناء القيام بذلك .. الإصرار على أن يرتدي السجناء الذكور ملابس داخلية نسائية .. توصيل الكهرباء بأطراف السجناء وأعضائهم التناسلية للاستمتاع بمنظرهم وهم يرتعشون .. وضع أطواق الكلاب حول رقاب السجناء ثم جرهم بالسلاسل على الأرض .. الاعتداء جنسيا على سجينات عراقيات .. ضرب الرجال بمؤخرات البنادق في مناطق حساسة بهدف إخصائهم .. وضع عصي المكانس في المؤخرات بعد غمسها في مواد حارقة .. إجبار الرجال على ممارسة الجنس مع بعضهم البعض من خلال الفم .. التعذيب بربط كلتا اليدين بقيد حديدي في عمود معدني في الشمس لفترات طويلة .. إطلاق المعتقلين مقيدين ومعصومين في الطريق العام من دون متعلقاتهم الشخصية وبثياب السجن مما يعرضهم لمخاطر جمة ..

* * *

وعن هذه الحرب تحدث وكتب الكثيرون من الساسة والكتاب ..

فيقول **تشارلز كروتهايمر** : " إن الحرب في العراق جاءت لتغيير الصفقة الشيطانية التي عقدتها أمريكا مع العالم العربي قبل عشرات السنين ، تلك الصفقة التي قالت أنتم ترسلون لنا البترول ونحن لا نتدخل في شئونكم الداخلية .. هذه الصفقة انتهى مفعولها عمليا في سبتمبر 2001 .. فمنذ ذلك اليوم أصبح الأمريكيون يدركون أنهم إذا ما تركوا العالم العربي يسير في دروبه السيئة من قمع واضطهاد وتدمير للاقتصاد وزرع لليأس فسيواصل إفراز المزيد والمزيد من "الأسامات" .. لذلك توصلت أمريكا إلى الاستنتاج بأن لا خيار أمامها سوى الاضطلاع بتنفيذ مشروع إعادة بناء العالم العربي من جديد .. وبناء على هذا التصور فإن الحرب في العراق هي بداية تجربة تاريخية غايتها تنفيذ ما تم تنفيذه في ألمانيا واليابان في العالم العربي الآن .. فالوجود الأمريكي في العراق من شأنه أن يبث قوة في المنطقة ، ويعطي جرأة وطاقة للمتمردين في إيران ، كما سيردع سوريا ويلجمها ، ويسرع من وتيرة التغيير " ..

ويقول **جيمس وولسي** المدير الأسبق للمخابرات الأمريكية : " الآن وقد تواجدت القوات الأمريكية في بغداد ، فإن الرهان الحقيقي هو توسيع رقعة الديمقراطية إلى أطراف العالم العربي والإسلامي التي تهدد الحضارة الليبرالية التي عملنا على بنائها والدفاع عنها طوال القرن العشرين " ..

وعندما سئل **كين أدلمان** السفير الأمريكي الأسبق في الأمم المتحدة عن احتمالات إساءة الحرب ضد العراق إلى الحكومات العربية وعلى رأسها مصر والسعودية ، أجاب السفير على سؤال مجلة واشنطن الشهرية قائلا : " هذا أفضل ، إذا كنت تريد رأيي " ! ..

أما الرئيس الأمريكي **جورج بوش** فقد ظل يدافع عن أسباب القيام بغزو العراق ، وأجد من الأنسب أن ننهي الفصول الخمسين بعبارة له لا مثيل لها في أدبيات السياسة العالمية على مر التاريخ ، إذ يقول **بوش** :

We didn't lie. And we are not lying now to cover up the lies we told you before!!

الولايات التي اتحدت

بالنظر إلى خريطة العالم ، يسهل التأكيد على أن الولايات المتحدة لم تستثن مكانا من التدخل في شئونه والعمل على تذليل كافة العقبات المحتملة التي قد تحول في المستقبل دون تحقيق مصالحها ..

ومن اللافت للنظر أن أسلوب التدخل الأمريكي ارتبط ارتباطا وثيقا بجغرافيا العالم ، وأستطيع أن أؤكد الآن أن التسلسل الذي سارت عليه فصول الكتاب قد راعى الجغرافيا بقدر ما اهتم بالتاريخ ..

وإذا كانت المبادئ التي حركت الدوافع الأمريكية هي كما سبق وأن أشرنا : مبدأ **مونرو** في دول الجوار الأمريكية ، ومبدأ **أيزنهاور** في الشرق الأوسط ، ونظرية الدومينو في الشرق الأسيوي ، فإن أسلوب العمل قد اعتمد في منحاه على مظاهر متسقة مع طبيعة المكان التي تشكل وجدان شعوب المنطقة الواحدة ..

في أمريكا الجنوبية كان تدبير الانقلابات العسكرية هو الأسلوب الأكثر سيادة في قارة يتسم أهلها بالعصبية والحماس مع تدني مستوى التعليم وتفشي الفقر رغم وجود موارد طبيعية كانت لتسمح بحياة أكثر رغدا ..

وكانت البداية في جواتيمالا بعزل رئيس الجمهورية **أربينز** في عام 1952 وفرض الكولونيل **أراماس** حاكما عسكريا على البلاد .. وتكرر السيناريو بعد ذلك في الغالبية العظمى من بلدان أمريكا الجنوبية والوسطى ..

وفي أفريقيا لجأت الولايات المتحدة إلى ذات الأسلوب بالاعتماد على انقلابات عسكرية للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم ، ولكن تطور التكنيك باستغلال النزاعات القبلية والاختلافات العرقية لتسهيل العمليات دون إقحام نفسها بشكل مباشر نظرا لبعد المسافة وصعوبة التدخل في الأدغال الأفريقية ..

وفي أوروبا الشرقية كان الرهان الأمريكي على الرأي العام ، على الشارع الذي بات يطمع في تغيير يمكنه من اللحاق بركب التطور ويتذوق طعم الرفاهية التي لا توفرها الشيوعية بكل تأكيد .. ولعبت مؤسسة الوقف الوطني من أجل الديمقراطية الدور الأكبر في شحن الرأي العام وتأليب المواطنين ضد الأنظمة الشيوعية التي شاخت وفقدت معظم بريقها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي .. وكان الفعل الأمريكي منصبا بالأساس على حشد الشعوب في اتجاه الغرب بتقديم الإغراءات المادية الكبيرة التي من شأنها أن تنتشلهم من واقع جاف تحكمه سياسات تقشفية ذات مبادئ تنظيرية ليس لها أي مردود على أرض الواقع .. وكانت الأجيال الجديدة هي وقود معركة الرأي العام بما لها من تطلعات نحو أحلام الثروة والنمط الأمريكي في المعيشة ..

وفي الشرق الأسيوي كان التدخل الأمريكي حادا وقاسيا ، وكانت رغبتهم في الحد من المد الشيوعي في القارة الأسيوية تعميهم عن عواقب تدخلهم الأخرق .. كان الأمريكان كالمغامر الأحمق الذي يركب حصانه منطلقا به في الصحراء على وعد أن يتملك الأراضي التي يقطعها بحصانه بشرط أن يعود قبل غروب

الشمس ، فهلك الحصان من شدة التعب وفقد المغامر الأرض من شدة طمعه وثقته في قدراته .. واعتمدت الولايات المتحدة في تدخلها على الحرب المباشرة ولعب سلاح الطيران دور البطولة لمدة عشر سنوات .. لكن الهند الصينية لم تكن ميدانا مناسبا لفرض السطوة الأمريكية بقوة السلاح .. وكان الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه الولايات المتحدة هو عدم فهمها لنفسية الأسيويين الذين إذا آمنوا بمبادئ دافعوا عنها بحياتهم إلى آخر نقطة دم ، وأظهرت قوات الفيتكونج والباثيت لاو بطولات رائعة مكنتها من هزيمة الجيش الأمريكي هزيمة كاملة ..

وفي الشرق الأوسط كانت الأمور أسهل من كل تصور .. فإسرائيل التي تسللت بالتدريج إلى الجسد العربي كورم سرطاني أهمل المريض في علاجه مبكرا فبدأ ينتشر ويتوغل ويصيب الخلايا بالجنون ، أصبحت مع الوقت هي القوة الأكبر في الوطن العربي ، ولم يكن الأمريكان في حاجة إلى بذل الكثير من الجهد لبسط النفوذ .. حيث اعتمدت الولايات المتحدة على ولاء الحكام العرب الذين يدركون أن بقاءهم في السلطة مرهون بالرضا الأمريكي وأن البترول العربي كمسدس بلا رصاصات ، فالرصاصة في جيب أمريكا ..

وهكذا اتحدت الويلات الأمريكية ، وصارت الكرة الأرضية في حجم كرة البيسبول ، يطوحها المضرب الأمريكي كيفما شاء ..

مـاذا نـفـعـل ؟؟

معرفة ما حدث ..

الغضب مما جرى ..

التفكير فيما يمكن القيام به لتفادي تكرار الجرائم الأمريكية في حق الشعوب ..

وهذا هو أصعب ما في الموضوع ..

فالانتصار على الولايات المتحدة لن يحدث برفع السلاح الذي نشتريه من أمريكا في وجهها ! ..

الانتصار لن يأتي إلا بإضعاف أمريكا والاستغناء عن الاحتياج لها في كل تفاصيل حياتنا اليومية ..

وإذا كان **بنيامين فرانكلين** قد تحدث قبل أكثر من قرنين عن مقاطعة البضائع الإنجليزية أثناء حرب الاستقلال الأمريكي وقبلها ، فإن هذا التوجه ليس مستحيلا في أيامنا هذه ..

لكن ، وللأمانة لا أراه الأسلوب الأمثل أو الأكثر تأثيرا .. لأننا في أثناء إلحاقنا الضرر بالمنتجات الأمريكية ، فإننا نؤذي عشرات الألوف من الأسر العربية التي تكسب رزقها من العمل في شركات عربية عديدة أخذت رخصا أو دخلت في عقود اتفاق مع مثيلاتها الأمريكية ..

ومع ذلك ، فإن اقتراح متكرر لرئيس الوزراء الماليزي السابق **مهاتير محمد** بالتوقف عن استعمال الدولار الأمريكي كعملة رسمية لمعاملاتنا التجارية الدولية والبحث عن عملة بديلة مثل اليورو أو غيرها ، هو اقتراح في منتهى الأهمية والخطورة والتأثير ..

إلا أن المتأمل في حقيقة الأزمة – إن كنا نتحدث عن أمتنا العربية – ، فإنه سيكتشف أن سر النجاة من السيطرة الأمريكية يكمن في القوة ..

إذاً ، يصبح التساؤل الحقيقي : كيف نصير أقوياء ؟ .. أبرز دلالات القوة ألا يحتاج القوي إلى الآخرين ، أو يحتاج إليهم بقدر حاجتهم إليه ..

فإذا لم نشتر السلاح من أمريكا ، فمن أين لنا به ؟ . وإذا لم نستورد القمح من أمريكا ، فكيف تأكل شعوبنا ؟ .. وإذا لم تستدن دولنا الفقيرة من أمريكا أو المؤسسات المالية الدولية التابعة لها ، فكيف ننفق على التزاماتنا السنوية ؟؟ ..

عشرات الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات ..

ربما يظل الأساس الذي نبني عليه توجهاتنا هو البحث فيما نملكه أولا وفيما يمكن أن نستغني عنه ثانيا ..

فإذا كان بعضنا يستورد القمح من أمريكا ، فعلينا ببساطة أن نرتب أولويات استراتيجياتنا الزراعية بحيث نقترب من الاكتفاء الذاتي ، وفي الوقت نفسه أن نلجأ إلى دول أخرى نقايض القمح معها بسلع أخرى تحتاج إليها ..

وإذا كنا نستورد السلاح بمليارات الدولارات من أمريكا ، فإن ذلك قد أصبح مدعاة للسخرية حيث أننا ندعم الاقتصاد الأمريكي بتشغيل مصانعه الحربية بأقصى طاقاتها ، ولكننا لا نجرؤ على استخدام ذلك السلاح ضد إسرائيل ، وذلك أمر مفهوم طبعا .. وبناء على استحالة أن تمدنا أمريكا بأسلحة تضمن لنا تفوقا عسكريا على إسرائيل ، وبناء على عدم وجود نوايا من أي نوع للحكومات العربية الحالية للدخول في حرب مع إسرائيل ، فإن شراء الأسلحة الأمريكية وما يستلزمه ذلك من تقديم تنازلات يعد نوعا من الحماقة .. ثم إن العالم من حولنا يبيع أسلحة من كل نوع وصنف ، والسوق مفتوحة أمام الجميع ..

ونأتي إلى ما أطلقنا عليه ذات يوم سلاح البترول .. هل يمكن أن تتوقف دول العرب الغنية عن تصدير البترول كنوع من الضغط على الولايات المتحدة ؟ .. نعم ، يمكن .. ولكن ليس في ظل الأنظمة العربية الحالية ..

وماذا عن تريليونات الدولارات العربية المودعة في بنوك وبورصات الولايات المتحدة ؟.. هل يمكن أن تصير هي الأخرى ورقة ضغط كبيرة بتحويل هذه الأموال للاستثمار في الوطن العربي أو حتى في شرق أسيا ؟ .. نعم ، ممكن .. ولكن إذا تغيرت الأنظمة الحاكمة ..

وماذا عن التكامل العربي بحيث نستكمل نواقصنا من بعضنا البعض بغير التسول من أمريكا ؟ .. هل يمكن أن يعتمد المحتاجون من العرب على أصحاب المال العرب ، هل يمكن أن يعتمد أصحاب المال العرب على أصحاب الخبرة والعلم من العرب ، بحيث يظل احتياج العرب لغير العرب في أضيق الحدود الممكنة وبعيدا عن أمريكا ؟ .. نعم ، ممكن .. ولكن ليس في ظل حرص الحكام العرب على كراسيهم التي إن أغضبوا أمريكا انكسرت أرجل الكراسي وانكفأوا على وجوههم ..

وماذا عن التعليم والاهتمام بالتعاليم الدينية والجدية في العمل والحرص على مستقبل الأجيال الجديدة التي إن نشأت قوية متعلمة متبصرة صعب على الأمريكان إحكام السيطرة على بلادنا ؟ .. هل يمكن أن يتطور العرب وأن يصبحوا قادرين على خدمة أنفسهم بأنفسهم على الصعيد التكنولوجي والعلمي ؟ .. نعم ، ممكن .. ولكن في ظل أجيال جديدة من الإدارات الشابة المستنيرة التي تحب بلادها وترغب بحق في النهوض .. من جديد .. ماذا نفعل ؟؟ ..

الله معنا ، إن كنا معه ..

كـلمة أخيـرة عنهـا

اعطوني فقراءكم والمكدودين فيكم ، وجموعهم المهضومة الحقوق ، المتحرقة لنسيم الحرية ..

اعطوني الفائض الملفوظ الذي يموج على شواطئكم ..

ابعثوا بهؤلاء المشردين الضائعين ، ومن أطاحت بهم العاصفة .. ابعثوا بهم إليّ ..

هذه كلمات منقوشة على قاعدة تمثال الحرية في ميناء نيويورك ..

كلمات على لسان أمريكا الرحيمة إلى شعوب الأرض المحتاجين إلى عطفها ورعايتها ..

فكم كانت عطوفا ! ..

وكم كانت حانية ! ..

* * *

وبعد الفصول الخمسين .. هل من جديد يمكن أن يضاف ؟ ..

عدد من الفصول البايخة لم يزل في الإمكان الإشارة إليها ..

* * *

قصة رمزية ..

في أحد أيام القرن التاسع عشر ، خرج ثلاثة رحالة أمريكيين إلى بلاد الله الواسعة ..

وفي بلد من البلاد ، جلس الرحالة مع مستضيفيهم يشربون نخب بلدهم في دعوة كريمة على العشاء ..

قال الأول : هذا النخب لأمريكا ، التي تحدها شمالا أمريكا البريطانية (كندا) ، ويحدها جنوبا خليج المكسيك ، وشرقا المحيط الأطلنطي ، وغربا المحيط الهادي ..

وقال الثاني : هذا النخب لأمريكا ، التي يحدها من الشمال القطب الشمالي ، ومن الجنوب القطب الجنوبي ، ومن الشرق شروق الشمس ، ومن الغرب غروب الشمس ..

أما الثالث فقال : هذا النخب لأمريكا ، التي يحدها من الشمال الشفق الشمالي ، ومن الجنوب اعتدال الأيام والفصول ، ومن الشرق الفوضى البدائية ، ومن الغرب يوم الحساب ..

إنه نفس الشعور بالعظمة .. بأن أمريكا هي مركز الكون .. بأن الآخرين لا وزن لهم ولا قيمة ..

للدكتور **مصطفى محمود** عبارة يقول فيها : " إن الفيلسوف الذي ظن أن السماء تتدلى منها ثريات النجوم لتضئ له ، كان يضحك على نفسه .. إنه مثل ذلك الرجل الساذج الذي ظن أن الله قد خلق للخيول ذيولا لنصنع منها المنشات " ! ..

وهكذا تلعب شعوب الأرض دور المنشات للذباب الأمريكي ..

* * *

سخرية لا تخلو من واقع ..

" على الولايات المتحدة أن تستبدل نجوم علمها بجماجم القتلى " .. الأديب الأمريكي **مارك توين**

كان الأديب الساخر من أشد منتقدي سياسة دولته في السنوات الأولى من القرن العشرين عندما بدأت انتهاك حرمات جيرانها الجنوبيين ، ولو أنه انتظر معنا حتى أوائل القرن الحادي والعشرين لاكتشف أن الذين تقتلهم الولايات المتحدة اليوم قد لا تبقي منهم على عظمة واحدة ..

ولـ **مارك توين** صلاة خاصة جدا أسماها صلاة الحرب قد لا تختلف في كثير من مفرداتها عن صلوات معظم من تولوا رئاسة الولايات المتحدة قبل عصر **توين** وبعده ..

تبدأ الصلاة بالتضرع إلى الله والدعوات الحارة ، وأترككم مع أجوائها الإيمانية العطرة : " يا رب ساعدنا على تمزيق جنودهم إربا بقنابلنا .. ساعدنا على أن نغطي أراضيهم الخضراء بجثثهم .. ساعدنا أن نغمس بنادقنا في جروحهم التي تصرخ من الألم .. ساعدنا أن نتخلص من منازلهم الوضيعة بأعاصير من النار .. ساعدنا أن نوجع قلوب أراملهم بأحزان هائلة .. ساعدنا أن نشردهم هم وأطفالهم ليتوهوا في أرضهم المهجورة في جوع وعطش وثياب بالية .. ولتطح بهم يا رب شمس الصيف الحارقة ورياح الشتاء الثلجية ، مكسوري الوجدان ، يطحنهم الألم ، يتضرعون إليك في ذل أن تريحهم بالموت ، فلا تمن عليهم به .. أيا رب .. انسف أحلامهم .. لوث حياتهم وأثقل من خُطاهم وافرش طريقهم بالجوع .. أغرق ثلوجهم البيضاء بدماء جروحهم .. إننا نسألك ذلك من واقع حبنا لذاتك العليا مصدر الحب والملجأ الأخير الخالد ، والصديق الأعظم لكل ضعيف ينشد مساعدتك بقلب ضارع نادم .. آمين " ..

* * *

هو نوع من الاستفزاز ..

أن تنال الولايات المتحدة جائزة نوبل للسلام 18 مرة من أصل 86 مرة تم فيها منح الجائزة منذ بدأ هذا التقليد في عام 1901 .. من بينها ثلاث مرات لثلاثة رؤساء هم **تيودور روزفلت** عام 1906 و**وودرو ويلسون** في سنة 1919 و**جيمي كارتر** في عام 2002 .. ومرة لنائب الرئيس **تشارلز داوز** في سنة 1925 وخمس مرات لوزراء الخارجية **إليهو روت** في سنة 1912 و**فرانك كيلوج** في سنة 1929 و**كوردل هال** في سنة 1945 و**جورج مارشال** في سنة 1953 و**هنري كيسينجر** في سنة 1973 ..

يأتي هذا في الوقت الذي لم ينل فيه الاتحاد السوفيتي السابق الجائزة سوى مرتين ، واحدة في عام 1975 عن طريق **أندريه زخاروف** العالم الفيزيائي الشهير الذي انتقد النظام السوفيتي ونال الجائزة تقديرا له على شجاعته في معاداة الشيوعية ، والثانية للرئيس السوفيتي **ميخائيل جورباتشوف** ربما تقديرا له على دوره في انهيار الاتحاد السوفيتي ! ..

وفي الوقت نفسه ، فإنه لا توجد أي دولة أخرى في العالم أحرزت هذه الجائزة كل هذا العدد من المرات ، حيث تأتي شريكة الولايات المتحدة في السلام العالمي وهي بريطانيا في المركز الثاني إذ نالت الجائزة 11 مرة ! ..

* * *

وعلى ذكر جوائز نوبل للسلام ، فقد وافق وزير خارجية أمريكا **دين أتشيسون** (يناير 1949 – يناير 1953) في عام 1950 على ما نادى به بعض نواب مجلس الشيوخ بأنه " في حالة تطور المجاعة في القارة الصينية ، فإن على الولايات المتحدة تقديم بعض المساعدات الغذائية .. ولكن ليس بقدر يكفي لإنهاء المجاعة ، فقط ما يكفي لكسب نقطة في الحرب النفسية " ..

أتشيسون المحب للسلام ، هو الوزير الذي خلف **جورج مارشال** (يناير 1947 – يناير 1949) وزير الخارجية الفائز بجائزة نوبل ..

تدل موافقة **أتشيسون** على توصيات مجلس الشيوخ على رقة مشاعره وفيض نزعاته السلمية ، وإن كان الحظ لم يسعفه بالفوز بجائزة السلام التي كان يستحقها عن جدارة ، لولا أن ارتأت اللجنة المعنية صعوبة تعاقب فوز ثلاثة وزراء خارجية من دولة واحدة بنفس الجائزة في فترة وجيزة ..

أما **جورج مارشال** شخصيا – صاحب مشروع مارشال الإنساني – ، فقد أوضحت دراسة أجريت في أبريل 1947 – أي في عهد توليه وزارة الخارجية – أن المساعدات الأمريكية كانت توجه فقط إلى " دول ذات أهمية استراتيجية أساسية للولايات المتحدة ، باستثناء بعض الأحوال النادرة حين تأتي فرصة تستطيع الولايات المتحدة من خلالها الحصول على رضا دولي بفضل عمل إنساني كبير " ..

عن مثل هذه الأفكار استحق البعض أرقى مستويات التقدير على جنوحه الغريزي للسلام ..

* * *

للرؤساء الأمريكيين تاريخ مع الاغتيال ..

فمنذ استقلال الولايات المتحدة في عام 1776 تم اغتيال أربعة من رؤسائها ، وتعرض خمسة آخرون لمحاولات اغتيال ، بينما اغتيل مرشح واحد للرئاسة ..

الرئيس الأمريكي السادس عشر **ابراهام لينكولن** اغتيل في 14 أبريل 1765 في مسرح فورد بالعاصمة واشنطن على يد جنوبي متعصب يدعى **جون بوث** .. والرئيس الأمريكي العشرون **جيمس جارفيلد** أصيب بطلق ناري في 2 يوليو 1881 في محطة سكة حديد واشنطن على يد عاطل طامع في أحد المناصب يدعى **تشارلز جويتو** ليلقى حتفه بعد أحد عشر أسبوعا متأثرا بجراحه .. والرئيس الأمريكي الخامس والعشرون **ويليام ماكنلي** قضى نحبه على يد فوضوي مختل يدعى **ليون تسولوجوس** في 14 سبتمبر 1901 في مدينة بافالو بولاية نيويورك .. والرئيس الأمريكي الخامس والثلاثين **جون كينيدي** اغتاله **لي هارفي أوزوالد** في 22 نوفمبر 1963 في مدينة دالاس بولاية تكساس .. أما أخوه **روبرت كينيدي** المرشح الديمقراطي للرئاسة

في انتخابات عام 1968 فقد اغتاله الفلسطيني **سرحان بشارة سرحان** في 5 يونيو 1968 وكان آخر ضحايا الاغتيالات ..

ثم هناك الرئيس الأمريكي السابع **أندرو جاكسون** الذي أطلقت عليه أعيرة نارية في عام 1835 لكنه لم يصب بأذى .. والرئيس الأمريكي السادس والعشرون **تيودور روزفلت** أصيب برصاصتين في صدره في عام 1912 في مدينة ميلووكي بولاية ويسكونسن .. والرئيس الأمريكي الثاني والثلاثون **فرانكلين روزفلت** نجا من محاولة اغتيال قبل شهر من تسلم مهام منصبه في ديسمبر 1932 .. والرئيس الأمريكي الثالث والثلاثون **هاري ترومان** تعرض لإطلاق نار من جانب ثوار بورتوريكيين في عام 1950 لكنه لم يصب بسوء .. وأخيرا الرئيس الأمريكي الأربعون **رونالد ريجان** تلقى رصاصة في الجانب الأيسر من صدره في 30 مارس 1981 على يد شاب يدعى **جون وارنكي هنكلي** أمام فندق واشنطن هيلتون في العاصمة الأمريكية ..

بعكس ما يعتقد البعض ، كان للرؤساء الأمريكان صولات وجولات مع محاولات الاغتيال ..

أما الأهم من ذلك ، فهو أن القانون الأمريكي حتى عام 1974 كان يعطي لرئيس الولايات المتحدة السلطة لإصدار أوامر باغتيال أي زعيم دولة يرى الرئيس أنه عدو للولايات المتحدة على أن تقوم المخابرات الأمريكية بتنفيذها ..

لم يتعرض أي رئيس أمريكي من الرؤساء الثلاثة والأربعين إلى محاولة خارجية جادة للاغتيال .. وفي المقابل تعرض عشرات الزعماء في معظم دول العالم للاغتيال بمباركة القانون لمن تشاور عليه أصابع ساكني البيت الأبيض ..

* * *

لبعض الوزراء الأمريكان مواهب أخرى بخلاف مسئولياتهم الوزارية ..

فوزير الخارجية **ويليام سيوارد** قد صاغ قصيدة شعرية في 10 مايو 1867 يتحدث فيها عن مستقبل أمريكا قائلا :

أمتنا ذات المصالح المتحدة المباركة

غير راضية الآن عن السكون ، سوف تحكم الباقين

وإمبراطوريتنا في الخارج لن تعرف حدودا

وإنما هي مثل البحر سوف تتدفق في دوائر لا نهائية

كان الوزير متحمسا ويشدو في نشوة مؤكدا أن بلاده سوف تغزو العالم وتحكم الشعوب ، وأنها لن تقنع بالسكون الناجم عن السلام .. لم يجد الوزير أدنى حرج في التعبير عن مشاعره الصادقة الفياضة ..

ووزير الدفاع **ويليام كوهين** في إدارة الرئيس **كلينتون** له قصيدة غنائية يتغزل فيها في أوصاف المقاتلة النفاثة الـ إف 15 .. كيف تصيب الهدف بسرعة ودقة ، وكيف يعجز الأعداء عن اللحاق بها أو تفادي ضرباتها .. هذا الوزير لم يتم حجزه في مستشفى الأمراض العقلية ..

أما وزير الدفاع الحالي **دونالد رامسفيلد** ، فله ديوان شعر نشرته دار سيمون وشوستر بنيويورك في أكتوبر 2003 ، ويقول الشاعر **رامسفيلد** في إحدى قصائده عميقة المعاني :

كما نعرف

فهناك أشياء لا نعرفها

بعضها نعرف أننا لا نعرفه

وبعضها الآخر لا نعرف أننا لا نعرفه

الأشياء التي لا نعرفها لا نعرفها

والأشياء التي نعرفها قد لا نعرفها **!!**

وقد علق وزير الخارجية السابق **كولن باول** على هذه القصيدة الفلسفية بالغة التعقيد قائلا :" إذا كنا لا نعرف ما يجري في رؤوسنا ، فكيف لنا أن نزعم معرفة ما يجري في العالم **!** " ..

وقد نالت هذه القصيدة جائزة رفيعة المستوى يتم منحها لهذه النوعية الخاصة من الشعر ، وتُعرف الجائزة باسم الرطانة غير المفهومة **!** ..

* * *

حكاية من الحرب العالمية الثانية ..

في يناير 1943 اجتمع **روزفلت** بـ **تشرشل** في الدار البيضاء لوضع خطة لغزو جنوب أوروبا ..

وقع الاختيار على صقلية الجزيرة الإيطالية في البحر المتوسط كنقطة انطلاق لهجوم الحلفاء ..

كانت هناك مخاوف بشأن هذا الاختيار .. فالحلفاء تنقصهم الخرائط وجداول المد والجزر ومواقع أرصفة الموانئ .. ثم إن 400 ألف جندي من قوات المحور يتمركزون في جزيرة صقلية ..

استقر التفكير على الاستعانة بعصابات المافيا لتسهيل عملية اقتحام الجزيرة ، وكانت تلك واحدة من أعجب العمليات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية ..

كان تقدير الإدارة الأمريكية أن مسألة تفادي مخاطر الإنزال هي أمر حتمي قبل أي شروع في اقتحام الجزيرة . وكان مطلوبا من الجزيرة أن تتسع لنصف مليون جندي أمريكي على أن تتحول مباشرة إلى منصة يقفزون منها على شبه الجزيرة الإيطالية .. وجاءت الصفقة على شكل مقايضة مع عصابات المافيا في نيويورك ، وتعود جذور زعماء تلك العصابات الشهيرة إلى جزيرة صقلية ، حتى أن سلطة المافيا في صقلية تفوق سلطة الحكومة الإيطالية نفسها ..

كانت الولايات المتحدة تدرك تلك الحقيقة بشكل جيد ، وقد سجلت مذكرات الرئيس الأمريكي **روزفلت** عن الاتصالات مع المافيا أن العصابة " سوف تحصل مقدما على 25 مليون دولار لوضع قطع من الحلوى في أفواه بعض المسئولين في صقلية " .. كما شمل الاتفاق أن تكون للمافيا حقوق حماية بعد تحرير إيطاليا من الاستعمار الألماني ، فلا يقتصر الوضع على مجرد التغاضي عن نشاط المافيا في الولايات المتحدة وحدها ، وإنما أن تضمن لها مشاركة فعالة ومؤثرة في الشأن الإيطالي ..

غير أن أهم بنود الاتفاق كان بندا غريب الشأن ..

كان أحد زعماء المافيا وفي الوقت ذاته واحد من أشهر تجار المخدرات على مستوى العالم نزيلا في أحد سجون نيويورك ..

كان السجين ذائع الصيت يدعى **تشارلز لاكي لوتشيانو** ، وكان يقضي عقوبة السجن المؤبد في الولايات المتحدة ..

وقد توصل كل من مكتب الخدمات الاستراتيجية ومكتب الاستخبارات البحرية – وهي أجهزة سابقة على إنشاء وكالة المخابرات المركزية – إلى عقد اتفاق مع **لوتشيانو** لاستخدام نفوذه داخل صقلية لتأمين الإنزال الأمريكي في مقابل إطلاق سراحه والسماح له بمزاولة نشاطه داخل الأراضي الأمريكية بحرية تامة ..

وقد كان ..

فقد ساعد **لوتشيانو** على معرفة التفاصيل الخاصة بأماكن نشر قوات المحور وخرائط الألغام والشفرة ، كما ساهم في تحديد أكثر الأماكن أمنا فيما يخص الإنزال البحري .. وقد كانت خدمات رجل المافيا مؤثرة لدرجة أن الجنرال الأمريكي الشهير **باتون** قد نزل وسط جنوده بالمدرعات من البحر إلى البر ، وكان في استقبالهم زعماء عائلات المافيا وأبناؤهم وزوجاتهم وأطفالهم ومعاونوهم في الحكومة المحلية بل وحتى تلاميذ المدارس .. كانوا جميعا يلوحون بالأعلام الأمريكية ويهللون مع إنزال كل قارب من القوارب الأمريكية التي تحمل الجنود والأسلحة .. كان المشهد وكأن الجيش الأمريكي قد عاد منتصرا إلى بلده الذي خرج يستقبله استقبال الفاتحين ..

ثم قام أحد بارونات المافيا وأكثرهم نفوذا غربي صقلية وهو دون **كالو جيرو فيتشيني** بالتعاون مع قوات الحلفاء لتمكينهم من عبور جبال سان فيتو وكانت أصعب مراحل العملية ، إذ كانت تلك الجبال تفصل بين الحلفاء وقوات المحور المتمركزة على الجانب الآخر من الجزيرة ..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحديدا في الثالث من ديسمبر 1945 صوت مجلس تخفيف الأحكام في ولاية نيويورك بالإجماع من أجل منح العفو لـ **لوتشيانو** بشرط ترحيله إلى إيطاليا ..

وقد مات **لاكي لوتشيانو** في عام 1962 بأزمة قلبية أثناء وجوده في مطار نابولي ، وكان هناك لمقابلة منتج سينمائي من هوليوود يرغب في عمل فيلم عن حياته .. وكان **لوتشيانو** قد أدلى قبيل وفاته بأسابيع قليلة بحديث لوكالة أسوشييتدبريس سئل فيه عن سبب إخراجه من السجن ، فقال **لوتشيانو** : " لقد حصلت على

العفو بسبب الخدمات الكبيرة التي قدمتها للولايات المتحدة " ، ثم ضحك وأضاف قائلا : " ولأنهم قبل هذا وذاك قد أدركوا براءتي " ! ..

* * *

ما زلنا في نفس المكان والزمان ..

فقد اجتمع الجنرال الأمريكي **باتون** بجنوده قبيل الإنزال في إيطاليا ونورماندي ، وألقى فيهم خطبة من أجل تهوين العامل النفسي الذي كان يؤثر على معظمهم .. فقد كان العديد من الجنود الأمريكيين على وشك أن يروا أوطان آبائهم للمرة الأولى .. أوطان الآباء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة ربما قبل جيلين أو ثلاثة على الأكثر وكانت تلك أول زيارة لمعظمهم إلى أوروبا حيث عاش الآباء والأجداد ..

جاءت خطبة **باتون** كالتالي : " حين ننزل على الشاطئ ، سنجد أمامنا جنودا إيطاليين وألمانا .. ستكون مهاجمتهم وإبادتهم شرفا وامتيازا لنا .. ثمة كثيرون بيننا يسيل في عروقهم دم ألماني أو إيطالي .. فليتذكر هؤلاء أن أسلافهم أحبوا الحرية حين تركوا وطنهم وأرضهم ، واجتازوا المحيط كي يجدوها هناك .. إن أسلاف الناس الذين سنقتلهم الآن افتقروا إلى شجاعة الإقدام على تضحية كهذه ، فواصلوا العيش عبيدا " ..

لقد كان الجنرال يبحث عن مبرر وجيه للقتل ! ..

* * *

لم نبرح الزمان والمكان بعد ..

قبيل انتهاء الحرب ، كانت هناك مجموعة من الجنود الألمان تختبئ في بلدة فرنسية صغيرة تدعى رويان .. تقع البلدة على ساحل المحيط الأطلنطي بالقرب من مدينة بوردو ، أي أنها كانت أبعد ما يكون عن ميدان الحرب وبلا أية أهمية عسكرية .. وكان هؤلاء الألمان ينتظرون نهاية الحرب التي كان من الواضح أنها قد شارفت على الحسم لمصلحة الحلفاء ..

وكان من الغريب أن تقرر الولايات المتحدة تحريك 200 مقاتلة حربية في اتجاه بلدة رويان لقصفها بقنابل النابالم وحرقها بالكامل ، ليموت كل من عليها من مدنيين وعساكر يختبئون أملا في انتهاء الحرب ..

وقد حققت الولايات المتحدة أملهم في إنهاء الحرب مبكرا عن موعدها ، على الأقل بالنسبة لهم ..

* * *

انتهت الحرب العالمية الثانية في عهد الرئيس **ترومان** صاحب قرار إلقاء القنبلة الذرية .. وبعد ذلك التاريخ بعدة أشهر ، جاءت هذه العبارة على لسان **ترومان**: " سيأتي وقت يستلزم علينا أن نحصل على ***العديد من الأشياء الطيبة*** من خارج الولايات المتحدة ، وخاصة الأشياء التي نحن في حاجة إليها .. وسيمتد ذلك من السلفادور وحتى ليبيريا التي سنذهب إليها لنبحث عن مناجم الحديد رخيص الثمن اللازم لصناعة الصلب في بلادنا .. كما أننا سنحصل على النحاس من الخارج لزيادة ما نملكه منه في أريزونا لأننا لم نعد نحصل

على هذا الذي تنتجه شيلي .. وسنحصل على القصدير من بوليفيا ، والكاوتشوك من إندونيسيا .. ومن المفهوم طبعا أنني أستطيع أن أطيل القائمة التي تشمل احتياجاتنا التي يمكن أن يزودنا بها العالم " ..

ولكي تحصل أمريكا على العديد من الأشياء الطيبة كان عليها أن ترتكب عددا من الأشياء السيئة ! ..

* * *

" إذا كنت لا تستطيع تحمل الحرارة ، فعجّل في الخروج من المطبخ " ..

هذه العبارة كانت معلقة في برواز صغير في مكتب الرئيس الأمريكي **ترومان** ..

وعلى ما يبدو فإن **ترومان** الذي بقي في المطبخ السياسي لمدة ثمان سنوات تسبب خلالها في مقتل ما يقرب من خمسة ملايين بني آدم في نهاية الحرب العالمية الثانية وفي اليونان و كوريا ، كان متمتعا بوافر الصحة ، الأمر الذي مكنه من تحمل لهيب نيران الحروب التي أشعلها والقنابل الذرية التي أهداها إلى الشعب الياباني لينعم بالدفء الإجباري بلا إمكانية للخروج من المطبخ ، إذ حُشرت مدن يابانية بأكملها داخل ميكروويف أمريكي ضخم سريع الطهي ..

* * *

في 23 فبراير 1948 ظهرت واحدة من أخطر المذكرات السياسية الأمريكية في القرن العشرين ..

تقول المذكرة السياسية لمجلس الأمن القومي رقم 68 المحررة من قبل **جورج كينان** رئيس المجلس القومي المعني بدراسة سياسة التخطيط ، ما يلي : " نحن نملك حوالي 50 % من ثروة العالم ، غير أننا نمثل 6.3 % من سكانه فقط .. وفي مثل هذا الوضع ، لا يمكن تجنب أن نكون هدفا للكراهية والغيرة .. ومهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة هي تطوير نظام للعلاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه المكانة ، دون تعريض أمننا القومي للخطر .. ولتحقيق هذا ، علينا أن نتخلص من أية عاطفة وأن نتوقف عن أحلام اليقظة .. ويتعين علينا أن يكون كل تركيزنا منصبا على أهدافنا القومية المباشرة من دون أن يصيبنا الغرور .. ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا اليوم باتباع رفاهية حب الغير والخير على الصعيد العالمي .. كما ينبغي أن نتوقف عن الحديث عن أهداف كبيرة غير محددة مثلما هو الحال في الشرق الأقصى .. فهذا غير قابل للتنفيذ ، مثل قضايا حقوق الإنسان ، ورفع مستوى المعيشة ، وإرساء الديموقراطية .. ولن يكون بعيدا اليوم الذي سيكون علينا فيه استخدام القوة .. وكلما تخلصنا من الشعارات المثالية ، كنا أفضل حالا " ..

لن نكون مبالغين إن تصورنا أن هذه الورقة هي أول ما يقرأ كل رئيس جديد تطأ قدماه البيت الأبيض ..

* * *

لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاما في خدمة الجيش الأمريكي ، كنت في معظمها أشبه بقاطع طريق يعمل لصالح وول ستريت والشركات والمصارف الكبرى ..

الميجور جنرال **سمدلي بتلر** في خمسينات القرن العشرين ..

* * *

في مذكرات الرئيس الأمريكي **دوايت أيزنهاور** جاء هذا الاعتراف الصادق : " إن مشكلتنا هي أننا لدينا حملة من الكره ضدنا ، ليس من قبل الحكومات ولكن من قبل الشعوب " ..

لذا لجأت أمريكا دوما إلى كسب ود الشعوب ، وكان لها أساليب متميزة ضربت المثل في الفاعلية والتأثير ، مثل : الضرب بالقنابل الذرية ، القصف بالنابالم ، الاحتلال العسكري المباشر ، هدم المنازل وإبادة السكان وحرق الغابات ، واغتيال الزعماء المحبوبين وتعيين أكثر الأشخاص دموية بدلا منهم بعد تدريبهم على أعلى مستوى ..

* * *

عن عدوانية الولايات المتحدة تجاه الآخرين ، كتب الأديب الأمريكي **ألدوس هكسلي** يقول : " قد تكون هناك مناقشات بشأن أفضل وسيلة لزراعة القمح في طقس بارد أو إعادة تشجير جبل صخري قحل ، إلا أن مثل هذه المناقشات لا تؤدي أبدا إلى مذابح منظمة .. فالمذابح المنظمة لا تنتج إلا عن مناقشات تتعلق بأسئلة كالتالية : ما هي أفضل أمة ؟ .. ما هو أفضل دين ؟ .. وما هي أفضل نظرية سياسية ؟ .. وما هو أفضل نظام سياسي ؟ .. لماذا يتسم الآخرون بالغباء والخبث ؟ .. لماذا لا يمكنهم إدراك مدى نبلنا وذكائنا ؟ .. لماذا يقاومون جهودنا النبيلة لإخضاعهم لسيطرتنا وجعلهم على شاكلتنا ؟ " ..

ويكمل **فولبرايت** المعنى بقوله : " لقد اندلعت الكثير من حروب الإنسانية وربما معظمها بسبب مثل هذه الأسئلة المجردة " ..

* * *

في أواخر ستينات القرن الماضي ظهرت نظرية أمريكية سياسية مدهشة .. كانت تلك النظرية تعرف باسم " الرجل المجنون " ..

تقول النظرية " إن أعداءنا يجب أن يدركوا أننا من المجانين الذين لا يمكن التنبؤ بتحركاتهم ، مع وجود قوة تدمير هائلة بين أيدينا ، حتى يقوموا بالانحناء رعبا لإرادتنا " ..

على أية حال ، أن تدّعي أنك مختل عقليا مع امتلاكك الفعلي للقوة ، خير من أن تكون فعلا مختلا عقليا وتدعي امتلاك القوة ! ..

* * *

في عام 1993 طالب **زبجنيو برجينسكي** مستشار الأمن القومي الأسبق بأن يكون للولايات المتحدة الحق في الثروات الطبيعية للعالم بالشروط اللازمة ، كأجر على تضحيتها لعقود طويلة في الحرب ضد الشيوعية التي تم التغلب عليها بنجاح ..

لم تجئ هذه المطالبة في حوار خاص أو في مكالمة مع أحد الأصدقاء أو دردشة في كابينة مصيف .. جاء هذا التصريح علنيا موجها إلى دول العالم التي تمتلك الثروات كي تعطي أمريكا أجرها امتنانا وعرفانا لها على كل ما فعلته بها ..

* * *

كان هناك خبير اقتصادي أمريكي يُدعى **لورانس سومرز** يعمل في البنك الدولي .. وفي ديسمبر 1991 كتب مذكرة داخلية يقول فيها : " يتعين على البنك أن يشجع هجرة الصناعات القذرة إلى البلدان الأقل تطورا ، لأن تكاليف التلوث الضارة بالصحة والمسببة للموت ستكون أقل ، وذلك من بين أسباب أخرى ، فبقدر ما تستند هذه التكاليف إلى الإيراد الضائع على العمال المتأثرين بذلك في بلد الأجور فيه منخفضة بشكل حاد ، فإن التكاليف المحسوبة ستكون أقل كثيرا .. وإنني أعتقد أن المنطق الاقتصادي وراء دفن حمولة من النفايات السامة في البلد الأقل أجرا معصوم من الخطأ وعلينا مواجهة ذلك والتعامل معه " ..

كان الخبير الأمريكي يطالب بدفن النفايات السامة في الدول الفقيرة ، وكان ينادي بانتقال الصناعات الملوثة للبيئة إلى الدول النامية – وهو ما حدث بالفعل – وكان له منطق أبعد ما يكون عن المنطق ..

ورغم أن مذكرته هذه حظيت بإدانة واسعة النطاق فور الإعلان عنها ، إلا أن الرئيس الأمريكي **بيل كلينتون** ارتأى فيه الكفاءة اللازمة لتولي منصب أكثر أهمية ، فأصدر قرارا بتعيينه وزيرا للخزانة في عام 1999 ..

* * *

" إننا في الولايات المتحدة لن نقبل أن يرشح للرئاسة شخص ألقى قنبلة في مطعم مكتظ بالناس ، لكننا نسعد لانتخاب شخص أسقط قنابل من الطائرات لم تدمر المطاعم فقط بل المباني التي تضمها والمجاورات التي تحيط بها "..

دوجلاس لوميس عالم في الشئون السياسية في سبتمبر 1994

* * *

" بعد أن كانت التهمة التي توجه لمن يهدد مصالح الغرب من المسلمين في أيام الشيوعية أنه لا يؤمن بالله بالدرجة الكافية ، أصبحت التهمة الموجهة إليه في عصر الإرهاب أنه يؤمن بالله بدرجة أكبر من اللازم "..

الدكتور **جلال أمين**

ويبدو أن مشكلتهم ليست مع الشيوعية ولا مع الإرهاب ولا مع درجة الإيمان ..

إن مشكلتهم مع الله ! ..

* * *

يروي **روبين كوك** وزير خارجة بريطانيا السابق أنه جلس ذات يوم يتناقش مع وزيرة خارجية الولايات المتحدة **مادلين أولبرايت** في موضوع يخص كوسوفو .. ثم حدث أن وقع خلاف بين الاثنين حول إحدى النقاط الهامة ، فاعتدل **كوك** في جلسته وقال : " **مادلين** .. إن خبراءنا القانونيين لا يوافقون على ما تطلبون منا " .. وهنا نظرت **أولبرايت** في عينيه مباشرة ، وأخبرته في برود : " **روبين** .. إذاً ، فقد حان الوقت كي تغيروا مجموعة خبرائكم القانونيين " ! ..

* * *

مع نهاية الفترة الأولى لـ **بطرس غالي** كأمين عام للأمم المتحدة في أواخر عام 1996 ، كان واضحا أن الولايات المتحدة تعارض التجديد له ، رغم أن جميع من سبقوه في هذا المنصب قد تم التجديد لهم لفترة ثانية ..

وجاءت نتيجة اقتراع أمين عام الأمم المتحدة في مجلس الأمن 14 صوتا لصالح **بطرس غالي** في مقابل صوت واحد معارض هو الولايات المتحدة .. فقد استخدمت أمريكا الفيتو وأدى هذا الاقتراع إلى توقف عملية الانتخاب في الأمم المتحدة .. وفي مبنى الأمانة العامة لصق شخص مجهول منشورا صغيرا في المصعد ، ومن بين عبارات المنشور جملة للمتحدث باسم **مادلين أولبرايت** يقول فيها : " ليس بوسع الأمم المتحدة أن تفعل إلا ما تسمح به لها الولايات المتحدة أن تفعله " ..

ولم تسمح ..

* * *

في عهد الرئيس **جورج بوش** الابن رفضت الولايات المتحدة التصديق على معاهدة حظر الألغام الأرضية التي وقعتها 137 دولة .. ولم ترفض المعاهدة سوى العراق وليبيا وكوريا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية ..

* * *

وقبل أكثر من خمسين عاما اعترضت الولايات المتحدة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة 1948 في شقه المتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية .. ولم توافق عليه إلا بوصفه كإعلان وليس معاهدة ولا يفرض عليها التزامات قانونية .. كما لم يتم التصديق في الكونجرس الأمريكي على الاتفاقية الخاصة بمنع كل أشكال التمييز العنصري في عام 1956 ، والاتفاقية الخاصة بمنع العمل الإجباري عام 1957 ، واتفاقية منع التعذيب عام 1984 ..

تتخذ الولايات المتحدة موقفا معاديا من كل ما يمت لحقوق الإنسان بصلة ، ومع هذا لا يمنعها ذلك من الانقضاض على دول خارجية مارقة بدعوى أن تلك الدول لا تحترم حقوق الإنسان ! ..

* * *

منذ سنوات قليلة ، أحصت المباحث الفيدرالية الـ FBI حالة قتل كل 22 دقيقة ، وحالة اغتصاب كل خمس دقائق ، وحالة سرقة كل 49 ثانية ، وحالة اعتداء كل 30 ثانية ..

ومع ذلك تنظر الولايات المتحدة إلى مواطني العالم الثالث باعتبارهم من الهمج المتخلفين الذين يحتاجون بشدة إلى تدخل أمريكا حتى ينالوا حظهم من الرقي والتحضر بلمسات أمريكية خاصة ! ..

* * *

لا تتميز أمريكا كثيرا عن الدول المتخلفة فيما يتعلق بالعلاقة بالبيئة ..

فقد أشار أحد تقارير مكتب حماية البيئة الأمريكية بأن نحو 92 % من النفايات الأمريكية تُلقى في الأرض ، وأن 4 % فقط يتم معالجتها كيميائيا ، أما البقية فيعاد تصنيعها واستخدامها في أغراض أخرى .. وقد أوضح التقرير أن تكلفة التعامل مع النفايات متباينة جدا .. فتكلفة دفن طن واحد من النفايات في الأرض تبلغ 11 دولارا ، وتكلفة إعادة تصنيعها ترتفع إلى 19 دولارا ، بينما تصل تكاليف المعالجة الكيميائية أو الحيوية للنفايات إلى 50 دولارا ..

أحيانا يتطور مفهوم مكافحة تلوث البيئة إلى مكافحة البيئة نفسها ! ..

* * *

من بين ما أسفرت عنه أحداث 11 سبتمبر 2001 أن تمكنت الولايات المتحدة من بناء 13 قاعدة عسكرية أمريكية في وسط أسيا بالقرب من الصين .. خطوة على طريق الاستعداد لتطويق عملاق مارد ..

وعلى المتعوسين وخائبي الرجاء من أمثالنا أن يتهيئوا لمتابعة مباراة قوية متكافئة في توقيت ليس ببعيد ..

* * *

يقول عضو مجلس سياسات الدفاع الأمريكي السابق **ريتشارد بيرل** : " أؤمن بأن السلطة الأمريكية هي دائما نبع خيرات العالم .. وأؤمن بأن القوة العظمى الوحيدة مفروض عليها بشكل خاص القضاء على جميع التهديدات التي تثقل بوطأتها على أمن الكرة الأرضية " ..

ونعم الإيمان ..

* * *

" إن صورة أمريكا الجميلة الواقفة على التل يحسدها عليها الجميع مما يجعلها هدفا لهجمات الإرهابيين الذين لا يستطيعون تحمل أن تنتصر مثل هذه الطيبة المطلقة في عالم ينتمي إلى سيدهم الشيطان " ..

جور فيدال

صورة أدبية رائعة للفاتنة التي تقعد على قمة التل .... بعد أن خربتها ! ..

* * *

" إنني أخشى وأنا أتحدث إليكم الآن أن يكون ورائي أحد الإرهابيين ".. هكذا استهل وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** حديثه إلى القوات الأمريكية أثناء زيارة له إلى الكويت بعد سقوط بغداد في يونيو 2003 داخل إحدى القواعد العسكرية الأمريكية ..

منتهى الجبن .. منتهى الصراحة .. منتهى الخبل ..

* * *

في يناير 2004 صرح وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** لمجلة نيوزويك قائلا : " الناس الأحرار ، أحرار في ارتكاب الأخطاء ، وارتكاب الجرائم وعمل الأشياء السيئة " ..

لو أن هذا تعريف الحرية بشكل عام في الولايات المتحدة فإنه يعطي تفسيرا معقولا جدا لجميع الأحداث التي تناولها هذا الكتاب ..

* * *

نكتة ..

في أثناء جولة دعائية للرئيس **بوش** في فصل داخل إحدى المدارس الأمريكية من أجل تبرير مواقفه السياسية وحشد الرأي العام لتأييد الحرب على العراق ، نهض أحد التلاميذ الصغار ويُدعى **بوب** ، وطلب الكلمة ..

فأشار له الرئيس **بوش** بالكلام ..

وقف **بوب** يقول : سيدي الرئيس .. لدي ثلاثة أسئلة أرغب في طرحها :

- كيف نجحت في الانتخابات رغم إحرازك عدد أصوات أقل من منافسك **آل جور** ؟
- لماذا تريد مهاجمة العراق بدون سبب مقنع ؟
- ألا تعتقد أن ضرب اليابان بالقنابل الذرية كان أكبر عمل إرهابي في التاريخ ؟

في تلك اللحظة رن الجرس إيذانا بانتهاء الحصة ، فهرع الأطفال الصغار إلى الفناء وتركوا الرئيس في موقعه ..

وعندما عادوا مرة أخرى إلى الفصل ، ابتسم لهم الرئيس **بوش** في ود وشجعهم على إلقاء المزيد من الأسئلة ..

هذه المرة .. قام التلميذ الصغير **جون** ، وطلب الكلمة قائلا :

سيدي الرئيس .. لدى خمسة أسئلة أتشوق لسماع إجابتها :

- كيف نجحت في الانتخابات رغم إحرازك عدد أصوات أقل من منافسك **آل جور** ؟
- لماذا تريد مهاجمة العراق بدون سبب مقنع ؟
- ألا تعتقد أن ضرب اليابان بالقنابل الذرية كان أكبر عمل إرهابي في التاريخ ؟
- لماذا رن جرس المدرسة في الحصة السابقة بالذات عشرين دقيقة مبكرا عن موعده ؟
- ثم السؤال الأخير سيدي الرئيس .. أين ذهب **بوب** ؟؟

* * *

مبيعات خمس شركات أمريكية هي جنرال موتورز ، وول مارت ، إكسون موبيل ، فورد ، دايملر كرايسلر تتجاوز إجمالي الناتج القومي لـ 182 دولة في العالم .. علما بأن عدد دول العالم يبلغ 193 دولة !

* * *

يفوق دخل شركة إكسون موبيل للبترول دخل دول الأوابك وهي مجموعة الدول العربية المصدرة للبترول مجتمعة ..

* * *

يمتلك الأشخاص الثلاثة الأكثر ثراء في أمريكا أصولا تفوق ما يملكه جميع السكان في الستين دولة الأكثر فقرا في العالم ..

* * *

مجموع إنفاق الولايات المتحدة العسكري يفوق إجمالي إنفاق الـ 25 دولة التي تليها في الترتيب ..

* * *

تنفق الولايات المتحدة 10 مليار دولار سنويا على المجلات والعروض الإباحية ، وهو مبلغ يعادل المبالغ التي تنفقها على المساعدات الخارجية .. تسعى الولايات المتحدة لفرض سطوتها على حكومات العالم بالمعونات والدعم ، وليس إنفاق المليارات على الجنس المحرم إلا هيمنة أشد على عقول شباب شعوب العالم ..

* * *

" إن أسنة الحراب ليست أفضل موقع تقعد عليه الإمبراطوريات " ..

رئيس وزراء الهند الأسبق **جواهر لال نهرو**

وقد واظبت الولايات المتحدة على اختيار هذا المكان الموجع كي تستقر إمبراطوريتها فوقه ..

وليس في وسع أحد أن يجلس طويلا فوق الخوازيق ! ..

* * *

“Kiss my ass or I'll kick your head in.”

هي عبارة أوجز بها الكاتب البريطاني **هارولد بنتر** في عام 1998 نظرة السياسة الأمريكية تجاه العالم من حولها ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تترجم إلى اللغة العربية ..

* * *

" إذا ربحت نزعة الأمركة ، فإنها ستدمر البشرية خلال مائة وخمسين عاما ، ستواصل الأرض بعدها دورانها في الفضاء الكوني ككوكب ميت " .. الكاتب الألماني **يؤاخيم فرناو**

لا أتصور أن أمريكا ستحتاج كل هذا الوقت ..

* * *

" إن لون تمثال الحرية يكتسب شحوب الموت يوما بعد يوم .. فإنك يا أمريكا من فرط حبك لحرية الرصاصات ، تطلقين النار على نفسك كل يوم " .. الشاعر الروسي **لفجيني ايفشنكو**

فإن لم تكن النهاية بالقتل ، فلتكن بالانتحار ..

و... كلمة أولى عنا

والآن ..

ماذا عنا نحن ؟ ..

أجل ، نحن ..

هل جاء الكتاب كمبرر قوي لإراحة ضمائرنا ، والاكتفاء بالحسرة والأسى على مصائرنا ؟ ..

ألا توجد وسيلة واحدة فعالة للحفاظ على أرضنا وعرضنا ، للنهوض من جديد والوقوف على قدمين ثابتتين ، للحركة مع عقارب ساعة التاريخ إلى الأمام ، للاتعاظ من تجارب الآخرين والعمل على تلافي أخطائهم ، لاستعادة الثقة والإيمان بمقدرتنا على الصمود ثم المواجهة ثم المقاومة ثم استرداد هيبة ما كانت لهذا المكان ولأصحابه في يوم من الأيام ؟ ..

ألا يمكن أن نكف عن ترديد أن الاستعمار الشرير اللئيم قد مص دماءنا وأوقف حالنا وسرق مالنا ، وأننا لولاه لكنا وأصبحنا ؟ ..

ألا يمكن أن نتوقف ولو لمرة واحدة في حياتنا عن معاملة أنفسنا كعرائس ماريونيت يتحكم فينا محترف ماهر بخيط من أعلى ؟ ..

ربما حان الوقت كي نقص الخيط ونحرر رقابنا ..

* * *

قبل أن ننهي المشهد الأخير تحدوني رغبة جارفة في وصف بعض ما أراه وأشعر به تجاه أحوالنا العربية . أكتفي بفقرات منفصلة لا يصل بينها إلا الهوان ..

* * *

كان هناك عقرب يريد العبور من ضفة نهر إلى الضفة الأخرى ..

شاهد ضفدعا يسبح عند الشاطئ ، فاقترب منه طالبا أن يحمله على ظهره إلى الجهة الأخرى ..

اعترض الضفدع في سرعة قائلا : أضعك بنفسي على ظهري كي تلدغني !

فرد عليه العقرب في حنق : أنا سأقفز على ظهرك وأنت في الماء ، فكيف بالله عليك ألدغك ؟ .. لئن فعلت ، لغرقنا معا ..

اقتنع الضفدع بهذا المنطق المعقول ، وسمح للعقرب بالقفز على ظهره ..

وفجأة .. وفي منتصف النهر ، لدغ العقرب الضفدع .. فصرخ الأخير في فزع وهو يهوي إلى الأعماق : كيف تفعل هذا أيها الأحمق ؟

فقال العقرب في بلادة وهو يغرق معه : لا تنس أنك في الوطن العربي ! ..

كانت هذه قصة يرويها عنا – عن العرب – وأرويها عنه بتصرف ، وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق **هنري كيسنجر** منذ ثلاثين عاما ! ..

* * *

هناك نوع من الببغاوات يُسمى ببغاء البحر لا يمكن أن يطير أو ينطلق إلا إذا هبت رياح عاصفة تساعده على الطيران ..

وهناك نوع من القرود يُطلق عليه اسم القرد الخجول ، هذا القرد لا ينام إلا واضعا رأسه بين ركبتيه ..

وهناك نوع من البني آدميين يجمع بين النوعين السابقين ، لا يتحرك إلا إذا سحقته العواصف ، لكنه مع ذلك يظل نائما ورأسه بين ركبتيه أثناء العاصفة .. إنه مشهد عجيب لكائن حي ينجح في البقاء نائما وهو يتدحرج ويتكوّر ورأسه لا تفارق ركبتيه ، وتكاد العاصفة تمزقه إربا ، فلا يستيقظ ولا يرفع رأسه ..

قرر هذا النوع من البني آدميين عقد قمة عربية " استثنائية " في 22 فبراير 2003 لمحاولة منع أمريكا من ضرب العراق .. ثم قرر النوع تأجيل القمة إلى 28 فبراير .. ثم فكر في إلغائها تماما ، ثم عاد وقرر إلغاء القمة العربية " العادية " المقرر عقدها بالبحرين في منتصف مارس وإلغاء القمة العربية " الاستثنائية " المقترح عقدها بالقاهرة في 28 فبراير .. وتوصل في النهاية إلى عقد قمة نادرة الاسم والمغزى والمضمون وأسماها القمة العربية " العادية العاجلة " في أول مارس 2003 على أن تنعقد بشرم الشيخ وترأسها البحرين !!

انعقدت القمة ، وكاد العرب يضربون بعضهم البعض بالجزم ..

وانفضت اللمة قبل أن ينتقل الزعماء إلى قسم شرطة جنوب سيناء ..

لا تطير الببغاوات بسبب العجز ..

ولا ترفع القرود رءوسها بسبب الخجل ..

ولا يتحرك العرب بسبب الخيبة ..

* * *

يُحكى أن الفئران قررت يوما عقد مؤتمر ..

على رأس جدول الأعمال جاء مناقشة أفضل الوسائل التي تحميهم من القط المفترس ..

وبعد مناقشة عدد من الاقتراحات ، وقف فأر ذو مكانة ووقار يقترح :

أعتقد أنني قد اهتديت إلى خطة فعالة تؤمّن سلامتنا في المستقبل .. أقترح أن نعلق جرسا برقبة عدونا ، فينبهنا رنينه إلى اقترابه ، فنتحاشى بطشه .. نال الاقتراح استحسان جموع الفئران ، وهللوا وصفقوا وسارعوا إلى احتضان بعضهم البعض .. ووافقوا بالإجماع على توصيات المؤتمر .. لكن شيئا ما حدث ..

فقد نهض فأر عجوز ، وتساءل في سخرية :

إنني أحييكم على هذه الخطة المدهشة وأتفق معكم تمام الاتفاق أنها خطة جديرة بالإعجاب ..

لكن .. هل لي أن أسأل .. مَن ذا الذي سوف يعلق الجرس في رقبة القط المفترس ؟؟

* * *

قرر البرلمان التركي في موقف شجاع رفض انتشار 62 ألف جندي أمريكي في الأراضي التركية ، وذلك قبيل اندلاع الحرب وهو ما ساهم في تعثر التحرك الأمريكي من الشمال .. كان من أسباب رفض طلبات أمريكا رسم كاريكاتوري نُشر في نيويورك تايمز يجسّد تركيا في صورة راقصة شرقية عارية تماما لكنها تغطي خصرها بعلم تركيا وينقطها العم سام بالدولارات ! ..

وقبل مضي 24 ساعة على هذا القرار أعلنت الكويت استعدادها الفوري لاستضافة الـ 62 ألف أمريكي ليغزوا العراق مع بقية زملائهم في الجيش الأمريكي عبر الحدود الكويتية ..

هذا مع العلم أن المؤتمر – مؤتمر العرب لا مؤتمر الفئران أعني – قد أعلن توصياته برفض ضرب العراق ..

فإما أن الجرس بلا رنين ..

وإما أن القط بلا رقبة ..

وإما أن الراقصة بلا خصر ! ..

* * *

في حديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يقول فيه مخاطبا الصحابة : " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .. قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ .. قال : لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل .. ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن .. قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ .. قال : حب الدنيا وكراهية الموت " ..

لا أظن أن المقصود هو أن نحب الموت ونكره الدنيا ، كما قد يتبادر إلى ذهن الأذكياء من أمتنا ! ..

* * *

ثم يظهر برنامج على القناة الثالثة بالتليفزيون المصري ..

وتتصل سيدة على الهواء بشيخ يفسر الأحلام ، وتحكي له عن رؤيا طفل وليد يرضع من القمر ..

فيهلل الشيخ ويكبر ويحوقل ويبسمل ويحسبن ..

ثم يخبر المشاهدين في حبور ويضغط على حروفه في بطء قائلا أن المهدي المنتظر قد وُلد ..

الله أكبر .. الله أكبر ..

وينتشر الموضوع في ربوع مصر ، ولا تنقضي جلسة إلا وكان ظهور المهدي أحد مواضيعها الثابتة ..

وأسأل الناس عن معنى ما قيل فيخبرونني أن المهدي المنتظر هو الذي سيخلص العرب من الذل والهوان .

يعني إيه ؟ .. يعني أنه المهدي .. لا يهدي ، ولكنه مهدي في حد ذاته ..

يعني إيه ؟ .. يعني أنه سوف يحكم بالعدل ، وسوف يجمع الناس من حوله .. ثم إنه لن تسقط له راية ..

يعني إيه ؟ .. يعني أن تنتظر الشعوب العربية أربعين عاما حتى يدخل المهدي المدرسة ويتخرج من الجامعة ويتوظف ثم يصل إلى سن الأربعين ، وهي السن التي يقود فيها العرب نحو الخلاص من الكفرة .. يعني إيه ؟ .. يعني أن هذا المهدي المنتظر الذي ذكر في بعض الأحاديث هو أمل العرب الأخير والوحيد ، وإلى أن يأتي – إن أتى – فليكتف العرب بقراءة الكف والفنجان والكوتشينة ..

أطرف ما في الحكاية أن معد البرنامج ومقدمته والشيخ المفسر ورئيسة القناة الثالثة شخصيا أعلنوا في جميع الصحف أن برنامج تفسير الأحلام هذا متوقف منذ آخر ديسمبر 2002 – أي قبل إشاعة المهدي بأكثر من شهر ، إذ ظهرت في مطلع عام 2003 – وأن كل هذه الأحداث التي تداولها الناس فيما بينهم وتخطت الحدود المصرية إلى جيرانها ليس لها أي أساس في الواقع ..

يبدو أن العرب في أشد الحاجة إلى مهدي ..

فإذا لم يجئ .. اخترعناه ! ..

* * *

" لا تكاد جريدة أو مجلة تخلو من موضوع أو مواضيع تتضمن إطراء الذات والإشادة بتميزنا وتفوقنا وإنجازاتنا وكثيرا ما تكون عبارات إطراء الذات منسوبة لمصدر خارجي ، وهو ما يؤكد اعتقادنا بأن المصدر الخارجي يضفي مزيدا من القيمة على عبارات الإطراء المذكورة " .. **طارق حجي**

حطت بعوضة على قرن ثور .. ومكثت مكانها حينا ..

ولما نالت ما يكفيها من الراحة ، سألت الثور قبل أن تطير : أيزعجك الآن أن أرحل ؟ ..

رفع الثور بصره ، وقال بلا اهتمام : سيان عندي .. لم أشعر بك حين حضرت ، ولن أشعر بك حين ترحلين ..

غير أن هناك من يتصور نفسه صاحب ماض عريق وتاريخ تليد ومجد عتيد ، وأن هذا وحده كاف بأن يشعر به الثور إذا ما همّ بفراقه ..

* * *

" الذئب ما كان ليكون ذئبا ، لو لم تكن الخراف خرافا ".. **ويليام شكسبير**

تلك حقيقة سياسية مطلقة ..

فلو توقفنا نحن عن المأساة ، لتوقفوا هم عن العواء ! ..

* * *

" الجبان يحارب عندما لا يسعه الفرار ".. **ويليام شكسبير**

رغم أنه يبدو أمرا بديهيا أن يلجأ الجبان إلى المقاومة ، إذا ما عجز عن الهرب ولم يعد أمامه سوى الموت أو الحرب ، إلا أنه في أحيان ***نادرة شديدة التميز*** يفضل الجبناء الهلاك على مجرد التفكير في التحدي ..

والعرب من الأقوام ***النادرة شديدة التميز*** ! ..

* * *

الميت يقول أنه ذاهب لعد النجوم ، وأنه سوف يعود بعد أن يعدها جميعا .. عبارة تاهيتية

قائل هذه العبارة كان حتما يستغفل السامعين الواهمين المتشبسين بأمل كاذب بأن الأموات سوف يعودون في يوم ما ، لكن غيبتهم قد تطول لبعض الوقت بعد أن يقوموا بإحصاء جميع نجوم السماء ..

إن الذين يموتون لا يرجعون ..

فإذا كان من أمل ما في انتظار أمتنا ، فهو كامن في الأحياء الذين ولدوا أو سوف يولدون ..

أما الذي يضع عينه في قفاه في انتظار شبح بطل يظهر من الماضي فإن نجوم نفس تلك السماء أقرب له.

* * *

الأسد الميت يرفسه حتى الحمار .. مثل مجري

حتى وإن كانت لنا بطولات وصولات وجولات ، وحتى لو كانت سيوفنا مسلولة وقاماتنا مرفوعة ، وحتى لو كنا قد انتصرنا على جميع الأعداء والمنافسين شرقا وغربا في تاريخ ما لتمتد الإمبراطورية العربية الإسلامية في حدود تفوق أكبر الدول حجما في عصرنا الحالي ..

حتى لو كنا أسودا في مرحلة ما ، فإن الأسود الميتة لا يخشاها أحد ، ولا حتى الحمار ..

الحمار الحقيقي هو من يظن أن أحدا سوف يستأذن الجثث قبل دفنها ! ..

* * *

اللهم أشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين ..

هو دعاء يردده أئمة المساجد في طول بلادنا العربية وعرضها ..

ولا أعرف ما الذي قمنا به كي يكافئنا الله بأن يشغل ظالمين بظالمين آخرين ويخرجنا من بينهم سالمين ، إن كنا نحن أول الظالمين لأنفسنا ؟

* * *

الخليج العربي ..

لا مؤاخذة ..

هذا الاسم لا وجود له في كتب الجغرافيا في أية لغة حية أو ميتة على وجه الأرض باستثناء وطننا العربي .

هذا الخليج الذي يحد وطننا من جهة الشرق وتطل عليه سبع دول عربية ، يحمل اسم إيران ..

الخليج الفارسي ..

هذا هو اسمه رغم أنوفنا وعيوننا وكتبنا الملونة ..

يبدو أن الهيبة صفة لا يختلف عليها اثنان ..

* * *

أُعطيتُ مُلكا فلـم أُحسن سياستـه كذاك مَن لا يسوسُ المُلْكَ يُخلعه

ومَـن غدا لابسـا ثـوب النعيم بلا شُـكْر الإلـه فـعنـه الله يـنـزعـه

محمد بن زريق البغدادي

لم يكن **البغدادي** يقصد الحكام العرب ..

* * *

" من أبرز الخصوصيات التي تفتقت عنها الأذهان العربية دون باقي العالم وجود مناطق محايدة ، فهناك أراض شاسعة بشمال الجزيرة العربية لم تتفق الأطراف على هويتها ، فقررت تركها بلا هوية وبلا سيادة "

شريف الشوباشي

ومن بين هذه المناطق ، مساحة على الحدود بين العراق والسعودية ليس لها صاحب ، بخلاف صحراء البوليسارو المطلة على المحيط الأطلنطي .. من يصدق ذلك !.. أن تصل السلبية وعدم القدرة على حل المشاكل إلى هذا الحد المخيف .. إذا كنا نعجز عن التفاوض بشأن أراض تخصنا معا ، فما بالنا بأراض اغتصبت منا ؟ ..

* * *

" المفاوضات تعبير لطيف للاستسلام ، إذا لم ترم القوة ظلها على طاولة المفاوضات "..

جورج شولتز وزير خارجية أمريكا في إدارة **ريجان**

هذه عبارة قالها قائلها منذ نحو عشرين عاما ..

واللافت للنظر أننا على طاولة المفاوضات بلا ظل لقوة ولا حتى لضعف .. إننا بلا ظل على الإطلاق .. وكأننا نحل محل النرد على تلك الطاولة ، يطوحنا المفاوضون الأقوياء في دور محبوسة ، كأداة سلبية الإرادة ..

* * *

وضع قسيس نشيط على جدار كنيسته إعلانا ضخما كتب فيه :" يسوع هو الحل Jesus is the answer " وعندما استيقظ في الصباح اكتشف أن مجموعة من الصبية الساخرين كتبوا تحت الإعلان :" لكن ما هو السؤال But what is the question "..

أجل .. ما هو السؤال ؟ ..

لدى الجميع حلول جاهزة ، مثل أن الإسلام هو الحل ، أو أن الديموقراطية هي الحل ، أو أن التعليم هو الحل ..

لكن أحدا لم يتفق على ماهية الأزمة التي نبحث لها عن مخرج ، لم تجمع الآراء على تحديد مشكلة ما يكمن وراءها سر البلاء ..

ربما تكون هذه هي المشكلة ! ..

* * *

" لو " اقترنت بـ " لكن " ، فوضعا " إن شاء الله " .. عبارة فارسية

" لو " أن العرب يتعاونون فيما بينهم للتصدي لأعدائهم ، " لكن " العرب يعانون من الضعف وتضارب المصالح ، على أية حال " إن شاء الله " يظهر بينهم خليفة لـ **صلاح الدين الأيوبي** يوحد كلمتهم وينصر رايتهم ..

تزوجت " لو " من " لكن " منذ زمن بعيد ، وما زالوا ينجبون أطفالا بلا انقطاع ! ..

* * *

جميل أن يموت الإنسان لأجل وطنه ، وأجمل منه أن يعيش لأجله ..

إن الموت في سبيل قضية نبيلة ، يعكس مدى التفاني والإخلاص والإيمان بالهدف ..

لكن مثلما يبدو الموت مثالا عظيما للتضحية ، ربما تكون الحياة في أحيان كثيرة أعظم فائدة لو تم توظيفها لخدمة نفس القضية ..

فلنحيا في سبيل الله والوطن .. فحتما سوف نخدمهما أكثر بكثير ..

* * *

" عندما تكون الحقيقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، فإن عليها أن تتحول إلى الهجوم "..

الأديب الألماني **برتولد بريشت**

أن نكون على حق بلا قوة تكفل لنا الاحتفاظ بهذا الحق أو التمكن من استعادته إذا ما اغتصب منا ، فإن ذلك الحق يتحول إلى شعار أجوف لا وزن له ..

* * *

" لدينا استراتيجية عليا غاية في البساطة .. نحن نريد في المنطقة نظما موالية لنا ، لا تقاوم إرادتنا .. ثم إننا نريد ثروات هذه المنطقة بلا منازع .. ونريد ضمانا نهائيا لأمن إسرائيل ، لأنها الصديق الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه في هذه المنطقة .. لذا ، لابد من تغيير النظام في العراق بالسلاح ، ومن بعده في إيران وسوريا ، ومن بعدهما في السعودية ومصر .. وفي الغالب فإن ذلك ممكن بغير استعمال السلاح .. والواقع أن هذه كلها نظما محسوبة علينا ، وهي تحملنا أعباء مكلفة بغير فائدة " ..

كان هذا هو تصريح لـ **فرانك كارلوتشي** أحد أعضاء مجلس سياسات الدفاع الأمريكي في أحد الاجتماعات قبيل غزو العراق وفقا لتقرير صدر عن مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك ..

تراهن الأنظمة العربية منذ سنوات طويلة على الدعم الأمريكي لبقائها في السلطة كأساس للمصلحة المشتركة ..

ولكن .. كما يتوغل الإحباط واليأس في نفوس الشعوب العربية ، يتسرب الملل والضجر إلى أمزجة المسئولين الأمريكيين ..

* * *

إن شعار إسرائيل القديم "***من النيل إلى الفرات***" لا يوجد ما يمنع من تعديله إلى "***من الفرات إلى النيل***" !

* * *

إذا خسرنا الحرب لا غرابة
لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة

نزار قباني

* * *

إذا ما اقتربت أصابع اليد من أعين الرأس ، فإن في وسعها أن تحجب الشمس الحارقة ..
إنها لا تنفي وجودها ، لكنها تمنع أذاها .. أصابع ضئيلة تدفع الشمس وتحمي الأعين ..
جسد واحد يتساند على بعضه البعض ..
ولعل الكسوف الكلي للشمس هو أصدق مثال على ذلك ، فالقمر ذلك التابع الصغير الذي لا يزيد على سدس حجم الأرض وتعادل الشمس أربعمائة قمرا من حيث الحجم ، يكون قادرا على حجب الشمس عندما يزداد قربا من الأرض ويقف على خط واحد معهما ..
إنها بعض المعاني القديمة عن المسلم الذي هو أخو المسلم وعن البنيان المرصوص والعضو الذي إذا اشتكى تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ..

* * *

تبرع الشيخ **سعود الناصر الصباح** وزير البترول الكويتي السابق بسيارة فاخرة للأسيرة الأمريكية **جيسيكا لينش** بعد أن نجحت القوات الأمريكية في تحريرها من الأسر إذ كانت تعالج بإحدى مستشفيات الناصرية – كشفت صحيفة النيويورك تايمز بعد ذلك بشهرين فبركة الأحداث بالكامل – .. وقالت أنباء صحفية كويتية أن **جيسيكا** كانت قد أعربت عن رغبتها في اقتناء سيارة خلال لقاء مع محطة فوكس نيوز الإخبارية الأمريكية ، وأشارت إلى أن الوزير الكويتي السابق قد تأثر بحديثها وقصة أسرها التي أدلت بها للمحطة ، ونقلت الأنباء على لسانه تعاطفه مع الفتاة الشابة قائلا : " إنها جاءت من أجل قضية إنسانية قاطعة قارات ومسافات للوصول إلى العراق للمساهمة في إنقاذ شعبه " ..
مع الأسف الشديد ، ليست هذه نكتة ..

* * *

إذا كنت تسير في طريق مظلم .. كيف يمكنك أن تعرف طوله .. أن تحسب نهايته .. أن تستنتج الزمن الذي تحتاجه للخروج منه ..

المسألة في منتهى البساطة ..

كي تقدر مسافة ما مظلمة ، لابد أن يكون هناك ضوء تراه في آخر الطريق .. الضوء الذي تراه بعينيك في نهاية الأفق هو الذي يعينك على تقدير المسافة المظلمة .. إنه حدودك ..

وفي مثل هذه الظروف التي يعيشها العرب ، وفي مثل ذلك الطريق المظلم الحالك الغارق في السواد ، ليس في وسع أحد أن يجيب على سؤال يقول : متى يتحسن الحال .. إلا إذا كان هناك ضوء ما في الأفق نحسب على أثره خطواتنا ..

ونحلم بالنهاية .. نهاية تتبعها بداية ..

* * *

مشهد يستحق التأمل ..

مع بدء القرن الجديد جرت أحداث 11 سبتمبر .. ومن بعدها تدهورت الأوضاع الفلسطينية بشكل لم يسبق له مثيل حيث تمت محاصرة الرئيس الفلسطيني داخل مكتبه وتحددت إقامته في إهانة بالغة العمق للعرب جميعا .. ثم جاء قرار غزو العراق واحتلاله بمباركة بعض العرب وصمت البعض الآخر ..

وتقلص الوزن السياسي للعرب حتى شارف على الانعدام ، وصاحب ذلك تدهور حاد في أحوال الكرامة العربية ..

والمثير للتأمل في ذلك المشهد ، أنه في الوقت الذي يتأخر فيه العرب عن جميع الأمم من حيث المكانة والقيمة والقامة ، وتحتل أمريكا لأول مرة في التاريخ دولة عربية كبرى احتلالا مباشرا صارخا ، نجد الآتي يحدث :

تتسابق الدول العربية في إنشاء القنوات الفضائية العربية حتى يصل عددها إلى رقم قياسي تخطى حاجز الـ 140 قناة قبل نهاية عام 2004 ..

تتنافس العديد من تلك المحطات على تقديم برامج مسابقات منقولة عن الغرب ، يتنافس فيها الشباب العربي في مجال الغناء ، ويفوز من ينال أعلى الأصوات من الجمهور ، حتى أن مجموع أصوات المشاهدين يتخطى في بعض البرامج عشرين في المائة من تعداد سكان الوطن العربي ، وحدث ذات مرة أن قامت مظاهرات في إحدى الدول العربية الشقيقة احتجاجا على خسارة مرشحها ، وتدخل ملك دولة عربية أخرى من أجل انتصار ممثلة دولته في المسابقة الغنائية .. ولو أن الشعوب العربية شاركت في الحياة السياسية بنصف ما تشارك به في اختيار نجم نجوم الغناء العربي ، لانقلبت الأوضاع ، أو بمعنى أصح ، لانعدلت الأوضاع ! ..

تقدم بعض المحطات العربية برامج أخرى منقولة عن الغرب كذلك ، تقوم فيها الكاميرات التليفزيونية بتصوير الشباب العربي من الجنسين وهم يعيشون سويا في منزل واحد وتتجول الكاميرات بلا رقيب في غرف النوم والمطابخ وغرف المعيشة وإن كانت لم تصل إلى الحمام بعد ! ..

وتقوم قناة أخرى ببث برنامج تعيش فيه البنات في بيت واحد ، ويتم تصويرهن في جميع أجزاء البيت وهن يمارسن كافة الأنشطة ، وذلك حتى يتسنى للمشاهدين من الذكور أن ينتخبوا الأصلح بينهن حتى يقوم أحدهم بالزواج منها على الهواء ..

وتظهر بمعدل شهري قناة أغاني جديدة يتنافس فيها الجميع على كل شئ فيما عدا الغناء ..

ثم يقوم عدد آخر من المحطات باتباع سياسة تمويلية بارعة بفتح الباب أمام المشاهدين ببث رسائل مكتوبة إلى بعضهم البعض على شريط ضيق يمر أسفل الشاشة ، وأيا كان المكتوب – ومعظمه سخيف – فإن مجموع ما أنفقه العرب في العامين الماضيين على جميع أنواع تلك الرسائل التليفزيونية كان يكفي لحل جميع المشاكل الاقتصادية لشعوب الوطن العربي ..

ثم تندلع الحرب في العراق ويقوم الأمريكان باحتلالها ، ولا تتوقف قنوات الأغاني عن العرض – ولو مؤقتا – ولا يستحي القائمون على برامج مسابقات الغناء والزواج وتصوير البيجامات وقمصان النوم من فكرة الاستمرار في تقديم تفاهاتهم أثناء الغزو أو بعده ..

وأختتم المشهد بلقطة أخيرة :

يفتح المشاهد العربي تليفزيونه أثناء جلوسه ممددا على الأريكة في غرفة المعيشة .. يقلب في قنوات الدش .. يصطدم بمنظر مؤثر عن استشهاد طفل عراقي بصاروخ أمريكي استهدف أحد عناصر المقاومة المختبئين داخل أحد المنازل ، أو منظر آخر لأم فلسطينية ثكلى تولول على ابنها الشهيد أثناء موكب جنائزي مهيب ..

يصاب المشاهد العربي بكرشة نفس ، ويسارع إلى إدارة المؤشر ليمتع عينه بمناظر عربية أخرى أكثر بهجة وجمالا تشرح القلب وتروح عنه ! ..

* * *

في أعقاب حرب فلسطين عام 1948 ، قامت المخابرات الأمريكية بتقديم تقرير سري للرئيس **هاري ترومان** حول تصورها لمستقبل الشرق الأوسط ..

هذه بعض المقتطفات من ذلك التقرير القديم :

- يبدو أن أسس التسوية الشاملة في المنطقة قد أرسيت ، إلا أن استمرار القلق في الشرق الأوسط إنما يرجع إلى استمرار التفوق العسكري الإسرائيلي وانقسام المواقف العربية .. ولن يؤدي ذلك إلى كثير من الاستقرار في المنطقة أو التحسن فيما يتعلق بالمصالح الأمنية الأمريكية ..
- إن الموقف الذي ستتخذه الدول العربية مستقبلا بشأن اتفاقيات وامتيازات البترول سيتوقف على السياسة التي ستنتهجها الولايات المتحدة إزاء المسألة الفلسطينية ..

- بغض النظر عن مدى شرعية مطالب الجانبين العربي والإسرائيلي ، فإن الأمر المؤكد أن الشكوك ستساور العرب بشأن النوايا الأمريكية ، ما لم يقم دليل على استعداد أمريكا لكبح جماح التوسع الإسرائيلي ..
- إن التفوق المحلي الذي تتمتع به إسرائيل ومطامعها المستمرة تحول دون الاستقرار النهائي في الشرق الأوسط ..

لقد كان التقرير الأمريكي يحسن الظن بالعرب بشكل يبعث على الأسى ! ..

* * *

في ربيع 2001 تسللت طائرة تجسس أمريكية بالقرب من سواحل الصين وتم اعتراضها وإجبارها على الهبوط، ووقعت أزمة دولية عنيفة .. حيث احتجزت الحكومة الصينية طاقمها المكون من 24 فردا ، ثم تم إطلاق سراحهم بدون الطائرة بعد 11 يوما من المفاوضات ..

وفي خريف 2002 ، اخترقت طائرة أمريكية بدون طيار الأجواء اليمنية ، وقامت بإطلاق صاروخين على سيارة متسببة في مصرع ستة من اليمنيين .. جاء ذلك التصرف بسبب الاشتباه في شخص من تنظيم القاعدة يدعى **علي سفيان الحارثي** وتشك المخابرات الأمريكية في اشتراكه في تفجير المدمرة الأمريكية كول في أكتوبر 2000 أمام السواحل اليمنية ..

أعلنت الحكومة الأمريكية بدون أدنى تردد أن مخابراتها وراء الحادث ، وسارع وزير الدفاع الأمريكي **رامسفيلد** إلى التعليق العلني على قتل **الحارثي** قائلا : " إن التخلص منه كان أمرا طيبا للغاية " .. هكذا بلا تحقيق وبلا أدلة تدينه على جريمته وبلا قضاء يصدر حكما بالعقاب ..

لجأت الولايات المتحدة إلى تبسيط الأمور ، فلم يكن مهما مسألة وجوده على أرض غير أمريكية ، أرض ذات سيادة – أو هكذا يُفترض – .. أما الحكومة اليمنية فلم تعترض ، بل دعمت من تعاونها الأمني مع أمريكا ووافقت على تغيير بعض مناهج التعليم الديني طبقا للتعليمات حتى أنها أغلقت جامعة الإيمان التي أسسها الشيخ **الزنداني** وغيرت نظام 3047 معهدا دينيا تضم نحو نصف مليون طالب وفتحت ذراعيها لاستقبال عناصر المخابرات الأمريكية لتفعل ما يحلو لها ، بل وأنشأت مؤخرا وزارة ترأسها سيدة فاضلة تحمل اسم وزارة حقوق الإنسان وهي وزارة أحسب أنها غير موجودة في معظم دول العالم المتقدم منها والمتخلف ..

أما العالم العربي فقد اكتفى بالدعاء للصين بطول العمر وموفور الصحة ! ..

* * *

في أكتوبر 2003 حاول طالب جامعي مصري أن يركن سيارته في أحد شوارع جاردن سيتي حيث يسكن رئيس مجلس الشعب .. تدخل الحرس الخاص وحاولوا منعه لدواعي أمنية تحظر الوقوف أمام منزل

سيادته .. مشادة عنيفة وقعت بين الطالب الشاب والحرس الخاص تحدث الشاب خلالها عن حقوق المواطن وعن الحرية وعن المساواة وأشياء أخرى عجيبة من هذا القبيل ..

إلى قسم البوليس تم جر الشاب المصري ، وهناك قام بترديد نفس الكلمات .. أودع في الحجز ، وعندما عاد إلى نفس الحديث عن حقه كمواطن مصري ، أسرعت الشرطة بنقله إلى مستشفى المجانين بسبب هذيانه وتفوهه بكلمات غير مفهومة .. ونشرت الصحف المصرية أخبارا بهذا المعنى تؤكد فيها أن الطالب الجامعي مختل عقليا ويعاني من اضطرابات نفسية كما أوضح التقرير الطبي الخاص بمستشفى المجانين .. وكان من حسن حظ الشاب الصغير أن من بين أفراد عائلته بعض المشاهير من ذوي المناصب الإعلامية رفيعة المستوى ، فتوسطوا له ونجحوا في الإفراج عنه وإخراجه من مستشفى المجانين ..

إذاً .. هو من الجنون أن يطالب الناس في أوطاننا العربية بحقوق المواطنة .. أن يعتبر المواطنون أن الأوطان ملكا لهم ، وأن المسئولين مسئولون ، وأن المواطنين سائلون لا متسولون .. إن الذين يبتغون الحصول على نصيبهم العادل في بلادنا العربية هم من المختلين الذين يستحقون الإيداع في مستشفى الأمراض العقلية .. وإذا كان هذا هو أسلوب معاملة الحكام وأصحاب السلطة للشعوب ، فليس على إسرائيل حرج أن تحتل فلسطين أو تنهب أمريكا العراق ، ولا أن ينقضا معا على إيران و سوريا .. إذا كان الحكام العرب المسئولون أمام الشعوب وأمام الله عن خدمة أوطانهم قد وصلوا إلى هذه الدرجة من الجبروت والإذلال لأهاليهم وعدم المبالاة اللامتناهية بأحوال الناس .. فمن هذا المجنون الذي يطالب حكام أمريكا بأن يحرصوا على مصالح شعوبنا العربية ؟ .. أما إذا تجرأ الناس على محاولة التصدي لأمريكا ، فينبغي – قياسا لما حدث للشاب المصري – أن يتحول الوطن العربي بالكامل إلى سرايا مجاذيب كبرى ! ..

* * *

Who controls the past controls the future. Who controls the present controls the past.

الأديب البريطاني **جورج أورويل** في كتابه الأشهر 1984 ..

تتحدث العبارة عن التحكم ..

ومعنى ذلك أن المسيطر على الحاضر يتحكم في الماضي وبالتالي يهيمن على المستقبل ..

وإذا كان ما يعنينا نحن العرب هو المستقبل فلندرك تمام الإدراك أن فرشاة الحاضر ترسم لوحة المستقبل.

* * *

يقول **ابن خلدون** في مقدمته ما معناه " إن الدول كالأفراد ، تولد وتمر بمرحلة طفولة ضعيفة تكتنفها تجارب قاسية ، ويشتد عودها فتصل بعد الصبا إلى عنفوان الشباب ، وتكتمل رجولتها بالقوة والصقل معا ، بعد أن تحقق حدا أقصى من النمو ، ثم لا تلبث أن تستكين للرفاهية والدعة وتدب فيها عوامل الكهولة فتتحلل ، وتتفكك ، وتضعف ، وتفنى تاركة مكان السلطة لغيرها تنبت فيه آجلا أو عاجلا لتمر بنفس المراحل " ..

لكن يبقى الفارق بين الدول والأفراد ، أن الأفراد حين يموتون لا يمكن أن يستعيدوا حياتهم مرة أخرى ، أما الدول فقد تنبعث الحياة فيها من جديد ..

ولو بعد حين ..

* * *

رُوي أن أحد السلاطين أرسل في طلب مفسر للأحلام ..

وعندما جاءه ، أخبره برؤياه قائلا : " إني رأيت جميع أسناني وقد سقطت " ..

فقال المفسر : " إن جميع أقارب مولانا السلطان يموتون في فترة وجيزة " ..

فأثار التفسير غضب السلطان ، وأمر بإعدام المفسر ..

ثم استدعى مفسرا غيره وقص عليه الرؤيا ..

فقال المفسر الجديد : " صدقت يا مولاي السلطان .. فإنك تكون أطول عمرا من جميع أقاربك " ..

فسُرّ السلطان سرورا عظيما ، وأغدق عليه بالهدايا والعطايا ..

فإلى كل سلطان متسلطن في بلادنا العربية :

لا تحسبن أنك سوف تكون أطول عمرا من جميع السلاطين الأشقاء ..

فمهما طال عمرك ، فإن الخاتمة تبدو وشيكة تماما ..

لن يجدي معها تغيير المفسرين ولا تغيير الحكومات ..

ثم إن الأسهل من تغيير المحكومين هو تغيير حاكميهم ..

وليكن التغيير بأيدينا لا بأيدي الآخرين ..

النفاق عمره قصير ..

التهليل نفسه انقطع ..

الزفة انتهت ..

النهاية تبدو أقرب من أي وقت مضى ..

التاريخ يدخل في منحنى جديد ..

المراجع العربية

د.إبراهيم، وفاء - مائة وثمانون يوما في بلاد اليانكي
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003

البرازي، تمام - العراق وأمريكا
مكتبة مدبولي ، 1990

البنا، رجب - تاريخ ليس للبيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998

الجوهري، علي - أحداث تاريخية غيرت مجرى العالم
مكتبة ابن سينا ، 2004

الخير، هاني - أشهر الاغتيالات السياسية في العالم ، الجزء السادس
دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى 1994

الرفاعي، أحمد - التاريخ يحذر من أمريكا

د. السروجي، محمد محمود - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية منذ الاستقلال إلى منتصف القرن العشرين
مركز الإسكندرية للكتاب ، 2005

السياسة الدولية ، العدد 157 ، يوليو 2004

د. السيد، محمود - الخليج العربي .. الدول والإمارات
مؤسسة شباب الجامعة ، 2003

د. السيد، محمود - تاريخ اليهود القديم والحديث
مؤسسة شباب الجامعة ، 2004

العربي، إبراهيم - ملوك المال في العالم
المركز العربي للنشر والتوزيع

الغمري، عاطف - الأمريكي التائه في الشرق الأوسط
مكتبة الشروق ، الطبعة الأولى 2001

الكاشف، جمال - مقتطفات من تاريخ العالم
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003

المراغي، محمود - سفر الموت
دار الشروق ، 2003

النجار، أحمد السيد - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، 1998

د. النيرب، محمد - العلاقات الأمريكية السعودية
مكتبة مدبولي، 1994

إمرسون ، ثورو ، ملفيل ، ويتمان ، مارك توين - ثلاثة قرون من الأدب، الجزء الثاني
دار مكتبة الحياة ، 1966

د. أمين، جلال - عصر التشهير بالعرب والمسلمين
دار الشروق ، 2004
إيدن، أنطوني - مذكرات أنطوني إيدن : قناة السويس
دار القاهرة للطباعة والنشر، 1961، ترجمة : **محمود حسن إبراهيم**
باترسون، توماس - الحضارة الغربية .. الفكرة والتاريخ
المجلس الأعلى للثقافة ، 2004 ، ترجمة : **شوقي جلال**
بشير، نزار - حضارة الدم وحصادها
الزهراء للإعلام العربي ، 2003
بلوم، ويليام - الدولة المارقة
المجلس الأعلى للثقافة ، 2002، ترجمة : كمال السيد
بن شاهين، خليل - تفسير الأحلام
دار الكلبي ، 1990
بهجة المعرفة، المجموعة الثانية (5)، مسيرة الحضارة ، المجلد الثالث
الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، 1983
بويل، فرانسيس - فلسطين .. الفلسطينيون والقانون الدولي
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2004 ، ترجمة: **د. عبد الله الأشعل**
بيتي، جون - الستار الحديدي حول أمريكا
الفكر العالمي (سلسلة شهرية كانت تصدرها جمعية الوعي القومي في الخمسينات) ، ترجمة **: عبد المنعم صادق**
تاير، برادلي أ. - السلام الأمريكي والشرق الأوسط
الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى 2004 ، ترجمة : د. عماد فوزي شعيبي
تشومسكي، نعوم - سنة 501 : الغزو مستمر
دار المدى للثقافة والنشر ، 1996 ، ترجمة : **مي النبهان**
تشومسكي، نعوم - ماذا يريد العم سام ؟
دار الشروق ، 1998 ، ترجمة : **عادل المعلم**
تشومسكي، نعوم وأخرون - الإمبراطورية الأمريكية (الجزء الأول)
مكتبة الشروق ، الطبعة الأولى 2001
تشومسكي، نعوم وأخرون - الإمبراطورية الأمريكية (الجزء الثاني)
مكتبة الشروق ، الطبعة الأولى 2001
تشومسكي، نعوم - 11 سبتمبر
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2002 ، ترجمة : **إبراهيم محمد إبراهيم**
تشومسكي، نعوم - السيطرة على الإعلام
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2003 ، ترجمة : **أميمة عبد اللطيف**
تشومسكي، نعوم - أوهام الشرق الأوسط
مكتبة الشروق الدولية ، 2004 ، تعريب : **شيرين فهمي**

تشومسكي، نعوم - إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة
مكتبة الشروق الدولية ، 2005 ، ترجمة : **أحمد عبد الوهاب**
جارودي، روجيه - الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية
دار الغد العربي ، 1996
جارودي، روجيه - أمريكا طليعة الانحطاط
دار الشروق ، الطبعة الثانية 2000
جارودي، روجيه - كيف صنعنا القرن العشرين
دار الشروق ، 2000 ، ترجمة : **ليلى حافظ**
جارودي، روجيه - الإرهاب الغربي (الجزء الأول)
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2004 ، ترجمة: **د. داليا الطوخي - د. ناهد عبد الحميد - د. سامي مندور**
جارودي، روجيه - الإرهاب الغربي (الجزء الثاني)
مكتبة الشروق الدولية ، 2004، تعريب : **عبد المسيح فلى**
جريفين، ديفيد راي - بيرل هاربور الجديدة .. شبهات حول 11 سبتمبر
الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى 2005
جودارد، رونالد - كولمان، ليستر - العمليات الأمريكية القذرة
دار العقاد للنشر، الطبعة الأولى 1994
جيبسون، ريتشارد - حركات التحرير الأفريقية
المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى 2002 ، ترجمة : **صبري محمد حسن**
جيديس وجروست - التسلسل الزمني لتاريخ العالم
دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى 2006 ، ترجمة : **خالد أسعد عيسى**
خرافات إيسوب، الجزء الأول
مكتبة التراث ، ترجمة : **عبد الفتاح الجمل**
دونوفان، فرانك - حول مذكرات بنيامين فرانكلين
مكتبة النهضة المصرية ، 1966، ترجمة : **أحمد حمودة**
دي رينيه، جاك - القدس 1948
أخبار اليوم : قطاع الثقافة 2000 ، ترجمة : **نبيل سعد**
روندو، بيير - مستقبل الشرق الأوسط
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر- بيروت ، الطبعة الأولى 1959، ترجمة **: نجدة هاجر، سعيد المعز**
شاكر، فؤاد - حصاد القرن العشرين
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003
شئون عربية ، صيف 2003
صقر، عاطف - النزاع الصومالي والصراع الدولي في القرن الأفريقي
ضاهر، تركي - أشهر القادة السياسيين
دار الحسام ، الطبعة الثانية 1992

طاهر، أحمد - أفريقيا : فصول من الماضي والحاضر
دار المعارف ، 1979
ا. د. عبد الباقي، محمد مصطفى - القنبلة الذرية والإرهاب النووي
الطبعة الثالثة ، 2004
د. عبد السلام، أحمد لطفي - الانحياز الأمريكي لإسرائيل
مكتبة النافذة ، 2005
د. عبد السلام، محمد - المناطق الخالية من الأسلحة النووية
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، 2003
عبد المنعم، محمد - 11 سبتمبر قبل .. وبعد!
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2001
عبد النبي، إبراهيم - أشهر القادة
دار الحسام، 1997
د. علي، فطين أحمد فريد - العلاقات المصرية الأمريكية ، الجزء الأول
مطابع الدار الهندسية ، الطبعة الأولى 2001
د. علي، فطين أحمد فريد - العلاقات المصرية الأمريكية، الجزء الثاني
مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2002
د. علي، محمد صالح - د. سوروزيان، هوريج - المتحف المصري
المجلس الأعلى للآثار، 1999
د. عليان، سيد سليمان - أمثال وأقوال في حياة اليهود
مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى 1997
د. عويس، محمد زكي - أسلحة الدمار الشامل
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003
غالب، مراد - مع عبد الناصر والسادات : سنوات الانتصار وأيام المحن
مركز الأهرام للترجمة والنشر ، 2001
د. غالي، بطرس - خمس سنوات في بيت من زجاج
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1999
غربال، أشرف - صعود وانهيار علاقات مصر وأمريكا
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 2004
فاخوري، جوزيف - قل لي لماذا
المكتبة الحديثة للطباعة والنشر – بيروت – ، 1992
فالدهايم، كورت - الرد
دار الشروق، الطبعة الأولى، 1998
فرناو، يؤاخيم - رحمتك يا الله : صفحات مجهولة من تاريخ أمريكا
شركة الحوار الثقافي ، 2003

فقيه، شادي - بوش ويوم الرب العظيم
دار العلم، 2004
د. فهمي، فوزي - عار العالم
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003
فوكوياما، فرانسيس - نهاية التاريخ وخاتم البشر
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1993، ترجمة : **حسين أحمد أمين**
فون بولوف، أندرياس ، المخابرات الأمريكية والحادي عشر من سبتمبر
مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2004 ، ترجمة **: عماد بكر**
فولبرايت، ج. ويليام - غطرسة القوة
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، 1994 ، ترجمة : **منار الشوربجي**
فولبرايت، ج. ويليام - ثمن الإمبراطورية
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، 1994 ، ترجمة : **سلوى حبيب**
كامبيل، كولن – شيندلر، يورج - نهاية عصر البترول
عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004 ، ترجمة : **عدنان عباس علي**
كامل، ميشيل - أمريكا والشرق العربي
كلينتون، بيل – جور، آلبرت ، رؤية لتغيير أمريكا
مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992
كوربت، مايكل - كوربت، جوليا ميتشل - الدين والسياسة في الولايات المتحدة (الجزء الثاني)
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2002 ، ترجمة **: د. زين نجاتي – مهندس نشأت جعفر**
كوكبرن، ألكسندر - سانت كلير، جيفري - التحالف الأسود
المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية ، يناير 2003 ، ترجمة : **أحمد محمود**
كويل، ديفيد كوشمان - النظام السياسي في الولايات المتحدة
مكتبة الخانجي بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1954 ، ترجمة : **توفيق حبيب**
لوران، إريك - حرب آل بوش
دار الخيال، الطبعة الأولى 2003 ، ترجمة : **سلمان حرفوش**
ليكي، روبرت - حرب كوريا
دار النهضة العربية، 1964 ، ترجمة : **اللواء محمد كمال عبد الحميد، المقدم علي طه حبيب**
ماير، جايل - الولايات المتحدة وثورة يوليو 1952
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998، ترجمة : **د. عبد الرؤوف أحمد عمرو**
محمد، إيهاب كمال - أمريكا والمذابح الجماعية
الحرية للنشر والتوزيع ، 2004
محمود، أحمد إبراهيم - الحروب الأهلية في أفريقيا
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، 2001
مجموعة من الباحثين ، بان أميريكان 103 : اتهام ليبيا .. أم اتهام أمريكا ؟

مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر ، ديسمبر 1991
مرزوق، إبراهيم - اعرف الدنيا : موسوعة المعلومات
الدار الثقافية للنشر، 2001
منصور، محمد - قصة سقوط بغداد
المكتب المصري الحديث، الطبعة الأولى أكتوبر 2003
د. منصور، ممدوح محمود مصطفى - الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط
مكتبة مدبولي، 1995
موسى، عايدة العزب - العبودية في أفريقيا
مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى 2004
ميسان، تييري - الخديعة المرعبة
شركاسف (باريس والقاهرة) ، 2002 ، ترجمة : **د. داليا محمد السيد الطوخي، د. جيهان حسن عبد الغني**
نجيب، محمد - مصير مصر
دار ديوان ، 1995
نجيب، محمد - كنت رئيسا لمصر
المكتب المصري الحديث ، الطبعة الثامنة 2003
نيفينز، آلان - كوماجر، هنري ستيل - موجز تاريخ الولايات المتحدة
الدار الدولية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 1990 ، ترجمة : **محمد بدر الدين خليل**
هيكل، محمد حسنين - ملفات السويس
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1986
هيكل، محمد حسنين - سنوات الغليان
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1988
هيكل، محمد حسنين - الانفجار
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1990
هيكل، محمد حسنين - أكتوبر 73 .. السلاح والسياسة
مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1993
هيكل، محمد حسنين - المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل : الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية (الكتاب الأول)
دار الشروق ، 1996
هيكل، محمد حسنين - المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل : الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية (الكتاب الثاني)
دار الشروق ، 1996
هيكل، محمد حسنين - المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل : سلام الأوهام أوسلو – ما قبلها وما بعدها (الكتاب الثالث)
دار الشروق ، 1996
هيكل، محمد حسنين - مجلة وجهات نظر ، العدد رقم 50
هيكل، محمد حسنين - الزمن الأمريكي : من نيويورك إلى كابول
المصرية للنشر العربي والدولي ، 2002

هيكل، محمد حسنين - الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق
دار الشروق، الطبعة الأولى 2003
هيمنجواي، إرنست - حياته وجيله المفقود
دار المستقبل ، 1983
ووداورد، بوب - الهدف .. الشرق الأوسط !
سينا للنشر، الطبعة الأولى 1990 ، ترجمة : **سامي الرزاز**
وودوارد، بوب - حرب بوش
مدبولي الصغير، 2003 ، عرض وتحليل : **حسين عبد الواحد**
ويليامز، جيسيكا - 50 حقيقة ينبغي أن تغير العالم
الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى 2005 ، ترجمة: مركز التعريب والبرمجة
School of Americas
مجلة الوطن، العدد 4 ، 7 أكتوبر 2001

المراجع الأجنبية

Bernstein, Dennis & **Sydell, Laura** – Friendly Dictators

Eclipse Enterprises, 1995

Bleifuss, Joel – Dictatorship or Democracy

In these Times magazine, May 27,2002

Blum, William - Killing Hope

Common Courage Press, 1995

Broderick, Bridget – Venezuela: Coup and Countercoup

International Socialist Review, May-June 2002

Caspian Sea Region, The Checkerboard of Oil & Minefields

University of Michigan-Dearborn, Summer 1998

Constable, Pamela – Honduran Immigrants Wage Hunger Strike

Washington Post, April 24, 1998

Cummings, Richard - A Diamond is forever: Mandela Triumphs, Buthelezi and de Klerk Survive, and ANC on the US Payroll

International Journal of Intelligence and Counterintelligence, Summer 1995

Das neue groβe farbige Lexikon

Bassermann, 1991

De Witte, Ludo - The Assassination of Lumumba

Verso books, june 2001

DiBacco, Thomas V. & others - History of The United States

Houghton Mifflin Company, 1991

Disarming Libya: Weapons of Mass destruction

CRS Report for Congress, April 2004

Doring, Richard und anderen **-** Südostasien Handbuch

Stefan Loose Verlag,11. Auflage,1997

Dudley, Steven - Will **Chavez** go the way of **Allende**?

The Progressive magazine, April 2002

Galeano, Eduardo - Open Veins of Latin America: Five Centuries of the Pillage of a continent

Monthly Review Press, 25th Anniversary edition, May 1998, translated by: **Cedric Belfradge**

Gibb, Tom – The killing of Archbishop Oscar Romero was one of the most notorious crimes of the cold war.

Was the CIA to blame?

The Guardian, March 23, 2000

Gwartney, James D. & others - Economics: Private and Public Choice

Thomson South-Western, Tenth Edition,2003

Haugaard, Lisa, Textbook Repression: US Training Manuals Declassified

Covert Action Quarterly Magazine, September 1997

Hersh, Seymour M. - The Price of Power

Summit Books, 1983

Kant, Immanuel - Idee zu einer allgemeinen Geschichte in weltbürgerlicher Absicht

"Berlinische Monatsschrift", November 1784

Kornbluh, Peter - Accountability on Chile

The Nation magazine, December 11, 2000

Lewis, Tom - Brazil:The struggle against Neoliberalism

International Socialist Review, June/July 2001

Moore, Michael , Stupid White Men

Penguin Books, 2002

Moore, Michael - Dude, Where's My Country

Penguin Books, 2003

Niebling, Ursula – Kriege in Zentralamerika seit 1945. Ein Beitrag zur vergleichenden Kriegsursachen und kulturforschung

LIT Verlag Dr. Wilhelm Hopf, 1995

Podur, Justin – The coup in Venezuela: An Interview with Temir Porras

Z magazine, May 2002

Roberts, David – US intervention in Cambodia from Bombs to Ballots

Covert Action Quarterly, Fall 1997

Schuler, Corinna – It just takes one man

The National Post, January 3 , 2001

Stannard, David - American Holocaust

Oxford University Press, 1992

Still a School of Assassins

School of the Americas Watch Update, March 2001

Stockwell, John - In Search for Enemies

W.W.Norton, 1978

Strelocke, Hans - Ägypten und Sinai: Geschichte, Kunst und Kultur im Niltal: Vom Reich der Pharaonen bis zur Gegenwart

DuMont Buchverlag, Köln, 1976

The school of the Americas is now the Western Hemisphere Institute for Security Cooperation

School of the Americas Watch Update, Winter 2001

Twain, Mark – The Mysterious Stranger

Prometheus Books, 1995

U.S. Crude Oil, Natural Gas, and Natural Gas Liquids Reserves, Annual Report 2001

Energy Information Administration

Vidal,Gore - **Shahak, Israel** - Jewish History, Jewish Religion, the weight of three thousand years

Pluto Press, 1994

Wright, George – Mobutu was "Chaos": The downfall of a US third world client

Z magazine, June 1997

مراجع عبر الإنترنت

A short history of Cambodia

http://www.cambodia-image.com/History-3.html

American Genocide of the Cambodian People, 1969-1973

http://american-genocide.netfirms.com/html/americanstateterrorism/

American Genocide of the Laotian People, 1965-1973

http://american-genocide.netfirms.com/html/americanstateterrorism/

BBC NEWS, Attempted coup in Fiji, May 2000

http://news.bbc.co.uk/2/hi/asia-pacific/754653.stm, May 2000

BBC NEWS, Diego Garcia: remembering paradise lost, January 10, 2001

http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/835963.stm

BBC NEWS, September 2003

http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/2828985.stm

Brief History of Brazil

http://www.brazilbrazil.com/historia.html

Collier, Ellen C. – Instances of Use of United States Forces Abroad, 1798-1993

http://www.history.navy.mil/wars/foabroad.htm

Encyclopedia of the Orient, Iraq history

http://i-cias.com/e.o/iraq_5.htm

Energy Information Administration, World Oil Market and Oil Price Chronologies:1970 - 2004

http://www.eia.doe.gov/emeu/cabs/AOMC/Overview.html

Haugaard, Lisa - Torture 101, in the US School of the Americas

http://www.thirdworldtraveler.com/Terrorism/torture101_SOA.html

Huck, Jim - Unleashing the CIA across the Globe

http://www.angelfire.com/ca3/jphuck/

Huck, Jim - Silent Repression: The CIA's Covert Operations

http://www.angelfire.com/ca3/jphuck/

Kettle, Black - Cheyenne Chief at the Sand Creek massacre

http://www.lastoftheindependents.com/BlackKettle.html

Parry, Robert – Lost History: Death, Lies and Bodywashing

the USA's secret war in El Salvador 1981-1992

http://www.consortiumnews.com/archive/lost1.html

Rory Ewins - Colour, Class and Custom: The Literature of the 1987 Fiji Coup
2nd ed., 1998, http://speedysnail.com/pacific/fiji_coup/

Sibeko, David M. - The Sharpeville Massacre
http://www.anc.org.za/ancdocs/history/misc/sharplle.html

South Africa
http://www.nti.org/e_research/profiles/SAfrica/Nuclear/

The encyclopedia of world history
http://www.bartleby.com/67/2315.html

The Gold Rush and Alaska
http://www.alaskascenes.com/alaskagold.html

The History of Apartheid in South Africa
http://www-cs-students.stanford.edu/~cale/cs201/apartheid.hist.html

The New York Review of Books: Is Puerto Rico a Colony?
www.nybooks.com/articles/16198, April 2003

Uncle Sam
http://web.mit.edu/invent/iow/unclesam.html

US-UK-Diego Garcia (1770-2004)
http://www.cooperativeresearch.org/timeline.jsp?timeline=diego_garcia

What is the SOA?
http://www.soaw.org/new/type.php?type=8

Wikipedia, the free encyclopedia, history of Diego Garcia
http://en.wikipedia.org/wiki/Diego_Garcia

Wikipedia, the free encyclopedia, history of Indonesia
http://en.wikipedia.org/wiki/History of Indonesia

Wikipedia, the free encyclopedia, History of Libya
http://en.wikipedia.org/wiki/history of libya

Willson, Brian - Assimilation or Elimination :Pax Americana--Buy In or Check Out
http://www.brianwillson.com/awolassim.html, 1999

Willson, Brian – who is going to stop us?
http://www.brianwillson.com/awolwho.html, 1999

Willson, Brian – US Lawlessness with Impunity
http://www.brianwillson.com/awolassim.html, 1999

الفهرس

إهداء 3
إلى ولدي 4
كلمة 7
مقدمة 8
(1) **الهنود الحمر** : الإبادة النبيلة ! 12
(2) **السود** : الاستحمار 26
وبدأ الأصلع مطاردة الصقور 39
(3) **المكسيك** : إنه النصيب 41
(4) **كوبا** : رغم أنف التاريخ 43
(5) **الفليبين** : الاستيلاء السريع 49
(6) **جوام** : كوميديا الحرب 51
(7) **بورتوريكو** : الرقص على السلالم 52
(8) **جواتيمالا** : أول قطفة ! 55
(9) **بنما** : دولة بالطلب 59
(10) **نيكاراجوا** : قاتلو الحرية 62
(11) **الدومينيكان** : شبح كوبا 66
(12) **شيلي** : ديمقراطية ثقيلة الظل 70
(13) **جيفارا** : كراهية متبادلة 72
(14) **هاييتي** : سرقة بالإكراه 75
(15) **بوليفيا** : جنرالات ومخدرات 80
(16) **السلفادور** : تدخل إنساني جدا ! 84
(17) **هندوراس** : جزاء الإحسان 90
(18) **جرينادا** : الفيل والنملة ! 93
(19) **مدرسة الاغتيالات** : فن تدريس الجريمة 95
(20) **البرازيل** : غزو من نوع آخر 98
(21) **فنزويلا** : محاولة فاشلة 104
الاستفزاز يعبر بنا المحيط 107
(22) **ألمانيا** : كلاكيت تاني مرة 109
(23) **اليابان** : الركوع 113
(24) **أوروبا** : خنق الشيوعية 117
(25) **روسيا** : حرب باردة جدا ! 125
(26) **الصين** : الوقاحة السياسية 143
(27) **كوريا** : الحرب للحرب 150
(28) **جزر المحيط الهادي** : فداء للعلم 153
(29) **فيتنام** : الهزيمة 154
(30) **لاوس** : تكنولوجيا القصف 159
(31) **كمبوديا** : أصدقاؤنا الشيوعيون ! 164
(32) **إندونيسيا** : سوهارتو آه .. سوكارنو لا ! 174
(33) **فيجي** : هؤلاء المسالمون الأشرار ! 183
(34) **دييجو جارسيا** : عبقرية المكان 186
أفريقيا : تناوبوا على اغتصابها 190
(35) **جنوب أفريقيا** : عنصرية وأشياء أخرى 191
(36) **سيشل** : مباراة في الرجبي ! 202
(37) **الكونجو** : صراع في الأدغال 204

(38) **الصومال** : غزوة ونزوة 217
(39) **رواندا** : الضحية 230
(40) **غانا** : كالمعتاد **!** 236
أفريقيا **؟** .. ليس بعد **!** 240
الشرق الأوسط : ظاهر الأرض وباطنها 243
(41) **السعودية** : علاقة بتروسياسية **!** 252
(42) **فلسطين** : الجريمة 272
(43) **مصر** : الحياد .. سلبا وإيجابا 282
(44) **السودان** : أكثر من هدف 315
(45) **ليبيا** : هنا المستقبل 319
(46) **لبنان** : تدخل أمريكاني 329
(47) **إيران** : الأعدقاء **!** 340
(48) **أسلحة الدمار الشامل العادل !** 354
(49) **11 سبتمبر** : الله أعلم **!** 363
(50) **العراق** : الماريونيت 385
الويلات التي اتحدت 405
ماذا نفعل **؟؟** 407
كلمة أخيرة عنها 409
و... كلمة أولى عنا 423
المصادر 436
تعريف بالكاتب 450

تعريف بالكاتب

ولدت أنا المؤلف في 16 يناير 1977، لتقوم المظاهرات في اليوم التالي في أنحاء البلاد ، لا اعتراضا على قدومي إلى الدنيا ولكن اعتراضا على رفع الأسعار ، وهو ما أسفر عن حظر التجول ..

وفي الأسبوع الأول من أكتوبر 1981 دخلت المدرسة ، وتزامن دخولي مع خروج الرئيس الراحل أنور السادات من الدنيا .. وانتقلت للمدرسة الألمانية في منتصف عام 1986 بعد أسابيع من أحداث تمرد قوات الأمن المركزي والتي أسفرت عن حظر التجول كذلك ..

التحقت بالقسم الألماني بكلية الآداب جامعة القاهرة في عام 1994 وتخرجت في عام 1998 .. ثم قمت بتحول كامل فيما أدرسه وأمتهنه بحصولي على ماجستير إدارة الأعمال قسم تمويل في نهاية سبتمبر 2001 .. وقمت بمناقشة رسالة الماجستير قبل ساعة واحدة من "كتب كتابي" ..

تزوجت وسافرت في إجازة شهر العسل إلى جنوب شرق أسيا ، لأصل هناك في نفس يوم بدء الحرب الأمريكية على أفغانستان في 7 أكتوبر 2001 ..

بدأت تأليف الكتاب في يوليو 2002 ..

رزقت بطفلي الأول أحمد في مطلع عام 2003 أثناء استعداد العالم لاستقبال الحرب الأمريكية على العراق .. ورزقت بابنتي مها في مطلع عام 2006 ، ولم يكن العالم يستعد لشئ ..

لكنه تميز بأنه العام الذي بدأ فيه الصراع المسلح بين أفراد الشعب الفلسطيني ، وتجدد الصراع الطائفي بين أفراد الشعب اللبناني ، وعودة الحرب الأهلية بين أفراد الشعب الصومالي ، وتصاعد حدة القتال الدموي بين أفراد الشعب العراقي ، وتردي الأوضاع في دارفور بين أفراد الشعب السوداني ..

أنهيت كتابي في يونيو 2006 استعدادا لكتاب آخر عن أعظم صور المجد العربي في أزهى عصور صراعه مع أعدى أعدائه .. مع نفسه ..

المزيد من الكتب زورونا على هذا المنتدى

montadaali.ahlamontada.com

مع تحيات فريق

علي مولا